يوسف ساسون

مكتبة بغداد

بعث صدام

رؤية من داخل نظام استبدادي

ترجمة:

رفعت السيد علي

منشورات الجمل

يوسف ساسون:

بعث صدام

رؤية من داخل نظام استبدادي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يوسف ساسون

بعث صدام
رؤية من داخل نظام استبدادي

ترجمة:
رفعت السيد علي

منشورات الجمل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يوسف ساسون أستاذ مشارك في مركز الدراسات العربية المعاصرة بجامعة جورج تاون، وزميل جامعة سانت أنتوني، بأكسفورد. وقد ألف العديد من الكتب، منها: **السياسة الاقتصادية بالعراق في الفترة من ١٩٣٢ ـ ١٩٥٠** (صدر عام ١٩٨٧)، **اللاجئون العراقيون: الأزمة الجديدة بالشرق الأوسط**، (٢٠٠٩).

يوسف ساسون: بعث صدام، رؤية من داخل نظام استبدادي

ترجمة: رفعت السيد علي

Joseph Sassoon: Saddam Hussein's Ba'th Party, Inside an Authoritarian Regime

© Joseph Sassoon 2012

الطبعة الأولى ٢٠١٥

كافة حقوق النشر والترجمة والاقتباس

محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد ـ بيروت ٢٠١٥

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ـ ٠١ ـ ٣٥٣٣٠٤

ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

© *Al-Kamel Verlag 2015*

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

إلى هيلين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اعتراف بالفضل

نبتت فكرة هذا الكتاب من خلال مناقشة مع دينا خوري. وبمجرد أن بدأت المهمة الكبرى بالعمل على أطنان الوثائق، خضنا معا نقاشات لا تعد ولا تحصى حول فض مغالق بعض ما غمض منها ووضع كل مضمون في سياق الفترة والمرحلة الزمنية الصحيحة والملائمة لمضمونها. لتلك الأسباب وللصداقة الرائعة التي تجمعنا، أدين لها بالامتنان. وأود أيضاً أن أشكر السيد حسن منيمنة، مدير مؤسسة ذاكرة العراق، ومن المحتمل أنه يعرف أكثر من أي فرد آخر عن تلك الوثائق وكان متعاوناً معي إلى أقصى مدى.

كثير من الأفراد لم يضنوا على بالنصائح القيمة والمفيدة وقرأوا بعض الفصول وعلقوا عليها، وعلى وجه التخصيص روجر أوين، وإيوجين روجان، وبيتر سلوجليت. وأنا ممتن لهم عميق الامتنان لمعاونتهم لي على الرغم من ضيق وقتهم ومشاغلهم الجمة. كما قادني ووجهني تيموثي جارتون عبر متاهات الأفكار عن الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشيوعية. كما قرأ كيفن وودز فصلا وأعانني على شق طريقي عبر دهاليز سجلات جامعة الدفاع الوطني، كما كان دافيد بالكي وجوزيف سيمونز في جامعة الدفاع الوطني من الفرق المعاونة التي يحلم بها أي باحث، وأقدم شكري لهم جميعاً.

أود أيضاً أن أعترف بفضل هيئة تدريس معهد هوفر الذين قاموا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بعمل مضنٍ لجعل قاعات السجلات متاحة للباحثين على الرغم من كل الصعوبات التي تواجههم. أنا ممتنٌّ أيضاً لريتشارد سوسا مدير المكتبة والسجلات؛ وحيدر هادي؛ وأحمد ضياء لمعاونتهم الصادقة، كما أقدِّر تشجيع كنعان مكية، مؤسس مؤسسة ذاكرة العراق.

وفي جامعة جورج تاون قدم لي زملائي في مركز الدراسات العربية المعاصرة النصائح الثمينة والدعم المعنوي وبصبر قاموا بتصنيف تيار متدفق من القصص والحكايات عن النظام العراقي وصدام حسين. وأود على وجه التخصيص أن أشكر روتشيل دافيز لنصائحها وصداقتها الودودة. كما كان كل من سامر شحاتة من مركز الدراسات العربية المعاصرة، وبروس هوفمان من مركز دراسات السلام والأمن، وإليوت كوللا من قسم الدراسات العربية والإسلامية، من مصادر التشجيع والتحفيز.

وفي الشهور الستة الأخيرة من وضع هذا الكتاب، خلال العام الدراسي ٢٠١٠ ـ ٢٠١١، كنت حسن الحظ جداً لوجودي في المركز الدولي لوودرو ويلسون للباحثين في واشنطن العاصمة، وهو الملاذ الحقيقي للباحثين. وأود أن أعبر عن امتناني للمركز لإتاحة تلك الفرصة الرائعة لي، والشكر واجب لروبرت ليتواك وهاله افنديارى. كذلك الخدمة المثالية في مكتبة المركز تحت إدارة جانيت سبايكس كانت من المصادر التي لا تقدر بثمن، كما حفزني كثير من باحثي المركز على تخصصاتهم المختلفة عن طريق تبادل الأفكار والحوارات، والذين أدين لهم أيضاً بالفضل. واستفدت أيضاً عظيم الاستفادة من صاقة مارتن ديمتروف وذكائه الحاد، والذي قادني إلى مشروع جديد عن عقد مقارنة بين نظام البعث ونظام بلغاريا تحت الحكم الشيوعي.

وأدين بدين خاص لكثير من العراقيين الذين أجريت لقاءات بهم، فقد كانوا كرماء بالسماح لي بكثير من وقتهم، وصبورين في شرح

تفاصيا الأعمال الداخلية التي كانوا يقومون بها في النظام، ورغبتهم في المشاركة بقصصهم الشخصية، وأدين لهم جميعاً بدين خاص من الامتنان. وعلى وجه التخصيص، أشكر العميد رعد الحمداني وأسرته لاستضافتهم الكريمة لي؛ وأصبحوا أصدقائي وأنا أضع هذا الكتاب.

وساعدني آخرون بطرق مختلفة، وأعرب عن شعوري بالفضل لدينا حسين وآن لور مالوازات لمعاونتهم لي في البحث الخاص بالمصادر الثانوية. وتستحق فيرجينيا مايرز شكرا خاصاً لمهارتها في تحرير المخطوطة. كذلك محرر العمل الخاص بي في مطابع جامعة كامبردج، وماريجولد أكلاند، التي رافقت هذا العمل من بداياته الأولى وقدمت نصائح غالية، وممتن أيضاً لجوي ميزان، مساعد كبير المحررين لخداتها المتميزة ورعايتها للعمل. كما قامت لورا ويلموت في طباعة المخطوطة رغم ازدحام جدولها بالعمل.

كان الأصدقاء والأسرة مصدراً دائماً للتشجيع والدعم. وكان صديق العمر تيري سوميخ دائم الاستعداد لمناقشة مشروع العمل. ودأبت أمي على أن تكون مصدراً لإلهامي بحبها ورعايتها. كما أن العيش في واشنطن العاصمة أضاف ميزة إضافية بكوني قريباً من ابنتي راشيل، التي شهدت هذا المشروع من بدايته والتي عنى تشجيعها الكثير لي.

وأخيراً وليس آخراً، أود أن أشكر هيلين جاكسون لحبها وصبرها ورغبتها في منحي ساعات لا نهائية من المعاونة، خاصة فيما يختص بالجداول، والهوامش والمراجع، والسير الذاتية، حين كان الكتاب ما زال مخطوطة في مراحله النهائية. وفي الحقيقة لا توجد من الكلمات ما يمكنها أن تفي بالتعبير عن امتناني لها، وهذا الكتاب مهدى إليها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مقدمة

هذا الكتاب يعد محاولة لفهم كيفية العمل الداخلي لدولة عربية معاصرة من خلال السجلات المفصلة أكثر من كونه مستمدا من مقالات الجرائد والمصادر الثانوية الأخرى. لأول مرة نجد أن بإمكاننا أن ننقب وندلف إلى قلب وأحشاء حزب أوحد حاكم لدولة عربية وقعت في قبضة أيديولوجية سلطوية. ولا يعد هذا الكتاب تاريخا لحزب البعث ولا للعراق أيضاً، ولكنه دراسة لأنشطة الحزب وحالة إدارته المزاجية حين حكم البلاد في الفترة الممتدة ما بين ١٩٦٨ حتى ٢٠٠٣.

ويعتمد البحث بصفة مبدئية وأساسية على السجلات الحكومية الهائلة والتي استولت عليها الولايات المتحدة الأمريكية بعد سقوط صدام حسين في شهر أبريل عام ٢٠٠٣. تلك السجلات عبارة عن سجلات حزب البعث، وأجهزة المخابرات ـ وعلى وجه التخصيص جهاز الأمن الخاص (ج.أ.خ) ـ والديوان الرئاسي، ووزارة الإعلام، وكذلك شرائط التسجيلات الصوتية لاجتماعات مجلس قيادة الثورة، والموجودة حاليا بمركز أبحاث سجلات الصراع بالولايات المتحدة، والتي قدمت رؤية داخلية لا توازيها أي وسيلة أخرى لقلب أيديولوجية وبنية نظام صدام حسين. وفي حين تظهر الوثائق القرارات التي اتخذت، تظهر التسجيلات الصوتيةعفوية وتلقائية المناقشات الخاصة بين قادة البلاد.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أغلب تلك الوثائق تظهر للعلن لأول مرة[1]. وبعضها مستمد من ٢,٤ مليون صفحة من سجلات شمال العراق، والتي نشرت جزئيا. وقد شحنت أطنان من الصفحات إلى الولايات المتحدة في شهري مايو عام ١٩٩٢ وأغسطس عام ١٩٩٣، على شحنتين مكونتين من ثمانية عشر طنا من الوثائق العراقية الرسمية والتي استولت عليها مجموعات كردية خلال انتفاضتهم ضد النظام عام ١٩٩١.

والمادة الجديدة التي تعد مصدراً لهذا الكتاب مكونة من ٦ مليون صفحة من الوثائق من مجموعة وثائق القيادة القطرية لحزب البعث والتي نقلت إلى واشنطن من قبل مؤسسة الذاكرة العراقية تحت إشراف الباحث العراقي كنعان مكية المقيم بالولايات المتحدة. حوالي الثلث من مجموعتي الوثائق مدون بخط اليد؛ فلم تكن الطباعة بالآلة الكاتبة متاحة على نطق واسعة أو لأنها كانت تعتبر «سلاحا خطيرا» لو وقعت في يد الأعداء. تم إعداد كل الوثائق وتسجيلها رقميا وتخزينها في معهد هوفر، في جامعة ستانفورد، أو، كما في حالة كثير من وثائق ملفات أرشيف سجلات شمال العراق المتعلقة بالشرطة السرية العراقية، خزنت في جامعة كلورادو في بولدر. أما الشرائط الصوتية المسجلة فقد خزنت في جامعة الدفاع الوطني في واشنطن العاصمة، وهي تعد بالفعل كنزا نادرا، وتقدم صورة واضحة عن كيفية إدارة صدام حسين ومجلس قيادة الثورة لشؤون العراق.

---

(١) مركز ذاكرة العراق، عرض لتكوينه عام ٢٠٠٨ (واشنطن العاصمة، ٢٠٠٨). كان هناك جدل واسع حول حق ملكية هذه الوثائق. وما أفهمه وأتفهمه أنها كانت في حيازة معهد هوفر، ولكن من المتوافق عليه أن مالكها الشرعي هو الحكومة العراقية. أما الأصول (والتي لم أرها أبداً، لأن كل الباحثين يطلعون فقط على نسخ اليكترونية من الأصول) سوف تعاد إلى بغداد بعد وجود نظام حكم مستقر.

ومنذ أن نشر حنا بطاطو عمله عن «السلطة المطلقة» عن العراق[١]، فإن أغلب معلوماتنا عن العراق كانت مستمدة من مصادر ثانوية. وتناولت كتب كثيرة جوانبا مختلفة من التاريخ العراقي، وبعض من الكتب الممتازة مثل تلك الكتب التي وضعها كل من تشارلز تريب، وفيب مار، وبيتر سلوجليت، زودتنا برؤية واسعة عن تاريخ العراق[٢]. ومن بين الكتب الهامة ذات القيمة المامیزة لهذه الدراسة التي بين أيدينا، ذلك العمل الذي يعد علامة متميزة الذي كتبه كنعان مكية، «جمهورية الخوف»، الذي عرى قمع حزب البعث لمعارضيه وللشعب العراقي[٣]. لقد ركز الكتاب على أي حال بشكل رئيس على الخوف والعنف ولكنه تجاهل على وجه التقريب نظام المكافآت السخي والذي مكَّنَ حزب بعث صدام حسين من البقاء في السلطة لذلك الزمن الطويل. وبالمثل، لم يتناول أوجها هامة، مثل مقاومة النظام. وأضافت أعمال أخرى معلومات لنا عن عناصر معينة هامة في تاريخ تلك المرحلة مثل العشائرية وتعرية السياسة العراقية تحت حكم حزب البعث. كثير من تلك الأعمال بالغ في تصوير الصدع السني الشيعي، على الرغم من أن

---

(١) حنا بطاطو: «الطبقات الاجتماعية القديمة والحركات الثورية في العراق»، دراسة عن طبقات العراق مالكة الأراضي والتجارية وشيوعيي العراق، والبعثيين، والضباط الأحرار(برينستون، نيوجيرسي: مطبوعات جامعة برينستون، ١٩٨٧).

(٢) تشارليز تريب، «تاريخ العراق»، طبعة بغلاف ورقي (مطبوعات جامعة كمبردج، ٢٠٠٠). فيب مار: «التاريخ الحديث للعراق»، الطبعة الثانية (بولدر: مطبوعات ويست فيو، ٢٠٠٤)؛ بيتر سلوجليت: «بريطانيا في العراق: ابتداع ملك ودولة ١٩١٤ ـ ١٩٣٢»، طبعة ورقية (نيو يورك، مطبوعات جامعة كولومبيا، ٢٠٠٧)؛ ماريون فاروق سلوجليت وبيتر سلوجليت: «العراق منذ ١٩٥٨: من الثورة حتى» (لندن كي بي آي ١٩٨٧).

(٣) كنعان مكية: «جمهورية الخوف: سياسات العراق المعاصرة»، طبعة ورقية (بيركلي: مطبوعات جامعة كاليفورنيا، ١٩٩٨). وفي الحقيقة كان الكتاب قد نشر قبل ذلك تحت اسم كاتب مستعار هو سمير الخليل.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الوثائق تشير بوضوح إلى أن صدام جسين كان أقرب لأن يكون «عادلا ومنصفا ونزيها» في تناوله لمشكلة أي أحد ممن يعد غير مُوالٍ، أو حتى مشكوك في عدم ولائهم للحزب، كما دلت الوثائق على أن كثيراً من الشيعة كانوا جزءاً من النظام حتى سقوطه[1] النهائي.

وبينما نجد أن ما كانت تنشره الصحف، وخطب صدام حسين، والخطاب الحزبي للبعث يعد في مجمله هاما جداً لفهم وتحليل تلك الفترة، إلا أن الوثائق في مناسبات كثيرة، تشير بوضوح إلى أن السياسات المعلنة والخطب السياسية لصدام كان لها أبعاد أخرى غير تلك التي كانت تظهر فيما تنشره الصحف وما يقوله صدام في خطبه وما يعلنه الحزب في خطابه الرسمي المعلن. وأحد الأمثلة على ذلك سياسة تناول ومعالجة السلطة لمسألة الدين في عقد التسعينيات: فالنظام أطلق حملة إيمانية عامة وعلنية ولكنه في الوقت ذاته، وفي خلفية المشهد، استمر في تطبيق سياسته المناوئة للدين وقمع أي علامة أو إشارة تدل على ارتباط بالدين. وتتيح لنا الوثائق فهما دقيقا لتلك المرحلة وكيف لعب الحزب دوراً أساسياً في كل أوجه ومناحي الحياة في العراق.

وتصور تلك السجلات الرائعة بتفاصيل دقيقة كيف كانت تعمل مختلف أذرع الدولة، وكيف كانت أجهزة المخابرات تجمع المعلومات، وتوظف المبلغين والوشاة والمخبرين، وكيف كانت تنفذ سياسات المراقبة والرقابة على كل المجتمع العراقي بأسره. كانت التقارير تصنف في ملفات على كل مستويات سلطة الحزب وكانت

---

(١) ارجع على سبيل المثال لـ «أمتازيا بارام»: «الثقافة والتاريخ والأيديولوجية في تكوين البعث العراقي، ١٩٦٨ ـ ١٩٨٩» (نيو يورك، مطبوعات سانت مارتن، ١٩٩١)، صفحة ١٥. ناقشت بارام «قرب اختفاء الشياعة من الصفوف الأولى في القيادة، ومن الصفوف الدنيا أيضاً» بحلول نهاية الثمانينيات.

تبادلية التصنيف والمراجعة. من تلك السجلات والمذكرات التي لا تعد ولا تحصى يمكننا أن نكون صورة ذهنية فريدة عن صدام حسين ونظامه. وقد نشرت منظمة مراقبة حقوق الإنسان منتقيات من التقارير على صفحاتها الإلكترونية وقدمت صورة لـ «بيروقراطية القمع» التي تظهر من خلال تلك المستندات. وينطبق الوصف ذاته على أغلب الوثائق:

لغة الوثائق مخدرة وجافة، واسلوب البيانات شديد الرسمية.... وبكونها مكتوبة هكذا، تكشف عن التعب والنصب اليومي الذي يعانيه موظفو الخدمة المدنية بتمسكهم بتقاليد ومعايير الأساليب البيروقراطية. وتعبر البيروقراطية العراقية المتسيدة عن نفسها من خلال الآليات البسيطة للإحالات، فالوثائق مرتبطة ببعضها من خلال شبكة واسعة ومعقدة إداريا. والأوامر الرسمية تصدر من أعلى وترشح لأسفل هرم السلطة حتى الصفوف القاعدية....بنمط معين، فإن التبادلية الدقيقة ومرجعية الوثائق التي تميز الوثائق العراقية تعكس ببساطة مدى تعقد الحياة اليومية في دولة عصرية حديثة[1].

وعلى الرغم من أن النظام التزم بتأكيد قوي على الإلتزام بالتصنيف في ملفات، إلا أنه ليس لدينا كثير من المعلومات عن نوع التصنيف الملفاتي الذي استخدموه. كل ما نعرفه أنهم ظلوا ملتزمين بنظام الملفات بلا انقطاع خلال حرب الخليج الأولى، بل وحتى قبل أسبوعين من بعد بداية غزو القوات متعددة الجنسيات للعراق في عام ٢٠٠٣[2]. خلق النظام مصطلحاته اللغوية الحاصة به وتوسع بها ونشرها على مدى

---

(١) متابعة حقوق الإنسان (هيومان رايتس ووتش)، بيروقراطية القمع. الحكومة العراقية من تصريحاتها، ١ فبراير ١٩٩٤

(٢) للاطلاع على دراسة شيقة عن نظام حفظ الملفات وأهميتها ارجع إلى إيلانا فيلدمان، «حكم غزة: البيروقراطية، والسلطة، وعمل الحكم، ١٩١٧ ـ ١٩٦٧» (دورهام إن سي: مطبوعات جامعة ديوك، ٢٠٠٨)، صفحات ٣١ ـ ٦١.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الزمن. فمثلا، أصبح لفظ «مؤتمن» يدل على المخبر أو الواشي، كما كان تعبير «عروس الثورات» يدل على الانقلاب العسكري في ٨ فيراير عام ١٩٦٣ والذي مكن حزب البعث من الوصول إلى السلطة لأول مرة؛ وكثير من الكنايات اللفظية الأخرى والاستعارات التي تشير إلى المناسبات الاحتفالية الخاصة وإلى تنظيمات معينة، مثل منظمة المناضلين، والتي كانت تنظيما يضم كبار الشخصيات البعثية المتقاعدة.

خلال الخمسة وثلاثين عاماً التي قضاها حزب البعث بالحكم، مر حزب البعث بتغيرات عديدة استجابة لتقلب الأحداث العاصفة التي واجهتها العراق. ففي السبعينات، مرت العراق بمرحلة من الرخاء الاقتصادي النسبي، ووسع الحزب من قاعدته بقوة وركز على ضم أعضاء جدد من كل قطاعات وطوائف الشعب. في شمال العراق، كانت عمليات الحزب ضد التمرد الكردي تتم بالتعاون الوثيق مع المؤسسات الأمنية، وعملت أعداد لا تحصى من فروع الحزب بنشاط على تعريب المنطقة الكردية وعلى تجنيد وضم المبلغين والوشاة.

وهيمنت الحرب الإيرانية ـ العراقية على جل عقد الثمانينيات، وركزت آلة الحزب السياسية على جذب الشباب وإلحاقهم بالقوات المسلحة والميليشيات الشعبية. وكان الحزب يتعامل مع الفارين من أداء الخدمة العسكرية وأسرى الحرب بقسوة وغلظة خاصة من منتصف الثمانينيات وما تلاها من أعوام، وظل النظام منغمسا عسكرياً بعمق في كردستان. أما عقد التسعينيات، فقد بدأ بالنتائج الكارثية لحرب الخليج الأولى وتلتها الانتفاضة الكردية في الشمال والانتفاضة الشيعية في الجنوب. لم يكن الحزب ولا المؤسسات الأمنية مستعدة لتلك الأحداث وتبعاتها الجسيمة وما ترتب عليها من تداعيات. ورغم ذلك الفشل الاستخباري في توقع رد فعل السكان المدنيين في الشمال والجنوب، لا تشير الوثائق إلى تغير جوهري في دور الحزب أو ما يشير إلى تعرضه

لوهن أوضعف كما ذهب البعض إلى توقع حدوث ذلك. وظلت المشاركة الإيجابية من كل أعضاء أمانة سر الحزب في كل لجنة يتم تشكيلها مستمرة حتى حدوث الغزو في ٢٠٠٣، وتقدم مراسلات الديوان الرئاسي، وجهاز الأمن الخص، والقيادة القطرية لحزب البعث دلائل غزيرة ووفيرة على أن الحزب استمر في المشاركة في تنفيذ كل القرارات الرئاسية. فضلاً عن ذلك، ظل ضم الأعضاء، على الرغم من تراجعه في بعض المناطق، في تزايد مستمر. وفي الحقيقة، نما عددُ المنتسبين للحزب نموًا هائلا من عام ١٩٩١ حتى ٢٠٠٣.

وأصبح صنع القرار مركزيا ومنحصرا في الديوان الرئاسي في عقدي الثمانينيات والتسعينيات، غير أنه في كلا العقدين ظل الحزب مشاركا بقوة في إدارة كل تفاصيل الحياة في البلاد. وخلال عقد التسعينيات كان على الحزب أيضاً أن يقاوم تداعيات العقوبات الدولية القاسية التي فرضت على العراق، كما انشغل بالتحضيرات والإستعدادات الدفاعية قبيل الغزو في ٢٠٠٣. فوق كل ذلك، تصور الوثائق دور حزب البعث الحيوي في جمع المعلومات الاستخبارية. وبعد انتفاضة ١٩٩١ أدرك النظام أن عليه أن يوسع من مدى سيطرته على المدنيين والعسكريين على السواء لتوقع مثل تلك الأحداث والاستعداد المسبق لها، والأهم، سحق أي معارضة في مهدها. وعلى ذلك، تم التوسع في أجهزة الأمن توسعا كبيراً في العقد الأخير للنظام، خاصة جهاز الأمن الخاص وجهاز أمن الحزب المناط به مراقبة الحالة الأمنية. وأخيراً وليس آخراً، كانت قوى الحزب السياسية والإعلامية هي القوة المحركة الكامنة خلف تكريس عبادة شخصية صدام حسين.

وفي مجال وصف أنشطة نظام البعث، فإن هذا الكتاب يعقد مقارنات عديدة مع أنظمة حكم الحزب الواحد التي حكمت دول شرق أوروبا والاتحاد السوفييتي، وبين صدام حسين وقادة آخرون مثل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ستالين. ورغم ذلك، كان علينا إبراز الفروق والاختلافات أيضاً. فقبل كل شيء، على الرغم من أن مصطلحات مثل الاستبداد والطغيان والديكتاتورية تنطبق جميعها على نظام حكم البعث، إلا أن نظام الحكم الشمولي لا ينطبق عليه. لقد اختلف نظام حكم البعث عن نظم الحكم الشمولية في جوانب عديدة، أهم تلك الجوانب تمثل في عدم وجود أي سياسة خاصة بتحويل البلاد واقتصادها إلى إدارة مركزية للمجتمع ـ أي تحويله إلى اقتصاد موجه؛ فضلاً عن ذلك، لم يسع النظام لمحاكاة النظام الستاليني شديد القسوة والصرامة إلى تحويل مجتمع الاتحاد السوفييتي إلى مجتمع صناعي[1].

ثانياً، كانت تجربة العراق فريدة بسبب تاريخها. لقد تورط العراق في حربين كبيرتين: حرب الثمانية أعوام ضد إيران من عام ١٩٨٠ حتى ١٩٨٨، وحرب الخليج الأولى عام ١٩٩١، وقد كان سبب حرب الخليج الأولى غزو العراق للكويت. وترتب على الحرب الأخيرة تعرض العراق لعقوبات اقتصادية دولية دامت على مدى ثلاثة عشر عاماً على وجه التقريب، وحتى عام ١٩٩١، ظل جيش العراق مشتبكاً في مواجهات عسكرية مع الأكراد، ثم من بعدها انغمس في مواجهة انتفاضة شعبية كبرى تلت حرب ١٩٩١. والاختلاف الجوهري الآخر تمثل في أن النظام، وعلى عكس نظام حكم ألمانيا الشرقية أو المجر،

---

(١) لمناقشة هذا، ارجع إلى تعريفات السلطوية والشمولية التي أوردها باتريك أونيل في «أساسيات السياسات المقارنة» (نيو يورك: دبليو دبليو نورتون، ٢٠٠٤)، صفحات ١٢ ـ ١٣. ولمناقشة عن العراق تحديدا، ارجع إلى أشيم رودي: «علاقة الدولة والمجتمع في العراق البعثي: مواجهة الديكتاتورية» (لندن، روتلدج، ٢٠١٠)، صفحات ١٢٤ ـ ١٦؛ حازم صاغيه: «صدام حسين: ما هي الشمولية؟»، طبعة كريس كوتشيرا [الكتاب الأسود عن صدام حسين] (باريس، طبعة ٢٠٠٥)، صفحات ١١٩ ـ ١٣٨، انظر أيضاً القسم من الفصل الثامن عن الاقتصاد.

لم يتمتع بحماية راع من القوى العظمى يمكنه التدخل لسحق المعارضة[1]. وهكذا، كان على النظام أن يعتمد على ذاته في ضمان «منع الانقلاب» العسكري عليه وكان بحاجة إلى توافق وتعاون قطاع كبير من الشعب لتقوية قاعدة سلطته بين الجماهير. وبالفعل، وعلى عكس النظم الشيوعية، لم يقل القمع والعنف مع طول بقاء النظام في الحكم.

وأخيراً، عند عقد مقارنة بين تأسيس عبادة شخصية صدام حسين مع عبادة شخصية ستالين على سبيل المثال، نجد أن ما يعقد المقارنة نجاح ستالين كقائد حرب. لقد قاد ستالين حربا شرسة لإحراز النصر في الحرب العالمية الثانية على الرغم من الخسائر البشرية الفادحة وظهر كشخصية بطولية في نظر جماهير الاتحاد السوفييتي. فيما كان صدام حسين من جانب آخر قد قاد بلاده إلى حرب دموية طويلة وشرسة ضد إيران دون أن يحرز نتائج ملموسة. ثم تلا تلك الحرب بغزوه للكويت، والذي أدى إلى تدمير بلاده بفرض عقوبات اقتصادية شديدة عليها استمرت حتى آخر يوم لنظام حكم البعث. ومع أخذ تلك الفروق بعين الاعتبار، وضعت المقارنات الدولية التي تعقد في اعتبارها كثير من السياسات التي تعرض في هذا الكتاب وتعد تذكيراً بأن صدام حسين وقيادة البعث استنسخت وتبنت كثيراً من التكتيكات من النظم المماثلة والمشابهة في الشرق الأوسط ونظم أخرى خارجه.

تفرد نظام البعث على أي حال، كان في أنه على الرغم من المسار

---

(١) في مقارنة شيقة في تورط الاتحاد السوفييتي في تعيين ستاسي والتعامل مع انتفاضة عام ١٩٥٣ بألمانيا الشرقية، إرجع لـ «جاري بروس» مقدمة لمراقبة ممتدة على أنحاء العالم في ألمانيا الشرقية عمليات ستاسي وإدراك التهديدات، ١٩٤٥ ـ ١٩٥٣، «صحيفة دراسات الحرب الباردة»، الجزء الخامس، رقم ٢ (ربيع ٢٠٠٣)، صفحات ٣ ـ ٣١.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الوعر الذي اتبعه على مدى خمسة وثلاثين عاماً، عمل على البقاء والتغلب على كل الصعاب التي واجهته. ويكشف هذا الكتاب عن كيفية اختراق حزب البعث بطريقة ممنهجة لكل طبقات المجتمع العراقي وكيفية بنائه لآلة سياسية مدهشة كانت أقوى من أي جماعة أخرى في العراق، والتي دفعت بأعداد كبيرة تحت دائرة نفوذ النظام وهيمنته. وبينما كان يستعمل أقسى آيات العنف والتخويف ضد مواطنيه، خلق النظام نظاماً موازياً فذاً من المنح والعطاء والمكافآت لمؤيديه، كما أدرك أهمية وضرورة نيل التأييد الدولي. كانت المرونة من الاختلافات المميزة الأخرى، فلم يتردد صدام حسين في تغيير سياسة ما حتى لو كان ذلك يعني الانقلاب الكلي على معتقداته وأعماله المعلنة قبل ذلك. وقد فعل ذلك فيما يختص بالعشائرية، وموقف النظام من الدين، وفي حالة ووضع المرأة في المجتمع، وكان ذلك السلوك المرن يمثل قوته وضعفه معا.

غير أن صدام حسين كان مصراً على معتقداته فيما يختص بقوة القهر والإكراه. كما كانت حالات ميوله إلى «خوض سلسة من الحروب المستمرة، لها تأثيرات على دينامية السياسات العراقية، وتنظيم الدولة واقتصادها، وعلى علاقة الدولة بالمجتمع»[1]. وقد دفعه فشله في الالتحاق بالكلية العسكرية حينما كان شابا إلى الإصرار على إثبات أنه يتمتع بعبقرية عسكرية استراتيجية فذة، حتى ولو كان ذلك بثمن فادح من أرواح وحياة كثير من العراقيين. كانت لديه غريزة تتعاطف وتتوافق مع النظرة العالمية الشهيرة التي عبر عنها جورج كليمنصو قائلاً:

---

(١) عصام الخفاجي: «الحرب كوسيلة لصعود وانهيار المجتمعات المسيطر عليها من الدولة: حالة بعث العراق» في طبعة ستيفن هيدمان، الحرب، والمؤسسات، والتغير الاجتماعي فيب الشرق الأوسط (بيركلي: مطبوعات جامعة كاليفورنيا، ٢٠٠٠)، صفحة ٢٥٩.

«سياستي الخارجية وسياستي الداخلية ليستا سوى سياسة واحدة. في سياستي الداخلية أخوض حربا، في سياستي الخارجية، أخوض حرباً أيضاً. فأنا أخوض حروبا على الدوام»[١].

في العراق، كان الحزب أحد ثلاثة أعمدة للحكم، مع الجيش والبيروقراطية، ولكنه كان أهم الأعمدة. كان ذلك يختلف عن معاصره نظام حزب البعث السوري، حيث كان دور الجيش أكثر مركزية بسبب أصل الخلفية العسكرية لقادة الحزب في سوريا. أما في العراق، فقد عمل صدام حسين عامداً على إضعاف قدرة قادة الجيش كأحد الإجراءات التي ارتآها لمنع وقوع انقلاب عسكري، وأصبح الحزب القلب السياسي والمركز الحيوي لإدارة عمليات الهيمنة والقيادة. وبدأت عملية الهيمنة الأيديولوجية على القوات المسلحة على الفور بعد استيلاء الحزب على السلطة في١٧/ ٣٠ يونيو ١٩٦٨، واشتغلت آلة الحزب على الفور على كل صفوف الجيش[٢].

تاريخيا، كانت العراق قد طورت خدمات مدنية كفوءة مارست سياسة إدارة البلاد يوما بيوم، على الرغم من أن الحزب زحف ببطئ ولكن بثبات على تلك البيروقراطية حتى تمكن من تطويعها لخدمة غاياته السياسية. ومما يلفت النظر وجدير بذكره، أن البيروقراطية العراقية ظلت تعمل بكفاءة حتى في عقود الاضطرابات وعدم الاستقرار، وعلى الرغم من سقوط الكوادر الإدارية العليا من كل وزارة تحت هيمنة حزب البعث. في بداية عقد الثمانينيات، أصبح صدام حسين ـ مدعوما بتأسيس

---

(١) كان كليمنصو رئيسا لوزراء فرنسا قبل وخلال الحرب العالمية الأولى. وهذا المقطع من خطاب كان يلقيه في مجلس النواب الفرنسي في ٨ مارس ١٩١٨.

(٢) لمزيد من المعرفة عن التسرب إلى الجيش، ارجع إلى السيرة الذاتية لطه ياسين رمضان والتي كانت جزءاً من ملفه الحزبي، ملفات القيادة القطرية لحزب البعث.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عبادة شخصيته القيادية ـ صانع القرار النهائي في كل الأمور الهامة على وجه التقريب. وعلى الرغم من أن الديوان الرئاسي أصبح مركز معالجة المعلومات والبيانات قبل عملية اتخاذ القرار، ظل الحزب منخرطاً على كل مستوياته الحزبية في قيادة عمليات تنفيذ القرارات الكبرى التي يصدرها صدام حسين ومجلس قيادة الثورة.

غير أن مركزية السلطة وشخصية صدام حسين المهيمنة لا يكفيان وحدهما لتفسير استمرارية النظام لذلك الزمن الطويل. فقد كانت قوة النظام الكامنة تستمد من علاقة التكافل والتعايش القوية التي نمت وتطورت بين القائد والحزب، والتي أبقت على النظام فاعلاً على الرغم من القرارات الكارثية العديدة. كان صدام حسين مخادعا وعنيفا في التعامل مع خصومه في مختلف قطاعات الحزب حينما كان يجمع كل خيوط السلطة في يديه. غير أنه أحس بالحاجة إلى راوٍ مركزيٍّ يمكن له أن يوحد ويهيمن ويسيطر على الجماهير، وإلى جهاز يرسخ عبادة شخصية القائد الزعيم ويرفعه إلى حالة فوق احتمال وإمكانية المساس بها. وهكذا، كان اللوم في حالة حدوث أي فشل يلقى على آخرين، لا على الرئيس أبداً، وحتى في عام ٢٠٠٣، لم تكن هناك أي علامة ولا مؤشر على حدوث تغير جوهري في كفاءة النظام أو نفوذه.

وعلى الرغم من أن صدام حسين كان فطنا وذكيا في تناوله للشؤون الداخلية، إلا أنه كان أقل نجاحا في تفهمه لطبيعة القوى العظمى ودوافعها. كان عدم قدرته على إدراك تبعات عملية غزوه للكويت وما يمكن أن يترتب عليها واعتقاده أن الولايات المتحدة وقوات التحالف الغربي لن تقوم بغزو العراق نموذجين ومثالين واضحين على إساءته تقدير المواقف والعواقب. وفي نمط لا يختلف عن الديكتاتوريات الأخرى المماثلة، كان تقديم المعلومات الاستخبارية وأفكار المجموعة الداخلية المحيطة به قد أصطبغت هي الأخرى بأراء القائد الشخصية

وتماهت معها، فقد كان مقدمو المعلومات والرؤى، يقدمون له ما يود أن يسمعه فقط، أو كانوا يخشون إغضابه أو إثارة حفيظته بما لا يرضيه.

وأثر جهاز القمع الذي نما وتطور في العراق تحت نظام البعث والذي مكّنه من البقاء لذلك الزمن الطويل تأثيراً عميقاً على البلاد. غير أنه من الخطأ افتراض أن الطاعة والتوافق كان يعتمد ويرتكز بصفة أساسية على الخوف وعلى التهديد بالعنف فقط. فلكي يكون القمع مؤثراً، فإنَّ«على قطاع كبير من المجتمع أن يوافق على أنشطة وممارسات النظام»[1].

حقاً، لم يكن المبلغون والوشاة على الدوام مأجورين ويعملون تحت التهديد والإكراه؛ فقد كانوا منجذبين بإغراء المكافآت والتسهيلات التي تقدم لهم. تنافس الشباب بشغف على الحصول على وظائف مغرية في الأجهزة الاستخباراتية التي تتيح لهم سلطة وامتيازات وفوائد كثيرة، وأصبح كثير من الرجال والنساء من جميع أطياف النسيج الاجتماعي/ الاقتصادي جزءاً من النظام البعثي لتلك الأسباب. وآمن آخرون بصدق أن أيديولوجية البعث يمكنها أن تحل كل مشاكل المجتمع العراقي. في العلاقة المتعددة الأبعاد بين القيادة والشعب العراقي، استخدم نظام القمع والمكافأة على التوازي لترسيخ استحواز النظام على السلطة، وألقى ذلك بظلاله العميقة على المجتمع العراقي.

كان نجاح النظام يرجع أيضاً إلى قدرته على اجتذاب أعداد كبيرة من المؤيدين وبث الإحساس فيهم بأنهم جزء من النظام. وفي سياق سياسة الحزب في ضم الأعضاء، والتي كانت العنصر الأكبر في عملية البعثنة،

---

(١) ريتشارد أوفري: الديكتاتوريون: هتلر ألمانيا وستالين روسيا، طبعة ورقية (لندن: بنجوين، ٢٠٠٥)، صفحة ٢٠٨.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سعى الحزب لضم نسبة كبيرة من النساء، والأهم من ذلك، محاولة التغلب على غلبة الشيخوخة بين أعضائه بجذب أجيال أصغر سنا. كانت ضغوط شديدة تمارس على المواطنين للانضمام للحزب، وأصبح بعض المواطنين أعضاءاً بالإكراه وتحت التهديد والتلويح بعواقب وخيمة، غير أن كثيرين أيضاً انضموا طواعية، بسبب الاقتناع أو بدافع من الرغبة في تحقيق مكاسب بالانتماء للبعث الحاكم. وتعج الوثائق بحالات من المواطنين الذين تقدموا بطلبات للانضمام للبعث أو طلبات لإعادة قيد أسمائهم بالحزب. الغالبية العظمى من المنتمين للحزب رغم ذلك، لم يلعبوا أي دور حيوي، بسبب تسلسل السلطة المتصلب، كانت الصفوف العليا فقط من الحزب هي المنغمسة في عمليات تنفيذ السياسات. وحتى لو كان الأمر كذلك، كان النسيج المعقد والمتشابك من الفحص والفحص المضاد من قبل أجهزة متباينة لضمان أن القلة المتميزة صاحبة الامتيازات والحظوة الحزبية لا يمكن لها أن تحوز ما يكفي من سلطة قد تتحول لتهديد النظام. وفوقهم جميعاً، كانت أمانة سر الحزب تراقب حتى الفروع النشطة جدا، والتي كانت بدورها تتحكم في كل أوجه الحياة المدنية والعسكرية في البلاد.

كانت الأولية الكبرى في حزب البعث وفروعه تلقين الأعضاء تلقينا سياسيا. ولم تكن بعثة الجماهير تقل أهمية عن ذلك، مع الاهتمام بوجه خاص بالشباب. ورغم ذلك، أصبحت أيديولوجية حزب البعث في التسعينيات وتأكيدها على التعليم السياسي والثقافي منصبة بالأساس على عملية ترسيخ عبادة شخصية القائد صدام حسين. كان جيل صدام يشبع بفلسفة البعث بكل الوسائل المباشرة وغير المباشرة. وبمرور الوقت، أصبحت الخطوط الفاصلة بين التعليم السياسي والتعليم الثقافي غائمة، مما تسبب في فساد كبير في نوعية التعليم والثقافة في العراق.

ومن المهد للحد، من الصعب أن نجد أي مجال في الدولة والمجتمع لم يلق الحزب بظلاله عليه أو لم يؤثر فيه بشكل ما. فاقتصاديا، كان الحزب مسؤولا عن تخصيص الموارد وإسناد التعاقدات، وهو الدور الذي ازداد بعد فرض العقوبات الاقتصادية على العراق، لأن الحزب كان عليه أن يحرس أيضاً نظام الحصص التموينية للأفراد. واستعمل الحزب تلك السلطات لإدارة كل عمليات التصدير والاستيراد وتأصيل تحكمه الاقتصادي واختراقه السياسي للمجتمع. وباستثناء بعض المحاولات قصيرة الأجل في تطبيق الاشتراكية، نشط القطاع الخاص بل وصل إلى حالة من الانتعاش في تلك الفترة. ولكن، وكجانب من البعثنة، كانت كل النقابات المهنية والاتحادات العمالية خاضعة للحزب، وأصبح دورها الحقيقي أنها تحولت إلى عيون وآذان للنظام في مختلف المهن وتسجيل أي نشاط معادي أو مناوئ لنظام الحكم.

وفي تصوير خلفية المشهد في الفترة التي نخضعها للبحث، على المرء أن يلقي نظرة على أيديولوجية البعث ودوره في خلق نظام مستبد. كان ترتيب الكلمات في شعار الحزب: الوحدة ـ الحرية ـ الاشتراكية ذا مغزى مميز. كان تأكيد الحزب على الوحدة جوهريا بالنسبة للآباء المؤسسين للحزب، ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار. وكان الشعار الرئيس: «أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة» منقوشاً على وثائق الحزب الهامة. ورغم ذلك، أدت الوحدة المتعجلة دون إعداد جيد بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨، إلى استياء كثير من البعثيين في سوريا وخاصة ضباط الجيش من البعثيين ولفظهم لفكرة الوحدة، بسبب الطريقة الاستعلائية التي تعامل بها معهم الضباط المصريون المهيمنون. وأدرك حزب البعث العراقي في وقت مبكر أن الوحدة العربية لا يمكن تحقيقها بالطريقة التي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تخيلها الحزب في بداية عقد الستينيات. ومن ثم، لم تبذل أي جهود أو مساعٍ جادة لتحقيقها، وظلت الوحدة مجرد شعار[١].

فضلاً عن ذلك، شكل الصدع والخلاف مع سوريا بكل تأكيد دافعا لتخلي الحزب عن حماسه لتحقيق الوحدة مفضلا عليها مشاعر الوطنية العراقية[٢].

أما الحرية، فهي أساسية من وجهة نظر هذا الكتاب لفهم تسلط السلطة في العراق. كانت الحرية بمفاهيم حزب البعث تعني ديمقراطية الشعب أكثر من كونها ديمقراطية برلمانية. وكان من النادر أن تناقش مسألة الحرية في ردهات الحزب ودهاليزه، وتعلل صدام حسين بأن أعضاء فروع حزب البعث في أنحاء العراق أحرار في اختيار من يمثلون فروعهم، وأن ذلك في حد ذاته يمثل ديمقراطية وحرية. وبالفعل، كان كل من جناحي حزب البعث السوري والعراقي يركزان أكثر كثيراً على البقاء في السلطة أكثر من السماح بإقامة مجتمع حر. وعمق فشل حزب البعث في العراق في الحفاظ على السلطة حين وصل إليها أول مرة عام ١٩٦٣ من ميله لممارسة عملياتية الحكم والتي أدت بدورها إلى تفريغ أيديولوجية الحرية من محتواها. ركّز جناحا حزب البعث على منطقتيهما الجغرافيتين فقط وخلقا «حكومات مركزية متسلطة وسلطوية ترتكز بثقلها على القوة العسكرية»[٣]. وبالضرورة، كانت أيديولوجية الحزب على

---

(١) ارجع للقاء صحفي لصدام حسين مع جريدة التضامن، لندن، ٦ فبراير ١٩٨٨، ترجم في خدمة الترجمة للإذاعات الأجنبية. واللقاء الذي أجري مع واحد من كاتبي سيرته الذاتية، أجراه فؤاد مطر في ٣٠ يناير ١٩٨٨.

(٢) بارام: الثقافة، التاريخ، والأيديولوجية، صفحات ١٤ ـ ١٦.

(٣) جون ف. ديفلن: حزب البعث، تاريخ من منشأه حتى عام ١٩٦٦ (ستانفورد، كاليفورنيا، معهد هوفر، ١٩٧٦)، صفحة ٢٢٧.

اختلاف وتناقض مع الديمقراطية الغربية بسبب إيمان الحزب بأن الديمقراطية قد أصبحت «مجرد واجهة لإخفاء الطغيان، والتزييف والاستغلال [بواسطة] الطبقات الرجعية»[1].

أما بالنسبة للاشتراكية، فقد «آمن الحزب بالاشتراكية كوسيلة للتحرر الكلي والجذري للمواطن العربي»[2]. أما في الواقع العملي، فباستثناء بعض عمليات التأميم لبعض الصناعات من قبل كلا النظامين في سوريا والعراق، وتوزيع الأراضي الزراعية التي انتزعت من كبار الملاك، كان هناك تعايش مع القطاع الخاص، وسمحت المرونة الأيديولوجية للحزب للقطاع الخاص في العراق أن ينمو في أغلب فترات المرحلة الخاضعة للدراسة. كانت أيديولوجية الحزب مرنة في جوانب أخريأيضاً. في السبعينيات، طالب صدام حسين بإجراء إصلاحات واسعة لتمكين المرأة من التعليم وأن تصبح فاعلة اقتصاديا. ورغم ذلك، وبحلول منتصف الثمانينيات، تقلصت كل تلك الفرص نتيجة للحرب ضد إيران وخوف صدام حسين من الخمينية. وقد عكس صدام حسين أيضاً موقفه من الدين. وبمجرد أن انطلقت الحملة الإيمانية للحزب في جميع أرجاء العراق لتقوية وتنمية التدين، تم تشجيع المرأة على البقاء في البيت وإنجاب الأطفال، لتقليص التفوق الديموجرافي الإيراني من جهة ولتعويض الخسائر البشرية الهائلة التي خسرها العراق في الحرب الإيرانية ـ العراقية من جهة أخرى.

كانت وجهة نظر صدام حسين من الدين معقدة ومركبة، ولكنها لم تكن غامضة، فقد نشأ صدام في بيئة علمانية، وقاد حزبا بأيديولوجية

---

(١) حزب البعث العربي الاشتراكي، بعض المبادئ النظرية: ووفق عليه من المؤتمر الوطني السادس، اكتوبر ١٩٦٣ (بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٤)، صفحة ٤٨.

(٢) المصدر السابق.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

علمانية اشتراكية، وكان دائم التشكك والريبة في رجال الدين. ولم توقف الواجهة الدينية المعلنة القمع المستديم للجماعات الدينية، سواء كانت وهابية أو شيعية.

ومن المثير للسخرية، أن صدام حسين والولايات المتحدة الأمريكية كانا حليفين طبيعيين وذلك بمعاداتهما لذات الأعداء: التعصب الديني وإيران. وقد لاحظت جماعة المسح العراقي أن: «صدام حسين لم يكن يعتبر أن الولايات المتحدة خصما أصيلا، كما كانت إيران وإسرائيل»[1]. وتدل الوثائق التي يرجع تاريخها إلى ما قبل الهجوم الإرهابي على الولايات المتحدة في الحادي عشر من سبتمبر بوضوح على قلق ومخاوف النظام العراقي من الأصولية الإسلامية وتأثيرها المحتمل على عقول الشباب. كانت الوهابية ممنوعة ومحظورة من بداية التسعينيات، وكانت عقوبة الإعدام تطبق على معتنقي ذلك الفكر[2]. وعلى أي حال كان نظام حكم البعث يعرف ويصنف العراقيين لا على أساس عقيدتهم الدينية ولكن على أساس مدى تأييدهم ودعمهم للحزب ـ على عكس ما حدث في العراق بعد الغزو في ٢٠٠٣. لقد كان الأكراد والشيعة والمسيحيون جزءاً من النظام وكانوا مشاركين في عملياته الاستخباراتية وأنشطته على أسس علمانية. غير أن أي نشاط ديني كان يعد خطرا، ووضعت كل المساجد والجوامع تحت المراقبة الدقيقة.

أدت مركزية الولاء لصدام حسين ولحزب البعث بالضرورة إلى الاعتماد بشكل أكبر على الانتماء العشائري والعائلي وعلاقات القرابة.

---

(١) مجموعة المسح العراقي: هدف النظام الاستراتيجي، المجلد الأول، تقرير شامل للمستشار الخاص لمدير المخابرات المركزية، ٣٠ سبتمبر ٢٠٠٤، صفحة ٣١.

(٢) الوهابية من الطوائف الإسلامية تكونت في الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر الميلادي وانتعشت على يد عبد العزيز بن سعود في بدايات القرن العشرين.

فالخدمات الاستخبارية على سبيل المثال جندت أعدادا كبيرة نسبيا من العشائر التي تدين بالولاء الكامل لصدام حسين. وكان ذلك يشكل فارقا جوهريا بين نظام البعث وأي نظام شيوعي، فلم يقم ستالين ولا ماو تسي تونج بوضع أبناء العائلات الكبيرة ليقوموا بأدوار كبيرة في أحزابهم الشيوعية، ولا في الجيش، ولا في المؤسسات الأمنية والاستخبارية. ويعتقد كثيرون أن صدام حسين كان يعد إبنه الأصغر، قصي، ليتولى الحكم من بعده كخليفة له، مستندين على تعيينه من قبل رئيسا لجهاز الأمن الخاص وقائدا للحرس الجمهوري.

كان حزب البعث في بنيته مماثلا للحزب الشيوعي السوفييتي. فمع تمدُّده وتضخمه في الحجم، أصبح تركيز السلطة وبيروقراطية آليات الحزب ضروريتين ليكون مؤثرا. كان كل قرار حزبي كبير لابد له أن يمر عبر مكتب أمانة سر القطر (أمانة سر الحزب)، وكان في جوهره مكتب هيئة مديري الحزب والذي كانت مهامه وسلطته محددة بطريقة واضحة ومفصلة. كانت أمانة سر الحزب تشرف على إدارة وفعاليات كل فرع من فروع الحزب، والتي كانت بدورها تتحكم وتسيطر وتجمع المعلومات عن كل منحى من مناحي الحياة المدنية والعسكرية في جميع أنحاء العراق. كان جمع المعلومات من الأهداف الكبرى. وكان نقل المعلومات للقيادة في الغالب غير متقن بسبب حجمها وكمياتها الهائلة، ولكنها كانت أحياناً غير دقيقة عن قصد وتعمد أو تزيف على غير الحقيقة لإخفاء عدم كفاءة أو تقصير أو بسبب الوعود المبالغ فيها من قبل القيادات الحزبية المحلية. أما بالنسبة للعراقيين، فقد كان التفاوض مع البناء السلطوي البيروقراطي من التجارب الشاقة والعسيرة المجهدة التي تستغرق زمنا. كان اتخاذ أي قرار يتطلب جهدا مضنيا وينتهي بقرار غير كفؤ، ولكنه في الوقت ذاته سمح لصدام حسين أن يحكم دون

https://telegram.me/maktabatbaghdad

خوف من ظهور خصوم أقوياء. وقد كان عدا ذلك مناورا بارعا في انتقاء مساعديه ومعاونيه.

في كثير من الأوجه كانت بنية الحزب مماثلة لبنية الشركات الكبرى في الغرب في ضمها وتشغيلها لأعضاء جدد، وفي فتح فروع جديدة، ودمج فروع لزيادة الفعالية، وتشجيع المنافسة بين الفروع والأعضاء. ويثير ذلك صدى ملاحظة صدرت قبل خمسين عاماً حول أن أعضاء القاعدة الحزبية من أدوات الحزب الشيوعي السوفييتي كانوا تقريبا بلا سلطة في داخل البناء الكلي الكبير، كمن يملك سهما واحدا في شركة تجارية كبرى في الغرب[1]. ومثل الشركات الكبرى الناجحة، كان كل واحد من القمة للقاعدة في سلك السلطة والمسؤولية تحت ضغط دائم في الأداء والتيقن من أن أداءه واضح وملحوظ من قبل من هم أعلى منه. تسلسل بناء السلطة الواضح جعل من الأسهل تصنيف الأفراد وتخصيص المكافآت المناسبة للأعضاء الذين أثبتوا كفاءتهم وولاءهم. وقد أصبح ذلك أكثر أهمية في المناخ الذي ساد في ظل العقوبات الدولية في عقد التسعينيات. ومن المفاتيح الأخرى التي تفسر طول بقاء الحزب في السلطة، انضباطه الداخلي الشديد وقبضته الحديدية على الأعضاء. كان الحزب يسعى لمعرفة كل ما يمكن معرفته عن كل منتم للحزب؛ وكل عضو بالحزب، وعن كل ضابط بالجيش، حتى أن أي فرد من الفئات السابقة كان عليه أن يحصل على موافقة مسبقة من قيادته الحزبية قبل زواجه.

دراستي للنظام المتسلط في العراق تنقسم إلى ثمانية فصول:

الفصل الأول تاريخي، يرتكز على مادة ثانوية تضع في حسبانها

---

(١) الفريد ج. ماير «شركة الاتحاد السوفييتي العملاقة»، مراجعة سلافية، الجزء ٢٠، رقم ٣ (أكتوبر ١٩٦١)، صفحات ٣٦٩ ـ ٣٧٦.

ظهور حزب البعث وصعوده. والفصل الثاني يفصل بنية الحزب وتركيبته والمؤسسات السلطوية ويناقش مهام الحزب المترامية الأبعاد وتمويله. القواعد والقوانين التي لا تحصى، والتي تتوافق مع نمط الانضباط، تفاوتت بين قوانين وقواعد سامية ورفيعة إلى سخيفة وغثة وغير معقولة ولكنها جميعاً أعانت على دعم وتقوية سيطرة الحزب وهيمنته. وباستخدام ملف فعلي واقعي، أعدت خلق حياة مؤيد موالٍ نمطي التحق بالحزب في سن مبكرة. ويفحص الفصل أيضاً ضم وتجنيد الأعضاء الجدد وسياسات التعليم السياسي والثقافي المستمدة من أيديولوجية الحزب.

ويتعلق الفصل الثالث بفروع حزب البعث، والتي انتشرت انتشارا استراتيجيا عبر أنحاء العراق. وحتى الآن، أدت قلة وشح الوثائق الأصلية إلى الميل إلى التركيز على أمانة سر الحزب أو قيادتها. وفي الواقع الحقيقي المعاش، لعبت الفروع دوراً أساسياً في قدرة الحزب على المحافظة على الهيمنة والرقابة الدقيقة في كل ركن من أركان العراق. انغمست الفروع بعمق في الأعمال الأمنية، والتثقيفية، واجتذاب وضم مزيد من الأعضاء؛ وفي العلاقات بالجماهير؛ وفي الشؤون المالية والتمويلية، كما تنافست الفروع منافسة شرسة مع بعضها بعضا للفت انتباه كبار المسؤولين في بغداد. كما تتيح لنا ملاحظات صغيرة مكتوبة بخط اليد من خلية حزبية في مدينة بشمال العراق إعادة تركيب كيفية تعامل إحدى المجموعات الحزبية الصغيرة مع المشاكل التي تعترضها حين كان العراق منغمساً في الحرب مع إيران وفي حالة صراع دائم مع الأكراد المحليين.

ويتناول الفصل الرابع المؤسسات والتنظيمات الأمنية. كان حزب البعث لصيق الارتباط بالآلة الاستخباراتية. ولأول مرة، نتمكن من التوصل إلى رسم صورة حقيقية لجهاز الأمن الخاص ـ الوكالة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الاستخباراتية الرئيسة والأقوى من بداية عقد التسعينيات، تحت رئاسة قصي، نجل صدام حسين ـ اعتمادا على وثائق الجهاز الأصلية. وتشبه قراءة تلك الوثائق ولوج عالم «أورويل» حيث يقوم كل فرد بمراقبة غيره من أفراد. ويناقش الفصل أيضاً كيفية جمع المعلومات والدور الذي كان يلعبه الوشاة والمبلغون، وكان كثير منهم يتطوعون للقيام بذلك ـ إما لنيل مكافآت، أو كما في حالة قلة قليلة منهم، لأغراض شخصية غير سوية. وعلى عكس ما كان يحدث في شرق أوروبا والاتحاد السوفييتي، لم يعاقب الوشاة والمبلغون عقابا شديدا في النظم السلطوية المستبدة في الشرق الأوسط بعد سقوط تلك الأنظمة، فقد كان ينظر لهم على أنهم كانوا يقومون بذلك تحت الإكراه والقهر.

ولإعادة بناء التأثير التاريخي للقوات المسلحة، أقام الحزب مكاتب الارتباط العسكرية، والعلاقة التي كانت قائمة بين الحزب والجيش معروضة في الفصل الخامس. وكما كان الأمر في الاتحاد السوفييتي، كان مفوضو الحزب منتشرين في كل وحدة من وحدات الجيش لمراقبة الجنود والضباط وكانوا يتدخلون في كل قرار عسكري على الرغم من معارفهم ومعلوماتهم العسكرية المحدودة. وفرضت عملية البعثنة أيضاً على الجيش بالهيمنة على عملية الالتحاق بالكليات والمعاهد العسكرية. كما أنشأت جيوش شعبية عديدة لتقوية دفاعات العراق ولتقليص الاعتماد الكلي على الجيش النظامي وحده. ويغطي الفصل أيضاً المسائل المتعلقة بالفارين من أداء الخدمة العسكرية والفارين من الجيش ومسائل أسرى الحرب، والتكريم الكبير للشهداء.

ومن المستحيل أن نتمكن من شرح تلك الفترة دون أن نفهم شخصية صدام حسين، وطريقة اتخاذه للقرارات، وصفاته، وحالاته المزاجية، وفوق كل ذلك، تطور عبادة شخصية صدام حسين، وهي موضوع الفصل السادس من هذا الكتاب. وفي العشرين عاماً الأخيرة من

عمر النظام، أصبح العراق صنوا لصدام حسين، الذي علت صورته في الأذهان كشخصية مخيفة مرهوبة الجانب من خلال بيروقراطية الحزب المبتكرة والتي عملت على تكريس تقديس شخصية صدام.

ويكشف الفصل السابع الهيمنة والمقاومة ونظم العقاب والمكافأة الموازية. ولا يوجد أدنى شك في أن الخوف وخشية التعرض للتعذيب لعبا دوراً خطيراً في دوام النظام واستمراريته كل ذلك الزمن، غير أني توصلت أيضاً إلى أنه من دون استخدام نظام سخي من المكافأة والعطاء، لم يكن النظام ليستمر كل ذلك الوقت. وفي ذات الوقت، ومع الأخذ في الاعتبار قسوة النظام وشراسته، فإن أعداد من كانت لديهم إرادة مقاومة النظام كانت تستلزم دفع ثمنا باهظا من المعارض ذاته وعلى حساب أسرته المباشرة وكل عائلته الممتدة، كانت أعدادا ملحوظة، وهو مجال خصب لمزيد من البحث.

ويفحص الفصل الثامن الآلة البيروقراطية لحزب البعث وعملية اتخاذ القرار ويصور الحياة المدنية تحت حكم البعث: كيف أدار النظام الاقتصاد، والاتحادات العمالية والنقابات المهنية، والسياسات التي اتبعها تجاه المرأة والدين، وتعليمه السياسي المكثف للأطفال، والشباب، والطلاب.

وعلى الرغم من أن نظام البعث، بذكرياته الدموية، قد أصبح في ذمة التاريخ، فمن واجب الالتزام لدى كل الباحثين أن يحموا شخصيات ما زالت حية وتعيش في العراق من التعرف على حقيقة أدوارها. وكانت سياسة وضع هذا الكتاب واضحة ومباشرة في عدم ذكر أي أسماء إلا إن كانت أسماء شخصيات معروفة ومشهورة، مثل كبار المسؤولين وأسرة صدام حسين المباشرة.

وعلى كل الأحوال، لابد من التأكيد على أن تلك الوثائق لا تكون صورة كاملة. فأولاً، وقبل أي شيء، عند نهب المكاتب الحكومية بعد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الغزو الأميركي للعراق، سرقت كثير من الوثائق، وكما يقول «روري ستيوارت» حاكم محافظة ميسان العراقية في عام ٢٠٠٤ تحت القيادة الأمريكية:

أولئك الذين سرقوا الملفات الاستخبارية والأمنية واطلعوا على محتوياتها وعرفوا عناوين من تتناولهم راحوا يبيعون تلك الوثائق من بيت لبيت. كانت تباع في البداية ببضعة دولارات للوثيقة. كان من الممكن جمع تلك الملفات المدونة على ورق المانيلا المائل للاصفرار مثلما يجمع الهواة الطوابع البريدية وتعرف من خلالها من كان يكتب تقاريرا عنك في الدراسة أو العمل، أو أي تقرير من جار [هكذا] قد أدى بهم لاعتقال أبيك واقتياده للمجهول، وأين كان معتقلا ولكم من الزمن وما قاله في وقت اعتقاله في التسجيلات الرسمية، وما هي الأسباب التي ارتكنوا إليها عند محاكمته، ومن الذي حكم عليه، ومن الذي قام بتنفيذ الحكم، وأين تم دفنه بعد تنفيذ الحكم. وإن لم تدفع لك عائلة ما يكفي من مال لمعرفة ما حدث لذويها، ستقوم عائلة أخرى بالدفع لأسباب مضادة[١].

ثانياً، كانت كثير من الأوامر تصدر شفاهيا من صدام حسين ولا توجد أي وثائق تثبت صدور تلك الأوامر. لذلك قمت بالاستماع لمئات الساعات للشرائط المسجلة لاجتماعات قيادة النظام للتوصل إلى فهم كامل له، كما قمت بإجراء مقابلات مع الجنرالات العراقيين وكبار أعضاء حزب البعث الذين توفرت لديهم الرغبة في التشارك في المعلومات وأجابوا على كثير من تساؤلاتي وأسئلتي. بعض من أجريت

---

(١) روري ستيوارت: «المخاطر المهنية: الوقت الذي قضيته حاكما بالعراق» (لندن، بيكادور، ٢٠٠٦)، صفحة ٢٣٣.

معهم تلك المقابلات لم يكن لديهم أي تخوفات حول ذكر أسمائهم. ثالثاً، لم تتح لي فرصة لولوج أرشيفات أقسام أخرى هامة، مثل وزارات الدفاع، والخارجية، والداخلية، أو أرشيفات الشرطة المحلية. رابعاً، من المستحيل على وجه التقريب عمل شكل بياني عن التطور التاريخي لكل موضوع رئيسي، لأن مخازن السجلات غير مرتبة ترتيباً تاريخياً، كما توجد بالفعل فجوات زمنية. وأخيراً، كثير من الجوانب غير مغطاة في هذه الدراسة، ومن المأمول أن يقوم باحثون آخرون بإستكمال كثير من المواضيع والجوانب الواردة بالوثائق لتوسيع مدى فهمنا لتاريخ العراق المعاصر.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الأول

صعود حزب البعث

تمكن حزب البعث العربي الاشتراكي في ١٧ يوليو عام ١٩٦٨ من القيام بانقلاب عسكري ناجح وبدأ مرحلة تسيده على العراق لمدة خمسة وثلاثين عاما. كان صعود حزب البعث بعد الخمسة أعوام الفاصلة الأولى من وصوله إلى قمة السلطة يرجع إلى تضافر عوامل تاريخية، واقتصادية، واجتماعية كانت تسبب حالة من عدم الاستقرار وفراغ في السلطة في العقود السابقة التي أفضت إلى انقلاب يوليو ١٩٦٨.

لقد خلق العراق الحديث من خلال توحد واندماج ثلاث ولايات هي: بغداد، والبصرة، والموصل، والتي كونت منطقة ما بين النهرين وكانت جزءاً من الإمبراطورية العثمانية لمدة تزيد على أربعة قرون. وحين اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى، أحست بريطانيا بحاجتها الماسة لتأمين وحماية مصادرها من النفط ومصالحها السياسية في المنطقة فأرسلت حملة عسكرية لغزو العراق. وبحلول عام ١٩١٨ كانت بريطانيا قد تمكنت من الهيمنة على الأقاليم الثلاثة ولكنها سرعان ما اكتشفت أن حكم العراق أصعب كثيراً من عملية غزوه. وظل العراق تحت الوصاية البريطانية من ١٩٢٠ حتى وافقت بريطانيا على منحه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الاستقلال عام ١٩٣٢، وكانت قد نصبت الملك فيصل كأول ملك على العراق عام ١٩٢١[١].

ثار القوميون العراقيون ضد الهيمنة الأجنبية في صيف عام ١٩٢٠، وكانت الشرارة التي أدت إلى اندلاع تلك الثورة إعلان الانتداب البريطاني على العراق قبل شهرين من اندلاع الثورة. وكانت تلك الثورة نقطة تحول فارقة في تاريخ القومية في العراق، غير أنها لم تتمكن من تغيير طبيعة الاحتلال. واستمرت بريطانيا في تشكيل المؤسسات العراقية والسلطة القبلية خلال عقدي العشرينيات والثلاثينيات من القرن المنصرم. على أي حال، فعلى الرغم من أن الانتداب البريطاني على العراق هو الذي خلق دولة العراق الحديثة، إلا أنه فشل في خلق الشعور بالقومية المشتركة بين الولايات الثلاث التي أدمجت معاً، وواجهت الحكومات المتعاقبة بعد ذلك صعوبات وتحديات جمة في التعامل مع التنوع الشديد في الأعراق والأديان، والميول الإقليمية، واللغات، داخل حدودها المناطقية.

كانت الحكومات العراقية في عقد عشرينيات القرن العشرين تتغير وتتبدل كثيراً، وعملت الأحزاب السياسية وتعاملت على أساس عقد تحالفات بين مختلف الأفراد والجماعات التي تعمل على تعميق وتأمين مصالحها. «كان من الواضح والثابت أن هناك إفلاسا فكريا وأخلاقيا في النظام السياسي، خاصة من جانب أولئك الذين استثنوا من الانغماس الكلي في النظام»[٢]. وبالفعل، كان الانتداب ـ وربما يكون مفهوما أنه تسبب في الشروخ الداخلية وتمدد المصالح البريطانية ـ قد جعل من

---

(١) كثير من الكتب تغطي تاريخ العراق المعاصر. ما نورده هنا مستمد جزئيا من: مار: «تاريخ العراق الحديث»؛ تريب: «تاريخ العراق»؛ وسلوجليت: «بريطانيا في العراق».

(٢) بيتر سلوجليت «حزب البعث: العروبة، الاشتراكية الوطنية والديكتاتور»، طبعة كوتشيرا، النهر الأسود، ص ٨٢.

«الدولة المجال الجوهري للنضالات المتعددة والتي ستشكل بشكل متميز ومستقل السياسات العراقية»[١].

ما ترتب على ذلك هو أن أولئك الذين هيمنوا وسيطروا على الدولة هم من هيمنوا على مواردها وخصصوا امتيازات منها لمن يدعمونهم. واستمر الانتداب البريطاني على العراق رسميا حتى عام ١٩٣٢، حين منحت مملكة العراق استقلالها تحت حكم الملك فيصل الأول[٢].

تميزت فترة ما بين الحربين العالميتين بنهوض وصعود فكرة الوحة العربية، وهي أيديولوجية تأثرت كثيراً بداعية التعليم ساطع الحصري، والذي أثرت دعوته للقومية العربية في كل الجيل المعاصر له من خلال وضعه الوظيفي كمدير عام للتعليم[٣]. أكد الحصري على أهمية اللغة العربية، وعلى القومية العربية، وعلى وحدة التاريخ العربي، منكرا الحس الوطني للشخصية العراقية ومستثنيا بوجه عام غير العرب (وإلى حد ما غير السنة) من العراقيين من خططه لتعليم الأجيال الأصغر[٤].

---

(١) تريب، تاريخ العراق، ص ٧٥.

(٢) قبلت عضوية العراق في عصبة الأمم في شهر أكتوبر عام ١٩٣٢. أغلب أعضاء هيئة الانتداب البريطاني على العراق، والذين بالغوا في مد الانتداب على أغلب الأراضي، لم يكونوا مقتنعين بأن العراق جاهز ولا مستعد لأن ترفع عنه الوصاية البريطانية. فيما يختص بالمفاوضات التي تمخض عنها انضمام العراق لعصبة الأمم، إرجع إلى سوزان بيدرسن، «الخروج من العراق ـ في ١٩٣٢: عصبة الأمم والطريق إلى كيان الدولة»، مجلة التاريخ الأميركي، مجلد ١١٥، رقم ٤(أكتوبر ٢٠١٠) صفحات ٩٧٥ ـ ١٠٠٠.

(٣) لمزيد من التفاصيل عن سياسة الحصري التعليمية وتأثيره، إرجع إلى أوريت باشكين، العراق الآخر: التعددية والثقافة في العراق الهاشمية (ستانفورد، كليفورنيا: مطبوعات جامعة ستانفورد ٢٠٠٩) صفحات ٢٣١ ـ ٢٣٣، ٢٤٩ ـ ٢٥٤.

(٤) لمراجعة تلك المرحلة، ارجع إلى بيتر واين، «القومية العربية العراقية: الميول السلطوية، والشمولية والفاشية»، ١٩٣٢ ـ ١٩٤١ (لندن ونيويورك، روتلدج ٢٠٠٦).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت تلك المرحلة مشحونة بالاضطرابات الشعبية، والتمردات القبلية والعشائرية، والتدخل المتزايد من قبل الجيش في الشؤون السياسية. وحين طالبت الأقلية الآشورية في الشمال بمزيد من الحكم الذاتي، نظر إلى ذلك على أنه تحدي لوحدة العراق القومية، وقام الجيش تحت قيادة بكر صدقي، اللواء المسؤول عن منطقة الموصل بذبح مئات من الآشوريين في شهر أغسطس عام ١٩٣٣. ولما برز دوره وقويت شوكته، قاد صدقي أول انقلاب عسكري في العراق في شهر أكتوبر من عام ١٩٣٦، وكان ذلك إيذانا ببداية التدخل الفعلي للجيش في الشؤون السياسية وكان بمثابة سابقة لاستعمال العنف لحل النزاعات والخلافات السياسية[١].

حجر الزاوية التاريخي الثاني الذي أثر في صدام حسين وأيديولوجية البعث كان انقلاب شهر أبريل من عام ١٩٤١. كان بكر صدقي قد تم اغتياله في عام ١٩٣٧، بعد عشرة أشهر من الانقلاب الناجح الذي قام به، ودخل العراق في مرحلة من عدم الاستقرار. ووقع انقلاب آخر عام ١٩٣٨، أدى إلى تولي نوري السعيد رئاسة الوزارة. أما انقلاب عام ١٩٤١، وعلى عكس الانقلابات السابقة، فقد كان يستهدف الملكية ذاتها لا مجرد الاكتفاء بتغيير رئاسة الوزارة. وتم إقصاء عبد الإله الذي كان وصيا على العرش حيث كان الملك فيصل الثاني ما زال صبيا، وشكل رشيد على الكيلاني وزارة بدعم أربعة من عقداء الجيش، عرفوا باسم «المربع الذهبي». وطلبت بريطانيا أثناء أحداث الحرب العالمية

---

(١) على الرغم من أن الانقلاب اكتسب اسم انقلاب بكر صديقي، إلا أن العقل المدبر له كان حكمت سليمان، وهو سياسي صاحب تطلعات كبيرة. لمزيد من التفاصيل ارجع إلى مار: «تاريخ العراق الحديث»، صفحات ٤٤ ـ ٤٧؛ وتريب: «تاريخ العراق»، صفحات ٨٤ ـ ٩٤.

الثانية موافقة الحكومة العراقية أن تعبر قواتها عبر أرض العراق، طبقا للاتفاقية العراقية ـ البريطانية الموقعة بين الطرفين عام ١٩٣٠، والتي وضعت من أجل حماية المصالح البريطانية في المنطقة. وبضغط من العقداء الأربعة، رفض رشيد على الكيلاني تنفيذ المطلب البريطاني، أي خرق الاتفاق الموقع ونكث بالمعاهدة. وانفجر العداء بين الدولتين، وانقضى وقت قصير من القتال ـ عرف باسم الحرب الانجليزية العراقية ـ استمر على مدى ثلاثين يوما. وانهزمت القوات العراقية تحت ضغط القوات البريطانية، خاصة بسبب السلاح الجوي الملكي البريطاني. وحدث فراغ في السلطة لمدة يومين ما بين انهيار الحكومة التي كانت قائمة وتلك التي تكونت تحت الهيمنة البريطانية على العراق، والتي استمرت بأشكال مباشرة وغير مباشرة حتى عام ١٩٥٨.

إحدى التبعات التي ترتبت على فراغ السلطة وقوع مذابح لليهود المقيمين في بغداد على مدى يومين، باعتبارهم موالين للبريطانيين، واستمرت حتى فرض النظام من جديد. وبعد الحرب، تمت محاكمة العقداء الأربعة وشنقهم، وبذلك اعتبروا شهداء من قبل كثير من الوطنيين العراقيين[١].

أعاد صدام حسين رواية تلك الأحداث في كتبه وذكر أنه حين كان صبيا كان عمه يحكي له كثيراً من الحكايات عن شجاعة ووطنية أولئك العقداء الأربعة، وأنه أصبح ينظر إليهم كنماذج رائعة للحكم الوطني.

وكان لحرب عام ١٩٤٨، بين دولة إسرائيل المعلنة حديثا في ذلك الوقت والدول العربية المجاورة تأثيرات عميقة على العراق والعالم

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن ذلك الانقلاب وما ترتب عليه ارجع إلى تريب: «تاريخ العراق»، صفحات ٩٩ ـ ١٠٧، وريفا إس سيمون: «العراق ما بين الحربين العالميتين: «ظهور وتبعات الايديولوجية الوطنية» (نيويورك، مطبوعات جامعة كولومبيا، ١٩٨٦).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

العربي. فقد قويت موجة القومية العربية وهوت الثقة في كل ما له صلة بالبريطانيين، مع تزايد المطالبة يوما بعد يوم بالاستقلال التام عن النفوذ البريطاني. وتقلصت الجالية اليهودية التي لعبت دوراً هاما في الحياة التجارية والثقافية في العراق من ١٥٠,٠٠٠ إلى ٣٠,٠٠٠ مواطن فقط مخلفين وراءهم فراغا كبيراً في مجال الأعمال والذي شغل أغلبه من بعدهم تجار من الشيعة.

وفي عقد الخمسينيات، أدت الطفرة المالية من عوائد النفط إلى تطورات اقتصادية، مكنت الحكومة من إقامة مشاريع أنشائية ومعمارية أكبر. في كثير من المناسبات، كانت المطالبات بتحسين أحوال العمال تنقلب إلى تظاهرات عنيفة. وكانت كثير من الإضرابات يرتب لها وينظمها الحزب الشيوعي، كان الحزب الشيوعي من أكثر الكيانات السياسية تنظيما من بين كل الكيانات خارج إطار الحكومة ويتميز بولاء أتباعه الشديد لمبادئه. وأدت الإطاحة بالنظام الملكي في مصر عام ١٩٥٢ إلى تحفيز إرادة الضباط العراقيين للعمل معا على الإطاحة بالنظام الملكي العراقي. وفي الوقت الذي كان فيه العراق يحقق تقدما في مجال تطوير الرفاه الاجتماعي، كانت المخاوف المتعلقة بسياسته الخارجية تزداد وتتعمق. ووصلت تلك المخاوف لنقطة فاصلة أثناء حرب ١٩٥٦، حين هوجمت مصر بعدوان مشترك مكون من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل. أحس العراقيون بأن العراق يجب ألا يبقى أكثر من ذلك موالياً للسياسة البريطانية، وتشجع صغار الضباط على إشعال ثورة أدت إلى إعلان العراق جمهورية في ١٤ يوليو عام ١٩٥٨.

خلال تلك المرحلة ظهر حزب البعث العراقي. كان قد تأسس في سوريا عام ١٩٤٧ على يد مجموعة صغيرة من المفكرين بقيادة ميشيل عفلق، وهو مسيحي، وصلاح الدين البيطار، وهو مسلم سني. ورأى حزب البعث والذي كان اسمه يعني «الإحياء» أنه حزب عربي لكل

العرب أكثر من كونه حزبا سوريا. أخبر عفلق فيما بعد المؤرخ حنا بطاطو أن كل واحد «كان يشعر أن هناك فراغا، وأن كل القيادات القديمة الموجودة قيادات مفلسة.... وأن حركة جديدة تحل محل القديمة لابد لها أن تقف على أقدامها»[١].

زادت الأحداث التي وقعت في فلسطين عام ١٩٤٨ من الأقبال على الحزب، ورأي قادة الحزب في الفجوة الواقعة بين مواقف الحكومات العربية ومواقف شعوبها فرصة مواتية لتوسيع قواعد الحزب السياسية الشعبية. واستفاد الحزب أيضاً شعبيا من حقيقة أن اعتراف الاتحاد السوفييتي بإسرائيل قد أثر تأثيراً سلبياً على القبول الشعبي للحزب الشيوعي العراقي. وصلت أيديولوجية حزب البعث من سوريا للعراق في أواخر عقد الأربعينيات ووجد آذانا صاغية بين طلاب الجامعات العراقية. وأصبح فؤاد الركابي زعيما لحزب البعث بالعراق عام ١٩٥١، وراح الشباب من الأعضاء صغار السن ينضمون للحزب ويصبحون أعضاءاً عاملين، ومنهم صدام حسين الذي انضم للحزب عام ١٩٥٦. واعتبر حزب البعث العراقي نفسه حامي وقائد «الثورة العربية»[٢]. وحتى عام ١٩٥٥، كان عدد أعضاء الحزب لا يتجاوز ٣٠٠ عضو، وكان تأثيره محدودا جداً بين ضباط الجيش.

واقتفاءاً لخطى ضباط مصر الأحرار، أطلقت حركة ضباط العراق الأحرار ثورة شهر يوليو عام ١٩٥٨ التي أطاحت بالنظام الملكي، وأعلنت قيام الجمهورية العراقية، وكانت بمثابة بداية عهد جديد من تاريخ العراق تميز بتوالي وكثرة الانقلابات العسكرية والاضطرابات

---

(١) بطاطو، الطبقات الاجتماعية القديمة، ص ٧٢٦.

(٢) أماتزيا بارام: «القومية والوطنية في حزب البعث العراقي: البحث عن توازن جديد»، دراسات شرق أوسطية، المجلد ١٩، الفصل الثاني (أبريل ١٩٨٣)، صفحة ١٨٨.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المشوبة بعدم الاستقرار. كان النجاح السريع للانقلاب يرجع في الأغلب لمشاعر الغضب والضيق والرغبة في التغيير داخل نطاق قطاعات واسعة من الشعب أكثر من كونه راجعا إلى ايديولوجية راسخة أو إلى مجموعة مخلصة أو مترابطة من النشطاء[١]. ورسخت النهاية المأساوية العنيفة للعائلة الملكية الحاكمة ولرئيس الوزراء نوري السعيد الميل للجوء للعنف العام لفض وحل النزاعات السياسية. وبالفعل، كانت المحاكمات العلنية لكبار المسؤولين الموالين للنظام الملكي والتي أذيعت على شاشات التلفاز، مؤشرا جديدا آخر للمستقبل القادم؛ وأصبحت عديد من إجراءات تلك المحاكمات ملاه مأساوية، وكانت تقطعها في الأغلب جحافل من الجماهير تلوح بحبال المشانق وتطالب بشنق وزراء وضباط معينين[٢]. تحت ضغط تلك الملابسات، من المدهش أن حفنة قليلة جداً من بين كل أولئك الذين اعتقلوا وقدموا لتلك المحاكمات هم من تم إعدامهم بالفعل.

كان الزعيمان من تنظيم الضباط الأحرار العراقي وشاركا بفعالية في ثورة ١٩٥٨ هما العميد عبد الكريم قاسم والعقيد عبد السلام عارف. وسرعان ما دب الشقاق بينهما واتسعت فجوته، وتحول صراعهما على السلطة ليصبح «صداما بين الشخصيات والمثل الفكرية والقيم»[٣]. وظهر عبد الكريم قاسم كقائد بعد نجاحه كمناور بارع بين القوميين والشيوعيين وبعدم سماحه لأي جانب منهما أن يكتسب مزيدا من القوة.

---

(١) بطاطو: الطبقات الاجتماعية القديمة، صفحات ٨٠٥ ـ ٨٠٦.

(٢) ارجع إلى تريب: تاريخ العراق، ص ١٦٨، لمزيد من التفاصيل عن محكمة الشعب ارجع أيضاً لفاروق ـ سلوجليت وسلوجليت: «العراق منذ ١٩٥٨»، صفحات ٦٣ ـ ٦٤.

(٣) فاروق ـ سلوجليت وسلوجليت: «العراق منذ ١٩٥٨»، ص ٥٠. كان عارف مؤمناً بعمق بالوحدة العربية، بينما كان قاسم ـ مدعوما من الشيوعيين ـ يرفض فكرة الوحدة الفورية.

أما عارف، الذي دعم الاتحاد مع مصر، فقد اعتقل وحكم عليه بالإعدام[1]، وبدا لوقت ما أن الشيوعيين يكتسبون قوة وزخما. إذ سمحت ثورة ١٩٥٨ للشيوعيين لأول مرة بالعمل العلني ولعب دور في إدارة البلاد.

وفي مارس ١٩٥٩ انفجرت التوترات الكامنة في ثورة الموصل بقيادة (عبد الوهاب الشواف) ضابط الجيش المؤمن بالوحدة، وكانت الاضطرابات تمثل نمط التعقيد الموجود في مختلف الصراعات التي تخللت السياسات العراقية والمجتمع العراقي. كانت ثورة الموصل المدعومة من مصر التي عادت بشكل معلن عبد الكريم قاسم ثورة ضعيفة التنظيم والتخطيط لذلك سحقت بسهولة على يد قوات الجيش الموالية لعبد الكريم قاسم. تركت تلك الكارثة أثرا لم يندمل في التاريخ العراقي؛ فقد هاجم الأكراد التركمان الذين دعموا الانقلاب الفاشل، وذَبَحَ الشيوعيون القوميين. وأظهرت عمليات النهب في الموصل والإعدامات السريعة بمحاكمات ميدانية عاجلة الشروخ العميقة الموجودة بين الأكراد والعرب، وبين الفلاحين وملاك الأراضي، وبين الشيوعيين والقوميين[2].

وبدأ قاسم يرى في الشيوعيين أنهم يشكلون خطراً يهدد نظامه فراح يحجم من سلطتهم تدريجيا، غير أنه لم يكن متاحا لهم أي اختيار آخر غير دعم قاسم حتى النهاية، فقد رأوا فيه أنه أفضل اختيار متاح لهم. وعلى مدى أعوام لعب الحزب الشيوعي دوراً هاما في تاريخ العراق

---

(١) لم يوقع قاسم قرار الإعدام وظل العقيد عارف بالسجن حتى عام ١٩٦١.

(٢) لمزيد من التغطية التفصيلية لتلك الأحداث إرجع إلى بطاطو: «الطبقات الاجتماعية القديمة»، صفحات ٨٦٦ ـ ٨٨٩، وفاروق ـ سلوجليت وسلوجليت: «العراق من ١٩٥٨»، صفحات ٦٦ ـ ٧٠.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

السياسي، على الرغم من أنه كان دائماً في موضع المعارضة. جذب الحزب الشيوعي أعضاء كثرا في عقدي الأربعينيات والخمسينيات، وبدايات عقد الستينيات، بمن فيهم أعضاء من الأقليات الدينية وأعداد كبيرة من المثقفين والمفكرين. وسبَّبَ ذلك قلقا، لا للعائلة المالكة وحدها قبل الإطاحة بها، ولكن للغرب أيضاً، فقد كان ذلك يحدث موازيا لأحداث الحرب الباردة في الخمسينيات[1]، وبنهاية عام ١٩٥٩، كان نفوذ الشيوعيون في العراق قد وصل إلى قمته.

وشهد العام ذاته، ١٩٥٩، محاولة لاغتيال عبد الكريم قاسم. ففي السابع من أكتوبر، قامت مجموعة من شباب حزب البعث ومن بينهم صدام حسين بإطلاق النار على عبد الكريم قاسم وهو بالسيارة في طريقه الذي يسلكه يوميا عبر شارع الرشيد المعروف. وعلى الرغم من أن قاسم قد أصيب فقط بجراح غير مميتة، وشفي بسرعة منها، وفر كثير ممن حاكوا المؤامرة ومنهم أيضاً صدام حسين إلى خارج البلاد فيما تم القبض على بعض منهم، وأدت محاكمتهم إلى بروز حزب البعث على المستوى الشعبي العام لأول مرة في تاريخه. وبعد أن فر صدام حسين في البداية إلى سوريا، لم يمكث بها كثيراً وانتقل للقاهرة، واستغل الوقت الذي أتيح له هناك لإكمال تعليمه بينما ظل على تواصل حميم بالعراقيين المنفيين في مصر، وتحولت محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم الفاشلة بعد ذلك لتصبح أساسا لخلق أسطورة عبادة شخصية صدام حسين طوال حياته بعد ذلك، ومعظمة له هو ومن عاونه في تنفيذها (انظر الفصل السادس). هناك جانب آخر محير في عملية الاغتيال الفاشلة وهو أن صدام حسين كان مندهشاً من إصرار عبد الكريم قاسم

---

(١) لمزيد من التفاصيل التاريخية عن الحزب الشيوعي العراقي، إرجع إلى طارق اسماعيل: «صعود وانهيار الحزب الشيوعي في العراق» (مطبوعات جامعة كامبردج، ٢٠٠٨).

على سلوك المسار ذاته كل يوم وبحماية محدودة للغاية ـ كانت في العادة مكونة فقط من السائق واثنين من الحراس[1]. وقد انعكس كل ذلك بالطبع بعد أن وصل حزب البعث للسلطة عام ١٩٦٨؛ فقد كان لدى صدام بعدها تصميم شديد على ألا يتمكن أي أحد من اختراق حواجز الأمن التي أصبح يحيط بها نفسه وهو في السلطة.

وبمجرد أن أصبح لقاسم اليد العليا فوق عبد السلام عارف، بدأ يعرف في وسائل الإعلام باسم «القائد الأوحد»، وعلى الرغم من أن عبادة الشخصية لم تكن قد تطورت حول شخصيته كما حدث بعد ذلك مع صدام حسين، إلا أن الحقيقة بقت كما هي، وهي أن الشعب العراقي قد اعتاد على أن يكون له زعيم واحد لمدة أربعة أعوام ويوقن ويؤمن بأن السلطة تبدأ منه وتنتهي عنده. كان أسلوب قاسم في المناورة بين مختلف التوجهات السياسية والتجمعات العرقية بدفع بعضها ضد بعض آخر، بما فيهم جماعات أيدته، مما وحَّد بين كثير من حلفائه الطبيعيين، وخاصة الأكراد. فكانت حربه ضد الأكراد الذين حاول التصالح معهم في البداية، وكانت حملته عليهم هي الأولى التى أستمر على القيام بها كل من جاء للحكم من بعده حتى عام ١٩٩١، في محاولة لسحق قوات المقاومة الكردية المتحصنة في الجبال الشمالية، والتي تنعم بتأييد السكان المحليين.

غير أن قاسم ـ في تناقض صارخ مع صدام حسين ـ عفا عن كثيرين مما حاكوا المؤامرات ضده، كما خفف أحكام الإعدام التي أصدرتها محكمة الشعب على كثيرين، كما عفا عن عبد السلام عارف، الذي سيصبح رئيسا بعد ذلك. وكما ذكرها سلوجليت: «نقائص ومواطن

---

(١) صدام حسين: «رجال ومدينة»، رواية لكاتبها (بغداد، وزارة الثقافة، صفحات ٢٣١ ـ ٢٣٢، تزايد إيمان صدام حسين أن ذلك كان يرجع لجنون العظمة لدى قاسم أمين.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ضعف وتقصير قاسم، كانت خطيرة من الصعب مناقشتها بنفس الشروط التي نناقش بها الفساد والتوحش والقسوة الظالمة والترف الفاسد والانغماس في الملذات الذي اتصفت به كثير من نظم الحكم التي تلت قاسم»[1] وعلى الرغم من أن سجل حكم قاسم مليء بالخلط، إلا أنه لا يوجد أدنى شك أن الإصلاحات الاجتماعية الكثيرة التي كانت مطلوبة ولابد من إجرائها، بدأ قاسم في تحقيق أغلبها وأن نظام حكمه قد حول المجتمع باتجاه تحقيق المساواة، فبعد عقود من الحكم الملكي الذي أصبح فيه ملاك الأراضي الزراعية لا يتحكمون فقط في الأراضي الزراعية، بل كان لهم تأثير كبير على سياسات وتوجهات الدولة. وفي الحقيقة، يمكن الادعاء بأن عقد الخمسينيات قد شهد تزايد واتساع الفجوة بين الملكية ومؤيديها من جانب وبين كثير من الجماعات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في المناطق الحضرية من البلاد من جانب آخر. وكان قاسم حريصاً وحساساً أكثر من أي حاكم سبقه أو تلاه على تنوع التركيبة العراقية ووجوب إجراء توافق بين كل الجماعات.

كان لثورة ١٩٥٨ تأثيراً بعيد المدى على المجتمع العراقي، فقد تم تعديل التسلسل الهرمي للسلطة الاجتماعية فتكونت وبزغت طبقة متوسطة جديدة. وبين عامي ١٩٥٨ و١٩٦٣، تحرك العراق بعيدا عن مفهوم الوحدة العربية وأسس علاقة ود وصداقة مع الكتلة السوفييتية، وابتعد عن المدار والفلك الذي اعتاد ان يدور فيه حول البريطانيين والأمريكان. غير أن الفشل الأكبر لتلك المرحلة تمثل في عدم تكون مؤسسات سياسية ممثلة للجماهير كما لم يتم تطوير أدوات ملائمة لحكم العراق، كما فسد حكم القانون بسبب المحاكمات المظهرية والشكلية. وهيأ عدم قدرة قاسم على اسناد السلطة لأي مؤسسة أخرى

(١) فاروق ـ سلوجليت وسلوجليت: «العراق منذ ١٩٥٨»، صفحة ٨٣.

أو هيئة تنفيذية المسرح لمجموعة قوية وماهرة سياسياً لانتهاز الفرصة وتعريف إدارة البلاد. ولخص تريب ذلك بإيجاز قائلاً أن قاسم «حكم كحاكم مطلق مستبد ومات على ذلك أيضاً، وهكذا ساعد على إعادة إنتاج حصري للسياسات العراقية ودوافعها السلطوية المستبدة»[١].

أصبحت العسكرية لاعباً نشطاً في السياسة، تتدخل بها من حين لآخر، مسببة مزيدا من عدم الاستقرار، وداعمة لنظام سلطوي بعد آخر[٢]. وبالفعل؛ كانت كل البرامج من عام ١٩٥٨ وما بعد ذلك تركز انتباهها بشدة على التحوط من الانقلابات العسكرية ومنعها، ولم يجد هذا الفن ويتقنه بجدارة إلا صدام حسين فقد كان يلاحظ بدأب وعن كثب الأحداث المتقلبة بحدة في بلاده ما بين ١٩٥٨ حتى ١٩٦٨. وحتى يضمن من صعدوا للحكم بعد ١٩٥٨ ولاء العسكريين كانوا يستميلون الضباط ويهبونهم كثيراً من المزايا. لذلك «لم يكن من المدهش أن الشباب الذين لم تكن لديهم فرصة للالتحاق بمجالات تعليمية متميزة مثل الطب والهندسة كانوا يبذلون الجهد للالتحاق بالكليات العسكرية»[٣].

وصف العام ١٩٦٣ بواسطة بطاطو على أنه «أمر وأسوأ الأعوام»[٤]، فقد شهد ذلك العام عنفا، واغتيالات، وانقلاباً عسكرياً، وتغيير لنظام الحكم، وأدى لخلق أسوأ حالات من عدم الاستقرار التي شهدها العراق. فقد استخدمت الطائرات والدبابات في قلب بغداد من قبل

---

(١) تريب: «تاريخ العراق»، صفحة ١٧٠.

(٢) مار: «تاريخ العراق الحديث»، صفحة ١١٢.

(٣) الخفاجي: «الحرب كأداة انتقال»: صفحة ٢٦٥.

(٤) بطاطو: «الطبقات الاجتماعية القديمة»، صفحات ٩٧٤ ـ ٩٩٤، كان بتاتو يشير على وجه الخصوص للأيام المأساوية من ٨ إلى ١٠ فبراير التي شهدت صدامات عنيفة بين مختلف الفصائل والقوى العراقية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

البعثيين وحلفائهم، مما أجبر عبد الكريم قاسم على الاستسلام وهو في مقر قيادة الجيش في وزارة الدفاع في ٩ فبراير ١٩٦٣، بعد يوم على وجه التقريب من بداية التمرد والانقلاب عليه.

وقدم قاسم ومعاونوه لمحاكمة عاجلة، وتم إعدامهم جميعاً بعد فترة قصيرة رميا بالرصاص. بين عشية وضحاها أصبح من كان «القائد الأوحد» للبلاد «عدوا للشعب»، وعرض جثمانه هو ومعاونيه الذين أعدموا معه على شاشة التلفاز مرارا وتكرارا ليثبتوا لمن كانوا يؤيدونه أن نظام قاسم قد انتهى. خلال العنف الذي تلى ذلك، قدر بطاطو أن ٥٠٠٠ شيوعي عراقي قتلوا في يومين من ٨ فبراير حتى ١٠ فبراير في مطاردات واسعة النطاق قام بها الحرس القومي العراقي وهو ميليشيا مسلحة أنشأها حزب البعث[١] لإبادة الشيوعيين. استمد النظام الجديد الذي استولى على السلطة الدعم من «مجموعة صغيرة غير أنها شديدة العزم والإصرار من المتآمرين قادرة على اجتذاب عناصر على نطاق أوسع من الساخطين وغير الراضين من عناصر الجيش»[٢].

وتعد الأشهر التسع الأولى لحزب البعث في السلطة ما بين ٨ فبراير حتى ١٨ نوفمبر ١٩٦٣ من الأشهر الهامة في فهم تركيب الحزب والنظام الذي طوره حين عاد للسلطة عام ١٩٦٨. كانت الخبرات التي

---

(١) المصدر السابق، إرجع أيضاً لاسماعيل، الصعود والانهيار، صفحات١٠٦ ـ ١٠٩، كثير من الكتاب ناقشوا علاقة المخابرات المركزية الأمريكية بالانقلاب وقوائم أسماء الشيوعيين التي سلمتها المخابرات الأمريكية لقادة حزب البعث. وألقى أبو ريش باللوم على «التآمر الغربي ضد العراق» في عدم القدرة الدائم على تأسيس حكومة مستقرة في العراق. ارجع لسعد أبو ريش: «صدام حسين: سياسات الانتقام» (نيويورك، بلومزبيري ٢٠٠٠)، صفحة ٥٨. ارجع أيضاً للاستنتاجات، التي تناقش الولايات المتحدة وصدام حسين.

(٢) مار: «تاريخ العراق الحديث»، صفحة ١١٣.

اكتسبها الحزب في عام ١٩٦٣ نقطة تحول هامة في تاريخ حزب البعث؛ كان أول اختبار حقيقي لتطبيق أيديولوجية الحزب لحل مشاكل البلاد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. في عام ١٩٦٣ أدرك الحزب أنه أعلى سلطة دستورية، ولكنه لم يكن يملك شبكات الدعم الكافية في العراق[١]. ولذلك، بعد عام ١٩٦٨، بذل حزب البعث جهودا مضنية لخلق دعم محلي صلب، وبنى تحت قيادة صدام تنظيمات وهيئات أمنية قوية قادرة على سحق أي مقاومة في مهدها. في ١٩٦٣، قدر عدد أعضاء حزب البعث بما يربو على ٣٠٠٠ عضو، لكن بعد ١٩٦٨ وضعت قيادته في الموضع الصحيح عددا من النظم الكفؤة لاختراق المجتمع العراقي ولتوسيع قواعد الحزب القوية شعبياً[٢].

وكرس الحزب أيضاً قدرا كبيراً من طاقته لتحليل دروس تجربته الأولى في السلطة، وركز على عكس ما أدى إلى فشله الأيديولوجي والعملي[٣] في فترة وجوده السابق في السلطة. رأى الحزب أن ميليشياته، والحرس الوطني لم يضيفا إلى سمعته؛ بل على العكس، خلقا انطباعاً سيئاً لدى الشعب عن الحزب. وهكذا، امتنع الحزب من انشاء ميليشيات حتى أسس نفسه بحيث يستطيع أن يكون جيشاً شعبياً تحت السيطرة الكاملة للحزب ونظامه.

تعلم صدام حسين ثلاثة دروس مريرة من تجربة عام ١٩٦٣ وصمم على عدم تكرارها: أن يتجنب الانقسامات الأيديولوجية داخل الحزب

---

(١) هاني الفقيقي: «أوكار الهزيمة: تجربتي في حزب البعث العراقي» (لندن، رياض الريس، ١٩٦٣)، صفحة ٣١٠.

(٢) أبو ريش، صدام حسين، صفحة ٦٠.

(٣) إرجع على سبيل المثال إلى: حزب البعث العربي الاشتراكي، لمحات من نضال البعث، ١٩٤٧ ـ ١٩٧٧، الطبعة الرابعة (بغداد، وزارة المعارف والثقافة، ١٩٨٦)، صفحات ٨٧ ـ ١١١.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وأي تنافس على القيادة؛ وأن يضعف الجيش حتى يتجنب الانقلابات العسكرية، وأخيراً، أن يهيمن على مؤشرات السلطة مثل المؤسسات الأمنية، حيث كانت تلك الجوانب حرجة للحفاظ على الهيمنة السياسية[1].

غير أن هناك تماثلات بين الحقبة الأولى والثانية من حكم حزب البعث. ففي كلتيهما، استخدم الحزب وسائل قاسية للتخلص من أعدائه. وعلى الرغم من أن الاشتراكية كانت جزءاً من حزمة أيديولوجية حزب البعث، إلا أنها لم تفرض في كلتا المرحلتين، كما تميزت المرحلتان باستمرار الصراع العسكري مع الأكراد.

بعد فترة من استيلاء الحزب على السلطة عام ١٩٦٣، كان هناك أحساس سائد بافتقاد السلطة السياسية في أنحاء البلاد. بعد ذلك بخمسة أعوام، أي في ١٩٦٨، قررت القيادة ألا تسمح مرة أخرى بمثل تلك الحال من الفوضى. وعلى الرغم من أن الحزب لم تكن لديه خبرة في حكم البلاد عام ١٩٦٣، وكانت قياداته أبعد ما تكون عن الاتحاد على مسار محدد عليها أن تتبعه في كل المناحي الهامة من إدارة البلاد، باستثناء إقصاء الشيوعيين من المشهد السياسي. ويصف أحد المنتمين سابقاً لحزب البعث بحماس في مذكراته الانشقاقات والانقسامات بين قادة الحزب والتوترات المتجددة بين قدامى ضباط الجيش وشباب الحزب من العسكريين. كانت الصراعات بين الفصيلين السياسيين في الحزب، أو ما كان يطلق عليه يسار الحزب ويمينه، تتركز في الأغلب حول أمور مثل الوحدة مع مصر وطبيعة الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية اللازمة، ولكنها تحولت إلى أبعد مدى لتصبح صدامات بين

(١) مار: تاريخ العراق الحديث، صفحات ١١٩ ـ ١٢٣.

الشخصيات وتعطش للسلطة[١]. وكما أخبر أحد قادة الحزب في ذلك الوقت فيب مار لاحقا: «لم نكن جاهزين لتولي السلطة، لقد قضينا كل أوقاتنا السابقة نعمل من تحت الأرض عملا سريا، نحضر المؤامرة»[٢].

عضو آخر سابق أكد أن السرية التي كان الحزب يعمل في إطارها «أدت إلى نشوب خصومات وميول شخصية كما أدت إلى إلغاء وإبطال مبدأ القيادة الجماعية»[٣]. ولخص المؤتمر القطري الثامن للحزب تلك الدروس المستفادة:

فشلت قيادة ثورة ١٩٦٣ [يعني قيادة الحزب في ذلك الوقت] في ممارسة دورها في قيادة حزب ثوري. وتركت ماكينة الحزب دون توجيه مركزي دقيق ومتفهم. وبالتالي كان الحزب غير قادر على العمل كمؤسسة حارسة للثورة عليها أن تقود الثورة كما ينبغي، بغض النظر عن الظروف والأحوال السائدة والمخاطر. لقد فقدت القدرة على المبادرة، وهكذا، أصبح النكوص والتقهقر بسيطاً وممكناً[٤].

وبتعلم الدروس من كارثة ١٩٦٣، أصبحت الآلة التي تم تشحيم تروسها جيدا، مزودة بسلطة مركزية مسؤولة عن تقديم الإرشاد والتوجيه المفصل في كل منحى من مناحي الحياة في البلاد، كما هو مذكور في الفصل التالي.

---

(١) الفكيكي: أوكار الهزيمة، صفحات ٢٧٣ ـ ٢٧٥، ٣٠٧ ـ ٣١٥.

(٢) مار: التاريخ الحديث للعراق، صفحة ١٢١. نقل مار عن طالب شبيب، الذي كان يعتبر معتدلا ووسطيا بين الفصائل المتناحرة في الحزب.

(٣) كامل أبو جابر: «حزب البعث العربي الاشتراكي: التاريخ، والأيديولوجية، والتنظيم» (سيراقوسة، نيو يورك: منشورات جامعة سيراقوسة، ١٩٦٦)، ص ٨٤.

(٤) حزب البعث العربي الاشتراكي، عراق الثورة ١٩٦٨ ـ ١٩٧٣: التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن لحزب البعث ـ العراق (بغداد: الحزب ١٩٧٤) ص ٦٠.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان من النتائج الأخرى التى ترتبت على فترة وصول الحزب للسلطة عام ١٩٦٣، زيادة التدهور في العلاقة بين حزب بعث العراق وحزب بعث سوريا. ورجع ذلك في جانب منه إلى التدخل المستمر من منشئ الحركة الأيديولوجية الأولى لحزب البعث، ميشيل عفلق، في سياسات الدولتين، ولكن الجانب الأعظم كان بسبب «رغبة حكام سوريا في احتكار شرعية حزب البعث»، ومنعهم لمن يوالونهم في الحزب من نقل ولائهم لجناح بعث العراق[١].

أما عبد السلام عارف الذي حصل على عفو من عبد الكريم قاسم، فقد أصبح رئيساً للعراق بعد انقلاب ١٩٦٣؛ وعلى الرغم من أنه لم يكن بعثيا؛ فقد ناور على حزب البعث حتى يؤيد رئاسته. وفي نوفمبر من العام ذاته دبر انقلاباً آخر ليتخلص من تدخل حزب البعث في السلطة، وبدأت صفحة جديدة من تاريخ العراق، بحكم «الأخوين» عارف (عبد السلام، ١٩٦٣ ـ ١٩٦٦؛ عبد الرحمن ١٩٦٦ ـ ١٩٦٨).

وكما يشرح بطاطو، كان «التحالف المكون من رجال الجيش والبعثيين واتباع الأخوان عارف والناصريين تحالفا بين جماعات متناحرة، وبالتالي ولد مع ذلك التحالف عدم الاستقرار وغياب التآلف»، وكان البعثيون هم الخاسرون في ذلك التنافس[٢].

لم يقص عارف حزب البعث عن السلطة فقط مستغلا شعبية الحزب المحدودة ـ نتيجة للتجاوزات التي ارتكبتها ميليشيات الحزب ـ ، ولكنه انتزع أيضاً من الحزب شعاراته الرسمية الثلاثة. في حديث له في ١٣ فبراير عام ١٩٦٧، أعلن عارف «ليست الحرية والاشتراكية والوحدة

---

(١) إيبرهارد كايتل: البعث ضد البعث: الصراع بين سوريا والعراق ١٩٦٨ ـ ١٩٨٩ (لندن آي بي تاوريس، ١٩٩) ص ١٧٠.

(٢) بطاطو: «الطبقات الاجتماعية القديمة»، صفحة ١٠٣٠.

احتكارا لأحد، فهي تمثل أهدافا حميمة لكل القوى الوطنية وللوطنيين»[1]. سرعان ما راح عارف يعمل بكل جهد على تقوية وترسيخ سلطته على الفور بعد نوفمبر ١٩٦٣، فنحى جانبا شخصيات مثل أحمد حسن البكر بينما تبنى وقرب الجناح اليميني من حزب البعث أو الأعضاء الذين كانوا مهمشين وتم إدماجهم في النظام الجديد. وهذا الأمر في غاية الأهمية لأنه كما سنتبين لاحقاً، قام الحزب وتنظيماته الأمنية بإيلاء أهمية شديدة لسلوك أعضائه بعد نوفمبر ١٩٦٣، وأصبحت طلبات الالتحاق بعضوية الحزب تتطلب معرفة كل ما يتعلق بطالب العضوية وتدوين كل أنشطته عن تلك الفترة.

وبتكوين الحرس الجمهوري كميليشيات لها صلاحيات داخل الجيش كان ذلك بمثابة إشارة وحدس بتركيز نظم السلطة والولاء الشخصي والذي كان قد تفاقم بحزم وتشدد تحت حكم صدام حسين. وفي الوقت الذي اعتمد فيه عارف على الضباط الذين يثق بهم، قام صدام بإحلال رفاقه المدنيين من الحزب محلهم، وخلع عليهم رتبا عسكرية. أغلب أعضاء النظام الجديد كانوا من أشد المعجبين بالرئيس المصري ناصر، أو الرؤساء العروبيين الآخرين، غير أن سياسة عارف جمعت بين توجه عربي قوي مع توجه ديني اجتماعي محافظ مستمد من إيمان إسلامي. كان هو الآخر معاديا للأكراد والشيعة. ففي عام ١٩٦٣ على سبيل المثال، كرر إصدار أوامره لسحق الحركة الكردية المطالبة باستقلال المنطقة الكردية، وفي اجتماع للقادة وصف الشيعة بازدراء بأنهم شعوبيون وعارض وانتقد سياسة عبد الكريم قاسم التي كانت تتبنى

---

(١) س.ل. إيجرتون، السفارة البريطانية، بغداد، إلى د. مونتجومري، القسم الشرقي، الشؤون الخارجية، ١٤ فبراير ١٩٦٧. تم التوصل إليها عن طريق سينجيج ليرننج، ميدل إيست أونلاين السلسلة ٢: العراق من ١٩١٤ إلى ١٩٧٤.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فتح كل الأبواب أمام جميع العراقيين بغض النظر عن انتمائهم العرقي أو الديني[١].

في المجال الاقتصادي، تبنت الحكومة اتخاذ بعض الخطوات تحت إشراف طاهر يحيى لتمهيد الطريق لتنفيذ الوحدة مع مصر. فأمم البنوك وشركات التأمين والشركات الكبرى، وترك الشركات المتوسطة مملوكة للقطاع الخاص كما هي[٢]. ولم تلق تلك التوجهات المفاجئة استحسانا من مجتمع رجال الأعمال، ولا أدت إلى أي تحسن في الموقف الاقتصادي العراقي ولم تحل أي من مشاكله المماثلة لمشاكل كثير من الدول النامية التي كانت تحاول أن تشق طريقها بتصنيع بعض احتياجتها بدلاً من استيرادها من جهة، وتأمين احتياجات قطاع الزراعة من جانب آخر.

استمر الصدام بين الناصريين العراقيين وبين القوميين المعتدلين. في الوقت ذاته، وبحلول عام ١٩٦٥ كانت كل من مصر والعراق قد أصبحتا أقل حماسا لتنفيذ الوحدة، فقد أدرك الجانبان حجم العراقيل والموانع العملية التي تواجه تحقيق الوحدة. وفقد الناصريون أي تأثير أو ثقل لهم حين أحبط أتباع ومؤيدو عارف في الجيش انقلاباً عسكرياً دبره

---

(١) الفكيكي، أوكار الهزيمة، صفحة ٢٧٣. تعود الشعوبية للعصر العباسي ويبدو أنها كانت روابط قبلية غير عربية (أعجمية). إرجع إلى أوفرا بنجيو، كلمة صدام: كشف السياسة العراقية (مطبوعات جامعة أكسفورد، ١٩٩٨) صفحة ١٠٣.

(٢) لمعرفة رصد مفصل لمرحلة الأخوين عارف، إرجع إلى ميشيل إيبيل: «العراق من الملكية إلى الاستبداد: من الهاشميين إلى صعود صدام» (جينزفيل، جامعة فلوريدا، ٢٠٠٤)، صفحات ٢١٤ ـ ٢٤٠. ويذكر كل من مار وإيبيل أن العقل المدبر لتلك الإجراءات الاقتصادية هو خير الدين حسيب، محافظ البنك المركزي العراقي في ذلك الوقت الذي كان معجبا بالنموذج المصري.

رئيس الوزراء الناصري[1]. وعلى الرغم من الوحدة المفترضة، كانت العلاقات الثنائية بين العراق ومصر تشوبها الاضطرابات ككل أوجه تاريخ العراق؛ فقبل عام فقط، اكتشفت مؤامرة حزب البعث في القوات المسلحة، وأرسلت مصر قواتٍ عسكرية كإشارة لدعمها لنظام عارف[2].

وبسبب المناورات والمؤامرات السياسية التي كانت تحاك ضده، أحس عارف بضرورة وأهمية توسيع قاعدة دعمه الجماهيري. وعلى الرغم من أنه لم يكن متسلطاً كما كان قاسم، كانت سياسة عارف في استيعاب وقبول الجماعات الأخرى غير القوات المسلحة كان لها صدى جيد لدى صدام بعد عام ١٩٦٨. كان شيوخ العشائر «متظاهرين على نسيج من علاقة الراعي والعميل، محكومة بالعوائد المتاحة للحكومة المركزية من خلال تصدير النفط»[3]. وبتبنيه للعشائرية وبتعيين كثير من مؤيديه وأعضاء الحرس الجمهوري من عشيرته، عشيرة الجميلات، أرسى عارف نمطاً لصدام حسين كي يقتفي أثره بعد ذلك بأعوام.

وبعد أن أحس أنه قد استقر في منصبه، عين عارف رئيسا مدنيا للوزراء لأول مرة منذ ثورة ١٩٥٨. شكل عبد الرحمن البزاز وهو عروبي قومي وعميد سابق لكلية الحقوق بجامعة بغداد حكومة كان أغلب وزرائها من المدنيين. راح البزاز يؤكد على دور القانون، وبدأ باتخاذ إجراءات اقتصادية وتوجهات مغايرة في السياسة الخارجية نتج عنها تحسن في صورة العراق في الخارج، وخلق حالة من التفاؤل

---

(١) فاروق سلوجليت وسلوجليت: «العراق منذ ١٩٥٨»، صفحات ٩٦ و٩٧.

(٢) لنظرة أوسع على محاولات الوحدة بين العراق ومصر وعلاقات العراق بكل من سوريا ومصر، إرجع إلى مالك مفتي، خلق الحكام: القومية العربية والنظام السياسي في سوريا والعراق (إيثاكا، نيويورك، مطبوعات جامعة كورنيل، ١٩٩٦).

(٣) تريب: «تاريخ العراق»، صفحة ١٧١.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالبلاد. على الجانب الاقتصادي، ابتعد البزاز عن سياسة التأميم التي اتبعتها الحكومات السابقة وأطلق حزمة من الخطط الجديدة لدعم القطاع الخاص. ولسوء حظ العراقيين، لم يستمر ذلك الحكم المدني طويلا. ففي شهر أبريل ١٩٦٦، لقي عبد السلام عارف حتفه في حادث تحطم طائرة مروحية نتيجة لعاصفة رملية، وحل أخوه عبد الرحمن عارف محله، وكان عبد الرحمن عارف رئيسا لأركان الجيش في ذلك الوقت.

إلا أن الحكومة اشتبكت في حرب جديدة ضد الأكراد، وقر عزم البزاز الذي عين من جديد رئيسا للوزراء من قبل الرئيس الجديد على إيجاد حل. ولكن، لم يؤد قراره للاستجابة لمطالب الأكراد ولا سياسته الليبرالية إلى قبول العسكريين ولا الناصريين له. في اليوم التالي لتوقيع اتفاقية مع الأكراد، وقعت محاولة انقلابية جديدة. وتم إفشال مخطط الانقلاب الذي دبره الناصريون، ولكن لم يحل فشل الانقلاب دون تنفيذ جانب من المخطط وهو قصف القصر الرئاسي بعد السيطرة على بعض القواعد الجوية[١]. وهكذا، وصلت الفترة الإصلاحية القصيرة للحكم المدني لنهايتها. حل محل البزاز في رئاسة الحكومة رؤساء وزارات كانوا كلهم من العسكريين، مما أثبت من جديد أنه لا مفر من حكم العسكريين. وعلى عكس أخيه، لم يكن لدى عبد الرحمن عارف قدرة أخيه ذاتها في استمالة القوى المختلفة عن طريق نظام الحماية والمناصرة الذي كان يجيده أخوه الراحل، فبدأ الخصوم يظهرون على السطح بين كل الفصائل المتناحرة المتنازعة على السلطة. في خضم ذلك المناخ السياسي الملتهب، سببت هزيمة الجيوش العربية على يد إسرائيل في حرب يونيو ١٩٦٧ هزة شديدة داخل العراق وفي غيره من الدول العربية. وعلى الرغم من أن العراق لم يكن من الدول الرئيسة

---

(١) إيبيل: «العراق من الملكية للاستبداد»، صفحات ٢٢٥ إلى ٢٣٠.

التي خاضت تلك الحرب ولم يعان إلا من خسائر محدودة، إلا أن تبعات تلك الهزيمة كانت جسيمة وعديدة وأدت إلى ضعف شرعية النظم العسكرية كأكثر الأشكال فعالية في نظم الحكم العربية.

على الجانب الاقتصادي، وبينما كانت «الاشتراكية» القاسم المشترك الأكبر في سياسة الإخوة عارف، إلا أن قليلاً من الإجراءات التي تحقق الاشتراكية تم تنفيذها باستثناء عمليات التأميم الكبرى التي أجريت عام ١٩٦٤. وفي الحقيقة، كانت هناك عوامل مستديمة من الخلط في أوساط عالم الأعمال حول عقيدة السياسة الوطنية، لذلك تم تهريب أغلب الأصول المادية إلى خارج البلاد[١].

مع كل تغيير في رئاسة الحكومة كانت تظهر توجهات جديدة في التخطيط الاقتصادي، وقد تعاظم ذلك بشدة حين أدى سقوط عبد الكريم قاسم إلى الحيلولة دون وصول تلك الخطط الاقتصادية إلى غايتها وتحقيق الثمار المرجوة منها[٢]. ولكن، طبقاً لما يذكره سلوجليت، على الرغم من عدم تحقق كثير مما هو مطلوب لإصلاح البنية الاقتصادية، تمكن الاقتصاد الخاص والحر من الصمود في وجه عدم الاستقرار الذي تسيد عقد الستينيات، بل أنه توسع أكثر في مجالات أنشطته[٣].

في الوقت ذاته، تم إحراز تقدم ملحوظ في المجال الصناعي. أكد قدرة العراق على الصمود أمام نفوذ شركة نفط العراق والتي كانت مكونة من تآلف شركات أجنبية، ومنحت الحكومة العراقية للشركة

---

(١) فاروق سلوجليت وسلوجليت: «العراق منذ ١٩٥٨»، صفحة ٢٢٠، انظر أيضاً صفحات ٢١٩ ـ ٢٢٧ لنظرة عامة إلى الاقتصاد والمجتمع تحت حكم الأخوين عارف.

(٢) حسين عسكري وجون توماس كومنجز، «اقتصاد الشرق الأوسط في السعينيات»، نظرة مقارنة(نيويورك، بريجر، ١٩٧٦)، صفحات ٤٣٥ ـ ٤٣٧.

(٣) فاروق سلوجليت وسلوجليت: «العراق منذ ١٩٥٨»، صفحة ٢٢٠.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الوطنية للنفط حق استخراج النفط في كل المناطق التي لم تمنح كامتيازات لشركة نفط العراق. كانت أولى خطوات الهيمنة على مصادر النفط العراقي في عهد عبد الكريم قاسم حين صادرت الحكومة أغلب مناطق امتياز الحفر التي كانت تحت هيمنة شركة نفط العراق. وكانت الخطوة التالية تكوين شركة نفط وطنية، ووصلت سياسة الهيمنة إلى قمتها بتأميم شركة نفط العراق في ١٩٧٢ ـ ١٩٧٣ بفرض الحراسة عليها تحت حكم صدام. غير أن سياسة التصنيع العامة العريضة للدولة كانت تتحرك ببطء: وبلغ معدل النمو في الإنتاج الصناعي للأعوام من ١٩٦٢ ـ ١٩٦٩ نسبة متواضعة لم تتجاوز ٥,٢ بالمائة سنويا، مقارنة بنسبة نمو بلغت ١١ بالمائة في الأعوام من ١٩٥٣ حتى ١٩٥٨[١]. وفي المجمل، ركد الاقتصاد، واستمرت الدولة في الاعتماد بصفة رئيسة على عوائد النفط، بنسبة وصلت بالنفط إلى ٩٠ بالمائة من قيمة مجمل الصادرات الوطنية. وبنهاية عقد الستينيات، لخص النصراوي الموقف الاقتصادي بدقة متناهية قائلاً:

أدى عدم الاستقرار السياسي وكثرة وقوع الإنقلابات العسكرية من عام ١٩٥٨ إلى حدوث خسائر هائلة على مستوى الموارد البشرية، والمستويات السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية في بلد يتطلع ويسعى للتطور والتنمية. أدى عدم الاستقرار إلى تعطيل تنفيذ الإصلاح الزراعي، وأحبطت جهود تطوير الصناعة والزراعة، مما زاد من الاعتماد على القطاع النفطي... وأدى كل ذلك في المجمل في نهاية الأمر إلى ركود اقتصادي حقيقي[٢].

---

(١) جوزيف ساسون: «التصنيع في العراق ١٩٥٨ ـ ١٩٦٨»، ها ميزرا هي ـ هاداش، المجلد ٣٠ (١٩٨١)، صفحة ٤٦.

(٢) عباس النصراوي، تمويل التنمية الاقتصادية في العراق: دور النفط في اقتصاديات الشرق الأوسط.

وبعد أن فقد السلطة في عام ١٩٦٣ أصبح حزب البعث في مأزق حقيقي. فقد انقسم قادة الحزب على أنفسهم، وكل فريق كان يلقي باللائمة على الفريق الآخر لفشله في تجربته الأولى في السلطة. وتدخل ميشيل عفلق، وظهرت قيادات وطنية جديدة، بوجود أحمد حسن البكر وصدام حسين في القيادة القطرية للحزب، وهي أعلى سلطة اتخاذ قرار في الحزب (داخل العراق). كان ذلك بمثابة إنجاز كبير جداً بالنسبة لشاب صغير السن مثل صدام حسين، فقد كان مجهولا من الجميع وما زال في العشرينيات من عمره. من بداياته سعى صدام لمد سيطرته على الحزب، واستغل تعيينه على رأس جهاز استخبارات وأمن الحزب، والذي عرف بإسم جهاز حنين. وفي سبتمبر عام ١٩٦٤ حين فشل الانقلاب الذي دبره حزب البعث ضد عارف، كان صدام ضمن عديد من قيادات الحزب التي اعتقلت وسجنت. وظل رهين الحبس لمدة عامين حتى تمكن من الفرار، على الرغم من أن الأحوال لم تكن بتلك القسوة التي لقيها منه خصومه بعد ذلك بأعوام. فقد كان بمقدوره وهو معتقل أن يحظى برؤية أسرته وطفله عدي البالغ من العمر ستة أشهر، وكان يرسل الرسائل لاحمد حسن البكر مخبأة في ملابس طفله[١].

كان عارف إما متسامحاً جداً أو يشعر بأنه في مأمن لدرجة لا تدفعه لعقاب أحد؛ ومن ثم فقد ظهرت سياسة مزدوجة حيث عوقب بعض أعضاء حزب البعث بالسجن بينما سمح لبعض آخر بالاستمرار في حياتهم العادية دون أي عوائق. أما عبد الرحمن عارف الذي كان يدرك ضعفه السياسي، فقد راح يلتقي بانتظام بأحمد حسن البكر وحاول أن

---

(١) فؤاد مطر: صدام حسين: الرجل والقضية والمستقبل (لندن: مركز العالم الثالث ١٩٨١) صفحة ٤٦.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يسجل حزب البعث في قائمة تحالف القوى الوطنية. لم تبذل جهود جادة لإعادة اعتقال صدام حسين بعد فراره من السجن، وبحلول نهاية عام ١٩٦٦، حين كان صدام في سن التاسعة والعشرين، أصبح نائب الأمين القطري لحزب البعث.

واتسع الرتق بين حزبي بعث سوريا والعراق. ففي فبراير ١٩٦٦، أجبر انقلاب عسكري قام به الجناح اليساري من الحزب ميشيل عفلق وبعض قيادات الحزب السورية على اللجوء للعراق. من تلك اللحظة الفارقة، وعلى الرغم من وجود فترات قصيرة من التقارب، لم يمكن أبدأ رأب الصدع بين ما كان يطلق عليه الجناح اليساري للحزب في سوريا والجناح اليميني في العراق بقيادة البكر وصدام حسين. واتخذ حزب البعث العراقي الذي أدرك خفوت وتناقص جاذبية الناصرية والقومية العربية ـ وعلى وجه التخصيص بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ ـ موقفا معاديا لناصر وسياساته القومية العربية في العالم العربي، وهكذا بدأ يحقق شعبية بين الوطنيين العراقيين. وبالفعل، كان ضعف الإحساس بالعروبة في العراق مقارنة بسوريا أحد الجوانب المميزة في التفريق بين أيديولوجيتي بعث العراق وبعث سوريا[١]. واستمر التنافس الإقليمي قائما، مع تصميم صدام حسين بألا يسمح للفرع السوري بأن يصبح زعيما للبعث في الوطن العربي[٢].

وبقي عفلق بالعراق حتى مات بها بعد أن لقى احتراما فائقا من صدام حسين بصفته الأب المؤسس للحزب. واستمر التضاد بين

---

(١) سلوجليت: «حزب البعث»، صفحة ٩٦.

(٢) لمزيد من التفاصيل حول الصدع بين الدولتين إرجع لكاينل «بعث ضد بعث».

الدولتين في التعمق حتى أن بعث سوريا انضم للتحالف لتحرير الكويت من الاحتلال العراقي عام ١٩٩١[١].

قوى بعث العراق من تنظيمه، مستغلا حالة عدم اليقين السياسي وأزمة الثقة السياسية التي صدمت العراق في نهاية عام ١٩٦٧؛ كانت خيبة الأمل الشعبية من الأخوين عارف خاصة بعد حرب ١٩٦٧، والتي قوضت كثيراً من شرعيتهما على رأس المؤسسة العسكرية؛ وتناقص جاذبية القومية العربية، وضعف الحزب الشيوعي العراقي الذي بدأ بعد انقلاب عام ١٩٦٣؛ وآخر تلك العوامل، الاهتمام المتنامي بأيديولوجية حزب البعث، والتي كانت تنقصها التفاصيل ولكن كان بإمكانها أن تجذب قطاعات عديدة من الشعب.. ووصف التقرير السياسي للمؤتمرالقطري الثامن للحزب الفترة السابقة على انقلاب يوليو ١٩٦٨ قائلاً: «كانت الفترة الماضية تماثل الولادة المتعثرة، ومليئة بالخبرات المكتسبة، والمشاكل، ونجاحات، وفشل، وتقدم وتراجع»[٢].

وفي الواقع، ركزت سياسة حزب البعث بين نوفمبر ١٩٦٣ ويوليو ١٩٦٨ على كيفية الاستحواذ على السلطة أكثر من تركيزها على وضع برامج سياسية لجذب أعضاء جدد[٣]. أبعدت قيادة الحزب الجديدة نفسها عن أولئك الذين ارتبطت اسماؤهم بفترة فبراير ـ نوفمبر ١٩٦٣،

---

(١) لشرح الصدع بين الحزبين، إرجع إلى جون ف. ديفلن: «حزب البعث: الصعود والتحول»، دورية التاريخ الأمريكية، الجزء ٩٦، رقم ٥ (ديسمبر ١٩٩١)، صفحات ١٣٩٦ ـ ١٤٠٧.

(٢) حزب البعث العربي الاشتراكي، العراق الثورية، صفحة ٥٤.

(٣) ماريون فاروق سلوجليت وبيتر سلوجليت: «من عصابة إلى صفوة: اغتصاب البعث العراقي للسلطة ١٩٦٨ ـ ١٩٧٥»، شعوب المتوسط رقم ٤٠ (يوليو ـ سبتمبر ١٩٨٧)، صفحة ٩٠.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مثل علي صالح السعدي، وراحت تعمل على تمتين وتقوية دعمها بين القوى العسكرية والمدنية، وتزعم صدام حسين القيام بالجانب المدني.

استمر التنازع والصراع داخل نظام عارف، بينما أدى توقف الحرب ضد الأكراد إلى خلق مزيد من المخاوف بين الضباط. كان البعثيون يتواصلون مع كثير من كبار ضباط الجيش، مما أوصلهم إلى توافق مع العقيد عبد الرزاق النايف، مدير المخابرات العسكرية، والعقيد عبد الرحمن الداوود، قائد الحرس الجمهوري، وتوافقوا جميعاً على التخلي عن عارف والتوقف عن دعمه. وأجبر عارف على الاستقالة في ١٧ يوليو ١٩٦٨، وسمح له بالخروج إلى منفى آمن لأنه لم يكن يمثل أي خطر حقيقي على حزب البعث.

بعد ذلك بأعوام سيتذكر صدام حسين ذلك الانتقال السلمي للسلطة ويعبر عن افتخاره بأنه لم ترق فيه نقطة دم واحدة. وتم تأسيس مجلس ثوري مكون من سبعة أفراد، وتكون بصفة رئيسة من شخصيات عسكرية، وتحرك حزب البعث بسرعه مدركا أخطاءه وخصوماته التي تورط فيها عام ١٩٦٣ لتوحيد صفوف مؤيديه من بين العسكريين. بعد ثلاثة عشر يوما من ذلك الانقلاب السلمي، تم نفي العقيدين وواحد آخر مستقل (سعدون غيدان) بتعيينهم كسفراء، وأصبحت هيمنة البعث كاملة على المجلس[١].

استغل حزب البعث بمهارة كل فراغ القوة الذي كان متحققا في مناحٍ كثيرة من الدولة كما استغل رغبة الشعب في وجود دولة قوية ومستقرة

---

(١) لمزيد من التفاصيل الموسعة لأحداث ١٧ يوليو و٣٠ يوليو، ارجع إلى فاروق سلوجليت وسلوجليت، «العراق منذ ١٩٥٨»، صفحات ١٠٨ ـ ١١٦؛ وتريب: «تاريخ العراق» صفحات ١٨٥ ـ ١٩٢.

ينطلق منها العراق لتحقيق الحداثة والمعاصرة وتنمية قدراته الكامنة. وكما سجل الأخوان سلوجليت عن الفترة التي سبقت عام ١٩٦٨ : «كل طموحات تأسيس أي شكل لحياة سياسية ديموقراطية مرتكزة على مؤسسات تمثل الشعب تم سحقها، وهيمن نظام حكم ليس لديه أي مصدر للشرعية إلا الشرعية التي تتيحها القوة العسكرية وامتلاك وسائل الإكراه»[١]. انعدام الاستقرار في أعوام الاضطرابات المحصورة بين ١٩٥٨ و١٩٦٨ دفع بعنصر آخر للمقدمة: وهو العنف السياسي. أصبح اللجوء للعنف وسيلة مقبولة لحل النزاعات السياسية، حتى بين أعضاء الحزب أو الفصيل ذاته. لم يتردد كل من عبد الكريم قاسم (إلى حد ما)، وعبد السلام عارف (إلى حد كبير) في إرسال خصومهم، وأحياناً من كانوا زملاء مقربين، إلى المقصلة[٢]. وعلى الرغم من أنه كان من المتوقع من صدام حسين وحزب البعث أن يلجأا للعنف السياسي ويصعّدان من القسوة والخشونه إلى مستويات أعلى بعد ١٩٦٨، فقد وضعت أسس تلك التوقعات بعد ثورة يوليو ١٩٥٨ وعلى وجه التخصيص بعد ١٩٦٣. كان هاني الفكيكي عضو القيادة القطرية لحزب البعث وعضو المكتب السياسي للحزب في عقد الستينيات أكثر أمانة من كثيرين غيره عند تقييم تلك المرحلة حين قال:

اعتدت أن أزور مراكز الاستجواب والتحقيق وسجن قصر النهاية... وعلى الرغم من أنني لم أساهم شخصيا في تعذيب أي من المشتبه بهم أو المتهمين، إلا أنني لا أتذكر أنه كانت هناك أي إدانة إو

---

(١) فاروق سلوجليت وسلوجليت: «العراق منذ ١٩٥٨»، صفحة ٩٣.

(٢) في يوليو ١٩٦٣، أصر عارف على إعدام ٤٥٠ ضابط كانوا متهمين بولائهم لعبد الكريم قاسم أو بكونهم شيوعيون في عهد قاسم. إرجع للفكيكي، أوكار الهزيمة، صفحات ٢٧٨ ـ ٢٨٠.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

استنكار لما يحدث من تعذيب، كنت أعتقد، مثل كل الثوار في تلك الحقبة، أن حماية الثورة والحزب فوق كل الاعتبارات الأخرى وأن تحقير وتعذيب الأعداء والخصوم السياسيين من صميم أوجه حماية الثورة والمسار الثوري[1].

تلك النظرة العامة السابقة أظهرت أن تاريخ العراق المليء بالاضطرابات في القرن العشرين اتسم بفراغ متكرر في السلطة بين كل الفصائل التي تداولتها. وأعاق الخصوم على الدوام تطور البلاد وتقدمها، وعلى وجه التخصيص أعاقوا استغلال الثروات الطبيعية والقوى البشرية الهائلة ومواهبها الكامنة. وفي الحقيقة، تعود أغلب المتاعب التي سادت من ١٩٦٨ حتى ٢٠٠٣ إلى أحداث الستينيات: أي ترسيخ عارف للعشائرية السياسية، وعلى تكوين جماعات المستفيدين، وفي إدارة مصادر ثروات البلاد بطريقة تسمح لمن يستولون على السلطة باستغلال تلك الثروات في تحقيق رغبات واحتياجات ومكافأة شبكات المؤيدين والداعمين، وإنشاء مؤسسات أمنية لسحق وقهر الخصوم. وكما سنتبين من خلال الفصول التالية، أتقنت قيادة حزب البعث القيام بكل ذلك مجتمعا لمصلحتها وحكمت عن طريقها لثلاثة عقود ونصف متصلة.

فهم الحزب، وعلى وجه التخصيص صدام حسين، شغف الأمة وتطلعها إلى تحقيق الاستقرار والرخاء. واستغله في فرض نظام سلطوي استبدادي وتأسيس عبادة القائد الفرد على أسس تبدو كوعود مقنعة بتحقيق مستقبل أكثر إشراقاً.

---

(١) الفكيكي: «أوكار الهزيمة»، صفحة ٢٧٦.

الفصل الثاني

بنية الحزب وتنظيمه

مكّن تطوير جهاز حزب البعث خلال الخمسة والثلاثين عاماً التي قضاها في الحكم قيادة الحزب من التغلب على الصراعات الداخلية، واجتياز حربين مدمرتين، والصمود فترة طويلة في وجه حصار وحظر وعقوبات دولية شديدة وقاسية، وخوض معارك كبرى ضد كل من الأكراد والشيعة أثناء انتفاضة عام ١٩٩١. وبكونه الذراع الطويلة لصدام، أصبح الحزب تنظيما قويا مؤثراً حتى أنه لعب دوراً محوريا في الحفاظ على سلطة النظام. في بنيته، وعضويته، وتجنيد الأعضاء وتوظيفهم، وحملات التعليم السياسي، وتميز حزب البعث عن الأحزاب الحاكمة في النظم الاستبدادية الأخرى.

بنية الحزب

لعب حزب البعث دوراً خطيراً في صنع القرار في العراق، وكانت بنيته مشابهة في أوجه كثيرة لبنية الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي. فكلا التنظيمين يمكن تسميته التنظيم الأوحد، وكل الأنشطة كانت تدار بتراتب سلطة من قبل مسؤولين معينين جميعاً تحت أمرة قيادة فردية[١].

(١) ت.هـ. رجبي، «الستالينية والمجتمع أحادي الحزب»، في طبعة روبرت س تاكر،=

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وبعد أن تضخم الحزب حجما وعددا وازدادت مسؤولياته في الحكم، أصبحت البيروقراطية حيوية لتحقيق النجاح. تظهر وثائق حزب البعث بوضوح أنه كان هناك تقسيم بارع للعمل، ومثل النظام السوفييتي، كانت الأهداف والقرارات تتخذ في قمة الهرم التنظيمي، حتى أن «النجاح التنظيمي يعتمد على كل مشارك بأن يؤدي مهمته بالضبط كما كلف بها، دون ضرورة لأن يفهم كيفية العمل الكلي للتنظيم أو حتى كيفية دعم أهدافه»[١]. كان ذلك هاما جدا، علما بأن العراق أصبح رسميا بلدا بعثيا بعد أن وصل الحزب للسلطة عام ١٩٦٨:

علينا أن نؤكد أن هذا المجتمع يقوده حزب، وأن ذلك الحزب هو حزب البعث الاشتراكي العربي، وهو يقود [الشعب] بقيمه، وتنظيماته، وهو يقود الشعب أيضاً في أفكاره وسياساته.... وهكذا... فمن الضروري أن تكون قيم الحزب وأيديولوجيته في مقدمة كل الفعاليات، ومن خلال جهاز صنع القرار في جميع أنحاء الدولة[٢].

ومن أجل التأكد من أن الحزب قد تخلل وهيمن على كل أوجه الحياة في العراق، احتل أعضاؤه أغلب الوظائف المهمة في البلاد. في عام ١٩٧٤، أعلن التقرير السياسي الصادر عن المؤتمر القطري الثامن للحزب أن الحزب نجح «في توحيد قيادته... لدرجة تجعلها قادرة على حماية النظام وتطبيق برامجه». ولكن التقرير أعترف بأن «المرحلة لم تكن خالصة من وقوع كثير من الأخطاء وأوجه سلبية»، من بين تلك

=الستالينية، مقالات في التفسير التاريخي (نيو رونسويك، نيو جيرسي: تحويلات، ١٩٩٩)، صفحات٥٣ ـ ٦٧.

(١) المصدر السابق، صفحة ٥٤.

(٢) صدام حسين، الثورة والتربية الوطنية (بغداد، المكتبة الوطنية، ١٩٧٧)، صفحات ١٢ ـ ١٣.

الأخطاء «الخطوات التي اتخذها الحزب بوضع أعضاء الحزب في وظائف حكومية حساسة [التي] كانت ضرورية ولكن ترتب عليها بعض النتائج السلبية»[١].

كانت مركزية السلطة هي العنصر المفتاح في استراتيجية البعث. أعلن تقرير المؤتمر الثامن للحزب أن ثاني أهم المهام والأهداف التي تواجه الثورة، بعد تفكيك شبكات الاستخبارات الأجنبية والقضاء على العملاء هي «بناء سلطة وطنية مركزية قوية»[٢]. ومن ثم، كان كل قرار كبير وخطير في الحزب الحاكم لابد أن يكون مركزيا من مكتب أمانة سر القطر، أي في الجوهر من مكتب قيادة الحزب. في مذكرة من مجلس قيادة الثورة إلى كل الوزارات، قرر أن كل «المراسلات بين وزارات الدولة وتنظيمات الحزب لابد أن ترسل من خلال أمانة سر الحزب»[٣].

وتم رسم وظائف وتخصصات أمانة سر الحزب بطريقة واضحة ومتقنة ودقيقة وشديدة الاهتمام بالتفاصيل. وتشكل تسلسل السلطة في أمانة سر الحزب طبقا للتوجيهات التي تم توزيعها من مكتب الرئيس، ووظيفة كل دائرة وقسم إداري تم تعريفها بوضوح[٤].

تحكمت الأمانة العامة في توجيه كل فرع من فروع الحزب، وتحكمت الفروع بدورها في التحكم بكل أوجه الحياة المدنية

---

(١) حزب البعث العربي الاشتراكي، عراق الثورة، صفحات ٦٦ ـ ٦٧.

(٢) المصدر السابق، صفحات ٧٤ ـ ٧٧.

(٣) من القيادة القطرية إلى كل الوزارات، «دورية»، ١٦ يناير ١٩٧٨، نيدز، باك٠٣٤، صندوق ٠١٩١ (١٠٠٠٦٧).

(٤) التوجيه رقم ١٠ من صدام حسين إلى كل من يهمه الأمر، ٢٦ ديسمبر ٢٠٠١، القيادة القطرية، ٠١٠ ـ ٢ ـ ١(٠٠٧ ـ ٠٣٤).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والعسكرية في البلاد (إرجع للملحق رقم ١). وما يظهر عمق بيروقراطية الحزب هو درجة تعقيد هيكل السلطة الذي يجب تجاوزه من أجل الوصول إلى قرار يؤثر على الحزب أو المواطنين العراقيين. ولسنا بحاجة للقول بأن صنع القرار كان صعبا وغير كفوء، ولكن في الوقت ذاته أتاح لصدام القدرة على الحكم دون خوف من حيازة أي خصم سياسي لقدر كبير من السلطة قد يؤثر على انفراده بها.

من المعتقد أن شعبة التنظيم والشؤون السياسية كانت من أهم الشعب داخل البنية التنظيمية للحزب، فهي الشعبة التي كانت تعد المواد والأمور الواجب طرحها للمناقشة اعتمادا على أوامر وتوجيهات الأمين العام للحزب (صدام حسين) ثم تقوم بعد ذلك بتنفيذ الأوامر التي تنتج عن المناقشة. إضافة لذلك، كانت الشعبة مسؤولة أيضاً عن متابعة الجوانب السياسية مع كل أفرع الحزب. أحد الأقسام الفرعية من تلك الشعبة، وهو قسم المعلومات الخاصة، كان يختص بفحص المعلومات عن أي عضو بالحزب يطلب شغل منصب هام بالحزب أو بالجهاز الإداري التنفيذي للدولة[١].

كانت بعض الشعب مسؤولة عن المنتسبين الجدد للكليات العسكرية، والمعاهد العليا والكليات، ومعهد صدام للدراسات القرآنية، والذي كان قد تأسس للهيمنة على الحياة الدينية بالعراق[٢]. كان لهيمنة الحزب على تلك الكليات العسكرية والمعاهد التعليمية والهيمنة على الالتحاق بها أهمية قصوى للحزب لترسيخ سلطته ومدها على كل

---

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر الملحق رقم ١. لدور المعهد، ارجع للفصل ٨، قسم الدين.

مستويات المجتمع ولمنع الأحزاب الأخرى من زيادة نفوذها بين الطلاب أو على الملتحقين بالكليات العسكرية.

على المستوى التنظيمي، كانت القيادة القطرية للحزب أعلى مستوى سلطوي للحزب في العراق بعد انفصاله عن حزب البعث السوري عام ١٩٦٦. أما في الأصل، فقد كانت القيادة القومية في الحزب هي المسؤول التنفيذي عن مختلف القيادات القطرية في العالم العربي، وعلى الرغم من استمرارها في العمل، إلا أن سلطتها كانت تتضاءل تدريجيا حتى أصبحت سلطة رمزية[١]. تراوح عدد أعضاء القيادة القطرية ما بين تسعة عشر إلى واحد وعشرين عضواً[٢]. وفي البدايات المبكرة لعام ٢٠٠١، كان أهم ستة أعضاء في القيادة القطرية هم صدام حسين، والرباعي (المكون من عزة الدوري، وطه ياسين رمضان، وطارق عزيز، وعلي حسن المجيد)، وقصي صدام حسين.

---

(١) كانت القيادة القومية مكونة من عشرة أعضاء عام ٢٠٠١: صدام حسين وثلاثة أعضاء من الرباعي، إضافة إلى ستة ممثلين لأحزاب البعث في دول عربية مثل الأردن واليمن ولبنان والسودان وتونس وسوريا. سجلات مركز أبحاث الصراعات.

(٢) في شهر مايو ٢٠٠١ كان عدد الأعضاء تسعة عشر. لمعرفة القائمة الكاملة إرجع لدافيد باران كتاب «الطغيان والصمود: العراق والتحول» (باريس: ألف ليلة وليلة، ٢٠٠٤) صفحة١٥١، كانت المرأة العضو الوحيدة هي هدى صالح مهدي عماش. في عام ١٩٧٧، زيدت القيادة القطرية إلى واحد وعشرين عضوا. إرجع إلى فاروق سلوجليت وسلوجليت: «العراق منذ ١٩٥٨»، صفحة ٢٠٨.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

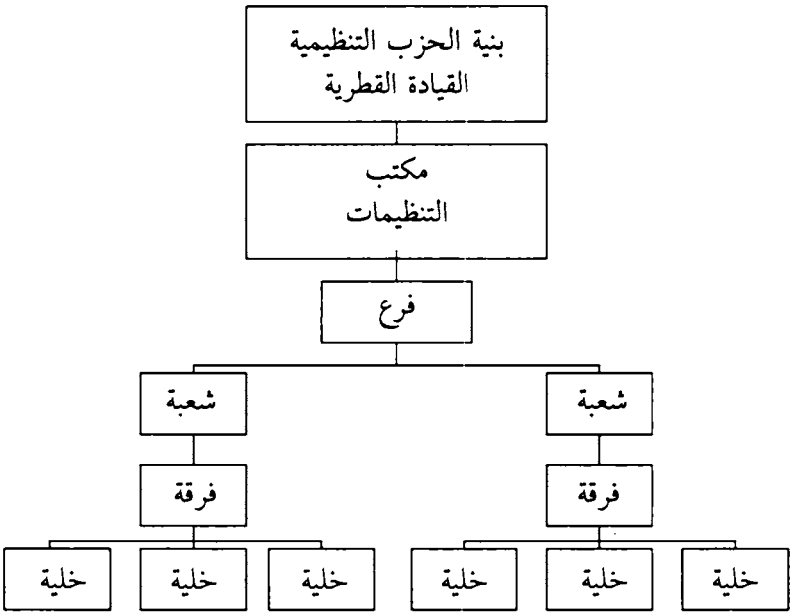

الشكل (١): بنية تراتب القيادة في حزب البعث. المصدر: هيلمز، العراق، صفحة٨٤، صدام حسين، صفحات ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

ويظهر الشكل رقم ١ أن تحت القيادة القطرية مباشرة يقع مكتب التنظيمات، وعرف اختصارا في اللغة الإصطلاحية للحزب باسم «التنظيم»، حيث كانت تجتمع كل أنشطة الحزب على النطاق الجغرافي الواسع تحت سقف واحد[١]. ومع توسع الحزب وتضخمه، نمى بالتوازي عدد التنظيمات؛ فعلى سبيل المثال، وحتى عام ١٩٨٩، لم

(١) كريستين موس هيلمز: العراق، الجناح الشرقي للعالم العربي (واشنطن: معهد بروكنجز، ١٠٨٤)، صفحات ٨٣ ـ ٨٦؛ مطر: صدام حسين، صفحات ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

يكن يوجد إلا ستة تنظيمات: خمسة منها تغطي وحدة جغرافية (بغداد، المركز، الشمال، الفرات، والجنوب)، وواحد للمكتب العسكري. وبحلول عام ٢٠٠٢، كان هناك سبعة عشر تنظيما، تم تقسيمها إلى فروع، عملت كطبقة تالية لرأس السلطة في تسلسل السلطة الهرمي وهيمنت على أنشطة الشعب والفرق والخلايا. وكثيراً ما كان يحدث إدماج لفروع وشعب خلال الخمسة والثلاثين عاماً التي حكم فيها الحزب، وبحلول نهاية عام ٢٠٠٢، كانت هناك تقارير من ستة وثمانون فرعا تتضمن أنشطتهم كما كانت هناك تقارير عن المستويات الأدنى للفروع (انظر الملحق ٢)[١].

تفاوتت أعداد الشعب والفرق من محافظة لأخرى، وازداد عدد الأعضاء، فازدادت طبقا لذلك أعداد الشعب والفرق. على سبيل المثال، في محافظة ميسان، كانت هناك خمس شعب عام ١٩٨٩، ولكن في ٢٠٠٢ ارتفع عددها إلى عشرين شعبة؛ وكان يتبع هذه الشعب ٩٣ فرقة[٢] وطبقا لبيانات عام ٢٠٠٢ (الملحق ٢)، كان هناك ٤٤٦٨ مكتب حزبي (من فروع إلى شعب وفرق) منتشرة في جميع أرجاء البلاد، إضافة إلى ٣٢٠٠٠ خلية.

شغل توسع الحزب تفكير قادة الحزب: هل عليهم أن يقسموا الشعب والفرق التي كانت تتضخم جداً أم يفتتحون شعباً وفرقاً جديدة

---

(١) بعض دراسات الحزب اعتمدت على معلومات من عدد محدود من الفروع. ارجع إلى مكتب المعلومات والدراسات لأمانة سر الحزب، ١٤ يناير ٢٠٠٢، قيادة الحزب ٠١٠ ـ ٢ ـ ٥ (٢٠٠٦).

(٢) قيادة الحزب، ٣١ يوليو ١٩٨٩، ٠٢١ ـ ١ ـ ٤ (١٣٥ ـ ١٣٦)، من أمانة سر الحزب إلى وزارة الأوقاف، «الكتب المقدسة»، ٥ أكتوبر ٢٠٠٢، توجيه رقم ٠١١ ـ ١ ـ ٤ (٢٦). كان الحزب يوزع القرآن على كل الأنصار كجانب من الحملة الدينية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لاستيعاب المنضمين الجدد لعضوية الحزب وتوسيع قاعدته الجماهيرية؟[1].

كان ذلك الموضوع من المسائل الهامة التي شغلت فكر شخصيات الحزب، فقد كانت قيادة الحزب تشجع التنافس بين مختلف العناصر في التنظيم، وكان إجراء تقسيم الشعب يعني تعريفيا إضعافها مقارنة بشعب أخرى. وكما يدل ملحق ٢، وباستثناء المكاتب العسكرية، ضم تنظيما بغداد أكبر عدد من الشعب بإجمالي ١١٤ شعبة (٥٧ شعبة بكل تنظيم)، بينما كان أكبر عدد من الشعب في المحافظات موجوداً في محافظة صلاح الدين التي احتوت على ٥٧ شعبة، مقارنة بكربلاء التي لم يكن بها إلا ١٧ شعبة.

وظائف الحزب

بهدف إحكام قبضته على المجتمع العراقي، تدخل حزب البعث في جميع مناحي الحياة. ففي الداخل، كان على سكرتاريي حزب البعث أن يشجعوا التنمية وتقوية ولاء الأعضاء للحزب. كانوا مسؤولين عن التعليم الحزبي، وإجراء الانتخابات، وتنظيم وعقد الاجتماعات والمؤتمرات، وتنفيذ كل أوامر وقرارات وتعليمات قيادة الحزب، وفرض النظام العام، والتيقن من أن الحزب يقوم بالدور المحوري في كل وحدة عسكرية.

أما على المستوى الوطني، فقد كانت أهم وأخطر وظيفة للحزب هي أن يكون عين وأذن النظام في كل ركن من البلاد. ومع مرور الوقت، كان تأثير الحزب على قوى الأمن، والجيش، وبيروقراطية

(١) انظر على سبيل المثال ملخص اجتماع صدام حسين مع أمانة سر الحزب بفرع الكرخ في بغداد المنشور بصحيفة القادسية، ١٠ يونيو ٢٠٠٢.

الحكومة (في الاقتصاد، والتعليم، والصحة، ألخ)، وعلى العمال والاتحادات والنقابات المهنية، وأيضاً على تأسيس وتنمية عبادة الزعيم القائد، أي صدام حسين، تتعاظم وتنمو بشدة. ومن عقد التسعينيات، بدأ الحزب بالتدخل في توزيع الطعام، وفي ملاحقة واعتقال المنسحبين وهاجري الحزب، وأخيراً، في الإعداد لمقاومة الغزو الذي ستقوده الولايات المتحدة في ٢٠٠٣.

ومثل كل الكيانات الكبيرة المتضخمة، كان على كل شعبة وفرقة أن تقدم تقريرا سنويا تذكر فيه إنجازاتها في قسائم خاصة معدة لذلك من قبل أمانة سر الحزب. كل شعبة كان عليها أن تسجل إحصائيات بعدد الأعضاء في ذلك العام، والأعضاء الجدد المنضمين، والمؤتمرات والاجتماعات التي عقدت مع الشعب الأخرى، وآفاق المستقبل، والأنشطة الثقافية واللقاءات، والمناسبات الشعبية مثل الاحتفالات السنوية أو أنشطة المناسبات الخاصة، والتي شملت تدريب الأعضاء واصطياد أعداء النظام[١].

وفيما يختص بالشؤون الأمنية، تمتعت الشعب والفرق بنفوذ كبير؛ فقد خصوا أنفسهم بكثير من صلاحيات الشرطة التقليدية، وعلى وجه التخصيص خارج نطاق بغداد، وخول لهم رسميا اعتقال المشتبه بهم دون إجراءات عدلية ولا قضائية. كان الحزب مسؤولا أيضاً ضمن مهامة الكبرى الأخرى عن جمع المعلومات عن خصوم الحزب ومعارضيه داخل العراق وخارجه. وتصور الأنشطة الحزبية في شمال العراق كيفية عمل بنية الحزب. كان كادر الحزب مسؤولا عن اعتقال عملاء الحزب

---

(١) أمانة سر الحزب في فرع الكرخ، «الاستمارات» ١١ يونيو، ٢٠٠١، قيادة البعث القطرية، ٢ ـ ٥(٢٨٥ ـ ٢٩٦).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الديموقراطي الكردستاني، ومتابعة أنشطة أعضاء الحزب خارج العراق، ووضع التقارير عن مختلف العشائر بالمنطقة، وضمان ولاء تلك العشائر للحزب، وتجنيد المخبرين، وتشجيع السكان المحليين على الإبلاغ عن أعداء النظام وجمع المعلومات عنهم. كان أعضاء الحزب نشطاء أيضاً في المناطق النائية من كردستان، في توزيع الطعام أو تنظيم حملات محو الأمية، كمحاولة للتقليل من نفوذ الحزب الديمقراطي الكردستاني وعملائه[١].

كان تعريب شمال العراق من الأهداف الأخرى الهامة جداً بالنسبة لمسؤولي حزب البعث. وقد أنجز تلك المهمة بإرسال ونقل أعضاء حزب البعث إلى الشمال. في أحد الأمثلة، المستمدة من وثيقة ترجع لعام ١٩٨٣، تم نقل ٢٣١ عضواً من شخصيات حزب البعث من مختلف المستويات الحزبية و٣٥٠ مدرسا إلى مختلف أرجاء كردستان لزيادة نفوذ الحزب في تلك المناطق[٢]. كان الملمح الثاني من ملامح تعريب كردستان يتضح من منع أولئك الذين يغادرون كردستان من العودة إليها إلا بعد أن يثبتوا ولاؤهم للنظام أو أن يصبحوا أعضاءاً عاملين في الحزب. طور الحزب نظاما محكما لمعرفة أصل كل مواطن

---

(١) من مخابرات مندلي إلى قيادة المخابرات «تقرير ربع سنوي عن نشاط الإرهابيين، يوليو ـ سبتمبر ١٩٨١» ١٠ سبتمبر ١٩٨١، الحزب الكردي الديمقراطي ٠٣٣، صندوق ٢٣٤٤ (٠٩٠٠٠٠ ـ ٠٩٠٠٢٥. انظر أيضاً رئاسة اللجنة لمكافحة أنشطة العدو، من محافظة أربيل إلى أمانة سر الحزب في الشمال، ٣ ديسمبر ١٩٨٨ الاتحاد الوطني الكردستاني ٨٠٠، صندوق ٣٢؛ أمانة سر فرقة سنجار إلى أمانة سر الحزب في الشمال، ٢٥ ديسمبر ١٩٨٧، جهاز معلومات شمال العراق، الاتحاد الوطنى الكردستاني ٠٤٠، صندوق ٢٤٢.

(٢) من أمانة سر الحزب إلى قيادة حزب البعث «تحويلات» ٢٥ أغسطس ١٩٨٣، قيادة الحزب القطرية، ١٦٥ ـ ٥ ـ ٥ (٣٨٥ ـ ٣٩٠).

يريد أن ينتقل للشمال، وذلك للتأكد من أنه ليس كردياً ولا فارسياً، وينتمي للعشيرة الصحيحة، وله سجل سياسي نظيف[١].

حين كان الغزو الذي تقوده أمريكا للعراق قد أصبح وشيكا في نهاية عام ٢٠٠٢، تحول الحزب بكل قوته لهدف واحد هو الإعداد والتحضير للحرب. كانت التقارير تقدم بانتظام حول لقاءات النشطاء الأكراد خارج العراق إما لصالح جماعات البارزاني أو لجماعات طالباني[٢].كانت تحركات الأفراد المنتمين للأحزاب الكردية، الذين دربهم ضباط أميركيون طبقا لما سجلته تلك التقارير تتم مراقبتها عن كثب وبدقة متناهية[٣]. وبالمثل، تواترت الأنباء عن وصول ٥٠٠ فرد للشمال يحملون جوازات سفر عراقية وينتمون في الأصل لحزب الدعوة وادعت التقارير أنهم يعملون لصالح وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وأرسلت تلك التقارير من النشطاء المحليين التابعين لحزب البعث إلى قيادة الحزب[٤].

كان الحزب مسؤولا أيضاً من خلال مكتب الدائرة العسكرية ومكتب

---

(١) من أمانة سر الحزب إلى وزارة الداخلية، ٨ ديسمبر، ١٩٨٠، ٠١٧ ـ ١ ـ ٥ (١١٥؛ ٣٦٨؛ ٣٩٨؛ ٩٧٠ ـ ٤٧١).

(٢) قاد مسعود البارزاني وجلال الطالباني الحزبين الكرديين الرئيسيين، الحزب الديمقراطي الكردستاني، والاتحاد الوطنى الكردستاني على التوالي. لمزيد من المعلومات ارجع إلى جاريث ر.ف. ستانسفيلد، «المشكلة الكردية: العصر الذهبي مهدداً» في طبعة توبي دودج وستيفن سيمون، العراق في مفترق الطرق: الدولة والمجتمع في ظل تغير النظام، أوراق أديلفي ٣٥٤ (منشورات جامعة أوكسفورد ٢٠٠٣) صفحات ١٣١ ـ ١٤٨.

(٣) من أمانة سر فرع نينوى إلى أمانة سر الحزب، ٢٠ يونيو ٢٠٠٢، قيادة الحزب القطرية، ٠٠٦ ـ ٤ ـ ١ (٢٣١ ـ ٢٣٣).

(٤) المصدر السابق، ٧ مايو، ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٦ ـ ٤ ـ ١ (٢٣٦).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

دائرة التسليح (انظر الملحق رقم ١) عن المشاركة في توزيع الأسلحة على أعضاء الحزب المخلصين، وتدريب أكبر عدد يمكن تدريبه من المواطنين للتصدي للجيوش الغازية، وتشجيع الشباب على الانضمام لفدائيي صدام (أو «أولئك الذين يضحون بأنفسهم من أجل صدام»)، وإعداد المواد التموينية وتخزين المؤن من طعام ووقود لحالات الطوارئ. لعب الحزب أيضاً دوراً خطيراً في ملاحقة واعتقال هاجري الحزب، مستخدما شبكة واسعة من المخبرين في جميع أنحاء البلاد (انظر الفصل الرابع). في عقد التسعينيات، حين تحول صدام حسين عن سياسته الأصلية المعادية للعشائرية وتبنى سياسة أميل وأقرب للعشائرية[١]، أصبح الحزب متورطاً في حل مشاكل ومسائل خاصة بمختلف العشائر وتبني مطالبها[٢].

ومثل أي شأن ناجح، أراد حزب البعث أن يؤكد على أنه يدار على أسس مالية ملائمة، فقد اهتم اهتماما كبيراً بجوانب تمويله. وباستثناء المخصصات السخية من المكتب القطري للحزب، كان الحزب يجمع رسوما وتبرعات من أعضائه. وكانت الرسوم تتناسب مع المرتبة الحزبية: في عام ١٩٩٨ على سبيل المثال، كان المنتسب الداعم للحزب يدفع ٢٥ دينار عراقي (حوالي ٠,٠٣ دولار أميركي)، بينما يدفع

---

(١) أماتسيا بارام «القبلية الجديدة في العراق: صدام حسين والسياسات العشائرية من ١٩٩١ ـ ١٩٩٦» الجريدة الدولية لدراسات الشرق الأوسط، المجلد ٢٩، رقم ١ (فبراير ١٩٩٧)، صفحات ١ ـ ٣١. رفض صدام حسين بعد وصول حزب البعث للسلطة عام ١٩٦٨ العشائرية، ورأى أنها من آثار العصر الاستعماري، ولكن في أواخر عقد الثمانينيات غير وجهة نظره كليا وتبنى العشائرية.

(٢) من أمانة سر الحزب إلى أمانة سر الفروع، «قرارات»، ٢٦ اكتوبر ١٩٩٣، قيادة حزب البعث القطرية ٠٣٣ ـ ١ ـ ٦ (٢٧٩).

عضو الفرع ٣٠٠٠ دينار عراقي (حوالي ٣ دولار أميركي)[١]. كانت الرسوم من العناصر الهامة في موازنة الحزب، وانعكس ذلك على المراسلات المكثفة من القيادات العليا للحزب تحث فيه أمانة سر الفروع للتأكد من أن رسوم العضوية قد جمعت في موعدها المحدد، بينما تحض في الوقت ذاته الأعضاء على المساهمة بتبرعات إضافية. كثير من التأكيد كان يبذل على تبين الحالة المالية للأعضاء، وكان هناك إصرار على أن كل المعلومات عن الحالة المالية للأعضاء لابد أن تكون دقيقة. كان الحزب يطلب أيضاً وضع تقرير فوري وعاجل[٢] عن أي تغير مفاجئ في الحالة المالية لأي عضو بالحزب. كان الاهتمام بذلك الأمر يرجع إلى أن أي تدهور في الحالة المالية للعضو من الممكن أن تؤدي بهم لأن يصبحوا عرضة للضعف واحتمال قبولهم التعاون مع الخصوم مقابل ثمن مادي ويصبحون مصدر تهديد محتمل على أمن الحزب.

أدرك صدام حسين بوضوح أهمية التمويل في إدارة الحزب بنجاح. وطبقا لما يذكره جواد هاشم، الذي شغل منصب وزير التخطيط والمستشار الاقتصادي لمجلس القيادة القطرية لحزب البعث، قرر صدام حسين احتجاز ٥ بالمائة من عوائد النفط العراقي في خزانة حزب البعث وكانت تلك النسبة ملك مؤسسة كولبنكيان قبل تأميمها عام ١٩٧٣. في اجتماع حضره هاشم، وزير المالية، ومحافظ البنك المركزي العراقي، قال صدام حسين:

---

(١) من أمانة سر الحزب إلى قيادات كل الفروع، ٣ يونيو ١٩٩٨، قيادة حزب البعث القطرية، ٠٠٣ ـ ٤ ـ ٤ (٣٢٢ ـ ٣٢٣).

(٢) من أمانة سر الحزب إلى كل الفروع، «الموقف التمويلي»، ٧ سبتمبر، ١٩٨٩، قيادة حزب البعث القطرية، ٠٠٣ ـ ٣ ـ ٧ (٢٠٠٦).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لقد جاء حزب البعث للعراق ليحكمه ٣٠٠ عام قادمة، وحتى يحافظ على الحكم، وفي حالة إزاحته عن السلطة عن طريق انقلاب عسكري، فلابد أن يكون للحزب مصادر تمويل كبيرة خارج العراق.... لا نريد أن نقع مرة أخرى في أخطاء عام ١٩٦٣ حين سقط نظام الحزب وواجهنا صعوبات تمويلية شديدة... لهذا، فأنا أطلب منكم يا مختصين بالمال والاقتصاد أن تتدبروا كيف يمكن أن نخصص حصة مؤسسة كولبنكيان المؤممة للحزب[١].

وحسب تقديرات هاشم، تراكمت عوائد تلك النسبة خارج العراق في حسابات سرية للحزب ويقدر أنها وصلت إلى ١٠ مليار دولار عام ١٩٨٩ دون حساب الفوائد السنوية لهذا الاستثمار في البنوك الأجنبية[٢].

كان الحزب متورطاً في أنشطة أخرى خارج العراق، إما في وكالة استخباراتية لجمع المعلومات (انظر الفصل الرابع)، أو في العمل على إقامة وتأسيس أفرع لحزب البعث في دول عربية. كان صدام حسين يتفق مع الرأي الذي يرى أن على أعضاء حزب البعث أن يعاونوا تنظيمات حزب البعث في الدول المجاورة ولكن سيكون من المفضل أكثر أن يكون لتنظيمات حزب البعث في الدول المجاورة قادة محليين من تلك الدول بمجرد أن يكونوا على «كفاءات ومواصفات ملائمة». كان يرى أن واجب البعثيين يتمثل في الطاعة والالتزام بالواجب: «لنفترض أن لدينا ١٠٠ بعثي، من الممكن أن نستفيد منهم في فروع حزب البعث في الداخل هنا في العراق أو حتى في الخارج. حددوا لهم مهامهم، دعوهم

---

(١) جواد هاشم، مذكرات وزير «عراقي مع البكر وصدام: ذكريات في السياسة العراقية ١٩٦٧ ـ ٢٠٠٠» (بيروت: الساقي، ٢٠٠٣)، صفحات ١٤٨ ـ ١٤٩.

(٢) المصدر السابق، صفحة ١٤٩.

يذهبون، دعوهم ينتقلون، دعوهم يعتقلون، هذا هو واجب البعثي. يجب عليه ألا يغفل ولا يهمل واجباته»[١].

الانضباط في الحزب

كان على حزب البعث في العراق، مثله في ذلك مثل الحزب الشيوعي الحاكم في الاتحاد السوفييتي أو أي نظام تسلطي استبدادي من نظم السلطة المطلقة أن يرسخ ويغرس الانضباط من أجل تنفيذ إرادة قادة الحزب. «من المطلوب من أعضاء الحزب أن يكونوا مثالا للآخرين بسلوكهم المنضبط الذي يقتدي به الآخرون، الإحساس بالانضباط، والوعي السياسي وإرادة التضحية بأنفسهم لصالح الحزب والدولة»[٢].

كان صدام حسين يؤمن إيمانا عميقا بالانضباط، وفي رواياته التي كتبها (وعادة كانت تنشر مغفلة اسم المؤلف وذلك بكتابة: «رواية لمؤلفها» في موضع اسم الكاتب، على الرغم من أن مؤلفها الحقيقي كان معروف لكل شعب العراق)، كان يكرر كثيراً ويؤكد على إيمانه بأن غياب التنظيم وسوء الإعداد يكمن خلف كل فشل[٣] كان ميله وولعه بالانضباط الحزبي يبدو بوضوح من خلال كثير من الوثائق؛ آمن بأن الانضباط لابد أن يسبق أي جانب آخر للطلبة العسكريين ولشباب أعضاء الحزب[٤].

---

(١) شريط مسجل لمناقشة بين القيادة القطرية وكبار قادة الحزب، ١٩٩٢ (لا يوجد تاريخ محدد، مركز تسجيلات أبحاث الصراع.

(٢) ميرل فينسود، كيف تحكم روسيا، طبعة منقحة (كامبردج: مطبوعات جامعة هارفارد، ١٩٦٣)، صفحة ٤٩٣.

(٣) صدام حسين: رجال ومدينة، صفحات ٢٥٢ ـ ٢٥٣.

(٤) انظر على سبيل المثال تقريرا تم إعداده تلى أوامر صدام حسين بالتحري عن أسباب نكوص الطلاب عن التدرب في المعسكرات العسكرية وارتفاع أعداد المتغيبين. أبرز=

https://telegram.me/maktabatbaghdad

واتساقا مع ذلك النمط من الانضباط، أصدر الحزب أعدادا لا تحصى من القواعد والنظم تراوحت بين ما هو رفيع وأخلاقي إلى السخيف وغير المعقول والمثير للضحك أحيانا. أتخذت إجراءات قاسية لمكافحة الفساد وإساءة استخدام السلطة من قبل كبار أعضاء الحزب. في إحدى الحالات، حصل عضو كبير على رخصة لصديق له ليفتتح حانة (وتلقى مالا من صديقه مقابل تلك الخدمة): وجُزِّي العضو إدارياً بتخفيض رتبته ومنصبه الحزبي[١]. وفي حالة أخرى، تم تخفيض منصب أحد أعضاء الفروع لإفراطه في كتابة التقارير بسبب افتقاده للمصداقية[٢].. كانت العقوبات تنزل أحياناً بأعضاء الحزب بسبب إساءة استخدامهم للسلطة ضد أفراد من خدمات الأمن[٣]. كان كبار أعضاء الحزب يلقون ازدراءاً واحتقاراً إذا استعملوا سيارات الحزب في تنقلاتهم الشخصية[٤]. من المفروض أيضاً على أعضاء الحزب أن يلتزموا بالوصول إلى أماكن عملهم في الوقت المحدد بالضبط وأن يواظبوا على العمل حتى انتهاء مواعيد العمل. كانت توضع قوائم بأسماء من يصلون لمقرات أعمالهم متأخرين أو يغادرون مقرات أعمالهم قبل انتهاء يوم

=التقرير نقص الانضباط كما أبرز تعليمات القائد في ذلك الصدد. من الديوان الرئاسي إلى أمانة سر الحزب، «قرار اللجنة»، ٢٢ سبتمبر ١٩٨٦، قيادة حزب البعث القطرية، ٠٠٣ ـ ٢ ـ ٧ (١١٢ ـ ١٢٠).

(١) من المستشار الرئاسي لشؤون الحزب إلى أمانة سر الحزب، «تحريات» ٢٣ مارس ١٩٨٩، قيادة حزب البعث القطرية، ٠٢١ = ١ ـ ٢ (١٨١).

(٢) من أمانة سر الحزب إلى الديوان الرئاسي، «سلوك عضو في الحزب»، ١٣ ديسمبر ١٩٩٤، قيادة حزب البعث القطرية، ١١٩ ـ ٤ ـ ٨ (١٥٢).

(٣) من المخابرات العسكرية إلى أمانة سر الحزب، «هجوم» ٢٤ يونيو ١٩٩٦، قيادة حزب البعث القطرية ٠٢١ ـ ١ ـ ٢(٨٠).

(٤) فرع الكرخ، من بغداد ولكل الفروع، «استعمال المركبات» ٢٠ أكتوبر ٢٠٠١، قيادة حزب البعث القطرية، ٠٠٤ ـ ١ ـ ٣ (١٢٤).

العمل؛ ويسجل ذلك في ملفاتهم الشخصية، وفي كثير من الحالات كانوا إما يوبخون رسميا فور وقوع التقصير أو أن يثار ذلك في موعد التقييم السنوي للكفاءة[1]. من المهم أن نلاحظ أنه على الرغم من أن الفساد كان واسع الانتشار ورغم ارتكاب البعث لكثير من أعمال إساءة السلطة، إلا أن اعضاءه، الجدد والقدامى، لم يعرفوا أبداً إن كانوا سيعاقبون على أفعالهم أم لا. وكان عدم اليقين ذاك يعمل كأداة مقيدة وكان كافيا للهيمنة عليهم بالإيعاز والإيحاء.

اتخذت الهيمنة على حياة الأعضاء أشكالا أخرى: فقد كان على الأعضاء أن ينتظروا الحصول على موافقة من أمانة سر الحزب قبل إقدامهم على الزواج، كما هو متبع بالنسبة لضباط الجيش؛ كان على كل عضو أن يملأ استمارة خاصة يدون فيها كل المعلومات الخاصة بالعروس أو العريس وكل المعلومات عن عائلة زوج المستقبل إن كان العضو ذكرا أم أنثى، حتى لو كان الزوج أو الزوجة عضوا في الحزب. وفي وثيقة داخلية خاصة باستمارات الموافقة على الزواج، على فروع الحزب بالأمر «أن تفحص بدقة الأصول العربية لا لعروس المستقبل فقط، بل لأسرتها أيضاً، ولا تعطى موافقات لأعضاء يريدون الزواج ممن لا ينتمون لأصل عربي»[2]. وبمجرد أن شبت الحرب مع إيران، كان على الحزب التصدي لمسألة الميول لمن كانوا حائزين على الجنسية الإيرانية. واحدة من المذكرات الصادرة من أمانة سر الحزب كانت

---

(١) من أمانة سر الحزب إلى كل الفروع «العاملون المتأخرون، ١٦ يناير ١٩٩٣، قيادة حزب البعث القطرية، ٠٠٤ ـ ٥ ـ ٤، من فرع الكرخ إلى فرع موسى غياب عضو عن مناوبته»، ١٩ أغسطس ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ٢ ـ ٥ (٢٥).

(٢) من أمانة سر الحزب إلى أمانة سر كل الفروع، ١٤ نوفمبر ١٩٨٣، قيادة حزب البعث القطرية، ٠٠٣ ـ ٣ ـ ٥ (١١)؛ انظر أيضاً مستودع بيانات شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٣٨، صندوق ١٤٧ (٩٠٠٠٢٧).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

موجهة مباشرة لصدام حسين، تخبره من خلالها أن «الحزب يعاني من وجود أعضاء ليسوا من أصل عربي وأن ذلك يمكن أن يمثل خطراً على الحزب في المستقبل»، وأوصت تلك المذكرة بأنه من المفروض ألا يمنح أي عضو من أصل إيراني «شرف الانتماء للحزب». وسجل صدام حسين على حافة المذكرة: «١ ـ أوافق على رأي أمانة سر الحزب، ٢ ـ يناقش في اجتماع القيادة»[١]. كثير من أولئك الذين رفض الحزب إعطاءهم عضوية الحزب كانوا من البعثيين المخلصين. واحد منهم التحق بالحزب من عام ١٩٥٨ واعتقل بعد انهيار نظام الحكم الأول لحزب البعث في نوفمبر عام ١٩٦٣، وعلى الرغم من أن خمسة أعضاء كتبوا توصيات في صالح ذلك العضو، إلا أن عضويته رفضت بسبب أصله الإيراني. واحد آخر كان قد انضم للحزب عام ١٩٦٥ وعلى الرغم من حقيقة أنه اعتقل عام ١٩٦٣ بسبب أنشطته الموالية لحزب البعث، إلا أن عضويته الكاملة رفضت لمرات كثيرة لذات السبب[٢]. لم تذكر في أي من تلك الوثائق التي رفضت منح العضوية لأمثال أولئك المنحدرين من أصول إيرانية كلمة شيعي، وكان كتاب تلك المذكرات يشيرون إلى ذلك مستخدمين مصطلح «تبعية إيرانية». بحلول عام ١٩٨٧، قرب نهاية الحرب مع إيران، واستنادا إلى أوامر مباشرة من صدام حسين، بدأ الحزب في فحص جنسية أي أحد يتقدم بطلب للانضمام للحزب للتيقن أنه من أصول عراقية خالصة[٣]. في حالة

---

(١) من أمانة سر الحزب إلى السكرتير العام، ١ أبريل ١٩٨٠، قيادة حزب البعث القطرية، ٠٠٣ ـ ١ ـ ١ (٥٢٦).

(٢) قيادة حزب البعث القطرية، ٠٠٣ ـ ١ ـ ١ (٥٢٨).

(٣) من أمانة سر الحزب إلى سكرتير الرئيس، «معلومات»، ١٢ أبريل، ١٩٨٧، قيادة حزب البعث القطرية، ٠٠٣ ـ ٣ ـ ٣.

موثقة، وجد أن أبا أحد المتقدمين لنيل عضوية الحزب كان مهاجرا إلى العراق من إيران عام ١٩١٨، فرفض طلبه[١].

كان الأعضاء يعاقبون على الإخلال بالانضباط لأسباب أخرى أيضاً: تم تداول مذكرة تنتقد الأعضاء الذين حضروا اجتماعا دون أن يكون معهم دفتر تدوين ملاحظات، أو آخرين ممن كانوا يجلسون بشكل غير ملائم واضعين ساقا فوق أخرى ـ وتم تذكيرهم بأن القائد ذاته استنكر تلك العادة في الجلوس كدلالة على افتقاد الانضباط الحزبي[٢]. وهناك عادة أخرى تم التركيز عليها بشكل كبير وهي لعب الورق، وتم تحذير الأعضاء من أن «أولئك الذين يميلون إلى الانغماس في تلك الظاهرة الكريهة والبغيضة سوف يعاقبون بقسوة»[٣]. بعض العادات كان من الصعب تغييرها أو التغلب عليها؛ على سبيل المثال، حين كان عضو من أعضاء القيادة القطرية للحزب يوصي بأن على أعضاء حزب البعث حين يحتفلون في مناسبات اجتماعية أن يمتنعوا عن إطلاق النار في الهواء تعبيرا عن الفرح لأن ذلك يجعل شعب العراق يبدو «مجتمع غير متحضر»، رفض صدام حسين ذلك الاقتراح، فطبقاً لما يؤمن به فإن تلك الممارسات تسمح للأعضاء أن يعبروا عن أنفسهم بحرية[٤].

بالنسبة لصدام حسين، لم يكن الانضباط يعني فقط التمسك بنظم الحزب وأيديولوجيته. ففي أمر صادر عن الرئيس، أصبحت الكفاءة

---

(١) المصدر السابق

(٢) من فرع الكرخ، بغداد إلى أمناء السر، «إرشادات»، ٣٠ سبتمبر ٢٠٠١، قيادة حزب البعث القطرية، ٠٠٤ ـ ١ ـ ٣ (١٢٢).

(٣) من أمانة سر فرع السليمانية إلى الأعضاء، «معلومات»، ٢٢ ديسمبر ١٩٨٧، مستودع بيانات شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٤٠، صندوق ٢٤٢ (٠٢٠٠٥٤).

(٤) التسجيلات الصوتية للقيادة القطرية لحزب البعث.، ١٩٩١.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

واللياقة البدنية من الأمور الهامة لأعضاء الحزب، وأصبح على كل أعضاء الحزب اجتياز اختبارات اللياقة البدنية. كان عليهم أيضاً أن يجروا فحصاً طبياً للتأكيد على صحة لياقتهم البدنية، ولو لم يجتازوا الفحص للمرة الثانية، كانت مرتبتهم تنخفض للدرجة الحزبية الأدنى. وبالمثل، لم يكن يسمح لأي عضو بالترقي للدرجة الحزبية الأعلى إلا بعد إثبات أن العضو لائق بدنيا بشكل ملائم للمتطلبات الحزبية[١].

ومثل كل النظم الاستبدادية الأخرى، كان الانضباط الحزبي يستخدم أيضاً للتخلص من كل أعداء الحزب السياسيين. أراد النظام أن يسيطر ويعرف كل ما يمكن معرفته عن أعضائه، ولتحقيق الغرض، عن كل مواطن عراقي. على سبيل المثال، صدر أمر بأنه لابد من إعلام الديوان الرئاسي عن أي عضو أو موظف رسمي أو مسؤول على أي مستوى من رؤساء الدوائر حتى الوزراء إن احتجزوا بمشفى أو أجريت لهم جراحة[٢]. كان الانضباط الحزبي يستخدم أيضاً لتقوية عبادة شخصية القائد الزعيم صدام حسين (انظر الفصل السادس).

العضوية وتجنيد الأعضاء

حين وصل حزب البعث للسلطة عام ١٩٦٨، كان قد قرر أن يزيد من عدد أعضائه كثيراً ليتمكن من منافسة الأحزاب الأيديولوجية الأخرى، وعلى وجه التخصيص لمنافسة الحزب الشيوعي الذي كان

---

(١) من الديوان الرئاسي إلى أمانة سر الحزب، «قرار رئاسي»، ١٢ مايو ١٩٨٧، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٢) من الديوان الرئاسي إلى أمانة سر الحزب، «كوادر حزبية»، ٣ أكتوبر ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث.

يحظى بشعبية كبيرة. وكما في بعث سوريا، أصبح من الواضح لدى قيادة الحزب الجديدة أنه «كلما زادت أعداد المنتسبين وكلما زادت القدرة على تحريكهم، كلما زادت قوة الحزب الكامنة» التي تزيد من قوة سلطة الحزب[1]. كان صدام حسين واضحا في شرح استراتيجيته: ففي منتصف عقد السبعينيات أعلن أنه «طموحنا وتطلعنا لابد أن يكون في أن نجعل من كل العراقيين في البلاد بعثيين بالعضوية وبالإيمان الحزبي أو بالإيمان بالحزب على الأقل»[2]. وكان ذلك بمثابة تناقض حاد مع ما حدث في التسعينيات، حين أصبحت إضافة أعضاء جدد للحزب لها الأولية على الإيمان العميق بأيديولوجية الحزب. وفي الحقيقة، تطور مفهومان خلال تلك الفترة، وهما: الانتساب والانتماء؛ تحت المفهوم الأول، أصبحت قطاعات عريضة من العراقيين من المنتسبين بينما كانت نسبة مئوية قليلة منهم من الأعضاء العاملين.

---

(١) ريموند هينبوش «السلطة الاستبدادية وتكوين الدولة في البعث السوري: الجيش، والحزب، والفلاحين» (بولدر: المنشورات الغربية ١٩٩٠)، صفحة ١٣.

(٢) خطاب ألقاه صدام حسين في الاتحاد العام للشباب العراقي، ١٥ فبراير ١٩٧٦، ورد في كتاب «صدام حسين، الشؤون الاجتماعية والخارجية العراقية» من ترجمة خالد قشطيني (لندن: كروم هيلم، ١٩٧٩) صفحة ٥٧.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

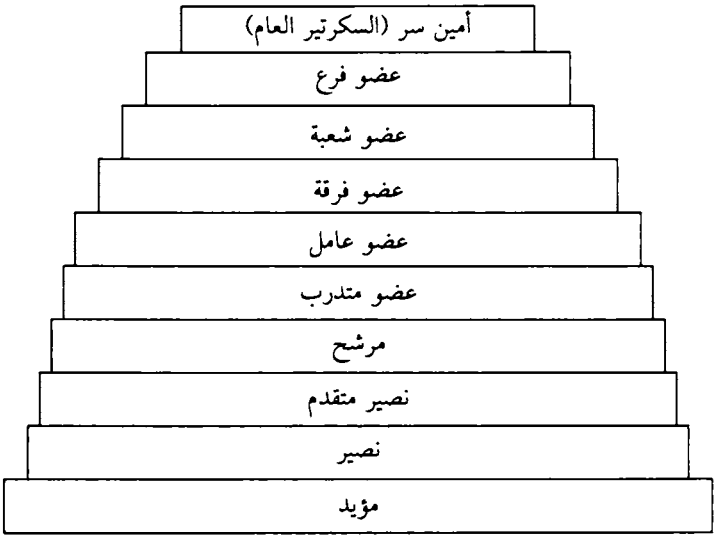

الشكل (٢): تسلسل العضوية في الحزب. المصدر: نموذج استمارة فرع نينوى لتسلسل العضوية، الإدارة الإقليمية، ٠٠٥ ـ ٣ ـ ٣ (١٨٠).

ومثل أي تنظيمات كبرى، كانت عضوية الحزب متسلسلة بتراتب سلطوي (انظر الشكل رقم ٢) ويعتمد على مدى عمق الالتزام وعدد أعوام الخدمة في الحزب. في أدنى مستوى، كان مطلوبا من المؤيد أن يحضر فقط اجتماعات أسبوعية، وحيث أن تلك الكتلة كانت تكون البؤرة الصلبة للمتطوعين الجدد، فقد كانوا يتلقون دورات تعليم سياسي لإعدادهم للمراحل التالية: أي يرتقي لمرتبة نصير. كان التقدم في المراتب الحزبية يعني تكريس مزيد من الوقت والجهد لخدمة الحزب، وقد يستغرق الأمر من خمسة إلى عشرة أعوام حتى يصبح عضوا عاملا. على قمة كل فرع وشعبة وفرقة، كان يوجد الأمين العام وهو المسؤول عن إدارة الوحدة الحزبية والتعامل مع كل المراسلات بين الوحدة الحزبية والأمانة العامة للحزب. أما في شمال العراق فقد كان على

الأعضاء اجتياز مرحلة إضافية وهي مرحلة النشاط الوطني حتى قبل أن يقبل في فئة «مؤيد»، وكان الأمر يستغرق أحياناً من عامين لثلاثة أعوام من راغب الالتحاق بصفوف الحزب حتى يقبل رسميا كمؤيد[١].

كان التقييم السنوي ومدى الطاعة والولاء للحزب ضروريين للانتقال للمرتبة الأعلى. كان التقييم يظهر دلالة واضحة عما هو متوقع ومنتظر من الأعضاء الراغبين في تسلق سلم ومراتب السلطة: الولاء، الالتزام بالقواعد الحزبية والنظم المتبعة، العمل الدؤوب، التواضع، وأخيراً وليس آخراً الصفات، الاقتداء بالقائد كمثل أعلى للشجاعة والقيام بأعباء ومسؤوليات أن يكون المرء بعثياً[٢]. بالإضافة إلى إظهار تلك الصفات والمواصفات، كان على العضو الراغب في الترقي إلى عضو فرقة أن يتصف بالقدرة على القيادة والقدرات التنظيمية، وأن يكون عارضا وشارحا جيداً لأفكار الحزب ومثالياته[٣]. ولا حاجة بنا للقول أن كثير من نماذج الاستمارات والنماذج كان لابد أن تملأ من قبل طالب الترقي التنظيمي ومن قبل مرجعيات تؤيد ما سجله بالنماذج قبل التصعيد الحزبي. تفاصيل العمل السياسي لمقدم الطلب، والتزامه الحزبي والتزامه نحو القائد، مساهمته في معارك أو مهام من أجل النظام الحاكم، أنشطته التطوعية في واحدة من الميليشيات الشعبية، وقدرته على تجنيد متطوعين جدد، لابد أن تفحص كلها بعناية قبل اتخاذ قرار تصعيده[٤]. وطبقا لنموذج استمارة، تأخر ترقية مقدم الطلب ستة أشهر

---

(١) مركز وثائق شمال العراق، الحزب الديمقراطي الكردستاني ٠١٦، صندوق ٢١٧٦ من الأرشيف، والحزب الديمقراطي الكردستاني ٠١٧، صندوق ٢١٨٢.

(٢) أمانة سر الحزب، «تقييم الرفيق»، ١٤ يناير ١٩٨٠، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٣) المصدر السابق.

(٤) مدونة زاكو، «استمارة تقييم الأعضاء»، يناير ١٩٨٤، مركز وثائق شمال العراق، الحزب الديمقراطي الكردستاني؛ وثائق مجلس قيادة الثورة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لأنه لم يحضر اجتماعات الحزب أو أنه كان يحضر متأخرا بمبررات واهية عرجاء[1]. وجوهر الأمر «لا يكفي للعضو أن يؤمن فقط بفكرة الحزب، ولكن المطلوب منه الالتزام الكلي وألا يقتصر دوره على التأييد السياسي فقط»[2].

بمجرد أن يستوفي طالب العضوية كل الاشتراطات المحددة ويسعى للحصول على العضوية، لابد لطالب العضوية أن يجتاز برامج التعليم السياسي التي تتبعها مراسم ترديد القسم أمام مجموعة من قدامى أعضاء حزب البعث. ذلك هو المسار الشعائري الذي لابد لكل عضو جديد من اجتيازه، وهو يشبه إلى حد بعيد الشعائر الستالينية، فلكي يصبح أي امرئ منتميا للبعث، فإن ذلك «يتضمن جوانب رمزية وطقسية كثيرة»[3]. ويحمل الملف الشخصي لكل متقدم أسماء قدامى أعضاء حزب البعث الذين شهدوا العضو وهو يقسم يمين الطاعة والولاء للحزب، وكان ذلك الطقس يعد من الملامح الهامة في سجل كل عضو. ومما يثير الاندهاش، أن ذلك كان يلعب دوراً في تقرير مستقبل أولئك الذين التحقوا بالحزب قبل ثورة ١٩٦٨، ولكنهم كفوا عن أن يكونوا من النشطاء بعد ذلك.

---

(١) أمانة سر الحزب، «استمارة لتقييم الترقية»، ٢٨ يناير ٢٠٠٣، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٢) حزب البعث العربي الاشتراكي: «التقرير السياسي للمؤتمر القومي العاشر» (بغداد: الحزب ١٩٧٠)، صفحة٤٧.

(٣) ج. أرش جيتي وأوليج ڤ نوموف «الطرق إلى التخويف والإرهاب: ستالين والتدمير الذاتي للبلشفية، ١٩٣٢ ـ ١٩٣٩» (نيو هافن، منشورات جامعة ييل، ١٩٩٩)، صفحة ٧٨.

حزب البعث العربي الاشتراكي امه عربيه واحده
قطر العراق ذات رساله خالده

المكتب
قيادة فرع
قيادة شعبة
قيادة فرقة

وحده حريه اشتراكيه

((الاضباره الحزبيه))

الدرجه الحزبيه :
الرتبه :
الاسم الرباعي واللقب :
تاريخ الارتباط :
تاريخ ترديد القسم :
تاريخ انتقال العضويه :
الوحده الحاليه :

شكل رقم (٣): مثال لغلاف ملف حزبي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان تسجيل أسماء مرشحين جدد من الجوانب الهامة جداً في بعثنة العراق والتي كانت تعرف اصطلاحا بالكسب الحزبي[1]، وكان ذلك جانبا من حزمة عمل الفروع والشعب الحزبية (انظر أيضاً الفصل الثالث). وتزودنا الوثائق بمعلومات غزيرة عن تلك المهام، فقد كان على كل شعبة وفرقة أن تملأ استمارة في ملف تفصل فيه انجازاتها في مجال تجنيد العناصر الجديدة للحزب. على سبيل المثال، جندت شعبة في بغداد تتبعها فرق كثيرة ٦٧٢ فردا خلال ستة أسابيع من نهاية سبتمبر حتى منتصف نوفمبر عام ٢٠٠٢. ولأن الإحصائية تحدد مهنة ومحل إقامة أولئك المرشحين الجدد، يمكننا أن نتبين أن الغالبية العظمى من أولئك المسجلين في ذلك القسم من بغداد كانوا من طلاب الجامعة، وأطباء، ومهندسين، وأن المؤسسات التعليمية والمشافي (خاصة المشافي الجامعية التابعة لكليات الطب) كانت من الساحات الخصبة لتجنيد مرشحين جدد[2]. في ذلك المثال فإن المستوى العالي للمرشحين يمكن عزوه لوسط بغداد، ولكنه يصور أيضاً طبيعة عملية بعثنة المجتمع العراقي باستهداف الطبقة المتوسطة المتعلمة.

وبافتراض أن قسم من بغداد تمكن من تسجيل ٦٧٢ مرشحا جديدا في ستة أسابيع، ما الذي يمكننا أن نستشفه عن عدد الأعضاء العاملين ومدى تجنيد الأعضاء الجدد؟ كانت رئاسة الحزب تجمع تلك الإحصاءات بانتظام كجانب من عملية الهيمنة والسيطرة. ولسوء الحظ، لا توجد في أغلب الأوقات أرقام متناغمة ولا متسقة تسمح بإجراء تحليلات إحصائية. وعلى أي حال، هناك أحصائيات مفصلة من سبتمبر ٢٠٠٢ تستعمل في هذا المضمار لتعطي صورة «كلية» للنظام قبل أشهر

---

(١) ترجمة «الكسب الحزبي»، ولكن استخدام «تجنيد» و«ضم» يعد أكثر ملائمة.

(٢) من شعبة بغداد إلى أمانة سر الحزب، «ضم أعضاء للحزب»، مجلس قيادة الثورة، يضم الملف تقرير كل فرقة حزبية وميول من تم ضمهم.

قليلة من انهياره في شهر أبريل من عام ٢٠٠٣. ويزودنا الملحق رقم ٢ بمعلومات تفصيلية عن العضوية في كل بنية، من شعبة وفرقة وخلية. وصل عدد مؤيدي الحزب إلى ٤ مليون في نهاية عام ٢٠٠٢، بمن فيهم ٤٠٠,٠٠٠ ملحقون على المكاتب العسكرية. من المهم أيضاً إبراز أن أفرع المرأة لها إحصائياتها الخاصة بها ولكنها مشمولة أيضاً في العدد الكلي الإجمالي (انظر الجدول رقم ٦ ومناقشة «حزب البعث والمرأة» في الفصل الثامن). وهكذا، نجد أنه من بين تعداد كلي للسكان يصل إلى نحو ٢٥ مليون نسمة في نهاية عام ٢٠٠٢، كان المسجلون على درجة «مؤيد» تصل نسبتهم إلى نحو ١٦,٥ بالمائة من إجمالي عدد السكان، وهو رقم كبير بالفعل لأي حزب سياسي. ولكن، تظهر لنا النظرة الفاحصة المدققة للجدول استنتاجا مختلفا بشكل جوهري عما يبدو من ظاهر الأرقام، فشكل المستوى العلوي للتنظيم الحزبي يظهر أن المستويات العليا للحزب تمثل ١٤,٥ بالمائة فقط من عدد المؤيدين وحوالي ٢,٤ بالمائة من تعداد السكان الكلي في عام ٢٠٠٢. ويجب أيضاً أن نبرز أن نسبة مئوية ضئيلة نسبيا كانت تحمل بطاقات عضوية الحزب، فقد كانت بطاقات الحزب مخصصة للأعضاء المتفرغين ويعملون كل الوقت لصالح الحزب، بينما كانت الأغلبية في الحزب، على كل مستويات تسلسل المراتب الحزبية، غير متفرغة ولها وظائف وأعمال أخرى. من الواضح، في بعض المناطق أن النسب المئوية كانت أعلى في نطاق منطقة بغداد، وتراوح هذا بين ٣,٥ بالمائة في الزعفرانية إلى ٣,٣ بالمائة في البتاويين[١]. وعلى ذلك يمكن أن نقول باطمئنان أنه حتى مع شدة عملية البعثنة في عقد التسعينيات، فإن النسبة المئوية لعدد أعضاء حزب البعث العاملين النشطين الذين كانوا يقومون بالوظائف الحزبية الحيوية لم يتجاوزوا نسبة ٤ بالمائة من العدد الكلي للعراقيين.

(١) مكتب تنظيم بغداد «مقترحات»، ١٠ أكتوبر ١٩٨٩، القيادة القطرية لحزب البعث.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أعلن المسؤولون العراقيون للصحافيين في عام ٢٠٠٣ أن مليوني عراقي هم مؤيدون في الحزب، ويبدو أن ذلك العدد لم يشمل الشريحة الدنيا من المؤيدين[١].

ما مدى دقة تلك الإحصائيات؟ من الصعب أن نتوصل إلى نتيجة محققة على ضوء المبالغات التي كانت تسود في الغالب في الوثائق. وعلى الرغم من احتمال أن عدد المجندين من المؤيدين في أسفل السلم الحزبي شابه التجميل والمبالغة، فقد كان من قبيل المخاطرة على أي فرع تزييف الأعداد الخاصة بفئة لم تشمل شريحة المؤيدين العاملين بالحزب وما فوقهم من فئات حزبية. على سبيل المثال، في دراسة أعدت عام ٢٠٠٢ للعام البعثي الجديد بالتقويم البعثي (والذي كان يبدأ عامه بـ ٢٨ أبريل ـ يوم مولد صدام حسين ـ وينتهي ٢٧ أبريل من العام التالي)، نقل الكاتب عن نائب الأمين العام للحزب وهو يقول لمجموعة من كبار الأعضاء أن «المجندين لذلك العام [٢٠٠١] كمجندين جدد كانوا على وجه التقريب ١,٥ مليون مجند، هذا العدد يعد هدية عيد ميلاد للقائد: ١,٥ مليون بعثي»[٢]. وأكد نائب الأمين العام للحزب أنه «ليس من الملائم تقديم هدية مادية للقائد، ولكن هذه الهدية سيكون لها صدى عميق في نفسه». وبكل تأكيد كان هناك غلو في تقدير ذلك العدد، ولكنه يعطى بعض الدلالات عن مدى التسجيل في قوائم الراغبين في الانضمام للحزب في ذلك العام.

غير أنه لا يوجد أي شك في أن ذلك النمو في كوادر الحزب كان ظاهرة ملحوظة وبارزة. المقارنة بين العضوية عام ١٩٨٦ وعام ٢٠٠٢

---

(١) ميشيل سلاكمان «حزب البعث هو صخرة ارتكاز سلطة صدام»، صحيفة لوس أنجيلوس تايمز، ٥ أبريل ٢٠٠٣.

(٢) فرع السماوة «إطار لخطة العام العثي أبريل ٢٠٠٢ إلى ٢٧ أبريل ٢٠٠٣»، ٢٦ أبريل ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث.

(انظر الجدول رقم ١) يظهر زيادة تصل إلى ١٤٠ بالمائة في خلال تلك الستة عشر عاماً، في وقت زاد فيه تعداد العراقيين بنسبة ٥٦ بالمائة (من ١٦ مليون عام ١٩٨٦ إلى ٢٥ مليون عام ٢٠٠٢).

ذهب كثيرون إلى القول بأن الحزب قد ضعف بعد انتفاضة عام ١٩٩١، غير أن الإحصائيات تظهر بوضوح أن تجنيد المنتسبين الجدد قد استمر بزخم أشد. ولسوء الحظ، لا يمكن مقارنة بيانات ١٩٩١، و١٩٩٦، و٢٠٠٢، ولكن بأخذ المعلومات من نفس الدرجات خلال الفترات المختلفة الثلاث نجد أنه بإمكاننا أن نرصد ذات التوسع والتمدد. وكما يدل الجدول ٢، زاد عدد أعضاء الفرق على سبيل المثال بمقدار ٥٠٠ بالمائة على وجه التقريب خلال الأعوام الخمسة الأولى بعد أحداث عام ١٩٩١.

	١٩٨٦	٢٠٠٢
أعضاء المكتب أو الأمناء العامون العموم	٨٢(*)	٧٦
أعضاء الفروع	٢٣٤	١٠٢٧
أعضاء الشعب	١١٧٩	٦١٢٨
أعضاء الفرق	٦٢٣٥	٤٥٥٣٧
الأعضاء العاملون	٣٢٦٥٥	٢٢٣٦٢٢
عضو متدرب	٢٠٣٤٧	٢٥٤٠٨١
نصير	٥٨٩٠٠٤	١١٣٢١١
مؤيد	٩٨٧٧٠٨	٢٣٢٨٠٨٠
الإجمالي	١٦٣٧٤٤٤	٣٩٧١٧٢٦(**)

الجدول رقم (١): مقارنة بين عضوية الحزب عام ١٩٨٦ وعام ٢٠٠٢

(*) يشمل عدد عام ١٩٨٦ سكرتاريي العموم لمكتب اتحادات المهنيين.

(**) يختلف العدد الإجمالي هنا عن الملحق رقم ٢، لأن بعض الفئات كانت مستبعدة من أجل التوصل إلى مقارنة دقيقة بإحصائيات عام ١٩٨٦.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ومن المثير، أن صدام حسين ادعى في بدايات عام ١٩٨٣ أن «البعثيين يمثلون عشرة بالمائة من إجمالي عدد العراقيين، وذهب صدام للادعاء بأن تلك النسبة أعلى كثيراً بالمقارنة بأعضاء الحزب الشيوعي السوفييتي والحزب الشيوعي اليوجوسلافي. وربما كانت مناورة سياسية مخادعة مقابل الأحزاب السياسية الأخرى، لأنه في ذات الخطاب حذر من أن العدد يجب أن يتقلص، بافتراض أن الشعب العراقي أكبر وأوسع من حزب البعث، وأن الحزب في جميع الأحوال يجب أن يكون نسبة مئوية ضئيلة من عدد المواطنين»[١].

جدول رقم (٢): الزيادة في العضوية بين ١٩٩١ و٢٠٠٢

	١٩٩١	١٩٩٦	٢٠٠٢
أعضاء الفروع	٢٢٢	٣٢٤	١٠٢٧
أعضاء الشعب	١٣٠٥	١٧١٧	٦١٢٨
أعضاء الفرق	٧٦٦١	١٢١٦٣	٤٥٢٣٧
أعضاء متدربون	٦٤٠٤٣	١٠٨٦٩٣	٢٥٤٠٨١
الأنصار	٢٧٢٤٨٦	٣٥٢٩٥٨	١١١٣٢١١
الإجمالي	٣٤٥٧١٧	٤٧٥٨٥٥	١٤١٩٩٨٤

المصدر: عن عام ١٩٩١ أمانة سر الحزب، ٧ نوفمبر، ١٩٩٦، القيادة القطرية، ١٣٦ ـ ١ ـ ٥ (٠٠١ ـ ٠٣٦)؛ لعام ٢٠٠٢: من ملحق ٢.

من المهم، نبرز أنه بالرغم من حقيقة أنه كان هناك ضغط شديد على المواطنين للانضمام إلى الحزب وأنه على الرغم من أن بعضهم

(١) صدام حسين، «المختارات» (بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٨) الجزء الرابع، صفحة ١٩.

وجدوا أنفسهم في صفوف البعث من خلال الإجبار والتهديد والقسر والإرغام، إلا أن كثيراً من العراقيين ودوا بإرادتهم ورغبتهم أن يكونوا جزءاً من النظام لأنهم إما كانوا يؤمنون بأيديولوجية الحزب أو كانوا يسعون لتحقيق مصالح وفوائد بكونهم بعثيين. وتكشف الوثائق عن براهين وأدلة كثيرة عن مواطنين قدموا طلبات التحاق بالحزب أو الانضمام إليه مجددا بعد أن خرجوا منه أو أبعدوا عنه في ظروف مختلفة سابقة. في أحد الأنماط، يقدم طبيب طلبا لإعادة ضمه لصفوف الحزب بعد أحد عشر عاماً لم يشارك فيها في أنشطة الحزب لأنه كان مشغولا بإتمام دراسته التخصصية كجراح أعصاب[١]. مثال آخر كان لشاب في الرابعة والعشرين من عمره تقدم بطلب كتابي طالبا الانضمام للحزب لأنه يؤمن إيمانا عميقا بمبادئ الحزب[٢].

في سياسة تجنيد مترشحين جدد كان الحزب مهتما بجانبين هامين: أولهما: نسبة النساء العضوات، وثانيهما وكان مصدر الاهتمام الأكبر وهو تقدم كوادر الحزب في العمر وعدم قدرة الحزب على جذب ما يكفي من الشباب والشابات لتجديد دمائه.

العمر والنوع في حزب البعث

في عام ١٩٩٢، وعملا بتعليمات صدام حسين، قرر الحزب القيام بمسح ودراسة عن الفئات العمرية بالحزب بين كوادره. وكان ذلك يرجع لقلق القيادة من عدم وجود أعداد كافية من الشباب تنجذب للحزب وأن

---

(١) أمانة سر الحزب، بغداد، «طلب استعادة النشاط»، ٨ نوفمبر ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٢) أمانة سر الحزب، بغداد، «طلب انضمام»، ٨ أكتوبر ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الحزب بتلك الطريقة يشيخ ولا يتجدد. أختيرت خمسة أفرع رئيسة للقيام بتلك الدراسة: فرعان من بغداد وثلاثة من المركز والشمال والجنوب. وعلى مدى بضعة أشهر، قام كل فرع بعمل بحث معمق وقدم نتيجة دراسته مصحوبة برسوم بيانية وجداول. ولسوء الحظ، لم تقم الفروع بعمل أي دراسات مقارنة، ولهذا السبب نجد أن الإحصائيات في الجدول ٣ غير متسقة ولا مترابطة. فعلى سبيل المثال، على الرغم من أن فرع سعد بن أبي وقاص في بغداد قدم تحليلات مفصلة وألحق بالدراسة تحليلا بالحاسوب يبرز التركيب العمري المتوقع على مدى الأعوام العشرة التالية، لم يستخدم ولم يقدم نسبا مئوية مثل باقي الأفرع الأخرى ولكنه استخدم بدلاً من ذلك معدلات متوقعه ومتوسطات حسابية[١].

جدول رقم (٣): التكوين العمري لحزب البعث عام ١٩٩٢

اسم الفرع	عدد المتسبين(*)	النسبة المئوية للمؤيدين				
		٣٥ فأقل	٣٦ ـ ٤٠	٤٢ ـ ٤٥	٤٦ ـ ٥٠	٥١ ـ ٥٥
* البصرة	٣١٧١	١٤	٢٥	٢٨	٢٥	٨
* خالد بن الوليد	٣٧٩٦	٥٢	٢١	٢٧	-	-
* الموصل	٣٨٦٠	٢٥	١٢	٢٧	٢٣	١٣
* صلاح الدين	٢٠٩١	٥١	٣٩	١٠	-	-
* سعد بن أبي وقاص	٤٣٦٦	معدل تقريبي: ٥٠ معدل عضو منتسب وعضو عامل: ٤٣				

(١) من فرع سعد بن أبي وقاص إلى رئاسة تنظيم بغداد، ١٤ فبراير ١٩٩٢،

(*) الإحصائيات المدونة عن كل فرع، بشعبه وفرقه، وتشمل قيادته، وكل كاملي العضوية، وإضافة إلى ذلك الاعضاء المتدربين والعاملين.

ـ المصدر: مجلس القيادة القطري، ١٧٤ ـ ٣ ـ ٢.

وأصيبت أمانة سر الحزب بانزعاج شديد بعد الإطلاع على تلك الدراسات.

أولاً، أصبح من الواضح أن الفئة العمرية من واحد وأربعين حتى تسعة وخمسين تشكل القطاع العددي الأكبر بين الأعضاء. ثانياً، كان الحزب واعيا ومدركا أنه مع مرور الوقت سيتدهور التركيب العمري أكثر فأكثر. على سبيل المثال، وطبقا لتحليل فرع سعد بن أبي وقاص الذي يغطي مناطق الأعظمية، ومدينة صدام، وعددا من المؤسسات والمعاهد التعليمية في بغداد، كان من المتوقع أن متوسط العمر للمنتسبين للفرع يزداد من خمسين عاماً عام ١٩٩٣ إلى ما يزيد عن اثنين وخمسين عاماً عام ٢٠٠٣. ثالثاً، من بين قادة الفرق كانت الفئة العمرية من واحد وأربعين عاماً إلى تسعة وخمسين عاماً تكون على وجه التقريب ٧٠ بالمائة من قادة الفرق[١].

مرارا وتكرارا، تحدث صدام حسين عن جذب الأجيال الأصغر للحزب قائلاً: «دعونا نكسب الشباب، لنضمن المستقبل»، وبالعودة إلى ماض أبعد في عام ١٩٧٩، نجده ينتقد أنشطة الحزب بين فئات الشباب، قائلاً أن الرسالة ليست واضحة تماماً وأنها لا تقدم لهم «رومانسية الشباب» في أيديولوجيتها[٢]. ولأنه كان هناك إيمان قوي داخل الحزب بأن البعثي الحقيقي لابد أن يبدأ اهتماماته السياسية وانخراطه في الحياة السياسية في سن مبكرة (انظر الفصل الثامن)، فإن النتيجة التي تتضح من التركيب العمري للحزب كانت واضحة الدلالة:

١ ـ التركيز على الفئة العمرية من ثمانية عشر إلى الثلاثين.

---

(١) من أمانة سر الحزب إلى رؤساء كل التنظيمات الحزبية، ٢٣ نوفمبر ١٩٩٢، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٢) صدام حسين، «المختارات»، الجزء الثالث، صفحة ٢٧٦.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٢ ـ استمرار التركيز على الطلاب لا على المستويات الجامعية فقط، بل أيضاً على مستوى طلاب المدارس العليا (المرحلة الثانوية)، والإسراع بإعطائهم العضوية.

٣ ـ خلق تنافس أصيل في انتخابات الحزب لتشجيع الجماعات الأصغر سنا على استيعاب واكتساب مهارات القيادة.

٤ ـ تشجيع مزيد من تقاعد أعضاء الشعب والفرق، مع السماح لهم بالاحتفاظ بالمزايا والفوائد.

٥ ـ تقديم فئات عمرية أصغر لتقليل عدد الأعضاء من فئة العمر خمسة وأربعين وما فوقها[١].

وللتأكيد على أهمية الطلاب، «تم تعيين عدي الإبن الأكبر لصدام حسين رئيساً (للإتحاد الوطني لطلبة وشباب العراق) في أواخر عقد التسعينيات، وتحدثت عنه التقارير بأنه يهتم شخصيا بإدراج أسماء الطلاب لضمهم للحزب[٢].

بعد تلك التوصيات، بدأ الحزب في التركيز على البالغين من سن خمسة عشر عاماً فما فوق ذلك وخلال الأعوام العشر التالية زاد من الاهتمام والتركيز على ضم طلاب الجامعات. وفي حقيقة الأمر، كان أهم أهداف تسجيل طلاب المدارس، والتى تكونت من قوائم من طلاب المدارس المتوسطة والعليا (والذين تتراوح أعمارهم من خمسة عشر إلى ثمانية عشر عاما)، وكانوا عماد التسجيلات في تجنيد الطلاب»[٣]. صعب الحزب جداً أيضاً انضمام أعضاء فوق سن الخمسين

---

(١) من أمانة سر الحزب إلى رؤساء كل التنظيمات الحزبية، ٢٣ نوفمبر ١٩٩٢، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٢) الشرق الأوسط (لندن)، «حملة ضم الطلاب العراقيين لحزب البعث الحاكم»، ٨ يناير ٢٠٠٠.

(٣) انظر الفصل السابع لمزيد من التفاصيل عن التسجيل بالمدارس.

كمرشحين للعضوية إلا بأمر من سلطة عليا (أي من صدام حسين ذاته). وأدى ذلك إلى ورود كثير من المناشدات لصدام حسين لإلغاء قراره بعدم النظر في طلبات من هم فوق الخمسين من العمر إلا إذا كانوا ضباطاً عسكريين من رتب عليا جداً[١]. كان قد سبق ذلك في أواخر عقد الثمانينيات أنشاء جمعية تسمى منظمة المناضلين تضم كبار الأعضاء المتقاعدين من الذين كانت لهم أدوار قيادية وقضوا على الأقل خمسة وعشرين عاماً في خدمة الحزب. كان كل ذلك بعض من استراتيجية تسمح للأعضاء الأصغر سنا بتولي مسؤوليات في البنية الحزبية. استخدمت منظمة المناضلين أيضاً كمخزون حين يحتاج النظام لأعضاء ذوي خبرة كبيرة لمتابعة أعمال الوزارات، أو لوضع الدراسات عن جوانب يعدون خبراء بها[٢]. أنشأت جمعية أخرى للأعضاء كبار السن من الذين تجاوزوا سن التقاعد وأطلقوا عليها اسم منظمة الصابرين (أو متقاعدي الحزب)[٣]. انتقل بعضهم إلى تلك الجمعية بسبب «بطء فهمهم أو بسبب فقدانهم المتزايد للذاكرة»[٤]. ولا حاجة لنا للقول، أن كثيرين قد أساءهم ذلك وكتبوا خطابات كثيرة لقيادة الحزب يفصلون فيها أعمالهم وإنجازاتهم التي قدموها في خدمة الحزب[٥].

الجانب الآخر للعضوية الذي ركز عليه قادة الحزب كان نوع الأعضاء، ولقد تم بحث مسألة حزب البعث والمرأة في بحث مفصل

---

(١) أمانة سر الحزب، ٢٢ نوفمبر ١٩٨٩، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٢) من أمانة سر الحزب إلى كل التنظيمات الحزبية، «قرار»، ٥ ديسمبر ١٩٨٩، القيادة القطرية لحزب البعث.. تفصل المذكرة أسباب إنشاء التنظيم والمؤهلات المطلوبة للانضمام إليه، وواجبات أعضاؤه، والإسم الحرفي هو «تنظيم المناضلين».

(٣) الترجمة الحرفية: «منظمة المتسامحون».

(٤) أمانة سر الحزب، ١٠ يناير ١٩٨٨.

(٥) من أمانة سر الحزب إلى نائب الأمين العام للحزب، ٢٢ يوليو ١٩٨٧، القيادة القطرية لحزب البعث.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(انظر الفصل الثامن)، غير أنه لابد أن نذكر أن الحزب قد أعلى من شأن بطولة وعطاء المرأة في الحزب في عقد السبعينيات مؤكدا على الحاجة الماسة لإسناد دور للمرأة في المجتمع مماثل لدور الرجل، مما كان يستدعي ضمان كامل حقوق المرأة. وفي جوهر الأمر، أراد صدام حسين أن يضمن دعم المرأة لنظامه وكان محتاجا إلى مجهوداتها. وعلى الرغم من ذلك، حين أطلق صدام حسين حملته الدينية في عقد التسعينيات، غير موقفه كليا. فعلى الرغم من استمرار تجنيد وضم النساء للحزب، بدأ في الحديث عن ضرورة إيجاد توازن بين النشاط السياسي للمرأة من جانب، و«تكريسها لنفسها لرعاية بيتها وأسرتها حتى تقوم بدورها المنتظر منها في بناء المجتمع»[١] من جهة ثانية. ونتيجة لذلك، كانت النساء معزولات عن الخلايا النظامية بحلول عقد التسعينيات كجانب من الحملة الدينية التي أطلقها الحزب. وعلى سبيل المثال، في إحدى شعب بغداد، كانت توجد تسع خلايا نسائية تحت قيادة رجل من الفرقة[٢].

ورغم ذلك استمر التركيز على الطالبات، وعلى زيادة النسبة المئوية لعضوية المرأة في الحزب وعلى ضم مزيد من الشباب صغار السن. في بدايات عقد التسعينيات بلغ معدل التحاق الطلاب السنوي بالجامعات العراقية ٢٥٠٠٠ طالبا وطالبة، وتراوحت نسبة الطالبات من ذلك المعدل السنوي من ٣٨ إلى ٤٢ بالمائة[٣]. وبلغ عدد الأعضاء الكلي في

---

(١) من شعبة بغداد، فرقة الفوز الأعظم إلى أمانة سر الحزب، «التركيب التنظيمي»، ٢٣ مايو ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٢) المصدر السابق.

(٣) من فرع سعد بن أبي وقاص إلى مكتب قيادة تنظيم بغداد، ١٤ فبراير ١٩٩٢، القيادة القطرية لحزب البعث.

شعبة ببغداد ٣٨١٢ كانت نسبة الإناث منها ٤٦ بالمائة، أما من بين المؤيدين والأنصار (وهما أدنى الشرائح في هرم العضوية)، بلغت نسبة المرأة ٥٢ بالمائة. ورغم ذلك، لم تكن هناك نساء في قيادات الشعب ولم تبلغ نسبتهن في الفرق إلا ٢ بالمائة، ٢٠ بالمائة فقط منهن كن يحزن العضوية الكاملة للحزب[١] (انظر الجدول رقم ٦ لمزيد من التفاصيل عن المرأة في الحزب).

حياة عضو في الحزب

كان على كل عضو استيفاء إجابة أسئلة تفصيلية عن دقائق وتفاصيل حياته / أو حياتها الشخصية والعائلية في نماذج استبيانية. كان هناك تنبيه على الجميع قبل ملء النماذج بأن الإجابات والإفادات ستفحص وتدقق بكل جدية وأن كل ما يدون سيظل ملازما لملف كل عضو خلال انضمامه للحزب. كان الاستبيان يضم ستة وثلاثين سؤالا، من ضمنها مواضيع محددة مثل التعليم، والهوايات، وكيف عرف المرشح بأيديولوجية الحزب وكيف استجاب/ استجابت لتلك الأفكار؛ ومن هم المسؤولون الذين كانوا وراء انضمام المرشح/ المرشحة لأول خلية؛ ووقت ومكان أداء قسم الولاء للحزب؛ وكل الأنشطة والفعاليات التي قام بها المرشح باسم الحزب في كل مرحلة؛ وحضور مؤتمرات الحزب، وعلى وجه التخصيص من شاركوا بتلك المؤتمرات وما الذي ترك انطباعا قويا وما آخر انطباع قوي عن ذلك؛ وتاريخ دقيق ومفصل عن أين كان المرشح أثناء أحداث ١٩٥٨، و١٩٥٩، و١٩٦٣، وبعد نوفمبر ١٩٦٣ (بما فيها تعرض المرشح للسجن خلال تلك الأعوام إن

---

(١) شعبة بغداد، فرقة القائد المنتصر إلى مكتب قيادة الحزب، ١١ نوفمبر ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان قد حدث)؛ وأخيراً، الدور الذي قام به المرشح إن كان قد قام بأي دور، أثناء انقلاب يوليو ١٩٦٨.. كانت أعباء وواجبات كل عضو ثقيلة، بما فيها الإلتزام الكلي والكامل بسياسة الحزب دون مناقشة للأوامر والتعليمات التي تصدر؛ ولا مناقشة لدفع رسوم الانضمام للحزب والبقاء في العضوية؛ ولا الانضمام للهيئات والمؤسسات والتنظيمات والاتحادات المرتبطة بالمهنة التي يمتهنها المرشح أو العضو؛ مع وضع اهتمامات العضو في المرتبة التالية لاهتمامات الحزب؛ مع ممارسة النقد الذاتي المستمر. وبينما كان هناك خمسة عشر التزاما على المرشح والعضو، لم يكن له إلا خمسة حقوق، مثل التصويت في انتخابات الحزب والمشاركة في اجتماعاته[١].

وتضم الوثائق كثيراً من الملفات الشخصية للأعضاء، ومن المهم للتنوير أن نفحص حالة عضو نمطي في الحزب من خلال ملفه، وسوف أسميه على سبيل المجاز أو الرمز محمد[٢]. ولد محمد في تكريت (مثل قائده الذي ولد في جنوب تكريت)، وهي مدينة من مدن محافظة صلاح الدين، لأب يعمل حدادا في عام ١٩٤٥، ويمثل محمد الشخصية النموذجية للبعثي. انضم محمد لحزب البعث في سن مبكر وهو في الثالثة عشر من عمره، وفي سن الثامنة عشر انضم إلى الحرس القومي (ميليشيا حزب البعث حين كان حزب البعث في السلطة بين فبراير ونوفمبر عام ١٩٦٣)، واعتقل لمدة أسبوع بعد انهيار حكم البعث في ذلك الوقت، وبين ١٩٦٥ و١٩٦٨ عمل في شركة خطوط السكك الحديدية وكان عضواً نشطاً في اتحاد عمال الشركة. وأصبح عضوا كامل

---

(١) مركز أبحاث سجلات الصراع.

(٢) ملف محمد بلغ حجمه ١٤٠ صفحة ويغطي محتواه الفترة من ١٩٧٠ حتى ١٩٩٧، القيادة القطرية لحزب البعث.

العضوية بالحزب عام ١٩٧٤ وهو في سن التاسعة والعشرين. ومن إيمانه بالمثاليات الحزبية لم يحصل على عطلة أبداً من النشاط السياسي الذي كان يقوم به، وأصبح عضواً بالفرقة عام ١٩٨٠، ثم عضواً بالشعبة عام ١٩٨٦، وأخيراً عضو فرع عام ١٩٩٢.

الجانب التنظيمي				
المستوى والالتزام				
ماهي المسؤوليات التنظيمية للمرشح تذكر: ١. ٢. ٣.				
ماهو مستوى ادائه للاجتماع الحزبي	ضعيف ☐	وسط ☐	جيد ☐	ممتاز ☐
ماهو التزامه بالحضور في المواعيد المقررة	☐	☐	☐	☐
ماهي درجة التمتع بلغة واحترام المنظمة الحزبية	☐	☐	☐	☐
ماهو مستوى تنفيذ التعليمات الحزبية	☐	☐	☐	☐
الكسب الحزبي (يذكر بالتفاصيل)				
اسم الشخص الذي قام المرشح بكسبه	مستواه الثقافي والاجتماعي والوظيفي		تاريخ الكسب	

الشكل (٤): نموذج لاستمارة حزبية من ملف عضو.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الخلفية التعليمية لمحمد المسجلة بالملف هي الجانب الوحيد الذي يظهر به تناقض: ففي بداية السبعينيات، أقر بالملف أنه أنهى فقط مرحلة التعليم الوسطى (الشهادة الإعدادية)، غير أن الملف يظهر به بعد ذلك أنه أنهى المدرسة العليا (الشهادة الثانوية). لم يكن يجيد أي لغة أجنبية، على الرغم من أن الملف يشير إلى أنه يتوق لتعلم الإنجليزية. لم تكن الورقة البحثية التي قدمها كجانب من تدريبه السياسي للحصول على عضوية الحزب الكاملة تحت عنوان: «أهمية الحزب الثوري لعامة الشعب» من الأبحاث التي تبعث على الاهتمام؛ فقد ظل يكرر بتلك الورقة كيف أن حزب البعث هو الحزب الوحيد القادر على الإيفاء بكل المتطلبات الثورية للجماهير في جميع مجالات الحياة.

وعلى الرغم من أنه لم ينل أي تعليم عسكري، التحق محمد بدورات عسكرية خاصة بسلاح المشاة وضعت خصيصاً للمفوضين السياسيين بالحزب، وأتاحت له تلك الدورات التدريبية بعد ذلك الانضمام للمكتب العسكري بالحزب. وقد نال رتبة عقيد مشاة بعد انضمامه للجنة العسكرية للحزب، وكان مماثلا في ذلك لكثيرين ممن كانوا بالمكتب العسكري من مدنيين. كمفوض سياسي، أصيب محمد أثناء الحرب العراقية الإيرانية، وعلى الرغم من ذلك لم يتضمن الملف أي تفاصيل عن الإصابة ولا عن الظروف التي أصيب فيها، ويمكننا افتراض أنه أصيب على إثر إحدى الغارات الجوية الإيرانية على افتراض عدم درايته بالواجبات العسكرية، وقد منح ثلاثة أنواط شجاعة في الفترة من ١٩٨٤ ـ ١٩٨٦، وفي عام ١٩٨٥ منح شارة الحزب، والتي تتيح لحاملها كثيراً من المزايا. وخلال حرب الخليج عام ١٩٩١ منح نوط شجاعة آخر (لم تذكر تفاصيل عن ذلك بالملف).

كان محمد عضواً نشطاً وملتزماً: فقد شق طريقه لأعلى الحزب عبر وحدات عسكرية حتى منتصف الثمانينيات حين انضم للمكتب العسكري

للحزب الموالي للحرس الجمهوري الخاص. بحلول عام ١٩٨٨ أصبح أمين سر المكتب العسكري لإحدى الوحدات المتمركزة في القصر الجمهوري كما أسندت إليه مسؤولية الشؤون التثقيفية (التوجيه السياسي) للشعبة.

في كل تقييم سنوي كان محمد يحوز تقييما عاليا كمؤمن حقيقي بأفكار الحزب؛ كان أمينا لا يفشي الأسرار، وكان معروفا بإجادته للعمل الجماعي ومواقفه المتوازنة بلا شطط، ولم يكسر القواعد التنظيمية ولا لمرة واحدة. كان يجتاز بانتظام كل اختبارات اللياقة البدنية كما لم يكن بدينا أو بطينا (كان طوله خمسة أقدام وستة بوصات ـ ١٦٥ سنتيمترا ـ ويزن ١٥٤ رطلا). لم يكن فقط أي من عائلته الممتدة أي منضم لأي حزب أو حركة سياسية مناوئة، بل أن أحد أشقائه كان عضواً نشطاً بحزب البعث، كان محمد يحظى بتقارير أمنية جيدة كل عام، على ضوء أنه لم تكن له في يوم من الأيام أية صلة بأي حركة سياسية غير حزب البعث، ولم يغادر العراق أبداً لأي دولة أخرى، ولم يكن له في أي يوم «صديقا عربيا غير عراقي ولا علاقة له بأي أجنبي» كما لم يكن له أي أقارب يقيمون خارج العراق أو متزوجين من عرب أو أجانب. حتى هواياته كانت مماثلة لهوايات صدام حسين، أي القراءة والصيد. كان يحيا باعتدال، وكانت حياته العائلية مستقرة: فقد كان متزوجا (زوجته لم تعمل أبداً وظلت ربة منزل) وله أربعة أبناء، وكان يعيل والدته التي تعيش مع أسرته. غير أنه، ولأسباب غير معلومة، أشار ملفه في عام ١٩٨٨ إلى أن مستقبله الحزبي محدود. قبل ذلك، كانت التوصيات السنوية تشير على الدوام بأنه «ملائم» أو جاهز للترقي.

بشكل ما، يبدو أن محمدا بعد أن أصبح عضو فرع في عام ١٩٩٢، وصل لأقصى ما يمكنه بلوغه، إما بسبب قصور إمكاناته الشخصية أو أن راعيه في الحزب قد أزيح عن مكانه في حركات التطهير الكثيرة التي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أجراها صدام على المناصب العليا في الحزب. في عام ١٩٩٧، وصل ملفه إلى نهاية مفاجئة بتعليمات من أمانة سر الحزب يقول نصها «تم الحصول على موافقة الرفيق [،] القائد المناضل [،] والأمين العام للحزب (حفظه الله) لانتقال الرفيق محمد (عضو قيادة الفرع العسكري الفارس إلى منظمة المناضلين طبقاً لطلبه»[١]. وليس لدينا وسيلة نعرف بها إن كان محمد قد طلب بالفعل ضمه إلى جمعية من خرجوا من الحزب لأنه أدرك ضيق الفرص التي أصبحت متاحة أمامه، أم أنه انتهى بسبب وجود خصم سياسي تسبب في نقله من الحزب إلى جمعية من خدموا الحزب. ومهما كانت الملابسات، اعتزل محمد العمل الحزبي في سن الثانية والخمسين، وهو معدل سن اعتزال العمل في الحزب، ويساعد ذلك على فتح الطريق أمام جماعات أخرى أصغر سنا من المتحمسين البعثيين.

التوجيه السياسي في الحزب

كما بينا في المقدمة، فإن أيديولوجية حزب البعث بشعاراتها الثلاثة وهي الوحدة والحرية والاشتراكية، فقدت جاذبيتها وإغراءها، في الوقت الذي اكتسبت فيه الوطنية العراقية أرضا جديدة. تبنى الحزب وقوى التوجهات الآثارية بالعراق «لتوعية الشعب العراقي بأهمية وأصالة تاريخ بلدهم القديم ـ بما فيه تاريخ العراق ما قبل الإسلام»[٢]. تم إبراز الإرث التاريخي لمنطقة ما بين النهرين، ونبوخدنصر (ملك بابل)، والحضارة القديمة للسومريين والبابليين، وكذلك الفلكلور المحلي وإعادة توجيهه

---

(١) من أمانة سر الحزب إلى نائب أمين السر في الحزب، «نقل إلى منظمة المناضلين»، ١٦ مارس ١٩٩٧، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٢) بارام: «الثقافة، والتاريخ، والأيديولوجية»، صفحة ٢٥.

لخدمة أيديولوجية الحزب ولإظهار تفرد العراق في الماضي والحاضر في العالمين، العربي والإسلامي. لم تظهر الوثائق أي جدل جدي أو إعادة فحص ومراجعة للجوانب الأيديولوجية، وبحلول بدايات عقد التسعينيات، كانت أغلب الأعمال البحثية التي تقدمها الكوادر الحزبية تدور جميعها حول شخصية صدام حسين وإنجازاته. كان التلقين السياسي للأعضاء موضع الاهتمام الأول للحزب وفروعه. وكان للتلقين أثره على الثقافة بطريقتين: من خلال الثقافة الحزبية (التعليم السياسي)، والثقافة العامة. لم يكن تبعيث الجماهير يقل أهمية وشأنا بأي حال عن التلقين السياسي لأعضاء الحزب، ووجه الحزب اهتماماً وتركيزاً خاصاً على «تعليم الجماهير بوجه عام والشباب على وجه التخصيص الثقافة القومية....، وتحصينهم ضد النظريات الأجنبية والأفكار التي لا تتلاءم مع أهدافنا الوطنية [البعثية] والإنسانية»[١]. ومثل كل النظم التسلطية الأخرى، فإن الغاية المعلنة كانت خلق «إنسان جديد» و«مجتمع جديد»[٢] حيث يصبح المواطن العراقي النموذجي هو المواطن البعثي، الملتزم أيديولوجيا وولاؤه لقادة الحزب[٣].

كانت سياسة نشر الثقافة البعثية تدار من قبل وزارة الثقافة والإعلام العراقية، والتي لعبت الدور الأهم في التوجيه الفكري للجماهير العراقية من خلال وسائل الإعلام، وأيضاً من خلال خطب صدام حسين الكثيرة ومن خلال التعليم الموجه والبرامج الثقافية التي تستهدف مختلف

---

(١) المؤتمر القطري الثامن، يناير ١٩٧٤، صفحة ٥٠. أرجع أيضاً في ذلك إلى: بينجيو: «كلمة صدام»، صفحات ٥٠ ـ ٥١.

(٢) مكية: «جمهورية الخوف»، صفحة ٦٩.

(٣) سامي زبيدة [مجتمع جريح، وجماهير مسحوقة، واقتصاد محطم]، طبعة كوتشيرا، الكتاب الأسود، صفحات ٦٠١ ـ ٦٢٧.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فصائل المجتمع. الجانب الثقافي تمت تغطيته بتكثيف كبير من جانب باحثين معينين[1]، والتأكيد هنا هو على فهم كيف تعامل النظام مع التوجيه السياسي من داخل البنية الحزبية. ولا حاجة بنا لذكر، أن الاثنين كانا مرتبطين برباط وثيق، خاصة في المجال التعليمي. ومثلما كان في الاتحاد السوفييتي والنظم المماثلة، كانت المناهج التعليمية في المدارس العراقية مليئة بالمضامين السياسية، وأصبحت كتابة التاريخ موضعا كبيراً للتركيز على صدام حسين وكبار مسؤوليه[2]. وهكذا، كان التوجيه السياسي، والكتب التاريخية، والتفسير الجديد للتاريخ لها دور بارز في تدريب الكوادر السياسية البعثية.

العلاقة بين «الإرشاد الفكري» للجماهير وتلقين أعضاء الحزب تم التركيز عليها بوضوح في دراسة أعدت عام ١٩٨٤ من أجل «تحريك الجماهير لتفهم بوضوح مبادئ الحزب». وخلصت تلك الدراسة إلى ست توصيات:

١ ـ تسخير وسائل الإعلام (التلفزة والإذاعة والصحف) لشرح مبادئ الحزب.

٢ ـ التواصل مع الجماهير عن طريق الاتحادات المهنية (اتحاد العمال، اتحادات المرأة، واتحادات الطلاب).

٣ ـ الاستفادة من الفيديوهات المصورة (والتي أصبحت شائعة في منتصف الثمانينيات) للمؤتمرات والمحاضرات التي يلقيها كبار أعضاء الحزب.

---

(١) يتناول كتابان هامان تلك المسألة، كتاب إريك دافيز: «ذاكرة الدولة: السياسات، التاريخ، والشخصية الجمعية في العراق الحديث» (جامعة بيركلي بكاليفورنيا، ٢٠٠٥)، وبارام: الثقافة والتاريخ والأيديولوجية.

(٢) دافيز: ذاكرة الدولة، صفحات ٢٠٣ ـ ٢٠٧. كان الشعر موضع تركيز آخر من النظام.

٤ ـ استخدام خطب صدام حسين ومختلف تجاربه الحياتية.

٥ ـ التركيز على مراكز الشباب في القرى والمدن الصغرى لجذب مزيد من الجماهير، وذلك باستغلال الشعراء، والكتاب، والفنانين لتوصيل رسالة الحزب للتجمعات.

٦ ـ استغلال كل أشكال التعبير الجماهيري أو وسائل الترفيه الجماعية مثل السينما والملصقات والرياضات، والموسيقى الشعبية، والرسم، ... إلخ من أجل التأثير على الجماهير[١].

أما داخلياً، وعلى الرغم من أن التلقين كان منتشرا من خلال كل وسائل التواصل مع الجماهير، إلا أنها تجمعت وتلخصت كلها على شكل مناهج تعليمية في مدرسة الإعداد الحزبي، والتي أنشأت من أجل تطوير وتنمية كوادر الحزب. تم وضع أهداف واضحة للتعليم السياسي لكل مستوى تعليمي في سلم التراتب الحزبي. ومن ثم، فقد كانت مناهج التعليم السياسي للمؤيدين تنحصر في نظرة عامة لتاريخ الحزب، ومبادئه، والمصطلحات الداخلية والانضباط الحزبي. أما للأنصار، فقد كانت المناهج تميل أكثر باتجاه تعليم التركيب البنائي للحزب وقدرة الأنصار على القيام بتنفيذ مبادئ الحزب، إضافة إلى التاريخ العراقي والعربي من خلال منظور بعثي، مع التأكيد على دور صدام حسين. ولكلتا الشريحتين، ـ المؤيدين والأنصار ـ كانت الدورات التعليمية تهدف إلى التوصل إلى أكثر العناصر ملائمة ككوادر جديدة للحزب[٢].

بدأت تلك الأنواع من المدارس في البداية على نطاق محدود ولكنها

---

(١) من تنظيم الفرات إلى أمانة سر الحزب، «دراسة»، ٢٢ مارس ١٩٨٤، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٢) من فرع السماوة «إطار خطة للعام البعثي أبريل ٢٠٠٢ إلى ٢٧ أبريل ٢٠٠٣»، ٢٦ أبريل ٢٠٠٢.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نمت مع تمدد الحزب وتوسعه في عدد الأعضاء[١] وأصبحت تدار بحرفية أكثر تخصصاً مع مرور الوقت. أعلن ميثاق المدرسة أن هدفه كان «الارتفاع بالمستوى الثقافي لرفاق الحزب وتعميق فهمهم لمبادئ الحزب الفكرية وتاريخ الحزب»[٢]. وكان يشترط أن يكون المعلمون من قيادات الشعب على أقل تقدير، ويحوزون مؤهلات عليا، وأن يكونوا معلمين بدوام كامل. كان التخطيط الطبيعي لتلك الدورات التعليمية أن تستغرق كل دورة أربعة أشهر، ولكن كنتيجة للتوسع السريع في توسيع قاعدة الحزب، أصبح ذلك الوقت غير مجدٍ بافتراض الحاجة الملحة لإعطاء تدريب عملي سريع. وتم تقصير طول الدورات طبقا لذلك الاحتياج لتصبح شهرين فقط، وتقوم كل مدرسة بعمل أربع دورات كل عام. كان الانضباط مشددا: فلم يكن بمقدور أي دارس الانسحاب من أي دورة دراسية دون موافقة كتابية من أمانة سر الحزب، وأي دارس يتغيب عن الدروس لثلاثة أيام متعاقبة، أو خمسة أيام منفصلة، يتم فصله[٣].

كانت المدرسة تهدف لخلق روح الرفقة بين الدارسين، وكان على كل معلم أن يطور ويخلق علاقات متينة مع الحضور من الدارسين وأن يكون لديه إحساس عالٍ بمستقبلهم الحزبي واحتمالات تبوئهم لمراكز عليا بالحزب[٤]. على المستوى النظري، كان الدارسون أحرارا في انتقاد الحزب واقتراح أفكار جديدة. كان صدام حسين يشجع مثل ستالين النقد الذاتي، وفي عام ١٩٧٤ قال في اجتماع لكوادر الحزب في مدرسة

---

(١) مطر: «صدام حسين»، صفحة ٢٠٤.

(٢) من المكتب الثقافي إلى أمانة سر الحزب، «المدارس الحزبية»، ١١ نوفمبر ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٣) المصدر السابق.

(٤) من فرقة الفوز العظيم إلى أمانة سر الحزب، «النوعية الأيديولوجية في ضم الأعضاء»، ٢٨ مايو ٢٠٠٠، القيادة القطرية لحزب البعث.

إعدادية أنه «كبعثي، فإن الحديث الحر والأمين، ضروري أكثر من اختلاق الأعذار والتبريرات»، وأن على أولئك الأعضاء ألا يخجلوا من انتقاد البنية القائمة والقواعد المنظمة لها[١]. كانت نصيحته للمساهمين في ذلك الاجتماع أن يكونوا جريئين ومبتكرين وأصحاب أفكار خلاقة، حتى «يفرضوا تقاليد الحزب على أجهزة الدولة أفضل من استعارة تقاليد أجهزة الدولة وفرضها على الحزب»[٢]. ورغم ذلك، كان النقد الذاتي في الستالينية والبعثية ونقد الحزب في كثير من الحالات يستخدم ضد الأعضاء الذين قاموا بتوجيه تلك الانتقادات.

بحلول نهاية عقد الثمانينيات، أصبح على تلك المدارس أن تتعامل مع أعداد كبيرة من المسجلين. أحد العوائق الكبرى، وعلى وجه التخصيص خارج بغداد، كان يتمثل في نسبة الأمية المرتفعة وتدني المستوى التعليمي للملتحقين الجدد بالدورات. كان حزب البعث، تماماً مثل الحزب الشيوعي تحت حكم ستالين، يعتبر أن محو الأمية «من الاشتراطات الهامة والضرورية لمزيد من التوجيه السياسي»[٣]. في عام ١٩٩٩ على سبيل المثال، في تنظيم بغداد، حضر دورة التلقين ٤٠٧٩ متلقياً، مثلوا ٢٩ بالمائة من مجمل المسجلين لحضور الدورة في السبعة فروع في أرجاء العراق[٤]. ويبدو أن ذلك كان المعدل بين من يحضرون تلك الدورة داخل بنية الحزب في بغداد[٥]. لم يكن الأنصار والأعضاء

---

(١) صدام حسين: «المختارات»، الجزء السابع، صفحات ١٠ ـ ١١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) كاترين ميريدبل، «سياسات موسكو وصعود ستالين: الحزب الشيوعي في العاصمة»، ١٩٢٥ ـ ١٩٣٢.(نيويورك، منشورات سانت مارتن، ١٩٩٠)، صفحة ١٤٣.

(٤) من تنظيم بغداد إلى أمانة سر الحزب، «برنامج تعليمي للمرشحين»، ٢١ يناير ١٩٩٠، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٥) للعامين ١٩٨٨ و١٩٨٩ على التوالي، انظر: من أمانة سر الحزب إلى مشرف البرامج=

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الجدد هم وحدهم الذين عليهم حضور تلك الدورات بصفة دورية. فمن وقت لآخر، كان على أعضاء الحزب القدامى أن يحضروا دورات مدتها أسبوعان مع التأكيد على تنشيط العضوية والعلاقات العامة والتحذير من مخاطر البيروقراطية والفساد، وبالطبع، دروسا في التاريخ بالاستعانة بأمثلة من حياة صدام حسين ومواقفه[١]. وهناك مجموعات أخرى مختلفة كانت بحاجة للإرشاد وهم الجنود من أسرى الحرب بعد عودتهم من الأسر ومن قبلوا منهم كأعضاء في الحزب، حتى يتم التيقن من أن ارتباطهم بالحزب «باق على قوته»[٢].

كانت برامج تلك الدورات محدودة نسبيا. وقد تم تنظيمها لتدور حول أربعة موضوعات كبرى: أيديولوجية (مثل مفاهيم الوحدة والحرية)، التنظيم (التركيب الداخلي للحزب وآداب كتابة التقارير السياسية)، تاريخ الحزب (حياة صدام حسين ومعاركه الكبرى)، ومواضيع وطنية وإقليمية (مثل قضية فلسطين وقادسية صدام، وأدبيات وثقافة الحرب الإيرانية العراقية)[٣].

وفي منتصف التسعينيات أضيفت تنويعات أخرى، مثل: الحزب

=التعليمية، برنامج ١١ يوليو ١٩٨٨، القيادة القطرية لحزب البعث، ومن رئيس المعلومات والتوثيق إلى أمانة سر الحزب، «افتتاح برنامج تعليمي»، ١٠ نوفمبر ١٩٨٩، القيادة القطرية لحزب البعث.

(١) «مجالات الثقافة في برنامج تعليمي لسكرتيري الفروع، من ١٠ يونيو إلى ٢٥ يونيو»، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٢) من أمانة سر الحزب إلى مكاتب البنية التركيبية «التواصلية الحزبية مع العائدين من أسرى الحرب»، ١٠ أكتوبر ١٩٩٠، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٣) الإسم متخذ من معركة القادسية التي وقعت عام ٦٣٦ ميلادية حين هزم الجيش العربي المسلم الجيش الفارسي الساساني في معركة استمرت ثلاثة أيام، منهيا سلطتهم على العراق.

والدين[١]. أثناء تلك الدورات، كان على من يحضرونها أن يكتبوا مقالات عن مواضيع يحددها ويختارها المشرفون على تلك التنويعات. كانت توجد قائمة تضم أربعين موضوعا وتشمل أوامر القائد وأثرها على شخصية البعثي؛ تطور القائد البعثي المثالي؛ والبعث والمشكلة الفلسطينية؛ وأميركا والصهيونية؛ والإرهاب الدولي ومقاومة الاحتلال؛ ومن المستفيد من العقوبات على العراق؛ ودور المرأة في معركة أم المعارك (حرب الخليج الثانية)[٢]. ومن المثير للانتباه، أن الحزب أكد على الكتابة السهلة البسيطة وأصدر مذكرة بشأن الأوراق البحثية المكتوبة: كيف تقرأ المصادر الثانوية والأولية؛ وكيف تعرف الموضوع وتتناوله؛ وأسلوب الكتابة وكيف تستخدم الاقتباسات والمقتطفات، وهكذا[٣].

بالإضافة إلى كتابة المقالات والمواضيع الموجزة، كان على المرشحين خوض امتحان تحريري. وفيما تبدو وكأنها كانت آخر دورة تدريبية تعقد، وذلك بافتراض أن اختبار تلك الدورة التحريري كان من المفترض أن يعقد في ٣ فبراير عام ٢٠٠٣، وكان على كل مختبر أن يجيب على أربعة أسئلة من ستة. من بينها ما يلي: ما هو جوهر الاجتماع الحزبي الناجح، ما هي نظرة الحزب للدين؛ لماذا يصر القائد على ضم الشباب؛ لماذا كانت العراق مستهدفة من أميركا والصهيونية؛ وما هي حقوق وواجبات العضو؟[٤]. ولا بد من ملاحظة أن اجتياز تلك الدورات

---

(١) شعبة بغداد، «برنامج تعليمي للمرشحين»، ١ يونيو ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٢) من شعبة بغداد إلى اللجنة الثقافية «شكل وأسلوب عمل دراسة»، ٣ مارس ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٣) المصدر السابق.

(٤) أمانة سر الحزب، «اختبار»، ٣ فبراير ٢٠٠٣، القيادة القطرية لحزب البعث.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم يكن يتم بطريقة آلية؛ فالمرشحون كانوا يخضعون للتقييم في مساهماتهم في الدورات، ومقالاتهم، وعلى ضوء نتائج الاختبار التحريري النهائي. فشل على الأقل ٢ بالمائة في إكمال الدورات بنجاح. ومنح بعضهم تقييم «مقبول» مع ملاحظة مرفقة بأوراقه تعلن أن ذلك المرشح قد اجتاز الدورة «بقرار رسمي»، غير أننا لا نعرف سبب ذلك[١].

وبينما كانت المواضيع التي تدرس بالدورات ضيقة المجالات والآماد، كان من يحضرون تلك الدورات ينتمون إلى مختلف أشكال وألوان الحياة. قائمة أسماء إحدى دورات الحزب والتى حضرها ثلاثة وخمسون رفيقا، كانت بالفعل تظهر تنوعا كبيراً بين من حضروها: ضباط جيش وشرطة؛ ومسؤولون حكوميون من مختلف المستويات والدرجات الوظيفية: بمن فيهم من رؤساء أقسام؛ وتجار من القطاع الخاص؛ وسفير من وزارة الخارجية؛ أساتذة وطلاب جامعات؛ بل وحتى مرشح من السودان[٢]. بالنسبة لكل مرشح، كانت قمة وذروة الالتحاق بالبرنامج التعليمي تتمثل في لحظة مراسم أداء قسم يمين الولاء للحزب في نهاية الدورة، مما كان يعني للمرشح أن الطريق أصبح مفتوحا أمامه لنيل العضوية الكاملة وخدمة الحزب. كانت كثير من تلك المراسم تحدث في المناسبات الوطنية، خاصة ٢٨ أبريل، وهو يوم مولد صدام حسين[٣]، وبداية العام البعثي الجديد. وبمرور الوقت، وكلما كان العراق يواجه مزيدا من المعارك العسكرية، كانت مناسبات

---

(١) من أمانة سر الحزب إلى المشرف على برامج التعليم، ٣ ديسمبر ١٩٨٩، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٢) أمانة سر الحزب، «قائمة حضور الدورة التعليمية رقم ٤٧»، ١٠ أكتوبر ١٩٩٩، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٣) أمانة سر الحزب، «إجراءات أداء قسم الولاء»، ١٨ مايو ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث.

الأعياد الوطنية تزداد للاحتفال بذكرى تلك المعارك. من بين تلك المناسبات الوطنية المستجدة يوم الراية، للاحتفال بذكرى الصمود في وجه الهجوم الأميركي الجوي على القصور الرئاسية في فبراير عام ١٩٩٨، ويوم الزحف الكبير، للاحتفال بذكرى الاستفتاء على قيادة صدام حسين في اكتوبر ١٩٩٥[١]

وكما ذكرنا، كان على أعضاء الحزب أيضاً أن يلتحقوا كجانب من برامج الإعداد، ببرنامج إرشادي في الثقافة العامة. وعلى الرغم من ذلك، لم تكن تلك البرامج التثقيفية تختلف كثيراً في محتواها عن برامج التوجيه السياسي. في أحد برامج الثقافة العامة، كان التركيز ما زال قائما على الحروب مع إيران والكويت وكيف قاد صدام حسين العراق لتحقيق النصر في كلتا الحربين؛ وكذلك الوحدة العربية، وتاريخها، وأهميتها في مبادئ حزب البعث؛ والنضال ضد أميركا والصهيونية؛ وهكذا. بعض البرامج كانت تحتوي على مواضيع تاريخية، مثل تاريخ العراق منذ استقلاله عام ١٩٣٢ حتى يوليو ١٩٦٨ (حين وصل حزب البعث للسلطة)، والنظام الاقتصادي خلال تلك الفترة[٢]. في كل موضوع من تلك الموضوعات، تاريخي كان أم سياسياً، كانت المصادر التي يستعان بها، بالمقارنة بتلك المواد التي تدرس في التعليم السياسي، مستمدة أيضاً من خطب صدام حسين ومقابلاته، ومن تقارير مختلف مؤتمرات حزب البعث، ومن المنشورات الدعائية التي يطبعها الحزب[٣].

---

(١) للحصول على قائمة بالأيام والأعياد الوطنية ومدلولاتها، إرجع إلى مركز أبحاث سجلات الصراع.

(٢) من شعبة أربيل إلى مكتب القيادة الحزبية، «الأسبوع الثقافي»، ٢٣ أغسطس ١٩٩٠، مركز حفظ وثائق الشمال، الاتحاد الوطني الكردستاني، صندوق ٣٠٠٦.

(٣) أمانة سر الحزب، «تفاصيل البرنامج التثقيفي للأعضاء»، ٢٣ يونيو ١٩٩٩، القيادة القطرية لحزب البعث.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

استثمر الحزب ومختلف مؤسساته مجهودات هائلة في تخطيط وإدارة تلك المناسبات الثقافية. فعلى سبيل المثال، ادعى مكتب الطلبة والشباب الذي كان أحد مكونات لجنة الثقافة بالحزب أنه نظم خلال عام واحد ٤,٨٦٨ اجتماعا نقاشيا، و٦,٢٦١ محاضرة، ومئات من الملتقيات الشعرية، هذا إضافة إلى ١٥,٠٠٠ مشاركة في النشر والطباعة والدراسات مع رعايته وتبنيه لما يزيد عن ١٠٠٠ مقال بالمجلات المختلفة[١]. ولعبت مطبوعات الحزب دوراً مهما في التلقين لا لكوادر الحزب فقط ولكن لكل مواطني العراق في المجمل. بين عامي ١٩٩٨ ونهاية ٢٠٠٢، نشر مكتب الإعلام والدراسات تحت إدارة أمانة سر الحزب مباشرة (انظر الملحق رقم ١) ١١٧ مطبوعة تتروح أحجامها من ثلاث إلى اثنتين وخمسين صفحة. من بيت المواضيع التي غطتها تلك المطبوعات: التصدي لأميركا، والعولمة، وحوارات مع الحزب الشيوعي الروسي، وأحداث الحادي عشر من سبتمبر بالولايات المتحدة: ما تغير وما لم يتغير، ودراسات عديدة عن البعث وعن صدام حسين[٢].

كرس الحزب أيضاً مصادر تمويل هائلة لفتح المكتبات في فروع الحزب المنتشرة في أنحاء العراق ووهب تلك المكتبات كتبا تتناول مختلف أنواع المعرفة. وفي عام ٢٠٠١، خصص صدام حسين مبلغا

---

(١) من المكتب المركزي لاتحاد الوطني للطلبة والشباب إلى أمانة سر الحزب، «الأنشطة التثقيفية في الفترة من ١ أبريل ٢٠٠١ حتى ٣١ مارس ٢٠٠٢»، في ٧ مايو ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٢) من أمانة سر الحزب إلى كل التنظيمات الحزبية، «دليل المطبوعات والنشر»، ١٧ فبراير ٢٠٠٣، القيادة القطرية لحزب البعث.

إضافياً مقداره ٤٢ مليون دينار عراقي (ما كان يساوي في ذلك الوقت ١٥,٠٠٠ دولار أميركي) لميزانية الحزب، لتنفق من قبل الفروع فقط على توسيع مكتباتها وشراء كتب جديدة[١]. وكما ذكرنا، كانت هناك عملية دمج مستمرة للأفرع وفتح أفرع جديدة. أحد الأمثلة على افتتاح أفرع جديدة كان ذلك الفرع الذي افتتح في بدايات عام ٢٠٠١ ويحمل اسم الزبير بن العوام[٢]. وعرف عن ذلك الفرع أنه يمتلك على وجه التقريب ١٨,٠٠٠ كتاب موزعة ما بين أربع وثلاثين مكتبة في الفرق والشعب التابعة للفرع.

ونسقت المكتبة في ذلك الفرع طبقا للمواضيع التي تتناولها الكتب. كان الموضوع الذي استحوذ على الاهتمام الأكبر يتكون من الكتب التاريخية، والتي حوت تنويعة واسعة من الكتب عن تاريخ العراق والشرق الأوسط، بعضها مترجم عن لغات أجنبية، بينما كان بعض آخر منها دعاية مباشرة وخالصة للحزب وبعضها عن تاريخ صدام حسين. ثاني أكبر مجموعة بين تلك الكتب كانت الكتب الأدبية، وأغلبها داووين شعر وروايات، مع قسم منها يضم كتباً وروايات كتبها أسرى الحرب العراقيين عن تجاربهم في الأسر. ضمت المكتبة أيضاً مجموعة من الكتب السياسية والعسكرية، بعضها قام الحزب بنشره، بينما كان بعض منها لأخصائيين يحللون فيها حروب العراق العديدة مع التأكيد على الحروب التي انتصرت فيها العراق بفضل قائد الحزب. أنواع أخرى

---

(١) مكتب المعلومات والدراسات إلى أمانة سر الحزب، «مكتبات الحزب»، ١٤ يناير ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٢) كان الزبير بن العوام واحداً من عشرة من الذين بشروا بالجنة قبل موتهم، واستخدم صدام حسين بعضاً من أسماء أولئك المبشرين بالجنة بإطلاقها على فروع الحزب، مثل أبو بكر الصديق، وعثمان بن عفان، وسعد بن أبي وقاص، أبو عبيدة بن الجراح.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تراوحت بين كتب دينية وقانونية[1]. كثير من تلك الكتب تم نشره تحت رعاية الحزب؛ فعلى سبيل المثال، تم اتخاذ قرار عام ٢٠٠٢ لطباعة سيرة ذاتية لعدنان خير الله، شقيق زوجة صدام وابن خاله، لتكريم دوره في الحرب الإيرانية العراقية[2].

ولا يمكننا التقليل من اهتمام صدام حسين بالثقافة والشعر بأي حال. كان صدام يرى في نفسه أنه كاتب وشاعر، وهكذا أحس بعلاقته الوثيقة بالفنانين على جميع صنوف فنونهم. بحلول العام ٢٠٠٠، كان الفنانون في العراق ينقسمون إلى ثلاث مجموعات طبقا لإنتاجهم وأقدميتهم، وخصصت لهم رواتب شهرية طبقا لصنف انتاجاهم الفني. إضافة لذلك، كان صدام في غاية السخاء تجاه أي شاعر يمتدحه في قصائده، وكان يهبهم ما بين ١٠٠ إلى ٥٠٠ دولار أميركي، وهو ما كان يعد مبلغا كبيراً في ذلك الوقت الذي اتسم بصعوبات اقتصادية جمة[3]. وكمثال للدلالة على اهتمامه بالأدب واللغة، نورد ذلك المثال، فقد كان يشاهد التلفاز ذات مساء من شهر سبتمبر عام ٢٠٠٠ وسمع قارئ القناة يقع في كثير من الأخطاء النحوية وهو يقرأ أوامر القائد (أوامر صدام)،

---

(١) من فرع الزبير بن العوام إلى أمانة سر الحزب، «مكتبات الحزب»، ٢٩ سبتمبر ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٢) من أمانة سر الحزب إلى أمانة سر نائب الحزب، ٢٠ مارس ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث. كان عدنان خير الله وزيرا للدفاع في عقد الثمانينيات، ولكن صدام حسين تنامت لديه الشكوك بأن عدنان خير الله يدبر مؤامرات ليحل ابن عمه مكانه، وقتل خير الله في مايو ١٩٨٩ في حادث سقوط مروحية، ويعتقد كثيرون أن سقوط المروحية كان مدبرا ولم يكن حادثة قدرية. لمزيد من التفاصيل إرجع إلى تريب: «تاريخ العراق»، صفحات ٢٤٩ ـ ٢٥٠.

(٣) سامان عبد المجيد [أعوام صدام: ثورات حصرية] (باريس فايارد، ٢٠٠٣)، صفحات ١٤١ ـ ١٤٢.

فاستدعى على الفور وزير الثقافة والإعلام؛ وتشكلت لجنة خاصة على وجه السرعة لتحري أسباب المشكلة؛ وروجعت كثير من البيانات والبرامج المسجلة ودرست وفحصت مجددا؛ وتم اتخاذ قرارات بأن يعيد القارئ قراءة البيانات على الوجه الصحيح دون أخطاء بعد ذلك بيومين. وبعد فترة، تمت معاقبة ذلك المذيع بإيقافه عن العمل لمدة ستة أشهر[١].

تطوع صدام أيضاً بإزجاء النصح للكتاب وكيف يكتبون، وكان ينصح باستمرار بقراءة الكتب. في أحد اجتماعاته بالحرس الجمهوري، نصح قائد الحرس (وكان قائد الحرس الجمهوري ابنه قصي) وكل ضباط الحرس أنه يتوجب عليهم قراءة كتاب كل شهر، لأن ذلك سيثري معرفتهم ومعلوماتهم العامة، وينبه عقولهم وينميها، ويحسن طريقة تواصلهم الشفاهي والكتابي، والأهم من كل ذلك أن القراءة ستزيد من قدراتهم القتالية بما يصل إلى ٥٠ بالمائة[٢]. كان صدام يقضي أوقاتاً غير محدودة مع الكتاب الذين كرسوا مهاراتهم الكتابية للكتابة عن النظام والترويج له، ويناقش قوائم أسماء الكتاب، وكانت مسودات الروايات والقصائد الشعرية ترسل للديوان الرئاسي لمراجعتها قبل نشرها[٣]. وبالفعل، كتب الباحثون في الشأن العراقي عن حقيقة أن الفنانين في العراق في عهد البعث كان عليهم «السير بحذر كمن يمشي على سلك

---

(١) من وزير الثقافة والإعلام إلى رئيسي القائد، عظم الله قدركم، حفظكم الله وبارك فيكم، ٢٦ سبتمبر ٢٠٠٠، قاعدة بيانات وزارة الإعلام.

(٢) شريط تسجيل صوتي لاجتماع صدام حسين بقادة الحزب والجيش، أكتوبر ١٩٩٥، مركز بحث سجلات الصراع.

(٣) من مكتب الثقافة والإعلام إلى الرئيس، ٢٩ أبريل ٢٠٠١، يعلم الرئيس أن الثمانين كاتبا للرواية والقصة والنصوص المرئية الذين التقوا بالرئيس مؤخرا «قد شرعوا في كتابة الأعمال التي كلفوا بها» مركز أبحاث سجلات الصراع.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مشدود، والحفاظ على توازنهم بين بيع أرواحهم والحفاظ على الحرية الفنية»[١]. وتعلل آخرون بأن الفنانين العراقيين لم يكن أمامهم مجال للاختيار: فإما يتعاونون مع النظام أو يتحملون وطأة النفي الجسدي أو المعنوي[٢]. في الواقع والحقيقة، تطوع كثير من الفنانين لخدمة النظام وتكريس عبادة الرئيس. فنزيهة سليم على سبيل المثال، وهي من عائلة جواد سليم المعروفة، وعميد النحاتين العراقيين، فازت بمسابقة في الرسم عام ١٩٩٦. كانت لوحتها تسمى «الاستفتاء» وتظهر كلمة «نعم» للموافقة على صدام حسين بمختلف اللغات الحية في سياق المنافسة ضمن فعاليات مهرجان بابل للفنون، والذي عقد بمناسبة الاستفتاء[٣].

وكجانب من التعليم الثقافي، تم تحويل منزل أحمد حسن البكر، وهو الرئيس السابق لصدام حسين إلى متحف فني للحزب كرمز تاريخي لنضال الحزب. كان مرشحو الانضمام للحزب يؤخذون لزيارته وتلقى عليهم هناك محاضرة عن تاريخ الحزب، قبل وبعد ثورة ١٩٦٨ التي صعدت بحزب البعث إلى قمة السلطة[٤]. واستخدمت وسيلة فنية وإعلامية أخرى في التلقين لا لأعضاء الحزب فقط ولكن لعموم المواطنين العراقيين، وهي الجداريات. استثمر الحزب مبالغ طائلة في عمل الجداريات ثم كان عليه أن يتجشم عناء حماية كل تلك الجداريات في حالة استهداف خصوم الحزب لأي منها. وتكونت هيئة من ممثلين عن أمانة سر الحزب، وعن وزارة الثقافة والإعلام، ووزارة الداخلية،

---

(١) رودى، «علاقة الدولة بالمجتمع»، صفحة ١٥٦.

(٢) سلام عبود: «ثقافة العنف في العراق» (كولن الكامل فيرلاج، ٢٠٠٢)، صفحات ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

(٣) ألف باء العدد رقم ١٤٢٧، ٣١ يناير ١٩٩٦.

(٤) من أمانة سر الحزب إلى الديوان الرئاسي، «إصلاح متحف الحزب»، ٢٤ يناير ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث.

وهيئة الأمن الخاص، مسؤولة عن حماية الجداريات الكبرى من التشويه[١]. كانت تلك الجداريات تحقق غرضا مزدوجا وهو نشر رسالة حزب البعث وتدعيم وتكريس عبادة شخصية القائد الزعيم، وذلك «بإظهار حب الناس لقائدهم في صورة فنية أنيقة وجذابة تلائم وتناسب وضعه السامي ودوره في بعث أمتنا»[٢].

والنتيجة، أن حزب البعث لعب دوراً خطيراً في حكم العراق من عام ١٩٦٨ حتى عام ٢٠٠٣. وعلى الرغم من أنه في أوقات معينة، مثل الفترة التي تلت انتفاضة عام ١٩٩١، فقد الحزب بعضاً من مصداقيته في عين صدام حسين، غير أن الحزب سعى إلى إعادة تنظيم وترتيب نفسه، وقوَّى من قدرته على إحكام قبضته على الجماهير. ولابد أيضاً من ملاحظة أنه على الرغم من احتمال أن أنشطة الحزب لم تكن على الدوام منظمة جيداً وكانت أحياناً بلا معنى، بافتراض أن لها طبيعة سلطوية وبيروقراطية، إلا أنها في مجملها تميزت نسبيا وإلى حد كبير بالكفاءة ونجحت في الهيمنة على البلاد على مدى خمسة وثلاثين عاما.

كان التركيز في ذلك الفصل على فهم كيف كانت قيادة الحزب، ممثلة في مكتب أمانة سر القطر تعمل وبنيتها التنظيمية. كما كانت فروع الحزب المنتشرة في كل مدينة وبلدة في جميع أنحاء العراق، تعمل على تنفيذ وتحقيق أهداف قيادة الحزب، وكانت أيضاً عيونه وآذانه في كل ركن من أركان البلاد، كما سنشرح ذلك تفصيلا في الفصل التالي.

---

(١) المصدر السابق. ارتكازا على مذكرة قدمتها الاستخبارات: «إزاحة الستار عن الجداريات»، ٢٠ يوليو١٩٩٦.

(٢) من برنامج «ضوء» التلفزيوني، بناء على مذكرة من وزير الثقافة والإعلام، ٢٠ نوفمبر ١٩٩٠.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الثالث

فروع حزب البعث

بعيداً عن مركز السلطة، كان الحزب يدار بكفاءة على أسس إقليمية ومحلية. ويوفر مركز حفظ بيانات شمال العراق معلومات نادرة عن كل أوجه الحياة في الأقاليم على وجه التقريب، والتي تغطي المحافظات الشمالية الثلاث، أربيل ودهوك والسليمانية[1]. ويتيح ذلك الأرشيف بالإضافة إلى أرشيف القيادة المركزية القطرية لحزب البعث فرصة نادرة لمعرفة كيف كانت تعمل فروع الحزب وبنيتها الوظيفية، وأنشطتها، وتمويلها، وعضويتها، وانتخاباتها الداخلية. بعض المهام الهامة للفروع تمثلت في تجنيد المخبرين والمبلغين والوشاة، وبناء وتكريس عبادة الفرد الممثلة في عبادة الرئيس القائد، أو إدارة الاقتصاد المحلي،

(١) لا تختلف تلك السجلات عن سجلات سمولينسك بالاتحاد السوفييتي. سمولينسك تبعد ٢٦٠ ميلاً إلى الجنوب من موسكو. في منتصف يوليو عام ١٩٤١ غزت الوحدات العسكرية الألمانية المدينة، ونقلت إلى برلين كميات كبيرة من وثائق ومستندات الحزب الشيوعي تغطي الفترة من ١٩١٧ حتى ١٩٣٨. وعند نهاية الحرب العالمية الثانية استولت القوات الأمريكية على تلك الوثائق ونقلتها إلى الولايات المتحدة. إرجع إلى ميرل فينسود: «سمولينسك تحت الحكم السوفييتي» (كامبردج، ماساتشوستس: مطبوعات جامعة هارفارد، ١٩٥٨).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وسنركز عليها جميعاً في فصول أخرى. وعلى الرغم من أن الفروع كانت بمثابة سقف السلطة بالنسبة للشعب والفرق، كانت الخلايا تمثل الأساس والقاعدة الحزبية العريضة، والتي كان عليها أن تمتد وتنتشر بين الجماهير لتمد الحزب بالكوادر السياسية في تسلسل سلطة الحزب. ومن الخلايا أيضاً كانت كثير من المهام الحزبية تنفذ لتفعيل سياسة الحزب؛ والإشراف على المرشحين وتعليمهم وتثقيفهم سياسيا؛ وجمع التبرعات والهبات من المرشحين، والمؤيدين والأنصار، وأصدقاء الحزب؛ وترسيخ العلاقات والروابط مع السكان المحليين لتقدير ومعرفة احتياجاتهم واقتيادهم بعد ذلك للحزب[1].

كانت الفروع تخضع للتقييم المستمر وتقارن ببعضها بعضا بالاستعانة بالمعلومات التي تجمع من تقارير تلك الفروع حول مجهودات الفروع في خمسة مواضيع رئيسة مختلفة هي: الأنشطة التنظيمية، والمناسبات الثقافية، والعلاقة بعامة الشعب، والعمليات السياسية والأمنية، والإجراءات المالية.

مهام الفروع

١ ـ الأنشطة التنظيمية

قامت فروع الحزب بإرشادات وتوجيهات أمانة سر الحزب بالتأكيد على الأوجه التنظيمية لمسؤولياتهم التي يتولونها، وخلق خلايا جديدة وفرق، وانتخاب الأعضاء للجان الفروع، والقيام بزيارة الفروع الأخرى، وتنظيم المؤتمرات والاجتماعات لنشر مبادئ الحزب.

كان تجنيد وضم أعضاء جدد يحظى على الدوام بأهمية خاصة ويتم

---

(١) القيادة القطرية لحزب البعث، إس إتش ـ البعث ـ د ـ ١٤٤.

إبرازه بشكل خاص، وكان هناك احتياج دائم من القيادة لإحصائيات محدثة عن أعداد الأعضاء الجدد. وكما عرفنا، أحست قيادة البعث بأنها لن تكون مؤمنة إلا إذا كان كل من يشغلون مناصب حكومية ومؤسسات الأمن يميلون للحزب ويقبلونه بشكل ما. في أحد الأمثلة، حذر مدير الأمن العام[١] من أن عددا كبيراً من العاملين بالجهاز الإداري للدولة ليس لديهم ميول حزبية، وفيما يبدو كان بعض منهم يتجنب ويتفادى ملء استمارات الانضمام للحزب، أو يتفادى حضور اجتماعات الحزب. وطبقاً لرأي مدير الأمن العام، كان ذلك يقوض سرية وأمن المؤسسة الحزبية[٢]. مورست ضغوطات هائلة بلا كلل لضم أعضاء جدد، وبلغت تلك الضغوط حدا وصل إلى أن كبار قادة الحزب وجهوا تعليمات للفروع بأن كل مُوال للحزب عليه أن يضم على الأقل عضوين جديدين كل عام، وأن على أعضاء الحزب أن يعملوا على ضم أبنائهم وأقاربهم[٣].

وعلى الرغم من أن نشاط ضم الأعضاء الجدد من بين الشباب والطلاب كان له الأولية الكبرى، كان هناك أيضاً تركيز قوي على ضرورة ضم النساء، وخاصة في شمال العراق. وتظهر الملفات الخاصة بالعضوات في الشمال أن كثيرات منهن كن شابات، تتراوح أعمارهن بين العشرين والخامسة والعشرين؛ وأنهين دراستهن بالمدارس العليا (الثانوية)، وكن في الأغلب من المؤيدات أو النصيرات، وهو أدنى

---

(١) الأمن العام يلخص للأمن، كما يعرف العراقيون التنظيم بالأسم الأول.

(٢) من أمن السليمانية إلى كل رؤساء الشُعب، «مؤيدو الحزب»، ٢٥ مايو ١٩٨٠، مركز وثائق شمال العراق، والاتحاد الوطني الكردستاني٠١٢، صندوق ٥٠.

(٣) فرقة القعقاع «الخطة التظيمية للسابع من أبريل ٢٠٠٢ حتى ٦ أبريل ٢٠٠٣»، ٢ أبريل ٢٠٠٢، قيادة حزب البعث القطرية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مستوى من مستويات الانتماء الحزبي. بعض تلك السيدات الشابات كن يعملن في المصانع، بينما كانت أخريات ربات بيوت أو يعملن بالمدارس أو المكاتب الحكومية[١]. ومن المثير، أن ملفات الرجال المنضمين للحزب كانت تشير إلى نقيض ملفات النساء؛ فأغلب الأعضاء الذكور كانوا فوق الأربعين من العمر وأقل القليل منهم من تجاوز تعليمه مرحلة التعليم الأولي. وفي الحقيقة كان أكثرهم قد تلقوا بعض التعليم في الدورات التي ينظمها الحزب أو بالكاد قد تم محو أميتهم بتعليمهم مجرد مبادئ الإلمام بالقراءة والكتابة[٢].

وسواء كان من يطلب العضوية رجلاً أو امرأة، كردياً أو آشورياً، مسلماً أو مسيحياً، كان على طالب الانضمام أن يملأ استمارات بيانات مضنية تضم كل التفاصيل عنه وعن حياته مهما كانت دقيقة ويقسم يمين الولاء للحزب وقيادته. وحتى أولئك المنتمون من شمال العراق الذين كانوا ينضمون لفئة ما دون المؤيدين وينضوون تحت اسم النشاط الوطني، كان عليهم أيضاً أن يوقّعوا على إقرار مستمد من قرارات القيادة القطرية بأن كل من ينضم لحزب البعث ويضمر ميولا سياسية أخرى مغايرة سيتم إعدامه. إضافة لذلك فكل من يفصم علاقته بحزب البعث ويلتحق بعضوية أي حزب سياسي آخر سيكون عرضة للحكم عليه بالسجن لسبعة أعوام[٣].

---

(١) ملفات عن أعضاء في الحزب في السليمانية بتاريخ ١٩٩١، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٤٦، صندوق ٢٩٣.

(٢) ملفات عن أعضاء في الحزب في السليمانية ترجع إلى عام ١٩٩١، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٣٩، صندوق ٢٣٩.

(٣) إرجع على سبيل المثال لنموذج استمارة الإلتحق بـ«النشاط الوطني»، شعبة أربيل خلال عام ١٩٨٠، مركز وثائق شمال العارق، الحزب الديمقراطي الكردستاني، صندوق ٢١٧٦.

من الصعب فعلاً تحديد سبب نجاح الحزب إلى حد كبير في ضم كثير من الأكراد لصفوفه؛ السبب المحتمل يرجع إلى الامتيازات والمكافآت التي ينالها العضو بمجرد إظهار تأييده وميله للحزب[1] (وهو موضوع مشروح تفصيلا في الفصل السابع)، أو ربما يرجع للضغوط المكثفة التي كانت تمارس عليهم، مثل التهديد بفقدان الوظيفة أو التعرض لعقوبات جماعية للعائلة لو غادر قريب لها العراق، أو حتى أسوأ من ذلك إن انضم لأعداء النظام.

كان إضافة أعضاء جدد يتطلب إنشاء خلايا وفرق جديدة لاستيعاب المنضمين الجدد. في بعض الحالات، كان يجري تشكيل خلايا جديدة لتستوعب المنضمين الجدد من الكليات والمشافي الجامعية. على سبيل المثال، داخل مستشفى بغداد الجامعي، أضيفت ست خلايا جديدة في عام ٢٠٠٢ بتحويل الميالين للحزب من خمس خلايا كانت موجودة، لتوائم أعداد الأعضاء من العاملين بالمجال الطبي الذين تم ضمهم[2]. في حالات أخرى، كان تقسيم شعبة إلى شعبتين تمليه التغطية الجغرافية أو احتياج مجموعة معينة لمنضمين جدد ذوي كفاءات معينة[3].

كان انتخاب أعضاء للجنة الفرع من الواجبات التنظيمية الأخرى. وعلى أثر صدور تعليمات صدام حسين من أن «لابد للديمقراطية أن

---

(١) من بين المزايا الهامة جداً استلام قطعة أرض، على سبيل المثال، فرقة بارازان إلى مركز القيادة، ١٣ مايو ١٩٨٩، قيادة حزب البعث القطرية.

(٢) كان يوجد ٧٧٥ من الموالين في الخلايا الخمس القائمة تضم مختلف الفئات الحزبية، وعلى الرغم من أن العدد الإجمالي بقي كما هو، انخفض معدل الكوادر الحزبية من ١٥٥ إلى ١٢٩، انظر فرع بغداد، «تكوين خلية جديدة»، ١٢ أغسطس ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٣) من تنظيم بغداد إلى فرع القائد المنتصر، «تقسيم الشعب»، ٣١ ديسمبر ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تتنامى وتزدهر بيننا [أعضاء الحزب]»، أنفقت الفروع وقتا طويلا وطاقة كبيرة في إجراء انتخابات لمختلف المناصب[١]. كان هناك نصاب عددي محدد من الأعضاء لابد من اكتماله لإجراء الاقتراع، لذلك كان إجراء التصويت يتطلب أكثر من جلسة اقتراع حتى التوصل إلى أغلبية المصوتين لانتخاب أعضاء الفرع[٢]. كان جانب من مجهودات الاقتراع يوجه لدفع وتصعيد الكوادر الشابة لتقليص اعتماد الحزب على الأعضاء كبار السن.

كان تنظيم المؤتمرات والاجتماعات أحد المعايير الهامة الأخرى لقياس مدى نجاح كل فرع. «مؤتمرات الحزب هي المحور المركزي حيث كل آليات الحزب بكل مكوناته تلتقي لخلق الحياة والحيوية في داخل الحزب، وحيث تتفاعل وتتلاقح الأفكار والخطط»[٣]. ومن ثم، كان لحضور الكوادر الحزبية أهمية فائقة، وتم إعداد تقارير إحصائية بلا عدد بعد كل مؤتمر لرصد أعداد من حضروا ومن غابوا. أحد التقارير الذي أعد من قبل فرع في بغداد توصل إلى أن ٧٦ بالمائة يحضرون بانتظام كل الاجتماعات واللقاءات والمؤتمرات، و٢١ بالمائة يحضرون دون انتظام، وكان من النادر أن ترتفع النسبة عن ذلك أو تتغير[٤].

---

(١) فرع دهوك «الأنشطة التنظيمية لعام ١٩٨٩»، مركز وثائق شمال العراق، الحزب الديمقراطي الكردستاني ٠٠٩، صندوق ٢٠٩٦. بالنسبة للانتخابات في مختلف الفروع إرجع إلى فرع كركوك على سبيل المثال «محاضر اجتماعات الانتخابات»، ١٢ أبريل ٢٠٠١، قيادة حزب البعث القطرية.

(٢) فرع خانقين «محاضر اجتماعات الانتخابات»، ٦ ديسمبر ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٣) فرع الرشيد، بغداد، «الخطة التنظيمية لفرع الرشيد لعام ١٩٩٢»، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٤) المصدر السابق، الإحصائيات تخص العام ١٩٩٠ لفرع الرشيد.

وبذلت مجهودات كبيرة لجدولة الاجتماعات سلفا لتعظيم أعداد الحضور، وأجريت كثير من عمليات الرصد والمسح العددي للتوصل لأفضل توقيت وأفضل مكان تجرى فيه الاجتماعات واللقاءات التي تناسب أغلب كوادر الحزب. وخلال بعض الاجتماعات واللقاءات، كانت تجمع التبرعات النقدية للحزب، ويبدو أن ضغوطاً شديدة كانت تمارس على الحضور للمساهمة في أي قضية يتبناها حزب البعث[١]. ولا حاجة بنا للقول، أن حضور العضو أو عدم حضوره كان كان يسجل بانتظام في ملفه الحزبي الشخصي. فعلى سبيل المثال، حين كانت ربة منزل تتغيب عن كل الاجتماعات واللقاءات الحزبية لمدة عام كامل، يزورها رئيس الخلية في بيتها ليقنعها بأهمية الحضور، وحين لا تثمر تلك الزيارة ولا زيارات ممثلي تنظيمات المرأة في إقناعها بالحضور والمواظبة، تصرف المرأة وتشطب من الخلية التي تنتمي إليها[٢].

ومن الشيق، طبقاً لما وجدناه في مسح أجراه أحد الفروع، كان ٣٥ بالمائة فقط من الأعضاء راضين رضى تاما عن المحتوى السياسي لتلك المؤتمرات الحزبية، بينما رأى ٦٥ بالمائة أن اللقاءات مهمة إلى حد ما[٣].

عبر كل الفروع، كان الأعضاء يشعرون أن المواضيع التي تناقش في تلك اللقاءات الحزبية كانت نظرية جداً ولا علاقة لها بالمشاكل الفعلية التي تواجه المجتمع. كان التنظير من المواضيع التي واجهها صدام

---

(١) من أمانة سر فرع ميسان إلى تنظيم الجنوب، «دراسة»، ١٣ أكتوبر ١٩٩٢، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٢) من تنظيم المرأة بسرسنك إلى قيادة الحزب، «قلة الحضور»، ١٣ أكتوبر ١٩٨٧، مركز وثائق شمال العراق، الحزب الديمقراطي الكردستاني ٠٢٩، صندوق ٢٣٠٥.

(٣) فرع الرشيد، بغداد، «الخطة التنظيمية لفرع الرشيد لعام ١٩٩٢»، القيادة القطرية لحزب البعث.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حسين ذاته حين خاطب الحزب عام ١٩٩٢ قائلاً أن عليه أن يركز على الجوانب العملية في مجالات حياة الناس أكثر من التركيز على مناقشات عامة ونظريات سياسية[١]. كان هناك اهتمام آخر يبرز من تقارير الفروع عن اللقاءات والمؤتمرات وهو الاهتمام بنوعية المتحدثين، وكان معدو اللقاءات يطلب منهم أن يستضيفوا الشخصيات التي تتميز بالقدرة على الحديث وجذب المستمعين[٢]. في دراسة لأحد الفروع، كان يتطلب توفر خمس عشرة صفة في أولئك الذين يديرون الملتقيات؛ من بين تلك المواصفات القدرة على التأثير في الآخرين، وأن يكون حَسَن المظهر ولا يعاني من أية عاهات بدنية، وأن يكون لديه القدرة على تكوين صداقات مع الحضور، وأن يكون فوق كل ذلك حافظاً جيداً لإيديولوجية الحزب[٣].

كانت زيارة الحزب واستضافة المؤيدون تعد أحد المتطلبات التنظيمية. كانت الزيارت أداة هامة لتقوية جهود الحزب وللتعلم من الفروع الأخرى ما يقومون به والأنشطة السياسية التي ينفذونها. كانت تستخدم أيضاً كأداة «لفحص واختبار أداء ميكانيزمات الحزب»[٤]. استضافة أعضاء حزبيين آخرين استخدم أيضاً للتعلم وفي الغالب من الكوادر الأقدم عن التطورات داخل الحزب، وكان يفترض أن ذلك

---

(١) من أمانة سر فرع ميسان إلى تنظيم الجنوب، «دراسة»، ١٣ أكتوبر ١٩٩٢، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٢) المصدر السابق.

(٣) من فرع القائد المنتصر إلى أمانة سر الحزب، «دراسة»، ٥ يونيو ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٤) فرع الرشيد، بغداد، «الخطة التنظيمية لفرع الرشيد لعام لسنة ١٩٩٢»، القيادة القطرية لحزب البعث.

يشجع كل من الزائرين والمضيفين على ممارسة النقد الذاتي، كما كانت تتبناه وتؤيده قيادة الحزب[١].

وأخيراً، كانت المواضيع الانضباطية والخلافية بين الأعضاء تشغل كثيراً من وقت كبار قادة الفروع والفرق. في أحد المناسبات، كتب أحد كبار الأعضاء لأمانة سر الحزب وللرئيس يشتكي من أمين سر فرع الموصل بسبب «تشاؤمه، وضعف خبراته التنظيمية وسؤ سمعته.... ولأنه كان ينشر أخبارا مضادة وآراء ووجهات نظر كان يسمعها من وسائل دعاية معادية»[٢]. ولا حاجة للقول أن مثل تلك الرسائل أدت إلى خلق لجان تحقيق والتي استمرت حتى وصلت الآلة البيروقراطية إلى قرار حول مدى صحة تلك الشكاوى.

٢ ـ الأنشطة الثقافية

كان التثقيف الأيديولوجي الذي يهدف إلى تشكيل معتقدات كوادر الحزب يتشابك مع الثقافة التعليمية العامة للشعب العراقي، وكلا الجانبين كان من الوظائف الرئيسة لأمانة سر الحزب والفروع في أرجاء العراق. كان النشاط الثقافي ينظر له على أنه مرحلة عظمى في بناء الشخصية البعثية، بالضبط كما كان يؤكد النظام الستاليني على تعليم أخلاقيات الحزب وشعائره[٣]. أغلب تلك التجمعات الثقافية كانت

---

(١) فرع دهوك، «الأنشطة التنظيمية لعام ١٩٨٩»، مركز وثائق الشمال، الحزب الديمقراطي الكردستاني ٠٠٩، صندوق ٢٠٩٦.

(٢) من ت.ت. (احتفظنا بالإسم الكامل) إلى الرئيس وأمانة سر الحزب، ١٤ أكتوبر ١٩٩٠، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٣) في مقارنة شيقة بنظام الاتحاد السوفييتي، إرجع إلى كيفية تصرف الحزب مع مدينة ماجنيستوجوروسك، التي تقع على نهر الأورال، في ستيفن كوتكن: الجبل المغناطيسي كحضارة، طبعة بغلاف ورقي (مطبوعات جامعة بيركلي بكاليفورنيا، ١٩٩٧).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تستخدم خطب وأحاديث صدام حسين، والتقارير السياسية الحزبية، والمطبوعات المتبناة من قيادة حزب البعث[١]. كان التوجيه الثقافي في داخل الفروع يتم بأشكال مختلفة، مثل: حضور الملتقيات، أو عمل أوراق بحثية، أو المساهمة في التنافسات والمسابقات الثقافية، تبادل الزيارات الثقافية مع الفروع الأخرى، المشاركة في المؤتمرات الثقافية، الانضمام إلى معارض الكتب العراقية التي تقام في العواصم العربية، وإعادة تزويد وإثراء مكتبات الفروع بمواد ملائمة للقراءة[٢].

وبالاتساق مع التعليم السياسي، تفاوتت المجهودات الثقافية من مجموعة لأخرى اعتمادا على المستوى الحزبي لكل مجموعة، فبينما ركز برنامج المؤيدين على شرح أيديولوجية البعث ويشجع الحضور على والانغماس في أدبياتها، كانت اللقاءات التي تعقد للأنصار تركز على أمور سياسية وكيف يمكن للأفراد أن يكونوا فعالين في حماية البلاد وضمان أمنها[٣]. كان هناك امتحان يعقد لكل من المؤيدين والأنصار في نهاية دوراتهم التدريبية، وكانت هناك جوائز تمنح للمتفوقين. في أحد الامتحانات على سبيل المثال، كانت الأسئلة الخمسة المطلوب الإجابة عليها تتطلب من الممتحنين مناقشة الموضوعات التالية: قرار مجلس الأمن رقم ٥٩٨[٤]، موقف الحزب تجاه حركات التحرر الوطنية في

---

(١) فرع الرشيد، بغداد «الخطة التنظيمية لفرع الرشيد لعام ١٩٩٢»، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٢) انظر على سبيل المثال: من فرقة سرسنك إلى أمانة سر الحزب، «قرارات»، ١٧ فبراير ١٩٨٨، مركز وثائق شمال العراق، الحزب الديقراطي الكردستاني ٠٢٩، صندوق ٢٣٠٥.

(٣) فرع القائد المنتصر، «دراسة»، ٥ يونيو ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٤) تم قبول قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة رقم ٥٩٨ في شهر يوليو ١٩٨٧ الذي طالب بوقف إطلاق النار في الحرب الإيرانية العراقية، على الرغم من أن ذلك القرار تم=

العالم، الأسباب وراء مؤامرات نظام الخميني ضد العراق، العوامل التي تهدد الاستقلال السياسي منذ ثورة ١٩٦٨، والمنشآت الهامة التي أنشأت في محافظة دهوك لإيواء كل المهجرين من بيوتهم[١].

كان الجانب المتكامل من الفعاليات الثقافية يهدف إلى بناء وترسيخ عبادة الفرد في شخص صدام حسين. كانت شعاراته تعاد وتكرر في الملتقيات، وتقتطف من كتاباته وخطبه وتستخدم كمواضيع تتمحور حولها الأوراق البحثية للملتقيات الثقافية. وحين نشر كتاب: رجال ومدينة ـ «لمؤلفه» وكان معروف ضمنا أنه من تأليف صدام حسين، كان على الفروع أن تطلب مئات النسخ وتوزعها على الأعضاء، بافتراض أن الكتاب «يحمل معنى الرجولة الحقة التي ستحصن جهاز الحزب من علل المرحلة»[٢]. وهكذا، كانت مكتبات الفروع متخمة بذلك الكتاب، وكلما طبع كتاب من وضع صدام حسين، يصبح على الفور «كتاب الشهر» لمناقشته في الملتقيات الثقافية عبر جميع الفروع الحزبية.

وبمعرفة أن هناك أعدادا لا تحصى من شعارات وخطب صدام حسين، لم تواجه الفروع أية مشاكل في اختيار الشعارات والأقوال التي تلائم كل مناسبة. فكلما كان على الفروع أن تستعد لاحتفال أو مناسبة ما، مثل يوم المرأة أو يوم الطفل، تكتب الشعارات التي أطلقها الزعيم على لوحات ورايات لإحياء تلك المناسبة[٣]. وسواء كان الاحتفال

=رفضه من قبل الطرفين، ولكنه كان الأساس النهائي الذي استند إليه وقف إطلاق النار الفعلي الذي حدث في عام ١٩٨٨.

(١) من فرقة سرسنك إلى فرع الحزب في دهوك، «مبادرة ثقافية»، ٢٦ مايو ١٩٨٨، مركز وثائق الشمال، الحزب الديقراطي الكردستاني ٠٢٩، صندوق ٢٣٠٥. تم إجلاء كثير من العائلات من قراها كجانب من عملية تعريب إقليم كردستان خلال عقد الثمانينيات.

(٢) المصدر السابق.

(٣) للاطلاع على قائمة مفصلة بشعارات صدام حسين التي كانت تستخدم في الاحتفال=

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالعيد السنوي للثورة، أو يوم الشهيد، أو عيد مولد صدام حسين، فإن جهاز الحزب يقوم بنفسه بالإعداد للك الاحتفالية بمنتهى الجدية والدقة ويعدون لكل تفصيلة وكل خطوة بدقة متناهية. بالنسبة لكل الفروع، كانت هذه الاحتفالات تعد مناسبة هامة ليحاول كل فرع أن يبز غيره ويتفوق عليه ويلفت نظر قيادة الحزب العليا واهتمامها. فعلى سبيل المثال، وخلال الاحتفال بالذكرى السنوية لثورة ١٩٦٨، أعدت إحدى شعب بغداد أسبوعا من الأنشطة شمل محاضرات سياسية عن «الثورة والقدس»؛ وملتقى حول دور القائد العظيم في الثورة؛ وافتتاح معرض فني؛ واستضافة خلايا وشعب أخرى؛ ومنافسة ثقافية بين خليتين؛ وتفقد لمختلف أسلحة الفرع من قبل المستشار العسكري لأحد الفرق الحزبية الأخرى[١].

٣ ـ العلاقة مع الجماهير

إدراكا من حزب البعث أنه ليس بمقدوره أن يحكم البلاد اعتمادا على أعضائه فقط، لذلك كان بحاجة لدعم عموم الجماهير. عرفت قيادة الحزب أن ذلك كان «مجالا ليس فقط لتجنيد وضم أعضاء جدد للحزب، ولكنه عرضة أيضاً لأن تنمو وتختمر فيه الأفكار والأعمال السلبية المعادية للحزب»[٢]. كان المؤشر الدال وأداة القياس بالنسبة لأنشطة أي فرع يتمثل في التمييز بين العموم على مدى ما يقدمه وينجزه

=بذكرى ثورة ١٧ ـ ٣٠ عام ١٩٦٨، ارجع إلى: من شعبة القائد المنتصر إلى قيادة الفرع، «المعرض»، ٢٢ يوليو ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث.

(١) من شعبة القائد المنتصر إلى قيادة الفرع: «أنشطة»، ١٨ يوليو ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٢) فرع الرشيد، بغداد، خطة «تنظيمية» لفرع الرشيد لعام ١٩٩٢، القيادة القطرية لحزب البعث.

أي مواطن للحزب، من الجانب النوعي والمادي، وأن العلاقات الشخصية لابد أن تنمى مع تشجيع ودعم الاستمرارية.. تقوية العلاقات مع مختلف جماعات الناس شملت المشاركة في أفراحهم وأحزانهم وفي الأنشطة الاجتماعية في المناطق المحلية[١]. تحسين العلاقات مع عموم المواطنين أتخذ أشكالا عديدة خلال الخمسة وثلاثين عاماً التي حكم فيها الحزب، والأكثر أهمية من ذلك، اعتمد أيضاً على المنطقة الجغرافية التي يغطيها كل فرع للقيام بذلك. وبعد أن بدأت الحرب ضد إيران في باكورة عقد الثمانينيات على سبيل المثال، كان على قيادة الحزب أن تواجه الأمور والجوانب المترتبة على الاستشهاد (انظر الفصل الخامس). «أصبحت الفروع هي المسؤولة عن مهمة رعاية أسر الشهداء وزيارتهم بانتظام، لخلق مثال إنساني في تعاملات الحزب مع عموم الجماهير»[٢].

في مناطق معينة، مثل مدينة العمارة، كان التعامل مع مختلف العشائر وبناء علاقات متينة مع قادة وزعماء العشائر من المهام الضرورية. كان من المعروف أن اللقاءات المنتظمة مع كبار رجال العشائر سيعين الفرع الحزبي لفهم الأمور والمشاكل التي تواجهها كل عشيرة من أجل حل تلك المشاكل في إطار روح حزب البعث[٣]. وفي المناطق الحضرية من جهة أخرى، كان هناك تأكيد على وجوب تأسيس علاقات متينة ووثيقة مع المجتمع الأكاديمي والعلمي. ومع إدراك أن

---

(١) فرع دهوك، «الأنشطة التنظيمية لعام ١٩٨٩»، مركز وثائق شمال العراق، الحزب الديمقراطي الكردستاني، صندوق ٢٠٩٦.

(٢) المصدر السابق.

(٣) من أمانة سر فرع ميسان إلى تنظيم الجنوب، «دراسة»، ١٣ أكتوبر ١٩٩٢، القيادة القطرية لحزب البعث.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

صدام حسين كان على الدوام يخشى العلماء ويرهبهم، بسبب إيمانه واعتقاده بأنهم لهم دوراً فائق الحيوية في إنجاز بناء عراق قوي حديث، لذا كان العلماء يكرمون ويكافأون على الدوام من قبل الحزب.

وفي كل من المناطق الريفية والحضرية كانت هناك تأكيدات قوية من الحزب لنسج روابط قوية بالطلاب والشباب بوجه عام. وفي حين كان الحزب يعطي الأولية لضم الشباب فإنه بذل جهودا حثيثة لتكوين علاقات جيدة مع أولئك الذين لم يتم تجنيدهم ولا ضمهم للحزب. كان يقال لطلاب الجامعة المؤيدين للحزب بلا كلل من قبل قادة الفرع عن أهمية أن يكونوا أمثلة حية ومُثلا مشرفة في الجانب العلمي والأكاديمي وفي السلوك الشخصي بذات القدر. كان أعضاء الحزب ينصحون بقوة ألا يستهلكوا كل طاقاتهم داخل المجتمع الأكاديمي، من أجل تقوية الصورة الإيجابية للحزب. كان نشطاء حزب البعث في الجامعات يشجعون ويحثون على الاهتمام بباقي الطلاب المتفوقين في دراستهم ليحضروا الندوات الشعرية والثقافية والأدبية في السكن الجامعي، وأن يناقشوا أيديولوجية الحزب مع الطلاب الآخرين غير المنتمين للحزب، وأن يقنعوهم بأهمية الالتحاق بالحزب بدراسة أيديولوجيته وأيديولوجية قائده[1]. أحد وسائل التقرب من الشباب كانت تتم عن طريق الأنشطة الرياضية مثل مباريات كرة القدم وبناء الأجسام. ومماثل للتأكيد على دور الرياضة في الدول الشيوعية، دعم حزب البعث أنشطة الرياضيين العراقيين لجذب الشباب لمثل الحزب[2]. وفي مرحلة ما، تم تعيين

---

(١) فرع الرشيد، بغداد، «خطة تنظيمية لفرع الرشيد لعام ١٩٩٢»، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٢) من شعبة المجد العربي، بغداد، إلى أمانة سر الحزب، «الأننشطة من ١ يناير ٢٠٠١ إلى ٢٥ أغسطس ٢٠٠١»، القيادة القطرية لحزب البعث.

عدي صدام حسين رئيسا للجنة الأولمبية العراقية وحولها إلى وسيلة أخرى من وسائل دعم الحزب.

ومهما كان الهدف والمستهدف، كان حزب البعث يعشق تنظيم الاجتماعات واللقاءات العامة، والمؤتمرات، والندوات لشرح دور الحزب ولقياس الميول لدى العامة والرأي العام. وتعاظمت أعداد تلك الاجتماعات في نينوى حتى أنها بلغت ٦٣٧ لقاءً واجتماعا عقدت في عام ١٩٩٩ وحده، بينما بلغ عددها في فرعي ميسان وواسط عقد ٤١١ اجتماعا ولقاءً في تجمعات عامة على مدى شهر واحد في عام ١٩٩٧[١]. وعلى الرغم من أنه لدينا إحصائيات كثيرة عن عدد الندوات (وربما كان يتم المبالغة في أعدادها في تلك الإحصائيات)، إلا أنه لا يوجد إلا قليل من المعلومات عن محتوى تلك الندوات والمواضيع التي كانت تناقش فيها، على عكس الأجندات والبرامج التفصيلية التي كانت تخص اجتماعات أعضاء الحزب، كما لا توجد أيضاً أية إشارة عن عدد من كانوا يحضرونها من غير المؤيدين من عموم الناس. ويبدو أنه في بعض الاجتماعات، كانت بعض قرارات الحزب أو بعض خطب صدام حسين تناقش وتشرح لعموم الناس من غير المنتمين للحزب، خاصة لأولئك الذين يمثلون أهمية اقتصادية خاصة لهم[٢]. بعض تلك اللقاءات كانت تحتوي على أعمال خيرية مثل جمع الملابس للفقراء، وخلال

---

(١) من أمانة سر الحزب إلى نينوى، «الأنشطة الحزبية لعام ٢٠٠١»، ٢١ مارس ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث.؛ من أمانة سر الحزب في ميسان وواسط إلى القيادة القطرية، «الأنشطة الشهرية»، ٩ نوفمبر ١٩٩٧، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٢) إرجع على سبيل المثال، الاجتماعات الخاصة بشرح الحظر الاقتصادي على العراق بعد غزو العراق للكويت عام ١٩٩١، في تقرير أمانة سر فرع ميسان إلى تنظيم الجنوب، ١٩ أكتوبر ١٩٩٢، القيادة القطرية لحزب البعث.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الحظر الذي فرض على العراق في عقد التسعينيات، تحولت الأعمال الخيرية من جمع الملابس إلى توزيع الطعام والسلع التموينية[١].

تطوعت بعض الفروع بمجهود الأطباء الأعضاء الخيري بتخصيص وقت لعلاج المرضى بلا مقابل في الحيز الجغرافي لتلك الفروع، بينما قامت فروع أخرى بدفع مقابل الخدمة الطبية للمرضى من المواطنين الذين لا ينتمون للحزب وليست لديهم أية ميول سياسية[٢]. كان ذلك جانبا من استراتيجية المكافأة والعقاب التي سنعرضها لاحقا (الفصل السابع).

بدأ الحزب يولي الدين اهتماما من بداية عقد التسعينيات بعد أن غيَّر صدام حسين موقفه من الدين فبعد أن كان علمانيا تحول ليطلق الحملة الإيمانية، وبدأ الحزب يولي المناسبات الدينية اهتماما كبيراً وبدأ الحزب يركز كثيراً على إظهار العراق كدولة إسلامية[٣]. ومن ثم، انغمست الفروع هي الأخرى في الحملة الإيمانية ونظمت اجتماعات وملتقيات لشرح أهمية العقيدة الدينية للعراق وللمواطنين العراقيين[٤]. وارتكازا على تعليمات من صدام حسين، رتبت بعض الفروع حفلات غداء، ووزعت وجبات على أعداد كبيرة من العائلات في ذكرى استشهاد الإمام الحسين[٥]. وبوجه عام، ساهمت الفروع في جميع أنواع الاحتفالات

---

(١) من شعبة القائد المنتصر إلى قيادة الفرع، «معارض»، ١٥ سبتمبر ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٢) أمانة سر الحزب في نينوى، «أنشطة عام ٢٠٠١»، وثائق الشمال، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٣) بنجيو: كلمة صدام، صفحات ١٧٦ ـ ٢٠٢.

(٤) أمانة سر الحزب في نينوى، «أنشطة عام ٢٠٠١»، وثائق الشمال، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٥) من شعبة المجد العربي، بغداد، إلى أمانة سر الحزب، «الأنشطة الحزبية عن الفترة من=

والمناسبات السنوية، سواء كانت دينية أو وطنية، بتنظيم الملتقيات وترؤس فعاليات الاحتفالات. كانت الفروع أيضاً مسؤولة عن تخطيط المسيرات والمواكب والاستعراضات في المناسبات الوطنية والعمل على أن يحضر تلك الاحتفالات جموع غفيرة من الجماهير[١].

كان من أهداف العلاقات العامة الأخرى الموكلة لفروع الحزب تنظيم وإعداد ساحات وأماكن وتجهيزات الاستفتاءات والإحصاءات الوطنية. كانت الفروع تتحول إلى حالة من النشاط المحموم في مناسبة إجراء استفتاء على إعادة انتخاب الرئيس. وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك إلا مرشح واحد ـ وهو صدام حسين ـ كان من المهم جداً نقل أعداد كبيرة من المصوتين لاستعراض قوة إيمان الجماهير بالحزب وقائدة، خاصة في استفتاء ١٥ اكتوبر عام ٢٠٠٢، حين كان العراق ورئيسه تحت أنظار العالم المسلطة عليه[٢]. وفي مذكرة كتبت بالتفصيل قبل أربعة أشهر من الاستفتاء، وصفت أمانة سر فرع القائد المنصور والتي كانت جزءاً من تنظيم الكرخ في بغداد الإعداد للاستفتاء. طالبت تلك الوثيقة بتسجيل أسماء زعماء العشائر، والشخصيات الدينية البارزة، والطلاب، والتنظيمات النسائية، والاتحادات المهنية الأخرى لحث

=١ يناير ٢٠٠١، إلى ٢٥ أغسطس ٢٠٠١»، القيادة القطرية لحزب البعث. يعرف الإمام الحسين بين الشيعة باسم سيد الشهداء، لأنه قتل في معركة شهيرة بكربلاء عام ٦٨٠ ميلادية، إرجع إلى إسحق نقاش «شيعة العراق» (برنستون: نيوجيرسي: منشورات جامعة برينستون، ١٩٩٤)، صفحة ٢١.

(١) من أمانة سر فرع ميسان إلى تنظيم الجنوب، «دراسة»، ١٣ أكتوبر ١٩٩٢، القيادة القطرية لحزب البعث. نظم فرع ميسان على سبيل المثال سبعة وعشرين احتفالاً عاماً خلال شهر نوفمبر عام ١٩٩٧، انظر وثائق القيادة القطرية لحزب البعث.

(٢) من شعبة القائد المنتصر إلى قيادة الفرع، «زيارة»، ١٩ سبتمبر ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أعضائها على التصويت، ولتفهيمهم بأهمية إدلاء أعداد كبيرة بأصواتهم للبلاد كرد مفحم على أميركا والصهيونية. من بين هتافات وشعارات الاستفتاء كان شعار يقول: «نعم، نعم للقائد صدام حسين»، و«صدام حسين هو العراق والعراق هو صدام حسين»[١].

حددت خطط الفروع كيفية زيادة الوعي العام بأهمية ذلك الحدث وذلك بعرض لوحات إعلانية جديدة وجداريات تذكر صفات الرئيس، وبتسيير فرق الموسيقى في الشوارع لبث روح من الحماس وخلق روح من البهجة، وتزيين الأحياء لإظهار مدى السعادة والثقة التي تشعر بها الجماهير تجاه القيادة. طالبت المذكرة أيضاً بتحضير الكوادر الكبيرة من السيدات «البارزات» والرجال الذين بإمكانهم الشرح للجماهير أين وكيف يدلون بأصواتهم. وعلى الجانب الإداري، أعد الفرع سيارات وحافلات لنقل المصوتين لأماكن التصويت ويقدمون لهم العصائر والمثلجات في يوم الاقتراع. وفي آخر المهام، يقوم الفرع بإعداد كل الترتيبات الأمنية ويطالب الأعضاء بألا يرتدوا زيا عسكرياً في يوم التصويت وأن يحملوا فقط أسلحة خفيفة يمكن إخفاؤها في ملابسهم المدنية[٢].

هناك مهمة أخرى يمكن إدراجها في مهام التعامل مع الجماهير وعموم الناس وهي متعلقة بالأمن مع تشجيع الناس، وخاصة الشباب منهم، وحثهم على الانضمام للجيوش الموازية غير النظامية المختلفة، مثل الجيش الشعبي ثم بعد ذلك جيش «فدائيو صدام» (انظر الفصل الخامس). بعض الفروع تولت بنفسها مهمة تدريب المنضمين وأشرفت

---

(١) من فرع القائد المنتصر إلى أمانة سر الحزب، «آليات يوم الاستفتاء»، ٢٧ يونيو ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٢) المصدر السابق.

على تفقد سلاح أعضاء الميليشيا[١]. كان الجيش الشعبي يرى وكأنه وسيلة فعالة للتدريب العسكري للشعب بجميع أنواعه وأطيافه، بمن فيهم أعضاء الحزب ذاتهم، وكان أعضاء الفرع يتوددون لأعداد كبيرة لحثهم على الانضمام للميلشيا الشعبية[٢]. كانت تلك الجيوش الشعبية ترى في مراحل مختلفة من مراحل حكم البعث بوصفها أداة فعالة في تحقيق الأمن والدعم السياسي لقيادة حزب البعث.

٤ ـ الأنشطة السياسية والأمنية

كانت الأنشطة الأمنية من الضرورات الحتمية التي تقوم بها فروع الحزب طوال فترة وجود حزب البعث في السلطة. لقد كانت الفروع عيون النظام وآذانه، وكانت الخطوط الفاصلة بين قوى الأمن والأنشطة الأمنية للفروع باهتة لا تكاد تبين حين تصل الأمور إلى موضوع التعامل مع «أعداء» النظام، أو حين يأتي الأمر إلى تنفيذ خطط الحزب السياسية/العسكرية، مثل تعريب شمال العراق. المحافظة على استقرار وثبات النظام كان يعد مهمة جوهرية ومحورية وعلى رأس أوليات مهام الفروع، كما كانت الفروع مسؤولة عن القيام بكا ما هو ضروري لاستمرار حكم حزب البعث[٣].

وعلى قدر أهمية تلك المهمة، شجعت قيادة الحزب الفروع على

---

(١) من شعبة راواندوز إلى أمانة سر الحزب، «خطة الربع الثالث لعام ١٩٨٧»، ٢٣ أغسطس ١٩٨٧، مركز وثائق شمال العراق، الحزب الديمقراطي الكردستاني، صندوق ٢٢٢٥.

(٢) فرع دهوك، «الأنشطة التنظيمية لعام ١٩٨٩»، مركز وثائق الشمال، الحزب الديمقراطي الكردستاني، صندوق ٢٠٩٦.

(٣) شعبة القعقاع، «الخطة التنظيمية للفترة من ٧ أبريل ٢٠٠٢ إلى ٦ أبريل ٢٠٠٣»، ٢ أبريل ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اختيار الأعضاء الموالين والمخلصين جداً الذين وهبوا أنفسهم لخدمة لجانهم الأمنية. كانت تلك اللجان تعمل وفق مخططات استراتيجية لجمع وتأسيس مصادر كفوءة لجمع المعلومات من داخل، وبين قطاعات معينة من السكان المحليين، والتعامل مع أعداء النظام المتواجدين في نطاق تلك الفروع، ومتابعة الشائعات المعادية لمعرفة مصدرها، وعمل ملفات ملائمة وموثقة عن الأفراد، والتعاون والتنسيق مع قوى الأمن في مناطقهم[١].

كان لجمع المعلومات بالفعل أولية مطلقة، ويناقش الفصل التالي تجنيد وضم العناصر المكلفة بالإبلاغ عن أية معلومة وكيف كانت قوى الأمن تتعامل طبقا لتلك المعلومات. كانت مراقبة العناصر المشكوك في ولائها وكل الحركات السياسية غير البعثية على رأس قوائم مهام كل فروع الحزب. كانت أوراق ومنشورات الدعاية لأحزاب مثل الدعوة والحزب الديمقراطي الكردستاني تجمع بانتظام وترسل للأمانة العامة للحزب لتحليل محتواها كما ترسل للجهات الأمنية. كان أعضاء تلك الأحزاب وأفراد عائلاتهم يوضعون تحت المراقبة، وتعد التقارير الدقيقة المفصلة عن تحركاتهم واجتماعاتهم وبمن يلتقون[٢]. وفي شمال العراق، كان التقييم والتحقق الميداني يعد فائق الأهمية بالنسبة لكل فروع الحزب في الشمال: وهي الحاجة لمعرفة مدى قوة العدو في كل منطقة جغرافية تابعة لفرع، وكم الأسلحة ونوعها تحت حوزة تلك القوى المعادية، والطرق والمسالك التي تصله عن طريقها الذخائر، ثم

---

(١) فرع الرشيد بغداد، «الخطة التنظيمية لفرع الرشيد لعام ١٩٩٢»، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٢) من أمن أربيل للقسم السياسي، «برقية»، ٥ أغسطس ١٩٨٩، مركز وثائق الشمال، الاتحاد الوطني الكردستاني. صندوق٥٢٠.

تحديد نقاط ضعفه[١]. عيون الفروع ظلت مركزة لا على الخصوم فقط، بل أيضاً على كل ما يقوم به الشباب في مناطقها. على سبيل المثال، كان على المدارس أن تعد قوائم تضم أسماء كل المدرسين ومؤهلاتهم الدراسية، كما كان إلزاميا أن يكون أغلب المعلمين مؤمنين بأيديولوجية الحزب[٢]. وبالمثل، كانت هناك مراقبة مستديمة للفئات المهنية مثل الأطباء وهيئة التمريض.

واعتمادا على مدى أهمية المعلومات التي يتم جمعها، تكتب التقارير وترسل للجهات الأمنية، ولكن في كثير من المناسبات، لو تبين أن تلك المعلومات حرجة وحساسة، تسلم التقارير مباشرة لسكرتير الرئيس. وتحوى الأمثلة المجمعة من الوثائق تقارير عن الهجمات في جنوب العراق على منشآت ومبان حكومية أو معلومات استخباراتية حرجة عن خصوم النظام[٣]. في منطقة العمارة الجنوبية والمستنقعات، كانت هناك على وجه التقريب هجمات يومية في الفترة التي تلت غزو العراق للكويت والانتفاضة التي حدثت في عام ١٩٩١ في نهاية حرب الخليج الأولى، والتي استمرت طوال عام ١٩٩٢[٤].

وكما حدث في الجنوب في مطلع عقد التسعينيات، كانت أحداث

---

(١) من أمانة سر الحزب لتنظيم صلاح الدين وتنظيم الأنبار، «مؤتمر تحليلي»، ٢٠ سبتمبر ١٩٩٤، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٢) من فرقة سرسنك لكل تنظيمات الحزب، «المدارس»، ١ يناير ١٩٨٦، مركز وثائق الشمال، الحزب الديمقراطي الكردستاني ٠٢١، صندوق ٢٢٢٣.

(٣) انظر على سبيل المثال، من أمانة سر الحزب إلى ديوان الرئاسة، «معلومات»، ١٨ أغسطس ١٩٩٢، القيادة القطرية لحزب البعث. ترتكز تلك المعلومات على تقرير مرسل من فرع ميسان إلى أمانة سر الحزب قبل يومين من تلك المذكرة.

(٤) من فرع ميسان إلى أمانة سر الحزب، «الموقف اليومي من ٢٧ أغسطس ١٩٩٢»، القيادة القطرية لحزب البعث.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مماثلة تقع في الشمال طوال عقد الثمانينيات، حيث لعبت الفروع دوراً خطيراً في الحملة المضادة للأكراد. كانت عملية تعريب كردستان تتم بالتعاون مع لجنة خاصة للشؤون الشمالية في قيادة حزب البعث العراقي، غير أن الفروع كانت تقوم بتنفيذ تلك السياسة. فقد تولت الفروع تنفيذ سياسة ترحيل وإزاحة كثير من العائلات الكردية من المنطقة الكردية وإحلال عائلات عربية من مناطق أخرى محلها لتغيير التوازن الديموغرافي في شمال العراق، وقد استهل نظام حزب البعث هذه السياسة في أواخر عقد السبعينيات وتابع تنفيذها على مدى عقد الثمانينيات[1]. ونقل مزارعون عرب إلى محافظة التأميم ومنحوا أراضي زراعية غير قابلة للبيع ولا لنقل ملكيتها لآخرين لضمان بقائها بأياد عربية غير كردية. كان على قادة فروع الحزب مسؤولية نقل أولئك الفلاحين من أماكنهم الأصلية إلى تلك المناطق الجديدة وكانت لديهم سلطة اعتقال كل من يحاول أن يعود لقريته التي جاء منها. إضافة لذلك، تلقى مسؤولو الفروع أوامر للتأكد من أن القادمين الجدد قطعوا كل علاقة تربطهم بمناطقهم التي نقلوا منها. وأمرت الفروع بأن ترعى العائلات العربية التي ترغب في الاستقرار بالمنطقة الكردية، وأن يحرص مسؤولو الفرع على تسهيل انتقالها[2]. لم تهجر العائلات الكردية فقط من أماكنها الأصلية؛ بل اقتلعت أيضاً كل العائلات ذات الجذور الإيرانية من

---

(١) لمعرفة المزيد عن مقاومة الأكراد ضد نظام حزب البعث في عقد الثمانينيات والتي وصلت إلى قمتها في حملة الأنفال في شهر أبريل عام ١٩٨٧، إرجع إلى «تريب»: تاريخ العراق، صفحات ٢٤٣ ـ ٢٤٦.

(٢) من أمانة سر مجلس قيادة الثورة لشؤون الشمال إلى الديوان الرئاسي، «نقل مواطنين عرب إلى محافظة التأميم»، ٢٣ أكتوبر ١٩٨٥، القيادة القطرية لحزب البعث. التأميم هي محافظة كركوك، ولكن بعد تأميم شركات النفط في شهر يونيو عام ١٩٧٢، تغير اسمها إلى التأميم.

المنطقة، إلا إذا كانت تلك العائلات تنتمي للمعارضة الإيرانية لنظام الخميني من خارج إيران[١].

تم تشجيع مسؤولي الحزب أيضاً على الاستقرار في محافظة التأميم، ووفرت لهم القيادة السياسية حوافز مشجعة مثل منحهم بيوتا جديدة ومكافآت مالية بشرط أن يعيش ويستقر المسؤول الحزبي هناك لخمسة أعوام على الأقل، هذا إن لم يقم إقامة مستديمة[٢]. وعلى ضوء حساسية تلك الواجبات، قررت قيادة الحزب أن يباشر أعضاء الحزب وحدهم فقط بتنفيذ سياسة قيادة الحزب في منطقة الحكم الذاتي في شمال العراق. خصصت الأولية لغير المتزوجين من الذكور، ولو كان العضو متزوجا، فالأولية لمن كان أبناؤه في مرحلة التعليم الأولي حتى ينشأ الأبناء مرتبطين بالمنطقة، والمثالي في تلك الحالة أن يكون العضو معلما أو موظفا حكوميا. كانت الخدمة في منطقة الحكم الذاتي تعد مكافأة لمن شاركوا في معركة القادسية، ولذلك كان كل عضو يستقر هناك ممن تنطبق عليه المواصفات يستحق كل المكافآت التي ينالها من شارك في معركة القادسية. كانت المكافآت السخية تنهال على مسؤولي الحزب الراغبين في الخدمة في الشمال، أثناء أداء مهمتهم وبعدها أيضاً[٣].

إضافة لذلك، كانت الفروع مفيدة في تنظيم الشؤون الاقتصادية في

---

(١) أمن السليمانية، «اجتماع اللجنة»، ٧ ديسمبر ١٩٨٨، مركز وثائق الشمال، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٤٥، صندوق ٢٨٣.

(٢) من أمانة سر الحزب لكل قيادات التنظيم، قرار، ٢٧ أبريل ١٩٨٠، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٣) من أمانة سر الحزب إلى الديوان الرئاسي، «مقترحات»، ٢٧ نوفمبر ١٩٨٦، القيادة القطرية لحزب البعث. هذه المقترحات روجعت من قبل الرئيس، ووافق عليها جميعاً، وبذلك أصبحت سارية ويعمل بمقتضاها بدءاً من عام ١٩٨٧.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الشمال. فقد باشرت الفروع عملية توزيع الطعام واتخذت خطوات فعالة لمواجهة عمليات التهريب الهائلة التي كانت تتم عبر الحدود الإيرانية والتركية[١]. بعض فروع الحزب شاركت في مشاريع كبرى مثل إعادة بناء مدينة الفاو في جنوب العراق بعد أن دمرت كليا خلال أعوام الحرب ضد إيران. قامت الفروع المحلية أيضاً بجمع التبرعات، وعبأت المتطوعين لإعادة البناء، وأشرفت على تنظيم العمل مع المقاولين والبنائين للمساهمة في إعادة بناء المدينة[٢].

لعبت الفروع الشمالية للحزب دوراً لا في تعقب مصادر الشائعات فقط، بل أيضاً في نشر الشائعات المضادة التي تخدم أهداف النظام. فعلى سبيل المثال، اتخذ قرار في عام ١٩٨٨ بنشر شائعات بأن تركيا قد تقطع علاقتها الدبلوماسية مع إيران، وأن هناك خلافا كبيراً بين باكستان وإيران لأن المخابرات الإيرانية هي التي دبرت محاولة اغتيال رئيس باكستان، وأن باكستان طبقا لذلك كانت تخطط للقيام بهجوم انتقامي ضد إيران[٣].

أما أولئك المشاركون في الوظائف الأمنية بالنيابة عن الحزب فقد كانوا يحملون السلاح، ونتيجة لذلك، كانت أعمال تفقد السلاح وتلقي التدريبات العسكرية الملائمة والمعلومات عن تخزين الأسلحة والذخيرة جانبا من أعمال الأمن المنوطة بالفروع. وفي الحقيقة، كانت عملية تسجيل البنادق المملوكة لأعضاء الحزب تمثل صداعا بيروقراطيا كبيراً،

---

(١) لجنة مقاومة أنشطة العدو، من أربيل إلى تنظيم الشمال، ٣ ديسمبر ١٩٨٨، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٠٨، صندوق ٣٢.

(٢) ارجع إلى وثيقة القيادة القطرية لحزب البعث رقم ٠٤٦ ـ ٤ ـ ٧، والمتعلقة بـ«المشاركة في إعادة إعمار الفاو».

(٣) من أمن شقلاوة للجميع، «شائعات»، ١٣ نوفمبر ١٩٨٨، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠١٦، صندوق٠٤٦

فقد كان على الفروع أن تحدث قوائم تسجيل السلاح بانتظام، وكان عليها أن تنقي القوائم من أصحاب البنادق الذين سافروا خارج العراق أو من تم عزلهم من الحزب[١]. كان أعضاء الحزب يحتاجون لأسلحتهم في حالة اضطرارهم لاعتقال خصوم النظام، أو كما حدث في عقدي الثمانينيات والتسعينيات، لاعتقال الفارين من الخدمة العسكرية، والتي كانت قد تحولت لمشكلة خطيرة. ومع معرفتهم ودرايتهم بالمنطقة المحلية التي يوجد بها فروع الحزب، كانت الفروع ملائمة تماماً لتهيئة مجموعات من أعضاء الحزب لملاحقة الفارين من الخدمة العسكرية واعتقالهم[٢].

وأخيراً، كانت الفروع تعد جزءاً وجانباً من الخطط الاستراتيجية ضد الغزو الذي تعد له وتقوده أميركا. فقد أسندت للفروع مسؤولية أخرى عدا المهام السياسية والأمنية، وهي مسؤولية الإشراف على المخزون الاستراتيجي من النفط والسلع الاستراتيجية الرئيسة. بل أن بعض الفروع وعدت بالقيام بالأعمال الفدائية التي تعرقل تقدم الأمريكان وأكدوا للعسكريين بأنهم جاهزون ومستعدون للقيام بذلك[٣]. ومن الواضح كما تبين بعد ذلك، أن بمجرد ما انهارت قيادة الحزب عند اقتراب قوات الغزو من بغداد، سقطت الفروع في حالة من الشلل التام.

---

(١) من فرع أبو جعفر المنصور، بغداد إلى أمانة سر الحزب، «أسلحة الحزب»، ١١ نوفمبر ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٢) من شعبة الربيع إلى القيادة، «إنشاء وحدة»، ٤ مارس ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٣) انظر على سبيل المثال مذكرة فرع الفلوجة إلى أمانة سر الحزب، ٣٠ ديسمبر ٢٠٠٢، مجلس قيادة الثورة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٥ ـ تمويل الفروع

لم يكن الاهتمام بتمويل الفروع يقل في أهميته عن إدارة علاقاتها بعامة الشعب. كان من المخطط أن يكون تمويل الفروع ملائما وكافيا لتمكينها من أداء مهامها، مما كان يستلزم جمع اشتراكات الأعضاء في مواقيتها المحددة، والالتزام بميزانية الفرع دون شطط، وتحقيق الواجبات الأخرى مثل صيانة مباني الفروع والتأكد من أن كل الوثائق والملفات منظمة ومؤمنة.

المصدر الرئيس للدخل، باستثناء ما تخصصه قيادة الحزب للفرع، كان يأتي من رسوم عضوية الأعضاء. كانت تلك الرسوم تدفع شهريا وكانت تتناسب مع مرتبة الفرد الحزبية، كانت الفئات الدنيا من التراتب الحزبي تدفع اشتراكا شهريا ضئيلا مقارنة بالآخرين. وكانت الاشتراكات معتدلة نسبيا، ورغم ذلك كانت الفروع تواجه صعوبات في جمعها في وقتها المحدد، وكان كثير من الأعضاء ينبهون ويذكرون مرارا بحاجة الفرع إلى أن يدفعوا ما تراكم عليهم في الحال[١]. في إحدى الفرق التي تدعى فرقة المجد العربي، كان يتبعها ٣٥٥٤ نصيراً، منهم ٨٣ بالمائة في أدنى درجات الانتساب وهي درجة المؤيدين. وخلال الشهور السبعة الأولى من عام ٢٠٠١، دفع الأنصار اشتراكات بلغ مجملها ١,٢٥ مليون دينار عراقي (ما يقل عن ألف دولار أميركي). ويمكن بحسبة بسيطة أن نجد أن الاشتراك كان ٥٠ دينارا بالشهر، وهو مبلغ ضئيل جداً في ٢٠٠١، مع الأخذ في الحسبان الانخفاض الشديد لقيمة الدينار العراقي في ذلك الوقت[٢]. وفي ١٩٨٨، قبل تدهور قيمة الدينار

---

(١) من فرع دهوك، «أنشطة تنظيمية لعام ١٩٨٩»، مركز وثائق شمال العراق، الحزب الديمقراطي الكردستاني ٠٠٩، صندوق ٢٠٩٦.

(٢) من شعبة المجد العربي إلى أمانة سر الحزب، «أنشطة للفترة من ١ يناير ٢٠٠١ إلى ٢٥=

العراقي، كان على المؤيدين الذين يكسبون دخلا شهريا مقداره ١١٠ دنانير عراقية أن يدفع كل منهم ٣٠٠ فلس في الشهر[١]. ونتيجة لذلك، كانت هناك ضغوط مستمرة على أولئك المنتسبين لكل فرع أن يتبرعوا للحزب. كانت التبرعات تعد من الأمور الحيوية في ملف الأعضاء وتتم مناقشة ذلك مع كل عضو أثناء مراجعة ملفه الحزبي[٢]. كما كانت المؤتمرات واللقاءات والملتقيات تستغل أيضاً لجمع المال للحزب.

تؤكد الفروع في تقاريرها السنوية على ضرورة السيطرة على الإنفاق وتقليصه حتى يتلاءم مع دخل الفروع. ومن بين بنود الإنفاق الهامة تخصيص مبالغ شهرية للأعضاء المحتاجين والمعوزين، كجانب مما بات يعرف باسم «التكافل الحزبي»، استنادا لتوجيهات وإرشادات من صدام حسين، كان يقال لأنصار الحزب أن عليهم أن يعتنوا بزملائهم الآخرين سواء كانوا عاملين أم متقاعدين، الذين يحتاجون للمساعدة[٣]. كانت المعونات المالية تدفع شهريا لأولئك المصنفين في فئة «صديق» للحزب، أو بالتعبير العراقي، «مكرم»، واكتسبت تلك الدفعات المالية أهمية أكبر مع التدهور الاقتصادي في العراق بعد غزوه للكويت[٤].

=أغسطس ٢٠٠١»، القيادة القطرية لحزب البعث. شعبة المجد العربي كانت تابعة لفرع سعد بن أبي وقاص، والذي كان في نطاق تنظيم الرصافة في بغداد.

(١) من شعبة راواندوز إلى أمانة سر الحزب، «اشتراكات الأعضاء عن شهر أبريل ١٩٨٨»، ٢٠ مايو ١٩٨٨، مركز وثائق شمال العراق، الحزب الديمقراطي الكردستاني ٠٢٩، صندوق ٢٣٠٨.

(٢) انظر على سبيل المثال قائمة المساهمات والاشتراكات لشعبة راواندوز في مختلف شهور عام ١٩٨٨، مركز وثائق شمال العراق، الحزب الديمقراطي الكردستاني ٠٢٩، صندوق ٢٣٠٨.

(٣) شعبة القعقاع، «خطة تنظيمية من ٧ أبريل ٢٠٠٢ إلى ٦ أبريل ٢٠٠٣»، ٢ أبريل ٢٠٠٢.

(٤) في فرع المقداد كان حوالي ٦٠٠ اسم مقيدين في قوائم المكافآت الشهرية بقيم مختلفة خلال عام ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وبإلقاء نظرة على موازنة فرع بعقوبة في محافظة ديالى، كانت المدفوعات الإعانية والإسكان تنفق ما يصل إلى ٣٠ بالمائة من موازنة الفرع، بينما في فرع آخر في المحافظة ذاتها، كانت تلك البنود تلتهم أكبر قدر من الموازنة[١]. البند التالي الأكبر يقع تحت مسمى مصروفات «متنوعة»، وعلى الرغم من أنه لا يوجد تفسير لتلك المتنوعات، فإن بنودا مثل مدفوعات تشجيع الزواج المبكر كانت ضمن تعليمات قيادة الحزب ومشمولة في ذلك البند. وكان البند الذي يلي ذلك هو بند المباني والحدائق والصيانة. شملت المدفوعات الأخرى عدا ما سبق، الأنشطة الثقافية وتكلفة الدوريات الأمنية التي يقوم بها الأعضاء. وبعد ذلك في عام ٢٠٠٢، تكلف إعداد خطط للطوارئ لمواجهة الغزو المحتمل جانبا كبيراً من موازنة الفروع[٢].

على جانب المدخول، كان «التمويل» أهم بند من الدخل، ويمكن للمرء أن يفترض أنه كان يمثل ما تخصصه قيادة الحزب لكل فرع من تمويل سنوي. خصصت أمانة سر الحزب تمويلا لمئات الفروع عبر أنحاء العراق بطريقة مدروسة ومحسوبة وذلك ببث روح التنافس لقياس مدى قوة وقدرة كل فرع ودفع الفروع إلى بذل أقصى جهد في ذلك التنافس.

التنافس بين الفروع

شجع صدام حسين التنافس بين الفروع وبين أعضاء الحزب، وكانت مراجعة أعمال ونشاطات كل فرع تتم دوريا كل عام بطريقة ممنهجة

---

(١) من تنظيم محافظة ديالى إلى أمانة سر الحزب، «موازنة الشهور التسعة الأولى من عام ٢٠٠٢»، ٢٨ أكتوبر ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٢) المصدر السابق. انظر أيضاً موازنة فرع المقداد (٠٣٦).

مماثلة لإدارة الأعمال. كان يطلب من الفروع أن تقدم انجازاتها في خمسة مجالات من الأنشطة عرضناها سابقاً وتم ترتيبها طبقا للأهمية كما يلي[١]:

١ ـ الأنشطة السياسية والأمنية: ٢٥ بالمائة.

٢ ـ الأنشطة التنظيمية: ٢٥ بالمائة.

٣ ـ الأنشطة الثقافية: ٢٠ بالمائة.

٤ ـ العلاقات بعموم الجماهير: ١٥ بالمائة.

٥ ـ التمويلات: ١٥ بالمائة.

في داخل كل بند كانت توجد بنود متفرعة من كل منها. على سبيل المثال، كان اعتقال أعداء النظام يمثل ٤ نقاط مئوية، بينما كان القبض على اللصوص يمثل ٣ بالمائة من النقاط. أما تجنيد وضم الأعضاء الجدد فيندرج تحت بند الأنشطة التنظيمية، ولذلك كان يدرج في أعلى المراتب النقاطية (٦ بالمائة من النقاط)، ليس داخل النشاط التنظيمي فقط، بل خلال كل الأنشطة الخمسة. كانت تخصص ٣ بالمائة من النقاط للأنشطة والمناسبات الثقافية مثل عقد المؤتمرات والندوات والملتقيات، بينما كانت زيارات أسر الشهداء وتشجيع الشباب على الالتحاق بالجيش الشعبي أو أي جيوش موازية يمثل كل منها بأربعة بالمائة من النقاط[٢].

كانت المنافسة تؤخذ بمنتهى الجدية من قيادة الحزب، وكانت كل النتائج تعلن عادة في المناسبات القومية والوطنية، خاصة في ذكرى

---

(١) من تنظيم الكرخ ببغداد إلى أمانة سر الحزب، «معايير التقييم»، ٥ مارس ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٢) المصدر السابق.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مولد صدام حسين[1]. داخل إطار كل بند من البنود السابقة كان يوجد تعاون وتنسيق وطني، حيث يلتقي أعضاء اللجان المسؤولين عن كل نشاط هم ونظرائهم في الفروع الأخرى بالقيادات العليا في الحزب لمناقشة كيفية الارتقاء بالأداء[2]. تفاصيل وشمولية الاستمارات التي تتابع وتراجع الانجازات في كل فرع كانت بالفعل مدهشة في دقتها. حتى الخلية، والفرقة، والشعبة، والفرع كانت لها استمارات لـ «مخططات» الأنشطة والمستهدف منها، وكانت تقارن باستمارات ما تم «تنفيذه». على سبيل المثال، في عام ٢٠٠٢، كان فرع «القائد المنتصر» في بغداد يتكون من ٨ فرق، و٥٧ خلية، و١٠٨ مجموعة أنصار، و١٣٢ مجموعة من المتعاطفين، بعدد إجمالي يصل إلى ٣٦٧٢ من المؤيدين للحزب. وخلال ستة أشهر من عام ٢٠٠٢، قام ذلك الفرع بتنظيم ٢٤٨ اجتماعاً حزبياً (من إجمالي ٤١٦ اجتماعا بالمخطط)، و٥٦ لقاءً تنظيمياً (مقابل ٨٢ بالمخطط)، و١٥٦ زيارة حزبية لفروع أخرى (مقابل ١٦٢ بالمخطط). ومن اللافت للنظر، تم ضم ٩٥١ فردا جديدا خلال تلك الأشهر الستة، مقابل خطة كانت تتطلب ضم ١٥٣٢[3].

في المجال الثقافي، كان عدد التجمعات الثقافية، والملتقيات والندوات، والزيارات، واستضافة أعضاء آخرين، ومجموعات النقاش والحوار، وندوات «كتاب الشهر» كبيراً جداً بصورة مدهشة. على سبيل المثال، وطبقا لسجلات فرع «القائد المنتصر»، نظمت ٢٨٦ مناسبة

---

(١) من أمانة سر الحزب لكل التنظيمات، «تقدير»، ١٦ يونيو ١٩٩٠، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٢) من أمانة سر الحزب لكل التنظيمات، «جدول مواعيد الاجتماعات»، ١١ مايو ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٣) من فرع القائد المنتصر إلى أمانة سر الحزب، «نماذج استمارات المنافسات بين الشعب للفترة من ٧ أبريل ٢٠٠٢ حتى ٦ أكتوبر ٢٠٠٢»، القيادة القطرية لحزب البعث.

نشاط ثقافي خلال ستة أشهر من عام ٢٠٠٢، من عدد كان أكبر كثيراً بالمخطط. كانت هناك أيضاً أنشطة ثقافية لم يتم التخطيط لها، مثل تنظيم معرض للصور الفوتوغرافية واللوحات الفنية المرسومة احتفالا بالذكرى السنوية لثورة عام ١٩٦٨، وترتيب احتفالات بختان الأطفال مع ذويهم في أحيائهم، وإقامة عشرة جداريات مرسومة لتمجيد قيادة البلاد. وفيما يختص بالأمن، تم عقد ١٠٦ اجتماعات ولقاءات، وطبعت كثير من الأبحاث عن الأمن أثناء تلك الأشهر الستة المذكورة. وطبقا لتقرير ذلك الفرع، تم تدريب ١٥٠ منتميا للحزب تدريبا عسكرياً وأصبحوا مستعدين للخدمة كوحدة احتياط للفرع في المنطقة الجغرافية التي يغطيها الفرع[١].

ومن الصعب أن نحكم إن كانت الفرق والفروع تبالغ في تسجيل الأنشطة للفوز بالثناء والاستحسان من قيادة الحزب. ولكن من الواضح أن كل الفروع كانت تحت ضغط شديد جداً للقيام بما يطلب منها من مهام ومخططات. ومن الواضح أيضاً أن كل الفروع كانت تحت ضغوط هائلة تدفعها للعمل. كانت كل الفروع مدفوعة ومضطرة لوضع التقارير، وإضافة لاستمارات التنافسية، فإن الأنشطة الأخرى مثل عدد من تم اعتقالهم خلال كل فترة مذكور بالتقارير، وعدد الأسلحة التي تم ضبطها، وقيمة المضبوطات التي تمت مصادرتها (وتشمل السيارات) من خصوم النظام[٢].

كانت الاستمارات التي تقدم من الفروع لقيادة الحزب تراجع وينقد منها ما يستحق الانتقاد. وسجلت المذكرة التي كتبها عضو كبير بالحزب

---

(١) المصدر السابق.

(٢) تنظيم بغداد، الكرخ إلى أمانة سر الحزب، «امتداح بمناسبة ذكرى مولد الرفيق القائد (حفظه الله)»، ١٢ يوليو ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المسؤول عن مراجعة الاستمارات ودراستها أن أغلب المعلومات المقدمة مشكوك في صحتها. وطبقا لانتقاده، فإن الفروع ذكرت أعداد الزيارات التي قامت بها أو عدد المناسبات التي استضافت فيها أعضاء من فروع أخرى، ولكن لم تذكر عدد من حضروا تلك الاجتماعات أو المواضيع التي نوقشت فيها. وفيما يخص الشؤون الأمنية، طالبت المذكرة كل الفروع أن تقدم معلومات أشد تفصيلا، مثل خريطة للمنطقة التي يغطيها النشاط الأمني للفرع، وبيان يوضح الخلية المسؤولة عن الأمن في كل شارع وحي. وانتقدت المذكرة ذاتها الطريقة التي كانت تحلل بها الشائعات والفشل في نسبها بطريقة صحيحة طبقا لطبيعة مطلقيها ومروجيها. وأخيراً، أبرزت المذكرة فشل كثير من الفروع في تحصيل رسوم العضوية في أوقاتها وافتقاد التنظيم في إنفاق تلك الأموال[1]. وأبرزت مذكرة أخرى الحاجة الشديدة لوضع خطة مستقبلية أفضل، بدلاً من الاكتفاء بذكر عدد الأنشطة المطلوب القيام بها؛ ناصحة بأن التنفيذ الناجح يتطلب تخصيص مسؤوليات محددة على كل عضو بطريقة واضحة؛ وأكدت على الحاجة الشديدة لوضع نظام يمكن فهمه واستيعابه من الثواب والعقاب للأعضاء بخصوص مدى تنفيذهم للمهام التي توكل إليهم؛ وأخيراً وليس آخرا، انتهت المذكرة إلى أن عمليات الفروع ستحقق نجاحا أكبر إن استرشدت بتوجيهات القائد صدام حسين[2].

لم يكن الضغط واقعا على الفروع وحدها بل على كبار الأعضاء

---

(١) من أمانة سر فرع أبو جعفر المنصور إلى أمانة سر الحزب، «ملاحظات»، ٢ مايو ٢٠٠٠، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٢) فرع دهوك، «أنشطة تنظيمية لعام ١٩٨٩»، مركز وثائق شمال العراق، الحزب الديمقراطي الكردستاني ٠٠٩، صندوق ٢٠٩٦.

الذين يديرون الفروع. كان على العضو المسؤول عن تنظيم ميسان وواسط، والذي تصادف أيضاً أنه كان مسؤولاً عن قيادة الحزب المناطقية أن يضع ملفا يحتوي على كل الأنشطة التي يقوم بها يوميا. وعلى سبيل المثال، وخلال شهر نوفمبر ١٩٧٧، كان على ذلك الرفيق القيام بثمانٍ وثلاثين مهمة ولقاء تتراوح ما بين حضور تجمعات وملتقيات سياسية إلى لقاءات واجتماعات مع قادة عشائر، وطلاب، ومنظمي أمن في منطقته. إضافة لذلك، زار بغداد ليقدم تقارير عن فرعيه، والتقى بكادر الحزب المسؤول عن التنظيم، كما حضر مراسم تخريج دفعة من فدائيي صدام[١].

كان يحدث كثيراً أن الأعضاء والمؤيدين يرسلون بمقترحاتهم لزيادة كفاءة العمليات أو باقتراح مبادرات الغرض منها تقوية أنشطة الفرع وزيادة الحوافز لتحقيق الخطط الموضوعة. بعض تلك المقترحات ركزت على العلاقة بين الحزب وعامة الجماهيروكيفية تحسين التواصل بينهما، بينما تعلقت مقترحات أخرى بوسائل معاونة المرضى أو المحتاجين والمعوزين من أعضاء الحزب[٢]. كان إرسال المذكرات إلى القيادات الأعلى بالحزب إحدى الوسائل التي يلفت بها الأعضاء اهتمام القيادات الحزبية الأعلى ويحتمل أن تفضي إلى ترقية حزبية، مرتكنين إلى الأهمية التي يوليها صدام حسين للمبادرة والابتكار الحزبي. ولذلك يبدو أيضاً أنه كان هناك نوع من التنافس بين الفروع في إرسال قوائم من المبادرات لنيل إعجاب قيادات الحزب العليا. ومن بين المبادرات التي

---

(١) من عضو القيادة القطرية والمشرف على تنظيمات ميسان وواسط إلى أمانة سر الحزب، «أنشطة»، ١ ديسمبر ١٩٩٧، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٢) انظر على سبيل المثال مذكرة من متعاطف لمكتب قيادة الحزب لفرع أبو جعفر المنصور، ١٤ مايو ٢٠٠٠، القيادة القطرية لحزب البعث.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أرسلت من قبل أحد الفروع أن أحد الأعضاء استنسخ نسخا كثيرة من خطاب صدام حسين الأخير وقام بتوزيعها على مؤيدي الحزب، بينما قام عضو آخر بحضور كل جنازات الموتى في حيه لإظهار اهتمامه بمشاعر سكان ذلك الحي[1]. وكجانب من تلك النزعة التنافسية، أصبح النقد الذاتي من قبل الأعضاء ورؤساء الفروع عنصرا مهما في زيادة الضغط على مجمل النظام لتحقيق أهدافه.

الاستنتاج الواضح، أنه كان هناك تنافس على جميع المستويات الحزبية، من أدنى المراتب لأعلاها في تسلسل السلطة والمسؤولية في حزب البعث. وشجع صدام حسين وقيادات الحزب تلك الروح التنافسية بين مؤيدي الحزب، والأعضاء، وكل الفروع للارتفاع بمستوى الكفاءة والالتزام بخدمة الحزب ومبادئه. وبلا شك دفع ذلك الضغط المستمر الحزب ومكنه من أن يحكم لما يزيد عن ثلاثة عقود على الرغم من الحروب التي خاضها، والعقوبات الدولية التي فرضت عليه، وكثير من محاولات الانقلاب العسكري على النظام.

حياة وحدة حزبية

عرضنا في الفصل السابق حياة عضو حزبي طوال رحلة عضويته في الحزب، وسوف نلقي هنا نظرة على وحدة حزبية في مدينة صغيرة وهي مدينة شورش في شمال العراق. وتتيح لنا الوثائق رؤية مجموعة من الأعضاء العاملين النشطين، الذين يجتمعون أسبوعيا كجانب من مهمتهم السياسية لمناقشة الأمور التي تخص منطقتهم. كل خلية حزبية كان عليها أن تقدم تقارير منتظمة عن إنجازها والمعلومات التي تحصل عليها

(١) من فرع المنتصر لمكتب قيادة الحزب، «مبادرات لشهر سبتمبر»، ٣٠ سبتمبر ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث.

للقيادة المناطقية. وتسمح لنا تلك التفاصيل المدهشة المكتوبة بعناية ودقة بخط اليد وتغطي فترة تصل إلى أربعة أعوام، من ١٩٨٢ إلى نهاية عام ١٩٨٥، بإعادة تركيب ما كانت تواجهه مجموعة صغيرة من حزب البعث من مهام، وكيف تعاملت مع مجالات الأنشطة الحزبية الخمسة المطلوبة التي شرحناها فيما سبق، وكيف تصدت للمشاكل التي واجهتها، آخذين في الاعتبار أن العراق في تلك الفترة كان متورطاً في الحرب مع إيران كما كان هناك توتر كبير مع الأكراد العراقيين.

وتقع مدينة شورش بالقرب من جمجمال، بين أربيل والسليمانية، وعلى عكس التنظيم المعتاد لخلايا حزب البعث، والشعب، كانت الاجتماعات تعقد من قبل «منظمة» من مجموعة من الأعضاء، بعض منهم مسؤول عن الإشراف على الخلايا ومجموعات المؤيدين. على المستوى التنظيمي، كانوا على مستوى مساو للشعبة[١]. كانت الاجتماعات تعقد في مكتب الشعبة، ولكن في مناسبات عديدة كانت الاجتماعات تعقد في مكاتب الأمن في مناطقهم. ومن المثير، أن سجل الاجتماعات لكل وحدات الحزب في نطاق منطقة السليمانية خلال شهر من عام ١٩٩١ يظهر أن الاجتماعات كانت تعقد في أماكن كثيرة مختلفة، بما فيها المدارس، ومكاتب حكومية، أو في مقر شرطة أو في مركز فرقة مطافي، أو في معمل، وأحياناً في بيوت بعض الرفاق. أغلب الاجتماعات كانت تعقد في ذات التوقيت من كل أسبوع، أما بالنسبة لاجتماعات الفئات الأدنى في التراتب الحزبي والمجموعات الأقل

(١) يضم الملف ٢٦٨ صفحة، خاصة بالفترة من ٢٥ يناير ١٩٨٢ إلى ٣ ديسمبر ١٩٨٥. كل مجموعة أسبوعية عن تفاصيل الاجتماعات مكونة من ١ إلى ٣ صفحات، اعتمادا على عدد المسائل التي نوقشت. انظر مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٤٣، صندوق ٢٧١.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أهمية، مثل المتعاطفين مع الحزب فقد كانوا يعقدون اجتماعهم مرتين فقط شهرياً[1].

خلال عامي ١٩٨٢ و١٩٨٣، كانت وحدة مدينة شورش الحزبية تضم سبعة رفاق، ولكن بحلول نهاية عام ١٩٨٥ ازداد العدد إلى ثمانية عشر عضوا. ومن الملاحظ أن منصب أمين سر المجموعة كان يشغله عضو واحد حتى شهر أبريل عام ١٩٨٥، فقد اختفى اسمه من محاضر الاجتماعات بعد ذلك التاريخ، ولكن لا يوجد بالسجل ما يشير إلى ترقيته أو تخفيض عضويته لدرجة أدنى. ومن المثير أيضاً، أنه بعد اختفاء إسمه، توقف الأعضاء عن التوقيع بأسمائهم في محاضر الاجتماعات، وأصبح للمسؤول الجديد نظام جديد مختلف، إما بتدوين أسماء المتغيبين فقط، أو بعمل قائمتين، واحدة بأسماء المتغيبين (ويذكر فيها سبب امتناع العضو عن الحضور) وواحدة بأسماء من حضروا. وفي المعدل، كان عضو أو اثنان يتغيبان عن كل اجتماع، وتختلف أسماء المتغيبين من أسبوع لآخر. كانت الاجتماعات تعقد أسبوعيا بعد ظهر يوم الأثنين، ولكنها عدلت بعد ذلك لمساء كل ثلاثاء. كانت المواضيع في الأجندة مماثلة: وهي التصديق على تفاصيل الاجتماع السابق، الشؤون الثقافية، المستجدات في الحركة السياسية في المنطقة، الحوارات مع العامة وميولهم، ضم أعضاء جدد للحزب، الإعداد للاحتفالات والمناسبات، المتطوعين للجيش الشعبي، وأمور تنظيمية أخرى مثل بدأ برامج تعليمية وتثقيفية جديدة للمتعاطفين والأنصار أو للمؤيدين. كانت المناقشات مقتضبة وقاصرة على المسألة التي يتناولونها؛ في إحدى المرات، حين كان موضوع أحاديث المواطنين

---

(١) شعبة السليمانية، «مواعيد وأماكن اجتماعات الفرع»، يوليو ١٩٩١، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٣٠، صندوق ١٤٩.

مثارا، تم إيجازه بسرعه: «لا يوجد شيء هام، وعلى أي حال لا يتحدث المواطنون أمامنا لأنهم يدركون أن أغلبية أعضاء الجهاز الحزبي مرتبطون بالأمن»[١]. ومن ثم، كان الرفاق مطالبين بمضاعفة الجهد لبناء روابط مع العامة واكتساب ثقتهم.

وفيما يخص الاحتفالات، قرر التنظيم أنه نظرا للأحوال السائدة في المنطقة حيث كانت الهتافات المعادية للبعث تنطلق أثناء المسيرات الاستعراضية للحزب أن التنظيم الأمني لابد أن يكون مطلق الحرية للتعامل مع مثل تلك «المواقف». إضافة لذلك، قررت المجموعة أن «المدارس فقط ـ حيث يوجد بها مؤيدون لعملياتنا ـ هي التي يطلب منها وحدها الانضمام لأية احتفالات تقام»[٢].

بعض الأعضاء كانوا مسؤولين عن خلايا المتعاطفين والمؤيدين، وكان واحد أو اثنان منهم مسؤولين عن خلايا كثيرة تضم ما يزيد عن ستين مواليا للحزب في مختلف مستويات التراتب الحزبي[٣]. ولا يوجد ما يكفي من معلومات عن أعضاء تلك المجموعة، غير أن موضوعا في محاضر الاجتماعات يشير إلى تعيين رفيق مسؤولا عن الطرق والكباري، بينما عُيِّن آخر مسؤولا عن مكتب تموين الطعام والأغذية. ولا يوجد ما يشير إلى مؤهلات ذينك العضوين ولا عن اختصاصاتهما السابقة قبل تولي مسؤولية تلك الشؤون[٤].

---

(١) تنظيم شورش، «تفاصيل الاجتماع»، ١١ يناير ١٩٨٢، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٤٣، صندوق ٢٧١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر على سبيل المثال، تنظيم شورش، «تفاصيل اجتماع»، ٢٤ مارس ١٩٨٢، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٤٣، صندوق ٢٧١.

(٤) المصدر السابق، ٣ أغسطس ١٩٨٢، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٤٣، صندوق ٢٧١.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت الشؤون الأمنية والسياسية تناقش في أغلب الاجتماعات الأسبوعية؛ على سبيل المثال، ناقش الأعضاء كيفية التعامل مع الأقارب الأعضاء في حزب الدعوة وكيفية التقرب من عائلات هاجري الحزب لتحذيرهم من مغبة ما فعله أبناؤهم أو أشقاؤهم[١]. في اجتماعات معينة، أدرك الأعضاء أنهم بحاجة لطلب دراسات عن العشائر الكردية في المنطقة أو عن الأعضاء في الحزب الديمقراطي الكردستاني، غير أن التفاصيل المدونة عن الاجتماعات التالية لا يوجد بها ما يشير إلى أي متابعة لهذا الموضوع[٢]. وفي مجال الأمن، تبدو المواضيع مدونة دون كثير من الشرح والتفاصيل، وكانت أحياناً تختزل في جملة بسيطة: «لوحظ أن هناك اضطرابات بين الطلاب»[٣]. المواضيع العامة التي كانت تناقش كانت طلبات لمعلومات عن مواطنين معينين وإعداد المتطوعين من بين المتعاطفين والمؤيدين لتسجيل أسمائهم في الجيش الشعبي أو للالتحاق بالجيش النظامي الذي كان يحارب على الجبهة الإيرانية[٤].

كان ضم أعضاء جدد من البنود الثابتة في أجندة كل الاجتماعات على الدوام في أغلب الفترة التي نخضعها للفحص والدراسة في هذا الكتاب، ولوحظ ذلك في محاضر الجلسات كلما أضيف متعاطفون أو مؤيدون، وأحياناً كانت أسماؤهم تذكر. كانت هناك بالقطع مشاعر

---

(١) المصدر السابق، ٥ يوليو ١٩٨٣، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٤٣، صندوق ٢٧١.

(٢) المصدر السابق، ١٢ مارس ١٩٨٥، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٤٣، صندوق ٧١.

(٣) المصدر السابق، ٦ يوليو ١٩٨٢، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٤٣، صندوق ٢٧١.

(٤) انظر على سبيل المثال، تنظيم شورش، «تفاصيل الاجتماع»، ٢١ فبراير ١٩٨٤، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٤٣، صندوق ٢٧١.

بالفخر بين المجموعة حين ينجح أحدهم في ضم أناس جدد. كانت ملفات المتعاطفين والمؤيدين تمرر بين أعضاء تنظيم بعث مدينة شورش لمراجعتها وتقرير من يخول للترقية في الحزب[١].كما كانت المجموعة مسؤولة أيضاً عن ترتيب برامج تدريب وتوعية سياسية والتعاون في توزيع النشرات وخطب الرئيس بين أعضاء الحزب حول الأحداث الجارية وأيديولوجية حزب البعث. كان بالأجندة أيضاً استضافة مختلف الخلايا والشعب من مناطق أخرى، والتحضير لانتخابات اتحاد الطلاب، وجمع وعمل الإحصاءات عن الموالين للحزب[٢]. كانت الشؤون المالية والتمويلية مثل جمع الاشتراكات من الأعضاء، ورفع قيم التبرعات للحزب، وموازنة الميزانية المالية موجودة على الدوام بأجندة الاجتماعات في معظم الأسابيع.

وأحياناً ما كان يظهر النقد والنقد الذاتي. ومن باب الكيد، كانت المرة الوحيدة التي حمل فيها محضر الاجتماع نقدا حين غاب أحد الأعضاء، وقد سجل في المحضر أن التنظيم انتقده لمغادرته مدينة شورش دون استئذان، ولأنه يحضر الاجتماعات دائماً متأخرا عن الباقين، ولعدم قيامه بواجباته مع الخلايا التي تحت مسؤوليته[٣]. ورفيق آخر تخلف عن بضعة اجتماعات تم انتقاده أيضاً لإبلاغه المجموعة بأنه

---

(١) انظر على سبيل المثال اجتماعات ١٠ سبتمبر ١٩٨٥، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٤٣، صندوق ٢٧١.

(٢) تنظيم شورش، «تفاصيل اجتماع»، ٢٥ مايو ١٩٨٢، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٤٣، صندوق ٢٧١. في الأسبوع السابق، دلت التفاصيل على أن ذات الرفيق أيضاً لم يظهر وأرسل إليه تنبيه يعبر عن ضرورة حضور الاجتماعات.

(٣) المصدر السابق، ٢٥ مايو ١٩٨٢، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٤٣، صندوق ٢٧١.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان مريضا، لأنهم اكتشفوا لاحقا أنه كان يذهب لمكتبه الذي يعمل به عادة[1].

وعلى الرغم من المشاكل الاقتصادية الخطيرة التي كانت تمسك بخناق البلاد، خاصة في الشمال، ومع معرفة أن إدارة الاقتصاد في المنطقة كان يعاني من تعقيدات كثيرة بسبب أعمال التهريب الهائلة عبر الحدود مع إيران، فمن الملاحظ بوضوح من محاضر الاجتماعات أن الموقف الاقتصادي في المنطقة نادرا ما نوقش خلال تلك الأعوام التي نرصدها من خلال محاضر الاجتماعات الأسبوعية.

ويحتمل أن حياة تلك الوحدة الحزبية لم تكن استثناء عند مقارنتها بباقي الشعب والفرق. فملفات وحدات أخرى، على الرغم من أنها في الغالب ليست مفصلة ولا مرتبة مثل تلك الخاصة بوحدة مدينة شورش، تدل أيضاً على أن المواضيع ذاتها كانت تثار في اجتماعاتهم الأسبوعية. وبوجه عام، كان للموقع الجغرافي والمرحلة الزمنية أثرهما على المواضيع التي يناقشها أي فرع؛ فلو لم يكن الفرع في شمال العراق، كان التأكيد يزداد على موضوع التعامل مع الأعضاء والمؤيدين لحزب الدعوة والحزب الشيوعي العراقي أكثر من تناولهم لموضوع التمرد الكردي. ويبدو أن الأنشطة الثقافية أيضاً لقيت تركيزا أكبر، مع معرفة أن الشُعب كان عليها أن تتولى التعامل مع تبعات انتهاء الحرب مع إيران[2] وما ترتب عليها.

---

(١) المصدر السابق، ٢٩ مارس ١٩٨٣، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٤٣، صندوق ٢٧١.

(٢) انظر على سبيل المثال الملف الذي يحتوي على تفاصيل اجتماعات تنظيم الفارس العربي، والتي كانت تتم في قيادة فرقة حطين، والمتعلقة بالفترة من مايو ١٩٨٨ إلى أبريل ١٩٨٩، وهو أكثر تبعثرا وعدم تنظيم من ملف شورش. انظر مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٠٢، صندوق ٠٠٦.

من الثابت أن الفروع كانت العمود الفقري لحزب البعث؛ فقد أتاحت للحزب أن يمد سيطرته ويوسعها عن طريق تجنيد الفروع لمزيد من الأعضاء والموالين والأنصار، كما كانت الفروع بمثابة العيون والآذان لقيادة الحزب. وبعد انتفاضة عام ١٩٩١ في جنوب العراق، انتقد صدام حسين الفروع الموجودة بالجنوب لفشلها في تحذير قيادة الحزب سلفا عن وجود تلك الميول لدى المتمردين. وأدى ذلك إلى خلق مزيد من الضغوط والتنافس، وأدى ذلك بدوره بالفروع لأن تكون متداخلة أكثر مع مجتمعاتها وأن توسع من أنشطتها أكثر. أحد المواضيع الهامة جداً في أجندة قيادة الحزب كانت أمن النظام، بالإضافة إلى عمل التنظيمات الأمنية الكبرى، ومن المهم أن نتذكر أن فروع الحزب قد لعبت دوراً خطيراً في جمع المعلومات وفي فرض حكم حزب البعث على العراق.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الرابع

التنظيمات الأمنية في عهد البعث

يمكن أن نعزي إلى حد كبير بقاء حزب البعث وقيادته تحت زعامة صدام حسين إلى قدرة الحزب على التوسع والسيطرة على جهازه الأمني. كان هذا النظام الأمني قد تأسس قبل وقت طويل من ثورة عام ١٩٦٨ التي جاءت بحزب البعث إلى السلطة، غير أن صدام حسين هو من أتقن تنظيم آليات عمل الحزب واستخدمه بطريقة فريدة لم تعرف من قبل في تاريخ العراق. وتم تكوين أجهزة أمنية متداخلة تغطي أطراف بعضها بعضا ولا تترك متسعا بينها وصممت في بنيتها بطريقة معينة بحيث تضمن ألا يتضخم جهاز منها ويقوى على حساب غيره ويهدد النظام.

خلال الفترة المحصورة بين ١٩٦٨ و٢٠٠٣، كانت أربع وكالات أمنية تعمل في العراق:

١ ـ **الأمن العام**: وكان أقدم تلك الوكالات الأمنية، ويرجع تاريخه إلى عهد الانتداب البريطاني عام ١٩٢١. ومر الجهاز بتغييرات جذرية عام ١٩٧٣ بعدما حاول رئيس الجهاز ناظم كزار قيادة انقلاب ضد كل من الرئيس أحمد حسن البكر ونائبه في ذلك الوقت صدام حسين[١].

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن المؤامرة إرجع إلى ذكريات رئيس المخابرات في ذلك الوقت=

https://telegram.me/maktabatbaghdad

دفعت المؤامرة الانقلابية الفاشلة صدام حسين لإعادة التفكير في استراتيجيته التي كان يعدها لجهاز الأمن، والتي كانت تشكل جانباً من مسؤولياته. واعترف المؤتمر القطري الثامن لحزب البعث المنعقد عام ١٩٧٤ بأن الأمن ارتكب كثيراً من الأخطاء والخطايا، مثل نقص وسائل السيطرة والتحكم في جهاز الأمن العام، وأنه لا يكفي مجرد الاعتماد على وجود أعضاء الحزب في الأجهزة الأمنية[١]. كان الأمن يراقب جماعات المعارضة الداخلية، والأقليات العرقية، والطوائف الدينية؛ وكان مسؤولا أمنيا عن حراسة حدود العراق، خاصة من جهة الشمال، كما كان يراقب في يقظة الأنشطة الاقتصادية غير القانونية مثل تجارة العملة وتجارة السوق السوداء[٢].

٢ ـ **الاستخبارات العسكرية العامة**: تأسست تلك الاستخبارات بعد حصول العراق على الاستقلال عام ١٩٣٢، ولكن أعيد تنظيمها على يد صدام حسين بعد أن أصبح رئيساً عام ١٩٧٩. كانت تلك الوكالة تجمع المعلومات عن القدرات العسكرية للدول المجاورة للعراق، وأيضاً عن القوات الكردية. وإلى جانب جمع المعلومات، عملت كقوة داخلية لكشف «اختراق» الأعداء للجيش وذلك بوضع ضباط استخبارات في كل وحدة عسكرية حتى مستوى الكتيبة[٣]. إضافة لذلك، كانت تجمع

=برزان التكريتي، «محاولات اغتيال الرئيس صدام حسين» (بغداد، بيت النشر العربي، ١٩٨٢)، صفحات ٩١ ـ ١٦١.

(١) حزب البعث العربي الاشتراكي، «ثورة ١٧ تموز: التجربة والآفاق»، (تقرير سياسي عن المؤتمر القطري الثامن لحزب البعث العربي الاشتراكي / العراق) (بغداد: الحزب، ١٩٧٤)، صفحات ١٣٩ ـ ١٤٠.

(٢) لقائمة كاملة عن تركيبة السوق السوداء وبنيتها، انظر وكالة المخابرات المركزية، «العراق: المخابرات والخدمات الأمنية»، تقرير رقم ٢٧٦، أغسطس ١٩٨٥، صفحات ١٦ ـ ١٩.

(٣) جماعة المسح العراقي، «الأهداف الاستراتيجية للنظام»، المجلد ١، صفحة ٨٣.

المعلومات عن المعارضين السياسيين العراقيين المتواجدين خارج العراق ومراقبة أنشطة الملحقين العسكريين الأجانب في العراق. كانت الاستخبارات العسكرية العامة ذات صلاحيات وسلطات مطلقة في منطقة كردستان لمكافحة التمرد الكردي[١]. وعلى الرغم من أن إدارتها كانت موجودة بوزارة الدفاع، إلا أنها كانت ترفع تقاريرها مباشرة للرئيس لا لوزير الدفاع[٢].

٣ ـ **جهاز المخابرات العراقية**: تطور عن جهاز الأمن الداخلي لحزب البعث والذي تم تكوينه بعد صعود حزب البعث للسلطة أول مرة عام ١٩٦٣، وكان يطلق عليه في الأصل اسم «جهاز حنين». وحل صدام حسين ذلك الجهاز عام ١٩٧٣ حين كان نائب الأمين العام لحزب البعث ونائب رئيس الجمهورية وشكل بدلاً منه جهاز المخابرات العراقية[٣]. وطبقا لكنعان مكية، فإن جهاز المخابرات العراقية مختلف جذريا عن باقي الأجهزة الأمنية وذلك بكونه أقرب «لجهاز سياسي» وكان أول أعضائه «مزجوا قلة الخبرة الاحترافية بالمعرفة السياسية، وليس فقط مجرد الولاء»[٤]. واحتفظ التنظيم بتسجيلات لأعضاء حزب البعث، وراقب أنشطة الطلاب العراقيون بالخارج، وقام بعمليات ضد أجهزة المخابرات الأجنبية، ومن عام ١٩٧٧ أصبح يستخدم أيضاً في

---

(١) عصام الخفاجي «إرهاب الدولة وانهيار السياسة في العراق»، تقرير الشرق الأوسط، رقم ١٧٦ (مايو ـ يونيو ١٩٩٢)، صفحة ١٦.

(٢) لقائمة كاملة بوظائفها وبنيتها، إرجع إلى تقرير وكالة المخابرات المركزية، «العراق»، صفحات ١٢ ـ ١٥.

(٣) أبو ريش: «صدام حسين»، صفحات ٦٤ و٦٧. ويبرز أبو ريش أن أغلب الكتاب يشيرون بالخطأ إلى المؤسسة الأمنية باسم جهاز حنين، ولكن صحة الإسم حُنين نسبة إلى معركة حنين في صدر الإسلام.

(٤) مكية: «جمهورية الخوف»، صفحة ١٥.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أعمال غير مشروعة لصالح لجنة الصناعات العسكرية[١] وقامت مكاتبه في تسع محافظات بتنفيذ عمليات وأنشطة متنوعة لصالح الإدارة.

٤ ـ **جهاز الأمن الخاص**: أنشأه صدام حسين بعد أن أصبح رئيساً وكان في جوهرة عين القيادة وأذنها. وكان أقوى الأجهزة الاستخباراتية العراقية ويقدم تقاريره مباشرة لصدام حسين. وكان حسين كامل المجيد، زوج ابنة صدام وابن شقيق علي حسن المجيد (المشهور باسم علي الكيماوي) فعالا في إدارته للجهاز، واصبح قصي صدام حسين رئيسا للجهاز لبعض الوقت في أواخر عام ١٩٩١، وأدى ذلك إلى التواصل مباشرة مع الرئيس. وتزودنا وثائق القيادة القطرية لحزب البعث بمعلومات غير مسبوقة وتتيح لنا رؤية عن قرب لكيفية عمل ذلك الجهاز.

إضافة إلى الأجهزة الأمنية الأربعة الرئيسة، كانت هناك وكالات استخباراتية أخرى، مثل الأمن العسكري، وقد تأسس عام ١٩٩٢ على يد صدام حسين كرد فعل للمخاطر المحتملة من داخل الجيش ذاته، بعد حرب الخليج الأولى وانتفاضة التمرد في الجنوب. بعض مسؤوليات الأمن العسكري كانت تتقاطع مع مسؤوليات وصلاحيات الاستخبارات العسكرية العامة، مثل كشف المعارضين والمخالفين في القوات المسلحة والتحقيق في أي ظواهر فساد أو اختلاس داخل الجيش[٢]. وكما رأينا في الفصول السابقة، كان حزب البعث ذاته منغمساً بعمق في الأمور الأمنية من خلال قوات أمنه الخاصة وأعمال الاستخبارات التي

---

(١) جماعة المسح العراقي: «الأهداف الاستراتيجية للنظام»، وبها رسم تفصيلي لمختلف إدارات المخابرات ومهامها، انظر المجلد ١، صفحات ٧٤ ـ ٨٣.

(٢) إبراهيم المرعشي «شبكات الأمن والمخابرات العراقية: دليل وتحليل»، ميدل إيست ريفيو للشؤون الدولية، الجزء ٦، رقم ٣، (سبتمبر ٢٠٠٢)، صفحة ١٠.

يمارسها، خاصة في المحافظات خارج بغداد. وبحلول عام ١٩٩٨، أصبح للحزب جهاز استخباراته الخاص اسمه (شعبة الاستخبارات العسكرية) والتي كانت جزءاً من مكتب بغداد العسكري لمراقبة الأنشطة الاستخباراتية، والأهم من ذلك أن عمله كان مراقبة العاملين في الأجهزة الاستخباراتية الأخرى. وعملت شعبة الاستخبارات كأية شعبة حزبية أخرى، وكان تسلسل السلطة فيها كباقي الشُعب تماما، غير أنه كان عليها مسؤولية إضافية بكونها جزءاً من أجهزة المخابرات[١].

وحين وقعت انتفاضة ١٩٩١، ركز المتمردون هجماتهم على رموز النظام وسلطته، وعلى وجه التخصيص مؤسسات الحزب[٢]. إضافة لذلك، وعلى ضوء حقيقة أن نسختين من كل ملف مما يتم دراسته في هذا الكتاب، وهما قيادة حزب البعث القطرية ومركز وثائق شمال العراق، يحتويان على عشرات الآلاف من الوثائق السرية الخاصة بالأجهزة الأمنية والتي أرسلت نسخ منها لأمانة سر الحزب، تظهر علاقة التعايش والتكافل بين الحزب ومؤسساته الأمنية. تحدث قصي صدام حسين عن جهاز الأمن الخاص وهو رئيس له، قائلاً لضباطه: «الموالي لجهاز الأمن الخاص لابد أن يكون بعثيا وأن يكون مؤمنا بمبادئ حزب البعث العربي الاشتراكي»[٣]. إضافة لذلك، احتفظ الحزب بمعلومات،

---

(١) من شعبة إدارة المخابرات العسكرية إلى فرع بغداد، ٢٠٠٢ (لا يوجد تاريخ محدد)، وثائق مجلس قيادة الثورة، في ٢٠٠٢ كان يوجد ٣٤١٣ منتم للحزب على كل المستويات الحزبية يعمل مع هذه الشعبة. وكانت تقيم كأي وحدة حزبية أخرى وكانت تشارك في النقاش والجدل الثقافي والتعليم السياسي.

(٢) مار: «تاريخ العراق الحديث»، صفحة ٢٤٥.

(٣) الوصايا والإرشادات لقصي صدام حسين، مدير جهاز الأمن الخاص إلى العاملين بالجهاز، ألقاها في ٢١ يوليو ١٩٩٤، القيادة القطرية لحزب البعث.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مثل الخلفية السياسية والحزبية، عن أغلب كبار الضباط العاملين في المجال الاستخباراتي[١].

وعلى الرغم من تداخل عمل الأجهزة الأمنية التي ابتدعها صدام حسين، كان يعقد ملتقى تعاون بين مختلف الأجهزة يطلق عليه مجلس الأمن القومي. وطبقا لمجموعة المسح العراقية، «عمل عزة ابراهيم الدوري، وكان في ذلك الوقت نائبا للرئيس ونائب رئيس مجلس قيادة الثورة، كرئيس لمجلس الأمن القومي، والذي كان يتكون من رؤساء أجهزة الأمن والاستخبارات الأربعة. دبوان الرئاسة، والتي كانت تمتلك سلطة هائلة، حضرت الاجتماعات، واستعرضت أولا كل التقارير قبل إرسالها للرئيس، وكانت هي التي تقرر ما يستحق أن يوضع أمامه على مكتبه. لم يكن المجلس يجتمع بصفة منتظمة، وفي الحقيقة كان كل رؤساء الأجهزة الأمنية، بغض النظر عن اجتماعات مجلس الأمن القومي، يقدمون بأنفسهم الأمور المهمة لصدام حسين مباشرة»[٢].

مجموعتا الوثائق المستخدمة في عمل هذه الدراسة، وهما مجموعة وثائق مركز وثائق شمال العراق ومجموعة وثائق القيادة القطرية لحزب البعث، تقدم معلومات غزيرة عن كيفية عمل الأجهزة الأمنية الرئيسة الأربعة في شمال العراق قبل عام ١٩٩١، وفي جميع أنحاء العراق طوال فترة حكم حزب البعث بأجمعها. أغلب الوثائق التي جلبت من مركز وثائق شمال العراق تتعلق بجهاز الأمن العام، أما وثائق قيادة

---

(١) انظر على سبيل المثال: من رئيس المخابرات العسكرية العامة إلى أمانة سر الحزب، ٢٧ سبتمبر ١٩٨٤، «معلومات»، القيادة القطرية لحزب البعث. وتحتوي المعلومات على تفاصيل عن خلفية ١٤٢ ضابطاً بدءاً من رتبة رائد فما فوقها، وكان على أحد كبار مسؤولي الحزب أن يتخذ قرارا حول ما إذا كان كل منهم يمضي على مسار الثورة أم لا.

(٢) جماعة المسح العراقي، «أغراض النظام الاستراتيجية»، المجلد ١، صفحة ٨٦.

حزب البعث القطرية فقد كانت نسخا من المراسلات الخاصة بأجهزة الأمن الأربعة التي أرسلت للقيادة القطرية للحزب أو إلى الفروع. غير أن ملفات القيادة القطرية لحزب البعث، كانت تحتوي على ١٩١٧ ملفا خاصة بجهاز الأمن الخاص، والتي تعد أساس الموضوع التالي في المناقشة والعرض.

جهاز الأمن الخاص

كان الهدف الرئيس لأجهزة الأمن هو جمع المعلومات عن طريق المراقبة والمتابعة والإشراف عن طريق شبكة واسعة جداً من العملاء والمبلغين والوشاة. ومن بين الأيدي الطويلة لأجهزة الدولة، كان جهاز الأمن الخاص أقوى وكالة أمن في العراق من عام ١٩٨٠ حتى بداية غزو العراق بقيادة أميركا عام ٢٠٠٣.

كان جهاز الأمن الخاص يتكون من أحد عشر قسماً ودائرة تقدم تقاريرها إلى رئيس جهاز الأمن الخاص (انظر الشكل رقم ٥). وطبقا لمجموعة أمن العراق، كان هناك أيضاً فرع علمي يقدم تقاريره مباشرة لرئيس الجهاز، قصي صدام حسين في عقد التسعينيات، غير أن الوثائق تظهر أن الفرع العلمي ـ الذي كان يدير مختبرا لفحص الطعام الذي يقدم للرئيس ـ كان تابعا لدائرة الشؤون الأمنية[١]. كانت تلك الدائرة أهم قسم في جهاز الأمن الخاص. في العقد الأول من إنشائه كان الجهاز مسؤولا عن حماية الرئيس. غير أنه في أواخر عقد الثمانينيات، تم إلغاء تلك المسؤولية من جهاز الأمن الخاص، وتكونت مجموعة خاصة أخرى عرفت باسم الحماية، مكونة من حراس في الرئاسة، وأصبحت أقرب

(١) جماعة المسح العراقي، «أغراض النظام الاستراتيجية»، المجلد ١، صفحة ٨٩. طبقا لهذا التقرير، حين تمت المواجهة بمفتشي الأمم المتحدة، رفض قصي الإقرار بأن المختبر يتبع جهاز الأمن الخاص، صفحة ٩١.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

دائرة أمنية محيطة ولصيقة بصدام حسين. وفي الحقيقة، تظهر دراسة مفصلة عن تاريخ دائرة شؤون الأمن ووظيفتها أن فوضى شديدة حدثت في أواخر الثمانينيات مع وجود ثلاث دوائر مختلفة تولت كل منها مسؤولية حماية صدام لفترة قصيرة من الزمن، وأن القسم كان على وشك الإلغاء[١]. وبالفعل، أصبحت دائرة شؤون الأمن، والتي بلغ عدد أفرادها طبقا لمجموعة المسح العراقية ما يزيد عن ١٧٠٠ فرد (من ٥٥٠٠ فرد يعملون في كل جهاز الأمن الخاص)، وأصبحت الدائرة الثانية في حماية الرئيس وكباررجال قيادة حزب البعث القطرية. ومن بين واجباتها أيضاً فحص ومراقبة كل العاملين في القصور الرئاسية ومن يسافرون في معية الرئيس[٢].

كانت مهمة أقسام أخرى عديدة مراقبة ولاء الضباط والعاملين بمختلف المؤسسات التابعة للحزب أو الجيش. على سبيل المثال، كانت دائرة أمن الحرس الجمهوري تركز على ضمان ولاء القادة العسكريين للحرس الجمهوري، بينما كان فرع الأمن الخاص يراقب ويتابع الأفراد العاملين بجهاز الأمن الخاص باستثناء من يعمل منهم مباشرة مع الرئيس[٣].

---

(١) إدارة شؤون الأمن، جهاز الأمن الخاص، «إدارة شؤون الأمن من وجهة نظر شخصية»، ١٣ أكتوبر ١٩٩١، القيادة القطرية لحزب البعث. كتب التقرير من قبل مستخدم سابق كان يعمل مع جهاز الأمن الخاص منذ تكوينه، وتوافقا مع سياسة الكتاب، لا تذكر أسماء، إلا إذا كانت أسماء معروفة لكبار المسؤولين في الفترة الخاضعة للدراسة.

(٢) جماعة المسح العراقي: «أغراض النظام الاستراتيجية»، المجلد ١، صفحات ٨٨ ـ ٩٠.

(٣) من رئيس إدارة أمن جهاز الأمن الخاص إلى رئيس جهاز الأمن الخاص: «معلومات»، ١٣ أبريل ١٩٩٦، القيادة القطرية لحزب البعث. طبقا لهذه المذكرة، كان يوجد ١٣٠٥ يعملون في هذا القسم، ٤٩٤ يعملون في مجموعة المراقبة الخاصة، و٨١١ في شؤون الإسكان والتشهيلات للعاملين مع الرئيس.

كان هذا التداخل المتعمد بين صلاحيات الأقسام يقصد منه أن يقوم كل فرد بمراقبة الآخرين كما يراقبه الآخرون. فرع المراقبة والمعلومات كانت مخولة له مسؤولية مراقبة كبار موظفي الدولة العراقية وإعداد الملفات عن أي مسؤول أو مسؤولة قبل ترقيته أو ترقيتها أو إسناد وظيفة أعلى أو مسؤولية أكبر له أو لها.

كانت حماية الرئيس من أهم مهام جهاز الأمن الخاص وكل المهام الأخرى كانت تأتي في مرتبة تالية ولاحقة لتلك المهمة. في إحدى المناسبات قال رئيس الأمن الخاص للعاملين بالقسم: «مهمة الأمن الخاص لا تتلخص فقط في الحراسة [للرئيس]، لأن المعنى الخفي في مفهوم الأمن يعني أن حراسة الرئيس القائد (حفظه الله) إنما يعني حراسة العراق العظيم»[١].

كلما غادر الرئيس أحد قصور الرئاسة، يستنفر كل نظام الأمن للعمل. كانت التفاصيل تخطط مقدما قبل كل زيارة يقوم بها، وكان على كل أجهزة الأمن الأخرى أن تتبع أوامر جهاز الأمن الخاص في هذا الصدد[٢]. كانت الاحتفالات بالمناسبات الوطنية أو بعيد ميلاد صدام حسين لا تستدعي فقط القلق من المسار الذي سيسلكه ولا بمن سيلتقي بهم، ولكنها أيضاً تستدعي الاهتمام بالأطعمة والأشربة التي قد يتناولها هو ومرافقوه في الأماكن التي يزورها. بالنسبة لأعياد الميلاد، على سبيل المثال، كانت تعطى الأوامر للخبازين بالمقادير وطريقة تزيين

---

(١) الوصايا والإرشادات لقصي صدام حسين، مدير جهاز الأمن الخاص إلى العاملين بالجهاز، ألقاها في ٢١ يوليو ١٩٩٤، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٢) انظر على سبيل المثال، الزيارة التي قام بها صدام حسين لافتتاح جسر ببغداد في مارس ١٩٩٥، القيادة القطرية لحزب البعث. وربما كان ذلك مماثلا لما يحدث في دول أخرى كثيرة، بما فيها بعض الدول الديمقراطية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المخبوزات، ولا يسمح بها إلا بعد تحليل عينات منها في معامل جهاز الأمن الخاص[1].

في مذكرة مثيرة للانتباه صادرة من فرع الأمن لجهاز الأمن الخاص، يشرح فيها رئيس القسم أن «القسم الخاص» التابع للفرع هو المسؤول عن مراقبة «الدوائر اللصيقة للقائد العظيم، حماه وباركه الله»، من بين تلك الدوائر القريبة، العاملون بالقصور الرئاسية مثل الكهربائيين، واللحامين، والحائكين، والكوائين الذين يعدون ملابس الرئيس وعائلته، والسائقين، والمصورين. كانت المراقبة تتخذ أشكالا عديدة ومختلفة: بتركيب أجهزة تسجيل خفية في بيوت العاملين بالقصور الرئاسية، والتنصت على الهواتف في العمل والبيوت، والمراقبة الشخصية المباشرة لكل ما يقوم به العاملون بعد انصرافهم من القصور، والجمع الدائم والمستمر للمعلومات عن أولئك المتواجدين في الدائرة الأولى حول الرئيس وعن عائلاتهم أيضاً[2].

كان على كل العاملين بقصور الرئاسة أو أي منشآت رئاسية أن يوقعوا على إقرار بأنهم يعلمون أنهم سيلقون عقاباً قاسياً لو خالفوا القواعد التالية:

١ ـ على العاملين ألا يتحدثوا عما يشاهدونه أو يسمعونه في أماكن عملهم بالقصور والمنشآت الرئاسية، ولا حتى مع العاملين

---

(١) من رئيس الشؤون الأمنية إلى رئيس جهاز الأمن الخاص: «واجب: ١٥ مايو ١٩٩٤، القيادة القطرية لحزب البعث».

(٢) من رئيس فرع الأمن إلى رئيس جهاز الأمن الخاص: «خطة عمليات القسم الخاص»، ١٢ يناير ١٩٩٤، القيادة القطرية لحزب البعث. لأسباب معينة، كانت المجموعة المكلفة بكواء ملابس وقمصان صدام حسين تصنف وحدها، فقد كان صدام الذي كان يبدو أنيقا على الدوام كان يهتم بشكل خاص بمظهره.

معهم بالقصور ولا مع العاملين السابقين في ذات المهنة والمكان.

٢ ـ يتعهد العاملون بألا يكونوا أي علاقات مع أجانب ولا عرب ولا تجار.

٣ ـ يتعهد العاملون بإبلاغ جهاز الأمن الخاص بأي معلومات تتعلق بالرئيس وأي أحاديث سلبية تحدث في مكان العمل.

٤ ـ يوافق العامل على ألا يستخدم هاتفه المحمول في المكاتب الرئاسية وألا يتحدث عن شؤون العمل من هواتف بيوتهم[١].

إحدى المشاكل التي واجهت فرع الأمن وأشارت إليها التقارير في عديد من المرات في الوثائق كانت تتمثل في أن أغلب العاملين بالقصور الرئاسية، الذين وصل عددهم إلى ١٣٠٠ عام ١٩٩٥، كانوا من المسيحيين. ولأن أولئك العاملين كانوا يتحدثون إلى بعضهم ومع عائلاتهم باللغة الآشورية والكلدانية، فقد كان من الصعب جداً على جهاز الأمن الخاص مراقبة مكالماتهم الهاتفية أو فهم أي حديث يستمعون إليه عبر أجهزة التنصت المزروعة في هواتف بيوت أولئك العاملين[٢]. في واحدة من الحالات التي أثارت جدلا، اكتشف جهاز

---

(١) القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٢٨. يحتوي الملف على ملف شخصي لموظف عين للعمل في مخزن ملحق بكبير المرافقين للرئيس. ولا يوجد تفسير لماذا حرم على العاملين أن يكونوا على أي علاقة بالتجار.

(٢) من نائب مدير فرع الأمن إلى مدير جهاز الأمن الخاص: «دراسة»، ٥ سبتمبر ١٩٩٥، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠٢. حذرت المذكرة من أنه في كثير من الحالات يستغرق الأمر نحو ثلاثة أيام لفض شفرة وترجمة تلك المحادثات والذي يعني التعرض لمخاطر شديدة إن كانت المحادثات تحيك مؤامرة. وتم تخصيص مزيد من المخصصات المالية لتشغيل مزيد من الآشوريين والكلدانيين الذين يجيدون التحدث بلغاتهم وهما من أقدم اللغات التي يتحدث بها مسيحيو شمال العراق.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأمن الخاص من خلال المبلغين أن زوجة الطباخ الرئيس لدى الرئيس صدام حسين (وكان هو الآخر مسيحياً كلدانياً) تدمن لعب الميسروالقمار والمراهنات، وخسرت ذات مساء ٣٠,٠٠٠ دينار عراقي (حوالي ٣٠٠ دولار أميركي) مما يضعها في دائرة تشكل خطورة أمنية ونقطة ضعف أمني. ولم يكن صدام حسين راضيا عن الطريقة التي تناول بها جهاز الأمن الخاص تلك المسألة: فقد رأى جهاز الأمن الخاص أن يعتقل الطباخ وزوجته. وفي واحدة من المرات القليلة التي يكتب فيها تعليقا بخط يده على هامش المذكرات، كتب: «ألا يجب عليكم أن تكونوا أكثر صبرا، وبدلا من الاكتفاء باعتقالهما، يجب أن تزرعوا واحدا من الجهاز ليلعب الورق في بيت الطباخ فيمكن له أن يخبرنا عما دار والأمور التي يتحدثون عنها في تلك الليالي؟». بعد ذلك بأسبوع، دل تقرير وضع على مكتب الرئيس بأن أحد أفراد جهاز الأمن الخاص بدأ بالفعل يصبح شريكا للزوجة في لعب الورق، غير أنها لم تثر أية أحاديث تمس الأمن[١]. ويمكن لنا أن نفترض أن الموضوع قد أغلق عند هذا الحد، غير أن الطباخ وزوجته أصبحا تحت رقابة أكثر تشددا، لم تكن عادة تشغيل الأقليات العرقية في قصور الرئاسة والأجهزة الأمنية من ابتداع نظام صدام حسين؛ فقد أدرك ستالين في الاتحاد السوفييتي أن الأقليات، حتى في المراكز العليا، لا يمكن أن تشكل تهديداً على نظامه، بسبب عدم وجود ظهير شعبي قوي من خلفها[٢]. وفي العراق، عرف عن الآشوريين أنهم منظمون في المظهر والمنهج ودقيقون في

---

(١) من مدير جهاز الأمن الخاص إلى ديوان الرئاسة: «الطاهي أ.إي.أ»، ١٦ مارس ١٩٩٥، القيادة القطرية لحزب البعث. إسم الطاهي الكامل مذكور في الوثيقة الأصلية ولكن تم كتابته بالأحرف الأولى فقط هنا.

(٢) بول جريجوري: «حصص الإرهاب»: أمن الدولة من لينين إلى ستالين (دراسة أرشيفية) (نيو هافن: مطبوعات جامعة ييل، ٢٠٠٩)، صفحات ٦٢ ـ ٦٣.

الوقت والمحافظة عليه كما أنهم ليس لديهم أي طموح سياسي، لذلك مثلوا جماعة مثالية للتشغيل في القصور الرئاسية.

شملت أعمال أمن الرئيس وأسرته فحص أي فرد قريب منهم أو لأحد من عائلاتهم. حين كان أطفال قصي على وشك الإلتحاق بدار حضانة، طلب نائبه معلومات مفصلة عن ستة من المعلمين يعملون في مدرسة الأطفال[١]. في بعض الأحيان كانت الوثائق توحي بأن جهاز الأمن الخاص كان مؤسسة عائلية خالصة. فالمذكرات تشير إلى أن عدي، الإبن الأكبر لصدام، كان كثيراً ما يطلب معلومات عن أناس وأفراد دون أن يذكر سببا لطلبه. وفي الحال كانت كل الأجهزة تنشط لحدها الأقصى ويتم جمع كل المعلومات التفصيلية عن الأشخاص المطلوب معرفة خفاياهم، لا عن طريق جهاز الأمن الخاص وحده، بل أيضاً عن طريق إرسال طلبات إلى أمانة سر الحزب وباقي الأجهزة الأمنية لسد أي ثغرات في المعلومات التي تجمع[٢]. كذلك كانت قوارب ويخوت عدي تتمتع بكامل حماية جهاز الأمن الخاص، حتى أن طواقم الإبحار والفنيين كانوا موضع اختيار دقيق وفحص شامل لخلفياتهم قبل الموافقة على عملهم، بل أن رجال الأمن الخاص كانوا يصحبونه في أي رحلة بحرية[٣].

---

(١) من نائب مدير جهاز الأمن الخاص للمدير: «طلبات لمعلومات»، ٢ يناير ١٩٩٢، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠٣.

(٢) من مدير فرع الأمن إلى عدي صدام حسين: «معلومات»، ٢١ ديسمبر ١٩٨٩، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠٣.

(٣) إدارة جهاز الأمن الخاص: «إضافة أمنية»، ٨ مايو ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٢٤.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

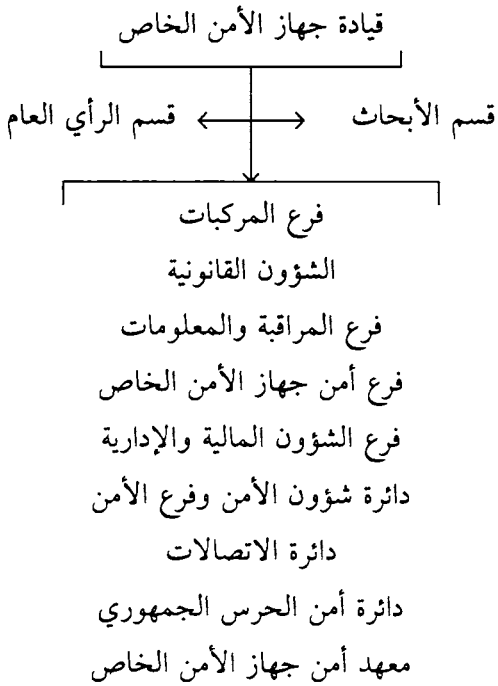

شكل (٥): التركيب البنائي لجهاز الأمن الخاص. المصدر: جماعة المسح العراقية، هدف النظام الاستراتيجي، المجلد الأول، صفحة ٨٩.

كان الاهتمام الحقيقي لقيادة البلاد يدور حول أولئك المتواجدين في نطاق السلطة، سواء كانوا بالجيش أو بالمؤسسات الأمنية، بما فيها جهاز الأمن الخاص، وكان ذلك ينطبق أيضاً على من كانوا في مراكز عليا. «فعدم توفر الأمن للجماهير لابد أن يماثله عدم الأمان للصفوة الحاكمة الذين يحيطون بالديكتاتور»[١]. وتمتلئ ملفات جهاز الأمن الخاص بأمثلة كثيرة عن تعرض أفراد أجهزة الأمن الخاص أنفسهم

(١) فينسود: «كيف تحكم روسيا»، صفحة ٤٤١.

للمراقبة، والاعتقال والعقاب. كثير منهم كانت مكالماتهم الهاتفية تسجل، وتراقب أسرهم مراقبة لصيقة[١]. وبأوامر مباشرة من صدام حسين، أقيم سجن خاص في جهاز الأمن العام ليحبس به أعضاء جهاز الأمن الخاص المشكوك في عدم ولائهم للنظام، وتلقى كبار رجال جهاز الأمن الخاص تعليمات بأن يشاركوا في استجواب أولئك المشكوك في ولائهم[٢]. وتشكى نائب مدير جهاز الأمن الخاص رغم ذلك من أنه لا يتاح لهم ممارسة الضغط الكافي على العاملين بجهاز الأمن الخاص المعتقلين للشك في ولائهم حتى يعترفوا بما اقترفوه من جرم، وطلب أن يسمح له باستخدام وسائل أشد قسوة عند استجواب من يعتقل منهم وسمح له بذلك على الفور[٣]. ثم أتيحت بعد ذلك لرؤساء الأقسام سلطة حبس أي عامل بالجهاز لمدة أسبوع إذا أحس المدير أن العامل أو العاملة بالجهاز لا يؤدي أو تؤدي العمل على الوجه الأمثل[٤]. كان العاملون الذين لهم علاقات مشكوك فيها تكتب عنهم التقارير وتقدم لرؤساء الأقسام. في إحدى الحالات، كتب تقرير بأن

---

(١) كان زرع أدوات تصنت في هواتف العاملين بجهاز الأمن الخاص مرعبا، فقد كان على علم ودراية بذلك أكثر من أي شخص آخر من العاملين بالجهاز الأمني. في مثال لحالة كانت المكالمات إما تتصل بالعمل أو ذات طبيعة عمومية، واتي يبدو أنها كانت تضايق المتنصتين على المكالمات. ونصحهم ضباطهم الأعلى رتبة أن يكونوا صبورين وأن يستمروا في التنصت. تقرير إلى مدير الأمن: «مراقبة الهواتف». ٤ سبتمبر ١٩٩٤، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠١.

(٢) من مدير جهاز الأمن الخاص إلى ديوان الرئاسة: «تحديث»، ١٣ أبريل ١٩٩٥، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠٢.

(٣) من نائب مدير جهاز الأمن الخاص للمدير، ٢٠ نوفمبر ١٩٨٥، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠٣.. وكتب المدير على هامش المذكرة كلمة واحدة: نعم.

(٤) من رئيس قسم الشؤون القانونية لكل المديرين: «أمر»، ١٥ أبريل ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠٢.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أحد العاملين المنفصل عن زوجته كان يجلب النساء إلى شقته في وقت متأخر من الليل. وزاد من حدة مشكلته أن أخاه كان متزوجا من امرأة سورية، مما كان يعني أنه أصبح مصنفا في احتمال تشكيله خطراً «أجنبيا» (انظر الحالة التالية). كان التخوف من العلاقات الغرامية منتشرا: فعلى سبيل المثال، حين نقل أحد العاملين بجهاز الأمن الخاص إلى شمال العراق وأقام علاقة غرامية مع سيدة كردية، أصيب قادته بانزعاج وقلق شديد بسبب التداعيات الأمنية التي قد تترتب على مثل تلك العلاقة[١].

واتخذت الهيمنة والتحكم في العاملين بجهاز الأمن الخاص عدة أشكال مختلفة. فمثل ضباط الجيش، كان على من ينتوي الزواج أن يقدم طلبا للحصول على موافقة الجهاز أولا. ومن الواضح أن ذلك كان يتيح للجهاز حرية مطلقة في التحري عن زوجة المستقبل[٢] وجمع ما يكفي من معلومات عنها. كثير من الملفات دلت على طلب جمع معلومات عن العاملين؛ وفي الأغلب لم يكن يذكر سبب طلب جمع المعلومات والتحريات ولا لماذا أصبح أولئك العاملون موضع اشتباه، غير أن كثير منهم كانوا يوضعون تحت المراقبة إن فر أحد أفراد عائلاتهم للخارج أو اعتقل بسبب نشاط معادٍ للنظام[٣]. كان أصدق

---

(١) من جهاز المخابرات العراقية إلى جهاز الأمن الخاص: «معلومات»، ٢٢ فبراير ٢٠٠٣، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠١.

(٢) من نائب مدير جهاز الأمن الخاص إلى المحكمة الشرعية: «موافقة على الزواج»، ١٥ مارس ١٩٨٩، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠٢؛ من نائب مدير جهاز الأمن الخاص إلى المحكمة الشرعية: «موافقة على زواج»، ٨ يناير ١٩٩٢، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠٣. ويبدو أن المحاكم الشرعية كانت قد تلقت أوامر بألا تعقد زواجا للمسؤولين دون موافقة مسبقة من الحزب أو جهاز الأمن الخاص.

(٣) انظر على سبيل المثال الملفات التي تحتوي على طلب معلومات عن العاملين: من=

مصدر للمعلومات الملف الشخصي للعامل بالجهاز. فقد كان الاستجواب المكون من ست عشرة صفحة من الأسئلة التي لابد أن يجيب عليها بدقة طالب العمل بالجهاز وتحتوي على أدق التفاصيل الشخصية والعائلية. وبالإضافة للأسئلة الشخصية المعتادة، كان كل طالب وظيفة يسأل أسئلة معمقة عن معتقداته السياسية والأنشطة التي مارسها في حياته، وهواياته، وأسفاره للخارج إن وجدت، وممتلكاته، وإن كان عليه قروض مالية. فضلاً عن ذلك، كانت هناك أسئلة أخرى كالأسئلة التالية: «هل تدخن؟ وإن كنت تدخن، اذكر نوعين من السجائر التي تدخنها»؛ «هل تشرب الكحوليات؟ وإن كنت تشرب اذكر نوعين من الأصناف التي تفضلها، والكمية التي تحتسيها وأثرها عليك»؛ «هل تذهب إلى الملاهي الليلية؟»؛ و«هل لك أعداء؟». كانت الأسئلة الخاصة بالأقارب تمتد لتشمل كل العائلة الممتدة للزوجة، والأعمام، والأخوال لطالب العمل بالجهاز وميولهم السياسية. ورغم ذلك كان بعض المرشحين يعرفون كيف يتلاعبون بالنظام، فقد أجاب أحد المرشحين على سؤال إن كان له أعداء قائلاً: «نعم لي أعداء، أعداء حزب البعث هم أعداء شخصيين لي»[1].

حتى العاملون الذين تركوا العمل بالجهاز كانوا يخضعون للمراقبة، خاصة إن كانوا هم أو أحد أفراد عائلاتهم يرتبط بأية علاقة بالأكراد؛ أو أسرى حرب سابقين؛ أو أي أحد ممن له علاقة أو تصال بانتفاضة عام ١٩٩١ التي أطلق عليها بمصطلحات البعث «صفحة الغدر والخيانة»[2] ـ

=ديوان الرئاسة إلى جهاز الأمن الخاص: «طلب معلومات»، ١ نوفمبر ٢٠٠٠، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠٤.

(١) ملف شخصي للموظف أ.م، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠٢.

(٢) بمصطلحات حزب البعث كان مصطلح «صفحة الغدر والخيانة» يشير إلى انتفاضة عام ١٩٩١، ولم تكن سوى صفحة من سفر تاريخ حزب البعث.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والعاملون الذين صرفوا من الخدمة في الجهاز؛ وأولئك الذين لهم علاقات بحركات سياسية أخرى[١].

وفي تقرير دائرة الشؤون الأمنية المذكور سابقاً، سجل كاتب التقرير سببين لنجاح عمليات جهاز الأمن الخاص: الولاء المطلق المرتكز على القرابة والامتيازات المادية التي يتمتع بها العاملون بالجهاز[٢]. اعتمد هذا التحليل الصريح على حقيقة واضحة الدلالة من أصول مديرين مختلف الأقسام وكثير من العاملين في أقسامهم، وهو أنهم ينتمون لعدد محدود من العائلات والعشائر الموثوق بولائها وكانت تتصدر الموالين في الاختبارات. كان رؤساء الأقسام التسعة المهمة (باستثناء قسم الأبحاث وقسم الرأي العام)، بالإضافة إلى مدير مكتب قصي بن صدام، ينتمون إلى خمس عشائر معروفة وعائلات ممتدة. وفي عام ٢٠٠١، كان رؤساء الأقسام العشرة مكونين من ثلاثة تكارتة، وأربعة ناصريين (نسبة للبو ناصر) وواحد دوري، وواحد آلوسي، وواحد عجيلي[٣]. كان كثير منهم يرتبطون بعلاقات قرابة؛ على سبيل المثال، كان رئيس جهاز المخابرات الخاصة فرع الأمن ابن خال قصي. وتظهر بيانات ١٢٩ من كبار العاملين في دائرة الشؤون الأمنية نفس الميول القرابية كما يظهر من الجدول رقم ٤.

---

(١) فرع الأمن بجهاز الأمن الخاص: «دراسة حول مراقبة ومتابعة المتقاعدين والمبعدين»، ٢٥ أكتوبر ١٩٩٩، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠٢.

(٢) إدارة الشؤون الأمنية، جهاز الأمن الخاص: «دائرة الشؤون الأمنية من وجهة نظر شخصية»، ١٣ أكتوبر ١٩٩١، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠٣.

(٣) إدرة جهاز الأمن الخاص: «جدول المناوبات الخاصة من الإدارة للأقسام للفترة من ٢١ يوليو ٢٠٠١ حتى ٣٠ يوليو ٢٠٠١»، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠١.

تكريتي	دوري	ناصري	عجيلي	عزاوي	حديثي	متنوع(*)	إجمالي
٣٣	١٣	٣٦	٤	٤	٤	٣٥	١٢٩

جدول رقم (٤): الانتماءات العشائرية لكبار رؤساء أقسام دائرة شؤون الأمن، جهاز الأمن الخاص.

وعلى الرغم من أن الاعتماد على العائلات والعشائر ذات الصلة الوثيقة بالنظام كان ضرورياً من أجل الحفاظ على السلطة، إلا أنه كان يمكن أن يصبح أحياناً خنجراً ذا حدين؛ بمجرد أن تعتبر عشيرة معينة أقوى مما يجب أو تشكل خطراً، كان على السلطات أن تخلي النظام من أي عضو ينتمي لتلك العشيرة. وفي وقت ما من عام ١٩٩٦ صدر أمر بفصل أي عضو في الجهاز ينتمي لعشيرة العاني. ونتيجة لذلك، تم وضع ثمانية عشر فردا من الحرس الجمهوري الخاص، وواحد وسبعين فردا من الحرس الجمهوري تحت المراقبة من قبل السلطات الأمنية، غير أن السجلات لم تخبرنا ماذا حدث لهم بعد ذلك[١]. ذات المصير وقع على «الجنابي» وكثير من عشيرته، سواء كانوا بالجيش أو بأجهزة المخابرات[٢]. من ذات المنطلق، يبدو أن قيادة جهاز المخابرات

(*) ضمن المتنوعات كان يوجد اثنان ينتمون إلى عشيرة العبيدي واثنان ينتمون لعشيرة القيسي.

ـ المصدر: ١ أغسطس ٢٠٠١، قيادة حزب البعث القطرية، ب ٠٠١ ـ ٥ ـ ٦(١٢٩ ـ ١٣٢).

(١) من مدير أمن جهاز الأمن الخاص إلى مدير جهاز الأمن الخاص: «طائفة»، ٤ يونيو ١٩٩٨، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠١.

(٢) انظر قصة اللواء كامل الجنابي في كتاب ويندل ستيفنسون: «وزن حبة خردل»: القصة الحقيقية للواء عراقي وأسرته أثناء أعوام الطغيان والاستبداد، طبعة ورقية (نيويورك، هاربر ٢٠١٠).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الخاصة كانت قلقة ومنزعجة من العدد الكبير للأشقاء العاملين في جهاز المخابرات الخاصة. فعلى سبيل المثال كان هناك أحد عشر زوجاً من الأشقاء يعملون في دائرة الشؤون الأمنية، وواحد وعشرون زوجاً من الأشقاء في فرع المركبات، وأربعة أزواج من الأشقاء في دائرة الاتصالات. وطبقاً لهذه الدراسة، تم نقل كثير من الأشقاء خارج الأقسام التي يعمل بها إخوتهم أو فصلوا نهائيا من جهاز الأمن الخاص[1].

كان تقرير دائرة الشؤون الأمنية صحيحا أيضاً في تحليله عن أهمية المكافآت في تحقيق نجاح المؤسسة الأمنية (ارجع للفصل السابع لمعرفة المزيد عن نظام المكافآت). أول وأهم تلك المكافآت أن كثير من العاملين بالجهاز خصصت لهم أراض وأتيحت لهم قروض ميسرة لبناء بيوت لهم. وأتيح لآخرين شقق سكنية مجانا أو بأجور مخفضة من قبل الجهاز مع خصم قيمة الإيجار المخفض من رواتبهم الشهرية[2]. كان سحب امتيازات السكن من بين العقوبات التي يوقعها الجهاز على الأعضاء لو حكم على أحد منهم بالسجن لخمسة أعوام أو أكثر. وعلى الرغم من أن امتلاك بيت أو الحصول على شقق منخفضة الإيجار في بغداد كان يعد من أعلى أشكال المكافآت، كانت هناك فوائد ومزايا إضافية. فكثير من العاملين بالجهاز كان بإمكانهم التسجيل في الجامعات بسبب انتمائهم للحزب ولجهاز الأمن الخاص، وفي كثير من الحالات

---

(١) من مدير فرع الأمن بجهاز الأمن الخاص إلى مدير جهاز الأمن الخاص: «أشقاء»، ١٧ مايو ١٩٩٠، القيادة القطرية لحزب البعث.

(٢) ملفات جهاز الأمن الخاص بها عشرات من تلك الملفات عن شؤون قيم إيجارية تدفع ونسب الخصومات. انظر على سبيل المثال، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠٤ ـ ٤ ـ ٤.

كان جهاز الأمن الخاص يدفع تكلفة التعليم[١]. ومن المزايا الأخرى السجائر المجانية أو إقامة الاحتفالات على نفقة الجهاز عند الاحتفال بختان أبناء العاملين[٢].

إضافة للتعليم النظامي الرسمي في الجامعات، كان على العاملين بجهاز الأمن الخاص الاشتراك في برامج تعليمية مهنية خاصة. كان هناك برنامج إجباري للعاملين بالجهاز على مختلف مستوياتهم ويسمى «حصانة أمنية» (اليقظة الأمنية)، وكان هذا البرنامج يتضمن أساليب حماية المستندات والوثائق بالإضافة إلى تعليمات عن كيفية التصرف إن فقد مستند أو وثيقة؛ وتعليمات عن «مكافحة التجسس»؛ وإجراءات معينة تحول دون «اختراق» الجهاز، ومثلما يحدث في كل برامج التدريب العسكرية وبرامج تدريب حزب البعث، كان العاملون يتلقون دروساً خاصة مستمدة من «وصايا القائد الرئيس»[٣]. من تلك الدروس أقوال مأثورة للرئيس مثل ما يلي: «لا يتسلل اللص للداخل إلا إذا كان الحارس نائما أو غافلا، وأنتم الحراس»؛ و«الدقة، آمركم بالدقة؛ الدقة في العمل»؛ و«أهم جانب في ضابط الأمن هو أن يحب عمله وأن يشعر أنه يمكنه أن يجيد في مضمار خبرته»[٤].

---

(١) من جهاز الأمن الخاص إلى كلية الحقوق بجامعة بغداد: «دعم طالب»، ١ أكتوبر ١٩٩٧، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠٢ ـ ١ ـ ٢.

(٢) إدارة جهاز الأمن الخاص، ١١ أغسطس ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠٢ ـ ١ ـ ٦؛ من مكتب فرع الشؤون الإدارية إلى كل الإدارات: «احتفال ختان»، ١٥ مايو ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠١ ـ ٥ ـ ٦.

(٣) من نائب مدير معهد تدريب الأمن الخاص إلى كل الإدارات، ٨ أكتوبر ١٩٩٣، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠١ ـ ١ ـ ٦.

(٤) من «الوصايا الأمنية للقائد الرئيس(حفظه الله)»، جمعت في ٢١ يوليو ١٩٩٤، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠٢ ـ ٣ ـ ٦.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

معهد الأمن الخاص، المسؤول عن تدريب ضباط جهاز الأمن الخاص، كان يقدم برنامج تدريب أساسي مدته ثلاثة أشهر يتكون من تدريبات أمن بدنية، وتأمين أشخاص، وتقنيات بحث ووسائل استخراج المعلومات من الأفراد العاديين[١] موضع الاشتباه. كان من ضمن التقييم السنوي إجراء اختبار لياقة بدنية، ويبدو أن كثيراً من العاملين لم ينجحوا فيه[٢]. إضافة لذلك، قرر المعهد في عام ١٩٩٥ أن على كل العاملين بجهاز الأمن الخاص أن يتعلموا السباحة[٣].

لم تكن كل البرامج التعليمية قاصرة على الأمن واللياقة البدنية، فمن المثير للاهتمام، أن الضباط الحاصلين على درجة جامعية كانوا يشجعون على نيل برنامج تدريبي لمدة عشرة أيام في الباراسيكولوجي (علم ظواهر علم النفس غير المفسرة علميا) لزيادة «خبراتهم في هذا المجال». ولسوء الحظ لا توجد وثائق تدل على سبب احتياج ضباط جهاز الأمن الخاص لدراسة الوجود وأسباب القدرات النفسية والحياة بعد الموت[٤]. والأقرب للاحتمال أن تلك المواد كانت تدرس لأنها كانت تدرس أيضاً بالاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية

---

(١) جماعة المسح العراقي، نوايا النظام الاستراتيجية، المجلد ١، صفحة ٩١.

(٢) في عام واحد وهو عام ١٩٩٥، فشل ٣٧٦ موظفا كبيراً في اجتياز اختبارات اللياقة البدنية، انظر القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠١ ـ ٢ ـ ٢. ومن المثير أن رؤساء الأقسام ومديري العموم تم استثنائهم من اختبارات اللياقة البدنية، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠١ ـ ١ ـ ٣.

(٣) من نائب مدير معهد الأمن الخاص لكل المدراء، ٨ أكتوبر ١٩٩٣، قيادة حزب البعث القطرية، صندوق ٠٠٢ ـ ٤ ـ ١.

(٤) من وزارة التعليم والبحث العلمي إلى إدارة جهاز الأمن الخاص: «برامج تعليم ما وراء الطبيعة»، ١٨ أغسطس ١٩٩١، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠١ ـ ١ ـ ٦.

كجانب من إعداد قوات الأمن بهما[١]. إضافة لذلك، كان كل من صدام حسين ومساعده المقرب عزة الدوري، يؤمنان بقوة السحر والدروشة[٢].

إضافة إلى المكافآت والتعليم، كانت مشاعر أولئك الذين يعملون في جهاز الأمن الخاص بالسلطة مذهلة ومسكرة. كان جهاز الأمن الخاص كلي الوجود والسلطة المطلقة. كانت له الكلمة النهائية في أي ترقية لمنصب رفيع أو الإقصاء من داخل النظام. على سبيل المثال، حين كان ضابط كبير في المخابرات العسكرية العامة على وشك الترقي لرئاسة الجهاز، قرر جهاز الأمن الخاص أن يهدر عليه تلك الفرصة وذلك بالغوص في كل ملفاته وفحص كل المعلومات التي جمعت عنه خلال حياته المهنية بأجمعها. ومن المؤكد أن ترقيته قد ألغيت[٣]. وبالفعل كانت سلطات جهاز الأمن الخاص تحيط بكل شيء؛ فالوثائق تشير إلى أن الجهاز كان متدخلا في تعيين الأطباء في المشافي والعلماء في الجامعات، وتخصيص الملكيات، والممارسات الدينية، والبحث عن الآثار، بل وحتى في «تعريب» المصطلحات اللاتينية[٤]. كانت المطالبات بجمع المعلومات والاستجابة لتلك المطالبات تكون الجانب

---

(١) انظر على سبيل المثال، جون رونسون: «المحملقين في الماعز» (نيويورك، سيمون وشوستر، ٢٠٠٩)، حول حاجة العقول الموهوبة إلى برامج خاصة في الجيش الأميركي. وقد تحول الكتاب إلى فيلم سينمائي.

(٢) مقابلة شخصية مع شخصين عراقيين: لواء في الجيش، ودبلوماسي كبير، ١٥ يونيو ٢٠١٠.

(٣) من مدير جهاز الأمن الخاص إلى الديوان الرئاسي: «نقل ضابط»، ١٢ يناير ١٩٩٦، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠١ ـ ١ ـ ٧.

(٤) انظر القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق وثائق ٠٠١ ـ ١ ـ ٧. في احتفالات تدشين=

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأكبر من ملفات جهاز الأمن الخاص؛ كان «عدم أمان الصفوة» يبدو كحقيقة ثابتة من أن المعلومات عن أي مسؤول كبير بالحزب وكبار ضباط الجيش يمكن أن تمرر في أي وقت للديوان الرئاسي[١]. حتى الوزراء كان عليهم أن يحصلوا على موافقة جهاز الأمن الخاص قبل السفر للخارج، وكانت ملفات أفراد أسر كبار رجال الجيش جاهزة على الفور عند الاحتياج لها لدى جهاز الأمن الخاص أو الديوان الرئاسي لاستخدامها ضد أي مسؤول يشك في معاداته للنظام في أي لحظة. كان ذلك ينطبق على أفراد عائلات من تم إعدامهم للتأكيد على أن قبضة النظام القوية[٢].

=بناء مشفى، أعد جهاز الأمن الخاص قوائم خاصة بالأطباء الإخصائيين الذين توصي بعملهم في ذلك المشفى: وكان ٣ من ٨ أطباء يحملون في أسمائهم لقب التكريتي وواحد الدوري. من جهاز الأمن الخاص إلى الديوان الرئاسي: «تسمية الأطباء الموصى بعملهم»، ٢ أكتوبر ١٩٩٤، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠١ ـ ٥ ـ ٣.

(١) انظر على سبيل المثال، طلب معلومات عن عضو كبير في حزب البعث من تنظيم الكرخ، ٨ مارس ١٩٩٤، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠١ ـ ٢ ـ ١.

(٢) القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق وثائق ٠٠٢ ـ ٣ ـ ٧. كان جهاز الأمن الخاص يقدم المعلومات للديوان الرئاسي عن شقيق «المجرم المقبور» وزير الصحة رياض ابراهيم حسين، الذي أعدم في يونيو ١٩٨٢ بعد أن جرؤ على تحدي صدام حسين أثناء الحرب ضد إيران واقترح أن يتنحى صدام عن السلطة. القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠٢ ـ ٥ ـ ٦. لمزيد من المعلومات عن تلك الحادثة إرجع إلى «تريب»: «تاريخ العراق»، صفحة ٢٣٦.

من وصايا الرئيس القائد صدام حسين (حفظه الله ورعاه):

لا تساو بين صديقك وعدوك، حتى لو حصل صلح مع الأخير، لكي لا يستهين عدوك بك.....

ويستخف صديقك بمعاني الصداقة وحقوقها.....

واعط كل واحد استحقاقه، على أساس وصفه.

قيادة فرع سعد بن أبي وقاص

الشكل (٦): أحد أقوال الرئيس صدام حسين.

ولا حاجة لنا للقول بأن امتلاك مثل تلك السلطات الهائلة أدى إلى إساءة استخدامها من قبل كثير من ضباط جهاز الأمن الخاص. كان بعض المواطنين لديهم ما يكفي من الشجاعة ما دفعهم إلى كتابة الشكاوى من إساءة استعمال أفراد الجهاز لسلطتهم، وفي كثير من الحالات كان الضباط ينالون عقوبات تأديبية. وحذر كل من صدام حسين وابنه قصي ضباط الأمن الذين كانوا يستغلون مناصبهم من إساءة استخدام السلطة قائلين: «لا تستغلوا اسم هذه الإدارة وتتباهون بصفتكم الوظيفية وتستخدمونها كأداة للهيمنة والتسلط»[١]. وعلى الرغم من أن كثيراً من تلك التجاوزات كانت تمر دون أن ينتبه إليها أحد، إلا أنه كانت هناك آليات موضوعة للالتزام بالانضباط وعقوبات للخروج عن الانضباط. كان العنصر الفاصل في الأمور يتوقف على إن كانت الشكوى

(١) من الوصايا الأمنية للرئيس ومدير جهاز الأمن الخاص، جمعت في ٢١ يوليو ١٩٩٤، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠٢ ـ ٣ ـ ٦.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تصل إلى علم صدام حسين ذاته أم لا؛ فإن حدث، فإن ذلك كان يبعث على الفور على تحري المشكلة بدقة.

في واحدة من الشكاوى، كتبت مواطنة أن أعضاء من جهاز الأمن الخاص دخلوا بيتها بعد منتصف الليل وضربوا ابنها، ثم عادوا مرة أخرى بعد بضع ساعات وضربوه مرة ثانية وأساءوا إليهم. ورفضت الشرطة التدخل في الأمر، وأدركت السيدة أنها مجبرة على الكتابة مباشرة إلى الرئيس. ومن المثير للانتباه بخصوص هذه المشكلة، وكما حدث مع شكاوى أخرى، تم التعامل معها بجدية لأن الشكوى المكتوبة كانت تطلب مقابلة الرئيس، وهذا ما يدفع عادة لتحريك الشكوى[١]. وتم تكوين لجنة خاصة للنظر في حالات ضباط يطلبون رشى من المواطنين، وتوصلت اللجنة إلى أن بعض الضباط قد اساءوا استخدام مناصبهم. وفي حالة أخرى، قامت وحدة من جهاز الأمن الخاص بالإغارة على ملهى يعرض أفلاما جنسية وصادروا الأفلام واحتفظوا بها لأنفسهم دون أن يسلموها للسلطات[٢]. كما قام أعضاء من جهاز الأمن الخاص ممن يحملون أسلحة فردية باقتحام ملاه ليلية بالمخالفة للقانون، مما دفع وزارة الداخلية للكتابة إلى جهاز الأمن الخاص تطلب منهم أن يكفوا عن تلك الممارسات[٣]. كان إطلاق النار في الهواء أثناء الحفلات من مظاهر اساءة استخدام السلطة؛ فبعد مباراة كرة قدم بين العراق واليمن، قتل خمسة أفراد وأصيب حوالي خمسين فردا، أغلبهم قتلوا

---

(١) من المواطن م. إلى الرئيس القائد (حماه وحفظه الله)، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠١ ـ ٣ ـ ٧.

(٢) جهاز الأمن الخاص، «تفاصيل اجتماع»، ١ ديسمبر ١٩٩٦، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠٢ ـ ٢ ـ ٦.

(٣) إدارة جهاز الأمن الخاص: : دخول النوادي الليلية، ٧ أبريل ١٩٩٣، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠٣ ـ ١ ـ ٥

وأصيبوا من جراء إطلاق أسلحة نارية من أفراد قوى الأمن[١] تعبيرا عن البهجة.

بالطبع، لم يكن أفراد جهاز الأمن الخاص وحدهم من يسيؤون استخدام سلطتهم في نظام حزب البعث؛ وتدل مذكرة على أن ضباط الحماية (وحدة الحماية الرئاسية الخاصة) كانوا يقتحمون الملاهي الليلية، ويضربون النادلين، ويجبرون مديري الملاهى على استدعاء مغنيات الملهى من بيوتهنّ في الثالثة صباحا ليغنين لهم بالقوة. وأمر صدام حسين بتشكيل لجنة لبحث تلك الأمور، والتي حكمت لاحقا على اثنين من الحراس الرئاسيين بالسجن لفترة قصيرة (لم تزد عن ثلاثة شهور) وفرضت غرامات مالية على آخرين[٢]. في حالة أخرى مختلفة، ادعت سيدة أن عدي بن صدام حسين قد اغتصبها، وعلى الرغم من تخصيص قطعة أرض لها ومنحها مبلغا ماليا من وزارة الداخلية، إلا أنها راحت تظهر أمام مبنى جهاز الأمن الخاص وتصيح بصوت عالى عن الإساءة الجنسية التي لحقت بها من عدي. وهنا، في هذه الحالة لم يتخذ أي إجراء لصالح المرأة وتم اعتقالها لـ «مهاجمتها» فردا من عائلة الرئيس وتم حجزها في مصحة نفسية[٣].

كانت هناك إساءات أخرى من، وفي، داخل المؤسسات الأمنية ذاتها؛ أحد المسؤولين ادعى في شكوى بعث بها لفرع البعث، بأنه أهين من ضابطه الأعلى وحرمه من الترقي بسبب وجود خلافات

---

(١) من الديوان الرئاسي إلى أمانة سر الحزب: «ظاهرة إطلاق النار في الهواء»، ٣٠ يونيو ١٩٩٣، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠٢ ـ ٥ ـ ٥.

(٢) من وزير الداخلية إلى ديوان الرئاسة: «هجوم»، ٨ سبتمبر ١٩٩٣، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق وثائق ٠٠١ ـ ٢ ـ ٢.

(٣) إدارة جهاز الأمن الخاص: «إهانة من مواطن»، ٢٠ سبتمبر ١٩٩٥، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠٢ ـ ٤ ـ ٣.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شخصية لا علاقة لها بالعمل[1]. كان على جهاز الأمن الخاص أن يخوض في إجراءات تنظيمية مقابل حوادث الفساد؛ والسرقة؛ وتحطيم كل قواعد الأمن، خاصة تجاوز إجراءات الأمن في الهواتف والاتصالات اللاسلكية؛ وعدم متابعة فحص وتحري حالات الفساد والتجاوزات. كانت التقارير التي تتلقاها المؤسسة عن إزعاج وتجاوزات العاملين بها مع جيرانهم بالأحياء التي يسكنون بها في الشقق منخفضة الأجر التي يشغلها الحزب وضباط جهاز الأمن الخاص تقابل هي الأخرى بالتأنيب والتعنيف والعقوبات[2]. كانت العلاقات الغرامية داخل المؤسسة من الأمور الأخرى المسببة لكثير من المشاكل؛ ففي إحدى الحالات، كان لموظفة تعمل بفرع الاتصالات العديد من العلاقات الجنسية بالضباط العاملين بالجهاز، وراحت بعد ذلك تبتزهم. وانتهت تلك المشكلة حين اعتقلت عارية وهي بصحبة ضابط بالجهاز في مكتبه. وعوقبت إداريا بتخفيض رتبتها ونقلها إلى وزارة الصحة، كما نقل ابنها، الذي كان يعمل أيضاً في جهاز الأمن الخاص إلى مؤسسة صناعات عسكرية[3]. وفي الحقيقة، في كل أسبوع، كان هناك معدل يصل إلى

---

(١) من فرع الفارس إلى مدير جهاز الأمن الخاص: «تقرير»، ٢٦ سبتمبر ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق وثائق ٠٠٢ ـ ٣ ـ ٧. ومن الغريب، تدعي الشكوى أن رئيس الشاكي لا يحب الناس المنتمين لتكريت وأن ذلك هو السبب في ممارسة التفرقة ضده.

(٢) انظر القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق وثائق ٠٠١ ـ ١ ـ ١، صندوق؛ وصندوق ٠٠٢ ـ ٥ ـ ٦. كانت مخالفة قوانين الهواتف والأجهزة اللاسلكية تقابل بقسوة شديدة من النظام، خاصة إن أجريت مكالمات غير مسموح بها بالقرب من القصور الرئاسية. انظر وثائق صندوق ٠٠١ ـ ٣ ـ ٧.

(٣) مدير فرع الأمن إلى مدير جهاز الأمن الخاص: «معلومات»، ٨ يناير ١٩٨٩، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق وثائق ٠٠١ ـ ٤ ـ ٤.

نحو خمسة عشر فرداً من المؤسسة يتم اعتقالهم لأسباب مختلفة من إساءة استعمال السلطة واستعمال القوة والعنف ضد مواطنين لأسباب شخصية[١].

كان تأثير جهاز الأمن الخاص يرجع في الأغلب لقدرته على استعمال المعلومات التي بحوزته ضد أعدائه. كل الخدمات الأمنية أدركت أن المعلومة قوة وأن من يتحكم بالمعلومة هو الأقوى ـ ومن ثم كان التركيز الكبير من كل الأجهزة مثل جهاز حزب البعث على جمع المعلومات، سواء من خلال المبلغين الذين يجندونهم أو بأي وسائل أخرى.

جمع المعلومات

من أجل اختراق ومراقبة نظام الدولة والسيطرة عليه، استغل نظام حزب البعث كل مصدر محتمل للمعلومات. كان من المفترض أن تساعد كل المكاتب والهيئات الحكومية أجهزة الأمن في جمع المعلومات. في اجتماع لمجلس الوزراء، أمر صدام حسين كل الوزراء أن يتعاونوا ويسهلوا أعمال الإدارات الاستخباراتية، وأن «يمدوهم بكل ما هو ضروري لتحقيق مهمتهم»[٢].

كان لدى النظام، وعلى وجه التخصيص لدى قائده صدام حسين

---

(١) انظر على سبيل المثال المؤشر الأسبوعي للاعتقالات الداخلية للأسبوع ٤ أبريل ١٩٩٠، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق وثائق ٠٠٣ ـ ٤ ـ ٧.

(٢) أمانة سر مجلس الوزراء للتعليم العالي والبحث العلمي: «الطلاب الذين يدرسون بالخارج»، ١٩ نوفمبر ١٩٩٨. المذكرة عن استخدام الطلاب الذين يدرسون بالخارج لجمع المعلومات ونسخت منها صور لكل رؤساء أجهزة الاستخبارات، القيادة القطرية لحزب البعث ٠٢١ ـ ٢ ـ ٧.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أفكار واضحة عن الأمن وجمع المعلومات: «على رجل الأمن أن يكون ملما وعلى وعي ببيئته المحلية التي يعمل بها، سواء كانت منطقة مستنقعات، أو جبلية أو مدينة، وعليه أن يجمع كل تفاصيل المعلومات، سواء كانت كبيرة أو صغيرة عن بيئته المحيطة به»[١]. وهناك مذكرة كتبت في شمال العراق تصف الوسائل والسبل لاختراق مختلف مستويات المجتمع لجمع المعلومات ومراقبة «الأعداء» ومؤكدة على أن ضابط الأمن بحاجة لأن يكون متعلما تعليما جيداً حتى يتمكن من امتصاص المعلومات من داخل الأطر السياسية، والاقتصادية، والعسكرية، والنطق الاجتماعية، وأن يفهم «التركيبة البنائية للأحزاب والحركات المعارضة داخل وخارج البلاد» و«كيف توظف وتضم تلك الحركات عناصرها وكيف تنقل المعلومات لأتباعها»، وأن ذلك يعد ضرورة حتمية لنجاح الشخصية الأمنية[٢]. في نطاق تلك الخطوط، يشرح مدير المخابرات العراقية النهج الذي يتوجب على من يعمل بالأمن أن ينهجه: كيف يختار مصدر معلوماته، وكيف يقترب منه، وكيف يوثق علاقته بذلك المصدر؛ والمواصفات المطلوب توفرها في شخصية ضابط الأمن، مثل فهمه للثقافة المحلية؛ وأهمية الصبر، والإصرار والمثابرة، وقدرته على العمل الجماعي؛ وأخيراً الاحتياج للتخصص[٣].

---

(١) من وصايا الرئيس القائد (حفظه الله) الأمنية. جمعت في ٢١ يوليو ١٩٩٤، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق وثائق ٠٠٢ ـ ٣ ـ ٦.

(٢) مسودة مذكرة كتبت في قرطاسية وزارة الزراعة والري في شمال العراق دون اسم كاتبها ولا اسم المرسلة إليه. ولا يوجد تاريخ أيضاً، على الرغم من أن الملف الذي عثر به على تلك المذكرة مؤرخ بتاريخ ١٩٨٨، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٠٧، صندوق ٠٢٥.

(٣) من المخابرات العامة العراقية إلى مديري قاعدة العمليات الميدانية: «تعليمات=

من الواضح، أن كل ضباط الأمن لم يكونوا على دراية جيدة بالجوانب السياسية والاقتصادية، وفي بعض الأحيان لم يكن بحوزة النظام ما يكفي من ضباط، كانت المواصفات تختلف. في إحدى الحالات، سمح مدير الأمن في السليمانية في بداية الثمانينيات بتعيين عناصر أمن في مختلف الإدارات الحكومية لمجرد أن أولئك العناصر أعضاء في حزب البعث بأقدمية خمسة أعوام على الأقل، ويتمتعون بسمعة طيبة، وبعلاقات جيدة في وظائفهم مع باقي زملائهم في الوزارة التي يعملون بها[1]. كان سبب تلك الندرة في ضباط الأمن ضخامة واتساع شبكة الأمن المطلوبة لكي تغطي كل الأقسام الحكومية، والمصانع، وكل منشأة صناعية بغض النظر عن حجمها؛ وتظهر قائمة لضباط الأمن في السليمانية مدى اتساع تلك الشبكة، حتى أن كثيراً من الإدارات والمصانع كانت تضم أكثر من ضابط أمن واحد[2].

كان أي مسؤول حكومي يتقاعس عن التعاون مع المؤسسات الأمنية يعامل معاملة سيئة ويوبخ رسميا، وتوضع بملفه تلك الوصمة السيئة. في حالة من الحالات، ، رفض مدير الثقافة الجماهيرية في السليمانية أن يمد ضابط الأمن بسجل العمالة الذي يضم أسماء كل العاملين في

=المخابرات العامة»، ٣٠ يوليو ٢٠٠٠، في كيفن وودز وجيمس ليسي «آفاق مشاريع العراق المستقبلية: صدام والإرهاب: رؤى من خلال وثائق عراقية مستولى عليها» (اليكساندريا: معهد التحليل الدفاعي، إنديانا ٢٠٠٧) الجزء ٢، صفحات٢٠٣ ـ ٢٠٧.

(١) من مدير أمن السليمانية لكل نواب رؤساء الأمن: «مواصفات ومتطلبات من ضباط الأمن»، ٣٠ أكتوبر ١٩٨٣، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٣٠ صندوق ١٤٧.

(٢) مدير أمن السليمانية: «تقييم ضباط الأمن بالمحافظة»، ٢١ فبراير ١٩٨٣، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٢٩، صندوق ١٤١.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قسمه. ونتيجة لذلك، تم تدوير مذكرات وتعليمات حتى تم استدعاؤه من قبل رئيس الأمن وتم تحذيره من تبعات تصرفه[1].

في نظر النظام، كان هناك كثير من الأعداء داخل وخارج العراق. وتعرف وثيقة من وثائق حزب البعث على الأقل ثماني حركات معارضة داخل البلاد، ومن تلك الحركات الحزب الشيوعي، والحزبان الكرديان (الحزب الديمقراطي الكردستاني والاتحاد الوطني الكردستاني، وحزب الدعوة، والأخوان المسلمون، وأي حركة ذات «غطاء ديني»، والجماعات التي انفصلت عن حزب البعث، وأي حركة تتظاهر وتدعي بأنها حركة «وطنية»[2].

وهكذا، كان النظام بحاجة لجمع كم هائل من المعلومات عن مواطني البلد. وبالتماثل الكبير مع النظام السوفييتي، استخدم نظام حزب البعث التعداد والإحصاء، والاستطلاعات المفصلة، وتنوعاً كبيراً واسعاً من الملفات الشخصية يسمح بتسجيل أدق التفاصيل عن كل فرد في العراق على وجه التقريب[3]. من بين التسجيلات الشخصية المستخدمة،

---

(١) من مدير أمن السليمانية إلى محافظة السليمانية: «معلومات»، ٢٥ نوفمبر ١٩٨٤، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٢٩، صندوق ١٤١.

(٢) أمانة سر الحزب: «إحصائيات عن الحركات الساسية المعارضة»، ١٦ يناير ١٩٩٠، القيادة القطرية لحزب البعث ٠٠٣ ـ ٣ ـ ٧ (١٨٧). هذه الاستمارة كانت جزءاً من المراجعة السنوية لأعضاء الحزب.

(٣) عن مناقشة جمع المعلومات في الاتحاد السوفييتي، إرجع لبيتر هولكويست: «عنف الدولة كتكنيك: مبدأ العنف في الشمولية السوفيتية»، في طبعة دافيد ل. هوفمان، الستالينية: القراءات الضرورية(مالدن، ماساتشوستس: بلاكويل، ٢٠٠٣)، صفحات ١٢٩ـ١٥٦. لاستعمال التعداد لمعرفة معلومات عن العائلات تحت المراقبة، انظر القيادة القطرية لحزب البعث ٠٠٤ ـ ٤ ـ ٣. وبافتراض أن كل مستخدم في القطاع العام له ملف يحتوى على كل تفاصيل حياته، استخدمت المؤسسات الأمنية تلك الملفات بتوسع شديد، انظر على سبيل المثال ملف مسؤول في خطوط السكك الحديدية يحتوى على=

الطلبات التي كانت تقدم لاستخراج بطاقة هوية، وعلى وجه التخصيص، شهادات الجنسية[1]، ووثائق عن أماكن العمل، والسجل التعليمي، وقوائم بعضوية الفرد في الاتحادات المهنية وعضوية النوادي الرياضية، والسجل الصحي، خاصة لأولئك الذين خدموا في الجيش أو في ميليشيات الحزب الموازية[2]. كانت المعلومات تجمع عن المواطنين من مختلف المستويات الاجتماعية، بمن فيهم أصحاب أكبر المناصب في النظام. ومن بين وثائق قيادة حزب البعث القطرية كان يوجد ملف سميك جداً لطه ياسين رمضان، وكان نائبا لرئيس الدولة في ذلك الوقت، وعضوا في مجلس قيادة الثورة، ومعاوناً مقرب جداً من صدام حسين طوال فترة وجوده على رأس السلطة. كان الملف يحتوي على ما يزيد عن ٣٠٠ صفحة يبدأ بالقرار الرئاسي الصادر عام ١٩٩٢ بمنح رمضان ثلاثة أوسمة شجاعة، كما يحتوي على تقارير وشهادات عن رمضان يرجع بعضها لطفولته وسيرة ذاتية له كان قد كتبها بنفسه[3]. لم يكن النظام يتردد في استخدام أي مصدر لا علاقة له بالحالة أو

=مئات من الصفحات من المعلومات عن عائلته، والتعليم، والعمل، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٥ ـ ١ ـ ٦ و٠٠٥ ـ ٤ ـ ٥.

(١) كل عراقي كان بحاجة إلى شهادة تثبت أصله، وبدون هذه الشهادة تغلق أمامهم أبواب العمل بالجيش والالتحاق بالجامعات. وعبر تاريخ العراق، استخدمت الحكومات تلك الشهادات لأغراض سياسية، ولم يتوان حزب البعث عن ذلك بل زاد عليه باستخدامه لاستهداف العراقيين من أصول إيرانية. لدراسة تفصيلية تاريخية عن المسائل الخاصة بالجنسية، إرجع إلى عبد الحسين شعبان: «من هو العراقي؟ إشكاليات الجنسية واللا جنسية في القانون العراقي والدولي» (بيروت، دار الكنوز للنشر، ٢٠٠٢).

(٢) من ملف مستخدم نقل من وزارة الصناعة والتصنيع العسكري إلى فرع الحزب في الأنبار. ويحتوي الملف على خمسين صفحة من الاستمارات؛ انظر «قائمة المستندات وأنواع المعلومات»، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٢ ـ ٤ ـ ٢.

(٣) «طه ياسين رمضان»، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٢ ـ ٣ ـ ٧.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالظرف؛ فعلى سبيل المثال، حين هاجم أعضاء في حزب الدعوة ضباطاً من الأمن بالقرب من النجف، كتبت وزارة الداخلية إلى الرئيس ذاكرة أنها طلبت من الطبيب الذي يعالج جروح أحد المهاجمين أن يصادق المعتقل الجريح وفي أثناء علاجه لجروحه يحاول الطبيب أن يحصل منه على معلومات عن باقي المهاجمين الذين لم يعتقلوا[١].

كان صدام حسين يفهم تماماً أهمية كل ما يمكن جمعه من المعلومات عن الأعداء المحتملين. وحين أرسل له مجلس قيادة الثورة تقريرا يذكر فيه أن ابن طارق عزيز (وكان طارق عزيز في ذلك الوقت وزيرا للخارجية وموضع ثقة الرئيس) يستغل منصب أبيه ويتفاوض مع شركات أجنبية (على الرغم من أن كثيراً من تلك التعاملات كان قد تم التصديق عليها من قبل وزارة الصناعة)، وكتب صدام حسين على هامش التقرير: «علم، لا يجرى استجواب للإبن، ولكن تجمع عنه مزيد من المعلومات»[٢]. وبعبارة أخرى، أدرك صدام حسين أن تلك المعلومات المدمرة يمكن أن تستعمل ضد طارق عزيز ذاته إن حاد ذات يوم عن ولائه المطلق للرئيس. شمل جمع المعلومات واستغلالها حتى الأطفال؛ ففي أحد الحالات، كان أطفال أربعة مسؤولين ممن يقطنون في شقق منخفضة الأجر يلهون على الدوام بالمصاعد، مما يتسبب في عطلها، وللعجب، أرسلت مذكرة من الديوان الرئاسي ذاته إلى وزارة المالية لخصم غرامات من مرتبات آبائهم[٣]. لذلك كانت تتدفق

---

(١) من وزير الداخلية إلى رئيس الجمهورية: «حزب الدعوة الرجعي»، ٢٠ فبراير ١٩٨٠، القيادة القطرية لحزب البعث ٠٢١ ـ ٢ ـ ٧.

(٢) من مدير جهاز الأمن الخاص إلى ديوان الرئاسة: «سري جداً وشخصي»، ١١ يونيو ١٩٩٥، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق وثائق ٠٠٢ ـ ٤ ـ ٥.

(٣) من الديوان الرئاسي إلى وزير المالية: «غرامة مالية»، ٤ سبتمبر ١٩٩٢، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠٤ ـ ٣ ـ ٦.

معلومات غزيرة من مختلف المصادر إلى المؤسسات الأمنية لدرجة أنهم اعترفوا في حالات كثيرة أنهم كانوا يعتقلون ويستجوبون أفرادا بالخطأ؛ وفي واحدة من المذكرات حث مدير الأمن ضباط الأمن بأن يكونوا أكثر دقة عند إجراء تحرياتهم قبل أن يندفعوا إلى اعتقال مواطنين أبرياء[١]. وبالطبع، وبطريقة غير مباشرة، ساعدت تلك الاعتقالات العشوائية والاعتقالات بالخطأ في رفع حالة الرعب والخوف والهلع لدى المواطنين وسيادة الإحساس بعدم اليقين في أي شيء.

استهلكت أنشطة الأكراد المعادية في شمال العراق كثيراً من طاقة وموارد قوى الأمن، خاصة خلال عقد الثمانينيات. وتحتوي الوثائق على مئات الملفات التي تصور في تعبيرات وصفية كيف كانوا يراقبون المشتبه بهم، واعتقالهم، واستجوابهم، وارسالهم للسجون والمعتقلات، أو حتى إعدامهم في سياق عمليات جمع المعلومات. كانت العمليات التي تقوم بها الجماعتان اللتان يقودهما البارزاني وطالباني، في داخل البلاد وخارجها، تشغل كثيراً من ضباط الأمن وجيوش مبلغيهم من جالبي المعلومات. كانت التحركات والاجتماعات التي تعقد من قبل كبار أعضاء الاتحاد الوطني الكردستاني والحزب الديمقراطي الكردستاني تلقى الأهمية القصوى، فقد ظل النظام في حالة حرب مع الأكراد على مدى أغلب الأعوام التي قضاها في الحكم[٢].

بالإضافة إلى مراقبة ومتابعة النشطاء المعادين للنظام، مثل الأكراد، كان النظام الأمني بحاجة لجمع المعلومات عن الاقتصاد، والدين،

---

(١) من مدير أمن أربيل إلى كل ضباط الأمن: «نقاط استرشادية»، ٢ يناير ١٩٨٣، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠١١، صندوق ٠٤٦.

(٢) انظر على سبيل، مركز شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٠٦، صندوق ٠٢١، صندوق ٠٢٢؛ والاتحاد الوطني الكردستاني، صندوق ٠٠١.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والتعليم (انظر الفصل الثامن)، وأخيراً وليس آخراً، عن العراقيين المقيمين بالخارج. في المجال الاقتصادي، احتاجت المؤسسات الأمنية، وعلى رأسها الأمن أن تعرف الاحتكارات السوقية، خاصة إذا تعلق الأمر باستيراد الغذاء وسوق العملة. ومن عقد الثمانينيات حتى غزو العراق في ٢٠٠٣، شكل التهريب عنصرا مهما من عناصر الاقتصاد العراقي، ومن ثم كان التركيز على جمع المعلومات عن السوق السوداء ومصادر التهريب[١]. فوق كل ذلك، أبقى النظام عينه اليقظة على الأنشطة الدينية؛ كانت هناك مراقبة دائمة على كل الأنشطة الدينية وأداء الصلاة في الجوامع للتأكد من أن لا أحد يتخطى حدود أداء الفروض الدينية. وصدرت مذكرة تطالب كل عناصر الأمن بعدم التهاون مع أعضاء الحركات الإسلامية، ولا حتى مع أولئك الذين تم التحقيق معهم وأطلق سراحهم[٢]. وتؤكد مذكرات الشيعة العراقيين أن السلطات البعثية استهدفت لا أعضاء حزب الدعوة فقط، بل استهدفت كل المؤسسات الخيرية الإسلامية الشيعية، والفعاليات الدينية، والتجمعات الاحتفالية الدينية[٣]. كان التعليم من المجالات الحيوية الأخرى التي تخضع للمراقبة، لكل من المعلمين والطلاب على حد سواء. ومرة بعد أخرى،

---

(١) من أمن شقلاوة إلى أمن أربيل: «تقرير اقتصادي أسبوعي»، ٤ نوفمبر ١٩٨٨، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الكردستاني ٠١٧، صندوق ٠٧١.

(٢) من مدير أمن أربيل إلى كل مديري أمن المحافظة: «تعليمات أمنية»، ٣٠ أغسطس ١٩٨٩، مركز وثائق شمال العراق والاتحاد الوطني الكرستاني ٠٠٥، صندوق ٠١٩. ملحق بالمذكرة دراسة عن بنية مكتب الثورة الإسلامية، وكانت حركة تدعو إلى تكوين نظام حكم إسلامي مماثل للنظام الإيراني.

(٣) صلاح الحديدي: «قبضة الهدى: حسين جالوخان، تاريخ ورحلة، الطبعة الثانية». (كربلاء: مركز الحديدي للدراسات والأبحاث، ٢٠٠٩)(صفحة ١٠٣.

نجد أن الوثائق تسجل كيف كانت تعد قوائم بأسماء المعلمين حتى أساتذة الجامعات من مستوى المدارس الابتدائية حتى المستويات الجامعية وكانت ترسل إلى المؤسسات الاستخباراتية لفحصها، على ضوء الأنشطة السياسية[١] التي يرأسها المعلمون. حتى الطلاب كانوا موضع فحص وبحث، وكثير منهم اعتقلوا بدعوى انتمائهم لأحد الفصائل المعادية للنظام[٢].

وشكل الأجانب هاجسا مخيفا في فكر السلطات طوال الخمسة وثلاثين عاماً التي قضاها حزب البعث في الحكم. الخوف من كل ما هو أجنبي، أو متأثر بالأجانب، لم يكن فريدا من جانب حزب البعث؛ حيث يشرح «فاكلاف هافيل» قائلاً أن النظم المماثلة لنظام البعث تظهر «أن صفاتها الأساسية تتمحور حول الإنكفاء على الذات»[٣]. سواء في رومانيا تحت حكم شاوشيسكو أو في العراق تحت حكم صدام حسين، فـ «أي فرد يرتبط بتنظيمات لها ارتباط بالخارج» كان يراقب مراقبة دقيقة لضبط «أي» سلوك خياني»[٤]. كان النظام العراقي يستعمل كثيراً مصطلح

---

(١) انظر على سبيل المثال قائمة بأسماء معلمي المدارس الابتدائية المعروضة من جهاز الأمن الخاص، من رئاسة جهاز الأمن الخاص إلى الديوان الرئاسي: «معلومات»، ٢٩ يوليو ١٩٩٢، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠٤ ـ ٢ ـ ٥.

(٢) انظر على سبيل المثال التحري عن ثلاث معلمات بشمال العراق، كلهن يدرسن في كلية المعلمين، ٢٤ أكتوبر ١٩٨٥، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٠٥، صندوق ٠١٦.

(٣) فاكلاف هافيل وآخرون، سلطة الضعفاء: مواطنون ضد الدولة في وسط أوروبا الشرقية، الطبعة الثانية (نيويورك إم إي شارب، ١٩٩٠)، صفحة ٣٠.

(٤) دينيس ديليتانت: «شاوشيسكو والأمن: القهر والعزل في رومانيا ١٩٦٥ ـ ١٩٨٩»، انطباع ثاني (لندن هارست ٢٠٠٦)، صفحة ٣٤١.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«شعوبية» للإشارة لغير العرب، ولكن بعد تمرد ١٩٩١ أصبح هذا المصطلح مشينا لمن يوصف به، وأصبح يستخدم في الغالب ضد الشيعة[١]. كان صدام حسين يوصم على الدوام أي معارضة سياسية بأنها «أجنبية» ويطالب بـ «إطفاء نيران الشعوبية والشيوعية» فكلاهما أجنبي. وكتب واصفا الحزب الشيوعي في كتابه «رجال ومدينة» قائلاً: «الشيوعية أجنبية: ففهد أصله فارسي، وكارل ماركس يهودي، كما كان لينين متزوجاً من يهودية[٢]. وهذا هو السبب في أن الاتحاد السوفييتي كان أول من اعترف بالكيان الصهيوني»[٣]. في نظر صدام حسين، كان السياسيون اليهود أو من يفكرون بأن يكونوا يهودا فاسدين جميعاً ولا يمكن الثقة بهم؛ كمثال لذلك عدم ثقته في بطرس بطرس غالي الذي كان سكرتيراً عاماً للأمم المتحدة (١٩٩٢ ـ ١٩٩٦) والذي كان قبل ذلك وزيرا لخارجية مصر خلال الفترة التي فاوض فيها السادات على توقيع اتفاقية سلام مع إسرائيل. وفي الحقيقة، لم تكن أم بطرس غالي يهودية كما أشاعوا وكما كان صدام مقتنعا، فقد كانت أمه مسيحية قبطية؛ ولكن زوجته هي من كانت يهودية بالفعل.

وبمجرد وصول حزب البعث للسلطة في العراق، راح يعبئ الجماهير بمشاعر الخوف من الجواسيس في جميع أنحاء العراق وحث الجماهير على أن تكون يقظة وحذرة وأن تبلغ عن أي فرد تشك في أنه يتجسس على العراق. كانت تكتشف مؤامرات على الدوام وتذاع من

---

(١) بنجيو: «كلمة صدام»، صفحات ١٠٣ ـ ١٠٦.

(٢) فهد هو الاسم الحركي ليوسف سلمان يوسف، وكان أول سكرتير عام للحزب الشيوعي في العراق. وكان فهد مسيحيا آشوريا، ومن غير الواضح لماذا أشار إليه صدام على أنه فارسي. وشنق فهد في عام ١٩٤٩ خلال حكم النظام الملكي الهاشمي للعراق.

(٣) صدام حسين: «رجال ومدينة»، صفحة ١٦٦.

خلال الإذاعة والتلفزة، وكانت الجماهير تؤمر بالحذر والحيطة من «الطابور الخامس» الموجود داخل البلاد[١]. وقال صدام حسين لمجموعة من أعضاء أحزاب البعث في أقطار عربية أخرى أنهم «اكتشفوا أن عدد العملاء الإيرانيين المتواجدين بين جماهيرنا وداخل جيشنا عددا لا يمكن الاستهانة به»، لأن العراق أصبحت ساحة كان يتقاتل عليها الأجانب للسيطرة على شعبها[٢]. كان التركيز على حماية البلاد من التأثير والنفوذ الأجنبي أو مراقبة العراقيين خارج العراق مثالا ممتازا على العلاقة الوثيقة والمتينة التي نسجت بين حزب البعث وكل المؤسسات الأمنية العراقية: فكليهما عمل على جمع المعلومات عن العراقيين المتواجدين بالخارج، وتجنيد الطلاب، ومراقبة أي نوع من أنواع التعاطي والتعامل مع أي أجانب.

كان الزواج من أجنبي أو أجنبية أو غير عراقي أو عراقية يرى من جانب الحزب والمؤسسات الأمنية على أنه يشكل خطراً (انظر الفصل الثاني الذي يعرض طلبات الموافقة والموافقات الأمنية التي كانت إلزامية على أي عضو). وشمل الحظر شبه الرسمي كبار رجال الدولة وكل العاملين بالأجهزة والإدارات الحكومية والوظائف الإدارية بالدولة؛ حتى أن مهندسا اختصاصيا بطيران الفضاء يعمل في معهد الطيران المدني فصل من عمله لزواجه من امرأة أجنبية، على الرغم من أنه كان عضوا نشطاً بحزب البعث وكان كذلك أيضاً خلال أعوام دراسته بالخارج[٣].

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن الشنق العلني للجواسيس في يناير ١٩٦٩، إرجع إلى مكية: «جمهورية الخوف»، صفحات ٤٦ ـ ٥٢.

(٢) صدام حسين: «مختارات»، الجزء ٣، صفحة ١٢٤.

(٣) من الديوان الرئاسي إلى أمانة سر الحزب: «صرف من الخدمة»، ٢٤ أغسطس ١٩٨٥، القيادة القطرية لحزب البعث، ١١٩ ـ ٥ ـ ٦.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لذلك كان من الطبيعي لنظام مصاب بالهلع من الأزواج الأجانب أن يمد تلك المهانة إلى كل من يسافرون إلى الخارج أو يتعاملون مع أجانب، كما كانت تفعل السلطة الستالينية في عهد ستالين بالاتحاد السوفييتي.

وبغض النظر عن المركز الوظيفي ولا المكانة الاجتماعية، كان على كل عراقي أن يخوض غمار الحصول على موافقة السفر للخارج قبل مغادرته للعراق. وسواء كانوا وزراءاً يحضرون مؤتمرات القمم العربية، أو مسؤولين كباراً يسافرون للخارج لعقد اتفاقيات، أو مسؤولين كباراً مدعوين من قبل حكومات أخرى، كان عليهم جميعاً الحصول على موافقات عديدة من مختلف المؤسسات الأمنية[1]. وبالفعل، كانت هناك قواعد صارمة فيما يختص بإرسال مندوبين أو مفوضين عراقيين للخارج، ومعهم كثير من الموانع والنواهي، مثل تجنب إجراء مكالمات هاتفية طويلة وأن يكون لدى أي منهم رقم هاتف واحد على الأقل لأحد أفراد المخابرات المرافقين لكل وفد رسمي للخارج. وتحت مظلة تلك الترتيبات والنظم، كان لا يمكن لأي امرأة عراقية متزوجة من أجنبي أن تدرج ضمن أي بعثة رسمية، كما كان يمنع أي عضو تم فصله من حزب البعث من تمثيل العراق على أي مستوى، كما كان يمنع أي فرد لديه «مشاعر عدوانية تجاه الحزب والثورة» من السفر ضمن أي وفد رسمي يمثل الدولة[2].

---

(١) انظر على سبيل المثال مذكرة عن الوفد الذي حضر الاجتماع الطارئ لوزراء الخارجية العرب في القاهرة، ١٥ ديسمبر ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠٢ ـ ٣ ـ ٧، فيما يخص موظف كبير، صندوق ٠٠٢ ـ ٢ ـ ٥.

(٢) من الديوان الرئاسي إلى كل الوزارات، مجلس التعليم العالي، البنك المركزي العراقي، هيئة السياحة، ودار منشورات الثورة: «وفود»، ١ نوفمبر ١٩٨٣، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٣٠، صندوق ١٤٧.

مُنع كثير من كبار المسؤولين الذين كانوا يشغلون مناصب حساسة قبل تقاعدهم من السفر؛ كما كان يحظر سفر مديري الأقسام الحكومية للخارج قبل مرور ثلاثة أعوام على تقاعدهم، بل حتى العمال اليدويون الذين يعملون في القصور الرئاسية والذين تركوا العمل بها كان عليهم الانتظار عاماً على الأقل قبل أن يسمح لهم بمغادرة البلاد، هذا إن كانت ملفاتهم لدى الأمن «نظيفة»[١]. كان على الطلاب العراقيين الذين يدرسون بالخارج أن يجتازوا فحوصاً أمنية دقيقة قبل أن يتلقوا موافقة الأمن على التقدم لوظائف حكومية أو قطاع الأعمال العام[٢]. كما أُمر العراقيون أيضاً «ألا يدخلوا في أي تعاملات تجارية أو مالية مع عراقيين يعيشون في الخارج لو كان لدى أولئك المقيمين بالخارج أية مشاعر عدائية تجاه العراق [أي تجاه النظام الحاكم]، ولو وجدت أية علاقة من هذا النوع، فعلى العراقي المقيم بالوطن إعادة النظر في مثل تلك العلاقات»[٣]. وأخيراً، لا يمكن لأي مسؤول حكومي الإقامة في مكاتب تمثيل الحزب في الخارج ولا في مقار الخدمات الدبلوماسية لو كان له أحد الأقارب (من أول أو ثاني درجات القرابة) يقيم إقامة مستديمة بالخارج[٤]. ويبدو أن صدام حسين ذاته كان ينزعج من كل ما

---

(١) من إدارة جهاز الأمن الخاص إلى المؤسسات الأمنية: «قواعد منع السفر»، ١٨ أغسطس ١٩٩٧، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق وثائق ٠٠٢ ـ ٤ ـ ٦. انظر أيضاً رسالة المرأة التي تعمل في قصور الضيافة، التي منعت بعد ذلك بثلاثة أعوام من مغادرة البلاد، المصدر السابق (٢١٣).

(٢) من ديوان الرئاسة إلى المخابرات العسكرية، الأمن وجهاز الأمن الخاص: «فحص وأمن»، ٢٦ يوليو ٢٠٠٠، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠١ ـ ٣ ـ ٧.

(٣) من الديوان الرئاسي لكل الوزارات، والمحافظات، والشؤون العامة: «التعامل مع العراقيين بالخارج»، ١٢ مايو ٢٠٠٠، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٤ ـ ٤ ـ ٣.

(٤) من أمانة سر الحزب إلى أمانة سر الفروع: «المرشحون للعمل بالخارج»، ١٤ أكتوبر ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث ٠٠٣ ـ ٢ ـ ٦.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

له علاقة بالخارج، حتى فيما يختص بالجوانب التي كان مستشاروه يرون أنها سترفع من قدر العراق في المجال الدولي. فعلى سبيل المثال، حين عرضت مجلة «فانيتي» للمعارض عام ١٩٩٨ أن ترسل أحد أكبر مصوريها لالتقاط صور لصدام حسين كجانب من موضوع عن العراق، تبنى الفكرة كل من مندوب العراق لدى الأمم المتحدة ووزير الثقافة والإعلام ورأوا فيها «فكرة عظيمة لإظهار الجانب الإنساني المضيء في شخصية القائد»، ورغم ذلك، ودون إعطاء أية تفسيرات أو مبررات، كانت الاستجابة من القصر الرئاسي مجرد رفض مقتضب ـ «لم نحصل على موافقة» ـ وأغلق الموضوع بذلك الرد[١].

وعلى الرغم من أنه كانت توجد تخوفات وشكوك تجاه العراقيين الذين يسافرون للخارج أو يتزوجون من أجانب، سخر حزب البعث إمكانياته المالية لتجنيد الطلاب العرب الذين يدرسون بالعراق. وراح الحزب مع الخدمات الاستخباراتية العراقية يراقب العراقيين بالخارج مراقبة حثيثة، خاصة الطلاب منهم. وداخل البنية التركيبية للحزب ذاته، كانت توجد «تنظيمات» خاصة للتعامل مع العرب والدول الأجنبية التي يعمل الحزب على أراضيها خارج العراق. وتظهر موازنة الحزب فيما يختص بالعمل خارج العراق في عام ١٩٨٨ مخصصات مالية للعمل في ٦٨ دولة خارجية، تراوحت من ٥٠٠ دولار أميركي لدول مثل البرتغال، والبرازيل، ونيجيريا وفنلندا، حتى ٣٧٠٠٠ دولار لدول مثل فرنسا و٨٥٠٠٠ لدول مثل المملكة المتحدة. ولابد من أن نؤكد على أن هذا التمويل شمل صيانة مباني وسيارات في كل موقع، هذا عدا كلفة تنفيذ العمليات ذاتها، مثل أعمال المراقبة[٢]. فضلاً على ذلك، كان

---

(١) قاعدة بيانات وزارة الإعلام، مراسلة في يوليو وأغسطس ١٩٩٨، ٠٠٣ ـ ١٠٣ إلى ١٠٩.

(٢) من مكتب تنظيمات الحزب خارج القطر إلى أمانة سر الحزب: «موازنة مقترحة لمكتب الحزب بالخارج لعام ١٩٨٨»، ١٣ فبراير ١٩٨٨، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٢١ ـ ١ ـ ٣.

الخط الفاصل بين أنشطة حزب البعث عن عمل السفارات أو العمليات الاستخباراتية خارج العراق غير واضح. ساعد الحزب على تنظيم زيارات للطلاب العرب للعراق؛ كان الحزب يدعو كل عام بضع مئات من الطلاب، أغلبهم من العالم العربي ولكن بعض منهم من دول آسيوية ودول أوربية ليكونوا ضيوفاً على الحكومة العراقية لتعريفهم بإنجازات النظام العراقي الحاكم[١].

كان لكل «تنظيم» مسؤولياته في التعامل مع دولة أجنبية معينة ومواطنيها. على سبيل المثال كان لتنظيم مصر مكتب بالقاهرة كان مسؤولاً أيضاً عن المواطنين والطلاب المصريين المقيمين بالعراق. كان هناك تأكيد قوي على اجتذاب الطلاب العرب للدراسة بالعراق. وتم تجنيد بعضهم في الحزب خلال دراستهم بجامعات العراق، فيما أصبح آخرون نشيطين في أحزاب البعث بالخارج وبذلك تمكنوا من قبولهم في مؤسسة التعليم العالي العراقية حتى لو كانت درجاتهم أقل من درجات القبول المطلوبة[٢]. ومن بين كل الطلاب العرب كان هناك القبول الأكبر للطلاب الفلسطينيين، وكان كثير منهم نشطاء جداً في التنظيمات الطلابية في الحزب[٣]. ولم يتردد الحزب في اتخاذ قرارات قاسية ضد الطلاب

---

(١) أمانة سر الحزب، «زيارات طلاب عرب للقطر»، ٣ مارس ١٩٨٤، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٢١ ـ ١ ـ ٥.

(٢) من قيادة تنظيم مصر إلى أمانة سر الحزب: «تشغيل طلاب عرب»، ١٥ يناير ١٩٩٠. في هذه المذكرة، اشتكى كاتبها من وجود ضغوط شديدة على الطلاب المصريين لقيد أسماءهم بالحزب؛ وإلا يرفضون من الالتحاق بالتعليم العالي. القيادة القطرية لحزب البعث، ١٢٨ ـ ١ ـ ٣. انظر أيضاً الملحوظة عن قبول طالب مصري الذي كانت درجاته أقل من المستوى المشروط: من أمانة سر الحزب إلى الديوان الرئاسي: «طلب»، ٥ يونيو ١٩٨٥، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٢١ ـ ٥ ـ ٥.

(٣) انظر الملف الخاص بتسعة طلاب فلسطينيين في مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٢٥، صندوق ١١١.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

العرب إن كانت هناك تقارير تدل على «عداء» تجاه البعث؛ وكثير منهم لم يسمح لهم بدخول العراق مرة أخرى بعد انتهاء عطلاتهم الصيفية، فيما اعتقل آخرون وتم استجوابهم عن أنشطتهم المعادية[١]. وفي واحدة من الحالات، اعتقلت السلطات عددا من الطلاب المصريين لتوزيعهم صورا لجمال عبد الناصر وحسني مبارك، بينما اعتقل طلاب فلسطينيون لكونهم أعضاء في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين[٢]. ومر الطلاب العرب النشطون بالحزب بذات الإجراءات التي يمر بها مؤيدو الحزب من العراقيين، وكانوا يؤمرون باتباع ذات محاذير السرية عندما يذهبون لبلادهم، وكان يطلب منهم الاشتراك في أعمال الدعاية ضد أنظمتهم لو تطلب الأمر ذلك[٣].

ونظم حزب البعث العراقي زيارات لأعضاء أحزاب البعث في الدول العربية الأخرى، لإطلاعهم على الخبرات والتجارب التي اكتسبها حزب البعث العراقي في نشر تعليمه السياسي وبناء مؤسساته. كان يطلق على هذا النوع من الدعوات اسم «المعايشة»، وكان الغرض منه زيادة التأثير

---

(١) من نائب مدير الأمن إلى وزارة الداخلية: «منع عودة طلاب عرب»، ١١ أغسطس ١٩٨٠. منعت المذكرة ١٢٦ طالبا من مصر، وسوريا، وفلسطين، والبحرين، والسودان، وتونس، ولبنان، واليمن، والمغرب من العودة لاستكمال دراستهم الجامعية بالعراق، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٢٥، صندوق ١١١.

(٢) أمن السليمانية ١٢ يوليو ١٩٨٦، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٠٤، صندوق ١١١.

(٣) انظر على سبيل المثال بعض التقييمات للطلاب اليمنيين في الحزب، في القيادة القطرية لحزب البعث ٠٠٦ ـ ٢ ـ ٢؛ ومذكرة للطلاب المغاربة عن احتياطات يجب التقيد بها عند العودة للمغرب، ٠٠٦ ـ ٢ ـ ٥؛ ومراسلة من عام ١٩٨٥ عن الطلاب السوريين الذين يعاونون في تخليد ذكرى «مذبحة حماة» و«جرائم النظام الأسدي(هكذا) في سوريا»، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٠٥، صندوق ٠٢٠.

على أحزاب البعث الأخرى في العالم العربي، وسعيا لإضعاف حزب البعث السوري وتقوية البعث العراقي بصفته البعث الأصلي في العالم العربي[١].

لقيت أنشطة الحزب وأنشطة أجهزة المخابرات خارج العراق اهتماما كبيراً من القيادة[٢]. ويمثل التركيز على الأنشطة في سوريا مثلاً نمطياً على الخطوط المتداخلة والشائهة بين أعمال المخابرات العراقية وأعمال حزب البعث العراقي، وعلى ضوء العداوة بين الجناحين، العراقي والسوري لحزب البعث العربي والتي امتدت على مدى كل فترة الدراسة[٣]. وسعت الاستخبارات العراقية والسورية لزرع جواسيس وعملاء مزدوجين من كل منهما لدى النظام الآخر[٤]. كانت إحدى

---

(١) من الأمانة سر الخاصة لمكتب الرئيس للشؤون الحزبية إلى أمانة سر الحزب: «التعاون مع حزب البعث السوداني»، ٢٦ سبتمبر ١٩٨٨، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٢١ ـ ١ ـ ٣.

(٢) انظر على سبيل المثال حديث من صدام حسين لمجموعة من البعثيين يعملون متخفين في دولهم، أغسطس ١٩٨٣، المختارات، الجزء ٣، صفحات ١١٩ ـ ١٣١.

(٣) لتدهور العلاقة بين سوريا والعراق بعد ١٩٧٩ والمراقبة المتبادلة للأنشطة، انظر كاينل: «البعث ضد البعث»، صفحات ١٥٣ ـ ١٦٩.

(٤) انظر على سبيل المثال المراسلات المتعلقة بطالب سوري عائد لسوريا من دراسته في الاتحاد السوفييتي حيث تم تجنيده من قبل البعث العراقي. وكتب المجند تقريرا من دمشق عن عضو بعث عراقي يلتقي بفارين من العراق في العاصمة السورية. وطمأن الحزب العراقي المخابرات من أن هذه مؤامرة من المخابرات السورية لإثارة الشكوك عن عمليات الفرع العراقي للحزب في دمشق. انظر من مكتب الحزب في الاتحاد السوفييتي إلى أمانة سر الحزب، ١٠ نوفمبر ١٩٨٣، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٦ ـ ٢ ـ ٤. أظهرت وثيقة من عام ١٩٨٥ أنه كان هناك ١١١ طالبا سوريا في العراق نشطين في البعث العراقي على مختلف مستويات العضوية الحزبية، ٤٠ بالمائة منهم كن إناثاً. انظر القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠١ ـ ٥ ـ ٧.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الحيل التي يستخدمها النظام لاقتفاء أثر معارضيه وتتبعهم خارج البلاد كان يتم عن طريق تسجيل طلاب عرب لمراقبة اخوتهم العراقيين. وفي وقت ما، كان رؤساء اتحادات الطلاب العرب في بريطانيا وإيطاليا كليهما أعضاء كاملي العضوية في حزب البعث العراقي، ودل ملفَّاهما على ايمانهما بأيديولوجية الحزب[١].

من التكتيكات الأخرى المماثلة لتكتيكات كثير من النظم في جميع أرجاء العالم كان يتمثل في تعيين مسؤولين في سفارات الدولة في الخارج لا مهمة لهم إلا جمع المعلومات؛ وأحد الأمثلة من الوثائق يتعلق بنائب الملحق الإعلامي في تونس الذي سجل في مذكرته أن وظيفته الرسمية كانت «مجرد غطاء لتلافي شد انتباه السلطات التونسية»[٢].

وسواء تعلق الأمر بجمع معلومات عن أناس يعيشون في العراق أو عن مواطنين يعيشون بالخارج، كان على النظام أن يستعمل مصادر مهمة لجمع المعلومات بطريقة تجنيد المبلغين.

المبلِّغُون والوشاة

لم يكن العراق يختلف عن كل النظم المستبدة في اعتماده على المخبرين والوشاة والمتعاونين مع النظام لضمان ولاء الجماهير للنظام، وأضفيت مصطلحات مشجعة مثل «مؤتمن» و«متعاون» على من يزودون السلطة والأجهزة الأمنية بالمعلومات؛ وأحياناً ما كان الأفراد من الفئة

---

(١) أمانة سر الحزب: «ملف الرفيق هـ. س» و«ملف الرفيق أ.م»، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٢١ ـ ١ ـ ٤.

(٢) أمانة سر الحزب: «رسالة»، ٩ سبتمبر ١٩٨٥، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠١ ـ ٥ ـ ٧ (١٩٣ ـ ١٩٦).

الأخيرة يسمون «الأصدقاء». أغلب المبلغين كانوا يتقاضون مالا، على الرغم من أن بعضاً آخر كان يزود السلطات بالمعلومات على أساس من التبادل النفعي أو التعويض بشيء آخر، كما هو مشروح فيما سيلي. في العادة، كان ضابط الأمن يجمع المعلومات من المبلغين والوشاة ويرسل نسختين من تقريره لرئاسة المخابرات للعلم بما يتضمنه تقريره[١] واتخاذ ما يلزم. وقبل أن يسجل المبلغ رسميا في سجل المبلغين والمتعاونين مع النظام عليه أن يوقع أولا تعهداً كتابياً يقر فيه، بين إقرارات أخرى عديدة، أن كاتب الطلب يتعهد بحماية مبادئ حزب البعث؛ ويتعهد بعدم إفشاء إي سر أو أي مما يراه أو يعرفه أو يسمعه أو يقرأه؛ وألا يكشف أبداً عن حقيقة كونه مبلغا أو مخبرا أمنيا؛ وأن يزود المختصين بأي معلومات يجمعها أو يسمعها مما يعتقد أنه قد يؤثر على الأمن[٢]. وبمجرد إتمام التعهدات وكل إجراءات التعيين كمبلِّغ، يقوم الضابط المسؤول عن المبلغ أو المبلغة بكتابة تقييم أسبوعي يضم سبعة بنود: عدد التقارير المقدمة الخاصة بالإشاعات المثارة؛ التقارير المقدمة عن معلومات محددة؛ عدد «الأصدقاء» الذين تم اكتسابهم خلال الأسبوع؛ المبادرات التي ظهرت من «المؤتمن»؛ تعليقات وحكم ضابطه المباشر وضابط أمن الحي؛ وأخيراً، تقييم المبلغ أو المبلغة في المجمل[٣].

ولا توجد أية إحصاءات عن عدد المبلغين والمخبرين والمتعاونين،

---

(١) من أمن أربيل إلى إدارات الأمن بالمحافظة: «أنشطة»، ٦ مارس ١٩٨٨، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٠٥، صندوق ٠١٩.

(٢) انظر على سبيل المثال «تعهد» من مبلغ في شمال العراق، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٠٣، صندوق ٠٠٠٨، مبلغ من بغداد، في القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٧ ـ ٣ ـ ٥.

(٣) «استمارة تقييم أسبوعي»، ١ فبراير ١٩٨٦، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٠٢، صندوق ٠٠٤.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولم يكونوا جميعاً من تعيسي الحظ والفاشلين، ولا جميعهم من الأميين، ولا من المكرهين على تقديم المعلومات[1]؛ ويظهر الإطلاع على عشرات الملفات الخاصة بالمبلغين بوضوح أنهم ينتمون إلى طيف واسع المدى من الطبقات الاجتماعية والخلفيات التعليمية. وكان من الواضح أيضاً أن بعضهم قد دفع إلى أن يكون مبلغا مقابل موافقة حكومية يحتاجها المبلغ أو ترخيص حكومي لمنفعة ما؛ ففي واحدة من الحالات، وافق معلم على أن يكون «مؤتمنا» مقابل استلام ترخيص فتح مكتبة لبيع الكتب، بينما سعى خريج مدرسة تقنية للحصول على موافقة لشراء آلة نسخ مستندات لتقديم خدمة نسخ الأوراق للمكاتب التجارية. وربة منزل لم تحصل إلا على الشهادة الابتدائية فقط ولم تكن لديها رغبة في العمل كمبلغة فقط، بل تبرعت أيضاً بحليها الذهبية للمجهود الحربي خلال الحرب ضد إيران[2]. كان المبلغون ينتمون لديانات مختلفة وجنسيات عديدة (كان أغلبهم في الشمال من الأكراد)، كما كان بعضهم ينتمي لحركات سياسية معارضة وأصبحوا مبلغين تحت وطأة التهديد أو استجابة لإغراءات[3] مادية. كان التهديد يحدث إما أثناء استجواب قاسي عنيف الذي يتم بعد اعتقال العنصر أو بعد التلويح

---

(١) انظر على سبيل المثال مبلغ ذكره الخفاجي في مقاله، «إرهاب الدولة»، تقرير الشرق الأوسط، رقم ١٧٦، صفحة ١٦.

(٢) هناك ملفات عديدة عن المبلغين كانت في مركز وثائق شمال العراق، وبعضها في وثائق القيادة القطرية لحزب البعث، انظر على سبيل المثال مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٣٨، صندوق ٢٢٧، وهو ملف كامل كرس لهذا الموضوع.

(٣) انظر على سبيل المثال، كيف تم زرع مبلغ داخل الحزب الشيوعي في حلبجه عام ١٩٨٦، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٣٨، صندوق ٢٢٩؛ ومبلغ كان في الاتحاد الوطني الكردستاني وعاد للجبهة الوطنية وتمت إقالته وأعيد ليكتب تقريره من داخل زنزانته، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠١٧، صندوق ٠٦٩.

بإيذاء عائلته[١]. أحد الآباء انهار، وقدم معلومات عن ولديه اللذين تهربا من أداء الخدمة العسكرية الإلزامية وعن أربعة من أقاربه كانوا أعضاء في الحزب الديمقراطي الكردستاني[٢]. في بعض الحالات، كانت الضغوط تمارس على بعض العائلات ليجبروا أقارب لهم على العودة للعراق أو تسليم أنفسهم للسلطات[٣]. ولابد من ملاحظة أنه في بعض الأحيان، في نظم مثل نظام حزب البعث العراقي، كان إنكار وإدانة قريب أو زوج أو زوجة المخرج الوحيد المتاح لأي أحد يريد أن يعيش بمجرد أن يقع في أيدي قوات الأمن.

على أي حال، كان هناك مبلغون ينقلون المعلومات نتيجة اقتناع أن سياسات النظام صحيحة وأنه يجب دعمها والتعاون معها؛ ففي إحدى المناسبات، تطوعت ربة بيت بالمعلومات لأنها كانت تؤمن أن سياسات الاتحاد الوطني الكردستاني مؤذية ومضرة وضد صالح المنطقة[٤]. بعض المبلغين كانوا يتطوعون للإدلاء بمعلومات كنوع من الضغينة والانتقام ضد أصدقاء أو جيران أو لتسجيل موقف وهو ما كان يبدو متماثلا مع

---

(١) طلب من المبلغ أن يكتب تقريرا عن الحزب الديمقراطي الكردستاني وعلاقته بالحزب الشيوعي في شمال العراق. إضافة لذلك طلب منه إحضار أي بيانات مطبوعة يوزعها أي من الحزبين، انظر مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٠٨، صندوق ٠٣١. لم يحدد تقرير الأمن أي ضغوط كانت تمارس على عائلته.

(٢) من أمن أربيل إلى مكتب القيادة الأمنية، ٨ أكتوبر ١٩٨٥، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٠٨، صندوق ٠٣١.

(٣) في إحدى الحالات أجبر أب كردي من السليمانية على الاتصال بابنه في هولندا ليطلب منه العودة للعراق. انظر مدير أمن السليمانية: «معلومات»، ٢ أكتوبر ١٩٨٨، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٤٥، صندوق ٢٨٣.

(٤) رسالة من ب إلى أمن السليمانية، ١٩ يناير ١٩٨٨، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٣٨، صندوق ٢٢٧.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ممارسات أنظمة أخرى مثل نظام شاوشيسكو في رومانيا. أرسل مواطن مجهول الهوية خطابا إلى صحيفة الثورة (وهي صحيفة حزب البعث الرسمية)، وحولته الصحيفة بدورها إلى جهاز الأمن الخاص، كان الخطاب يبلغ عن علاقة تربط أحد العاملين بالقصر الرئاسي بحزب الدعوة، وأدي ذلك بجهاز الأمن الخاص بعد تحرى الأمر إلى وضع الموظف تحت المراقبة الدائمة[١].

ويجب أن نلاحظ أن في العراق، وهو يماثل تماماً ما كان يحدث في الاتحاد السوفييتي، كان المواطنون يحفزون لكتابة رسائل للصحف، فقد كانت تعد مصدراً مهماً للمعلومات عن الجوانب الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية في البلاد. وبالفعل، أسس عدي صدام حسين وحرر صحيفة يومية أسماها «بابل»، وأصبحت تشتهر بنشر رسائل من المواطنين يهاجمون فيها بيروقراطية الحكومة خارج النطاق السياسي، وكانت تنشر طالما لم تحتو على أي تلميح لنقد الرئيس أو القيادات العليا[٢]. وشارك صدام في تلك الفكرة وارتأى أن «أفضل مصدر للمعلومات الدقيقة» كان يأتيه من الاجتماعات المنتظمة التي يعقدها مع مواطنين عراقيين، والتي كانت تتم بشكل شبه يومي[٣].

---

(١) أدارة جهاز الأمن الخاص: «معلومات»، ٩ أكتوبر ١٩٨٩، القيادة القطرية لحزب البعث ٠٠٣ ـ ٤ ـ ٤. للمقارنة برومانيا، ارجع إلى ديليتانت: «شاوشيسكو والأمن»، صفحات ٣٩٢ ـ ٣٩٥.

(٢) لفهم كيف استغل الاتحاد السوفييتي هذه الخطابات، انظر شايلا فيتزباتريك «الستالينية اليومية: حياة طبيعية في أزمان غير طبيعية: روسيا السوفيتية في عقد الثلاثينيات، طبعة بغلاف ورقي» (مطبوعات جامعة أكسفورد، ٢٠٠٠) صفحة ١٦٥.

(٣) وزارة العدل الأمريكية، المكتب الفيدرالي للتحقيقات. «أحاديث صدام حسين لوكالة التحقيقات الفيدرالية» الفهرسة الأمنية القومية الأليكترونية، كتاب ملخص رقم ٢٧٩، ٢٥ فبراير ٢٠١٠. تم إجراء ٢٠ مقابلة وخمسة حوارات أجريت مع المعتقل رقم ١ خلال=

وإدراكا من نظام حزب البعث لأهمية المبلغين كمصادر للمعلومات، اتخذ خطوات مهمة لحماية عملائه وعناصره في أنحاء البلاد. وصدر قانون في يوليو ١٩٧٩، اسمه قانون حماية المؤتمنين في الدفاع عن الثورة، وعرف ذلك القانون المؤتمن بأنه «مواطن يعمل بأجر أو بدون أجر لأي من الوكالات الأمنية، طبقا لتوجهات تلك الوكالات». وحدد القانون المزايا التي يستفيد بها المبلغ، والتي شملت حقوق التقاعد المالية والتعويض عن أي عاهة أو نسبة عجز تحيق به أو الموت أثناء القيام بمهمته، وذلك في حالة تقييمه بأنه مفيد من قبل المؤسسة الأمنية المسؤولة عنه أو عنها. وطبقا للقانون، كانت توجد ثلاثة مستويات من دفع مقابل مادي للمبلغين؛ ويحدد مقدار الدفع في كل مستوى رئيس المؤسسة الأمنية[١]. وهكذا، نجد أن المبلغين لم يكونوا محميين فقط، بل يكافأون أيضاً ماليا، أو كما بينا فيما سبق، مقابل تراخيص أو موافقات على طلبات لمصالح عينية. بعض المبلغين الذين اعتقلوا من قبل «أعداء الثورة» تمت مكافأتهم بعد فك أسرهم، أو تلقت عائلاتهم إعانات خاصة لو كانوا قد قتلوا[٢].

=العام ٢٠٠٤ بعد اعتقاله على أيدي القوات الأمريكية. والاستجوابات التي أجريت مع صدام حسين تم إجراؤها من قبل عميل لوكالة التحريات الفيدرالية يعرف العربية هو جورج بيرو الذي كان يعد تقريرا عن صدام حسين لدرجة أن رئيس العراق السابق كتب قصيدة يشيد به فيها ويشكره ويعتبره ولده، انظر الحوارات العادية غير الرسمية، ١٠ مايو ٢٠٠٤.

(١) الوقائع العراقية، عدد ٢٧٢٠، ٩ يوليو ١٩٧٩، صفحات ٧٨٥ ـ ٧٨٨.

(٢) من إدارة جهاز الأمن الخاص إلى الديوان الرئاسي: «المواطن ر.»، ١ ديسمبر ١٩٩٥، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠١ ـ ٢ ـ ١. دلت المذكرة على أن امرأة كردية كانت متعاونة جداً مع جهاز الأمن الخاص أعتقلتها القوات الكردية وعذبت؛ ومن ثم تمت التوصية بتخصيص شقة سكنية لها لتعيش فيها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الغالبية العظمى من المبلغين كانوا يتلقون رواتب شهرية، وكانت تلك الرواتب تتناسب مع كفاءة أداء كل مبلغ وأهمية وحيوية المعلومات التي يتوصل إليها. وتضم محتويات مركز وثائق الشمال على وجه التخصيص عشرات من الملفات المتعلقة بمدفوعات المبلغين وإقراراتهم باستلام الدفعات الشهرية. وأغلب إيصالات الاستلام لا تحتوي على اسم المؤتمن كاملاً، وفي عديد من الحالات كانت تستعمل اسماء مستعارة أو منتحلة للمبلغين في المراسلات المتبادلة بين مختلف الدوائر الأمنية[١].

ومن المثير، أن نعرف أن ضباط الأمن المسؤولين عن المدفوعات للمبلغين كانوا أيضاً يوزعون رواتب مخاتير القرى في المناطق التي يعملون بها، مما يصور بوضوح الدرجة والمدى الذي تخللت فيه قوى الأمن والاستخبارات جميع مناحي الحياة في العراق[٢].

وكان لتزويد النظام بالمعلومات عن خصومه السياسيين أولية قصوى، وكانت كل الحركات السياسية في البلاد تدرج في قائمة الخصوم. كثير من الملفات كانت متخمة بالتقارير عن الأنشطة التي تمارس داخل تلك الأحزاب السياسية، وما ينشر من مطبوعاتهم، ومتابعة تحركات كبار شخصيات تلك الأحزاب. في كل الدول الواقعة تحت هيمنة نظام حكم ديكتاتوري تجد أن الحركات السياسية السرية مشتبكة على الدوام في نضال أعمى وخطير ضد اختراق قوى الأمن

---

(١) انظر على سبيل المثال، مركز وثائق شمال العراق، الحزب الديمقراطي الكردستاني ٠١٣، صندوق وثائق ٢١٤٣، والاتحاد الوطني الكردستاني ٠٤٤، صندوق ٢٧٩.

(٢) من أمن أربيل إلى كل الإدارات: «أجور المختارين والمؤتمنين»، ٢٦ سبتمبر ١٩٨٩، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٠٨، صندوق ٠٣١. وطبقا لواحدة من القوائم، كان اثنان وعشرون مختارا على قوائم مدفوعات الأمن.

لها، ولم يكن الأمر يختلف في العراق. فقد احتوت التقارير التي يقدمها المبلغون عن أعداء الدولة الذين أشرنا إليهم فيما سبق: الحركة الكردية بحزبيها الرئيسين (الحزب الديمقراطي الكردستاني والاتحاد الوطني الكردستاني)، والحزب الشيوعي، وحزب الدعوة، ومجموعات أخرى أصغر منشقة عن أحزاب، وأفراد آخرون مؤثرون ممن كانوا لا يؤمنون بأيديولوجية حزب البعث العراقي[١]. النشطاء السياسيون الذين يعتقلون ويرفضون الاعتراف كانوا يواجهون أحياناً بالمبلغين الذين أبلغوا عنهم، في محاولة لدفعهم للاعتراف[٢]. ومع إدراك أن النظام كان بشكل جوهري يقظا ومحترسا من التوجهات الدينية (انظر الفصل الثامن)، كان أي فرد أو جماعة تنتمي إلى أيديولوجية سياسية دينية أو معتقد إسلامي قوي يوضع أيضاً في دائرة الضوء تحت المراقبة الحثيثة؛ وكان المبلغون يكتبون التقارير عن رجال يرتادون الجوامع بانتظام ويوزعون كتبا دينية أو منشورات، كما كانت تفاصيل صلاة الجمعة ترسل في تقارير المبلغين إلى ضباط الأمن المسؤولين عنهم[٣].

التعامل أيضاً مع مشكلة المتهربين من الخدمة العسكرية، والذين ازداد عددهم بحدة طوال أعوام الحرب مع إيران ثم بعد ذلك في عقد التسعينيات كان من المشاكل الكبرى أيضاً ولعب المبلغون فيها أيضاً دوراً ملحوظاً، خاصة في تبليغ السلطات عن مكان المتهرب من الخدمة، وقد كانت مهمة

---

(١) انظر على سبيل المثال، تقرير عن عضو كبير بالحزب الشيوعي مرسل من مبلغ لأمن سرجنار في شمال العراق، ١٦ نوفمبر ١٩٩٠، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٣٠، صندوق ١٤٩؛ وتقرير عن أنشطة عدد من أعضاء حزب الدعوة في البصرة، ١٢ نوفمبر ١٩٨٦، القيادة القطرية لحزب البعث ٠٠٣ ـ ٢ ـ ٧.

(٢) الحديدي: «قبضة الهدى»، صفحات ١٢٤ ـ ١٢٥.

(٣) انظر على سبيل المثال، من أمانة سر الحزب إلى المؤسسات الاستخباراتية: «معلومات»، ١١ أكتوبر ١٩٩٢، القيادة القطرية لحزب البعث ٠٠٥ ـ ١ ـ ٢ (١٩٢) و(٣٠٧).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سهلة للمبلغين فقد كان من يبلغون عنهم من قاطني الأحياء أو القرى التي يعيش فيها المبلغون[١]. ولا حاجة بنا للقول، أن التهرب من أداء الخدمة كان يقابل بعقوبات قاسية جدا؛ في أحد الاجتماعات النسائية، قالت إحدى المشاركات «أي واحد يخدم في الجيش إنما هو شخص فاشل»، وعلى الفور تم الإبلاغ عن ذلك من إحدى الحاضرات[٢]. وبالمثل، كان أي سباب أو تحقير في أي حوار بين المواطنين للرئيس أو أسرته يتم الإبلاغ عنه على الفور من قبل المبلغين[٣].

الاقتصاد أيضاً كان من المجالات الخصبة في عمل المبلغين، فقد كان عليهم أن يبلغوا عن كل ممارسات وأعمال السوق السوداء أو ما يتعلق بها من أمور مثل تزييف العملة. وفي مثال يظهر طبيعة عمل المبلغ، اعتاد سائق تاكسي من بغداد أن يستدرج زبائنه للتحدث عن الشؤون الاقتصادية واكتشف المبلغون أنه ممن يتعاملون في العملات المزيفة وترويجها[٤]. أي تلاعب في أسعار الخضروات والفواكه كان يتم تسجيله من قبل المبلغين ويتم إرساله للضابط المسؤول عن الشؤون الاقتصادية[٥]. كان صدام حسين يؤمن بفكرة وجود المبلغين في كل

---

(١) فرع خالد بن الوليد، بغداد: «حادث موت هارب من الخدمة»، ٦ سبتمبر ١٩٩٢، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٣٣ ـ ١ ـ ٦(٠٧٤).

(٢) شعبة الكرادة: «تقرير»، ٢٠ أغسطس ١٩٩٢، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٥٥ ـ ١ ـ ٢ (٣١٣ ـ ٣١٤).

(٣) فرع خالد بن الوليد، بغداد: «حادث موت هارب من الخدمة»، ٦ سبتمبر ١٩٩٢، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٣٣ ـ ١ ـ ٦.

(٤) من ضابط أمن إلى الأمن: «معلومات»، ٢ سبتمبر ١٩٩٢، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٥ ـ ١ ـ ٢ (٣٠٩ ـ ٣١٠).

(٥) من أمانة سر الحزب إلى القيادة العامة للأمن: «معلومات»، ٢٢ سبتمبر ١٩٩١، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٥ ـ ١ ـ ٢ (٢٨١).

مكان؛ فعلى سبيل المثال، حين كتب أحد المواطنين لصحيفة يشكو من ازياد حالات سرقة السيارات، انزعج القائد بسبب عدم وجود أعداد كافية من المبلغين بين بائعي السيارات حتى يبلغوا عن السيارات المسروقة عندما تعرض عليهم[١] لشرائها.

أسندت أيضاً للمبلغين مهمة الإبلاغ عن الشائعات، فقد كانت الشائعات مصدراً مهماً للمعلومات لحزب البعث كأداة قياس لما يشعر به الناس حيال الأحداث الجارية[٢]. ومثل كل النظم الاستبدادية الأخرى، كان حزب البعث يجمع معلوماته عن الرأي العام من خلال «تجسس عملائه» على المواطنين سواء في الشوارع أو في المكاتب أو المحال التجارية[٣]. كانت مهارة المبلغين في تسجيل الشائعات المتداولة مطلوبة وضرورية عند تقييم عمل المبلغ أو المبلغة وتحديد قدر وقيمة المقابل المالي لكل كفاءة. بالنسبة لكل شائعة، كان على المبلغ أن يملأ استمارة خاصة بذلك يحدد فيها تفاصيل الشائعة، ومكان ومدى انتشارها، والتاريخ الذي بدأت به بالانتشار. ثم يقوم الضابط المسؤول عن المبلغ بـ «تحليل» الشائعة ثم يسجل توصياته بكيفية التعامل حيالها[٤]. كان من النادر أن يطلب من المبلغين نشر

---

(١) من أمانة سر الرئاسة إلى وزير الداخلية وأمانة سر الحزب، ٢٣ أغسطس ١٩٩٨، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٢١ ـ ٢ ـ ٧ (٦١٧ ـ ٦١٨). تعد هذه الشكوى دليلا إضافيا على أن النظام كان يتعامل بجدية مع الخطابات المرسلة للصحف. إضافة لذلك، كان تدخل صدام حسين يعد مثالا تقليديا على طريقة تدخله في دقائق وتفاصيل حياة المواطنين.

(٢) في مثال مثير للكشف عن شائعة كمصدر للمعلومات، إرجع إلى بيير دارليه: «صدام حسين سيد الكلمات: من لغة الطغيان إلى طغيان اللغة» (باريس لوهارماتان، ٢٠٠٣)، صفحات ١٣٥ ـ ١٤٣.

(٣) فيتزباتريك: «الستالينية اليوميّة»، صفحة ١٦٤.

(٤) انظر الملف، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٥ ـ ٣ ـ ٣ لعام ١٩٩٣، ويضم كثير من الشائعات، واستمارات تسجيل الشائعات، وتعليقات ضباط الأمن عليها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شائعات نيابة عن النظام، فقد كان ذلك أقرب لأن يكون من عمل الموالين للحزب الذين يعتمد عليهم في تنفيذ مثل تلك المهام بمهارة وعلى الوجه المطلوب.

في نظام مثل نظام البعث في العراق، كان كل مواطن على وجه التقريب مجبرا على أن يكون رقيبا ومبلغا عن غيره من المواطنين، لأن عدم الإبلاغ عن فعل أو عمل «مشبوه» يقوم به أي فرد، حتى لو كان فردا من عائلة المبلغ، كان يعد جريمة. أصبح المجتمع مغسول العقل في تصديق أن مراقبة المواطنين بعضهم لبعض هو الذي يحمي النظام من مؤامرات أولئك الذين يسعون لتدمير المجتمع وإنجازاته تحت قيادة حزب البعث. في قصة شيقة من أحد الملفات، نجد تقريرا لأحد العاملين المخلصين في جهاز الأمن الخاص من الذين شاركوا فيما يسميه الجهاز المهام السرية، ومنها المهام التي قام بها في الحي الذي يقطن به، وأبلغ في ذلك التقرير عن أخيه، الذي كان قد أرسل في بعثة لإنجلترا لدراسة هندسة الطيران، ولم يعد للبلاد على الرغم من إنهائه للدراسة وقال عن أخيه أنه تزوج من سيدة إنجليزية وأنجب منها طفلين. وتم وضع المواطن المبلغ تحت المراقبة، ولكن لم تكتشف أي علامات تدل على عدم الولاء. ورفعت المشكلة إلى مستويات أعلى، وقرر الرئيس صدام حسين أنه على ضوء حقيقة أن المواطن له قريب من الدرجة الأولى يعيش بالخارج وعلى الرغم من الولاء التام للعامل بجهاز الأمن الخاص المبلغ عن أخيه وسجله الناصع في خدمة الحزب وجهاز الأمن الخاص، إلا أنه يجب أن ينقل لعمل آخر خارج جهاز الأمن الخاص كما يجب أن يبقى تحت المراقبة من قبل قوى الأمن. وتحت ضغط من جهاز الأمن الخاص، كتب العامل بالجهاز إلى أخيه، يحثه على العودة إلى العراق ليخدم

بلاده، ولكن أخاه رفض العودة[1]. وتظهر لنا تلك الواقعة شيئين: كم من أفراد العائلات أجبروا على الإبلاغ عن بعضهم البعض والتبرؤ من بعضهم البعض لإنقاذ أنفسهم، وكذا مستوى الوسواس القهري الذي وصل إليه النظام من كل ما هو أجنبي ويحتمل أن «يفسد» حتى ضابطاً مخلصاً للنظام.

انعدام الإحساس بالأمان، وعدم معرفة ما يخبئه الغد، والخوف من المجهول من الظواهر التي سادت في العراق وفي كل النظم القمعية. وقد صور إجناتسيو سيلوني في كلاسيكيته الروائية المسماة «الخبز والنبيذ» ببراعة المناخ الذي كان سائدا في إيطاليا الفاشية في بدايات ثلاثينيات القرن الماضي قائلاً:

من المعروف أن للشرطة مخبرين في كل قسم من أقسام المصانع الكبرى، وفي كل بنك، وفي كل مكتب وإدارة كبيرة. في كل عمارة سكنية كان حارس العمارة بأمر القانون واشيا للشرطة. في كل مهنة، في كل نادي، في كل نقابة، كان للشرطة آذان وعيون. كان المخبرون يشكلون فيالق هائلة الأعداد، سواء كانوا يقومون بذلك مقابل أجور بائسة، أو يقومون به بأمل الحصول على ترقية وظيفية في مهنهم. وأدى ذلك المناخ إلى ارتفاع درجات التوجس والريب والظنون والشك وانعدام الثقة بين مختلف الطبقات الاجتماعية. وفي سياق ذلك التحقير لإنسانية الإنسان وتحويله إلى مجرد حيوان مذعور، يرتجف فرقا ويكره جاره وهو غارق في غمار خوفه، ويقوم هو الآخر بمراقبة جاره، ويخونه، ويبيعه، ثم يعيش خائفا من كشف ما عمله، ويراقب ترسخ الديكتاتورية. المواطن

---

(١) من مدير جهاز الأمن الخاص إلى الرئيس: «م.أ.»، ٢٢ يناير ١٩٩٠، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠١ ـ ٤ ـ ٤ (٠٧٢ ـ ٠٧٦).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التعس الذي شاء له سوء الحظ أن يخضع لهذا العار يدان لأنه يرغب في دوام الديكتاتورية.... المؤسسة الحقيقية التي يرتكز عليها النظام الحالي في البلاد ليست سوى التلاعب بالخوف[1].

ويرجع النجاح الكبير لنظام حزب البعث في البقاء على رأس السلطة لخمسة وثلاثين عاماً جزئياً إلى قدرته على زرع الخوف في نفوس المواطنين إلى درجة جعلت العراقيين يعتقدون ويؤمنون أن المخبرين والمبلغين والمتعاونين والوشاة موجودون في كل مكان. كانت المؤسسات الأمنية في العراق تمثل «حالة من حالات الفكر والعقل كأداة من أدوات رعب الدولة» ومماثلة لأجهزة أمن الدولة في رومانيا شاوشيسكو وجهاز الكى جي بي في الأتحاد السوفييتي[2]. وعلى ذلك فمن التضليل أن نعزو ذلك النجاح ببساطة إلى مجرد أنها كانت «جمهورية الخوف». فهناك عوامل مهمة أخرى مهمة أدت إلى استمرار احتفاظ نظام البعث بالسلطة لذلك الزمن الطويل، كما سنرى من الفصول التالية.

---

(١) إجناسيو سيلوني: «الخبز والنبيذ»، ترجمة جويندا دافيد وإريك موسباتشر (نيو يورك: هاربر وأخوته، ١٩٣٧)، صفحات ٢٦٠ ـ ٢٦١.

(٢) ديليتانت: «شاوشيسكو والأمن»، صفحة ٣٩٣.

الفصل الخامس

حزب البعث والجيش

تكون الجيش العراقي عام ١٩٢١ أثناء الانتداب البريطاني على العراق، وبحلول بدايات عقد الثلاثينيات فتحت الأكاديمية العسكرية البريطانية أبوابها لقبول أبناء الشريحة الدنيا للطبقة المتوسطة من المجتمع العراقي. ومنذ ذلك الوقت، أصبح الجيش أعظم فرصة متاحة لشباب تلك الشريحة الاجتماعية في التعليم وتسلق سلم المجتمع والسلطة. ولعب الضباط من أبناء تلك الطبقة دوراً سياسياً منذ ذلك الوقت المبكر، كما عبرت مختلف المعتقدات السياسية عن نفسها بين صفوف ضباط الجيش. وتركت الانتفاضة التي قام بها الضباط عام ١٩٤١ أثرا عميقا على زعيم المستقبل، صدام حسين، وأصبح أبطال تلك الانتفاضة بالنسبة له رموزا للوطنية والشجاعة. وعلى الرغم من أنه لم تقع أية انقلابات بين ١٩٤١ و١٩٥٨، لم تتوقف التفاعلات والأنشطة السياسية بين صفوف الجيش أبدا. وتلى الإطاحة بالنظام الملكي عام ١٩٥٨ انقلاب عسكري آخر في عقد الستينيات، وكانت كلها مدبرة من قبل ضباط الجيش[١]. وهكذا، نجد أن حزب البعث حين عاد للسلطة في

---

(١) للإلمام بالخلفية التاريخية عن دور الجيش في السياسة، إرجع إلى محمد طربوش: «دور=

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يوليو من عام ١٩٦٨، كان صدام حسين يدرك بوضوح المهمة العسيرة التي تواجه الحزب، فقد أصبح منع وقوع انقلاب عسكري جديد يحظى بأهمية مطلقة على قمة أوليات الحزب[١]. وفي عام ١٩٧١، قال صدام لصحافي بريطاني: «بأساليب ووسائل الحزب، لا توجد فرصة أمام أي أحد ممن يختلفون مع الحزب ليقفز على ظهر دبابتين ليطيح بالحكومة»[٢].

وهكذا، وفي مرحلة مبكرة، بدأ صدام حسين يتولى قيادة وتوجيه أساليب العمل على منع حدوث انقلاب عسكري على نظامه. وطوال العقد الأول من وجوده على رأس السلطة، قام بعمليات كثيرة للتخلص من أعداء نظامه[٣]. وبحلول بدايات عقد الثمانينيات المبكرة، وفي اجتماع المؤتمر القطري التاسع للحزب، تم التأكيد على أهمية تلك المهمة بوضوح:

لتأكيد قيادة الحزب للجيش، ونشر مبادئ البعث وفكر وثقافة القومية والاشتراكية بين صفوفه؛ لتقوية العسكرية وقيم المبادئ

=العسكرية في السياسة: دراسة لحالة العراق حتى ١٩٤١» (لندن: روتلدج وكيجان بول، ١٩٨٢)؛ وأحمد هاشم: صدام حسين والعلاقات المدنية العسكرية في العراق: إشكالية الشرعية والسلطة، «ميدل إيست جورنال»، المجلد ٥٧، رقم١ (شتاء ٢٠٠٣)، صفحات ٩ ـ ٤١.

(١) جيمس ت.كوينليفان: «منع الانقلابات: ممارستها وتداعياتها في الشرق الأوسط»، الأمن الدولي، المجلد ٢٤، رقم ٢ (خريف ١٩٩٩)، صفحات ١٣١ ـ ١٦٥.

(٢) دافيد هيرست: الإرهاب من تكريت، «الجارديان»، ٢٦ نوفمبر ١٩٧١.

(٣) أماتيزا بارام: «صدام حسين ونظام البعث والضباط العراقيون»، في طبعة باري روبن وتوماس أ. كيني «القوات المسلحة في الشرق الأوسط: السياسات والاستراتيجية» (لندن: فرانك كص، ٢٠٠٢)، صفحات ٢٠٨ ـ ٢٠٩؛ تريب: «تاريخ العراق»، صفحات ١٣٩ ـ ١٤٦.

والانضباط التي تمكن الجيش من تحقيق واجباته بكفاءة وبشكل مرضي؛ ولحمايته من الانحراف وارتكاب الأخطاء؛ وللتيقن والتأكيد على قيامه بانجازات صحيحة ومؤثرة لبناء الثورة وتحقيق الأهداف الوطنية[1].

وتواكب العمل على منع وقوع انقلابات، اختراق الحزب للجيش بمنظرين بعثيين. كان البعث يماثل النظم الشيوعية في الصين، والاتحاد السوفييتي، وكوريا الشمالية في إخضاعهم الجيش لسلطة الحزب الوحيد الحاكم. في جوهر الأمر، تحكم الحزب في الجيش باختراق نظامه بمفوضيه ومندوبيه السياسيين وبالتيقن من أن البعثيين الموالين للحزب فقط هم الذين يسمح لهم بالعمل في صفوف الضباط حتى أعلى قيادات الجيش. وعمل النظام على استخدام وتطبيق نظام معقد وفعال من المكافأة والعقاب، وذلك بمراقبة الجنود والضباط بصفة منتظمة وأيضاً بخلق جيوش موازية لتقليل تأثير الجيش النظامي. وسوف يتم شرح تلك الجيوش الموازية بالتفصيل في نهاية هذا الفصل.

المكاتب العسكرية

في متابعة حزب البعث لتحقيق هدفه من إحكام قبضته على السلطة والهيمنة على الجيش، كون الحزب المكاتب العسكرية بهدف اختراق الجيش والسيطرة على كل مناحي ومجالات الحياة العسكرية. وتخللت تلك المكاتب كل الوحدات عسكرية وكانت مسؤولة مباشرة أمام أمانة سر الحزب. كان تسلسل السلطة بين تلك المكاتب مماثلا تماماً لتسلسل السلطة في الحزب ذاته، وكان أولئك المنتمون للمكاتب جزءاً صميمياً

---

(١) «حزب البعث العربي الاشتراكي، التقرير المركزي للمؤتمر القطري التاسع، حزيران ١٩٨٢»، (بغداد، الحزب، ١٩٨٣)، صفحة ٢٠٠.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من التركيبة البنائية للحزب. وبالتطابق مع نظام روسيا الستالينية، طورت قيادة الحزب في العراق نظاما معقدا شديد التكامل والترابط من وسائل الهيمنة لاحتواء الجيش. وبالتماثل مع الجيش الأحمر الروسي، كان نظام الهيمنة يتكون من «سلطتين تعملان جنبا إلى جنب مع القيادة العسكرية النظامية المحترفة»[١]. إحدى السلطتين كانت مكونة من الكوادر السياسية العاملة بحزب البعث، بينما تكونت الأخرى من الهيئات الأمنية التي كانت مهمتها الأساسية اجتثاث الساخطين والمتمردين وعديمي الولاء للحزب. وقد سبق بالفعل في عام ١٩٧٤، أن سجل الحزب نجاحه في «تطهير الجيش من العناصر المشتبه بولائها والمتآمرة والمغامرة»[٢]. وعرف كتاب صدر لتخليد والاحتفال بالذكرى الستين لإنشاء الجيش العراقي المهمة المحددة لـ «الإرشاد والتوجيه السياسي» بأنها «للمساهمة في خلق فرد عراقي جديد في القوات المسلحة. فرد ثوري يؤمن بمبادئ الثورة، يعمل على تكوين ذاته والمحافظة على صفته كفرد كبعثي مناضل، وصاحب خلق ثوري متوافق، ويؤمن بأهداف وبمبادئ حزب البعث العربي الاشتراكي»[٣]. وقد وصف إريك لوردلنجر مثل ذلك النظام وسماه «النموذج الاختراقي»:

يحصل الحكام المدنيون على الولاء والطاعة باختراق القوات المسلحة بالأفكار السياسية... وبالشخصيات السياسية. وطوال فترة عملهم في الجيش يتشبع الضباط (وكل من هم مسجلون بالجيش) بشدة بالأفكار السياسية للحكام المدنيين. في الأكاديميات

---

(١) فينسود: «كيف تحكم روسيا»، صفحات ٤٨٩ ـ ٤٩٠.

(٢) حزب البعث، ثورة ١٧ تموز، صفحة ١٣٨.

(٣) وزارة الدفاع، مكتب التوجيه السياسي: «العيد الستون للجيش العراقي، ٦ يناير ١٩٢١ ـ ١٩٨١» (بغداد، منشورات الأديب، ١٩٨١)، صفحة ٦٨.

العسكرية، ومراكز التدريب، واجتماعات التلقين الجماعي، ومن خلال الحوارات الكثيرة التي تحدث في الوحدات العسكرية الأصغر ـ في تلك الأوقات والأماكن تبذل جهود مكثفة لتشكيل المعتقدات السياسية للعسكريين[1].

وتكاثرت تلك المكاتب وانتشرت كالفطر، وكما يظهر الملحق رقم ٢، أصبح هناك مزيد من الشُعب والفرق والخلايا في تلك المكاتب أكثر مما هو موجود في فروع الحزب السياسية في أنحاء البلاد، بما فيها بغداد. وبلغ عدد المنضوين تحت عمل تلك المكاتب التي تتخلل الجيش ما يربو على ٥٠٠,٠٠٠ في عام ١٩٩٠ ولكنه انخفض بعد ذلك حتى أصبح حوالي ٤٣٢,٠٠٠ بحلول عام ٢٠٠٢، وهو تقلص يصل إلى نحو ١٨ بالمائة. ويمكن شرح ذلك وتفسيره، كما ذكرنا سابقاً، بانكماش حجم الجيش بعد حرب ١٩٩١[2]. وعلى أي حال، وكما يدل ويشير الجدول رقم ٥، فإن عدد أولئك الملتزمين كليا (أعضاء وفرق وشعب) ازدادوا بشكل ملحوظ بين ١٩٩١ و٢٠٠٢، أما التقلص في العدد الكلي فقد حدث في الأغلب بين صفوف المؤيدين والمتعاطفين. ومرة ثانية، ننبه إلى أن هذا الجدول ليس دقيقا تماما، حيث أن كثيراً من البنود التي لدينا عن عام ٢٠٠٢ ليست متوفرة عن الفترتين الأخريين، والتي قد تفسر الفوارق الشاسعة بين الإجماليات المذكورة في الجدول رقم ٥ والملحق رقم ٢.

---

(١) إريك أ. نوردلينجر: «الجنود في السياسة: الانقلابات العسكرية والحكومات» (إنجلوود كليفس، نيوجيرسي: برنتيس هول، ١٩٧٧)، صفحة ١٥.

(٢) «البنية التركيبية للمؤسسات» القيادة القطرية لحزب البعث، ١٣٤ ـ ٤ ـ ٣. انظر أيضاً الملحق رقم ٢.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الجدول رقم (٥): التغير في أعداد المنتمين للحزب في المكاتب العسكرية بين الأعوام ١٩٩١ و٢٠٠٢

	١٩٩١	١٩٩٦	٢٠٠٢
الأعضاء	٣٣	٦١	٩٢
أعضاء الشعب	٣٣٧	٢٧٥	٧٨٢
أعضاء الفرق	١,٧٤٠	٢,٨٧١	٨,٢١٥
أعضاء متدربون	١٨,٤٤١	٢٨,٥٦٧	٧١,٣٤٢
مؤيدون	١٠٤,٤٨٠	٩٠,٣٣٥	٩٩,٥٥١
الإجمالي	١٢٥,٠٣١	١٢٢,١٠٩	١٧٩,٩٨٢

المصدر: أمانة سر الحزب، ٧ نوفمبر ١٩٩٦، القيادة القطرية لحزب البعث، ١٣٦ ـ ١ ـ ٥ (٠٠١ ـ ٠٣٦) والملحق رقم ٢

ورغم ذلك ما زال الجدول يعطينا فكرة عن التغيرات التي حدثت في المكاتب العسكرية بين عامي ١٩٩١ و٢٠٠٢. ويمكن أن نعزو النسبة العالية من المفوضين في الوحدات إلى سببين: الأول، بدأ كثير من المنتمين عملهم بالتطوع في العمل بالمكاتب العسكرية لتجنب أداء واجب الخدمة العسكرية الإجبارية؛ وثانياً، الكميات الهائلة المتداولة من التقارير الدقيقة والتي كانت بحاجة لكثير من العاملين لتصنيفها في ملفات في نظام بيروقراطي واسع المدى مما يحتاج إلى توظيف كثير من الإداريين. على كل الأحوال، استمرت الغالبية العظمى من أولئك المنتمين إلى المكاتب العسكرية في أداء وظائفهم المعتادة كضباط وجنود بينما كانوا مسجلين أيضاً في آليات وقوائم الحزب العسكرية. وبعبارات أخرى، علينا أن نميز ونفرق بين من كانوا يعملون كمفوضين متفرغين كل الوقت وباقي العسكريين الذين كانوا مرتبطين بالحزب بشكل أو بآخر.

كانت المكاتب العسكرية مماثلة لأجهزة الحزب الأخرى، أي تجري

انتخابات بصفة منظمة. وكما تشير المستندات بوضوح، كانت تلك الانتخابات تؤخذ بمنتهى الجدية من قبل الحزب، وأحياناً كان من يفشلون في تلك الانتخابات تخفض رتبهم. وعلى سبيل المثال، في انتخابات فرق البعث، والتي كانت جزءاً من فرع المكتب العسكري لليرموك، حضر مائة عضو من العدد الإجمالي ١١٥ الاجتماع، وترشح ٣٤ عضوا لاختيار أربعة مفوضين. كانت الغالبية العظمى من الأربعة وثلاثين مرشحا من الضباط ينتمون لمختلف الوحدات في الفرع، بينما كان الآخرون مجرد أعضاء في الحزب الذين وهبوا ألقابا ورتبا عسكرية[١]. ووضعت أسماء من لم يحضروا الاجتماع في قائمة خاصة منفصلة تضم أسباب عدم حضور كل منهم[٢]. ومن الصعب معرفة أن كانت تلك الانتخابات ديمقراطية أم أن أسماء الفائزين كانت محددة ومقررة سلفاً.

وعلى الرغم أن التركيز الرئيس الأولي للمكاتب العسكرية كان يتمثل في الاحتفاظ بعيون مفتوحة على القوات المسلحة والتيقن من استمرار إخلاصها وولائها لمبادئ الحزب، كان لهم مهام وأنشطة أخرى إلى جوار تلك المهمة الرئيسة. فقد أصبح محو الأمية المتفشية بين الجنود من المهام المهمة الموكولة لتلك المكاتب من منتصف عقد السبعينيات. كان الجنود يجبرون على حضور فصول محو الأمية، وافتتحت مكتبات في القواعد العسكرية. وأيقن حزب البعث أن مخزون التجنيد يمكن أن يتسع ويتعاظم بالقضاء على أمية المجندين، فقد كانت هناك كثير من الشكاوى من أن كثير من الجنود ممن لديهم دوافع سياسية قوية لم

---

(١) «إجراءات الانتخابات» القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ٣ ـ ١، ٣١ مايو ١٩٩٢.

(٢) «إجراءات الانتخابات لشعبة طارق بن زياد» القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ٣ ـ ١، ٣ يونيو ١٩٩٢.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يكونوا قادرين على اجتياز البرامج الحزبية التعليمية الخاصة لعدم إلمامهم بقواعد القراءة والكتابة[١].

كانت المكاتب متدخلة في جميع مناحي الحياة العسكرية. فأعضاء تلك المكاتب العسكرية كانوا يتواجدون ضمن أي تشكيل للجان عسكرية، وكان بإمكانهم انتقاد ضباط الجيش والقيادات العسكرية. في واحد من الأمثلة، أثناء الاختراقات التي حدثت من قبل الأكراد المعادين للنظام عبر الحدود مع إيران أثناء الثمانينيات، كتب الضابط المسؤول في المكتب العسكري في القوات المسلحة تقريرا لرئيس الأركان عن كيفية إيقاف الاختراقات وزيادة وسائل الحماية بالتعاون مع المؤسسات الأمنية الأخرى[٢].

ويؤدي هذا الموقف إلى إثارة التساؤل، وهو كيف وإلى أي مدى أثر أولئك «المفوضون السياسيون» على القرارات العسكرية الحاسمة والكبرى؟. في كثير من المقابلات الصحافية التي أجريت مع كبار القادة العسكريين، أشاروا جميعاً إلى أن ذلك كان يعتمد على العلاقة بين الضابط المحترف ومسؤول الحزب. في واحدة من الحالات، على سبيل المثال، كان المسؤول السياسي هو ذاته الضابط المحترف في جهاز المخابرات قبل الانضمام للمكتب العسكري للحزب وبذلك كان عنده احترام حقيقي للمهنية العسكرية[٣]. في حالات أخرى عديدة، كانت هناك احتكاكات، وكما هو مشروح في هذا الفصل، فإن العلاقة بين

---

(١) «محو الأمية في القوات المسلحة»، ١٥ أبريل ١٩٩٢، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ٤ ـ ٧ (١٢ ـ ١٣).

(٢) من أمانة سر المكاتب إلى رئيس الأركان، «تقرير اللجنة»، ١٥ ديسمبر ١٩٨٥، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٤٧، صندوق وثائق ٣٠٢.

(٣) مقابلة مع اللواء رعد الحمداني، ٢٩ نوفمبر ٢٠٠٩.

الحزب والجيش كان لها تأثير حرج خلال الحرب الإيرانية العراقية، بل وحتى أثر أكبر وأخطر خلال غزو العراق في عام ٢٠٠٣.

الكليات العسكرية وبعثنتها

للتأكد من بعثنة الجيش، ولمنع أية أيديولوجيات أخرى منافسة مثل الشيوعية من ايجاد موطئ قدم لها بين قطاع الضباط، كان نظام البعث يعلم أن عليه أن يسيطر على كل مؤسسات التعليم العسكري[١]. وكان صدام حسين يبذل أقصى التركيز والانتباه للتعليم العسكري وآمن إيمانا قويا بأن «القائد العسكري الذي لا يحوز معلومات عامة متنوعة وجوهرية عليه أن يبتعد عن كل المراكز القيادية»، وأن «التعليم العسكري جزء من منظومة التعليم العام»[٢]. كان هناك ازدياد كبير في الكتابة المادية للمبادئ والعقيدة وإعادة كتابتها بين ١٩٨٢ و١٩٨٧، وراجع صدام حسين بنفسه بالفعل كل مسودات العقيدة العسكرية. ومن داخل مجلس قيادة الثورة عين صدام حسين مشرفاً عاماً لكل أنواع برامج التدريبات العسكرية داخل الجيش لتتكامل تلك البرامج التدريبية ببعضها البعض، وأن يوجه التقارير عن ذلك إليه مباشرة.

وتقدم لنا وثائق القيادة القطرية لحزب البعث رؤية فريدة لكيفية قبول الطلاب في المؤسسة العسكرية بتشكيلاتها العسكرية المختلفة. كان على كل متقدم كالعادة أن يملأ كثيراً من الاستمارات والنماذج الاستبيانية حتى يحصل على الموافقة اللازمة والضرورية من مختلف أجهزة الأمن (وكانت موافقة جهاز الأمن الخاص هي الفيصل من بينها جميعا)، ويبقى القول الفصل في النهاية لآليات الحزب. تلك العملية من منظري

---

(١) هاشم: «صدام حسين والعلاقات المدنية العسكرية»، صفحات ١٦ ـ ٢٣.

(٢) صدام حسين: «المختارات»، الجزء ٦، صفحة ١٤١.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الحزب، كانت تتألف من ملء مقدم الطلب نماذج مفصلة تحتوي على ستة عشر سؤالا. أهم سؤال من بين تلك الأسئلة كان السؤال رقم تسعة: «هل تنتمي إلى أية حركة سياسية عدا حزب البعث العربي الاشتراكي؟» وفي نهاية الاستمارة، كانت توجد ملاحظتان: «١. كل من يخفي معلومات تتعلق بالسؤال رقم تسعة سيعاقب بإعدامه»، و«٢. كل من يدون معلومات زائفة في إجابته عن باقي الأسئلة سوف يفصل من الكلية»[١]. وبمجرد أن يكمل المرشح للكلية العسكرية تلك النماذج، تقوم أمانة السر العامة للحزب المسؤولة عن التدريبات العسكرية بإرسال تلك النماذج إلى الفرع المحلي للحزب الذي يسكن المرشح في نطاقه، طالبين التحري عن المرشح وعائلته (ميولهم السياسية، سمعتهم في منطقتهم السكنية، الارتباط بالحزب، وإن كان أي فرد من العائلة يحمل بطاقة «أصدقاء الرئيس»، إلخ). وعادة ما كان الحكم يأتي في صورة جملة بسيطة: «ليس لدينا ما يمنع من قبوله». ثلاثة من أعضاء الحزب عليهم أن يوقعوا على استمارة البيانات، لابد أن يكون من بينهم أمينا سر الفرقة والشعبة بالحي الذي يقطن به مقدم الطلب، إضافة لعضو الشعبة الذي دقق وحقق وراجع كل البيانات المدونة[٢]. في بعض الحالات التي يتم التأكد فيها من عدم دقة البيانات، تتكون لجنة تحقيق، وتتم معاقبة أعضاء الحزب الذين راجعوا ودققوا تلك المعلومات[٣].

---

(١) «نموذج استمارة التقدم للالتحاق بكلية صدام العسكرية»، ٤ مارس ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٨ ـ ٣ ـ ٢ (٠٠٤).

(٢) المصدر السابق، (٠٠٥ ـ ٠٠٦).

(٣) انظر على سبيل المثال، المراسلات التي تمت بين يونيو وسبتمبر ١٩٩٩ فيما يختص بكيف أخفى أحد المتقدمين وهو بعثي ملتزم حقيقة أن ابن عمه كان قد أعدم شنقا قبل أربعة عشر عاما. ونتيجة لذلك تم تشكيل لجنة تحقيق لمعرفة كيف مر هذا الأمر على فرع الحزب دون التحقق منه والمؤسسات الأمنية الأخرى، القيادة القطرية لحزب البعث ٠١٢ ـ ٣ ـ ٦ (٠٠٣ ـ ٠٧٦).

ومن المثير أن نلاحظ أنه في عقد السبعينيات وبدايات الثمانينيات قبلت تلك الكليات العسكرية بعض المتقدمين «المستقلين» الذين رأى الحزب أن قبولهم يمكن أن يكون «مادة صالحة للتحول»، أي تحولهم للإيمان بمبادئ الحزب، ولكن عند نهاية الثمانينيات، كل من لم يثبت أنه بعثي يتم إنكاره وفصله[١].

استمر الالتحاق بالمؤسسات العسكرية يعد أولية قصوى لكثير من العائلات وأبنائها، كما كانت تماماً قبل عهد حكم البعث. وتحتوي الوثائق على كثير من المناشدات من آباء بإعادة النظر في طلبات أبنائهم الذين لم يقبلوا بالكليات العسكرية على الرغم من أن كثيراً من أولئك الآباء كانوا ضباطاً بالجيش العراقي. كما أن كثيراً من أولئك الآباء كانوا قد شاركوا في معركة قادسية صدام(حرب الخليج الأولى) أو أم المعارك وهو الإسم الذي كان النظام يكنى به حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١، بل أن كثيراً منهم كانوا يحملون شارة «أصدقاء الرئيس» التكريمية. وفي الغالب، كانت أكثر تلك الطلبات قد رفضت نتيجة لدرجاتهم التحصيلية المنخفضة، أو لأن التنافس على كلية عسكرية معينة مثل كلية الهندسة العسكرية كان يتطلب الحصول على درجات عالية[٢]. كانت تلك المناشدات تعامل بجدية شديدة من كل المسؤولين، وكانت ترسل نسخ

---

(١) من مدير برامج التدريب العسكري إلى العضو الرفيق بالقيادة المناطقية والمشرف على برامج التدريب العسكري، ٢٣ أغسطس ١٩٩٧. في تقريره، أوصى المدير بأن اثنين من المتقدمين للأكاديمية البحرية من المستقلين سياسياً وأنه يجب رفض طلبات التحاقهم بالأكاديمية، على الرغم من استيفائهما لكل الشروط الأخرى المطلوبة، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ١ ـ ٤ (٠٠٤ ـ ٠٠٦).

(٢) القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ١ ـ ٦ ويضم كثير من المناشدات والمراسلات. إحدى المناشدات كانت من أم قتل زوجها في قادسية صدام، ولكن درجات ابنها كانت أقل من المستوى المطلوب.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

منها إلى وزارة الدفاع، وإلى الضابط المسؤول عن التعليم العسكري، وبالطبع، ترسل منها نسخة أخرى إلى أمانة سر الحزب. في بعض الأحيان كانت ضغوط بعض الآباء تؤتي ثمارها، وكانت القرارات تتبدل ويقبل الأبناء، بينما بالنسبة لأغلب الحالات الأخرى فقد كان من الصعب الاستجابة لها لأن الأماكن المتاحة كانت أقل كثيراً من أن تفي بكل طلبات الالتحاق. فوق كل ذلك، عند بداية حكم نظام حزب البعث، كان نظام تقييم المتقدمين، والأهم من ذلك، تقييم المرشحين، يتم بمساواة. ورغم ذلك، وبحلول عقد الثمانينيات، أصبح الولاء لحزب البعث هو العنصر الأهم والمحدد في تقييم المتقدمين. وبحلول عقد التسعينيات، تدنى مستوى نوعية المقبولين، وبالتالي مستوى ضباط الجيش، فقد انحدر المستوى بشكل ملحوظ، حيث لم يعد القبول والتخرج من الكليات العسكرية يعتمد على قدرات طلاب العسكرية وخريجيها ولا على الكفاءات الفردية.

ولما حمى وطيس المعارك ضد إيران، توسع الجيش العراقي بشكل هائل ـ فقد تضاعف أربعة مرات على وجه التقريب ـ خلال عقد الثمانينيات[1]، ووصل تعداده لما يربو على مليون فرد، ولكن عند نهاية عام ٢٠٠٢، كانت القوات الأرضية والأسلحة المعاونة قد تقلصت، وقدر العدد بأنه قد أصبح ٥٠٠,٠٠٠ فرد، باستثناء الاحتياطي[2].

كان بالعراق كليتان عسكريتان، واحدة للتدريب العسكري، وأخرى

---

(١) شهرام تشوبن وتشارلز تريب: «حرب إيران والعراق»، (بولدر سي أو: ويست فيو ١٩٨٨)، صفحة ٢٩٤.

(٢) انظر على سبيل المثال، تقدير عدد المليون عند ابراهيم المرعشي وسامي سلامة: «القوات المسلحة العراقية: تحليل تاريخي» (لندن، روتلدج، ٢٩٩٨)، صفحة ١٩٢. هناك بعض من قدروا في ليلة الغزو بأعداد أقل كثيراً، أي حوالي ٥٠٠,٠٠٠، بما فيهم من ١٢٠,٠٠٠ من قوات الحرس الجمهوري.

للهندسة العسكرية، وكلية للضباط الاحتياط، وجامعة البكر للدراسات العسكرية العليا. وتتكون الأخيرة من كليتين: كلية الحرب وكلية دراسات الدفاع الوطني. إضافة لذلك، كانت هناك أيضاً الكلية البحرية العسكرية وكلية القوة الجوية. كانت جامعة البكر العسكرية تعد واحدة من أهم جامعتين عسكريتين في العالم العربي (الأخرى في القاهرة)[١]. وعمل نظام البعث على التيقن من أن تلك الكليات يمكنها أن تتواءم مع احتياجات الجيش المتزايدة للضباط في مختلف التخصصات في الوقت الذي يحتفظ فيه النظام بقبضة قوية على التعليم العسكري المؤدلج.

وظل صدام حسين يضغط لتحسين مستوى الدراسة في تلك الكليات ولكنه استمر على التأكيد على عملية بعثنة الكليات العسكرية. فعلى سبيل المثال، حين لوحظ أن مستوى تعليم اللغة الإنجليزية بين ضباط الجيش قد تدهور جداً في مطلع عقد السبعينيات، بدأت على الفور برامج تعليم للغة الإنجليزية، وأمر الضباط بحضور تلك البرامج[٢].

في مقابلة صحفية مع ضابط كبير كان مسؤولا عن جامعة البكر عند نهاية عقد الثمانينيات، والذي كان يقوم بعد ذلك بالتدريس فيها كأستاذ للاستراتيجية والدفاع الوطني، أكد لي ذلك الضابط أن الحزب لا يتدخل في وضع مناهج التعليم لجامعة البكر العسكرية ولا للكليات العسكرية الأخرى، على الرغم من أنه كان مفروضا على كل الطلاب العسكريين أن يحضروا دورات في «التوجيه السياسي»[٣]. وعلى الرغم

---

(١) بيساتش مالوفاني: «حروب بابل الحديثة» (تل أبيب، معراخوت، ٢٠٠٩)، صفحة ٧٦٩. يعتمد هذا الكتاب الذي تزيد عدد صفحاته على ٩٠٠ صفحة في الأغلب على ما نشرته الصحف والذكريات المنشورة ويناقش بالتفصيل كل الحروب التي دخلها العراق.

(٢) «افتتاح برامج تعليم اللغة الانجليزية للضباط»، ٦ سبتمبر ١٩٧٥، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٠٨، صندوق ٣٢.

(٣) مقابلة مع الجنرال م.، ٣٠ نوفمبر ٢٠٠٩.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من احتمال أن الدراسات الاستراتيجية العسكرية لم تتأثر بتدخلات من الحزب، إلا أن التقارير الاستراتيجية كانت بالفعل متأثرة بالحزب. كان العميد رعد الحمداني، وهو ضابط محترف، يشعر بأن التأثير السياسي قد أدى في حالات كثيرة إلى طمر وإخفاء الحقائق الرئيسة في التقارير العسكرية لإرضاء القيادة السياسية. وقد ضرب مثالا بما حدث في عام ١٩٩٥، حين أعدت مخابرات القوات الجوية تقريرا تقر فيه أنها تعاني كثيراً بسبب العقوبات الدولية والحظر المفروض على العراق من بعد عام ١٩٩١، وأنه بحلول ١٩٩٦ سوف تصبح قدرة سلاح الطيران تقرب من الصفر. وأظهر التقرير الجديد البديل أن القوات الجوية تزداد قوة، وتم وضع بيانات تخيلية لتبرير التقرير المعدل[١]. ولا حاجة بنا للقول أن ذلك كان يرجع للشخصية الطاغية لصدام حسين وتدخله في الشؤون العسكرية.

صدام حسين قائداً عسكرياً

كانت علاقة صدام حسين بالجيش وضباطه علاقة شديدة التعقيد والتركيب. ومن الجدير بالملاحظة أنه هو ذاته لم يتم قبوله بالكلية العسكرية، وكانت عقدته النفسية التي ترتبت على فشله في الالتحاق بكلية عسكرية تدفعه إلى أن يكون نشطاً في حزب البعث من سن مبكرة في حياته. بعض الباحثين رأوا أن علاقته بالعسكريين كانت محكومة «بعداء داخلي»[٢]، وأن النظام البعثي كان متخوفاً من ضباط الجيش بعد وصوله للسلطة عام ١٩٦٨[٣]. وعلى الرغم من أن كلتا المقولتين

---

(١) رعد ماجد الحمداني: «قبل أن يغادرنا التاريخ»، (بيروت، دار العلوم العربية، ٢٠٠٧)، صفحات ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

(٢) هاشم: «صدام حسين والعلاقات المدنية العسكرية»، صفحة ٢٧.

(٣) بارام: «صدام حسين، ونظام البعث وضباط الجيش»، صفحة ٢٠٧.

صحيحتان، أيقن صدام حسين أنه لابد أن يكون لديه جيش قوي لتحقيق أهدافه في بناء دولة قوية في المنطقة. وبذلك، كانت العلاقة محملة بكثير من التناقضات. فمن جهة، كان يمكن لصدام أن يكون «منفتحا جداً ومرنا حين يتناول مواقف عسكرية صعبة»، ومن جهة أخرى، كان «لديه فهم محدود للأمور العسكرية أو ما يفضي إلى كفاءة فعالة في المؤسسات العسكرية»[١].

ولا يوجد شك في أن صدام حسين كان يرى في نفسه قائدا عسكرياً حقيقيا وموهوبا. وبعد أن رقى نفسه عبر كل الرتب العسكرية حتى وصوله إلى رتبة المهيب الركن وهي أعلى من أي رتبة في جيوش العالم، راح الحزب يبرز ويمتدح قدراته العسكرية وعبقريته العسكرية. واحد من تقارير الحزب أقر بأن «القائد صدام حسين نموذج فريد للقائد في هذه المعركة [الحرب العراقية الإيرانية]»[٢].

كرس صدام أغلب تركيزه واهتمامه على وضع صفات الزعيم. وعبر المجلدات العشرة لـ «المختارات»، التي تحتوي على خطبه وأحاديثه ومقابلاته مع مختلف الجماعات، بما فيهم جماعات ضباط الجيش، كان يصف بإسهاب ما الذي يصنع قائد عسكري بارع، وكيف يتصرف ويسلك القائد البارع، وكيف يتخذ القادة الناجحون القرارات، إلى آخر المواصفات[٣]. وبلا أدنى شك تصرف صدام حسين مؤمنا بأنه استراتيجي عسكري عظيم ولم يتردد للحظة في تحدي التقارير أو

---

(١) كيفن م. وودز، ويليامسون موراي وتوماس هولاداي مع منير الخامري: «حرب صدام، التوقعات العسكرية العراقية من الحرب الإيرانية العراقية»، ماكنير طبعة ورقية (واشنطن العاصمة: جامعة الدفاع الوطني، ٢٠٠٩)، صفحات ١٦ ـ ١٧.

(٢) حزب البعث: «التقرير المركزي للمؤتمر القطري التاسع»، صفحة ٢١٧.

(٣) انظر على سبيل المثال، صدام حسين: «المختارات»، الجزء ٦.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الدراسات العسكرية. وكتب إلى دائرة تطوير الأعمال الحربية، وانتقد بقسوة تقاريرهم عن «هجوم استباقي» لإجهاض هجوم مرتقب متهما التقرير بأنه مشوش ولا يرتكز على استراتيجية عسكرية صحيحة[١].

ولذلك كان كثير من جنرالات الجيش يرون أن صدام حسين ليس لديه أي فهم صحيح للاستراتيجية العسكرية، وأن «مركزيته تجاه ذاته كقائد سياسي امتدت إلى عملية اتخاذ القرارات الاستراتيجية العسكرية عندما جعل من نفسه القائد العام للقوات المسلحة، مع أنه لم ينل أي تعليم عسكري يسمح له بتبوؤ ذلك المنصب الفريد»[٢].

كان لدى صدام حسين أيضاً عادة الإدارة المصغرة، أي التدخل في صغائر الأمور، سواء فيما يختص بالعمليات العسكرية الكبرى أو القرارات الإدارية البسيطة. فعلى سبيل المثال، أرسل أمرا عسكرياً لكل الوحدات على جبهة القتال في الخطوط الأمامية أثناء الحرب ضد إيران يحدد فيه بدقة أبعاد الخنادق التي يجب حفرها[٣]. في مثال آخر، أصدر أمرا دون أي تفسير أو شرح من قبل وزير الدفاع، يأمر فيه على وجه التعميم كل الوحدات بأنه طبقا لأوامر القائد، لن يكون هناك إعادة تخصيص مهام أو نقل لأي فرد من الحرس الجمهوري لأي وزارة دون موافقة صدام حسين شخصيا أو جهاز الأمن الخاص[٤]. ويمكن أن نعزي طول بقاء صدام حسين وقوته إلى قدرته على تكييف نفسه بسرعة للتوافق مع المواقف الجديدة المتغيرة. ففي الثمانينيات، وبعد سلسلة من

---

(١) صدام حسين: «مراسلات لإدارة تطوير القتال»، ٢٥ ديسمبر ١٩٨٢، في المختارات، الجزء ٦، صفحات ١٢٩ ـ ١٣٥

(٢) الحمداني: «قبل أن يغادرنا التاريخ»، صفحة ٢٤٤.

(٣) مقابلة مع الحمداني، ١٠ يناير ٢٠١٠.

(٤) من عبد الجبار شنشل إلى ديوان القصر، ١٠ ديسمبر ١٩٩٠، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠١ = ٤ ـ ٤ (٠٥٥).

الهزائم المتتالية، سمح للعسكريين بمرونة أكثر في قيادة الحرب دون تدخل دائم من جانبه[١]. كان أيضاً يمتلك موهبة التعلم بسرعة، وفي حالات معينة كانت قراراته مفيدة بالفعل للقيادة العسكرية فيما يتعلق بالتوافق مع فقد الهيمنة والسيطرة على ميدان القتال[٢].

وفي جوهر الأمر، كان صدام حسين منشغلا على الدوام بهاجس خطر وقوع انقلاب عسكري أكثر من انشغاله بأي شأن آخر. فمنع خلال الحرب الإيرانية ـ العراقية، الجنرالات من التواصل المباشر مع القوات الجوية ك «أحد الأعمدة الرئيسة في سياسته المضادة لوقوع انقلاب»[٣]. هذا التخوف تكثف بشكل أكثر حدة بعد غزو الجيش العراقي للكويت وانتفاضة عام ١٩٩١[٤]. كان كبار الضباط الذين أجريت مقابلات معهم على الرغم من تأييدهم للحرب العراقية ضد إيران يشعرون أن غزو العراق للكويت كارثة حقيقية بالنسبة للعراق. وبعد عام ١٩٩١، تآكلت وتقلصت ثقة صدام حسين بجنرالات جيشه، بينما ازدادت ثقته بنفسه كقائد عسكري إلى درجة جعلته يصدر سيلا من التعليمات المبتذلة المعادة، وإصدار توجيهات

---

(١) هناك كثير من التفاصيل المستفيضة المنشورة عن الحرب الإيرانية العراقية، انظر ديليب هيرو: «أطول الحروب: الصراع العسكري الإيراني العراقي» (نيو يورك: روتلدج، ١٩٩١)؛ وودز وآخرون، ماكنير الورقية ٧٠؛ المرعشي وسلامة: «القوات المسلحة العراقية»، صفحات ١٢٩ ـ ١٧٣.

(٢) يذكر اللواء الحمداني التأثير الإيجابي الطيب لصدام حسين في ليلة ١٣ سبتمبر ١٩٨٢، حين تعرضت القوات العراقية لخسائر فادحة. وفي رأيه أن التأثير الشخصي لصدام حال دون هزيمة ساحقة كانت ستشكل كارثة كبرى على العراق، (قبل أن يغادرنا التاريخ، صفحة ٨٢).

(٣) المرعشي وسلامة: «القوات المسلحة العراقية»، صفحة ١٦٤.

(٤) لدراسة أوسع عن غزو الكويت وعملية صنع واتخاذ القرار، انظر كيفن م. وودز: «معركة أم المعارك: خطة صدام حسين الاستراتيجية لحرب الخليج الفارسي» (أنابوليس، إم دي: مطبوعات معهد القوات البحرية، ٢٠٠٨).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لعمليات التدريب العسكري[1]. وراح تشاوره مع المستشارين العسكريين يتلاشى وينحسر، خاصة بعد فرار حسين كامل من العراق عام ١٩٩٥. وفي أحد اللقاءات التي عقدت لمناقشة حرب الخليج الأولى التي وقعت عام ١٩٩١ والانتفاضة التي تلتها، كان حسين كامل منفتحا في الحوار إلى حد ما، ولكنه بالطبع برأ ساحة صدام من أي مسؤولية، قال: «أم المعارك بينت لنا مدى الضعف في القيادة العسكرية.... وهناك أيضاً القادة السياسيون الذين فشلوا بكل وضوح في القيام بمسؤولياتهم، حين طالبهم الرئيس بالمشاركة وتحمل المسؤولية»[2].

الثواب والعقاب

كانت سياسة العصا والجزرة مع الجيش وسيلة أخرى لإحكام قبضة حزب البعث على الجيش وتأمين بقاء النظام. كان تكتيك الترقيات والمكافآت يقابله على الجانب الآخر إيقاع عقوبات قاسية بمن يتضح عدم ولائهم للنظام (انظر أيضاً الفصل السابع). أغلب الترقيات والتعيينات في المناصب الرفيعة كان يعتمد على مدى الولاء السياسي أكثر من اعتماده على كفاءة الفرد. كان الأفراد الذين يخدمون صدام بإخلاص يرقون إلى أعلى المناصب القيادية بالجيش، فواحد مثل نائبه عزة ابراهيم الدوري، والذين عين نائبا للقائد العام للقوات المسلحة العراقية، لم يكن قد خدم في حياته في القوات المسلحة، أي لم يكن

---

(١) كيفن م. وودز، وميشيل ر. بيس، ومارك إ. ستاوت، ووليامسون موراي وجيمس سي ليسي، تقرير الآفاق العراقية: قيادة صدام العليا لعملية الحرية العراقية من القوات المشتركة للولايات المتحدة، تقرير قيادة القوات الأمريكية، إم دي، مطبوعات معهد القوات البحرية، ٢٠٠٦)، صفحة ٤٦.

(٢) شريط صوتي مسجل لمناقشة الدروس المستفادة من حرب ١٩٩١(لا يوجد تاريخ ولكن الأغلب أن ذلك كان عام ١٩٩٢)، مجلس قيادة الثورة العراقية.

عسكرياً محترفا. هناك ترقية أخرى سببت ضيقا ورفضا غير معلن من جنرالات الجيش العراقي وهي ترقية صدام حسين لابن عمه الثاني، حسين كامل، والذي أصبح بعد ذلك زوجا لابنته. لذلك كان هناك إحساساً سائداً ومنتشراً بالشماتة حين فر حسين كامل للأردن. وعلق وفيق السامرائي، المدير السابق للمخابرات العسكرية بأن ترقية صدام حسين لـ «أولئك الذين لا يتمتعون بكفاءات ويتصفون بضعف المستوى التعليمي وقلة الخبرات العملية» كان يعتمد كليا على الولاء والتملق والتزلف للقائد[١]. شجع صدام حسين المكائد التي انتشرت بين كبار قادة الجيش للتقرب من الرئيس والذين أصبح أهم تطلعاتهم التقرب من الرئيس لأن تحقيق علاقة وثيقة بالرئيس إنما كان يعني الفوز بترقيات ومناصب أعلى، ويترجم ذلك بشكل عملي بعد ذلك بمزيد من المكافآت والعطايا والهبات[٢]. وعلى الرغم من ذلك فإن بعض الترقيات اعتمدت على الإنجازات مثل المشاركة في المعارك أو القضاء على بعض أعداء النظام[٣]. ويحكي السامرائي كيف منح، وهو مقرب ومرضي عنه من صدام حسين بسبب نجاح جهاز مخابراته العسكري، سيارة مرسيدس جديدة غالية الثمن، ووسام (ومع الوسام انهالت مكافآت أخرى، انظر الفصل السابع)، كما خصص لجهاز المخابرات العسكرية مزيدا من الاعتمادات المالية لتوسيع عملياته[٤].

---

(١) وفيق السامرائي: «حطام البوابة الشرقية» (الكويت: مطبوعات القبس، ١٩٩٧)، صفحات ٣٩٣ ـ ٣٩٤.

(٢) المصدر السابق، صفحات ٢٢٨ ـ ٢٣٠.

(٣) مدير الأمن، محافظة السليمانية: «أمر إداري»، ١٠ أغسطس ١٩٨٠، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكرستاني ٠٤١، صندوق وثائق ٢٥٥. كان الأمر خاص بترقية رقيب ساهم في معركة أدت إلى مصرع خمسة «إرهابيين» والاستيلاء على أسلحتهم.

(٤) السامرائي: «حطام البوابة الشرقية»، صفحة ١٠٣. أصبحت السيارات الفارهة بعد ذلك من الهدايا الشائعة لكبار قادة الجيش.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شملت المكافآت زيادة في الرواتب الشهرية، وإسكانا فاخرا مزودا بكل وسائل الراحة، وفوائد أخرى لعائلات الضباط. وكان للركود الاقتصادي والتضخم آثاره السلبية السيئة بوجه عام على العاملين الذين يتقاضون رواتب وينتمون للطبقة الوسطى، وشمل ذلك جنود الجيش وصغار الضباط. في بعض دول العالم، تحدث الانقلابات العسكرية بسبب تحرك الجيش لحماية مصالح أفراده. ولم يكن صدام حسين على وعي ويقين بذلك فقط، بل كان أيضاً مهيمنا على تقديم المكافآت والحوافز للموالين من الضباط ولجيشه على وجه التحديد. ولما زادت حدة التضخم الاقتصادي وضاق الخناق على الشعب العراقي في عقد التسعينيات، وأصيب الاقتصاد العراقي بأضرار فادحة نتيجة لغزو صدام للكويت، رفع صدام رواتب الضباط وضاعفها عدة أضعاف لمواجهة التضخم الاقتصادي الحاد. وحين صدرت الأوامر بزيادة رواتب الجيش أو توزيع حوافز إضافية، كانت تلك القرارات يتصدرها أن القائد الرئيس هو من قرر ذلك وأمر به لا مجلس قيادة الثورة العراقية[1]. كان التقاعد أحد الأشكال الأخرى لإعطاء المكافآت: فرجال الجيش الذين كانوا نشطين بحزب البعث وكانوا أعضاء في قيادة الفرقة أو أعلى من ذلك يستثنون من سن التقاعد إلا إن رغبوا هم في التقاعد[2]. خصصت أيضاً مساحات من الأراضي الزراعية كهبات لكبار الضباط الموالين، وكانت أغلب تلك القطع من الأراضي الزراعية من أخصب وأجود الأراضي وكان بعض منها يقع مباشرة على ضفاف النهر[3]. كانت هناك أيضاً

---

(١) من مدير الديوان الرئاسي إلى وزارة الدفاع: «دخل مالي للقوات المسلحة»، ٣٠ ديسمبر ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠١ ـ ٢ ـ ٣)٢٤). قبل ثلاثة أشهر من غزو القوات الدولية للعراق زادت رواتب كل القوات المسلحة العراقية بنسبة ٢٥ بالمائة.

(٢) من مدير الديوان الرئاسي إلى وزارة الدفاع: «قرار»، ١٤ أغسكس ١٩٩٨، القيادة القطرية لحزب البعث ١٨٣ ـ ٤ ـ ١ (١١٨).

(٣) ملكية كثير من الممتلكات ظلت موضع صراع حتى بعد انتهاء حزب البعث العراقي، فقد=

فوائد ومزايا إضافية لضباط الجيش: فحاملي الرتب من رائد فأعلى من ذلك كانوا يتمتعون بميزة السفر الداخلي على خطوط الطيران الداخلية مجاناً[١]. كانت تخصص للضباط أيضاً مشتريات بالأجل من المحال الكبرى بضمان من الجيش، وأتيحت مزايا مماثلة لكبار ضباط الصف من الرتب ما دون الضباط.وعلى الرغم من قلق المخابرات من تصاعد وتراكم ديون شراء الضباط بالأجل، خاصة حسابات الشراء بالأجل من جانب كبار ضباط الصف، كانت المحصلة النهائية أن كثيراً من الضباط كانوا متخلفين عن دفع ديونهم[٢].

كانت أسر الضباط وعوائلهم من الجوانب الهامة في نظام المكافآت: فعند نهايات عقد السبعينيات امتد نظام الضمان الصحي للضباط ليغطي عائلاتهم أيضاً، كما شمل آباء الضباط وأشقائهم وشقيقاتهم الذين كانوا يعتمدون اقتصاديا في معيشتهم على إخوتهم الضباط. وشمل غطاء الضمان الصحي كل أنواع العلاج بل امتد احيانا لجوانب الفحوص الوقائية[٣].

أدرك صدام حسين أيضاً أن زيادة نفقات الدفاع قد يؤثر على الإحساس بالذات للضباط. وكما يشرح نوردلنجر، فإن جانبا من وسائل

=صودرت كثير من الممتلكات بسبب الاشتباه في تدبير أصحابها لمؤامرات أو لمعارضتهم للنظام ووزعت على الموالين.

(١) من الديوان الرئاسي إلى وزارة الدفاع: «السفر داخل العراق»، ١٦ أغسطس ١٩٧٥، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٠٨، صندوق ٣٢.

(٢) مدير المخابرات للمنطقة الشمالية إلى كل فروع المخابرات في الشمال: «قروض للضباط»، ١٨ نوفمبر ١٩٧٥، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٠٨، صندوق ٣٢.

(٣) وزارة الدفاع: «معاملة أسر الضباط في المشافي العسكرية»، ١٦ يناير ١٩٧٩، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠١٢، صندوق وثائق ٥٠.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

منع وقوع انقلاب عسكري كان يمكن إحرازه عن طريق تزويد الجيش بأسلحة حديثة متطورة، وإنشاء قواعد عسكرية كبرى، بل وحتى بتزويد أفراد الجيش بنوعيات غالية وجيدة من الأزياء العسكرية، كل عنصر من تلك العناصر يمكن أن يكون له تأثير جيد على معنويات ضباط الجيش[١]. ويؤكد الجنرال الحمداني أن الميزانيات الكبيرة التي تم تخصصيها للمنشآت العسكرية، خاصة خلال الفترة التي كانت العراق يعاني فيها من قسوة العقوبات الدولية التي فرضت على العراق بعد حرب الخليج الأولى واستمرت وطأتها حتى الغزو في عام ٢٠٠٣، كانت كلها تدعم معنويات الجيش العراقي[٢].

مقابل الجَزَرة، كانت هناك العصا لقهر أية بادرة عدم ولاء أو مظهر من مظاهر خيانة النظام. كان الضباط يعدمون على الفور بغض النظر إن كانوا مشاركين بالفعل في مؤامرات ضد النظام أو لمجرد الشك في تآمرهم على النظام. وأجريت دراسات كثيرة تتعلق بالضباط الذين أعدموا أو عذبوا بشدة خلال الأعوام الخمسة وثلاثين التي حكم فيها حزب البعث العراق، باستخدام وسائل مماثلة لوسائل نظم حكم مثل نظام الحكم الستاليني لروسيا، وليس الغرض من هذا الكتاب التعمق أكثر من ذلك في هذا الشأن[٣]. ويبدو على الرغم من كل ذلك أن صدام حسين أحس أن العقوبات ليست إلا أحد أوجه الحياة، وأن أولئك الذين يحاولون خداعه لابد من عقابهم بقسوة. وفي إحدى المقابلات الصحافية التي أجراها معه صحافي أجنبي سأله عن عملية شنق كبار

---

(١) نوردلينجر: «العسكر في السياسة»، صفحة ٦٩.

(٢) الحمداني: «قبل أن يغادرنا التاريخ»، صفحات ٢٦٠ و٢٦٤.

(٣) انظر على سبيل المثال، مكية: «جمهورية الخوف»، الملحق ١، صفحات ٢٩١ ـ ٢٩٦؛ المرعشي وسلامة: «القوات المسلحة العراقية»، صفحات ١٤٤ ـ ١٤٩.

ضباط الجيش أثناء الحرب الإيرانية ـ العراقية، أجاب صدام حسين في لهجة عادية وهادئة قائلاً أنه في حالة وجود حرب فمن الصعب تصور أن الجنود والضباط لن يعاقبوا على أخطائهم، وأكد أن ثلاثة من كبار الضباط قد أعدموا شنقا لأنهم يتحملون مسؤولية الهزيمة في معركة المحمرة (مدينة خرمشهر)[١].

بالإضافة لعمليات التطهير الجماعي، وعمليات الإعدام، واغتيال كبار الضباط، وإحالة مجموعة كبيرة من الضباط للتقاعد، والاعتقالات، والتعذيب، لجأ حزب البعث ـ كما لجأت الأحزاب المماثلة ـ لاستعمال وسائل أخرى للهيمنة: وهي النقل المستمر للضباط لمنعهم من تكوين وبناء قواعد من التأييد بين الضباط التابعين. وفي الحقيقة، كانت التنقلات «أكثر الأدوات الحميدة بين أدوات الهيمنة» بين الضباط[٢]. وتظهر الوثائق كثير من التنقلات ولكن من النادر أن نجدها تذكر أي أسباب وراء إجراء تلك التنقلات. وعلى أي حال، ومن المعلومات الملحقة بكل عملية نقل، يمكن للمرء أن يستنتج إن كان انتقالا «للتصعيد» لأعلى أم لا، غير أنه مازال من الصعب أن نحكم إن كان الغرض من النقل تقليل تأثير الضباط على مرؤسيهم أم لأسباب من الكفاءة المهنية[٣]. كانت بعض الانتقالات ترجع لطبيعة صدام المتقلبة ونزواته الفجائية، ولأنه لم يكن هناك من يجرؤ على سؤال القائد عن

---

(١) صدام حسين: «المختارات»، الجزء ٥، صفحة ١٦٧.

(٢) هاشم: «صدام حسين والعلاقات المدنية العسكرية»، صفحة ١٩.

(٣) من شؤون ضباط الحرس الجمهوري إلى جهاز الأمن الخاص: «نقل الضباط»، ٢٠ مايو ١٩٩١، القيادة القطرية لحزب البعث ٠٠٣ ـ ٥ ـ ٢ (١١٥). كان النقل خاص بكبار الضباط. كل نقل يصف مخصصات الضابط ولخص للمعلومات عنه وعن عائلته.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأسباب وراء نقل الجنرالات أو الفرق العسكرية، سوف تظل الأسباب الكامنة وراء كثير من تلك الانتقالات مغلفة بالغموض[١].

وعدا التيقن من ولاء أفراد الجيش، كان على النظام التعامل مع العقوبات الواجب اتخاذها حيال الجرائم الجنائية وإساءة استخدام السلطة بين أفراد القوات المسلحة. كان هناك مدى واسع من أعمال إساءة استخدام السلطة: مثل ضباط يستخدمون السيارات العسكرية في تنقلات أسرهم وأطفالهم إلى ذلك الحد الذي دفع برئيس الأركان إلى أصدار أوامر بالتوقف عن إساءة استعمال مركبات الجيش في الأغراض الخاصة، وتم معاقبة بعض الضباط لهذا السبب. وكانت تقع جرائم أخطر بعد أن اكتشفت المخابرات العسكرية أن كثيراً من الجنود في إحدى الوحدات المتمركزة في شمال العراق كانوا يبيعون تصاريح إجازاتهم أو يزورون معلومات وبيانات في سجلات خدمتهم العسكرية عن قيامهم بخدمتهم بالجيش على غير وجه الحقيقة[٢]. وبمجرد أن انتشرت عمليات بيع تلك التصريحات المزورة في وحدات الجيش، تعامل معها النظام بالطريقة المثلى التي يجيدها: «قرر مجلس قيادة الثورة أن كل من يقترف جريمة التزوير في سجل خدمته العسكرية سوف يتم شنقه»[٣].

وفي عقد التسعينيات، ومع تدهور الحالة الاقتصادية بشدة، ازدادت أعداد الجنود الذين قبض عليهم وهم يبيعون أسلحتهم زيادة حادة،

---

(١) مقابلة مع ضابط جيش كبير، ١٠ يناير ٢٠١٠.

(٢) من مدير الاستخبارات بالمنطقة الشمالية إلى إدارة المخابرات: «معلومات»، ٢ سبتمبر ١٩٨٨، مركز وثائق الشمال، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠١١، صندوق ٤٨.

(٣) مجلس قيادة الثورة: «قرار»، ٨ أكتوبر ١٩٩٤، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠١ ـ ٢ ـ ١ (٠٠٨).

وتدخل جهاز الأمن الخاص لاستئصال تلك المشكلة الخطيرة من جذورها[1]. وكان هناك نوع آخر من العقاب تمثل في أنه بمجرد اقتراف أحد أفراد عائلة الضباط جريمة، يوقع عقاب جماعي على كامل العائلة بحرمان كل أفرادها من الالتحاق بأية أكاديمية عسكرية أو شرطية.

ومن أجل الإبقاء على نظام العقوبات عاملا بكفاءة، كان على آلة الرقابة أن تكون في أفضل أحوالها وأن تعمل بكفاءة تامة، لذلك قام حزب البعث، مثلما يعمل أي نظام مستبد، على مراقبة كل أفراد الجيش مراقبة مشددة.

المراقبة والتتبع

كما عرضنا في الفصل الرابع، كان في العراق كثير من أجهزة الاستخبارات العسكرية، والتي «داومت على إلغاء سلطة ونفوذ بعضها البعض» حتى أن كثيراً من «المجهودات الاستخبارية بذلت لجمع المعلومات عن العسكريين أنفسهم، وشمل ذلك مواقف الضباط وسلوكهم وأية معارضة وانشقاق قد يظهر بين صفوف الجيش»[2]. وقد أخبرني الجنرال الحمداني أن الخوف من المؤامرات الداخلية قد طغى على كل شيء بعد عام ١٩٩١، وأن صدام حسين قد أصبح شديد التوجس والارتياب من احتمال وقوع انقلاب عسكري أو انتفاضة أخرى

---

(١) من مدير المخابرات العامة إلى مدير جهاز الاستخبارات الخاصة: «ترتيب انتقال موظفين معتقلين»، ٢٥ يوليو ١٩٩٥، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق وثائق ٠٠١ ـ ٢ ـ ١ (٢٨٩). بعض ممن أعتقلوا كانوا قد استدرجوا من قبل المخابرات وهم يحاولون بيع قاذفي صواريخ.

(٢) باري روبن: «العسكر في سياسة الشرق الأوسط المعاصر»، في روبن وكيني (طبعات)، «القوات المسلحة في الشرق الأوسط»، صفحة ٥.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لدرجة جعلت الحياة غير محتملة للجنود المحترفين في أعمالهم اليومية. وفي عام ١٩٩٣، في ندوة عن الدروس المستفادة من حرب الخليج الأولى، ألقى الجنرال الحمداني محاضرة بعنوان «الأمن لنا وليس علينا». ولا حاجة بنا للقول، أن تلك المحاضرة وذلك النوع من الخطاب تسبب في بث موجة من الصدمة في ثنايا النظام الحاكم، غير أن الحمداني كان محظوظا في أنه كان ينعم بحماية قصي صدام حسين، الذي كان قد خدم قبل ذلك تحت قيادة الجنرال الحمداني في عام ١٩٨٣ وكان على علاقة طيبة به وكان يحترم تمكنه من مهنته واحترافيته[١].

كان صدام حسين صريحا ومباشرا حول الاحتياج لـ «إبقاء العيون مفتوحة ومراقبة الجيش مراقبة حثيثة».وبالإضافة إلى وجود مكتب الرقابة العسكرية في كل وحدة، استخدم النظام وسائل أخرى للمراقبة. كل تحركات الجيش أو نقل للأسلحة أو الذخائر كان يسجل في تقارير يومية لجهاز الأمن الخاص من قبل مديرية التحركات العسكرية، وكانت تحركات الدبابات أو أي معدات عسكرية ثقيلة تحظى باهتمام ورقابة خاصة[٢]. وقال صدام حسين في مقابلة صحفية أنه على الرغم من أن على شعب العراق أن يكون فخورا بإنجازات جيشه، «فإنني أحذر الناس من أي ضعف قد يرونه من أي فرد من القوات المسلحة.... وهو مجرد احتمال، ولكنه تحذير أيضا»، فمن وجهة نظره، من الممكن أن يعتري الخوف أي عسكري في أي جيش من جيوش العالم، وأن على الباقين

---

(١) مقابلة مع الحمداني، ٢٩ نوفمبر ٢٠٠٩، انظر أيضاً الحمداني: «قبل أن يغادرنا التاريخ»، صفحة ٩٣، فيما يختص بخدمة كل من عدي وقصي في وحدة الحمداني.

(٢) من إدارة السيطرة، جهاز الأمن الخاص: «تحركات»، ٨ يوليو ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق وثائق ٠٠٢ ـ ١ ـ ١ (٣٠٦ ـ ٣٠٨).

أن يكونوا يقظين في المراقبة حتى لا يحدث مثل ذلك الاحتمال في الجيش العراقي[1]. وبكلمات أخرى، كان يطلب من أبناء الشعب أن يبلغوا عن الأفراد العسكريين الذين يخرجون عن مظلة وطاعة النظام.

لم تقتصر مراقبة الضباط على مجرد مراقبة تعليمهم السياسي وما يفعلونه؛ بل بلغت شأوا أبعد كثيراً من ذلك. فمثل النظم الأخرى، كان على ضباط العراق الحصول على الموافقة قبل الزواج، تحسبا لاحتمال أن تشكل زوجة المستقبل للضابط خطراً على النظام. وفي حقيقة الأمر، يرجع نظام الحصول على الموافقة قبل الزواج للضباط إلى عهد الانتداب البريطاني على العراق؛ فكان على كل العسكريين أن يحصلوا على الموافقة قبل زواجهم للتيقن من أن زوجة المستقبل «ملائمة». واستمر العمل بذلك النظام بعد انتهاء عهد الانتداب، ولكن بعد عام ١٩٦٨، مد حزب البعث التحري من مجرد الحصول على الموافقة وتوسع به ليشمل نواحي أمنية أخرى كثيرة تتعلق بعائلة زوجة المستقبل.

وتظهر الوثائق والمستندات كمية الجهد والوقت الذي كان يبذله حزب البعث وأجهزته في فحص وتحري مدى ملاءمة تلك الزيجات للنظام الحاكم. في كل حالة إقدام على زواج، يقوم الضابط بملء استمارة بيانات تشمل كل التفاصيل المتعلقة بزوجة المستقبل. وبعد ذلك يبدأ النظام في العمل: يقوم الأمن المحلي في منطقة سكن العروس كما يقوم الفرع المحلي للحزب بإعداد التقارير التي ترسل بعد ذلك لقيادة الحزب. فعلى سبيل المثال، دل التقرير الأولي في إحدى الحالات أن العروس كانت مستقلة سياسياً (بمعنى أنها لم تكن مرتبطة بأي حزب سياسي)، وأن سمعتها وسمعة عائلتها كانت جيدة ولا غبار عليها. غير أنهم اكتشفوا أن أحد أشقائها كان شيوعيا قبل مقتله (ولا توجد أي

---

(١) صدام حسين: «المختارات»، الجزء ٣، صفحة ٧٩.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تفاصيل عن ذلك). وكان حكم مدير أمانة سر الحزب على ذلك: «ليست العروس ملائمة كزوجة لضابط بالجيش»[1]. واستغرق الأمر نحو شهرين آخرين من تبادل المراسلات حتى تم التوصل لذلك القرار وإبلاغه للضابط. ويمكن لأي امرئ أن يتخيل مدى التوتر الذي يعتري الضابط خلال فترة انتظاره لقرار الموافقة على زواجه، والذي قد يتبعه مشاعر مؤلمة وإحباط مع كل قرار سلبي يفرق بين محبين ينتويان الارتباط بالزواج. وليس لدينا فكرة أيضاً ما الذي حدث لزوجة المستقبل التي رفضت كزوجة ملائمة لضابط بالجيش، حيث أصبح من الواضح أنها لن تكون ملائمة للزواج من أي ضابط آخر بالجيش أو عضو بالحزب.

كانت طلبات الزواج لا تلبى لأسباب أخرى، وتشمل الأسباب الأخرى وجود قريب للعروس كان نشطاً في وقت ما بحزب الدعوة أو حتى وجود أحد الإخوة أو أخوات العروس في الخارج[2]. وفي إحدى الحالات التي قام فيها ضابط بالزواج دون الحصول على موافقة النظام الحاكم والتي اكتشفت بعد ذلك من قبل جهاز الأمن الخاص عن طريق أحد المبلغين، تم اعتقال الضابط على الفور ليقدم لمحاكمة عسكرية طبقا للقانون العسكري، وينص القانون العسكري على أن عقوبة الزواج دون إذن السجن لمدة تتراوح من ثلاثة إلى سبعة أعوام[3].

وما يبدو لافتا للنظر بقوة عند بحث تلك الوثائق هو أقدمية الضباط

---

(١) من المخابرات العسكرية إلى الأمانة سر المناطقية للحزب: «زواج الآنسة ت.»، ٩ ديسمبر ١٩٨٤، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٢ ـ ٤ ـ ٤ (١٨٥ ـ ١٩٥).

(٢) المصدر السابق.

(٣) جهاز الأمن الخاص: «معلومات»، ١٦ ديسمبر ١٩٨٩، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ٤ ـ ٤ (٠٠٤).

المناط بهم الموافقة على طلبات زواج الضباط الأصغر أو رفضها. ففي كل تلك الملفات، هناك على الأقل مراسلة أو مراسلتان من قيادة الاستخبارات العسكرية. فلا عجب إذا، في أن نعرف أن الاستخبارات العسكرية لم تكن تقوم بدورها الحقيقي المتمثل في جمع المعلومات عن الأعداء. ويذكر الجنرال الحمداني في كتابه مرحلة من مراحل غزو الكويت عام ١٩٩١، حين تلقت القوات أوامره بالاستعداد للهجوم، اكتشف ما مثل له صدمة كبرى مما أصابه بالفزع وخيب آماله وهو أن الاستخبارات العسكرية ليس لديها خرائط تفصيلية لمناطق العمليات، واضطر لاستخدام خرائط سياحية لمدينة الكويت[١].

الجيوش الخاصة

إضافة للمراقبة والتتبع، أنشأ النظام جيوشاً موازية لتقليص نفوذ وسطوة الجيش النظامي. كثير من تلك الجيوش تم ابتداعه في عهد حكم حزب البعث، مثل: الجيش الشعبي؛ وجيش القدس؛ وفدائيين صدام؛ والأهم من بين تلك الجيوش الخاصة كجيش مواز، كان الحرس الجمهوري الخاص.

وعلق كوينليفان على ذلك قائلاً:

تخلق النظم الحاكمة جيوشاً موازية كقوى موازنة لقوة الجيش النظامي ـ وهي قوى يمكن استخدامها ضد النظام الجديد في حالة وقوع انقلاب عسكري على النظام السائد. وتسمح الجيوش الموازية أيضاً للنظام بتكوين جيوش نظامية أكبر يمكن استخدامها في استعراض للقوة تجاه الخارج بثقة أكبر. ولأن الغرض من انشاء

---

(١) الحمداني: «قبل أن يغادرنا التاريخ»، صفحة ١٩٩.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

جيوش موازية هو حماية النظام، فلابد من ربط تلك الجيوش الموازية بالنظام عبر ولاءات خاصة وعلاقات اجتماعية[1].

آمن صدام حسين، خاصة أثناء حربه ضد إيران في الثمانينيات، أن التفوق العددي للإيرانيين لابد من التغلب عليه بتجنيد أعداد كبيرة من الرجال في الألة العسكرية العراقية. ولم يمل من تكرار أنه كلما ازدادت أعداد الرجال في الجيوش والميليشيات، كلما كان ذلك أفضل لصالح البلاد. ويفسر شعاره الذي لم يكن يكل من تكراره من أن «الرجال قبل السلاح» أحد أسباب خلق جيوش عديدة موازية.

الجيش الشعبي

عند أنشائه عام ١٩٧٠ من قبل حزب البعث، كان الجيش الشعبي أول تنظيم عسكري يتأسس بعد وصول الحزب للسلطة. ورأى رجال الجيش أنه «جيش الحزب» على إطلاقه، لأنه زود بالأسلحة الخفيفة لحماية المنشآت الحيوية والخدمية في المدن الكبرى والمتوسطة. كان التدريب للانضمام لذلك الجيش تدريبا قصيرا ومختصرا، وكان كثير من أعضائه نسبياً كباراً بالعمر[2]. وعلى رأس ذلك الجيش كقيادة له كان طه ياسين رمضان الجزراوي، الذي لم تكن لديه أية خبرات عسكرية على الإطلاق، وطبقا لما يذكره السامرائي لم يكن طه ياسين رمضان سوى متملق لم يتمكن أبداً من التخلص من عقدة النقص التي لازمته لكونه كردي الأصل[3]. وتبين بعد ذلك أن طه ياسين راح يسعى بعد ذلك لتعظيم منصبه وتضخيمه كما هو مثبت من تقرير له راح يرسله إلى كل

---

(١) كوينليفان: «منع الانقلابات»، صفحة ١٤١.

(٢) الحمداني: «قبل أن يغادرنا التاريخ»، صفحة ٢٧٣.

(٣) السامرائي: «حطام البوابة الشرقية»، صفحات ٣١٣ ـ ٣١٤.

الوزارات وكل المؤسسات الاستخبارية والأمنية لتنظيم احتفال احتفاء بالذكرى السادسة عشرة لتأسيس الجيش الشعبي بطريقة «تتلاءم مع مثل ذلك الجيش على المستوى الوطني»[١].

ويبدو أن هناك عنصرا من عدم الانضباط، ليس فقط فيما يتعلق بالجيش الشعبي ولكن بكل الجيوش الأخرى غير النظامية الموازية باستثناء «الحرس الجمهوري الخاص». اشتكى رئيس أركان الجيش الشعبي في مذكرة رسمية له من أن المنضمين من أعضاء الميليشيا كانوا يحملون بطاقات انتساب مؤقتة وكثير منها كان مزورا بل حتى كانت تلك البطاقات المزورة تباع خارج نطاق الجيش الشعبي[٢].

وفي شمال العراق، وكجانب من الحرب على الميليشيات الكردية، تم تنظيم المتعاونين مع النظام على شكل وحدات عسكرية وأطلق عليها اسم: «المفارز الخاصة» وضمت للجيش الشعبي للقتال ضد المتمردين الأكراد. وكان لتلك المفارز كثير من الأوجه السلبية، وتمتلئ الوثائق بالشكاوى من كل من كان لهم علاقة بها. وطالب مكتب تنظيم الشمال أعضاء تلك المفارز بعدم حراسة المخازن والمستودعات بسبب تورط اعضاء المفارز في سرقتها. كما أرسل وزير الداخلية مذكرة يحث فيها الشرطة والأمن أن يقوموا بحراسة المخازن والمستودعات ومحطات السكك الحديدية ولا يتركوها في حماية المفارز الشعبية، وأن يزيدوا

---

(١) من طه ياسين رمضان إلى رئيس أركان الجيش الشعبي: «الاحتفال السنوي بذكرى إنشاء الجيش الشعبي»، ٣٠ يوليو ١٩٨٥، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٦ ـ ٢ ـ ٦. كان الاحتفال سيتم بعد ذلك بستة أشهر في ٨ فبراير ١٩٨٦.

(٢) من رئيس أركان الجيش الشعبي إلى كل وحدات الجيش الشعبي: «بطاقات هوية مؤقتة ووثائق حمل السلاح»، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٠٧، صندوق ٢٨.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من التعليم والإرشاد السياسي لتلك المفارز، وأخيراً، إيجاد معسكرات بعيدة عن مراكز المدن لتقيم فيها تلك المفارز الخاصة[١].

وانقسم الجيش الشعبي أثناء حرب الخليج الأولى إلى خمس مناطق إدارية لتحسين كفاءته وأدائه العملي. ولكن يبدو أنه لا خلال الحرب ضد إيران ولا خلال حرب الخليج كان لذلك الجيش الشعبي أي تأثير، وكانت القيادات العسكرية النظامية تنظر إليه بضيق واحتقار ولا تعتقد أن له أي قيمة. وبعد انتهاء حرب الخليج الأولى مباشرة، صدر الأمر بحل الجيش الشعبي، وأسندت لوزير الدفاع مسؤولية الاستيلاء على كل منشآته وأصوله[٢].

جيش القدس

بعد انتفاضة ١٩٩١ وفشل كل من الجيش الشعبي ووحدات حزب البعث في سحقها في مرحلة مبكرة، قرر صدام حسين تأسيس جيش القدس للقضاء على أية اضطرابات أو شق عصا الطاعة. على المستوى

---

(١) من أمين سر تنظيم الشمال إلى ديوان وزارة الدفاع: «مفارز خاصة»، ١٨ نوفمبر ١٩٨٤، مركز وثائق الشمال، الحزب الديمقراطي الكردستاني ٥٥٠، صندوق ٢٣٥٤؛ من وزير الداخلية إلى قيادة الشرطة والأمن: «مفارز خاصة» المصدر السابق. إضافة لذلك، ميليشيا موالية للبعث، وتسمى (الفرسان) وكانت قد تكونت في السبعينيات لمحاربة البشمركة الكردية. وعلى أي حال، وخلال الانتفاضة في عام ١٩٩١، انحاز الفرسان للتمرد وانضموا إليه. انظر مار: «تاريخ العراق الحديث». ١٥٨ و٢٤٨ ـ ٢٤٩.

(٢) مجلس قيادة الثورة: «قرار»، ٢٤ أبريل ١٩٩١، القيادة القطرية لحزب البعث ٠٤١ ـ ٣ ـ ٧ (٠٦٠). قرار حل الجيش الشعبي أصبح ساري المفعول في ٣٠ يونيو ١٩٩١، وقد وصف كثيرون الجيش الشعبي بأنه «لا هو شعبي ولا هو بجيش»، إرجع إلى وودز، «معركة أم المعارك»، صفحة ١٠٠، وهاشم: «صدام حسين والعلاقات المدنية العسكرية»، صفحة ٢٤.

الرسمي، تأسس هذا الجيش الموازي لـ «تحرير القدس». كان العراقيون يطالبون بالانضمام إلى معسكرات خاصة وأن يهبوا بعضا من وقتهم للتدريب لتحقيق وإنجاز تلك المهمة التاريخية. وفي أكتوبر عام ٢٠٠٠، أعلن أن ٧ ملايين متطوع قد انضموا لذلك الجيش. ويبدو أن ذلك العدد كان مبالغا فيه بشدة، وعلى الرغم من أن الوثائق والمستندات ليست خاصة بذلك الأمر، إلا أنها تشير إلى عدد المتطوعين الملتحقين بمعسكرات التدريب في المحافظات الكبرى، وكانت أعدادهم تقل كثيراً عن فئات الملايين. وارتكانا على المقابلات الصحافية والحوارات التي أجريت مع مسؤولين عراقيين، قدر «وودز» ذلك الجيش بأنه حوالي ٥٠٠,٠٠٠ فرد[١].

مثل جيش القدس فرصة جيدة للعسكريين المتقاعدين الذين كلفوا بتدريب المتطوعين الجدد وبذلك توفرت لهم فرصٌ جديدة لكسب أموال إضافية إلى جوار رواتب التقاعد في فترة اتسمت بتضخم اقتصادي شديد[٢]. وفي الحقيقة، كان صدام حسين قد أعلن أنه لا يوجد حد لسن التقاعد، وأعلن عن إطلاق «يوم النخوة» (يوم العسكريين)، حيث افتتحت بعدها دوائر خاصة لتجنيد المتقاعدين لتدريب شباب الميليشيا[٣]. غير أنه كان هناك، على أي حال، ضغط شديد على نشطاء الحزب لتحقيق الأرقام والأعداد التي قررتها القيادة العليا للحزب. كانوا يتوددون للطلاب لينضموا ويتدربوا لمدة شهرين في العطلة الصيفية. وكان ذلك يعني لكثير من الطلاب خسارة مدخول كانوا سيكسبونه من أعمال مؤقتة خلال تلك الفترة من التدريب البدني الشاق.

---

(١) وودز وآخرون: «تقرير الآفاق العراقية»، صفحة ٤٨.

(٢) دافيد باران: «العراق: الحزب في الحكم»، لوموند دبلوماتيك، ديسمبر ٢٠٠٢.

(٣) بلغة حزب البعث، تعني كلمة نخوة الفروسية، وهي تشير إلى ١٨ أبريل ١٩٩٨، حين تطوعت أعداد كبيرة من الشعب لتلقي تدريب عسكري ليوم واحد.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الشكل (٧): متطوعون عراقيون يسيرون في استعراض عسكري احتفالاً بيوم القدس في بغداد، ٢٠ نوفمبر عام ٢٠٠٠، عن رويتو/كوربيس.

ومرة أخرى، بذلت جهود ضخمة لتجنيد وتدريب وإعاشة وانتقال وتزويد بالذخيرة والمعدات والعمل على تجديد دائم للسجلات الخاصة بمئات الآلاف من «المتطوعين». ويتعلق عدد كبير من الوثائق بالبحث عن أماكن ملائمة لتدريب تلك الأعداد. وإيجاد أماكن ملائمة للتدريب الخاص للنساء، والأسلحة الخفيفة اللازمة للتدريب في كل دورة تدريبية، والإرشاد وتنمية الوعي السياسي الضروري للمنضمين الجدد، إضافة للتدريب العسكري[١]. كان على الحزب أيضاً أن يظل يقظا ومراقبا لضباط المستقبل في جيش القدس والذي أظهرت تفاصيله «معلومات غير مشجعة عن المتطوعين وانتماءات عائلاتهم»[٢].

---

(١) القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٤ ـ ٤ ـ ١.

(٢) من مدير برامج التدريب العسكري إلى علي حسن المجيد، عضو القيادة المناطقية، ٢٣ أغسطس ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٣٣ ـ ٢ ـ ٢ ٠٠٠٩ ـ ٠١٥).

واجهت تلك الميليشيا كثيراً من المشاكل، خاصة حين كانت تبرز الحاجة الماسة لاستعداد الجيش النظامي لحرب أخرى أو الاستعداد لصد غزو محتمل من قبل أميركا وحلفائها. وفي دراسة مفصلة قدمها رئيس أركان جيش القدس وأرسلت للديوان الرئاسي، قدم فيها اقتراحاته لتحسين أداء جيش القدس وإزاحة كثير من العوائق التي تواجهه. كان رئيس أركان جيش القدس يواجه كثيراً من المشاكل ـ وكان من أهمها نقص أعداد الضباط المستديمين، والذي حال دون استمرارية التدريب وعمل دورات التوعية السياسية للمتطوعين. وعارض مد فترة التدريب من شهرين إلى ثلاثة أشهر في ظل نقص الإمكانيات والتسهيلات والأفراد المؤهلين لتدريب عناصر المتطوعين. وطالب بزيادة المخصصات المالية لجيش القدس وأكد على الحاجة الماسة لزيادة برامج الإرشاد والتوعية السياسية للتيقن من أن «العناصر الجيدة» فقط هي التي تبقى بذلك الجيش[1].

وبحلول نهاية عام ٢٠٠٢، ومع إدراك القيادة السياسية أن البلاد على شفير حرب أخرى وشيكة، انتقل الاهتمام من التركيز على التهديدات الداخلية فقط إلى التركيز على التهديدات الخارجية، وتم وضع خطط الدفاع المدني والتصدي لمروحيات الغزاة العسكرية[2]. ونقل وودز في «التقرير العراقي المعمق» عن وزير الدفاع العراقي سلطان هاشم أحمد الذي أجرى معه مقابلة بعد سقوط بغداد قوله:

---

(١) من رئيس أركان جيش القدس إلى الديوان الرئاسي، ١٩ يونيو ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ٥ ـ ٥(١٧٥).

(٢) من القيادة المناطقية لحزب البعث إلى كل مكاتب قيادات الحزب: «متطوعون لجيش القدس»، ١٠ ديسمبر ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ٣ ـ ٥. يضم الملف كثيراً من تلك الخطط والمراسلات الخاصة بها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت قوة القدس مجرد صداع رأس، لم تكن تملك تجهيزات ملائمة لحرب حقيقية، وكان تأسيسها وإنشاؤها من الأساس فكرة سيئة. كان مطلوبا من وزارة الدفاع أن تزودهم بالأسلحة التي يتم انتزاعها من الجيش النظامي. غير أن الجيش لم يكن له سيطرة عليهم. كانت التعليمات والأوامر تصدر لهم من مكتب الرئيس فقط وليس من القنوات العسكرية النظامية[١].

فدائيو صدام

تكونت تلك الميليشيات أيضاً كرد فعل لانتفاضة عام ١٩٩١ بعد خيبة الأمل التي عانى منها النظام من فروع حزب البعث المحلية والجيش الشعبي اللذان فشلا في سحق التمرد ووأده في مهده. لم يكن فدائيو صدام كتنظيم عسكري أنشأ في أواخر عام ١٩٩٤ بنية شرطية أخرى تابعة للدولة، فقد شارك في عمليات عسكرية صغرى و«إبادة» الأعداء[٢]. وعلى عكس جيش القدس، كان ضباطه مستديمين ومستدعين من الجيش النظامي ومن الحرس الجمهوري. وتظهر الوثائق أنهم كانوا منخرطين في اغتيال كل من كانوا مصنفين تحت صفة «الرؤس العفنة» بموجب توجيهات من القيادة العليا[٣].

بزغت فكرة فدائي صدام من خلال مذكرة كتبها جنرال سابق ممن

---

(١) وودز وآخرون: «تقرير آفاق العراق»، صفحة ٥٠.

(٢) المصدر السابق، صفحات ٥١ ـ ٥٥. وودز وليسي في مشروع المشهد العراقي: صدام والإرهاب، أظهر كثير من الوثائق عن فدائيين صدام. انظر على سبيل المثال، الجزء ٣ والجزء ٥.

(٣) عن قوائم أولئك المفترض اغتيالهم وخلفياتهم انظر: «خطة لاغتيال الرؤس العفنة في المنطقة الجنوبية»، ٦ نوفمبر ٢٠٠٠، مجلس قيادة الثورة.

شاركوا في الحرب الإيرانية العراقية وهو الجنرال هشام صباح الفخري وأرسلها إلى عدي صدام حسين يقترح فيها إنشاء وحدة عسكرية بغرض أن تضحي تلك الوحدة بنفسها إذا تطلب الأمر حماية الرئيس. ومن المثير، ان الابن الثاني لصدام حسين، قصي، طلب من جنرالين آخرين (كان منهما الجنرال الحمداني) أن يدرسا ذلك العرض. ورفض كلاهما الفكرة لأن من شأنها أن تربك العلاقة مع المؤسسات الأمنية القائمة وربما تترتب عليها تبعات سيئة. ورغم ذلك، تم رفض الاقتراح المضاد، وتم تعيين عدي قائدا لتلك الميليشيا الجديدة. كان لأعضاء فدائيي صدام سمعة سيئة بين الشعب العراقي كسفاكي دماء يستغلون سلطتهم أسوأ استغلال وكانوا في غالبيتهم شبابا عاطلين من تكريت (بلد الرئيس) والقرى المجاورة لها[١]. كان زيهم الموحد مستمدا بطريقة مريعة من أفلام حروب النجوم، بخوذات حماية للرأس، وقمصان سوداء، وأقنعة مماثلة لأقنعة التزلج على الجليد لإخفاء وجه أفراده. الفارق الوحيد المختلف عن أزياء أفلام حروب النجوم هو وجود صورة جانبية لوجه صدام حسين على كل خوذة، تحيط بوجهه كلمات «الله، الوطن، القائد»[٢]. ويؤمن الحمداني أن ذلك التنظيم، الذي اشتهر بالقسوة المتناهية، قد استخدم من قبل عدي صدام حسين لتصفية الحسابات مع أعدائه الشخصيين والمشاركة في الأنشطة العامة الكبرى مثل قطع رأس العاهرات في بغداد[٣]. تغلغل الفساد أيضاً في تلك

---

(١) إبراهيم المرعشي: «النضال من أجل العراق: فهم استراتيجية دفاع صدام حسين»: ميدل إيست ريفيو للشؤون الدولية، الجزء ٧، رقم ٢ (يونيو ٢٠٠٣)، صفحات ١ ـ ١٠.

(٢) لعقد مقارنة مثيرة للانتباه، انظر: «رد الضربة للإمبراطورية» لميشيل راكويتز، معرض في تيت مودرن(لندن، ٢٠١٠).

(٣) الحمداني: «قبل أن يغادرنا التاريخ»، صفحات ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

القوات، وفي عام ٢٠٠١ كانت هناك تقارير عن أعضاء في تلك القوات يقومون بتهريب الأسلحة إلى الحدود السعودية لبيعها لسعوديين[١].

الحرس الجمهوري الخاص

كان الحرس الجمهوري الخاص مشتقا من قوات الحرس الجمهوري. في عام ١٩٨٢ احتاج صدام حسين لتحريك مزيد من وحدات الحرس الجمهوري لمواجهة متطلبات المعارك في حربه ضد إيران، لذلك أنشأ سرايا الحماية، ثم سميت بعد ذلك قوات الطوارئ، وبحلول عام ١٩٨٨، أصبحت تعرف باسم الحرس الجمهوري الخاص. كانت مهمتها الأساسية حماية الرئيس، وقصوره، والمنشآت الاستراتيجية في بغداد، وكل الطرق المفضية إلى القصور والمنشآت الحيوية. كانت تلك القوات تعد من أوجه كثيرة جيش صدام الخاص. ومع تصاعد المخاوف من مدى الوثوق في الحرس الجمهوري عقب شيوع أنباء عن أن بعض كبار ضباطه كانوا متورطين في التخطيط للقيام بانقلاب عسكري، تنامت أهمية الحرس الجمهوري الخاص في حراسة الرئيس وحمايته[٢]. وأدت الأهمية الخاصة التي تولى لكل من الحرس الجمهوري والحرس الجمهوري الخاص إلى إصابتها بحالة من التعالي على باقي قوات الجيش.

وبالتماثل مع الحرس الامبراطوري في الامبراطورية الرومانية، تأسس الحرس الجمهوري في عقد الستينيات، قبل صعود صدام حسين إلى سدة الحكم، كوحدة عسكرية خاصة لحماية النظام من الجيش

---

(١) كيفين م. وودز، وجيمس ليسي، وويليامسون موراي: «أوهام صدام: نظرة من الداخل»، فورين أفيرز، الجزء ٨٥، رقم ٣ (مايو/يونيو ٢٠٠٦)، صفحات ٢ ـ ٢٦.

(٢) هاشم: «صدام حسين والعلاقات المدنية العسكرية»، صفحة ٢٤.

النظامي، وأستمرت على ذلك الوضع بعد وصول حزب البعث للسلطة للمرة الثانية عام ١٩٦٨، بل وحتى بعد عمليات تطهير الجيش المتتالية عام ١٩٩٢. «تم التيقن من ولاء تلك القوات لصدام حسين والحرس عن طريق اختيار أفراد الحرس من المنطقة التي انحدر منها صدام حسين لهم انتماء طائفي مماثل له، فكانوا على الدوام من العرب السنة المنحدرين من شمال بغداد»[١]. كانت تلك القوات جيدة الإعداد والتجهيز وكان جنودها وضباطها يتمتعون بدوافع وحوافز قوية ـ وفي الحقيقة، كانوا من أكفأ القوات المقاتلة خلال الحرب الإيرانية العراقية. وفي عام ١٩٩٢ صدر قرار رئاسي معلنا أن ٢٨,١٧٨ من الحرس الجمهوري الذين شاركوا في معركة أم المعارك سوف يتلقى كل منهم ثلاثة أنواط من أنواط الشجاعة[٢].

كان الحرس الجمهوري الخاص صغير نسبيا، وقدر عدده بأنه لا يتجاوز ١٥,٠٠٠ رجل، ولكنه كان مشبعا بروح الصفوة التي انعكست بدورها على استمارات التقييم شبه السنوي التي وضعت خصيصا لضباط الحرس الجمهوري الخاص. كانت الاستمارة تعتبر أداة لقياس التوازن ما بين «الإيجابيات والسلبيات» فيما يختص بجوانب الإدارة، والتدريب، والقدرات التقنية، والسلوك، والقيادة. إضافة لذلك، كان هناك أيضاً قسم من الاستمارات عن الصفات والمكونات النفسية للضابط، مثل حالته المعنوية والانفعالية، وموازنته بين العمل والحياة، ومواقفه السلوكية تجاه الرتب الأعلى والأدنى. ولا حاجة بنا للقول أن تلك الاستمارات كانت تضم كل النواحي المقارنة بالاستجوابات والتي تم

---

(١) المرعشي وسلامة: «القوات المسلحة العراقية»، صفحات ١٥٦ ـ ١٥٧.

(٢) قرار جمهوري رقم ١٠٦، ٢٧ فبراير ١٩٩٢، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠١٧ ـ ٣ ـ ٢ (٠٠٤).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تطويرها من قبل نظام البعث، مثل: الميول السياسية للضابط، رأي مفوض الحزب عن وحدة الضابط العسكرية، إنجازات الضابط في المعارك الكبرى، وإن كان قد شارك في معارك «صفحة الغدر والخيانة» التي التهبت في تمرد عام ١٩٩١[١]. ويرى «وودز» أن الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاءها قد اعتبروا أن الحرس الجمهوري الخاص يعد «صفوة الصفوة» غير أنه تبين فيما بعد خطأ وجهة النظر هذه[٢].

الفارون من الجيش، وأسرى الحرب، والشهداء

لا يمكن أن يعد أي عرض للجيش العراقي عرضا مكتملا دون تحليل الأمور الثلاثة المتعلقة بالفارين من الجيش ومن أداء الخدمة العسكرية الإلزامية، وأسرى الحرب، والشهداء. الأمور الثلاثة حظيت باهتمام النظام، على ضوء الأعداد الكبيرة في كل جانب من تلك الجوانب وتداعيات تلك الجوانب الثلاثة المتعلقة بالجنود على معنويات والمناخ السياسي للجيش وعلى الشعب بوجه عام.

الفارون من الجيش

كان موضوع الفرار من الخدمة العسكرية يمثل مشكلة كبرى، خاصة في عقد التسعينيات، للجيش، وللحزب، وللقيادة معا. وقد بدأت كمجرد موضوع خطير في العقد السابق خلال الحرب ضد إيران. كان الفرار أثناء الحرب يعني الحكم بالإعدام على الفار، غير أنه لا توجد أية إحصائيات ولا معلومات عن الأعداد التي أعدمت بسبب الفرار من

---

(١) من جهاز الأمن الخاص إلى مكتب شؤون الحرس الجمهوري: «استمارة تقييم»، ٢٣ أغسطس ١٩٩٣، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق وثائق ٠٠١ ـ ٢ ـ ٢ (٤٠٨).

(٢) وودز وآخرون: «تقرير المشهد العراقي»، صفحة ٥٧.

وحداتهم العسكرية. وكان ذلك يحدث أيضاً مع الأفراد العاملين بالمؤسسات الأمنية وبقوات الشرطة[١]. وعلى الرغم من اعتراف النظام بتفشي تلك الظاهرة إلا أنه تظاهر بأنها منتشرة بصفة رئيسة بين الأكراد، وفي عام ١٩٨٣ أعلن صدام حسين أن الفارين من الخدمة العسكرية ٤٨,٠٠٠ فار أغلبهم من الأكراد. «ولم يؤد ذلك الفرار من أداء الخدمة إلى مجرد استنزاف عدد الجيش العراقي»[٢]، بل أن كثيراً من أولئك الفارين التحقوا بمغاوير الأكراد. وغير النظام من توجهه، ففي بدايات عام ١٩٨٥، أصدر عفواً عاماً عن الفارين الذين يعودون للالتحاق بوحداتهم العسكرية خلال ثلاثين يوما من إصدار القانون[٣]. ثم تقلصت تلك المشكلة إلى حد كبير بعد انتهاء الحرب الإيرانية العراقية، على الرغم من استمرارها في شمال العراق لدرجة أزعجت السلطات، فكثير من الفارين لجأوا للقرى والمدن الواقعة تحت سطوة قوات المقاومة الكردية[٤].

وأدت حرب الخليج الثانية وانتفاضة عام ١٩٩١ إلى تغير معدلات المشكلة من جديد وتسببت في إزعاج القيادة العليا مرة أخرى كما تشير الوثائق والمستندات.

ويبدو أن ظاهرة الفرار وصلت إلى مدى دفع حزب البعث إلى

---

(١) من وزارة الداخلية إلى الديوان الرئاسي: «المتهربون من قوات الأمن الداخلي»، ديسمبر ١٩٨٥، سجلات مركز أبحاث الصراع.

(٢) المرعشي وسلامة: «القوات المسلحة العراقية»، صفحة ١٥٠.

(٣) أمر مجلس قيادة الثورة رقم ٢٠٩، ١١ فبراير ١٩٨٥، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠١ ـ ٥ ـ ١ (٠٠٧ ـ ٠٠٨).

(٤) من المساعد السياسي، إدارة الأمن بالسليمانية إلى إدارة الأمن، ٥ نوفمبر ١٩٨٨، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٠١، صندوق ٠٠١.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التعامل مع تلك الظاهرة بالوسيلة التي كان يجيدها: وهي العقاب القاسي مقابل المكافآت. وفي أغسطس عام ١٩٩٤، وبعد إعلان العفو مرة أخرى لفترة قصيرة عن الفارين، أصدر مجلس قيادة الثورة والقيادة القطرية لحزب البعث القرارات التالية:

١ ـ كل من يقوم باعتقال فار من الخدمة العسكرية يستحق مكافأة مقدارها ١٠,٠٠٠ دينار عراقي.

٢ ـ كل من يدلي بمعلومات عن فار من الخدمة العسكرية يستحق مكافأة مقدارها ٥,٠٠٠ دينار عراقي.

٣ ـ عند اعتقال أي فار من الخدمة العسكرية فسوف يعاقب بما يلي:

أ ـ يقطع صيوان الأذن اليمنى للفار لأول مرة.

ب ـ من يعتقل بعد فراره أكثر من مرة، سوف يقطع صيواني الأذنين، وسوف تحفر علامة سلبية على جبهة متكرر الفرار[١].

وتعد القائمة السابقة للعقوبات مثالا نمطيا لنظام حزب البعث العراقي مما يعيننا على فهم وسائل بقائه في الحكم لذلك الزمن الطويل: وهو التوازن ما بين رشوة بعض الناس وإنزال عقوبات قاسية بأخرين. وتبع ذلك صدور قرار آخر من مجلس قيادة الثورة يقضي بأن كل من يسعى لتغيير ملامحه بعملية تجميل أو تغيير ملامح سوف يعاقب بقطع يده أو كامل أذنه. وبالمثل أيضاً، كل من يعاون فار على إزالة العلامة السلبية من على جبهته سوف ينال ذات عقوبة الفار[٢]. ومن

---

(١) من مكتب أمانة سر القيادة المناطقية إلى كل المكاتب العسكرية وقيادات فروع الحزب، ١٥ أغسطس ١٩٩٤، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٣٣ ـ ٦ ـ ١ (٧٤٨).

(٢) قرار مجلس قيادة الثورة رقم ١١٧، ٢٥ أغسطس ١٩٩٤، القيادة القطرية لحزب البعث ٠٣٣ ـ ١ ـ ٦ (٦١٧).

المثير، أن صدام حسين قال لمجلس الوزراء: «حاولت مرارا إثناء القيادة عن اللجوء إلى تلك الوسائل من قطع الآذان والأيادي، لأني أعرف أننا سوف نقتل من خمسة إلى ستة آلاف فرد في تلك العملية.... غير أني قد وافقت على ذلك مؤخراً....»[1].

وفي الحقيقة، وبمجرد أن تم اتخاذ القرار، بدأ صدام حسين يهتم شخصيا بهذا الأمر وسأل مرافقه (مساعده) أن يقدم له تقريرا يوميا عن الاعتقالات والعقوبات. وفي مذكرة مرسلة من قيادة الحزب إلى مرافق الرئيس بعد أسبوعين من قرار مجلس قيادة الثورة، وضع تقرير ورد به أن ١٣,٢٧٣ من الفارين قد سلموا أنفسهم وتم اعتقال ٨٣ آخرين. وفي واحدة من الوثائق القليلة التي سجلها صدام حسين بخط يده، سأل: «وكم من هؤلاء عوقب بقطع أذنه أو بحفر علامة على جبهته الدنيئة؟». وفي اليوم ذاته، تم تطمينه بأن ذلك كان فقط في اليوم الأول بعد سريان القانون. وفي اليوم التالي ذكرت مذكرة أخرى أن عدد الفارين الذين سلموا أنفسهم قد قفز في اليوم الثاني إلى رقم لا يمكن تصديقه إذ بلغ ٢٢٠,٠٢٧ في ٣١ أغسطس عام ١٩٩٤، وأن ٢٦٩ فارا قد اعتقلوا وقطعت آذانهم. وأرسل المرافق المذكرة للرئيس وكتب تعليقا على هامش المذكرة أنه أرفق تلك المعلومات ولكنه يود أن يلفت انتباه الرئيس أن فرع صدام لحزب البعث في بغداد لم يقطع أي أذن، على الرغم من الأعداد المرتفعة للفارين. ومرة أخرى نجد أن صدام حسين، بصفته قارئاً مدققاً ودؤوباً لكل المذكرات، يسأل بقلق وبعدم ارتياح: «من المسؤول عن فرع صدام؟ لابد من مساءلته لماذا لم ينفذ الأوامر

---

(١) تسجيل صوتي لاجتماع مجلس الوزراء، ١١ فبراير ١٩٩٤، سجلات مركز أبحاث الصراع.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولابد أن تأتينا الإجابة»[1]. وبحلول منتصف سبتمبر، سجل فرع البصرة أن في منطقته فقط تم اعتقال ٧٠٩ فارين، قطعت آذان ٢٤٠ منهم كما جلد ٣١٧[2].

الفرار من أداء الخدمة لم يكن يحدث بين الجنود فقط والرتب الدنيا من أفراد الجيش. أحد التقارير كان يشير إلى القبض على ضابط حرس جمهوري يحمل بطاقة القصر الرئاسي، وبطاقة أخرى صادرة قبل عامين من اعتقاله تشير إلى أنه «أحد أصدقاء الرئيس»[3]. ومشكلة أخرى تم تناولها أيضاً كانت تختص بهروب رائد في الجيش وتصادف أنه كان ابنا لعميد. أبلغ الأب خدمات الأمن، واكتشف الأمن أنه ترك الخدمة وفر إلى تركيا[4].

في حالات كثيرة، كان الفرار من الخدمة العسكرية يحمل معه مآسي عديدة لعائلة الفار من الخدمة ويضعهم في أحوال وظروف صعبة الاحتمال. في إحدى الحالات، قامت وحدة من الحزب بالإغارة على بيت في بغداد لاعتقال فار من الجيش. وعند وصولهم للبيت، قامت

---

(١) من أمانة سر الحزب لمرافق الرئيس، ر.ا.ج.، ٣٠ أغسطس ١٩٩٤. تعليقات صدام حسين مؤرخة بتاريخ ٣١ أغسطس و١ سبتمبر ١٩٩٤، القيادة القطرية لحزب البعث ٠٣٣ ـ ١ ـ ٦ (٥٠٧ ـ ٥١٢).

(٢) من سكرتير فرع البصرة إلى أمانة سر القيادة المناطقية: «الفارون من أداء الخدمة العسكرية»، ١٤ سبتمبر ١٩٩٤، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٣٣ ـ ١ ـ ٦(٥٢٩). لمعرفة نتائج قطع الآذان، انظر جون ليلاند: «العراق يبتدع نظاما لمعالجة الجراح»، نيويورك تايمز، ٣٠ يناير ٢٠١٠.

(٣) من أمانة سر الحزب إلى مكتب شؤون الحرس الجمهوري: «هارب»، القيادة القطرية لحزب البعث ٠٣٣ ـ ١ ـ ٦ (٢٩١).

(٤) من إدارة الأمن إلى جهاز الأمن الخاص: «معلومات»، ٦ يوليو ٢٠٠٠، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق وثائق ٠٠٢ ـ ٥ ـ ٦ (١٢٢ ـ ١٢٣).

الأم بتوبيخ وتحقير ابنها واتهمته بالجبن إن لم يعد إلى وحدته. وبدأت مجادلة حادة بين الأم وابنها، فركض الشاب إلى غرفته، وجذب مسدسه، وانتحر. وبعد إعطاء تفاصيل عن الحادث، أوصى أمين سر فرع الحزب في مذكرته مساعدي الرئيس بـ «تكريم الأم لموقفها الإيجابي»[١]. وفي حالة أخرى، تم العفو عن رجل قام بقتل شقيقه الذي فر من وحدته العسكرية، لأن جريمة قتل شقيقه التي ارتكبها إنما دلت على وطنيته وإرادته في الدفاع عن شرف أمته[٢].

وتم إعداد دراسات من قبل الحزب عن الأسباب الاجتماعية التي تؤدي للفرار من الخدمة العسكرية، وأرسل وزير الدفاع علي حسن المجيد مذكرة بخط يده إلى رئيس الأركان وكل قادة الأسلحة بالوزارة وإلى أجهزة المخابرات، مطالبا كل تلك الجهات بالتعامل مع هذا الأمر بمنتهى الجدية، لأن تلك الظاهرة «بدأت في التأثير على العراق العظيم» و«يجب ألا نسمح لأولئك الفارين بتلويث الإنجازات الناصعة لهذا الجيش العظيم»[٣].

لم تختف مشكلة الفرار من الخدمة العسكرية، حتى خلال العام الأخير للنظام في الحكم. وفي شهر أبريل من عام ٢٠٠٢ على سبيل المثال، وفي محافظة الديوانية وحدها، تم إلقاء القبض على تسع وستين فارا من قبل الوحدات الخاصة لحزب البعث التي تأسست لاعتقال

---

(١) من أمانة سر الحزب 'لى المساعد الخاص للرئيس: «انتحار»، ١٧ سبتمبر ١٩٩٤، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٣٣ ـ ١ ـ ٦ (٤٠٤).

(٢) مجلس قيادة الثورة، قرار رقم ٨٩٨، ١٧ ديسمبر ١٩٨٨، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٢١ ـ ٥ ـ ٦ (١٢٩).

(٣) من وزارة الدفاع إلى كل مكاتب القيادة والإدارات: «خطاب»، ٥ سبتمبر ١٩٩٤، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٣٣ ـ ١ ـ ٦ (٦٥٠ ـ ٦٥٤).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفارين من الجيش. على أي حال، لم يأت ذكر في الوثائق لأعداد الفارين الكلية عن تلك الفترة[1].

أسرى الحرب

كانت مشكلة أسرى الحرب أيضاً من المشاكل الكبرى التي واجهت النظام، خاصة أولئك الذين سقطوا أسرى في قبضة إيران. وكما ناقشنا سابقاً، كان حزب البعث بواجه صعوبة كبرى في الثقة في أي فرد سقط أسيرا في قبضة الإيرانيين، وفي خضم الرعب والمخاوف من الشيعة بعد انتفاضة عام ١٩٩١، تم تصنيف أسرى الحرب إلى أسير مرتد، وإلى أسير صامد. ومن الصنف الأخير، أطلق على بعض منهم اسم أسير متميز والذي نال مع تلك الصفة كثيراً من المكافآت. ولا توجد إحصائيات دقيقة عن عدد أسرى الحرب العراقيين خلال حرب العراق ضد إيران ولا خلال حرب الخليج الأولى، غير أن التقديرات تذهب إلى أنهم كانوا بمئات الآلاف. وبعد أعوام من الأسر والمعاناة على أيدي الإيرانيين، عادوا إلى الوطن ليواجهوا التشكك الشديد وعدم الثقة بهم؛ كثيرون منهم ظلوا مراقبين من قبل الاستخبارات كما لم يسمح لهم باستعادة وظائفهم التي كانوا يشغلونها، بالضبط بذات الطريقة التي تعامل بها ستالين مع أسرى الحرب من السوفييت الذين وقعوا أسرى في يد القوات النازية الألمانية. كثيرون منهم اعتقلوا للتشكك في أنهم أصبحوا يعملون لصالح الإيرانيين، وحينما كانوا بعد ذلك يستوفون طلبات التحاق بوظيفة أو دراسة جامعية، كان لابد لأجهزة الاستخبارات من أن توافق أولاً قبل النظر في طلباتهم للعمل أو الدراسة. كان الحزب

---

(١) من فرع الديوانية إلى أمانة سر الحزب: «تكريم الوحدات الحزبية»، ١٠ أبريل ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠١٩ ـ ٤ ـ ٤.

والمؤسسات الأمنية معا مشغولين جداً بهذا الشأن بافتراض التعقيدات المحيطة بالتوصل إلى حقيقة ما حدث للأسير خلال فترة أسره. وفي حالة من الحالات اكتشف أن ثلاثة ممن تمت تبرئة ساحتهم بعد الأسر واستلموا وظائف هامة في الحكومة كانوا يتعاونون سرا مع الجيش الإيراني[١].

على أي حال، سمح لأسرى الحرب الآخرين الذين ثبت «موقفهم المتميز في الأسر» بالعودة إلى الخدمة العسكرية، واعتبر الزمن الذي قضوه في الأسر جزءاً من زمن خدمتهم العسكرية[٢]. لا توجد إحصاءات عن أعداد أولئك الذين صنفوا بحالة «موقف متميز»، غير أن عملية التصنيف كانت واضحة: كان على كل أسير حرب أن يستوفي ملفه مع فرع الحزب المحلي حتى يمكن تصنيفه تحت هذا المسمى. ويقوم فرع الحزب المحلي بدوره بالكتابة إلى المخابرات العسكرية لو كان لديها معلومات معينة من أسير سابق معين. وعلى الرغم من أنه لم يكن يوجد تعريف واضح ومحدد لصفة أسير متميز، إلا أن الملفات تضم خطابات عديدة من أسرى حرب ممن يدعون أنهم يستحقون أن تدرج أسماؤهم ضمن ذلك التصنيف كأسرى متميزين بسبب صمودهم في الأسر، والتي احتوت، بين أشياء أخرى كثيرة، على منع أسرى الحرب الآخرين من الانضمام لحزب الدعوة، ورفضهم المشاركة في أية أعمال مناهضة لحزب البعث، وهتافهم بشعارات مؤيدة لصدام حسين والاحتفال بيوم مولده والأعياد الوطنية الأخرى وهم في الأسر،

---

(١) من أمانة سر الحزب للمخابرات العامة العسكرية، ٢٢ سبتمبر ١٩٩٧، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٨٨ ـ ٤ ـ ٣ (٠٣٥)، كل الملف يتعلق بهذا الموضوع.

(٢) مجلس قيادة الثورة، قرار رقم ١٢٥، ٢٤ يوليو ١٩٩٩، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠١٧ ـ ١ ـ ١٧ (١٢١)، يمتد القرار بأثر رجعي إلى ٢١ أكتوبر ١٩٩٠.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وداوموا على إيجابيتهم في تكوين خلايا جديدة لحزب البعث[1]. ومع غموض التمييز في تصنيف اسرى الحرب، نصحت مذكرة من أمانة سر الحزب بتقسيم أسرى الحرب إلى ثلاث فئات: أولئك الذين صمدوا أمام إكراه وإرغام العدو؛ وأولئك الذين انهاروا تحت ضغط العدو، وآخرهم، أولئك الذين فقدوا حياتهم في النضال ضد العدو. ووضع تصنيف مماثل لمن هم غير أعضاء بالحزب، ولكن في المجمل كانت هناك عشوائية وتشتت كبير في تحديد من ميزوا أنفسهم أثناء الأسر[2].

الشهداء

بالنسبة لنظام مثل نظام حزب البعث، كان الاستشهاد في سبيل القيادة وحروبها يعد مقدسا، وذلك لتشجيع الجماهير على بذل مزيد من التضحيات. وكان موضوع الاستشهاد مبنيا على تعددية عناصر: مكافآت سخية جدا، وأنواط وأوسمة، وطقوس احتفالية، والتحول لرمز، والشعارات المؤكدة على استمرار عائلات الشهداء في البقاء جزءاً من النظام. كان شعار «الشهداء أكرم منا جميعا» من أقوى الشعارات التي صنعها صدام حسين فيما يختص بالاستشهاد. ولجأ كثير من الوزراء ووحدات الجيش إلى كتابة وتعليق تلك المقولة في أماكن عملهم، كما ظهرت كشعار في كل الاحتفالات التكريمية لأسماء الشهداء.

ويبدو أن صدام حسين لم يعد يبالي بأعداد الشهداء. فبالنسبة له،

---

(١) انظر لمثال الملف عن الأسير والمراسلات الخاصة بهذا الموضوع في القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٢٢ ـ ١ ـ ٢ (٠١٩ ـ ٠٢٥).

(٢) من أمانة سر القيادة الحزبية إلى أمناء سر فروع الحزب: «مقترحات»، ٢٤ ديسمبر ١٩٩١، القيادة القطرية لحزب البعث، ١٧٤ ـ ٣ ـ ٢ (٢٨٣ ـ ٢٨٧). انظر أيضاً قوائم أسرى الحرب المتميزين في القيادة القطرية لحزب البعث، ١٧٤ ـ ٣ ـ ٢ (٢٥٩ ـ ٢٦١).

كان الاستشهاد عملاً من أعمال البطولة، والأهم من ذلك، أنه وسيلة لتحقيق الأهداف التي يحددها النظام. وعندما يتحدث عن الفترة من ١٩٧٤ حتى ١٩٧٩، يذكر في نبرة عادية أن ١٦,٠٠٠ من الجيش العراقي قد قتلوا أو أصيبوا في المعارك ضد الردة (الحرب ضد التمرد) في شمال العراق. ما كان مهما، كما كان يؤكد، هو أن ذلك الجيل كان جيلا من الأبطال، وتساءل إن كان يمكن لأي جيل أن يكون بطلا دون تضحيات[١].

كانت المكافآت لأسماء الشهداء وعائلاتهم سخية وكثيرة. وتم إنشاء «صندوق الشهداء» لمساندة عائلات من سقطوا قتلى وهم يقاتلون في الشمال ضد تمرد الأكراد[٢]. وبعد حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١، تم اتخاذ قرار بمنح صفة لكل الشهداء الذين سقطوا في «قادسية صدام وفي معركة أم المعارك» وهي لقب «أصدقاء الرئيس القائد»[٣]. وفي عام ١٩٩٩ تم إصدار قرار آخر بمكافأة كل من قتل في «محاربة الأعداء» بـ ٢ مليون دينار عراقي (نحو ٢٠٠٠ دولار أميركي)، وكل من أصيب بمليون دينار عراقي (تقريبا ١٠٠٠ دولار أميركي). ولم تعلن أية تفسيرات عن كنه أولئك الأعداء، غير أن القانون تم تطبيقه على كل أعضاء الأجهزة الاستخباراتية والأمنية كما تم تطبيقه على القوات المسلحة[٤].

---

(١) صدام حسين: «المختارات»، الجزء ٤، صفحة ٣٦١.

(٢) من مدير أمن السليمانية إلى مسؤول الشؤون المالية بالسليمانية: «تمويل للشهداء والمحتاجين من بين الشرطة»، ١٠ يناير ١٩٧٦، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٠١، صندوق وثائق ٢.

(٣) مجلس قيادة الثورة، قرار رقم ٢١٢، ٢٤ ديسمبر ١٩٩٣، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٨ ـ ٤ ـ ٦ (٣٩٠).

(٤) من أمانة سر الحزب إلى كل قيادات الفروع: «أمر»، ١٥ أغسطس ١٩٩٩، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ٤ ـ ١.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت المكافآت تتناسب مع عدد الشهداء الذين ضحت بهم العائلات من أجل النظام. وكان صدام حسين فخورا جداً بالعائلات التي قدمت عددا كبيراً من أبنائها شهداء. وقال صدام حسين ساخرا من الرئيس السوري حافظ الأسد بسبب ضياع مرتفعات الجولان السورية:

أليس ذلك شيئاً يدعونا للفخر أن آلافا من العراقيين سقطوا شهداء وهم يقاتلون الفرس، بينما أنت يا أخ حافظ فقدت في حرب عام ١٩٦٧، ١٣٧ شهيدا فقط، ولكن فقدت سوريا مرتفعات الجولان... لن نضحي بالآلاف فقط ولكننا سوف نضحي بالملايين يا أخ حافظ، لأنها مسألة فخر لنا..... الخسارة الأهم ليست خسارة دم الشهداء بل خسارة أرض الوطن وخسارة السيادة على التراب الوطني وخسارة الكرامة[1].

ونتيجة لذلك، كلما ازداد عدد الشهداء من عائلة ما، كلما علت قيمة المكافآت التي تتلقاها تلك العائلة. كانت العائلات التي يسقط منها ثلاثة أو أكثر من الشهداء تعرف باسم «العائلات المتميزة»، والتقى صدام بعائلات كثيرة منها كما اختصهم بهبات شخصية. وطلب من الحزب في أواخر عقد الثمانينيات أن يقوم بمسح شامل في جميع أنحاء العراق لتلك العائلات والتأكد من أن الشهداء ينتمون مباشرة لتلك العائلات

(أب، أو أبن، أو شقيق). وفي تقرير مختصر موجه للرئيس ذاته، أظهرت الإحصاءات أنه أثناء «قادسية صدام» كانت توجد ٣٣٧ عائلة سقط من أبنائها ثلاثة شهداء، و٢٩ عائلة سقط منها أربعة شهداء، و٧ عائلات سقط منها خمسة شهداء، وعائلتان سقط منها ستة شهداء. وشملت أعداد العائلات تلك العائلات التي فقدت أبناءها بسبب القصف

(١) صدام حسين: «المختارات»، الجزء ٣، صفحة٩٤.

الإيراني للمدن العراقية، إضافة لأولئك الذين قتلوا في ساحات المعارك[1].

ومع ربط إدراك صدام لعبادة شخصيته بافتخاره بتلك العائلات ورغبته في تبرير الحروب وعمليات التطهير، قال صدام حسين لصحافي عربي:

هنا في هذا المكتب استقبلت خلال الشهرين الماضيين آلافا من كبار السن والأطفال الذين كانوا يعزونني في فقد أبائهم وأبنائهم... كانوا يقولون لي: أنت أبونا... العراق أبونا.. الجيش أبونا... وأنا أتعجب وأتساءل.. من علم أولئك الناس أن يكون لهم روح الإرادة تلك؟ وإجابتي على ذلك أنها الثورة، المعلم الأعظم للجميع. أي إنسان يمكنه أن يقول ما يريد، من أننا متعطشون للدماء، ولكن [من المقبول] أن تقطع تلك الأعناق لتطهير البلاد من قذارة الانحراف، والتآمر والخيانة[2].

كانت هناك مراسم كثيرة ومتعددة للاحتفاء بالاستشهاد، وعين يوم الشهيد في الأول من ديسمبر من كل عام يوم ليكون عطلة رسمية[3]. تلك المراسم الاحتفائية تم التخطيط لها بعناية وبأدق التفاصيل من أداء الصلوات العلنية المذاعة على أرواح الشهداء، وإلقاء الخطب والأحاديث، وزيارات مسؤولي الحزب لعائلات الشهداء، ومسيرات

---

(١) من مدير مكتب أمانة سر القطر للمنطقة إلى الرفيق القائد، المناضل سكرتير عام الحزب، ٣٠ يوليو ١٩٨٩، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٤ ـ ٢ ـ ٢ (٠٠١ ـ ٠٠٣).

(٢) صدام حسين: «المختارات»، الجزء ٣، صفحة ٨٨، كانت المقابلة مع نصر الدين النشاشيبي وتم في ١٩ يناير ١٩٨١.

(٣) تم اختيار الأول من ديسمبر لأن في ١ ديسمبر ١٩٨١ قامت إيران بإعدام أعداد غير محددة من أسرى الحرب العراقيين. انظر المكتب العسكري، «يوم الشهيد»، ١٦ يناير ١٩٨٢، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٠٣، صندوق ٠٠٧.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تحمل شعارات صدام حسين وحزب البعث. وعدا تذكر من ماتوا، أراد الحزب من ذلك اليوم تذكير الناس بالحاجة إلى الاستمرار في بذل التضحيات من أجل الوطن وقيادته[١].

الغزو في ٢٠٠٣

بعد أن أصبح من الواضح في صيف عام ٢٠٠٢ أن الحرب أو غزو العراق سوف يحدث لا محالة، بدأ الجيش والحزب في الاستعداد بجدية له. وتظهر مئات من الوثائق بوضوح التجهيزات والاستعدادات الشاملة على كل مستويات المواجهة العسكرية المرتقبة. كان من المفترض أن يلعب حزب البعث دوراً حاسما في قتال الغزاة الأمريكان، وعلى وجه الخصوص في المدن الداخلية، وكذلك في حماية المنشآت الحيوية. وكان من قبل ذلك في شهر أغسطس من عام ٢٠٠١، قد انتهى من إعداد خطة مفصلة لمواجهة الغزو[٢]. وبحلول شهر اكتوبر ٢٠٠٢، تم وضع خطة طوارئ، وتحديد دور المكاتب العسكرية بوضوح ودقة: وهي ترسيخ مزيد من الانضباط بين الوحدات العسكرية أثناء الغزو المتوقع.

وأسندت لفروع الحزب أغلب المسؤوليات المتعلقة بالدفاع الجوي، بمقاومة المروحيات القتالية الغازية، و«السيطرة على أعداء الداخل»[٣]. وبينما كان لكل فرع خطته للطوارئ لمواجهة الغزو، يبدو أنه لم يكن

---

(١) من الديوان الرئاسي إلى كل الوزراء والبلديات: «الاحتفال بيوم الشهيد»، ٢٠ نوفمبر ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٤ ـ ٣ ـ ١ (٠٠١ ـ ٠٠٤).

(٢) من أمانة سر فرع الكرخ، تنظيم بغداد إلى الإدارة العامة: «توصيات لمكافحة الغزو»، ١٥ أغسطس ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث ٠٠٤ ـ ٤ ـ ٦ (١٨٥ ـ ١٨٩).

(٣) ضابط الأمن بالكرخ، فرع بغداد إلى فرع القائد المنتصر، بغداد، ٥ أكتوبر ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ٢ ـ ٦ (٠٠١ ـ ٠٠٨).

هناك إلا أقل قدر من التنسيق والتعاون مع الجيش، على الرغم من أن الخطط كانت قد وضعت متزامنة مع المؤسسات الأمنية والاستخباراتية للنظام. على سبيل المثال، في خطة مكونة من خمس عشر صفحة لفرع من فروع الحزب في بغداد، لم يوجد ذكر ولا لمرة واحدة للقوات المسلحة ولا لذكر أي نوع من التعاون والتنسيق معها، حتى حين كانت الخطة تأتي على ذكر ومناقشة الدفاع الجوي والدفاع المدني للمدينة[١]. وضعت دراسات بمختلف التصورات والتخيلات عن الغزو وكيفية التعامل مع أي إسقاط جوي مقابل هجوم قوات برية. تم الإعداد أيضاً للتخزين الاستراتيجي للنفط والسلع الرئيسة[٢].

كان السؤال الجوهري الذي كان بحاجة لتوجيهه هو لماذا، مع كل الإعداد والتجهيز والتحضير وإدراك النظام الواضح لنوايا الأميركيين وحلفائهم، لم تتم ترجمة إلا قليل من تلك الإعدادات والاستعدادات إلي فعل حقيقي، وحين تحول ذلك القليل إلى فعل حقيقي، فلماذا كان غير مؤثر إلى تلك الدرجة؟ وسوف يستمر المؤرخون والمحللون الاستراتيجيون في طرح ذلك التساؤل ومناقشته على مدى زمني طويل. ويعزو وودز، وهو مؤرخ عسكري، جانبا من ذلك الانهيار إلى تداعيات تحول صدام حسين إلى متخذ للقرارات العسكرية[٣].

وكان للرئيس رأي آخر حول ذلك بالطبع. فحين تحدث لمحاميه من زنزانة سجنه، ذكر صدام حسين اثنى عشر سببا يفسر بها كيف كان الغزو سريعا وناجحا. من بين تلك الأسباب، الثلاثة عشر عاماً من

---

(١) من أمانة سر فرع القائد المنتصر، بغداد إلى كل الفروع: «خطة طوارئ»، ٢١ فبراير ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ٢ ـ ٦ (٣٧٢ ـ ٣٨٨).

(٢) القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ٢ ـ ٦ (٢٤٩)، في الأغلب من أبريل ومايو ٢٠٠٢.

(٣) وودز وآخرون: «أوهام صدام»، صفحات ٢ ـ ٤.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

العقوبات الاقتصادية التي فرضت من المجتمع الدولي على العراق والتي أضعفت البلاد إلى حد الإنهاك، وقصف المدن بأساليب «غير إنسانية» ووحشية، والمعرفة الدقيقة للأمريكان بكل المنشآت الاستراتيجية للدولة، وانقطاع الاتصال والتواصل بين قيادة الجيش ووحداته الميدانية بفضل التقنيات الأمريكية الحديثة. (وفي الحقيقة، استمر الاتصال دون انقطاع على مدى الأسبوعين الأولين من الحرب ثم تداعت وانهارت آليا بعد ذلك)[1]. وشعر بأن «الخديعة الإيرانية المزدوجة» كانت عنصرا هاما في تسهيل اقتحام القوات الأمريكية والبريطانية للعراق. ومن المثير للانتباه، أن صدام حسين قد أقر بأن إخضاع القيادة العسكرية للقيادة السياسية ربما يكون قد أدى لانهيار الدفاعات العسكرية، ولكنه تعلل بأنه شعر بأن المعركة كانت معركة «مصيرنا» وهكذا كان من الضروري للذراع السياسي للنظام أن يهيمن على القوات المسلحة[2].

وقدم مترجم صدام حسين وجهة نظر مختلفة عن أسباب الانهيار السريع، وكان قد عمل قريباً منه حتى الغزو، ففي مذكراته، تحدث عن خيانة كثير من كبار قادة الجيش ورجال الاستخبارات، بما فيهم رئيس الاستخبارات (المخابرات العسكرية)، والذي وجه إليه اللوم عن إبلاغه للأمريكان عن مكان صدام حسين في ٧ أبريل ٢٠٠٣، حين أطلقت صواريخ أمريكية باتجاه بيت كان يوجد به الرئيس قبل دقائق قليلة من إطلاقها. وطبقا لتلك الرؤية، فإن صدام حسين أبلغ صديق مقرب له بالكاد قبل فراره أن «شعب الجنوب [جنوب العراق ويقصد بهم الشيعة]

---

(١) انظر على سبيل المثال المذكرة المؤرخة في ١٩ مارس ٢٠٠٣، وواحدة أخرى بتاريخ ٧ أبريل ٢٠٠٣، في مركز تسجيلات إدارة الصراع.

(٢) خليل الدليمي: «صدام حسين من الزنزانة الأمريكية: هذا ما حدث» (الخرطوم، شركة المنبر للطباعة، ٢٠٠٩)، صفحات ١٣٣ ـ ١٣٨.

أكثر شجاعة من أولئك المحيطين بي وخانوني؛ وهم ليسوا أفضل من نعل حذائي»[1]. وحين سأله محاميه عن تلك الخيانات، كان صدام في حالة إنكار؛ وتحجج بأن خيانات حدثت بالفعل في قمة المعركة ولكن لم يرتكب أي من تلك الخيانات أي من كبار قادة الجيش أو المخابرات[2]. ومن المؤكد ـ ليس فقط من وجهة نظر العسكريين ـ أن عناصر كثيرة تضافرت وأدت إلى ذلك السقوط السريع والمروع للنظام.

والنتيجة، لا يوجد أدنى شك أن صدام حسين ونظام حزب البعث نجحا في الهيمنة والسيطرة على القوات المسلحة؛ وأن قيادة الحزب ظلت متحدة، مما جعل من المستحيل على وجه التقريب للعسكريين أن يكونوا قوة سياسية مستقلة. كانت الهيمنة المدنية واختراق الجيش (وأيضاً للخدمة المدنية) مؤثرة لأبعد مدى في منع وقوع انقلاب عسكري أو تغيير للنظام من داخله على مدى خمسة وثلاثين عاماً.

---

(١) عبد المجيد: «سنوات صدام»، صفحة ٤١.

(٢) الدليمي: «صدام حسين من الزنزانة الأمريكية»، صفحات ١٣٩ ـ ١٤٠.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل السادس

عبادة شخصية صدام حسين

لفهم حزب البعث في العراق في الفترة من عام ١٩٦٨ حتى عام ٢٠٠٣ بعمق أكبر، على المرء أن يركز على أكثر شخصياته المهيمنة، أي صدام حسين. كرس الحزب قدراً كبيراً جداً من طاقته ومصادر تمويله في بناء صورة قائده، ومن منتصف الثمانينيات جسدت فلسفة البعث والتعليم الذي يقدمه الحزب نوعاً من عبادة الفرد أكثر من كونها أيديولوجية سياسية. شيدت صروح ضخمة لصدام حسين، مثل قوس النصر، المكوَّن من سيفين مستقرين في نموذجين ليديه، ومنقوش عليه شكل أرض مدينة بغداد ثم تحوَّل بعد ذلك ليصبح رمزا دوليا دالا على نظامه. وعلى ضوء دوره الحيوي بعد الاستيلاء على الرئاسة عام ١٩٧٩ حتى الإطاحة به في أبريل ٢٠٠٣، يمكن لأي امرئ أن يطلق بحق على تلك الأربعة وعشرين عاماً «الفترة الصدامية»، والتي تماثل في الشكل المرحلة الستالينية السوفييتية أو الماوية الصينية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

صدام حسين: الرجل والقائد

نشرت أعمال كثيرة تناولت حياة صدام حسين وحللت حياته وشخصيته[1]، وليس هدفي أن أعيد نشر تلك التفاصيل. بل أهدف إلى فحص كيف تداخل وتضافر نظام حزب البعث مع عبادة شخصية الرئيس وكيف أثر ذلك على حكم العراق. وكيف أصبح صدام حسين كلي القدرة والنفوذ طاغي الظل على كل مكان بالعراق للدرجة التي وصلت به لاتخاذ أي قرار شاء متى شاء، دون معارضة تذكر من جانب أية جماعة أو مؤسسة؟ ولفهم كيف صنعت عبادة صدام، فلابد من وضعها في إطار ثقافي واقتصادي وسياسي أوسع.

منذ استقلال العراق، أصبح المعتاد أن يصل لحكمه رجال أقوياء، بدءاً من الملك فيصل الأول واستمر ذلك أيضاً حتى بعد الإطاحة بالملكية في عام ١٩٥٨، حين أصبح عبد الكريم قاسم «الزعيم الأوحد». وعانى شعب العراق لأزمان طويلة من عدم الاستقرار وتعدد الانقلابات العسكرية التي أثرت على تطور العراق وتنميته. وخلق وصول صدام حسين للسلطة مشاعر معينة من الاستقرار بالعراق، وبدأت الطفرة الاقتصادية بالزيادة الهائلة التي حدثت في عوائد النفط بعد حرب الشرق الأوسط عام ١٩٧٣، وتأميم العراق لشركات النفط العاملة في العراق

---

(١) من بين تلك السير الذاتية تلك التي التي كتبها إفريم كارش وإنري روتسي: «صدام حسين: سيرة سياسية ذاتية» (نيو يورك: المطبعة الحرة، ١٩٩١)؛ أبو ريش: «صدام حسين: سياسات الانتقام؛ شيفا بلاغي: صدام حسين: سيرة ذاتية» (ويستبورد سي تي: مطبعة جرينوود، ٢٠٠٦)؛ جيرولد إم بوست وأماتزيا بارام: «صدام هو العراق: العراق هو صدام» (قاعدة ماكسويل الجوية، القوات المتعددة الجنسيات، مركز منع التعددية، الورقة رقم ١٧، ٢٠٠٢).

في بداية عقد السبعينيات مما أتاح لصدام فرصة ترسيخ هيمنتة على نظام الحكم وعلى الدولة في مجملها. وحقق العراق تقدما في جميع المجالات ـ خاصة في عقد السبعينيات ـ واستفاد العراقيون الذين لم يكونوا معارضين للنظام ولا ناشطين سياسيين من مجمل التحسن الاقتصادي، والتعليمي، والاجتماعي.

كانت لعبادة شخصية القائد صدام حسين أنماط ونماذج سابقة ومماثلة في تاريخ العالم ولا يحتمل أن تكون الأخيرة من نوعها. كان كل من هتلر في ألمانيا، وشاوشيسكو في رومانيا، وكيم إل سونج في كوريا الشمالية، وسبارمورات نيازوف في تركمانستان، وحافظ الأسد في سوريا، مجرد نماذج مماثلة قرأعنها صدام حسين، وكان آخر أربعة منهم من المعاصرين له. والمقارنة بكل تلك الشخصيات الديكتاتورية تظهر نماذج موازية ومشابهة بقوة لجمع صدام كل خيوط السلطة والهيمنة في يديه.

ولد صدام في قرية صغيرة اسمها العوجة تقع جنوب تكريت في ٢٨ أبريل عام ١٩٣٧، من مطلع شبابه ظل منخرطاً في أنشطة سياسية، وفي سن الثانية والعشرين من عمره، شارك في محاولة اغتيال فاشلة لعبد الكريم قاسم. وفي عام ١٩٦٨، وبعد أن وصل حزب البعث للسلطة، أصبح لصدام حسين مركز أقوى بسبب القرابة التي تربطه بأحمد حسن البكر الذي أصبح رئيسا للدولة كأبناء عمومة. وبدأ في بناء شبكة علاقات ليزرع لنفسه سلطة، وفي يوليو عام ١٩٦٨ حين كان عمره لم يتجاوز بعد إحدى وثلاثين عاماً، تم تعيينه نائبا للرئيس. ولم تحل حقيقة أن صدام حسين على عكس الرؤساء السابقين للعراق لم يدرس أبداً في أية كلية عسكرية، دون تقدمه نحو حيازة السلطة. وتم تحويل قصة طفولته إلى مثال أسطوري: كيف أحب الدراسة؛ وكيف تغلب على كل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المعوقات التي تواجه من يحيا في قرية بدائية وكيف كان لديه وعي بـ «المصير القومي لبلاده» من طفولته المبكرة[١].

ولا يوجد أدنى شك في أن صدام حسين كان يجمع بين الفطنة والذكاء وحدة الذهن، كما كان موهوبا جداً في التعامل مع مختلف المواقف وتحويلها إلى صالحه. «وعرف كيف يؤثر في الناس من أدنى المستويات»[٢] كما عرف كيف يستخدم قوة تأثيره وجاذبيته على الأصدقاء والأعداء بذات القدر. بعض من عملوا مع صدام حسين ممن أجريت حوارات معهم في صيف عام ٢٠١٠ استرجعوا ذكرياتهم معه، وأجمعوا على أنه كان شديد الجاذبية والعذوبة، وهين ولين وعطوف، وكريم، شديد الاهتمام بمن يلتقي بهم ويراعي مشاعر الغير. «ولم يكن هوائيا سريع رد الفعل، فقد كان يتخذ القرار بعد تفكير عقلاني، وكان في كثير من المواقف في غاية الصبر؛ وبالفعل، كان يستخدم عنصر الوقت كسلاح»[٣]. ولما كان معاونوه يعرفون أدق التفاصيل عن شخصيته، ذكروا أيضاً أنه كان متقلباً ونزوياً أيضاً، وقاسياً بلا شفقة ولا رحمة، بل كان شريراً أيضاً، ولا يريد أن يستمع لأي صوت غير صوته.

---

(١) مركز سجلات أبحاث الصراع. يحتوي هذا الملف على صور عن حياة صدام حسين ودراسته. بعض الصور تنتمي لأرشيف الحزب، وبعض آخر خاص بوزارة الثقافة والإعلام.

(٢) تشارلز دلفير: «لعبة الاستخفاء: البحث عن الحقيقة في العراق» (نيو يورك، الشؤون العامة، ٢٠٠٩)، صفحة ٣٨٦. كان ديلفير مستشارا خاصاً بالعراق في عملية البحث عن أسلحة الدمار الشامل، ويحتوي كتابه على حكايات طريفة عن صدام حسين ومن يعملون معه.

(٣) جيرولد إم بوست: «صدام حسين العراق: صورة للسياسة النفسية». في طبعة جيرولد إم بوست، فحص نفسي للقادة السياسيين: مع صورة نفسية لصدام حسين وبيل كلينتون، طبعة بغلاف ورقي (آن أربور: مطبوعات جامعة ميتشيجان، ٢٠٠٥)، صفحة ٣٤٢.

كان يدعي على الدوام أنه يفهم جيداً نفسية أهل العراق ويمكن له أن يتوقع سلوكهم. وفي كتابه الذي يكشف عن جوانب كثيرة، «رجال ومدينة»، يحكي قصة شيخ عشيرة امتطى بغلته وساقها لأيام من قريته النائية ليرسل برقية لضباط الجيش الذين قادوا انقلاباً عسكرياً عام ١٩٤١ ضد النظام الملكي يوصيهم في تلك البرقية بأن ينتهزوا فرصة ضعف الإدارة البريطانية في العراق. ولما وصل إلى مكتب البريد في أقرب مدينة لقريته، أملى الشيخ على عامل البرق نص برقيته التي يؤيد فيها الضباط الذين قاموا بالانقلاب على السلطة الملكية ولكنه اكتشف أنه خلال الوقت الذي قطع فيه الطريق من قريته للمدينة، عاد البريطانيون والأسرة الملكية للهيمنة على السلطة من جديد. وبدون أدنى تردد، أرسل برقية التأييد ذاتها إلى العاهل الملكي بدلاً من إرسالها لضباط الجيش[١].

مغزى القصة كما فهمها صدام حسين يكمن في إيمانه من سنٍّ مبكرة أن الناس لا تحترم ألا شيئاً واحدا فقط: وهو السلطة. في الكتاب ذاته يتذكر صدام قصصا عديدة يبرز فيها قوته البدنية والعقلية، في مواجهة خصوم أكبر وأقوى منه حتى تم له التغلب عليهم، وكيف أن أولئك المحيطون به، سواء كانوا أطفالا وأصبحوا بعد ذلك أعضاء بالحزب، قد نشأوا على احترامه وخشية جانبه[٢].

صحب مبدأ أن يكون قويا صدام حسين في كل وقت وبأي ثمن طوال حياته. وسواء في روايته «رجال ومدينة»أو في إحدى سيره الذاتية التي كتبت «بأمر» منه تحت اسم «الأيام الطويلة»، والتي اعتمدت أساسا على محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم عام ١٩٥٩، لم يقع الأبطال في

---

(١) صدام حسين: «رجال ومدينة»، صفحات ٧٥ ـ ٧٦.

(٢) المصدر السابق، صفحات ١٣٦ و١٨٩.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ذلك الكتاب أبداً تحت وطأة الخوف أو فقدوا سيطرتهم على المواقف، حتى حين قام طبيب بعمل جراحة للبطل (أي صدام حسين) لإخراج طلقة نارية أصيب بها البطل من أحد حراس عبد الكريم قاسم[1].

تلك القصة عن «بطولة» صدام حسين في محاولته اغتيال عبد الكريم قاسم أصبحت من أهم مكونات عالم الميثولوجيا في حزب البعث. حتى الدراجة النارية التي استعملها صدام مع رفيق آخر للهرب إلى سوريا بعد فشل المحاولة استعيدت بعد ذلك بعامين ووضعت ضمن مقتنيات متحف الحزب[2].

وكان إصراره على ألا يظهر أي ضعف هو المفتاح لفهم رفضه أن يخبر الأمريكان ومفتشي الأمم المتحدة بأنه لا توجد بالعراق أي أسلحة دمار شامل، وبذلك تسبب في معاناة شديدة لبلاده تحت وطأة العقوبات الدولية كما وفر بالمكون الشخصي ذاته الأسباب للولايات المتحدة التي انتهت بغزو العراق، وبتركيب ذلك الاحتياج النفسي القهري لإظهار القوة يظهر جليا عناد صدام حسين بمجرد أن يتخذ قرارا وعناده من

---

(١) عبد الأمير معلة: «الأيام الطويلة» (بغداد: وزارة الإعلام، ١٩٧٨)، صفحات ٧٤ و١١٠. يعتمد الكتاب على محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم، وتحول إلى فيلم طويل. ولم يكن بطل الفيلم إلا ابن عم صدام، واسمه أيضاً صدام كامل، وهو شقيق حسين كامل. وحين فر الإثنان إلى الأردن في ٧ أغسطس ١٩٩٥، مع زوجتيهما وكانتا ابنتا صدام حسين، منع عرض الفيلم وتم عمل نسخة جديدة. لتفاصيل الجدل الذي أثير حول إنتاج الفيلم إرجع إلى المقالات التي نشرت عن ذلك على الانترنت في ٢٦ أبريل ٢٠١٠، انظر أيضاً كتاب صدام حسين: «رجال ومدينة»، صفحات ٢٤٧ ـ ٢٥١. ولمعرفة تفاصيل عن هروب حسين كامل إرجع إلى تريب: «تاريخ العراق»، صفحة ٢٦٧.

(٢) لمعرفة قصة كيفية استعادة الدراجة النارية ومغزاها بالنسبة لحزب البعث، انظر المذكرة التي كتبت لعلي حسن المجيد في ٢٥ يونيو ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٥ ـ ٤ ـ ٦.

منتصف عقد الثمانينيات حتى رفضه قبول أي أنباء سلبية عن نظام الحكم وإنجازاته. (على الرغم من أنه، كما سنشرح لاحقاً، كانت لديه القدرة على تغيير آرائه السابقة في مواضيع وأمور جوهرية لتحقيق أغراضه وأهدافه إن كانت الآراء السابقة تتعارض مع تحقيق تلك الأهداف). وفي مؤتمر عقد لتحليل حرب ١٩٩١ وحضره كبار قادة الجيش، ازدرى صدام بكل من قدم وجهات نظر كئيبة عن العسكرية العراقية، قائلاً:

«لا أسمح للجوانب السوداوية ولا أسمح إلا للجوانب المشرقة»[١].

ذلك الاحتياج لإظهار القوة ربما كان ينبثق باستمرار من جنون العظمة، وسيان كان ذلك حقيقيا أم متخيلا، كان صدام يشعر على الدوام بأنه محاط بأعداء. ووقعت محاولات كثيرة لاغتياله؛ وسجل رئيس مخابراته العسكرية سبع محاولات لاغتياله في عام ١٩٨٢، وفي العقدين التاليين، وقعت محاولات عديدة أخرى لاغتياله، أو اغتيال أسرته، أو معاونيه المقربين[٢]. لم تكن تعتري صدام أي مشاعر خوف أو ضعف؛ وكان من النادر أن تنمَّ ملامح وجهه عن حالته الداخلية أو ما يدور بخلده، وكان يخيف من يلتقون به ومن يقابلونه بتلميحه إلى أن بإمكانه أن يقرأ ما يدور بخواطرهم وأن بإمكانه أن يعرف إن كانوا معه

---

(١) لقاءات مع الجنرال الحمداني، ١٦ يونيو ٢٠١٠، وكان ذلك الملتقى في ٢٧ نوفمبر ١٩٩٥.

(٢) برزان التكريتي: «محاولات اغتيال الرئيس». كما تعرض عدي صدام لمحاولة اغتيال في ديسمبر ١٩٩٦ والتي سببت له شللا نصفيا في الأطراف السفلى. انظر أماتزيا بارام: «البناء باتجاه كارثة: استراتيجية صدام حسين للبقاء» (واشنطن العاصمة: معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى، ورقة سياسية رقم٤٧ لعام ١٩٩٨)، صفحات ١٧ ـ ٢٠.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أو ضده. ومثل ستالين، كان يراقب الجميع، بطريقة «القانص المفترس الفاهم لسلوك طريدته وفريسته»[1]. ومن ثم، لم يكن صدام حسين يثق بأي أحد، ولا حتى بأفراد أسرته ذاتها. وتأججت مشاعر جنون العظمة لديه وانعدام ثقتة بأي كائن بعد حدثين أثرا فيه تأثيراً عميقاً: الأول انتفاضة عام ١٩٩١ والثاني فرار زوج ابنته حسين كامل إلى عمان بالأردن عام ١٩٩٥.

وفي مراجعة لانتفاضة عام ١٩٩١ في اجتماع ضم قادة الجيش في عام ١٩٩٢، أقر صدام حسين ـ على غير عادته ـ أنه يتحمل بعض المسؤولية في تقديره لردة الفعل الشعبية بأقل من قدرها الحقيقي:

العنصر الرئيس الذي قد أكون قد ساهمت فيه إلى حد ما، هو ثقتي المطلقة في شعبنا. وبعبارة أخرى، فإن ما حدث لم يكن من الممكن التنبؤ به، ولذلك لم نكن مستعدين لمواجهة مثل ذلك العنصر.... فأنا لم أتوقع أبداً أن بعض من شعبنا، بعض قليل منه، سوف يخوننا ويتحد مع أولئك القادمين عبر الحدود من إيران. ظننت أن ذلك لا يمكن أن يحدث أبدا. على أي حال، فالأشياء التي لا تتوقع حدوثها، يحتمل أن تقع بالفعل[2].

وشكل فرار زوج ابنته حسين كامل المفاجئ ضربة قاسية أخرى لصدام حسين، فقد كان يحبه ويكن له مشاعر طيبة جدا، وكان يثق بأحكامه وتقديراته. كان كامل مثالا للشخصية المتملقة، وعرف ـ على ضيق الجنرالات وكبار رجال الحزب بذلك ـ كيف يبهر الرئيس وأن يقول في مواجهته كل الآراء التي يرى أنها صائبة دون خوف وكل ما لا

---

(١) أوفري: «الديكتاتوريين»، صفحات ١٠ ـ ١١.

(٢) مجلس قيادة الثورة العراقية: «صدام حسين وقادة جيشه»، فبراير ١٩٩٢، مركز وثائق إدارة الصراع.

يجرؤ غيره على قوله في مواجهته.. ونشأ صراع وعدم ثقة عميق ومنافسة شرسة على الاستحواذ باهتمام الرئيس بين كامل ونجل الرئيس، عدي، كان كامل من بين قلة قليلة جداً ممن تجرأوا على إخبار صدام حسين بتجاوزات ابنه عدي وأن ينتقد أفعاله أمام الرئيس. وفي خطاب أرسله للرئيس، اشتكى من أن عدي يسخر صحيفة «بابل» التي يرأسها لمهاجمة النظام واللجنة الاقتصادية التي كان كامل أحد أعضائها. وحث صدام على التصرف إزاء ما يفعله عدي لأن عدي «يعلم أنه لا يوجد من يمكنه التصدي له، ولهذا أود أن تعفيني من القيام بتلك المهمة في اللجنة الاقتصادية، التي لا يطيقها عدي ويتسبب في إيلامنا وتحقيرنا أمام الرأي العام»[1].

وبالفعل، كانت مشاكل عدي وسوء سلوكه يشغل كثيراً من وقت وطاقة الرئيس والحاشية خلال تلك الفترة.

كان صدام حسين يلعب على الدوام لعبة شطرنج سياسية مع أصدقائه وأعدائه على السواء؛ كمثال لذلك أقال وزيره للزراعة والري من منصبه، وأعلن للرأي العام أنه فشل في الإعداد والتصدي للفياضانات في الأعوام الأخيرة من عقد الثمانينيات، فعل ذلك ليعلن له لاحقا أن ذلك لم يكن إلا حيلة ليجعل معارضه في الديوان الرئاسي يعتقد أن الرئيس يقف في صفه. وأعاد بعد ذلك الوزير لمنصبه وقام بشنق معارض الوزير المسؤول في الديوان الرئاسي عن الزراعة[2]. ولم

---

(١) رسائل من العميد حسين كامل إلى السيد الرئيس، القائد، ٢٧ ديسمبر ١٩٩٢، مركز سجلات أبحاث الصراع.

(٢) مقابلة مع الوزير، ١٥ يونيو ٢٠١٠. كان الوزير عضواً نشطاً في البعث من سن مبكرة، ومحافظ محافظة، ووزيرا لمرتين. كان مسؤولو الديوان الرئاسي ينافسون ويصارعون الوزراء لنيل حظوة أكبر عند الرئيس، كما هو مشروح في الفصل الثامن.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تعرف قسوته وإخافته لجنرالات جيشه، ووزرائه، بل وحتى أفراد أسرته ذاتها أي حدود أو قيود.

حكى لي أحد وزرائه ممن التقيت بهم قصة مخيفة ومرعبة عندما أمره صدام حسين بمصادرة أراضٍ زراعية تخص شركة أسمها «الساجد». وبعد أسابيع من تلقيه الأمر، تلقى مدير مكتبه اتصالا هدده فيه المتصل بأنهم لو استمروا في إجراءات مصادرة تلك الأرض «فسوف يلقون بجثته وجثة وزيره في مكب النفايات»، وتبين أن تلك الأراضي تخص أفرادا في عائلة صدام حسين، وحتى اليوم لا يعرف ذلك الوزير إن كان ذلك الأمر فخا دبره صدام حسين ذاته للنيل منه. ووجد الوزير نفسه في موقف لا يحسد عليه: فمن جهة لديه أمر من الرئيس عليه تنفيذه، ومن جهة أخرى أصبح هو وكبار رجال وزارته مهددين بطريقة غير مباشرة من قبل أفراد من أسرة القائد الزعيم.

وجرت بعض الاتصالات الهاتفية بين الوزير وبعض كبار رجال وزارته حول تلك المسألة، وفي ذات الوقت كتب الوزير إلى مكتب الرئيس الذي ينظم المواعيد والمقابلات اليومية للرئيس طالبا تخصيص موعد لعقد اجتماع خاص مع الرئيس. وتم إرسال ثلاثة طلبات لاحقة للديوان الرئاسي دون تلقي أي استجابة لطلبه، وتبع ذلك بطلب مباشر بعد انتهاء اجتماع مجلس الوزراء الأسبوعي الذي يترأسه صدام للقاء الرئيس على انفراد. قال لي ذلك الوزير أنه أدرك أنه قد أصبح في ورطة وأحس أنه لايملك أي حيلة ولا وسيلة للخروج من ذلك المأزق، فلم يبد الرئيس أية رغبة في لقائه ليسمع منه تفاصيل المشكلة.

وفي الاجتماع الأسبوعي لمجلس الوزراء الذي عقد في ديسمبر عام ١٩٩٤، دخل الوزير لقاعة الاجتماعات ليتفاجأ بوجود عدد كبير من رجال المخابرات والأمن بالقاعة ومعهم أجهزة تسجيل ضخمة، وجلس

بلا حراك، مثل باقي الوزراء، منتظرا أن يبدأ الرئيس الجلسة. وأخبر صدام حسين مجلس الوزراء أنه يريد منهم أن يستمعوا للمكالمات الهاتفية المسجلة التي أجراها أحد زملائهم من الوزراء. وبدأ رجال الأمن في تشغيل أجهزة التسجيل وكانت تحتوي على المكالمات التي أجراها ذلك الوزير مع مرؤسيه، ولكن حجب صوتهم من التسجيلات بحيث يستمع الموجودون فقط لما قاله الوزير في تلك المكالمات الهاتفية. في واحدة من المكالمات، حين أخبره مديرو مكتبه عن التهديدات المتكررة التي يتلقونها، رد الوزير في لحظة غضب شديد لاعنا النظام وقال أن قصي وعدي وحسين كامل (وكانوا من بين أولئك الذين يدعمون أصحاب الشركة الزراعية المطلوب مصادرة أراضيها) ليسوا إلا مجموعة من «رجال العصابات»، ولكن من حسن حظه، لم يذكر الرئيس بالإسم. وفي مكالمة أخرى مسجلة، قال لابنه الذي كان يعمل في الخدمات الاستخبارية أنه كوزير لا حول له ولا قوة في اتخاذ أي قرار.

وخيم صمت عميق على القاعة بعد انتهاء المكالمات المسجلة، ويمكن لأي امرئ أن يتخيل حالة الرعب التي استولت على القلوب لا لدى الوزير فقط، بل لدى كل الوزراء وهم يشهدون ذلك الموقف من تحقير وإهانة الوزير. واستدار الرئيس للوزير وسأله إن كان لديه ما يود قوله. ورد الوزير قائلاً أنه طلب مقابلته خمس مرات ولكن دون طائل، وأنه يود الآن لو أتاح له الرئيس أن يلتقي به على انفراد لخمس دقائق. ورفض صدام حسين قائلاً له أن بإمكانه التحدث أمام الجميع إن كان لديه ما يود قوله. ومن الواضح، أن الوزير أدرك أنه سيعدم لو أفصح أمام كل الوزراء عن حقيقة الأمر وعمن يمتلك تلك الأراضي المطلوب مصادرتها. واستدار صدام حسين لمستشاره القانوني وسأله إن كانت تلك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الحالة تندرج تحت طائلة «قانون التهجم» أم لا، وإن كان ذلك يوجب شنق الوزير[1]. ولحسن حظه، قال المستشار القانوني للرئيس أنه ما دام الوزير لم يهاجم الرئيس مباشرة أو شخصيا، لا يمكن الحكم عليه بمقتضى ذلك القانون. واقتاد رجال الأمن الوزير من قاعة الاجتماعات معصوب العينين، وألقوا به في زنزانة بأحد المعتقلات لبضعة أسابيع.

ونقل الوزير لاحقا إلى سجن أبو غريب، وبعد بضعة أشهر قضت محكمة بحبسه خمسة عشر عاما. وقضى عامين بالسجن حتى أطلق سراحه عام ١٩٩٦. ولكن متاعبه لم تنته عند هذا الحد، فقد كان ابنه الأكبر قد انتحر أثناء فترة سجنه، ولكنه لم يكن قد علم بذلك حتى اليوم الذي نقلته فيه سيارة من السجن إلى القصر الرئاسي. لم يكن الوزير من المحبوبين لحسين كامل، وبعد فرار كامل للأردن، قرر صدام حسين إعادة أعداء حسين كامل من الظل الذي أقصوا إليه، وكان أحدهم ذلك الوزير. وعند وصوله للقصر، حيا صدام حسين الوزير باحتضانه، قائلاً له أنه يحبه ويحترمه، وقال له أنه كان مصيبا جداً فيما يخص حسين كامل، والذي تبين أنه لم يكن مجرما فقط، بل خائناً أيضاً.

ووجد الوزير نفسه ولم يكن يعرف بعد بموت ابنه البكر يتلقى فجأة العزاء في ابنه من الرئيس، الذي قال له «ابنك كان ابني أيضاً». ومنهارا، عاد الوزير لبيته ليعيش أحزانه مع أسرته. وبعد شهر، أرسل إليه صدام حسين رسالة يقول له فيها أن عليه أن ينسى ما فات، لأنه يود أن يعود وزيرا كما كان، ولكن لما رفض الوزير متعللا بأحزانه وحالته الصحية، غضب الرئيس غضباً شديداً. ووضع الوزير قيد الإقامة الجبرية في بيته

---

(١) كما هو مشروح في الفصل الرابع، جعل قانون ١٩٨٦ من سب الرئيس أو مهاجمة الرئيس وقيادته للعراق لفظيا جريمة جنائية.

لعامين آخرين ومنع من مغادرة البلاد. ولا تعد هذه قصة فريدة أو غير متكررة، بل كانت واحدة من وقائع كثيرة مماثلة تعكس المناخ الذي كان سائدا في المستويات العليا من الحكم، وتفسر كيف خضعت الغالبية العظمى من الناس لسلطة صدام الطاغية وهيمنته المطلقة[1]. «كانت لصدام حسين قسوة فريدة، تكاد تكون وحشية محسوبة، بل ربما كان لديه دوافع (سادية) في الرغبة بإيلام الآخرين»[2].

ومن بين أوجه القوة الكبرى لصدام حسين رغم كل ذلك، كانت لديه قدرة على المرونة بل وحتى الرجوع عن بعض القرارات التي اتخذها، سواء في السياسة الداخلية أو الخارجية. أحيانا، حين يشعر أنه قد أساء تقدير أمر ما، كان يغير رأيه، ولكنه لم يعترف أبداً أنه أساء الحكم على أمر ما. فعلى سبيل المثال، غير موقفه من إيران عام ١٩٧٥ وتنازل لها عن التحكم في ممر شط العرب المائي مقابل تخلي إيران عن دعمها للمقاومة الكردية. ثم شنَّ بعد ذلك حرباً على إيران بعد إلغائه معاهدة ١٩٧٥ مع طهران. وفي سياسته الداخلية، قام صدام حسين بإجراء تغيرات فجائية فيما يخص موقفه من العشائرية، والدين، وحالة المرأة (إرجع للفصل الثامن). حتى فيما يختص بأمور تخص أسرته، ومحاباة للأقارب والفساد، فقد كانت له آراء ومواقف تبدو متعارضة: فمن جهة تسامح مع الفساد وشجع محاباة الأبناء، ولكنه من جانب آخر، كان يوبخ ويؤنب مساعديه والمحيطين به بأن يقول لهم، (ومن المثير هنا أن نذكر أنه كان يستعمل على الدوام ضمير الغائب حين يشير إلى نفسه):

صدام حسين غير معني بأن يجعل من حزب البعث الاشتراكي

---

(١) مقابلة مع الوزير، ١١ يوليو ٢٠١٠.

(٢) روبرت فيسك: «صدام حسين: آخر عظماء الطغاة»، جريدة الإندبندنت، ٣٠ ديسمبر ٢٠٠٠.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

العربي أداة أو سلم لأقاربه يتمكنون من خلاله من التسلل إلى السلطة واحدا بعد آخر.... صدام حسين ابن الحزب منذ أن كان تلميذا بالمدرسة حتى الآن. لم يأت يوم أبداً تخيل فيه أنه يفضل نفسه على الحزب أو على الأمة، رغم حقيقة أنه يحكم الأمة ويحكم الحزب... وهم [أعضاء أسرته] في خدمة البعث لا في خدمة أنفسهم. وقد يحصل أي منهم على مركز وظيفي إذا قدم خدمات للبلاد..... أغلب أقاربي أصبحوا جزءاً من السلطة لأنهم أجادوا في زمن الخيانة [انتفاضة ١٩٩١].... أنا أتعامل معهم طبقا لاحتياجات البعث... هل تظنون أنني أسعد حين تهبون أقاربي أراضي؟ ألا تفهمون أن ذلك إنما يعد إهانة لصدام؟... لا تخصصوا أي شيء غير مشروع لأقاربي ولا للضباط الذين يعملون معي، ولا تخشوا أبداً أي امرئ [لو رفضتموهم][١].

لاحظ المتابعون والمعاونون المقربون من صدام حسين أنه قد مر بتغيرات حادة على مرور الزمن، مثلما حدث مع قادة آخرين كـ «ماو تسي تونج». ففي باكورة السبعينيات كان في الغالب مستمعا وجامعا للمعلومات والأفكار، ولكن في باكورة الثمانينيات بدأ يصبح الأكثر حديثا في مجلس قيادة الثورة واجتماعات مجلس الوزراء بدلاً من أن يستمع لوجهات نظر الآخرين، ونادرا ما كان يحدث اختلاف معه أو نقاش جدي حاد في تلك الاجتماعات[٢]. ماو أيضاً الذي كان يعد

---

(١) تسجيل صوتي لاجتماع القيادة العليا، لا يوجد تاريخ محدد بالتسجيل، غير أن ذلك الاجتماع تم بعد فرار حسين كامل للأردن في أغسطس ١٩٩٥. كلماته القوية يجب أن تؤخذ في سياق استغلال حسين كامل لوضعه العائلي كزوج إبنة صدام في تكوين ثروات هائلة، انظر مركز سجلات أبحاث الصراع.

(٢) فخري قدوري: «هكذا عرفت البكر وصدام: رحلة ٣٥ عاماً في حزب البعث» (لندن، دار الحكمة، ٢٠٠٦)، صفحة ١٨٠.

مستمعا جيداً في الأربعينيات تغير تغيرا جذريا مع مرور الوقت حين أصبح «القائد العظيم» في الستينيات[١].

وبعد فرار حسين كامل للأردن، أصبح صدام حسين شديد الانطواء وبدأ يخصص كثيراً من وقته وطاقته لكتابة الكتب وقراءته[٢]. وطوال فترة رئاسته، في حقيقة الأمر، كرس كثيراً من جهده وموارده لكتابة الكتب، بعض من تلك الكتب، مثل «القلعة الحصينة»، المنشور عام ٢٠٠١، بلغ حجمه ما يربو على ٧٠٠ صفحة (ومثل كل كتبه الأخرى، لم تكن تنشر باسمه، ولكنها كانت تنشر تحت اسم «رواية لكاتبها»)[٣]. ومع اقتراب حرب الغزو في ٢٠٠٣، كان صدام حسين مشغولا بمحاولة إتمام روايته «أخرج منها يا ملعون»، والتي كانت طبقا لواحد من المترجمين، هو سامان عبد المجيد، تتناول الأنبياء الأوائل وأمورا حديثة معاصرة وكانت تعد هجوما على اليهود الذين مثلهم في روايته بالشياطين[٤]. أحد أصحاب العقول الديكتاتورية حرفيا وهو «نيازوف» في تركمانستان، قال معاونوه المقربون أن أول كتاب له المسمى

---

(١) مقابلة بواسطة صحيفة الإيكونومست بالصحافي سيدني ريتنبرج الذي عرف ماو عن قرب من خلال الزمن الطويل الذي قضاه بالصين.

(٢) مقابلة مع دبلوماسي عراقي كبير الذي كان قبل أن يصبح سفيرا عمل كمترجم لصدام حسين من الانجليزية للعربية

(٣) صدام حسين: «القلعة الحصينة: رواية لكاتبها» (بغداد، دار الحرية للنشر، ٢٠٠١). تبدأ القصة عند نهاية الحرب الإيرانية العراقية وتنتهي بنهاية عقد التسعينيات. بطل القصة صباح يقع أسيرا في أيدي الإيرانيين، وبعد إطلاق سراحه يلتقي بالبطلة شاترين وهي امرأة كردية، وهو يدرس بكلية الحقوق في بغداد، ويتعرض الكتاب لتاريخ كثير من المدن العراقية التي تقع على نهر دجلة.

(٤) عبد المجيد: «صديقي صدام»، صفحات ١٣٠ ـ ١٣٤. أغلب نسخ الرواية تم إتلافها، فقد كانت تنشر في الوقت الذي بدأ فيه الغزو، لكن بعض النسخ نجت من التلف، انظر جريدة التيليجراف: «صدام ديكتاتور القصص الخرافية الأكبر»، ١٧ ديسمبر ٢٠٠٣.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«روحناما» (كتاب الروح) كان يحتوي على إجابات «لكل أسئلة الحياة». وكان هو أيضاً يكتب كتابا تلو الآخر[1].

ومن اللافت للنظر، أن صدام حسين لم يكن يطيق معارضته، وأصبح حزب البعث ذاته يضيق ذرعا بأي معارضة له. وتعاظم ذلك بسبب عنصرين: الدائرة الداخلية المحيطة بصدام حسين وقدراته وإمكاناته الشخصية. فالسمة المتكررة في الديكتاتورية مثل ديكتاتورية صدام العراق، وستالين الاتحاد السوفييتي أو شاوشيسكو رومانيا كانت تكمن في صناعة «دائرة قريبة من الموالين والتابعين يكونون جسد القيادة ويظل الديكتاتور سيداً عليه بلا منازع»[2]. الدائرة الداخلية المحيطة بصدام كانت دائرة رباعية، مكونة من عزة الدوري، وطه ياسين رمضان، وطارق عزيز، وعلي حسن المجيد (خال حسين كامل)، والذين ظلوا أوفياء لصدام حتى النهاية. وعلى الرغم من كفاءتهم الشخصية، فقد كانوا مجموعة من الموافقين على الدوام ولعبوا دوراً كبيراً في بناء عبادة شخصية الرئيس، بينما كانوا في الوقت ذاته يرسخون وجودهم في مناصبهم عن طريق مشروع تأليه وتعظيم صدام[3]. أصبحوا في غاية الطاعة ولم يقوموا أبداً بدورهم كلجنة استشارية معاونة في مواجهة الهيمنة العشوائية الطاغية لقائدهم. هذه الحالة من العلاقات طغت وتعاظمت مع وجود إيمان صدام الراسخ بذاته كقائد عسكري ومخطط استراتيجي لا نظير له، وراح إيمانه يقل تدريجيا مع الزمن

---

(١) دافيد لويس: «أغراء الاستبداد في آسيا الوسطى» (نيو يورك، مطبوعات جامعة كولومبيا، ٢٠٠٨)، صفحات ٨١ ـ ٨٢.

(٢) أوفيري: «الديكتاتوريين»، صفحة ٧٧.

(٣) لعقد مقارنة عن الدائرة اللصيقة المحيطة بستالين ودورها في تأسيس عبادة الزعيم، انظر روبرت سي تاكر: «نشؤ عبادة شخصية ستالين»، عرض التاريخ الأميركي، الجزء ٨٤، رقم ٢ (أبريل ١٩٧٩)، صفحات٣٦٢ ـ ٣٦٣.

بالاستراتيجيات العسكرية المحترفة والمتخصصة. كان أيضاً بارعا في تحريك أحد رفاقه ضد الآخر وفي استغلال التنافس بين كبار رجال الدولة لحيازة منازل أعلى وسلطة ونفوذ أكبر.

العنصر الثاني، الذي لا يمكن التقليل من شأنه، هو أن صدام حسين كان في غاية القدرة على بذل مجهودات شاقة، والعمل لساعات طويلة متواصلة، وامتلاكه لذاكرة تصويرية قوية، والقدرة على قراءة مئات المذكرات يوميا من التي ترسل إليه و ـ على الأقل في العقد الأول من حكمه ـ كان منظما جداً ويستعد جيداً للاجتماعات الهامة أو اتخاذ قرارات هامة. وهذا ثابت على سبيل المثال، من موضوع تأميم شركة النفط العراقية. ويدل الاطلاع على أنشطة الرئيس اليومية المنشورة في صحيفة الثورة على تعدد الاجتماعات اليومية، والمؤتمرات، والمناسبات الاحتفالية التي يحضرها، إضافة إلى مقابلة الضيوف الأجانب وممثلي الدول والمواطنين العراقيين[1]. لم يكن يتردد لثانية في انتقاد الوزراء والسخرية منهم ومن كبار المسؤولين إن لم يكونوا مستعدين جيداً لما يقومون به، وبذلك كان يزيد من خوفهم ورهبتهم منه ويحيلهم إلى أشخاص مترددين جداً في إبداء رأي معارض أو التعبير عن رأي خاص حتى حول أتفه الأمور[2]. ولكونهم قد شهدوا ما فعله صدام حسين ببعض الأعضاء في الاجتماع السيئ الشهير للحزب الذي عقد عام ١٩٧٩ وفي بعض أعضاء اجتماع مجلس الوزراء، حين حاول بعض المسؤولين والوزراء الاعتراض على أمور ما. وامتدت سلطته

---

(١) الثورة، رقم ١٠٤٥٣، ١ يناير ٢٠٠٢.

(٢) على سبيل المثال، وكرئيس للجنة التخطيط في منتصف السبعينيات، حين كان نائبا للرئيس، أهان صدام حسين من كان وزيرا للصحة، عزت مصطفى لعدم قراءته التقارير الفنية ولحضوره الاجتماع دون استعداد، انظر هاشم: «مذكرات وزير عراقي»، صفحات ٣٢٣ ـ ٣٢٥.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المطلقة لتطال أي مواطن عراقي، ومثل ستالين أو ماو، كان لدى صدام حسين القدرة على «اعتقال أو قتل أي من كبار رجال الدولة أوحاشيته القريبة منه دون أن يطرف له رمش ودون حاجة لإبلاغ، ناهيك عن استشارة، أي أحد آخر»[١].

ولذلك انحصر اتخاذ أي قرار على الرئيس وحده واتسمت القرارات بانعدام وقلة اللجوء لاستشارة أحد، وبحلول الثمانينيات، كانت العبارة الرسمية التي تذكر: «بأمر من الرئيس القائد»، تلغي أي نقاش وتكتسب قوة القانون. ويتيح الإطلاع على وثائق الحزب رؤية خطيرة لكيفية تحول أوامر صدام حسين لتصبح على هذا القدر من الخطورة في تأثيرها، وكأنه قانون الحياة، ويخترق كل مجالات الحياة المدنية والرسمية. من بين تلك الأوامر أمره بتنظيم ساعات العمل الإداري لكل مسؤولي الأمن (من الثامنة صباحا حتى الثالثة بعد الظهر)، الحكم بأن أي مسؤول أمني يكلف بالتحري عن أنشطة حزب الدعوة أو تلك الأنشطة الخاصة بالحركة الوهابية لابد أن يدرس جيداً تاريخ وتطور تلكما الحركتين، وقواعد مخصصات الطعام والوجبات لكل العاملين في بلدية بغداد طبقا لمراتبهم الوظيفية، وتعليمات لكل كبار رجال حزب البعث بوجوب ارتداء الزي العسكري[٢]، وأوامر تتعلق بالنظافة الشخصية.

---

(١) رجبي: «الستالينية ومجتمع التنظيم الواحد»، صفحة ٦٠.

(٢) من أمانة سر الحزب للرئيس ولكل المؤسسات الأمنية، ٣٠ مايو ١٩٩٤، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق وثائق ٠٠٢ ـ ٢ ـ ٢(٠٦١)؛ من الديوان الرئاسي إلى كل المؤسسات الأمنية، ١٦ نوفمبر ١٩٩٤، صندوق ٠٠٢ ـ ٢ ـ ٢(٠٢٥)؛ من الديوان الرئاسي إلى بلدية بغداد، ١١ أبريل ١٩٩٤، ٠٢١ ـ ٢ ـ ٧ (١١٥)؛ ومن تنظيم بغداد إلى كل أمانات سر الحزب، ٢٣ مارس ٢٠٠٢، ٠٠٤ ـ ٤ ـ ١ (٣٢٣). كثير من التعيينات كان يقوم بها صدام حسين بنفسه في مختلف الوزارات والمؤسسات. انظر على سبيل المثال تعيين المسؤول الأعلى في مؤسسة التصنيع العسكري، ١١ يناير ١٩٩٣، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠١٧ ـ ٢ ـ ٧ (٣٠٨).

كان صدام حسين مهووسا بالنظافة والصحة العامة الشخصية؛ وفي اجتماع له بكبار المسؤولين سجله صحافي فرنسي بمدينة الكوت العراقية، نقل عن صدام حسين قوله لاثنين من كبار المسؤولين:

ليس من الملائم لأي أحد أن يحضر اجتماعا أو مناسبة ولا أن يكون مع أبنائه ورائحة بدنه تمضي في أثره تنضح بروائح العرق أو روائح كريهة ممتزجة بروائح عرقه. من المستحسن لأي امرئ أن يستحم مرتين يوميا، أو على الأقل مرة واحدة يوميا. وحين يستحم الرجل مرة في اليوم، فإن على الأنثى أن تستحم مرتين يوميا. والسبب في ذلك أن الأنثى أكثر رقة ورائحة المرأة أكثر لفتا للانتباه من رائحة الذكر. إن لم يتذكر الإبن رائحة أبيه الطيبة، فإن الأب سيفقد بعض من حب ابنه له[1].

وفي ذات السياق، قيل في عام ٢٠٠٢ لكل الوزراء وكل المؤسسات والهيئات الحكومية مثل البنك المركزي، وشركات الخدمات، والبلديات، وغيرها، أن القائد ناقش في اجتماعات مجلس الوزراء الأمور المتعلقة بالنظافة، وأمر كل الوزراء في ذلك الوقت رسميا بأنه لا يكفي أن يهتموا بأمور صحتهم العامة الشخصية فقط. فقد كان عليهم بالتبعية أن يكون كل مرؤسيهم نظيفين، وأن ذلك مسؤولية كل وزير، ولو أراد أن يبقى في الوزارة، فعليه تنفيذ تلك الأوامر[2].

في كل تلك الأوامر كانت الصيغة واحدة ومتماثلة في بداية كل أمر: «أمر السيد الرئيس القائد (حفظه الله) بما يلي»، وكان على كل فرد دون

---

(١) فيلم: «العم صدام» إخراج جويل سولر، إنتاج زينون بكتشرز وفروج للترفيه، ٢٠٠٣، لا يوجد تاريخ محدد لذلك الحديث.

(٢) من مجلس الوزراء إلى كل الوزارات: «أمر»، ١٥ يونيو ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠١٠ ـ ٢ ـ ٣(٠٣٨ ـ ٠٤١).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أي استثناء أن يطيع. ومع ذلك، كانت هناك بضعة حالات مسجلة وجه فيها صدام حسين نصائح مغايرة حتى لو ضايقته وأغضبته. في واحد من الأمثلة التي قيلت لي، بدأ يفكر في سبتمبر عام ١٩٩٤ في إعادة غزو الكويت، في محاولة يائسة لكسر الحصار من حول العراق وللمساومة على إيقاف قصف الطيران الأميركي والبريطاني للمنشآت العراقية. وتمت مناقشة هذا الأمر في اجتماع مجلس الوزراء المصغر، وكالعادة، لم يعارض أي عضو في الاجتماع تلك الفكرة. وعلى ذلك، حين وضع الأمر أمام القيادات العسكرية العليا لمناقشته، والذين كان عليهم التحضير لإعادة غزو الكويت، قال أحد الجنرالات وهو رعد الحمداني أن ذلك يمكن أن يكون انتحارا عسكريا. وفي اليوم التالي تم استدعاؤه لمقابلة خاصة مع صدام حسين، الذي كاد يجن غضبا لأن جنرالا جرؤ على معارضة وجهة نظره أمام جنرالات آخرين، وراح صدام يوبخه بشدة لرفضه الانصياع لأمره. كان الحمداني على يقين أن ذلك اليوم هو آخر أيام حياته قبل تنفيذ أمر صدام بإعدامه، ولكنه شرح للرئيس أنه لم يعص أمره؛ بل على العكس، قال أنه أحس أن من واجبه أن يقول لقائده [صدام] الحقيقة، وأن ما رآه في جوهر ذلك الأمر لم يكن يعدو إلا حقيقة بسيطة مثل «واحد جمع واحد يساوي اثنين». فصاح به صدام «يمكنك أنت أن تعتقد بأن واحد جمع واحد يساوي اثنين ولكني أنا صاحب رسالة [رسالة من الله] وأحياناً يمكنني أن أرى أن واحد جمع واحد يساوي عشرة». ويرجع الفضل لصدام، في أن المقابلة انتهت دون أن يعاقب الحمداني، وتم إهمال الفكرة[1]. ذلك الإحساس العميق والكثيف بالقدر والمصير والإيمان الداخلي بأنه مختار من الله لقيادة

(١) مقابلات مع الحمداني، ١٦ يونيو ٢٠١٠، و١١ يوليو ٢٠١٠.

الجماهير لم يكن بالطبع فريدا ولا قاصرا على ديكتاتورية صدام حسين[١].

غير أن تطرف القرارات وعشوائية اتخاذها لم يؤد إلى تحجيم صدام حسين حتى في الأوقات التي اعتور فيها سلطته ضعفا، مثل فترة حربه مع إيران، والأهم منها، خلال انتفاضة جنوب وشمال العراق بعد غزوه للكويت. وظلت هيمنته الطاغية على الحزب وعلى المؤسسات الأمنية كما كانت عليه؛ وهكذا لم يطرأ أي ضعف أو نقص في سلطته التي كان قادرا على فرضها. وكما كان الحال مع ستالين وهتلر، كان المبدأ الذي تم رصده تكتيكيا هو ـ باستثناء صدام حسين بالطبع ـ «لا يجب أن يعرف أي أحد أكثر مما هو مطلوب له معرفته»، وهو المبدأ الذي قوى من سواعد كل أولئك الحكام الطغاة في الإمساك بزمام السلطة[٢].

كانت الشرعية بالنسبة لصدام حسين على غاية كبيرة من الأهمية. وقد تبين هذا من خلال عديد من المقابلات الرئاسية الصحافية بل وحتى أثناء استجوابه بعد أن أسره الأمريكان. كان يرى في نفسه أنه واحد من عظماء قادة العالم، ويماثل أولئك الذين أعجب بهم إعجابا كبيراً، مثل ستالين، وديجول، وناصر، وتيتو، ونيلسون مانديلا. كان يضع كل عام قوائم طويلة بأسماء الكتب التي يريد قراءتها، وأغلبها سير ذاتية، ويشتريها ليضمها لمكتبته الخاصة[٣]. وكان كارها لأغلب قادة الدول العربية المعاصرين له. وقد قال وهو يناقش مع رفاقه حالة الدبلوماسية العربية في منتصف التسعينيات، منتقدا القادة العرب:

---

(١) للمقارنة مع هتلر وستاين، انظر أوفيري: «الديكتاتوريين»، صفحات ١١ ـ ٢٢.

(٢) المصدر السابق، صفحات ٦٧ ـ ٦٨.

(٣) أخبرنا مترجمه سامان عبد المجيد أن صدام كان يشترى نحو ٣٠٠ كتاب كل عام. انظر: «أعوام صدام»، صفحة ١٤٠، انظر أيضاً وزارة العدل الأمريكية: «أحاديث صدام حسين لوكالة التحريات الفدرالية الأمريكية».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لقد أعطى القادة العرب منذ عام ١٩٤٧ حتى اليوم اعترافات وتنازلات [لإسرائيل] دون أي مقابل... هناك هوة بين الشعوب العربية وقياداتها. كيف يقود القادة؟ يحكمون بطولهم وعرضهم [سخرية من العرب]؟ حين تفصل الحاكم عن شعبه، تكون المعركة قد انتهت. حين يصبح الحاكم في أضعف مكانة، يبدأ في التساؤل عما يمكنه عمله...ولا يجد إلا أن يستسلم، وبالفعل يستسلم[١].

لقد رأى صدام حسين نفسه في صورة المشتبك في نضال طويل بطولي وملحمي لقيادة العراق إلى المعاصرة واستعادة مجدها التاريخي القديم. قال لمستجوبه الأميركي جورج بيرو أن من أفضل وأحب الكتب إليه رواية «الشيخ والبحر» لإرنست هيمنجواي، ومن الواضح أنه رأى نفسه في صورة بطل تلك الرواية، الصياد الذي يجاهد وحده ليصطاد سمكة كبيرة على الرغم من هجمات أسماك القرش الشرسة التي يتعرض لها[٢].

وسواء كانت الجماهير تحت حكم نظام حزب البعث أو يدكتاتوريات أخرى مماثلة، استمرت الهيمنة لأن الجماهير تفترض، ارتكازا على «أساطير العصمة من الخطأ والمعرفة اللا محدودة التي خلقتها عبادة وتقديس شخصية الزعيم»[٣]، أن قادتهم لا يخطؤون ويتخذون القرارات الصائبة.

---

(١) شريط صوتي مسجل لمناقشة أحوال الدبلوماسية العربية والعقوبات المفروضة على العراق في منتصف التسعينيات (التاريخ غير معروف بدقة)، مركز سجلات أبحاث الصراع.

(٢) أقوال سانتياجو بطل الرواية خدمت صدام حسين جيداً وهو أسير بعد انهيار نظامه. قال سانتياجو بطل الرواية: «ولكن الإنسان لم يخلق ليهزم»؛ «الإنسان يمكن أن يهزم ولكنه لا يتحطم»، من رواية إيرنست هيمنجواي: «العجوز والبحر»، طبعة بغلاف ورقي (لندن، ترياد جرافتون، ١٩٨٨)، صفحة ٨٩. لتفاصيل ذلك الحوار تحديداً بين بيرو وصدام حسين، انظر دولفير: «لعبة الاستخفاء»، صفحة ٤٠١.

(٣) أوفيري: «الديكتاتوريين»، صفحة ١٢٥.

بناء عبادة الشخصية

لعب صدام حسين دوراً خطيراً في بناء عبادة شخصيته حتى قبل أن يصبح رئيسا. كانت المقالات التي تطريه بإفراط وتنمي الإحساس بالحاجة إلى قائد حقيقي تنشر في الصحف مبكرا من عام ١٩٧٥. وقد فهم صدام بسرعة شديدة أهمية وسائل الإعلام والكُتّاب في تنمية عبادة وتقديس الفرد، واستغلهم استغلالا كاملا لمصلحته الشخصية. وساعد كتاب سيرته الذاتية «الأيام الطويلة» الذي صدر عام ١٩٧٧ بمهارة على تعبيد الطريق لظهوره بصورة القائد المنتظر[١].

وبعد أن استولى صدام على السلطة من أحمد حسن البكر في عام ١٩٧٩، زادت الأحاديث المشيدة بإنجازاته وبدوره كقائد زيادة كبيرة. وتعاظم ذلك بشدة عام ١٩٨٢ بحملة عامة تدعو «لمبايعتة»، شارك فيها ٤ مليون عراقي[٢]. وكانت حملة المبايعة تلك الأولى من بين مناسبات شعبية جمعية كثيرة تم تنظيمها من قبل حزب البعث الذي كان في عنفوان فاعليته ونشاطه في ذلك الوقت. ومن المثير للاهتمام، وكما كان يحدث في سوريا مع حافظ الأسد، أن مبايعة صدام تمت بوثيقة ولاء ممهورة بدماء أعضاء المجلس النيابي الوطني. وفي كلتا الحالتين، كان المقصود من البيعة أنها لشخص بعينة، كوثاق رابط مدى الحياة[٣].

«كل عبادة وتقديس شخصية فرد ليست إلا وهما وخيالا بشكل

---

(١) لشرح مفهوم القائد ومضمونها، انظر بنجيو: «كلمة صدام»، صفحات ٧٠ ـ ٧٤.

(٢) البيعة عهد بين الحاكم والمحكوم وترجع في الأصل إلى عهد النبي محمد، لمزيد من التفاصيل انظر بنجيو: «كلمة صدام»، صفحات ٧٤ ـ ٧٧.

(٣) ليزا ويدين: «غموض الهيمنة: السياسات، الرموز والاستعارات في سوريا المعاصرة» (شيكاغو، مطبوعات جامعة شيكاغو، ١٩٩٩)، صفحة ٣٨.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ما»[1]. وبإثارة العناصر التاريخية، والدينية، والثقافية، تعاظمت صورة الرئيس لتضعه في مرتبة ومنزلة فوق الأمة والدولة والشعب. وفي حالة صدام حسين، فإن تلك الصورة الأسطورية «خلقت من خلال الشعر، والنثر، وباقي الفنون، وراحت جميعها تخدم ذات الغرض والهدف»[2]. وكما في العبادات الأخرى، كانت الرموز والمناظر بارزة وواضحة، وكان بالعراق المئات منها[3]. كان من العلامات البارزة التي تميز عبادة وتقديس صدام حسين، التملق المنهجي المفرط والذي كان يتم التعبير عنه في كل وسائل الإعلام، وإبرازه في صورة المثالي الخارق الذي يفوق البشر في القدرات وقادر على القيام بأي شيء بشكل مثالي خارق. في رواية «الأيام الطويلة، أكد المؤلف على أن البطل (أي صدام حسين) لا يجب أن يذهب إلى السجن، بافتراض أنه قادر على القيام بأشياء كثيرة» للحزب[4]. وعملت وسائل الإعلام بدأب على تقديم الإنجازات العظيمة للرئيس في كل المجالات والجبهات: تأميمه لصناعة النفط، ودفاعه عن قضية فلسطين، وقيادته الفذة التي من النادر أن يرى مثيل لها في التاريخ المعاصر[5]. إحدى الافتتاحيات الصحافية ذكرت: «لا يمكننا أن نفكر في أي مجتمع إنساني في أي مكان أو زمان دون أن يكون هناك رئيس مسؤول عن الدولة»، وأكملت الافتتاحية واصفة كيف أن الأمة العراقية محظوظة لأنها وجدت«البطل القائد صدام حسين،

---

(١) أوفيري: «الديكتاتوريون»، صفحة ١٠٩.

(٢) بينجيو: «كلمة صدام»، صفحة ٧٧.

(٣) كنعان مكية: «النصب التذكارية: الفن والابتذال في عراق صدام حسين» (لندن: آي بي توريز، ٢٠٠٤). على سبيل الأمثلة في سوريا وبالمقارنة مع النازية في ألمانيا، انظر ويدين: «غموض الهيمنة»، صفحات ١٠ ـ ١١.

(٤) معلة: «الأيام الطويلة»، صفحة ١٣٦.

(٥) الجمهورية، رقم ١٠٩٦٢، ١٤ أكتوبر ٢٠٠٢.

فليحفظه الله ويباركه.... لأن له فكرا خلاقا ومبدعا وإيمانا يستمده من روح الأمة وثقافتها»[١].

قبل الاستفتاء على اختيار الرئيس الذي أطلق عليه الزحف الكبير، جندت وسائل الإعلام كل إمكاناتها لدفع أكبر عدد من الناس للخروج والتصويت للرئيس. لم تكن هناك معارضة، وكان على الناخبين أن يعلموا في بطاقة الاستفتاء على «نعم» أو «لا». وفي افتتاحية أخرى بصحيفة القادسية تحت عنوان كبير يتساءل: «لماذا نحب صدام حسين؟» وأدرج تحت العنوان كثير من المديح لصفات وخصال وسجايا الرئيس، خاصة شجاعته في قيادة الأمة من نصر لنصر، منتهيا بالشعار الشهير: «نعم، نعم لصدام»[٢]. مسؤول عراقي كبير كان حاضرا في اجتماع بعد استفتاء ١٩٩٦ قال لي أن صدام حسين لا يمكن له أن يفهم لماذا لم يصوت له إلا ٩٩,٩ بالمائة فقط. وسال كم يساوي ٠,١ بالمائة؟ ثم أجاب على الفور أنه قد يساوي ٥٠٠٠ أو ٦٠٠٠ صوت لم يؤيده. وألقى باللائمة على مؤسسات الحزب التي لم تقم بتقديمه للجماهير بشكل جيد لتلك الآلاف القليلة التي لم تصوت له، وأضاف أنه لو كانت لديه فرصة التحدث مباشرة لبضعة الآلاف تلك، لكانوا صوتوا هم أيضاً له[٣]. ومن المؤكد، أنه في الاستفتاء التالي، في أكتوبر ٢٠٠٢، بلغت نسبة التصويت لصالحه ١٠٠ بالمائة، وأدى قسم تولي رئاسة الدولة لسبعة أعوام أخرى[٤].

وبالتماثل مع عبادة ستالين، استخدمت كتابات صدام حسين في

---

(١) القادسية، رقم ٧٥٦٤، ١٦ أكتوبر ٢٠٠٢.

(٢) القادسية، رقم ٧٥٦٠، ١٢ أكتوبر ٢٠٠٢.

(٣) مقابلة في ملف، ١٥ يوليو ٢٠١٠.

(٤) لأداء يمين الولاء وخطاب الرئيس، انظر القادسية، رقم ٧٥٦٦، ١٩ أكتوبر ٢٠٠٢.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفلسفة والتاريخ لبناء صورة ذهنية له كقائد[1]. وجمعت مقالاته، وأحاديثه، وحواراته مع وسائل الإعلام على اختلافها والتي أطلق عليها «المختارات»، ونشرت في مجلدات فاخرة من عشرة أجزاء في عام ١٩٨٨. كما طبعت قوائم طويلة من الكتيبات والنشرات التي تعرض فلسفته وآراءه في الأمور الهامة، وأيضاً كتبه، «التعليم والثورة» و«حول كتابة التاريخ»، وكان كلاهما قد نشر قبل أن يصبح رئيسا[2]. كان كثير من الكتاب في بلاط الصحافة، (ومنهم غير عراقيين) على استعداد لخدمة الرئيس بكتابة سيرة مقدسة للرئيس ومقالات عن صفاته الفريدة كقائد لا مثيل له[3]. في ذات الوقت، لم يكن من الممكن التقليل من الاهتمام الشخصي لصدام حسين بالثقافة والشعر، كما شرحنا في الفصل الثاني.

استخدم الدين أيضاً لترسيخ تقديس وعبادة شخصية القائد والزعيم الملهم، وكما ذكر «أوفري»: «العبادات تعد تقليديا ظاهرة دينية لا ظاهرة سياسية»، وأضاف أنه في كلتا الحالتين، ستالين في الاتحاد السوفييتي وهتلر في ألمانيا، أصبح التمييز بين عبادة الدين وعبادة الزعيم غائماً[4]. أما في العراق، فقد راح صدام حسين وكتاب البلاط الرئاسي يتتبعون أصله ومنشأه حتى وصلوا به إلى قبيلة النبي محمد وساووا بينه وبين علي بن أبى طالب، ابن عم الرسول وزوج ابنته. وبعد فترة، استخدموا شخصية الخليفة المنصور كوسيلة لتعظيم صورة صدام العربية

---

(١) توكر: «صعود عبادة ستاين»، صفحات ٣٥٢ ـ ٣٥٣.

(٢) صدام حسين: الثورة والتربية الوطنية؛ وحول كتابة التاريخ (بغداد، دار الحرية، ١٩٧٩).

(٣) واحدة من تلك السير تلك التي كتبها أمير اسكندر: «صدام حسين: المقاتل، والمفكر، والرجل، ترجمة حسن سليم» (باريس، هاشيت ڤياليتي، ١٩٨٠).

(٤) أوفيري: «الديكتاتوريون»، صفحة ١٢٠.

الإسلامية[1]. وكما هو مشروح في الفصل الثامن، فإن أحد أسباب إطلاق «حملته الإيمانية» لم يكن إلا لمواجهة خوفه من انتشار الخمينية بين شعب العراق، خاصة بين شيعة العراق. وبالتماثل الدقيق مع وصف هتلر بأنه «إما أنه الرب ذاته، أو هبة من الله»[2]، نشر فدائيو صدام ـ وهو الجيش الموازي الخاص للرئيس ـ وعظموا ودعموا الشعار الذي يقول: «أولئك الذين أقسموا يمين الطاعة للرئيس إنما أقسموا يمين طاعة الله»[3]. وبدأت الخطابات التي تطلب لقاء الرئيس تضعه في منزله تالية مباشرة لله وقبل أي من الأنبياء والرسل. وكتب أحد قادة العشائر أن صدام حسين «هو الراعي الوحيد بعد الله... لأي امرئ يحتاج لمعونة»[4]. وأعلن خطاب آخر من طبيب بمشفى البصرة: «قائدي النبيل: حبنا وولاؤنا لك هو ذات الحب والولاء[الذي نهبه] لعظماء قادة أمتنا، مثل النبي محمد... والخليفة عمر بن الخطاب... والإمام علي بن أبي طالب»[5].

---

(١) كان الخليفة المنصور من الخلفاء العباسيين وأسس عاصمته الجديدة في بغداد. لمزيد من التفاصيل عن أنماط مماثلة لحكم صدام، انظر بنجيو: «كلمة صدام»، صفحات ٧٩ ـ ٨٥. وقد قيل أنه لم يتمكن من فهم لماذا انتفض شيعة العراق ضده عام ١٩٩١، بافتراض قرابته المدعاة بالإمام علي.

(٢) أوفيري: «الديكتاتوريون»، صفحة ١٢٠.

(٣) كان ذلك الشعار مطبوعا على الأدوات الكتابية لفدائي صدام، انظر على سبيل المثال وودز وليسي: «آفاق المشروع العراقي: صدام والإرهاب»، الجزء ٥.

(٤) تم تحويل الخطاب الذي يطلب فيه مقابلة الرئيس كما تقتضي الإجراءات إلى جهاز الأمن الخاص للتحري عن مرسله والتفاصيل التي يحتويها الخطاب قبل اتخاذ قرار بالموافقة على اللقاء أو رفضه، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق وثائق ٠٠١ ـ ٢ ـ ١ (١٩٢).

(٥) رسالة من دكتور أ. ج. إلى القائد، «رسالة من ابن البصرة»، ٣١ ديسمبر ١٩٨٨، نسخة من الرسالة أرسلت إلى فرع الحزب في البصرة، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ٣ ـ ٧ (١٥١ ـ ١٥٥). ومن المثير أن نعرف أن الكاتب قد اختصر كل الدعاء والصلاة للنبي=

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من الملامح الهامة التي تفرق بين عبادة القائد صدام حسين عن عبادة الدكتاتوريين الآخرين هو أنه كان يلتقي بعشرات العراقيين العاديين بشكل شبه يومي وظل يقوم بذلك حتى عام ٢٠٠٢، حين منعت المخاوف الأمنية مثل تلك المقابلات. وكان من النادر جداً أن يقوم ستالين أو هتلر بمقابلة مواطنين عاديين من عامة الشعب في مقار رئاساتهم. غير أن صدام حسين كان يرى في ذلك وسيلة أخرى للهيمنة والسيطرة على الأحداث؛ فقد كانت تلك الوسيلة تسمح له بالاستماع مباشرة لمواطنين عاديين ينقلون إليه نبض الشارع كما كانوا وسيلة إضافية لاختبار مدى كفاءة أداء كبار رجال الدولة، لأن كثيراً من أولئك المواطنين كانت لهم مشاكل مع الحكومة أو مع بيروقراطية الحزب. بالنسبة للعراقيين، كانت مقابلة الرئيس بمثابة الفوز في اليانصيب، وكشف مترجم صدام حسين عن أن لا أحد ممن كانوا يلتقون بالرئيس كان يخرج أبداً خاوي الوفاض، فقد كان صدام حسين يهب من يلتقي بهم مغلفات تحتوي على مبلغ من المال[١].

وفي منتصف الثمانينيات، صدر قانون جديد يسمى «قانون التهجم»، ينص على أن أي اعتداء من سباب أو لعن للرئيس أو أسرته

=والخليفة إلى رمز بسيط، كان الدعاء مفصلا بالطلب من الله أن يحمي الرئيس ويباركه وقد كتب الدعاء كاملا غير مختزل وتكرر بضع مرات في الخمس صفحات التي تكون الرسالة.

(١) عبد المجيد: «أعوام صدام»، صفحات ١٠١ ـ ١٠٢. وطبقا للذكريات المدونة كان صدام يلتقي بستين مواطنا يوميا في مجموعات مكونة من أربعة أفراد. وأغلب اللقاءات كانت تدور حول شكاوى من المواطنين، ونادرا ما كان صدام يسأل المواطنين عن آرائهم السياسية. الجانب الوحيد الذي لم يستطع تمويله، كما أكده مترجمه، كان في رفضه منح غير البغداديين أرضا في بغداد لبناء بيت للسكنى، لأن قانونا كان قد صدر يقضى بأن من لم يكن ساكنا ببغداد من عام ١٩٧٧ لا حق له في امتلاك بيت ولا شقة ببغداد.

يعد هجوما على نظام الحكم، وتم تخصيص محاكم خاصة للحكم في قضايا «التهجم» تلك (انظر الفصل الرابع). ومع مر السنين، أصبحت شخصية صدام مقدسة على وجه التقريب، فأي انتقاد أو تلميح بعداء كان يعد تجديفا وهرطقة وإهانة للوطن. وفي مذكرة أرسلت إلى كل منظمات الحزب، وضع أحد كبار قادة الحزب نقاطاً استرشادية تقضي بأنه في المناسبات العامة، لا ينبغي على أعضاء الحزب ولا مقدمي الفقرات الاحتفالية أن يستخدموا عند كلامهم عن الرئيس الأوصاف ذاتها كتلك التي تستخدم لوصف كبار الشخصيات العراقية الأخرى، على ضوء تفرد الرئيس بصفات لا يحوزها غيره. فضلاً على ذلك، نصحت المذكرة بأنه على الرغم من أن كبار أعضاء الحزب الآخرين لابد أن يلقوا ترحيبا حارا، فإن الغناء أو إلقاء قصائد الشعر يجب أن تقتصر فقط على «قائد الأمة، والإنسانية، والعرب»[1].

أصبحت «وصايا الرئيس» مع مرور الوقت مثل وصايا الأنبياء والقادة الروحيين. فقد تخللت كل مناحي الحياة وأصبحت تدرس بشكل روتيني في المدارس، والجامعات، وبالطبع تتحول إلى موضوعات رئيسة في جميع المناسبات الحزبية، كما أصبحت جانبا لا غنى عنه لتعليم كوادر الحزب «تعليما ثقافيا» وفي الثقافة «السياسية/ الدينية» بوجه عام. أحدى وصايات صدام حسين كانت تطبع على رأس أوراق المراسلات في كل وزارة حكومية أو مؤسسة أمنية. بعض تلك الوصايا كان يعد من قبيل النصيحة، مثل «تذكر على الدوام أنك قد تندم على قول أو فعل في موقف ما، ولكنك لن تندم أبداً لأنك كنت صبورا». وكانت نصائح أخرى تخدم النظام بطريقة غير مباشرة، مثل «خذ حذرك من عدوك ومن

---

(١) من أكبر عضو في تنظيم الكرخ إلى كل مكاتب أمانة سر الحزب: «خطوط استرشادية»، ٧ أغسطس ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٤ ـ ٣ ـ ١ (١٢١ ـ ١٢٢).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

صديقك قبل عدوك»، و ـ ومما يعد نفاقا من رئيس لم يكن يقبل أي لوم عن أي خطأ خلال خمسة وثلاثين عاماً قضاها كحاكم قوله ـ «كقائد لا تختار أولئك الذين يستفيدون من النجاح وينكرون مسؤوليتهم عند الفشل»[١]. وهناك مذكرة حزبية أمرت أن ينتقي كل فرع عددا من تلك الوصايا لكتابتها على لوحات بخط كبير وتعليقها في شعب الفروع، والفرق، والخلايا، حتى يستفيد منها كل من يحضر الاجتماعات ويقرأ نصوصها[٢]. وعن كتاب نشر في بداية عام ٢٠٠١ اسمه: «دراسات حول وصايا القائد المناضل صدام حسين»، ألهم صحافي بأن علق على الكتاب في مقال له بقوله أن تلك الوصايا «مصباح يضيء الطريق للكاتب، والناقد، والباحث»[٣].

وفي التقليد المتبع من الإشادة والإطراء للدكتاتوريين والمستبدين، فاضت عبادة شخصية صدام حسين عليه بفيض من الألقاب والكنايات والاستعارات التي تعبر عن شخصيته الافتراضية، وكان اثنان من تلك الألقاب مفضلين على الدوام، سواء أطلقا من قبل على ستالين، أو شاوشيسكو، أو كيم إل سونج، أو حافظ الأسد: وهما لقبا القائد والأب. ففي الاتحاد السوفييتي، كان ستالين يصور في أوضاع «أبوية» لا تحصي يظهر فيها اهتمامه بالأطفال والعمال؛ وفي رومانيا، أضفيت على شاوشيسكو صورة ولقب القائد و«عبقري الأمة»؛ كما عرف كيم إيل سونج في كوريا الشمالية باسم «القائد الأبوي»؛ وصور حافظ الأسد

---

(١) تحتوي الوثائق على مئات من تلك الوصايا. كمية منها في القيادة القطرية لحزب البعث، ١٨٣ ـ ٤ ـ ١ (٤٨٤ ـ ٥٠١).

(٢) من أمانة سر الحزب إلى كل مكاتب أمانة سر الحزب: «وصايا الرفيق القائد (باركه الله)»، ٢٦ أغسطس ٢٠٠٠، القيادة القطرية لحزب البعث، ١٨٣ ـ ٤ ـ ١ (٥٩٢).

(٣) الجمهورية، رقم ١٠٩٥٣، ٢ أكتوبر ٢٠٠٢.

في المجال السياسي السوري بصفة «الأب»، و«القائد الأبدي»، و«المعلم الأول»[١]. وتفسر «ودين» ذلك بأن استعارات الأبوة الأسرية تعمل عملها في الحكايات الرسمية لتقديم العلاقة المثلى للهيمنة العضوية الأسرية الأبوية وتصور ضمنياً «في الكناية عن الأب وهو تصوير يتضمن الحب في العلاقة بين الحاكم والمحكوم»[٢]. وفي سياق استغلاله لذلك المجاز اللغوي للأبوة، قال صدام حسين لشيوخ العشائر الذين أطلقوا عليه لقب أبيهم أنه أحياناً ما «يغضب الأب ويغتاظ من أشقائه وأبنائه»، وأنه لديه الحق الأبوي لأن يسخط ويغضب منهم لتقاعسهم عن دعمه أثناء الانتفاضة ضده[٣].

وبالفعل، لم يكن للتملق والرياء حدود في العراق. كتب أستاذ كبير في كلية الرياضة البدنية في جامعة بغداد إلى عدي صدام حسين بصفته رئيس اللجنة الأوليمبية العراقية يطلب معاونته في الحصول على صور ليضع كتابا جديدا بعنوان «صدام حسين الرياضي والبطل». وطبقا لمؤلف الكتاب، فإن صدام حسين هو «القائد الأول في العالم» الذي يولي الرياضة رعاية أولية متقدمة، والذي طبق قواعد اللياقة البدنية على كل شعبه، والأهم من كل ذلك، أنه كان «الملهم لكل الأبطال الرياضيين الذين حققوا بطولات هائلة من أجل بلدهم»[٤].

---

(١) أوفيري: «الديكتاتوريون»، صفحة ١١٧؛ نيقولاي شاوشيسكو: عبقري الأمة(ميلتون كينيس: فاليكواريان، ٢٠٠٨)، صفحة ٢٣؛ برادلي ك. مارتن: «تحت رعاية الأب القائد المحب: كوريا الشمالية وسلالة كيم»، طبعة بغلاف ورقي(نيو يورك، توماس دون، ٢٠٠٦)، صفحات١١ ـ ٢٨؛ وويدين: «غموض الهيمنة»، صفحة ١.

(٢) ودين: «غموض الهيمنة»: صفحة ٥١.

(٣) تسجيل صوتي لاجتماع صدام بقادة العشائر بعد انتفاضة ١٩٩١ بمدينة صدام، مركز سجلات أبحاث الصراع.

(٤) مراسلة مع وزير الثقافة والإعلام، ٩ فبراير ١٩٩٨ وموافقة من عدي حسين، ٣١ ديسمبر=

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكتب مواطن آخر إلى وزير الثقافة والإعلام يطلب السماح له بتصميم تمثال لصدام حسين وابنه عدي في أرضه الخاصة، وعلى نفقته الخاصة، «لإظهار بطولة الاثنين». من بين أسباب مسعاه ذلك، قال أن صدام حسين قد تبسم له من عشرين عاماً مضت في أحد السباقات الكبرى عام ١٩٧٩، وأن تلك الابتسامة لم تفارق ذهنه حتى ذلك الوقت[١]. وكتب ضابط كبير «من المستحيل أن نصل إلى مستوى قوة عقل فخامتكم وقدرتكم غير المعهودة على التخطيط»[٢]. حتى الشركات الأجنبية أدركت أن الطريقة الأمثل للحصول على موضع قدم لها بالعراق تكمن في استغلال عبادة الفرد تلك. وعرضت شركة تصدير هندية تقع في مومباي أن تطبع، على نفقتها الخاصة، ألف نسخة من كتاب بعنوان «صدام حسين ورجال الحضارة في العراق»، وأن توزع النسخ في الهند في ذكرى مولد صدام حسين[٣]. وضاعفت شرائط التسجيل الصوتية لاجتماعات مجلس قيادة الثورة وقيادة الحزب من التوقير والتبجيل للمكانة التي وضع فيها صدام حسين من قبل معاونيه ومرؤسيه؛ وكان ذلهم وخنوعهم في تلك الاجتماعات بلا حدود وأشد تطرفا في النفاق مما يمكن للوثائق بمفردها أن تعكسه.

وكما رأينا، ركز صدام حسين على وجه التخصيص على دور

=٢٠٠٠، و٢٠ فبراير ٢٠٠١، قاعدة بيانات وزارة الإعلام، ٠٠٣ ـ ٠٠٣٣/ ٠٠٣٤.

(١) من السيد أ. إلى وزير الثقافة والإعلام، ٩ فبراير ١٩٩٨، قاعدة بيانات وزارة الإعلام، ٠٠٣ ـ ٠١٨٠ إلى ٠٠٣ ـ ٠١٨٥.

(٢) من رئيس القسم السياسي إلى الرئيس، ٢٤ سبتمبر ١٩٨٩، مركز سجلات أبحاث الصراع.

(٣) من مدير الصادرات إلى زهير صادق الخالدي، قاعدة بيانات وزارة الإعلام، ٠٠٣ ـ ٤٢١ = ٤٢٣. في الحقيقة لم يكن كتابا، بل أقرب إلى الكتيب وكتبه زهير الخالدي وقدم له طه ياسين رمضان.

الأطفال والشباب ككوادر مستقبلية لحزب البعث، كل من ولد بعد عام ١٩٧٩ عرف بأنه من جيل صدام. وبالمثل، كان الأطفال يطلقون عليه «بابا صدام»، وأنشأت في المدارس هيئة أشبال صدام للشباب تحت سن ستة عشر عاماً لتدريبهم عسكرياً وأيديولوجياً. واستفحلت عبادة شخصية صدام حسين وتعاظمت أكثر مما كان يحدث مع أي ديكتاتور آخر، فقد وصل الأمر إلى رفع شعار: «العراق هو صدام، وصدام هو العراق» ورفع على لافتات ضخمة، كما قيل في الخطب والمناسبات، مما كان شبيه في صداه بمقولة لويس الرابع عشر الشهيرة: «أنا الدولة»[١]. استمر التأكيد شبه الطقسي على وصف صدام حسين بالقائد العظيم دون عائق في كل المناسبات العامة والسياسية. وأبرز جواد هاشم تلك الظاهرة برصد النمو الهائل لعدد المرات التي يذكر فيها اسم صدام حسين في مؤتمرات الحزب: ففي عام ١٩٧٤ ذكر المؤتمر القطري لحزب البعث اسم صدام حسين مرة واحدة فقط وكان ذلك تحت صورة له، ولكن بحلول عام ١٩٨٢، أشار تقرير الحزب المكون من ٣٦٦ صفحة إلى صدام حسين أكثر من ألف مرة[٢]. كان غياب الإشارة إلى اسمه، سواء كان مقصودا أم غير مقصود، يستوجب العقاب. وكما يتذكر أحد الوزراء السابقين وأحد السفراء السابقين في مذكرته، أن مدح صدام حسين والتغني بعظمته أصبح في مطلع الثمانينيات جزءاً هاماً من البروتوكول الدبلوماسي في كل سفارات العراق، وكانت المؤسسات الأمنية تراقب بدقة أي خروج أو انحراف عن ذلك العرف[٣]. وأطرى الكتاب والشعراء

---

(١) لويس الرابع عشر أطلق عليه لقب العاهل الأكبر أو ملك الشمس. وكان حكمه الذي امتد لاثنين وسبعين عاماً الأطول في تاريخ أوروبا الحديث. وكانت مقولته: «أنا الدولة» تعبر عن سلطته المطلقة.

(٢) هاشم: «مذكرات وزير عراقي»، صفحات ٣٤٧ ـ ٣٤٨.

(٣) قدوري: «هكذا عرفت البكر وصدام»، صفحة ٣٦٥.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بغاية الإفراط عراق صدام حسين بعبارات مثل: «صدام قمة الجبال الرواسخ وهدير البحار المائجة»، و«صدام في هذه الدولة هو الدولة»[1].

كانت تسمية المدن، والمساجد، والشوارع، والمسارح، والجسور، والأنهار على اسم صدام حسين من أشكال التكريم التي كانت امتدادا لعبادة الفرد. كما أعيد تسمية المدينة الكبيرة التي أنشأها عبد الكريم قاسم وأسماها مدينة الثورة في ضواحي بغداد لاستيعاب المهاجرين القرويين، وتغير اسمها ليصبح مدينة صدام (بعد ٢٠٠٣ تم تغيير اسمها للمرة الثانية إلى مدينة الصدر). إضافة لذلك، تسمت كثير من شعب وفرق حزب البعث باسم صدام حسين أو أي كنية تشير إلى صدام حسين، مثل «شعبة القائد المنتصر»، و«شعبة بطل التحرير» و«شعبة فخر العرب». وبالمثل، كانت الوحدات والكتائب العسكرية الجديدة تسمى هي الأخرى باسمه. وأكدت تسمية حرب الثمانية أعوام بين إيران والعراق باسم قادسية صدام علانية على أهمية الرئيس ودوره الخطير المحوري في تلك الحرب[2]. وفي عام ١٩٩٢، تم حفر قناة جديدة يبلغ طولها ٣٥١ ميلا (٥٦٥ كيلومترا) من بغداد حتى الخليج لتقليل اعتماد العراق على الممر المائي لشط العرب. ويظهر برنامج تنفيذ شق قناة صدام الجديدة كيف كانت عبادة الفرد تواكب كل خطوة من خطوات التنفيذ. فبداية، ، أرسلت مذكرة لكل أعضاء مجلس الوزراء وأعضاء مجلس قيادة الثورة يذكر نصها أنه بناء على أمر رئاسي على كل من تسلم المذكرة أن يحضر مراسم الاحتفال ببدء حفر القناة. ثانياً:

---

(١) غازي الطائي: «البحر الأخضر» (بغداد، قسم الشؤون الثقافية، ١٩٨٨)، صفحة ٧. هذا السطر مأخوذ من قصيدة تسمى «وادي صدام»، وقصائد أخرى بنفس المجموعة تشمل «الصقر» و«عوجة أرض الأبطال».

(٢) انظر مكية: «جمهورية الخوف»، صفحات ٢٧٠ ـ ٢٧٦.

كانت أجندة الاحتفال محشوة بمختلف أشكال عبادة وتقديس الفرد: فقد كانت مراسم الاحتفال تبدأ بكلمة يلقيها حسين كامل الذي كان مسؤولاً عن المشروع، ويلي كلمته كثير من الفعاليات التي تمجد وتمتدح الرئيس ـ ثم بعض الشعراء يلقون قصائد المديح والإشادة بالزعيم القائد، وإزاحة الستار عن لوحة جدارية وتمثال كليهما لصدام حسين، وقراءة برقيات تهنئة أرسلت للرئيس تشيد بذلك الإنجاز، وموسيقى وأناشيد تمجد الرئيس، وأخيراً يقص شريط الافتتاح. وكما كان معتاداً في مثل تلك المناسبات، كانت كل اللافتات والشعارات المرفوعة قد تمت الموافقة عليها مسبقا، كان ثمانية عشر شعارا قد تم إعدادها من قبل، من بينها: «نهر صدام تحدٍ كبير للحظر والحصار»، و«إذا قال صدام قال العراق»، و«نهر صدام هدية من المجاهدين لقائدهم العظيم»[1]. وخصص صدام وقتا كبيراً لتلك الاحتفاليات؛ وتظهر لنا الوثائق مسودات كثيرة ومراجعات عديدة للكلمة التي سيلقيها، والتي امتدح فيها شعب العراق، وعلى وجه التخصيص الستة آلاف فرد الذين شاركوا في تنفيذ القناة، على قوة عزيمتهم أثناء العقوبات المفروضة على العراق[2]..

صورة وجه صدام حسين التي تربعت على طوابع البريد أيضاً، وعلى دفاتر الكتابة، والعملات المعدنية ساعدت على تقوية وجوده

---

(١) من الديوان الرئاسي إلى جميع أعضاء مجلس قيادة الثورة، «افتتاح حفر نهر صدام»، ٤ ديسمبر ١٩٩٢، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق وثائق ٠٠٣ ـ ٤ ـ ٦ (١٦٢ ـ ١٦٨). ومن المثير، لم يذكر برنامج الافتتاح الذي حدث في ٧ ديسمبر ١٩٩٢ حضور صدام الافتتاح طبقا للإجراءات الأمنية؛ ويضع الرئيس خطة حركته الشخصية في اللحظة الأخيرة لإفشال أي مؤامرة لاغتياله. كانت نسخ مراسم الاحتفال ترسل إلى جهاز الأمن الخاص وأمانة سر الحزب.

(٢) مركز سجلات أبحاث الصراع، ٦ ـ ٧ ديسمبر ١٩٩٢.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الذي بدا أزليا ومستديما. «[صدام] حسين استغل الطوابع البريدية لتقوية ودعم عبادة الفرد»[١]. وفي عام ١٩٩٠، قام الهلال الأحمر العراقي ضمن هيئات أخرى في العراق بإصدار مجموعة من ثلاثة طوابع تصور الرئيس «كأيقونة النصر والسلام»[٢]. كانت الصور البصرية ضرورية ولازمة في ربط عبادة الفرد لدى شعب العراق؛ بالنصب التذكارية العملاقة والتماثيل والجداريات واللوحات الكبرى أقيمت في جميع أنحاء العراق[٣]. ومن المثير للانتباه، أنه في سوريا المجاورة، لم تقم للأسد الذي كان أقل منه تمجيداً وتملقاً من شعبه بتشييد النصب التذكارية العملاقة التي يمكن مقارنتها بنصب قوس النصر في بغداد ولا بالنصب التذكارية التي أقامها النازي في ألمانيا[٤].

كانت اللوحات الكبرى التي تحمل الصور الجانبية والصور الكاملة لصدام حسين في كل مكان؛ كما قيل أن صورا كبرى أو تماثيل له من الورق المقوى كانت تقام في مدخل كل قرية عراقية. لم تكن صوره المؤطرة معلقة في كل مكتب حكومي فقط، بل أيضاً في البيوت، حيث يعلق الناس صوره كما لو كانوا يعلنون للمخبرين والمبلغين والوشاة بتعليق صور الزعيم أنهم مواطنون مخلصون وموالون ومعجبون بالرئيس[٥]. كان لابد لكلمات وصور القائد أن تكون موجودة في كل

---

(١) دونالد مالكولم ريد: «طابع البريد: نافذة على عراق صدام حسين»، ميدل إيست جورنال، المجلد ٤٧، رقم ١(شتاء ١٩٩٣)، صفحة ٧٩.

(٢) مركز سجلات أبحاث الصراع، انظر الطابع على الغلاف الأمامي.

(٣) بالنسبة لبعض قطع الآثار الكبيرة ومغزاها، انظر ماكيا: «الآثار».

(٤) ويدين: «غموض الهيمنة»، صفحات ٢٨ ـ ٢٩؛ أوفيري: «الدكتاتوريون»، صفحات ١١٥ ـ ١١٦.

(٥) أرنولد هوتنجر: «عبادة الشخصية والحزب في العراق»، العرض السويسري للشؤون الدولية (يناير ١٩٨٤)، صفحة ١٣.

مكان لتحدث التأثير المطلوب؛ ولما بدأت شبكة المعلومات والتواصل في الانتشار بالعراق (الإنترنت) وبدأت المكاتب الحكومية في استخدامه، أمر الديوان الرئاسي كل الوزارات أن تضع صورة صدام على شاشات الحواسيب كصورة مستديمة على الشاشات[1].

وفي الحقيقة، انتشرت نكتة في أواخر الثمانينيات تقول أن عدد سكان العراق ٣٤ مليون ـ ١٧ مليون مواطن و١٧ مليون صورة لصدام حسين. كان عدم وجود صورة للرئيس في أماكن بارزة، ويفضل على الحوائط، تطل على الناس من فوق رؤوس الجميع، يترتب عليه عواقب وخيمة. أخبرني جنرال كبير بالجيش، وهو من الجنرالات المخضرمين الذين نالوا كثيراً من الأوسمة في الحروب العراقية، أنه في عام ١٩٩٤، بينما كان بعيدا عن مكتبه في زيارة ما، قام ضباط من الاستخبارات بتصوير مكتبه. وبعد عدة أيام، استدعاه رئيس أركان الجيش لمقابلته وراح يوبخه لعدم وجود صورة لصدام حسين على حائط مكتبه، وشرح الجنرال لرئيس الأركان أنه فضل وضع صورة الرئيس على طاولة أفضل من تعليقها على حائط، خشية أن تؤدي غارات الحلفاء الغربيون الجوية إلى تحطم زجاج إطار الصورة ويجرح الزجاج القريبين منه. وظل الأمر موضع تحقيقات على مدى ثلاثة أشهر، ولكن مع عدم وجود فقرة في القانون العسكري لعقاب من لا يعلق صورة الرئيس على حائط مكتبه، تركز الاتهام على «إساءة معاملة» بعض مرؤسيه. وحكم عليه بالسجن لأربعة أعوام ولكنه قضى منها بالسجن عاماً واحداً فقط، وتم صرفه عن منصبه، مع خفض رتبته إلى عقيد. وبكل يقين لم يكن مكان الصورة هو صلب الموضوع، ويحتمل أنه كان له أعداء في الجيش، غير أن تلك

---

(١) من وزير الإعلام إلى الديوان الرئاسي: «صور السيد الرئيس القائد، حفظه الله وباركه»، ٦ أغسطس ٢٠٠٢، قاعدة نظم بيانات وزارة الإعلام ٠٠٣ ـ ٠١٦٤.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

القصة تظهر كيف استغل موضوع صورة الرئيس لزرع الخوف والرهبة في قلوب جنود الجيش والمدنيين على السواء[١]. ولم يكن ذلك المثال فريدا في موضوعه؛ فواحدة من الوثائق تسجل أن فنانا رفضت أعماله من أحد المعارض اشتكى للحزب من أنه «منزعج ومتأثر جداً وحزين» من رفض أصحاب المعرض لصوره التي عملها للرئيس مطبوعة على بطاقات بريدية كشكل من أشكال الفنون. ولم يرد بتلك الوثيقة التبعات التي نزلت بأصحاب المعرض من جراء ذلك الرفض[٢].

كانت الجداريات من الأشكال البصرية الأخرى التي عرضناها في الفصل الثاني، والتي استخدمت أيضاً لنشر التعليم السياسي الثقافي بين أبناء الشعب، وللتعجيل بزرع عبادة شخصية صدام حسين. فعلى سبيل المثال، كان من بين الجداريات التي تم تشييدها عام ٢٠٠٢، بمناسبة إعادة انتخاب الرئيس جدارية له وهو بالزي العربي التقليدي، مصحوبة بشعارات يقول نصها: «نعم نعم نعم للقائد صدام حسين (حفظه الله وباركه)، والموت لأميركا والصهيونية»[٣].

وأصبحت ذكرى مولد صدام حسين في ٢٨ أبريل مناسبة احتفالية كبرى للحزب ولكل الدولة. كانت الشوارع تزين، وتقام الاحتفالات في كل مؤسسات الدولة، وكان كل أعضاء الحزب يشاركون في الاحتفال بتلك المناسبة. وفي بعض الجوانب كانت الاحتفالات تشابه الاحتفال

---

(١) مقابلة مع لواء أركان حرب بشار محمود أيوب الصايغ، ١٥ يونيو ٢٠١٠. الصايغ مقتنع تماماً أن رجلين من الذين يقدمون له التقارير هم الذين يقفون وراء اتهامه، خلال مقابلة معه أجريت في ١٣ فبراير ٢٠١١.

(٢) من فرع الفارس إلى جهاز الأمن الخاص: «معلومات»، ٢٢ نوفمبر ١٩٩٥، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠١ ـ ٢ ـ ١(١٢٢ ـ ١٢٤).

(٣) من شعبة الانتصار إلى فرقة بغداد: «مبادرة»، ١١ أكتوبر ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٤ ـ ٣ ـ ٢ (٠٠١ ـ ٠٠٣).

بذكرى مولد النبي محمد، وكان على كل المؤسسات والهيئات الدينية أن تحتفل بذكرى مولد صدام حسين؛ واكتسب ذلك اليوم اسم «الميلاد الميمون»، وأصبح ذلك اليوم مقدسا في التقويم العراقي السنوي. ولم تتقاعس أي جهة عن الإنفاق ببذخ على الاحتفاء بتلك الذكرى، سواء من فروع الحزب أو من الحكومة القائمة، حتى أثناء المعاناة من الأزمة الاقتصادية الخانقة التي عانى العراق من ويلاتها في التسعينيات بسبب الحصار الاقتصادي والعقوبات الدولية المفروضة عليه[١]. كانت أمانة سر الحزب، بالتنسيق مع الديوان الرئاسي، تقر برامج الاحتفال وطبيعة الفعاليات التي ستقام، غير أن تلك الفعاليات كانت تضم عادة استعراضا عسكرياً يليه مهرجان جماهيري يشارك فيه آلاف من أطفال المدارس وأعضاء الاتحادات المهنية. وكانت الاحتفالات تستمر على مدى ثلاثة أيام متواصلة، وتتخللها المسابقات الشعرية والخطب التي يلقيها أعضاء الحزب والمسؤولون الحكوميون؛ وكانت الهيئات الدبلوماسية وممثوا الدول يدعون إلى ولائم غذاء سخية؛ وأخيراً وليس آخراً، كانت تدفع مكافآت خاصة لكل أعضاء الحزب في تلك المناسبة[٢]. إضافة لذلك، كان السجناء ـ بما فيهم المعتقلون السياسيون ـ يطلق سراحهم بموجب عفو رئاسي احتفالاً بتلك المناسبة[٣].

---

(١) انظر، على سبيل المثال، الإعداد من قبل فرع النصر العظيم لعيد ميلاد صدام في عام ٢٠٠٠: القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٤ ـ ٤ ـ ٣. انظر أيضاً بنجيو: «كلمة صدام»، صفحات ٨٣ ـ ٨٥.

(٢) من أمانة سر الحزب إلى كل سكرتيري الحزب: «الاحتفال بعيد ميلاد الرفيق القائد العظيم (حماه الله)»، ٢٥ مارس ١٩٩٩، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٤ ـ ٤ ـ ٣(٠٨٨)؛ من أمين سر تنظيم الكرخ إلى كل أمناء سر الفروع: «دعوة الهيئة الدبلوماسية»، ١٩ أبريل ٢٠٠٠، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٤ ـ ٤ ـ ٣ (١٣٩).

(٣) في مدينة كردية تم إطلاق سراح ستة وعشرين سجينا سياسياً عام ١٩٨٦، انظر مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٠٣، صندوق وثائق ١٧١.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكجانب من جوانب عبادة الشخصية، كانت شعارات جديدة تبتكر لكل احتفال سنوي بعيد مولد الرئيس. ففي عام ١٩٩٣، على سبيل المثال، ومن بين اثنين وعشرين شعاراً جديداً، كان منها: «كل العراقيين يقسمون يمين الولاء لك في عيد مولدك»؛ «كل العراقيين ينشدون: صدام هو فخر أمتنا»؛ «صدام هو القائد الذي طال انتظار أمتنا له زمنا طويلاً»[١]. وكما لاحظنا في الفصل الثاني، كان تقويم حزب البعث قد تم تعديله ليبدأ كل عام جديد من يوم ٢٨ أبريل. وكانت كل الموازنات المالية والتقارير السنوية يتم توفيقها طبقا لذلك التاريخ، وكانت مراسم أداء قسم الولاء من أعضاء الحزب تتم أيضاً في أثناء تلك الاحتفاليات. ورغم كل ذلك، أحس صدام أنه أقل من نيازوف في تركمانستان، الذي قام بتغيير أسماء الشهور في التقويم الميلادي لتحل محلها شهور تحمل اسمه وأسماء أفراد عائلته[٢].

ولتخليد اسم صدام حسين، كانت عشرات الجوائز والقلائد تمنح سنويا لتكريم الأفراد في المجالات الإنسانية، والعلوم الاجتماعية، والعلوم، والفنون. ففي عام ١٩٩٦، أصدر مجلس قيادة الثورة قانوناً توزع بموجبه إحدى عشرة قلادة تحمل اسم صدام حسين على العلماء، والأكاديميين، والكتاب. وفي كل تصنيف من تلك التصنيفات، كانت قيمة المكافأة المالية المصاحبة للجائزة تخضع لقرار الرئيس[٣].

كان لصدام حسين اهتمام خاص بالعلوم إلى جوار حبه للأدب والشعر. وكان يهاب العلماء، وقال من كانوا يعملون معه أن العلماء

---

(١) لقائمة شعارات ١٩٩٣، انظر القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٥ ـ ٥ ـ ٤.

(٢) لويس: «إغراء الاستبداد»، صفحة ٨٢.

(٣) جمهورية العراق «قانون جائزة صدام للعلوم، والعلوم الإنسانية، والفنون، رقم ٦ لعام ١٩٩٦»، القيادة القطرية لحزب البعث، ١١٩ ـ ٤ ـ ٨ (٩٤ ـ ٩٩).

كانوا الصنف الوحيد من الأكاديميين الذين لا يستطيع أن يقول لهم كيف، وماذا ينتجون. وتحت تلك الظروف اللينة، استمر كثير من العلماء في العمل بالعراق على الرغم من أنهم لم يكونوا بعثيين.. وتبرز كثير من الوثائق ولع واهتمام صدام بالعلم وكيف كان حاميا للعلماء. في ١٩٩٩، على سبيل المثال، توسع في تعيين العلماء ووفر لهم أسبابا معيشية جيدة، كما شجع طلاب العلوم على الاستمرار في دراساتهم العليا[١]. ومرة بعد أخرى، كان يؤكد على أهمية «زرع المشاعر الوطنية في قلوب العلماء وقلوب [الطلاب] المتفوقين، وربطهم عاطفيا وشعوريا [بقضية] العراق»[٢]. ومن الواضح، أن اهتمام صدام حسين بالعلوم لم يكن إيثاريا بل كان جانبا مكملا لجهوده في مواجهة الحظر الدولي والعقوبات الاقتصادية وتقوية العراق تكنولوجيا وعسكريا. وقد أصر في أحد اجتماعات مجلس الوزراء على وجوب «تنمية وتطوير ماهو نظري مع ما هو عملي وتطبيقي، وتطوير العملي طبقا للنظري... حتى لا يصبح أساتذة الجامعات مجرد فلاسفة أفكار نظرية فقط»[٣].

دور الحزب

لم يكن لخلق عبادة الشخصية، سواء في العراق، أو الصين، أو ألمانيا النازية، أو في الاتحاد السوفييتي يمكن إنجازه دون الدور البارز للحزب الواحد الموجود وتأثيره الشديد على المجتمع. وحتى في النظم

---

(١) من الديوان الرئاسي إلى الرئيس: «البرنامج الوطني للإعداد للكوادر العلمية»، ١ يناير ١٩٩٩، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٢١ ـ ٢ ـ ٧ (٠٢٥ ـ ٠٢٦).

(٢) من مجلس قيادة الوزراء إلى كل الأعضاء المعنيين: «الوقاية الكاثودية»، ١٣ أبريل ١٩٩٩، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٢١ ـ ٢ ـ ٧ (١٢٤ ـ ١٢٥).

(٣) من أمانة سر الحزب إلى كل سكرتيري الحزب: «تنفيذ أمر»، ٢ أكتوبر ٢٠٠٠، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٢١ ـ ١ ـ ٥ (٠٤٥ ـ ٠٤٦).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الشمولية المتسلطة، من الصعب بناء عبادة الشخص بكفاءة واقتدار في غياب حزب سياسي مهيمن. وراح تسلط حزب البعث يتركز شيئاً فشيئاً على عبادة شخصية صدام حسين حين توحدت أيديولوجية الحزب بالمثل العليا التي يؤمن بها صدام. وكما شرحنا في الفصل الثاني، أصبحت مناهج الدراسة بالمدرسة الإعدادية للحزب مكرسة إلى حد كبير لدراسة السيرة الذاتية لصدام حسين، ومعاركه التاريخية، وخطبه، وكتاباته. كان نصف أسئلة كل امتحان على الأقل أو منافسات كتابة المقالات في أي فرع من فروع الحزب تتعلق بالقائد وإنجازاته. وكجانب من هذا التعليم الثقافي، كان الأعضاء يتلقون مقتطفات من استهلالات وافتتاحيات الصحف عن أخبار صدام حسين ينتقيها قسم الإعلام والدراسات، والذي يقدم تقاريره بدوره إلى مكتب مدير أمانة سر الحزب. وكانت تلك المقتطفات يتم تداولها بين مختلف فروع الحزب وتصبح موضوعا للنقاش حول مختلف جوانب ومكونات شخصية الرئيس[1]. كانت أوامر صدام حسين تعامل وكأنها أوامر تتسم بالقداسة؛ ونصحت مذكرة من المذكرات كل أعضاء الحزب، كجانب من جوانب التعليم الثقافي، بأن «يقرأوا يوميا وصيتين على الأقل من وصايا الرفيق القائد (حفظه الله ورعاه)»[2].

وكما ذكرنا، كانت كتب صدام حسين متصدرة للكتب الأيديولوجية. وتم تلخيصها وشرحها، وكان على الأعضاء الذين يتلقون برامج تعليمية خاصة يعقدها الحزب أن يكتبوا مقالات موجزة عن تلك الكتب وعن

---

(١) انظر، على سبيل المثال، مجموعة من عناوين الصحف عن صدام ومعاركه مؤرخة بمنتصف فبراير ٢٠٠٢، في القيادة القطرية لحزب البعث، ٠١٦ ـ ٥ ـ ٣.

(٢) تفاصيل اجتماع فرع القائد المنتصر، ١٧ نوفمبر ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث ٠٠٤ ـ ٥ ـ ٦ (٢٤٦).

أهميتها للشعب العراقي. واحد من تلك المقالات كتبته سيدة عضوة في مكتب إدارة الفرق الحزبية والتي كانت مسؤولة أيضاً عن خلية تحلل فيه رواية «زبيبة والملك»، وهي رواية تم مسرحتها بعد ذلك، وهي مثل غيرها من الروايات التي كتبها صدام حسين، ونشرت كسابقاتها مغفلة من اسم كاتبها ووضع في مكان اسم الكاتب العبارة الشهيرة بصدام، «رواية لكاتبها»[١]. وتوصلت في تحليلها للرواية إلى أن المؤلف «مبدع ومتأجج المشاعر»، وبدون أن تسمي صدام حسين، خلصت إلى أن الكاتب يعطي درسا في التواضع للشعب العراقي بنشره روايته مغفلة من اسم كاتبها[٢]. وبأوامر من الرئيس ذاته، كانت كتبه تهدى كهبة لكل الوفود العربية التي تفد لزيارة العراق، كما تلقت الوفود العراقية التي تتوجه لبلاد عربية أخرى أمرا بأن تصطحب معها نسخا لإهائها لمضيفيهم في تلك الدول[٣].

لم يكن الإعداد للاستفتاءات على الرئاسة، وأعياد ميلاد صدام

---

(١) صدام حسين: «زبيبة والملك: رواية لكاتبها» (بغداد، دار نشر البلاد). من المحتمل أن الرواية قد نشرت آخر عام ٢٠٠٠ أو بداية ٢٠٠١. وتقع أحداث القصة في تكريت مسقط رأس صدام حسين.زوج زبيبة رجل قاس وغير محب يقوم باغتصابها. وعلى الرغم من أنها تبدو ظاهريا كرواية، إلا أن الكتاب قصد منه أن يكون رمزيا، فزبيبة ترمز إلى شعب العراق، والبطل هو صدام حسين. والزوج الخرب هو الولايات المتحدة، واغتصابه لزبيبة يرمز إلى غزو الولايات المتحدة للعراق، وقد نشر الكتاب بعد ذلك عام ٢٠٠٢ في القاهرة في دار عشتار وترجم إلى الفرنسية ونشر عام ٢٠٠٣ بمنشورات روشار. وقد تحول أيضاً لمسرحية. ولتحليل مفصل للكتاب، انظر أوفرا بنجيو: «رواية رعب صدام حسين»، ميدل إيست ربع السنوية، الجزء ٩، الموضوع الأول(شتاء ٢٠٠٢)، صفحات ٩ ـ ١٨.

(٢) من أمين سر تنظيم الكرخ إلى أمانة سر الحزب: «مجهود ثقافي»، ١٧ سبتمبر ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠١١ ـ ٢ ـ ٦ (٠١٧ ـ ٠٢٦).

(٣) من مدير الديوان الرئاسي إلى وزير الثقافة: «أمر»، ٢ مارس ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠١١ ـ ١ ـ ٢ (٠١٦).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حسين، والتظاهرات، والمسيرات المؤيدة والداعمة للرئيس يمكن تحقيقها دون الآلة الحزبية البارعة على كل المستويات الحزبية. فبالنسبة للاستفتاءات، كان أعضاء الحزب يطوفون بجميع أرجاء العراق، ويوزعون نماذج من أوراق الاستفتاء ليشرحوا للمتعلمين والأميين على السواء كيف يدلون بصوتهم، وماذا يختارون. كما قاموا بتنظيم انتقال أعداد هائلة من المصوتين ودعموا ودمجوا كل مجهودات الخلايا المحلية في الجامعات والإدارات الحكومية. وذهبت بعض الفروع في تطرفها لدرجة إرسالها لمواثيق الطاعة والولاء للرئيس مكتوبة بدمائهم. وكان ذلك يلفت انتباه أمانة سر الحزب، والتي كانت بدورها توجه تلك الظواهر المتطرفة من التأييد والولاء بسرعة لمكتب الرئيس[1]. وسجل الحزب في قوائم أسماء كل المتمكنين من اللغة الإنجليزية لكتابة شعارات على لافتات كبرى لكي ترفع في المناسبات الوطنية. وبالنسبة للاحتفالات الشعبية بعيد ميلاد صدام حسين في شهر أبريل عام ٢٠٠٣، والتي من الواضح أنها لم تتم بسبب غزو العراق، كانت اللافتات الكبرى قد أعدت سلفا وعلى بعضها كتب: «صدام = اختيارنا» و«قدنا ياصدام: ليس التخلي من خياراتك»[2]. وثق الحزب أيضاً المساهمات وأطرى بعض المواطنين لمبادراتهم التي أتخذوها أثناء الاستفتاء على الرئاسة. فعلى سبيل المثال وفي يوم الاستفتاء في عام ٢٠٠٢، تمت تهنئة المصوتين التالين: رجل وزوجته أصرا على التصويت في البطاقات بدمائهما (وطبقا لمذكرة، أصر كثير من الناس في مناطق معينة على

---

(١) من أمانة سر الحزب إلى الديوان الرئاسي: «مبايعة بالدم»، ٢٧ نوفمبر ١٩٩٢، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٥ ـ ١ ـ ٢ (١١١). كانت وثيقة البيعة من شعبة النصر العظيم.

(٢) من أمانة سر شعبة القائد المنتصر إلى أمانة سر رئاسة الحزب: «رايات من الصلوات لحفظ العراق وقائدها»، ٢٥ فبراير ٢٠٠٣، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٤ ـ ٥ ـ ٧.

التصويت بدمائهم حتى أنه أقيمت نقطة إسعاف أولي لمعالجة حالات الجروح الطارئة بسبب التصويت بالدم)؛ وكثير من المواطنين الذين عقدوا قرانهم في يوم الاستفتاء. وبعض المواطنين الذين كانوا في غاية المرض والضعف أو فقدوا فردا من عائلاتهم في ذلك اليوم أصروا على الرغم من ذلك على التوجه إلى صناديق التصويت. في كل حالة من الحالات السابقة، كان يسجيل اسم وعنوان الناخب أو الناخبة وإبلاغ فرع الحزب المحلي التابعين له[1].

كان التخطيط المكثف والشامل لمراسم الاحتفال السنوي بعيد ميلاد صدام يعني أن الحزب عليه أن يستدعي كل أعضائه. وتصف الوثائق بالتفصيل كم الوقت والجهد الذي يخصص من لدن كل فروع الحزب في جميع أرجاء العراق، إما للإعداد أو للاحتفال. وكان هناك تنافس واضح بين مختلف خلايا وفرق الحزب في تحقيق أكبر لفت لنظر القيادة في الاحتفالات وأيها أكثر جذبا لاهتمام القيادات الأعلى، وقامت أمانة سر الحزب بحفز الفروع لابتكار مبادرات جديدة للتلاحم مع الجماهير والحشود، كما كانت تحثهم على ألا يكرروا ذات الخطب السابقة والمحاضرات السالفة. ونظمت بعض الفروع مسابقات في لعبة الشطرنج والأنشطة الرياضية، بينما أبقت بعض الفروع على ترتيباتها التقليدية مثل تنظيم بعض المحاضرات عن تاريخ الحزب أو دروس تتناول شرح إنجازات الرئيس[2].

وبالفعل، تم إلقاء الضوء على مجهودات بعض الفروع أو الأعضاء

---

(١) من قيادة فرع بغداد إلى أمانة سر الحزب: «مبادرات وحالات خاصة أثناء يوم الاستفتاء»، ١٧ أكتوبر ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٢ ـ ٢ ـ ٤ (٠٢٦ ـ ٠٢٩).

(٢) انظر، على سبيل المثال، ، مذكرة من قيادة فرع التأميم: «البرنامج المركزي لاحتفالات أبريل الخالدة»، ١١ أبريل ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٩ ـ ٢ ـ ٢ (٠٥٦)؛ من فرع بابل، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٩ ـ ٢ ـ ٢ (٠٥٩).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

النشطين من قبل كبار رجال الحزب، وأرسلت إليهم خطابات تقدير ووضعت نسخ منها في ملفاتهم[1]. أحد المهام الصعبة التي كانت تواجه أجهزة الحزب كل عام تمثلت في اختيار الهدايا الملائمة التي يقدمونها للقائد؛ ولكن تلك المهمة كانت أسهل نسبيا في عام ٢٠٠٢، حيث تآلفت كل جهود الحزب لتحقيق نسبة مشاركة في الاستفتاء على الرئاسة في ذلك العام تصل إلى ١٠٠ بالمائة. وقد أوجز مسؤول كبير أهمية الاحتفال بعيد ميلاد الرئيس والإعداد الجاد له حيث قال ببساطة: «احتفالات أبريل تعد احتفالات خاصة لكل عراقي لأن ميلاد الرئيس إنما يعني ميلاد الأمة العراقية»[2].

الشكل (٨): صورة جدارية لصدام حسين في بغداد، ١٩٩٨

---

(١) من تنظيم بغداد للأعضاء: «شكر وتقدير»، ١١ مايو ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ٢ ـ ٦. أرسلت الملاحظة لسبعة ذكور وسيدتين من الأعضاء والعضوات مع نسخ لترفق بملفاتهم.

(٢) أمانة سر فرع الكرخ: «عيد ميلاد الرفيق القائد المناضل (حفظه الله وباركه)»، ٢٣ أبريل ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٩ ـ ٢ ـ ٢ (٠٧٦).

ومهما كانت المناسبة الاحتفالية، كان على الحزب أن يقوم بعمل اللافتات الكبرى لصورة وجه الرئيس والجداريات التي تحمل صوره في جميع أنحاء العراق. كانت هناك حساسية شديدة حول كيف وأي كلمات يجب أن تستخدم حين يتعلق الأمر بأي شيء يخص صدام حسين أو جدارياته ووصلت إلى مدى دفع أمانة سر الحزب أن تصدر أمرا لإحلال كلمة «رفع» أو «كشف» محل كلمة «أزيح» الستار عن الجداريات بعد إقامتها لأن كلمة أزيح تعد اصطلاحا غير ملائم لاستخدامه مع الرئيس، وما تحمله الكلمة من إيحاءات سياسية[١] سلبية.

ورأى الحزب أنه الحارس على عبادة شخصية الرئيس؛ ففي مناسبة من المناسبات، كتبت أمانة سر الحزب إلى وزارة الإعلام تشتكي من أن المسلسلات التلفزيونية العراقية لا تظهر صور صدام حسين في خلفية المشاهد. وأبدى الوزير تفهما وتعاونا فوريا وأرسل في التو خطابا لإدارة مؤسسة التلفزيون لعلاج تلك المشكلة على الفور[٢].

غير أن هيمنة الحزب الواحد وحكومة الحزب الواحد لا يكفي لتبرير ظهور ظاهرة عبادة الفرد بتلك القوة. فلكي تنجح سياسة عبادة الفرد في أي دولة، على عبادة الفرد أن تنمو في مناخ سياسي خصب يقبلها فيه المواطنون أو على الأقل يقبلونها دون معارضة. وفي العراق، كانت بذور الاستبداد قد زرعت قبل وصول صدام للسلطة بزمن كبير. وفي تحليله لماذا تغير عبد الكريم قاسم حين كان في ذلك الوقت رئيسا للوزراء بعد ثورة ١٩٥٨ وشجع فكرة أن يكون القائد الأوحد، نقل

---

(١) من أمانة سر الحزب إلى أمانة سر كل الفروع والمكاتب العسكرية: «تنفيذ أمر»، ٢٥ أكتوبر ٢٢٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٢٠ ـ ١ ـ ٥ (٠٠١).

(٢) من أمانة سر الحزب لوزير الإعلام، ٢٧ يناير ٢٠٠٢، من قاعدة بيانات وزارة الإعلام ٠٠٣ ـ ٠١٨٦.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بطاطو عن أحد الوزراء العراقيين الذي عمل مع عبد الكريم قاسم في ذلك الوقت قوله: «كان لدى قاسم إحساس بأنه الرجل الوحيد في كل الدولة. وبعبارة أخرى، لقد بنينا ديكتاتورا... شعبنا في الحقيقة صانع للديكتاتوريين»[١].

اعتمد نجاح سياسة عبادة الفرد في ألمانيا النازية وفي الاتحاد السوفييتي، «على المساهمة النشطة والمشاركة الإرادية لملايين أفراد الشعب، والذين أسقطوا كليا عدم إيمانهم واحتضنوا وتبنوا والشخصيات المتضخمة التي شيدتها أدوات السلطة»[٢]. وفي سوريا، لجأ حافظ الأسد «لاستخدام استراتيجيات المنفعة والترهيب إلى حد ما، حيث أن الفشل في الأداء كان من الممكن أن يفضي إلى مصاعب اقتصادية، أو فرض عقوبات على بلاده، في حين أن الأداء الجيد يساعد على تنمية الأمن ومن الممكن أن ينمي الاقتصاد والفرص السياسية الأفضل»[٣].

أما في العراق، فقد اعتمد نجاح سياسة عبادة الفرد على توليفة مجمعة من كل العناصر السابقة. فقد التقت مصالح المؤمنين الحقيقيين بصدام ومنتهزي الفرص وكانت تصرفاتهما معا متماثلة رغم اختلاف الدوافع. حقاً، من الصعب شرح دوافع الفنان الذي تدنى بفنه أو دوافع خصوم الجنرال الذين اشتكوا من أن مكتب قائدهم الجنرال لا يحتوي على صورة معلقة على حائط مكتبه لصدام حسين. لا يوجد شك، رغم ذلك، أن كثيراً من مسؤولي الحزب أو بيروقراطيي الحكومة كان بإمكانهم استغلال عبادة الفرد لصالحهم الشخصي الخاص، لأنها كانت

---

(١) باتو: «الطبقات الاجتماعية القديمة»، صفحة ٨٣٦. نقل باتو عن جواد هاشم، وزراء خارجية العراق من ١٩٥٨ إلى ١٩٦٣.

(٢) أوفيري: «الديكتاتوريون»، صفحة ١١٩.

(٣) ودين: «غموض الهيمنة»، صفحة ١٤٥.

بالنسبة لكثيرين تؤدي للحصول على ترقية كما سنشرح ونبين في الفصل التالي. في كل الدول التي حكم فيها ديكتاتوريون، كان الخوف يلعب الدور الأكبر؛ وقصة إهانة وتحقير وزير أمام زملائه من أعضاء مجلس الوزراء ليس إلا مثالاً بسيطاً يظهر كيف كان الناس على جميع المستويات كانوا خائفين من ردود أفعال صدام حسين التي لا يمكن لأحد التنبؤ بها أو توقعها، أو خوفهم من قسوة آلته الحزبية الكفؤة الموالية له. وحتى مع نشر كل ذلك الخوف، لم يكن كل العراقيين يخضعون لتلك العبادة ولم يساهموا جميعاً في نشرها؛ كانت هناك مقاومة، ولكنها كانت غير مؤثرة في غالب الأمر. كان تملق الرئيس المفرط يتزايد في كل أوجه الحياة وكان من الصعب تجنبه أو الفرار منه. وكما يشرح «ويدين»، فإن خلق عبادة الفرد لم تكن الوسيلة الوحيدة «لخلق سلطة لنظام»، غير أن غيابها «ربما يعني الاحتياج لوسائل أخرى من وسائل الانضباط لفرض الطاعة»[1].

في بداية عقد السبعينيات، كان قد مر على العراق زمن طويل من الاضطرابات وغياب اليقين، وانتشار العنف، ونمو اقتصادي ضعيف لا يكفي لسد احتياجات الشعب العراقي الأساسية. وعرف صدام حسين كيف يستغل تلك الحالة من الإحساس بعدم الأمان، وكيف يحافظ على استمراريتها من خلال الجمع بين الإنعام بالمكافآت أو البطش وإنزال العقوبات، وبخلق أساطير الخلاص ارتكازا على رموز دينية وثقافية. وكانت وسائله في الهيمنة على السلطة، وديكتاتوريته الشاملة، وزراعة شخصيته، تماثل في كثير من الأوجه ممارسات ديكتاتوريين آخرين مثل هتلر وستالين. وينطبق علي صدام حسين ما أوجزه «ريتشارد أوفري» في وصفه للطريق الذي يفضي إلى الديكتاتورية:

---

(١) المصدر السابق، صفحة ١٥٣.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان كلاهما [هتلر وستالين] مقادين بإصرار شديد لتحقيق ما رأيا أنه الوضع الضروري الذي يليق ببلديهما في التاريخ، غير أن الإرادة المتسمة بقسوة الضمير وانعدام الرحمة اقترنت بتفاصيل تكتيكية من النضال السياسي، وضيق غير طبيعي تجاه أي أحد يقف في طريق تطلعاتهما وطموحهما السياسي، والسعي بلا مبادئ لاكتساب تقدير الرأي العام. وهي توليفة لا تعرف الرحمة. ومن السهل أن نتأسى على ضعف المعارضة التي تواجههم، ولكن من المستحيل ألا نتعرف وندرك كيف أنه من الصعب بمكان أن نجد وسائل لإغلاق أو إزاحة [كذا] رجال يشعرون أنهم يحملون عبء وثقل التاريخ على كواهلهم وأن لديهم إرادة قوية لاستغلاله، لو تمكنوا، بأن يسحقوا البشر أو الظروف التي تقف في طريقهم[1].

وبالفعل، كان إحساس صدام حسين بمكانه في التاريخ مرتفعا جدا. كان عميق الإيمان أن شعب العراق كان ينتظره من مئات السنين ليقودهم للرخاء، وقد أكد في خطاب له ألقاه على القيادات العليا لحزب البعث عام ١٩٨١ على ما يلي:

إن القوى التي تتخيل أنه يمكن للشعب العراقي أن يرفض نظام حزب البعث الذي يهدف لخلق حياة كريمة وسعيدة لشعب العراق سوف تفشل، لأنه في رأيي، وفي أعماق قلبي، أن الشعب العراقي، [وعلى وجه التخصيص] أولئك المخلصين، الذين كانوا يبحثون على مدى ثمانمائة عام... على شيء مماثل لما نحن عليه.

يبحثون عن شخص يأتي من نسلهم ومن بين صفوفهم ليقودهم إلى

---

(١) أوفيري: «الديكتاتوريون»، صفحة ٥٣.

حياة كريمة، وإلى الرخاء، ليقودهم ليصبحوا أقوياء... ويقودهم حتى يصبحوا أصحاب سيادة كاملة على مصائرهم[1].

وهناك أمر أخير، غير مباشر وافتراضي، بحاجة لتناوله: وهو، من الذي كان يمكن له أن يتولى السلطة لو حدث ومات صدام ميتة طبيعية أو تم اغتياله وحزب البعث ما زال يحكم؟ الاحتمال الأقرب جداً أنه كان قصي، ولكن من المثير، أن صدام حسين قال لمستجوبه الأميركي بعد اعتقاله أنه لم يتخذ أبداً قرارا نهائيا كما لم يعد قصي أبداً بأنه سيخلفه في قيادة العراق. والسبب الذي قاله يعد ماديا بالنسبة لفهمنا لجنون العظمة وسلوكيات الهيمنة والسيطرة. فقد قال أنه تعلم مما حدث في عُمان عام ١٩٧٠، حين استولى السلطان قابوس على السلطة بانقلاب عسكري قام به على أبيه[2]. كان الدرس الذي تعلمه هو ألا يسند كثيراً من السلطة إلى قصي في أي مرحلة مبكرة ويعرض ذاته للخطر ويصبح تحت رحمة قصي. ومن المشكوك فيه جداً أن قصي، وعلى الأقل في سنينه الأولى في السلطة، كان يمكن له أن يؤسس لذاته شخصية معبودة كوالده (ومن الجدير بالذكر أن في سوريا الحالية، عبادة بشار الأسد أقل كثيراً من عبادة شخصية القائد التي كانت لوالده). وبلا أي شك، كان صدام حسين ظاهرة فريدة في سياسات الشرق الأوسط المعاصرة التي تمرس بها وأدارها بمهارة، وسيطر عليها، وظل محافظا بسلطة مطلقة على العراق لذلك المدى الطويل من الزمن.

---

(١) شريط صوتي مسجل لاجتماع بقيادات الحزب، ١٩٨١ (لا يوجد تاريخ محدد)، مركز سجلات أبحاث الصراع.

(٢) وزارة العدل الأمريكية: «أحاديث صدام حسين لوكالة التحريات الفدرالية».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل السابع

السيطرة والمقاومة

لعب الخوف الدور الأكبر في الإبقاء على نظام حزب البعث في السلطة على مدى زمني يزيد عن ثلاثة عقود، غير أن هيمنة الحزب على الجماهير لم تكن تعتمد على الخوف وحده. فقد كان هناك نظام دقيق يرتكز على المكافآة والعقاب وهو ما أمدَّ حزب البعث بإطار نشط وفعال من الهيمنة والسيطرة. ورغم ذلك، وعلى الرغم من أن المجتمع ككل قد قبل نظام حزب البعث ومتطلباته المتواصلة الصارمة التي لا تنتهي، إلا أن عددا لا يستهان به لم يقبل بذلك. ويساعدنا فحص مختلف أشكال المقاومة على فهم ما الذي يجعل «شخص ما معارضا ومخالفا أو يقاتل ويقاوم، ويجعل من شخص آخر متعاوناً»[1].

الخوف والعنف

في الفصل الرابع، رأينا أن نظام حزب البعث قد أنشأ كثيراً من المؤسسات الأمنية وشبكة مخابرات كبيرة ومتشابكة. وبقيامه بذلك، كان

(١) تيموثي كارتون آش: «التأثير على عقولنا»، نيويورك ريفيو للكتب، الجزء ٥٤، رقم ٩ (٣١ مايو ٢٠٠٧).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مشابها بشكل مذهل لكل النظم الشمولية الاستبدادية الأخرى. ومثل ستالين، كان صدام حسين واعيا وحذرا على الدوام من أن الناس المحيطين به عن قرب لديهم قابلية أكبر لإيقاع الضرر به والنيل منه لو وجدوا الفرصة، مؤمنا بالمثل القائل «قريب من القيصر، قريب من الموت»[١]. وفي كتابه الأقرب للسيرة الذاتية، «رجال ومدينة»، كتب صدام حسين قائلاً أن «من لا يبقى منتبها وحذرا ومستعدا، ولو حتى بعصا طويلة، فإن الكلاب سوف تهاجمه وتعضه»[٢]. كلاهما ـ صدام وستالين كديكتاتورين ـ أيقنا أن الخيانة من الممكن أن تنبع من داخل دوائرهم اللصيقة المباشرة، وأدرك كلاهما مدى الحاجة لوجود حراسة خاصة ومؤسسات أمنية يتحكمان فيها بنفسيهما، مؤسسات تكون أكثر ولاء من معاونيهم المقربين، مع الإبقاء عليها بمعزل عن تلك الدوائر اللصيقة. كلا القائدين كان مرتبطاً بشدة بمؤسساته الأمنية، ويتلقى منها المعلومات مباشرة، ويتدخلان مباشرة في شؤون تلك المؤسسات. واستنادا إلى ملاحظات ومعلومات عرفها أبو ريش وكان من المعاونين المباشرين لصدام حسين، نقل عن صدام حسين قوله: «حين نستولي على الحكم سوف أحول هذا البلد إلى دولة ستالينية»[٣]. وظل كل منهما يغير من التركيب المؤسسي للهيئات الأمنية لتفي بحاجتهما ولجأ لاستخدام التخويف والعنف للاحتفاظ بالسلطة بقبضة من حديد[٤].

وعلى ضوء وجود كثير من الأعداء الحقيقيين والمتخيلين الذين كثروا تحت ظل نظام مثل نظام البعث، كان الهدف المركزي للقيادة هو

---

(١) نقلاً عن رجبي: «الستالينية ومجتمعات حكم الحزب الواحد»، صفحة ٦٤.

(٢) صدام حسين: «رجال ومدينة»، صفحة ٢٤.

(٣) أبو ريش: «صدام حسين»، صفحة ٦٧.

(٤) جريجوري: «الخوف بالحصص»، صفحات ٥١ ـ ٥٩.

تحديد من هم الأعداء. كان تعريف ستالين للأعداء عمليا وبسيطا: «العدو هو كل من يعلن الديكتاتور أنه عدو»[١]. وآمن كل من صدام حسين وستالين أن لهما كثيراً من الأعداء كما كان لديهما قوائم مطولة تضم أعداء محتملين، بمن فيهم الجواسيس، والمخربون، والخونة. وكان للجرائم في نظريهما أن تتخذ شكل فعل، أو كلمة، أو حتى فكرة. وآمن حزب البعث باستخدام القوة، سواء استخدمت ضد أصدقاء أو أعداء داخل العراق أو حتى مع جيران العراق. وكما قال صدام حسين ذاته لأحد الصحافيين: «لا يمكن لأية دولة أن تحقق السلام دون أن تستخدم القوة، ليس من المهم إن كانت [الدولة] هي التي تستخدم القوة، ولكن من المهم أن تمتلك أسباب القوة المادية والنفسية»[٢]. وبالمثل، قال ستالين عام ١٩٣٧: «سوف نقتل كل عدو. حتى لو كان بلشفيا أصيلا، سوف ندمر أقاربه، وأسرته، سندمر بلا رحمة كل من يوجه أية ضربة أو يطلق فكرة معادية أو مضادة لوحدة الدولة الاشتراكية»[٣]. كانت العناصر البشرية التي تتحدى، أو يحتمل أن تتحدى إرادة القيادة تزاح بقسوة ويقضى عليها بلا شفقة ولا رحمة. وشاع مصطلح «عدو الشعب» في أدبيات حزب البعث كما شاع كمصطلح ستاليني أيضاً[٤]. كل تلك النظم اشتركت في مواصفات واحدة: وهي جنون الارتياب الذي يدفعهم للاعتقاد بأن الأعداء متربصون بهم في كل مكان.

---

(١) المصدر السابق، صفحة ١٣٨.

(٢) الجمهورية ١٥ أبريل ١٩٧٥، صفحة ١. كان اللقاء الصحفي قد أجري معه وكان في ذلك الوقت نائبا للرئيس وأجريت المقابلة معه مجلة روز اليوسف المصرية.

(٣) منقولة عن جريجوري: «الخوف بالحصص»، صفحة ١٣٧.

(٤) كارل فريدريك وزبيجنيو بريجينيسكي: «الديكتاتورية الشمولية والاستبداد»، طبعة بغلاف ورقي (نيو يورك: بريجر، ١٩٦١)، صفحة ١٤٠.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وخلال الخمسة وثلاثين عاماً التي قضاها حزب البعث في الحكم، تراوح أعداء الحزب بين شيوعيين، وأكراد، وإيرانيين أو كل من ينتمون إلى أصول إيرانية وصولا إلى أعضاء حزب الدعوة الشيعي، والقادة الدينيين البارزين لطائفة الشيعة، وأعضاء سابقين في حزب البعث ممن خططوا في مرحلة ما لسبب أو لآخر وتآمروا للإطاحة بصدام حسين. كان على عاتق المؤسسات الأمنية أيضاً حماية منشآت النظام الحيوية، ومع انتشار الإنترنت وشبكة المعلومات الدولية من بداية التسعينيات كان على المؤسسات الأمنية أيضاً التأكد من أن وسائل الاتصال ونظم شبكة المعلومات لا يتم السطو عليها من قبل أعداء الوطن من الأجانب[1].

كان من الممكن أيضاً أن يكون أعداء النظام من «هامشي المجتمع». كان صدام حسين مثل ستالين وهتلر اللذين سبقاه، يتعقب المتسولين، والسكارى والمخمورين، والمتشردين والمتسكعين، والعاهرات. واستصدر أعضاء جهاز الأمن الخاص أمراً رئاسياً لاعتقال أي متسول يتواجد في وسط بغداد أو بالقرب من مجلس الأمة (البرلمان). كان المتسولون يلقى بهم في الحبوس لمدة شهر ويواجهون عقوبات أقسى لو اعتقلوا مرة ثانية لذات السبب. بل أن أعضاء جهاز الأمن الخاص ذاتهم أيضاً أبلغوا بأنهم عرضة لتوقيع عقوبات عليهم لو تراخوا في تنفيذ

---

(١) من الديوان الرئاسي إلى كل المكاتب الحكومية: «أمن الحواسيب»، ٢٦ يونيو ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث، ١٥١ ـ ٢ ـ ٤ (١٤٣)؛ من الديوان الرئاسي إلى كل المكاتب الحكومية: «أمن الوثائق والمكاتبات الرسمية»، ٢٦ ديسمبر ١٩٩٥، القيادة القطرية لحزب البعث، ١٧٤ ـ ٣ ـ ٢ (٠٨٥). بدأت المكاتب الحكومية والحزبية في استعمال الحواسيب على نطاق واسع بنهاية التسعينيات، وكان على أعضاء الحزب حضور دورات تعليمية عن الإنترنت. انظر وزير الاتصالات، «تعليم الإنترنت لأعضاء فروع الحزب»، ٣ ديسمبر ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث، ١٥١ ـ ٢ ـ ٤ (١٧٢).

تلك الأوامر[1]. ومما يصعب تصديقه، أن حتى مجرد الحلم أثناء النوم بالقيام بعمل «هدام» كان يخضع لعقوبات أيضاً. أخبرني عراقيون عن قصة رجل قال لبعض أصدقائه على مقهى أنه حلم بزيارة مرقد شيعي مقدس في إيران وأنه التقى بالإمام الشهير، الخميني. بعدها بيومين تم اعتقاله بتهمة أنه ما دام يحلم بذلك، فلابد أنه فكر وهو واع في ذات الأمر.

«في كل من العراق والديكتاتوريات المماثلة، سعت النظم لا لمجرد قمع أعدائها الحقيقيين فقط، بل إلى تدمير حتى احتمالات ظهور مقاومة أو معارضة»[2]. وأظهرت محاربة الأعداء نفسها في أشكال وأنماط عديدة: من المراقبات المشددة، إلى بث الخوف في نفوس الجماهير، واستخدام التعذيب والعنف لاستخراج المعلومات، أو لتدمير الأعداء المزعومين من الناس. ويعد العنف والمراقبة الشديدة بالطبع من أدوات النظم القمعية والاستبدادية. بمثل تلك الوسائل، أرسل نظام كنظام البعث رسالة و«إشارة واضحة لأولئك الذين قد يفكرون في معارضة النظام الاستبدادي أو الحكومة، وأنهم سوف يكتشفون ويتم التعامل معهم بكل قسوة»[3]. وكما ناقشنا سابقاً، كان حزب البعث يجمع المعلومات عن أي إنسان على وجه التقريب ولا يتردد في استخدام القوة ضد أعدائه الحقيقيين أو المتخيلين. وقد أورد الوزير السابق جواد هاشم في مذكراته قائمة تضم تسعة عشر قرارا لمجلس قيادة الثورة العراقية ينص على وجوب تطبيق عقوبة الإعدام على جرائم محددة. وضمت

---

(١) إدارة جهاز الأمن الخاص: «توصيات لمنع ظاهرة التسول والتزييف»، ٢٣ ديسمبر ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠٨ ـ ٢ ـ ٥ (٠٠٤ ـ ٠٠٨).

(٢) بول هولاند (محرر): «من الكولاك إلى ساحات الإعدام: انطباعات شخصية عن العنف السياسي والقهر في الدول الشيوعية» (ويلمنجتون، ٢٠٠٦)، صفحة ١.

(٣) أونيل: «أساسيات السياسات المقارنة»، صفحة ١٣٠.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تلك الجرائم مجرد التحريض على الثورة أو على التمرد العسكري، ونشر الأفكار الماسونية أو الصهيونية، وتكوين أية تنظيمات تهدف للقيام بأية أنشطة معادية للنظام، إلى آخر الجرائم المماثلة[١]. وفي اجتماع لصدام حسين بكبار مسؤولي الدولة، أظهر رغبته دون مواربة في وجوب استخدام العنف في التعامل مع خصومه ومعارضيه، كما عبر عن ذلك أيضاً بوضوح في نقاشه مع مدير الأمن العام قائلاً: «نحن هنا لخدمة أمتنا، لا لقتلها. ولكن، كل من سيكون بحاجة للذبح لابد أن يذبح. سنقطع الرؤوس التي يجب قطعها في سبيل خدمة خمسة عشر مليون [عراقي]»[٢]

كان زرع الخوف على أي حال هو الحالة الجوهرية لتحقيق النجاح. وسواء كان ذلك في سياق عمل أجهزة الأمن العراقية أو أجهزة الأمن الرومانية في عهد شاوشيسكو، من غرس الخوف والرعب في قلوب الجماهير، فقد «إنعكس أيضاً على خلق جنون الارتياب حول مدى شمولها الكلي»[٣]. كان الخوف يزرع من خلال إرسال رسائل غزيرة، لصفوة الحزب وإلى الجماهير الغفيرة على حد سواء، مضمونها أن أية معارضة لن يتم التسامح معها. تلك الرسائل كانت تبث بقوة وبوضوح من خلال المحاكمات التي تذاع على الهواء في التلفاز واالاعترافات العلنية للمعتقلين، وتخلق مناخا من عدم الإحساس بالأمان في جميع أرجاء البلاد. كان شعب العراق يعي بعمق تداعيات مقاومة النظام، ورسخت حكايات وقصص بلا عدد عن حوادث تعذيب في السجون تشرف عليها مختلف أجهزة الأمن تلك الصورة الوحشية القاسية في

---

(١) هاشم: «مذكرات وزير عراقي»، صفحات ٢٧٨ ـ ٢٨٢.

(٢) تسجيل صوتي لاجتماع بكبار القادة، مايو ١٩٨٧.

(٣) ديليتانت: «شاوشيسكو والمؤسسات الأمنية»، صفحة١٤.

أذهان الجماهير. وكما في الستالينية الروسية، والماوية الصينية، أو من أعضاء أسرة كيم إيل سونج في كوريا الشمالية التي اعتبرت مذنبة من قبل المجتمعات، واعتادت على زرع الخوف والرعب أو تحطيم إرادة المعارضين أو كل من يعد معارضا للنظام. كانت عائلات من يعدهم النظام «خونة» تعاقب بشدة إما بوسائل مباشرة أو غير مباشرة (برفض التحاق أبنائها بالكليات العسكرية، والجامعات، والوظائف الحكومية، أو حتى برفض السماح لهم بالسفر للخارج)، كثير من الذكريات التي كتبها عراقيون وصفت حياتهم في جحيم السجون والاستجوابات الوحشية التي تعرضوا لها والتعذيب الذي عانوا منه[1]. ويتذكر الحديدي في مذكراته التي كتبها، نضال نشطاء الشيعة، ويذكر مثالا متكررا عن الاعتقالات العشوائية والمزاجية والعنف من خلال قصة ذات دلالة عن حفار قبور كان مسؤولا عن جمع الجثث من معتقلات الأمن. ففي ١٧ مارس عام ١٩٨٠ أحضر ضباط الأمن تسعة وثلاثين جثة لحفار القبور - كانوا جميعاً من طلاب الجامعات وكلهم يحملون الاسم الأول «صباح». وكان السر المختفي وراء ذلك أن مشتبها به ممن أعتقلهم الأمن قد عذب تعذيباً شديداً. وبالكاد قبل أن يلفظ آخر أنفاسه، اعترف أن زعيمه

---

(١) انظر، على سبيل المثال، أحمد الحبوبي: «ليلة الهرير في قصر النهاية» (لندن: دار البراق، ١٩٩٩)؛ مؤسسة ذاكرة العراق، شهادات عراقية، مشروع التاريخ الشفاهي، ٢٠٠٦ و٢٠٠٧؛ موسم شاؤل حاخام: «في جحيم صدام حسين: ٣٦٥ يوما في قصر النهاية» (القدس: اتحاد الأكاديميون اليهود العراقيون، ١٩٩٩)؛ كنعان مكية: «القسوة والصمت: الحرب، والاستبداد، والانتفاضات، والعالم العربي»، طبعة بغلاف ورقي، (نيويورك: نورتون، ١٩٩٤) وبه فصل شيق عن تجربة السجن لشاب عراقي يدعى عمر، صفحات ١٠٥ ـ ١٣٤. ولعقد مقارنة مع سجون إيران، تحت حكم كل من الشاه وآية الله الخميني، انظر إيرفاند أبراهاميان: «اعترافات تحت التعذيب: السجون والتنصل العلني في إيران المعاصرة» (بيركلي: مطبوعات جامعة كاليفورنيا، ١٩٩٩).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في خلية حزب الدعوة يدعى صباح وأنه طالب جامعي، ومات قبل أن يبوح بمزيد من التفاصيل عن باقي إسم زعيمه في الخلية[١]. ولسوء الحظ، لا تذكر الوثائق اسم قسم الشرطة المحلية أو اسم السجن العراقي الذي وقعت به تلك الحادثة في الفترة التي نخضعها للدراسة[٢]. «بجعل كل فرد خائف من احتمال اعتقاله، يمكن السيطرة على الجموع... وبجعل كل واحد يخشى من أن فردا آخر سيشي باسمه»[٣].

وحتى يكون الخوف كليا وشاملا، كان على حزب البعث أن يلجأ لاستعمال القوة. وكان إرهاب الجماهير يتم بطرق عشوائية. لم يكن أي مواطن يعلم متى يمكن اعتقاله، ومن الذي سيشي به، والأسوأ من كل ذلك، من الذي يمكنهم أن يثقوا به من المحيطين بهم من أقرباء ومعارف؟. كانت القوة سلاحا معتادا لصدام حسين. في كتابه «رجال ومدينة»، يذكر كيف لم يتردد وهو في مقتبل عمره أن يشهر السلاح الذي أعطاه له عمه على صبية آخرين ليلقنهم درسا ويحترموه بعد ذلك. وفي موضع تال من الكتاب يصف كيف ضرب شخص آخر بكعب مسدسه في حافلة عامة لأنه لم يرد القيام عن مقعده ليتيح لصدام وصديق له الجلوس مكانه[٤]. ويبدو أن صدام يحكي بسعادة وهو يكتب عن ميوله للعنف لأنه كان يؤمن أن ذلك سيبث الخوف في خصومه ويجبرهم على احترامه. وفي عام ١٩٧٣، ادعى مجلس قيادة الثورة أن الخبرة علمت الحزب أن «اللغة الوحيدة القادرة على تأمين حقوقنا،

---

(١) الحديدي: «قبضة الهدى»، صفحة ١٤٣ (تذييل).

(٢) لمزيد من المعلومات المنشورة عن الشرطة والسجون، انظر طبعات ليلا خليل وجوليان شويدلر: «الشرطة والسجن في الشرق الأوسط: سياسة الإكراه» (لندن: هيرست ٢٠١٠).

(٣) أونيل: «أسس السياسات المقارنة»، صفحة ١٣١.

(٤) صدام حسين: «رجال ومدينة»، صفحات ١٣٦ ـ ١٦٣ و٢٣٥.

وشرفنا، وسعادتنا، ومصالحنا... ليست إلا لغة القوة والنضال»[1]. وعبر كل العقود التي حكم فيها حزب البعث، كانت إزاحة المعارضة واقتلاعها من جذورها وفي مهدها تجري على قدم وساق في جميع أنحاء البلاد لإجبار الجميع على الخضوع للحزب. وبالفعل، شجعت سياسة الحزب على زرع العنف الذي تخلل كل المجتمع وأدى للعدوان الدموي ضد الأكراد، والشيعة، والشيوعيين، وكثير غيرهم من الجماعات السياسية أو الدينية[2].

لذلك لم يكن أمام المعارضة أي مجال للعمل ولا ممارسة أي عنف. كان مجرد سب أو لعن النظام وقادته يقابل بمنتهى الجدية من قبل المؤسسات الأمنية ويترتب عليه عقوبات قاسية حتى لو كان من اقترف ذلك عضوا بحزب البعث ذاته. وقد صدر قانون في عام ١٩٨٦ عن مجلس قيادة الثورة يسمى «قانون التهجم والإهانة»، يقول نصه:

كل من يهين رئيس الجمهورية، أو نائبه، أو مجلس قيادة الثورة، أو حزب البعث العربي الاشتراكي، أو المجلس الوطني (البرلمان)، أو الحكومة، يعرض نفسه لعقوبة السجن مدى الحياة ومصادرة كل ممتلكاته العينية والمنقولة. وإن وقعت الإهانة بشكل علني وفي

---

(١) بنجيو: «كلمة صدام»، صفحة ١٤٧، نقلا عن الثورة، ٢٠ أبريل ١٩٧٣.

(٢) هناك كميات هائلة من المصادر الثانوية التي تتناول تبعات سياسة القسوة والوحشية لحزب البعث ضد معارضيه. بالإضافة إلى النصين التاريخيين الأساسيين عن العراق ـ بالإضافة إلى، تريب: «تاريخ العراق»، ومار: «تاريخ العراق الحديث»، يمكننا أن نجد مزيدا من المعلومات عند ابراهيم المرعشي في: «رؤية لطريقة تفكير جهاز الأمن العراقي»: المخابرات والأمن الوطني، الجزء ١٨، رقم ٣ (خريف ٢٠٠٣)، صفحات ١ ـ ٢٣. وتعتمد هذه المقالات على وثائق من مركز وثائق شمال العراق وهي خاصة بأعداء الدولة الإيرانيين الأكراد.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مكان عام بغرض تهييج الرأي العام ضد السلطة القائمة، تكون عقوبة ذلك الإعدام[١].

في واحدة من تلك الحالات التي طبق فيها ذلك القانون، طلب من رجل أن يستكمل بيانات استمارات الحزب فقام بلعن الحزب في لحظة غضب. وتشكلت لجنة من ممثلين عن الأمن العام، والاستخبارات، وجهاز الأمن الخاص، وعضو عن الحزب ممثلا عن «تنظيم» بغداد واجتمعت اللجنة لمناقشة القضية وقررت إحالتها إلى محكمة خاصة بذلك[٢]. كان سب أو لعن الرئيس وأسرته يعامل على كونه قضية أخطر كثيراً من مجرد الزمجرة والتنديد والتهجم اللفظي ضد النظام وكان يقابل بقسوة أشد كثيراً من أي جرم آخر[٣]. ومن المثير، أن بعض من اقترفوا ذلك الجرم ادعوا في مجرى دفاعهم عن أنفسهم أنهم يعانون من اضطرابات نفسية وانفعالية وادعى بعض آخر أنهم يعانون من أمراض عقلية شديدة، وهي حجة كثيراً ما كان يتم قبولها من قبل لجان التحقيق، ويحتمل أن تلك الحجة كانت تقبل على افتراض أن المختلين عقليا فقط هم من يمكن أن يقدموا على اقتراف مثل ذلك الجرم وذكر ما يمكن أن يسيء للرئيس أو الحزب[٤]. ومما يلفت الانتباه، كم الوقت

---

(١) مجلس قيادة الثورة، قرار رقم ٨٤٠، ١١ أبريل ١٩٨٦، مركز أبحاث سجلات الصراع.

(٢) إدارة جهاز الأمن الخاص: «جريمة»، ٢ أكتوبر ١٩٩٧، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠٤ ـ ١ ـ ٥ (٠٠٥ ـ ٠٠٧).

(٣) إدارة جهاز الأمن الخاص: «جريمة»، ٣ مارس ١٩٩٩، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠٤ ـ ١ ـ ٥ (١٥٩). في تلك الحالات كان السباب يسجل صوتيا لتقديمه للمحكمة الخاصة لمحاكمة المتهم على جريمة السباب.

(٤) القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠٤ ـ ١ ـ ٥ يحتوي الصندوق على أمثلة عديدة من ذلك النوع من الدفاع.

والجهد الذي كان يبذل في التعامل حتى مع سباب عادي للرئيس؛ فتشكل لجان تحقيق مكونة من ممثلين عن المؤسسات الأمنية الأربع الكبرى وتجتمع لمناقشة أي من تلك الحوادث لتقرر في نهاية تحقيقاتها إن كانت تحيل القضية إلى محكمة مختصة أم لا، ولم يكن من قبيل المصادفة أن كل الملفات والحالات التي كانت التهمة فيها تتعلق بالعدوان اللفظي على الرئاسة كانت في أيدي جهاز الأمن الخاص على وجه الحصر[١].

وأصبحت المحاكمات الاستعراضية، والاعترافات العلنية من المعتقلين، والإعلان عن أحكام الإعدام التي تصدر، جانبا معتادا ومتكررا من الحياة اليومية في العراق بعد تولي حزب البعث السلطة مباشرة في شهر يوليو من عام ١٩٦٨، كما كان مكونا ضروريا لنشر الخوف والرعب. ولأن النظم الاستبدادية تتميز بالشعارات الجماهيرية الموجهة لقيادة الجماهير وعامة الشعب، أدت مركزية ومحورية الاعترافات العلنية في المحاكمات العلنية وفي آلاف الحالات التي سجن فيها عراقيون أو أرسلوا إلى المقصلة إلى «تعليم» الجماهير وعموم الناس من هم «أعداء الشعب»[٢] الذين يستحقون العقاب. وقد رأينا

---

(١) القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠٥ ـ ١ ـ ١. يحتوي الملف على حوادث عديدة من تهمة «التهجم»وكيفية تناولها من قبل لجان التحقيق.

(٢) لمناقشة عامة عن المحاكمات والاعترافات انظر فريدريك وبريجنسكي: «الديكتاتورية الشمولية والاستبداد»، صفحات ١٥٠ ـ ١٦٥؛ وجريجوري: «الإرهاب بالصص»، صفحات ١٣٣ ـ ١٣٤. أول محاكمة علنية كانت في آخر عام ١٩٦٨، ووصلت لذروتها بالشنق العلني لأربعة عشر عراقيا، منهم تسعة من اليهود في شهر يناير ١٩٦٩. وأعلن اليوم عطلة رسمية واستدعي عشرات الآلاف من العراقيين للمشاركة في عرض عام. انظر مكية: «جمهورية الرعب»، صفحات ٤٦ ـ ٥٨. كان مكية أول من كتب بالتفصيل عن المحاكمات العلنية الشكلية وأحكام الإعدام في العراق.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

النمط ذاته في كثير من النظم الشيوعية الشمولية[1]. واستمرت المحاكمات الاستعراضية العلنية على مدى عقد السبعينيات، وتصاعدت إلى قمتها بوصولها إلى ذلك الاجتماع الحزبي سيئ السمعة الذي عقد في شهر يوليو عام ١٩٧٩ مباشرة بعدما أصبح صدام رئيسا. خلال ذلك الاجتماع، الذي صور على شرائط فيديو ووزعت نسخ منه على كل أعضاء الحزب، كشف صدام حسين عن مؤامرة اعترف فيها أعضاء كبار في الحزب بأنهم شاركوا فيها ثم أعدموا بعدها مباشرة بتهمة «خيانة» الوطن. وحكى لي عضو بالحزب كان حاضراً ذلك الاجتماع قائلاً أن تلك التجربة تركت أثرا عميقا ومستديما لا يمحى أثره على كل أعضاء الحزب، ونتج عنها خوف عميق وشديد من تحدي إرادة صدام حسين[2]. وبالمثل أيضاً، صور جواد هاشم في مذكراته بالتفصيل ذلك الاجتماع، واصفاً كيف جلس صدام حسين بعد أن أرسل رفاقه الحزبيين ليلقوا حتفهم، وأشعل سيجاراً كوبياً كبيراً فاخراً ثم أخرج منديله ليجفف دموعه[3] على رفاقه الذين أمر بإعدامهم. وعلى مدى الأعوام العشرين

---

(١) للمقارنة بالدول الشيوعية، انظر هولاندر: «من الجولاج»، صفحات ١٤ ـ ١٩.

(٢) مقابلة مع الوزير: «ت.»، ١٦ يونيو ٢٠١٠. في صيف ١٩٧٩ ظهر السكرتير الشخصي لرئيس لمجلس قيادة الثورة على التلفاز وهو يعترف أنه كان عضوا مشاركا في مؤامرة ضد صدام حسين تم تدبيرها بدعم من حزب البعث السوري. وبعد ذلك بأسبوعين، في ٨ أغسطس ١٩٧٩، تم إعدام اثنين وعشرين عضوا كبيراً من أعضاء الحزب وكبار ضباط الجيش كما حكم على عشرات بالسجن. انظر مؤمن علي: «سنوات الجمر: مسيرة الحركة الإسلامية في العراق، ١٩٥٧ ـ ١٩٨٦»، (لندن: دار المسية، ١٩٩٣)، صفحة ١٨١؛ مار: «التاريخ الحديث للعراق»، صفحات ١٧٨ ـ ١٨٠؛ مكية: «جمهورية الخوف»، صفحات ٧٠ ـ ٧٢.

(٣) هاشم: «مذكرات وزير عراقي»، صفحات ٣٤٢ ـ ٣٤٦.

التالية، وكلما كشفت أجهزة الأمن عن مؤامرة، كان يذاع خبر إعدام «الخونة» في الإذاعة والتلفاز.

من أزمان سحيقة في القدم ومن قبل أن يصل الطغاة المعاصرون للسلطة، وضع الفيلسوف الصيني «هان فيي تزو» وصفة للحكام من أمثال هتلر، وستالين، وصدام حسين لانتزاع السلطة ـ والاحتفاظ بها ـ واكتساب سلطة مطلقة في بلادهم، إذ قال:

إخف آثار تحركاتك، واخف مصادرك، حتى لا يتمكن مرؤسوك من تتبع ومعرفة مصادر أفعالك... تمسك بأهدافك وتفحص النتائج التي تحققها وقارنها بأهدافك المنشودة لتعرف كم تحقق منها؛ وامسك بزمام الحكومة بعناية واقبض على الزمام بقوة. دمر كل أمل، اسحق كل نية من جانبهم لاغتصاب السلطة منك؛ ولا تسمح لأي أحد بإخفائهم.

لو لم تحرس الباب، ولو لم تغلق البوابة برتاج قوي، فسوف تتسلل النمور للداخل. لو لم تكن حذرا فيما تحقق من نواياك، وإن لم تتمكن من إخفاء الوجه الحقيقي لما تنتويه، فسوف يقوم عليك الخونة... اسحق زمرتهم، واقبض على من يدعمهم، إغلق البوابة، واحرمهم من كل أمل وكل دعم، وبذلك تتحرر الأمة من النمور.

حاكم الرجال لابد أن يقلم أشجاره من آن لآن ولا يسمح لها بالنمو بكثافة لأنها لو نمت بكثافة سوف تغلق بوابته... استئصلها من جذورها، فهكذا لا تنتشر بكثافة... فتش في قلوب الآخرين، انزع منهم قوتهم. الحاكم ذاته هو من يحوز وحده السلطة، ويمارسها ويستخدمها كما البرق والرعد[1].

---

(١) هان في تزو: «كتابات أساسية»، ترجمة بيرتون واتسون (نيو يورك: مطبوعات جامعة كولومبيا، ١٩٦٤)، صفحات ١٨، ٤١ ـ ٤٢. هان في تزو (٢٨٠ ـ ٢٣٣ قبل الميلاد)=

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكان الثمن الذي تقاضاه صدام حسين من «تقليمه» الدائم لجنرالات الجيش والوزراء هو امتناع من بقى منهم عن إخباره بالحقائق خلال حرب غزو الكويت ومن بعده الانتفاضة التي تلته في عام ١٩٩١ ولا في الفترة التي سبقت غزو العراق في عام ٢٠٠٣. وعلى شريط تسجيل مدهش لاجتماع عقد عام ١٩٩٢ لتحليل غزو الكويت والانتفاضة، نسمع صوت فرد يحمل اسم حسين، والأقرب جداً للاحتمال أنه حسين كامل زوج ابنة صدام، يقول للرئيس:

حسين: الحقيقة التي يجب إبلاغك بها [يتحدث عن الجيش] أنهم فروا، أغلبهم باستثناء إثنين أو ثلاثة.

الرئيس: معدن الشرفاء لا يظهر إلا في مثل تلك المواقف.

حسين: لم نقدم لك الصورة الحقيقية للموقف لمجموعة مختلفة من الأسباب، مثل الخوف أو أن يعتقد بعضهم أننا سنهزم. كان لدينا كثير من الاعتبارات لعدم إبلاغك بالحقيقة. خذ الكويت مثلا، كانت المعنويات في أدنى مستوياتها، ولكن حين جاء [الجنرالات] للتحدث إليك، لم نتمكن من كشف الأمر لك أوإبلاغك بالحقيقة عن موقفنا.

الرئيس: هل كانوا خجلين أم خائفين؟

حسين: كلاهما[1].

كلما كان الخوف جوهريا للاحتفاظ بالسلطة، كانت الهيمنة الاجتماعية ضمنية وظاهرة في آن واحد.

=وكان أميرا من العائلة المالكة لدولة الهون الصينية وكان كتيبه عن الحكم مرجعا لأباطرة الصين.

(١) اجتماع صدام حسين مع كبار مساعديه ومعاونيه، ١٩٩٢، مركز أبحاث سجلات الصراع.

الهيمنة

كانت الاستمارات والنماذج الرسمية المطبوعة وسيلة ضرورية للتوثيق، والإدارة، والهيمنة والسيطرة على الشعب العراقي أثناء العقود التي حكم فيها حزب البعث، كما كان الحال كذلك أيضاً في النظم الاستبدادية الأخرى. ففي الاتحاد السوفييتي على سبيل المثال، استخدمت الدولة ورقة استبيان مفصلة لتصنيف الجماهير ومعاونة أجهزة الأمن على التعرف على «من يجب أن يوصم بالانتماء للطبقة البرجوازية ويصنف كعدو للثورة البلشفية... ومن الذي يمكن أن يوثق به ويكافأ كحليف بلوريتاري»[1]. كان تصنيف المجتمع العراقي يعد كصرح بنائي يتيح للأجهزة الأمنية السيطرة عليه، وتم تصميم نماذج استمارات لكل الأحوال والظروف المحتمل حدوثها، مما كون نظاما استخباراتيا تتدفق إلى قنواته وشرايينه المعلومات ويتميز بالكفاءة إلى حد كبير في مراقبة ومتابعة المواطنين. وقد صممت أغلب تلك النماذج في عقد السبعينيات ومع بداية الثمانينيات كان النظام قد اكتمل وراح يعمل بكامل كفاءته وأصبح على حالة يمكن تكييفها بسهولة لأي تغير يحدث في بياناته أو لتحديث ما يراد تحديثه منها طبقا للأحوال والظروف والمتغيرات. على سبيل المثال، بعد انتفاضة عام ١٩٩١، أضيف لتلك النماذج سؤالان: واحد عن «المساهمة في فترة زمن الخيانة»، والثاني يتعلق بمدى الارتباط بحركات دينية. وبالمثل، في بداية التسعينيات، كان هناك سؤالا جوهريا لأي عضو بالحزب عما إذا كان قد شارك في معارك قادسية صدام (الحرب الإيرانية العراقية)، أو في معركة أم المعارك في

---

(١) شايلا فيتزباتريك: «الطبقة المنتحلة: تركيب الهوية الاجتماعية في روسيا السوفييتية» (جريدة التاريخ المعاصر، الجزء ٦٥، رقم ٤ (ديسمبر ١٩٩٣)، صفحة ٧٤٩.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الكويت، وإن كان قد شارك في واحدة منهما أو كليهما، هل حصل على أية مكافآت أو أوسمة[1]؟.

كانت نماذج الاستمارات مرهقة وشاقة وتغطي على وجه التقريب كل أوجه الحياة للفرد. بالنسبة للحزب ذاته، وكما عرفنا من الفصل الثاني، كانت العضوية الموثقة، والتقييمات، والانتقال من مرتبة حزبية لأخرى في سلم التراتب الحزبي، المفتاح للجهاز البيروقراطي للنظام. فقد كانت النسخ الأصلية للاستمارات التي تقدم للالتحاق بالحزب هي الأساس لكل عضوية عاملة أو الانتماء بأي درجة للحزب، ثم تأتي لاحقا بعد ذلك أنواع أخرى من استمارات المتابعة إما لتأكيد ما سبق أو لتحديث بيانات العضو أو العضوة، مع إجابات جديدة تقارن وتراجع على الإجابات والبيانات الأساسية السابقة. كان على الأعضاء أن يجيبوا على أسئلة اجتناعية/ اقتصادية تفصيلية للتعرف على «انتمائهم الطبقي» وذلك بذكر تسلسل موجز للأجور والرواتب التي تقاضاها من قبل، وإجمالي الدخل السنوي، مع شرح إن كان قد تعلم أي «وسيلة إنتاجية» أم اعتاد على العمل اليدوي أو إن كان يعمل بشكل أفضل في وظائف مؤسسية أو مكتبية[2]. ومن اللافت للنظر، أن كثيراً من تلك الأسئلة

---

(١) أمانة سر الحزب، «ملخص ملف عضوية الحزب»، أكتوبر ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٦ ـ ٤ ـ ٣ (٠٠٢ ـ ٠٢٢).

(٢) انظر على سبيل المثال، الاستمارة التي أرسلها المكتب العسكري للحزب، فرع الأمن القومي، إلى كل أمانة سر الحزب، طالباً منهم توزيع نسخ أثناء اجتماعات الحزب والإشراف على عمل الملفات لتلك الاستمارات، والتيقن أن مايدون بها من معلومات صحيح، ٦ يوليو ١٩٨٣، مركز وثائق شمال العراق، الحزب الديمقراطي الكردستاني ٠١٧، صندوق٢١٨٢ (١٣٠٠٢١).

مماثلة للأسئلة في النماذج الشخصية لاستمارات الانضمام للحزب الشيوعي في ألمانيا الشرقية[١].

ولكن أهم جانب في تلك النماذج كان يتمثل في جمع أقصى قدر يمكن جمعه من معلومات عن المرشح للانضمام للحزب وعن عائلته، كما شرحنا في الفصل الرابع، فأينما وحيثما تحرك العضو ـ لأعلى أو لأسفل المراتب الحزبية ـ فإن ملفه الشخصي موجود كنقطة مرجعية. كانت هناك أسئلة حرجة تتضمن إن كان المرشح قد كف من قبل في أية فترة سابقة عن العمل الحزبي، وإن كان قد حدث، فلماذا؟، كذلك إن كان المرشح أو المرشحة قد التحق في أية فترة سابقة بكيان سياسي آخر أو أي حركة سياسية[٢].

كان الحزب أيضاً مهتما على الدوام بتوثيق إن كان العضو قد خرج عن حدود الانضباط الحزبي في أي وقت سابق أثناء عضويته، والأسباب التي أدت به إلى ذلك. وبالمثل، كل المكافآت والأوسمة، والترقية إلى مرتبة حزبية أعلى كانت تسجل بالتفصيل[٣]. أما بالنسبة لأولئك الذين تقاعدوا عن العمل في الحزب والتحقوا إما بـ «منظمة المناضلين» أو بـ «منظمة الصابرين» التابعتين للحزب، فقد صممت لهم استمارة خاصة، كما كانت هناك استمارة مخصصة لأولئك الذين أسندت إليهم واجبات حزبية في منطقة الحكم الذاتي في شمال

---

(١) للإحاطة بمجموعة الاستمارات الكاملة لعضو طالبا الانضمام الحزب الشيوعي الألماني بألمانيا الشرقية في أغسطس ١٩٨٥، انظر وزارة الجمهورية الألمانية الديمقراطية.

(٢) القيادة القطرية لحزب البعث وتحتوي على أعداد كبيرة جداً من الملفات تضم استمارات عضوية الحزب، انظر على سبيل المثال ٠٠٢ ـ ٥ ـ ٢؛ ٠٠٤ ـ ٤ ـ ٦؛ وصندوق ٠٠١ ـ ٤ ـ ١.

(٣) انظر على سبيل المثال، استمارة معلومات أساسية لعضو نشط بالحزب، ٢٣ فبراير ٢٠٠١، مركز سجلات أبحاث الصراع، ١٢٢ ـ ٥ ـ ٦ (٠٣٣).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

العراق[1]. ومع ترقية الأعضاء إلى مراتب أعلى في السلم الحزبي التراتبي، فإن سمك ملفاتهم كان يتضخم طبقا لذلك التصعيد الحزبي؛ في حالة من الحالات، وصل ملف عضو التحق بالحزب عام ١٩٦٦ حتى أصبح نائب وزيرا للنقل في التسعينيات إلى ما يربو على ألف صفحة، فقد وثق الملف كل وظيفة تولاها، وسجل كل زيادة نالها في مرتبة، وكل الإجازات المرضية، وكل الرحلات والسفريات التي قام بها سواء كانت خاصة أو رسمية متعلقة بالعمل خارج العراق[2].

كان على الأعضاء الحزبيين من غير العراقيين أن يفصحوا عن معلومات أكثر. فقد كان يطلب منهم ذكر تفاصيل أي سفر قاموا به خارج دولتهم عدا سفرهم للعراق، وأسماء وعناوين أصدقائهم من العراقيين وعن زملائهم المقربين في بلادهم الأصلية، وما نوع الدعم الذي قدموه لقادسية صدام: هل تبرعوا بالدم، أم بالمال، أو بمجوهرات؟ بل أن نموذج الاستمارة كان يحتوي أيضاً على سؤال عن نوع السيارة التي يقتنيها العضو الحزبي من غير العراقيين ويطلب منه ذكر تفاصيل السيارات التي اقتناها قبل ذلك[3]. ولكل من الأعضاء العراقيين وغير العراقيين، كان هناك سؤالٌ هامٌ عما إذا كان قد تمكن من ضم أعضاء جدد للحزب، فقد كان ذلك يماثل اختبار ورقة عباد الشمس في معامل الكيمياء لمعرفة مدى أصالة إلتزام العضو تجاه الحزب.

---

(١) القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٤ ـ ٤ ـ ٦؛ مركز سجلات أبحاث الصراع، ١٦٥ ـ ٥ ـ ٥ (٠٨٧).

(٢) القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٥ ـ ١ ـ ٦ وهو يغطي بالكامل تاريخ س. الذي شغل كثير من الوظائف الهامة.

(٣) من أمانة سر الحزب إلى مكتب تنظيم الحزب بسوريا: «استمارة معلومات»، ١٨ نوفمبر ١٩٨٤، مركز سجلات أبحاث الصراع، ٠٠٦ ـ ٢ ـ ٥. هذا الملف بالإضافة إلى ٠٠٦ ـ ٢ ـ ٢، يتعلق بأنشطة أعضاء حزب البعث في الدول العربية.

وبالطبع، لو أصبح مواطن عراقي عضوا بالحزب، فإن عملية جمع المعلومات عنه تكون أسهل وربما تكون أفضل للأجهزة الأمنية. وسهلت تلك الاستمارات اتخاذ القرارات بصدد المتقدمين لوظائف، أو لمن هم على وشك نيل ترقية وظيفية. كان تقييم الميول السياسية للمواطن يتسم بأهمية خاصة، وكانت توجه أسئلة بسيطة للحصول على إجابات مباشرة. على سبيل المثال، في الاستمارات التي تطلب معلومات عن المواطن العادي، فإن الأسئلة عن «الميول السياسية» كانت مقسمة لأربعة أقسام: من عام ١٩٥٨ حتى عام ١٩٦٣، ومن ١٩٦٣ حتى ردة تشرين (ردة نوفمبر ١٩٦٣)[١]، ومن ردة نوفمبر ١٩٦٣ حتى ثورة ١٧ يوليو ١٩٦٨، ومن ثورة يوليو حتى وقت ملء الاستمارات. كانت إجابة كل سؤال تقتصر على سطر واحد، حتى يمكن التعامل مع تصنيف وتقييم الكم الهائل من المعلومات بالاستمارات[٢]. لو كان المواطن قد اعتقل قبل ذلك أو له ملف يحتوي على أدلة ضده تدينه فإن خطة ترتيب الأسئلة تتغير بشكل جذري. وتتحول الأسئلة إلى معرفة متى انضم العضو إلى تلك التنظيمات المعارضة أو إلى الجيش الكردي، وما نوع التدريب الذي تلقاه وما نوع الأسلحة التي حملها، وكيف تم اعتقاله، وإن كان لديه النية والعزيمة الكافية للعودة إلى «الصف الوطني» وأن يكون «مواطناً صالحاً»[٣].

---

(١) ردة تشرين تتعلق بالأحداث التي جرت في نوفمبر ١٩٦٣، حين أطيح بحزب البعث من السلطة بعد تسعة أشهر من انقلابه العسكري ضد عبد الكريم قاسم (انظر الفصل ١). ويعني مصطلح ردة الخيانة والتآمر ضد الحزب وقد وصف تاريخيا بذلك الإسم للتذكير بما حدث حين تآمر عدد من القبائل العربية وارتدوا عن الإسلام بعد موت النبي ولم يخضعوا ويرجعوا للإسلام إلا بعد حروب ضروس شنت عليهم.

(٢) انظر على سبيل المثال: «طلب استمارة معلومات»، ٢٧ يوليو ١٠٨٧، مركز وثائق شمال العراق، الحزب الديمقراطي الكردستاني ٠٢١، صندوق ٢٢٢٥.

(٣) مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٣٤، صندوق١٩٠، ١٠ أبريل ١٩٨٨؛ الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٠٤، صندوق ١٥، ٣٠ ديسمبر ١٩٩٠.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وتم تطوير نماذج استمارات خاصة بالمجرمين، مع التركيز على الدين والجنسية. وبينما تحتوي الاستمارات العادية القياسية على سؤالين فقط من هذا القبيل ـ فالجنسية من الممكن أن تكون إما عربي أو كردي والديانة قد تكون إما مسلم أو مسيحي ـ غير أن الاستمارة الخاصة بالمجرمين على أي حال، تتيح تسعة اختيارات لسؤال الجنسية: عرب، كرد، تركمان، كلدان، آشور، سريان، أرمن، كرد فايلي، أوغير ما سبق. وتحت سؤال الدين، تحتوي الاستمارة على خمسة اختيارات: مسلم، مسيحي، يزيدي، صابئة، أو غير ذلك[1]. ولم أجد في كل أنواع الاستمارات ولا في الوثائق أي سؤال عن كون المرء مسلما سنيا أو شيعيا.كانت هناك مناسبة واحدة استعمل فيها مصطلح «جعفري» في استمارة تعيين كبير موظفي مجلس الوزراء[2]، بينما نجد في مراسلة أخرى، وتأكيداً على الأصل غير العربي لأحد مقدمي الطلبات، والمستندات (عدا استمارات الاستبيان) يذكر مصطلح: «تبعية إيرانية». أما الفارون من الجيش أو المتهربون من أداء الخدمة العسكرية، فلا حاجة بنا لقول أنهم كان لهم استمارات استبيان خاصة بهم، تركز على أسباب الفرار من الخدمة العسكرية، وإن كان الفار من الخدمة قد انضم إلى أي «جماعة إرهابية»، وتفاصيل استسلامه بنفسه إن كان قد حدث، ومعلومات عن عائلته[3].

---

(١) من «موضوع الجريمة»، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠١١، صندوق ٠٤٥.

(٢) من أمانة سر الرئاسة إلى مدير جهاز الأمن الخاص: «تسميات»، ٥ يوليو ١٩٩٢، مركز سجلات أبحاث الصراع، صندوق ٠٠١ ـ ٢ ـ ٢، الجعفري جزء من طائفة الشيعة وتسمى باسم الإمام جعفر الصادق.

(٣) «استمارة للمتهربين من أداء الخدمة العسكرية»، ١٩٨٧، مركز وثائق شمال العراق، الحزب الديمقراطي الكردستاني ٠٢٧، صندوق ٢٢٩١.

وكما شرحنا في الفصل الخامس، فإن استمارات الاستبيان الخاصة بالالتحاق بالكليات العسكرية وأكاديميات الشرطة كانت تكون الجل الأعظم من إجراءات الالتحاق، وعثر على مئات الملفات الخاصة بطلبات الإلتحاق تلك بين كم المستندات موضع البحث في هذا الكتاب. وفي الحقيقة، كانت تأتي في المرتبة الثانية من بين أشد وأكثر الاستبيانات تدقيقا بعد استمارات استبيان الالتحاق بعضوية حزب البعث. فبينما تضم استمارات استبيان الانضمام للحزب بيانات عن الأقارب حتى الدرجة القرابية السادسة، فإن استمارات استبيان الالتحاق بالكليات العسكرية والشرطية كانت تتطلب بيانات عن الأقارب حتى الدرجة الثالثة: عن انتماءاتهم السياسية، انضمامهم أو التحاقهم بحزب أو مؤسسة أمنية ودرجتهم ومرتبهم في الحزب أو المؤسسة الأمنية، وأسماء أي شهداء لهم من الأقارب أو من تلقى منهم أنواطاً ونياشين ومكافآت من النظام. ومن الثابت أن المتقدمين الذين لهم اتصالات ودرجات قرابة قوية كانوا يتلقون قرارا بـ «لائق» في أسفل طلبات الالتحاق دون حاجة لكثير من المعلومات عن خلفياتهم القرابية والسياسية[1]. كان سبب واحد يذكر عند الرفض وهو أن المترشح «مستقل»، أي لا ينتمي لحزب البعث، وهو ما يؤدي عادة إلى البحث في المزيد من الخلفيات القرابية والسياسية عن المترشح وعن عائلته بأجمعها، وبحلول عقد التسعينيات كان كثير من المتقدمين «المستقلين» الذين كانوا بلا علاقة قوية بالحزب ولا صلات قوية لهم بالمؤسسات العسكرية والأمنية لا مباشرة شخصية ولا عن طريق عائلاتهم أو أقارب لهم قد رفضوا ولم يقبلوا[2]. كان

---

(١) انظر على سبيل المثال استمارة التقدم لكلية الشرطة في ١٩٩٢، مركز سجلات أبحاث الصراع، ٠٠٧ ـ ١ ـ ١ (١٥٠).

(٢) انظر على سبيل المثال طلب التقدم لكلية الشرطة. كانت الملفات مقسمة في العادة لمن=

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هناك إقبال شديد على الالتحاق لا بالمؤسسة العسكرية أو أكاديميات الشرطة فقط ولكن أيضاً بالكليات المتعلقة بالمؤسستين مثل كلية الطب العسكري أو الهندسة العسكرية، وتفصح الملفات مرة بعد أخرى عن كثير من المراسلات التي تمارس ضغوطاً كثيفة للحصول على موافقة الإلتحاق بواحدة من تلك الكليات المرموقة[1].

صمم الحزب أيضاً استمارات أخرى خاصة للموظفين المدنيين الذين على وشك الترقي لوظائف أعلى، أو قبل نقلهم إلى وزارة حكومية أخرى، أو قبل إرسالهم لمهام بالخارج. وعدا عن ملفاتهم الشخصية الموجودة سلفاً، كانت هناك استمارات مخصصة لتلك الأغراض لتقييم العاملين والموظفين المدنيين وذلك لتوقيعها من قبل كبار المسؤولين في فرع الحزب التابع له الموظف[2].

كان الحزب يصدر استمارات أخرى أيضاً عدا ما سبق ذكره: فعلى سبيل المثال، استمارات خاصة لمن يريد التقدم للحصول على قطعة أرض أو استمارات تتعلق بالحملة الوطنية لزيادة معدلات الخصوبة والمواليد. كان نيل قطعة أرض من الحوافز الهامة التي عمل الحزب

=قبلوا ومن رفضوا. بالنسبة للمرشحين المقبولين انظر مركز سجلات أبحاث الصراع، ٠٠٧ ـ ٢ ـ ٤، وللمرفوضين انظر ٠٠٧ ـ ٢ ـ ٥. كان أحد المرشحين له عضو بعائلته في سلاح البحرية كما كان له شهيدان من العائلة في الحرب ضد إيران وأثناء غزو الكويت ورغم ذلك رفض ولم يقبل لأن عمته متزوجة وتعيش بالكويت، مما يجعله غير متوافق مع شروط القبول.

(١) انظر استمارة التقدم لكلية الطب العسكري في القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ١ ـ ٣؛ وإلى كلية الهندسة العسكرية في القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ١ ـ ٦ و٠٠٣ ـ ١ ـ ٧.

(٢) القيادة القطرة، ٠٩١ ـ ٣ ـ ٥ (٢٤٠). انظر أيضاً استمارة المرشحين الذين سيبعثون للخارج: القيادة القطرية لحزب البعث ٠٢١ ـ ٢ ـ ١ (٢٩٠).

على السيطرة عليها ليكافئ بها أعضاءه والجماعات المختارة مثل أسر الشهداء[1]. وبحلول عقد التسعينيات تعاظم الطلب على الأراضي في بغداد حتى أن من لم يثبت معيشته في بغداد لزمن طويل (من ١٩٧٧) كان يستبعد من ذلك.. كانت حملة قد انطلقت لزيادة الخصوبة قرب نهاية الحرب الإيرانية العراقية لمواجهة التفوق الديموجراغي الإيراني. كل استمارة مرتبطة بتلك الحملة كانت تحمل شعار: «ولادة كل طفل جديد تعني قتل بؤرة من ورم العدو الذي تأسس في مخ الأعداء الفارسيين الخبيثين الأشرار»[2]. وتسأل استمارة الاستبيان عن عدد الأبناء الذين ولدوا أحياء ما بين أكتوبر ١٩٨٨ وأكتوبر ١٩٨٩ وإن كانت الأم قد عانت من إجهاض خلال تلك الفترة.

وسيلة أخرى من وسائل تعبير الحزب عن الهيمنة والسيطرة كانت سجل المدارس الذي شكّل قسماً مستقلاً من وثائق حزب البعث موضع بحث هذا الكتاب. كان تسجيل التحاق طلاب المدارس العليا (الثانوية) الذين تنحصر أعمارهم بين ستة عشر عاماً وثمانية عشر عاماً يحتوي على قوائم جداول تسجل تفاصيل كثيرة عن أولئك الصبية والشباب: معلومات أساسية عن الطالب وخلفيته الاجتماعية، وإن كان لهم أي صلة بالحزب، «تاريخ» عائلته فيما يتعلق بالحزب (مثل مشاركة أحد أفراد العائلة في الحرب الإيرانية العراقية، أو في غزو الكويت، أو انتفاضة ١٩٩١)، وإن كان بالعائلة أي شهداء، ومدى «استعداد» أفراد العائلة للتعامل مع الحزب[3]. وتظهر استمارة الاستبيان أهمية الشباب

---

(١) القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق وثائق ٠٠٣ ـ ١ ـ ٣ (٠٣٣).

(٢) مثال على تلك الاستمارة موجود في القيادة القطرية لحزب البعث ٠١٣ ـ ١ ـ ١ (٠٢٥) أو ٠١٨ ـ ٢ ـ ٣ (٤٩٥). البؤرة هي مركز المرض.

(٣) انظر القيادة القطرية لحزب البعث، قاعدة سجلات المدارس. يحوز معهد هوفر على وجه التقريب ١٦٠,٠٠٠ وثيقة ومستند من سجلات المدارس.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والأطفال في سياق فلسفة حزب البعث والتأكيد على أهمية تجنيدهم في الحزب (انظر الفصل الثامن)، كما تظهر التحكم الشديد الذي يمارسه النظام على كل الطبقات الاجتماعية.

كانت هناك أيضاً استمارات استبيان خاصة لابد أن تستوفى بياناتها قبل استلام الجوائز والمكافآت أو الأوسمة التي تفتح طريقا لنيل هبات مالية ومكافآت أخرى عديدة. وهناك أسئلة عن الامتيازات التي سبق الحصول عليها من قبل مقدم الطلب، مثل قطعة أرض كهدية من القائد أو عقد إيجار من الدولة، أو ان كان مقدم الطلب أو زوجه سبق لهما شراء أرض من خلال الأجهزة الحكومية. وهناك سؤالان أو ثلاثة حول ما إن كان يوجد أي جريمة سابقة أو عدوان ضد الحزب أو الدولة في أي وقت سابق[1].

التوثيق البيروقراطي كان الوسيلة الوحيدة للهيمنة والسيطرة. كانت السيطرة «باللقب والعنوان» وسيلة أخرى لجذب أعداد كبيرة من المواطنين إلى مجال حزب البعث، فتلقي أوسمة أو شارة وشعار الحزب التي تميز هولاء الناس كبعثيين، جعلت دائرة المعتمدين على الحزب والمتوافقين معه تتسع مع مرور الزمن. كان هناك أيضاً شكل ملتوٍ وغير مباشر من فرض الهيمنة وذلك بإشراك عديد من الناس بقدر الإمكان في أعمال العنف ضد المعارضين. فعلى سبيل المثال، مع تنامي أعداد المتهربين من أداء الخدمة العسكرية، أصدر صدام حسين قانونا يتيح لباقي أعضاء القيادة القطرية لحزب البعث بالإضافة إليه بالطبع أن يوقعوا على أوامر بالإعدام. كما أمر أيضاً بأن يشارك أعضاء

---

(١) استمارة شارة الحزب مؤرخة بعام ١٩٩٩، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٢ ـ ٢ ـ ٣ (٢٥٧).

اللجنة التي تتولى التحقيق مع المتهرب والحكم عليه بالمشاركة في تنفيذ حكم الإعدام، إن كان الإعدام هو الحكم الذي أوصت به اللجنة.

وهكذا، مع حلول نهاية عقد التسعينيات، أصبح كثيرون من كبار أعضاء الحزب شركاء في الجرائم، بإرادتهم أو رغما عنهم في كثير من التصرفات والأفعال التي مورس فيها العنف ضد المواطنين. وعلى أي حال، لم تكن تلك الممارسات مستجدة؛ فقد استهلها صدام بنفسه في الاجتماع الحزبي الشهير سيئ السمعة لقيادة حزب البعث في شهر يوليو ١٩٧٩، حين طلب كاختبار ولاء من باقي أعضاء قيادة الحزب أن يشاركوا بأنفسهم في إعدام زملائهم «الخونة».

الأوسمة والمكافآت

كانت الأوسمة والمكافآت حجر الزاوية في عملية الاستمالة. فقد أمن نظام صدام حسين ولاء الصفوة له كما فعل ستالين من قبله، بتقديم «عوائد اقتصادية، حيث تعرف العوائد على أنها سلع، أو خدمات، أو مزايا أخرى بأقل من قيمتها الحقيقية أو حتى دون مقابل على الإطلاق»[١]. وبالفعل، عمد حزب البعث إلى استمالة أعداد كبيرة من الأفراد بأن جعل الانضمام له يحمل مزايا للمنضم، ولكل من أصبحوا جزءاً من المؤسسة وحتى لأولئك الذين بقوا خارجها، ليستمروا في دعمهم للنظام القائم. وأدت تلك السياسة لاستقطاب واستمالة قطاع كبير من الجماهير واعتيادهم الاعتماد على تلك المكافآت.

كان عشرات الآلاف من العراقيين قد أصبحوا متلقين لمختلف الأوسمة، والشارات، والشهادات، والعلامات المميزة خلال زمن حكم البعث. كل حالات التميز والمزايا، كانت بدورها تتوافق مع نوع

(١) جريجوري: «الإرهاب بالحصص»، صفحة ٧٢.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأوسمة أو الشارة التي نالها صاحب التميز، وكلما زادت الأنواط والأوسمة التي يحوزها مواطن أو عضو في الحزب، كلما ارتفعت قيمة المكافآت التي ينالها.

كانت «شارة الحزب» على سبيل المثال، جائزة تمنح للخدمة المتميزة التي يقوم بها عضو في الحزب، وفي الأغلب كانوا من أولئك الذين قضوا أعواما طويلة ـ في العادة خمسة وعشرين عاماً أو أكثر ـ كأعضاء نشطين[1]. كانت أول شارة تميز حزبي قد منحت عام ١٩٨٤ وكانت تمنح في أضيق الحدود لأنشط أعضاء الحزب. أما بعد ذلك، فقد أصبحت تمنح لضباط نشطين، ولأسماء الشهداء، ولبعض أسرى الحرب ولأسماء الضباط الذين فقدوا في المعارك، وبدءاً من عقد التسعينيات، منحت أيضاً لكبار وقادة العشائر[2]. لم يكن تلقي الشارات الحزبية يتم بطريقة آلية؛ فقد كان عدد من اللجان المصغرة يناقش ويراجع ملفات كل من هو مرشح لنيل شارة الحزب ثم تقدم اللجان ما تتوصل إليه من نتائج بحث الحالات إلى لجنة أعلى من كبار رجال الحزب وإلى ديوان الرئاسة للشؤون الحزبية للإقرار النهائي لأسماء من تم اختيارهم[3]. كان المخطط الأصلي أن تمنح شارة الحزب فقط

---

(١) كثير من الملفات كانت تتعلق بشارات الحزب، ومن خصصت لهم. انظر على سبيل المثال، أمانة سر الحزب: «شارات الحزب للعام ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩»، ٢٢ سبتمبر ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ٤ ـ ٦؛ وللعام ١٠٧٤ ـ ١٩٧٥، انظر القيادة القطرية لحزب البعث ٠٠٦ ـ ٥ ـ ٦.

(٢) من تنظيم بغداد إلى أمانة سر الحزب، ٨ يوليو ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث ١٣١ ـ ١ ـ ٧.

(٣) من أمانة سر الحزب إلى ديوان الرئاسة للشؤون الحزبية: «شارة الحزب»، ٢١ أبريل ١٩٨٧، القيادة القطرية لحزب البعث ٠٠٦ ـ ١ ـ ٤. يتعلق الملف بالأعضاء من عام ١٩٦١، كانوا ٦٠٦ مرشحين لنيل الشارة، منهم ٣٥ شهيدا، و١١ أسير حرب فقدوا في العمليات الحربية.

لأولئك الذين قضوا عمرهم في خدمة الحزب خدمة متواصلة غير متقطعة، وهكذا تم استبعاد كل الأعضاء الذين تركوا الحزب بعد نوفمبر ١٩٦٣، حين فقد الحزب السلطة بعد وصوله إليها لأول مرة. ولكن لأن ذلك أثار قدرا كبيراً من الأسئلة وتسبب في انشقاقات داخلية خطيرة، قرر صدام حسين مد صلاحية منح شارة الحزب لأولئك الذين أدوا خدمة متقطعة وخدموا البلاد خدمة متفانية خلال حربها مع إيران[١].

كان العديد من الشارات يوزع، من بين تلك الشارات نوط الشجاعة، ونوط الاستحقاق العالي. كان الأول يمنح على وجه التخصيص لضباط الجيش، وأسرى الحرب، ولأسر الشهداء، وكان من ينالونه يتلقون شريطاً أو اثنين أو ثلاثة شرائط وهي درجات ذلك النوط. عند منح ذلك النوط لضابط جيش، يصدر قرار رئاسي يشهد بأنه ناله لأنه أظهر شجاعة منقطعة النظير في «تحرير منطقة الفاو من براثن العنصرية الفارسية المجوسية»[٢]. كان نوط الشجاعة يمنح أيضاً لأعضاء الحزب الذين وصلوا لمرتبة عضو فرقة أو أعلى من ذلك[٣]. وعند تلقي ثلاثة شرائط، فإن ذلك يخول لمن ينالها أعلى الامتيازات ـ ومنها حيازة بطاقة «أصدقاء الرئيس» (انظر الشرح فيما يلي من هذا الفصل). وكانت الشارة التي لا تقل في قيمتها ومستواها عن نوط الشجاعة تسمى «وسام الرافدين»، وكانت تمنح من العهد الملكي من قبل عهد حزب البعث[٤].

---

(١) رسالة من صدام حسين إلى الأعضاء في القيادة المناطقية، ٢٨ يوليو ١٩٨٨: «المختارات»، الجزء ٧، صفحات ١٢٧ ـ ١٣١.

(٢) قرار جمهوري رقم٥٢١، ٢٥ مايو ١٩٨٨، قانون نوط الشجاعة الصادر عام ١٩٨٢، وتشير هنا كلمة مجوسي إلى كهنة الزرادشتية ولها مضمون تحقيري مهين.

(٣) مجلس قيادة الثورة: «قانون رقم ١٢٠»، ١٧ يوليو ١٩٩٨، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠١٧ ـ ٣ ـ ٢ (٠١٠).

(٤) الرافدين اسم آخر من أسماء العراق، وتعني أرض النهرين، دجلة والفرات.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أما وسام نوط الاستحقاق العالي فقد كان يمنح في الأغلب لأسماء الشهداء الذين فقدوا حياتهم أثناء غزو الكويت. وفي عام ١٩٩٣، على سبيل المثال، وافق مجلس قيادة الثورة على منح ذلك الوسام لأسماء ١٣,٢٨٠ شهيداً[١]. وبعد زمن، منح أيضاً لمئات من العاملين بالحكومة وللمعلمين[٢].

كانت هناك شارة أخرى ذات صلة بحرب الخليج الأولى تسمى «شارة أم المعارك»، ولم تكن تمنح فقط للجنود الذين أبلوا بلاء حسنا في الحرب، بل كانت تمنح أيضاً لأي «نصير» ممن ظلوا في الحزب لأربعة أعوام متتالية دون انقطاع[٣]. ثم حرم كثيرين بعد ذلك من الامتيازات التي تتيحها الشارة بسبب تصرفات وسلوكيات غير منضبطة قاموا بارتكابها وتراوح عدم النضباط في كثير من الأسباب المختلفة، تراوحت بين سرقة معدات عسكرية إلى الغياب بدون مبرر، كما حدث في حالة نصير غادر الشمال دون موافقة فرع الحزب الذي يتبعه[٤]. وبعد

---

(١) قرار رئاسي رقم ١٥٧، ١٦ أغسطس ١٩٩٣، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠١٧ ـ ٣ ـ ٢(١٠٨)، بمنتصف التسعينيات وهبت تلك الشارة لآلاف من الناس؛ انظر القرار الرئاسي رقم ١٦٩، ٧ سبتمبر ١٩٩٤، والذي وهبت بمقتضاه الشارة إلى ١٠,٠٠٠ فرد، القيادة القطرية لحزب البعث ١٦٨ ـ ٢ ـ ٢ (٠٣٣).

(٢) قرار جمهوري رقم ٧٠، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠١٨ ـ ٥ ـ ٧ (١٢٣). مئات من العاملين في وزارات التعليم العاليب، والنفط، والعدل، والثقافة والإعلام تلقوا تلك الشارة الحزبية. انظر أيضاً القرار الرئاسي رقم ٧٣، ٣٠ مارس ٢٠٠٠، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠١٧ ـ ٥ ـ ٦ (٠٦٤). قوائم أخرى تضم مئات من العاملين المدنيين من كل الوزارات على وجه التقريب يمكن أن نجدها في القيادة القطرية لحزب البعث، ٠١٧ ـ ٢ ـ ٧ (٨١ ـ ٨٥).

(٣) مجلس قيادة الثورة، «قانون رقم ١٢٠»، القيادة القطرية لحزب البعث ٠١٧ ـ ٣ ـ ٢ (٠١٠).

(٤) انظر على سبيل المثال، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٢ ـ ٢ ـ ٣ (٠١٨٧؛ ٠١٩٠).

معركة أم المعارك، تم تخصيص ميدالية خاصة قاصرة على أقدم الأعضاء الحزبيين وجنرالات الجيش؛ عزة ابراهيم على سبيل المثال، نائب الأمين العام لحزب البعث، تلقى هذه الميدالية لإنجازاته في ضم السكان المدنيين أثناء الحرب وأثناء الانتفاضة التي تلت الحرب[١] للجيوش غير النظامية والشعبية. ومن الملاحظ أن أعدادا كبيرة من تلك الميداليات والشارات قد منحت بعد أعوام من انتهاء الحرب، فقد أصبحت السياق والمسار المضمون لتلقي مكافآت وضم واستمالة أعداد كبيرة من المواطنين.

كانت بعض الشهادات توزع على الجنود، والطلاب، ونشطاء الحزب، وعلى الرغم أن تلك الشهادات لم يكن يترتب عليها كثير من الامتيازات، إلا أنها كانت هامة في إثبات أن حاملها مواطن موال للنظام. واحدة من تلك الشهادات كانت تمنح لمن شاركوا في اليوم الخاص للتدريب العسكري، وشهادة أخرى لمن تطوعوا في جيش القدس، وأخرى عداهما لمن التحقوا بتدريبات عسكرية موازية لتدريبات الجيش للطلاب[٢].

أكثر الميداليات أو البطاقات الخاصة المتمناة والتي كان يتطلع الجميع لنيلها بشغف شديد كانت تسمى:

«بطاقة هوية لأصدقاء السيد القائد الرئيس صدام حسين، حفظه الله». كانت واجهة تلك البطاقة تحمل البيانات الشخصية لحاملها بالتفصيل، ولكن ما يثير الاهتمام حقاً، ظهر البطاقة الذي يتوسط أعلاه كلمة

---

(١) حل مجلس قيادة الثورة ٣٣٩، ٢ سبتمبر ١٩٩١، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق وثائق ٠٠١ ـ ١ ـ ٧ (٠٠٧).

(٢) للرجوع لمجموعة من تلك الشهادات، انظر القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٧ ـ ٤ ـ ٥.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«إمتيازات» يليها سبعة بنود من الامتيازات التي تتيحها تلك البطاقة لحائزها (انظر الشكل رقم ٩):

١ ـ إضافة خمس درجات للمعدل الكلي لحامل البطاقة أو لزوجه وأبنائه عند الالتحاق بالمدارس، أو الأكاديميات، والجامعات أثناء الحرب [العراقية ـ الإيرانية] ولمدة خمسة أعوام بعد انتهاء الحرب.

٢ ـ قبول أبناء [حامل البطاقة] في الكليات العسكرية والأكاديميات أثناء الحرب وخمسة أعوام بعد انتهاء الحرب، بغض النظر عن الدرجات المؤهلة ولا شرط السن.

٣ ـ شرف مقابلة سيادته [الرئيس] مرة واحدة في العام على الأقل.

٤ ـ امتيازات الإجازات وامتيازاتها على ذات الأسس المقدمة للعاملين بالديوان الرئاسي.

٥ ـ الأولية والأسبقية على باقي المواطنين في طلبات المقابلات [بالمسؤولين الحكوميين].

٦ ـ متاح لحاملها ولأفراد أسرته الاتصال مباشرة بأمانة سر الديوان الرئاسي، وأمانة سر القيادة العامة للقوات المسلحة، ومساعد الرئيس الخاص، وأمانة سر وزير الدفاع، وتحديد موعد للمقابلة لأي سبب أو غرض.

٧ ـ عمل بدلات عسكرية بدلتين صيفية وبدلتين شتوية هدية من رئاسة الجمهورية سنويا[١].

---

(١) لرؤية نسخة من تلك البطاقات، انظر القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٢ ـ ٣ ـ ٣ (٠١٧٦)، وواحدة أخرى مؤرخة من ١٩٩٨ في القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٥ ـ ٤ ـ ٦.

تم ابتداع تلك البطاقة أثناء الحرب ضد إيران، واستفاد حاملوها من الامتيازات التي تتيحها لهم أثناء الحرب ولمدة خمسة أعوام أخرى بعد انتهاء الحرب. وعلى أي حال، ، بدخول العراق حربا أخرى وتصديها لانتفاضة عام ١٩٩١ بعد حرب الكويت، ظلت صلاحية البطاقة ممتدة وظلت محتفظة بفاعليتها وامتيازاتها حتى سقوط النظام في عام ٢٠٠٣. أبلغني حاملو تلك البطاقات ممن التقيت بهم أنهم يحملون تلك البطاقات في كل الأوقات، لأنها لا تفتح الأبواب المغلقة فقط، بل لأنها أيضاً تدفع عنهم أي ضر في حياتهم اليومية من أجهزة الأمن. في عام ١٩٩٨، قرر مجلس قيادة الثورة أن الجنود الذين أصيبوا بإعاقات بدنية ممن فقدوا أحد الأطراف أو تعرضوا لبتر جراحي إما خلال الحرب ضد إيران أو أثناء غزو الكويت سوف يمنحون بطاقة «أصدقاء الرئيس»[١]. ولما ازدادت أعداد «الأصدقاء» بشكل لافت للنظر في عقد التسعينيات، تم ابتداع تصنيف حصري جديد يسمى «إتحاد الصداميين». كانت تلك البطاقة موقعة من قبل عدي صدام حسين بصفته «المشرف» على الاتحاد[٢].

ويمكن تفهم وإدراك أن معظم المواطنين كانوا يسعون لنيل تلك البطاقة ذات الامتيازات لحماية عائلاتهم وتأمين مستقبل أبنائهم. وقرب نهاية عقد التسعينيات، حملت كثير من الملفات الشخصية جدولا أدرجت به الشارات والأوسمة والميداليات والبطاقات، وقام الحزب

---

(١) حل مجلس قيادة الثورة رقم ٢٨، ١٤ أبريل ١٩٩٨، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠١٨ ـ ٤ ـ ٣ (٢٩٣).

(٢) بطاقة الهوية تحمل شعار «يوم الله فوق أيامهم»، انظر القيادة القطرية لحزب البعث، ٠١٠ ـ ١ ـ ٣ (١٠١ ـ ١٠٢).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بعمل إحصائيات للمقارنة بين مختلف من تلقوا تلك المنح، لا تختلف عن جداول مباريات الدوري الرياضية[1].

شكل رقم (٩): بطاقة «أصدقاء الرئيس».

لم تقتصر المكافآت والعطايا على حاملي بطاقات «أصدقاء الرئيس». فقد شملت حشدا من أعضاء الحزب، ومسؤولين حكوميين، وأعضاء

(١) انظر على سبيل المثال جدول المكافآت والمنح مقسوما بين الذكور والإناث في القيادة القطرية لحزب البعث، ٠١٨ ـ ٢ ـ ٢. وفي سجلات الحزب، هناك جداول بأسماء الأعضاء وبها ما يشير إلى سبب منح القلادات مثل الفوز في انتخابات محلية لفرع حزبي أو ترقيته في كوادر الحزب.

في القوات المسلحة والمؤسسات الأمنية، بل وحتى المبلغين والبصاصين والمخبرين والوشاة. ومثل النظم التسلطية الاستبدادية الأخرى، كان حزب البعث أبويا في علاقته بداعميه، ويقدم لهم الفرص والمكافآت والعطايا والهبات في كل المجالات. في واحد من المستندات، كان يوجد بيان مدهش لا يصدق على شكل جدول شامل يصنف المكافآت التي ينالها كل المسؤولين من نواب الرئيس حتى العاملين بمختلف المكاتب الحكومية. سجل البيان كبار المسؤولين، ومناصبهم، وكم وحجم المكافآت ومعدلها التكراري. كما شمل الجدول قادة العشائر، وضباطاً من مختلف مؤسسات الأمن، وضباطاً بقيادة القوات المسلحة، ومسؤولين في اتحادات العمل الكبرى، وأساتذة في معهد صدام لدراسات القرآن، ومدرسين وطلبة متفوقين في مدارس «ذات صفة خاصة» مثل المدرسة العليا بالعوجة، وهي مدرسة القرية التي انحدر منها صدام حسين بالقرب من تكريت. تراوحت الفوائد المالية بين مليون دينار عراقي (حوالي ٢٠٠٠ دولار أميركي على وجه التقريب) لنائب الرئيس، إلى ما هو أقل من ٤٠ دولارا أمريكيا لمختاري القرى. ما يلفت الانتباه بشدة هو أن تلك المنح والهبات والعطايا كانت تعتبر كلها «هبات» من صدام حسين لا من الدولة، مما قوى مفهوم: صدام هو العراق[1]..

(١) جدول الجوائز، لا يوجد تاريخ محدد ولكن من المحتمل أنه وضع عام ٢٠٠١، مركز سجلات أبحاث الصراع.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الشكل (١٠): صدام حسين يوزع هبات مالية، بغداد، ٢٠٠٠

وبالقدر الذي كانت عليه أهمية المكافآت والهبات المالية، كانت الفائدة المفضلة والمرغوبة أكثر منها هي الحصول على مساحة من الأرض أو شقة سكنية، خاصة لو كانت في بغداد أو المدن الأخرى الكبرى، وخاصة بعدما ارتفعت أسعار الشقق ارتفاعا شديدا يحول دون تملكها بسهولة. كانت متطلبات الحصول على تلك الفائدة العظيمة تعد حافزا عظيما للحصول على شارة الحزب. حتى أعضاء الحزب الذين أبعدوا عن كردستان بعد حصولها على الحكم الذاتي لم يمنحوا بطريقة آلية قطعة أرض إلا إن كانوا قد منحوا شارة الحزب أو كانوا من حملة بطاقة «أصدقاء الرئيس»[1]. كان تلقي قطعة أرض يعد دوما بمثابة هبة

(١) من أمانة سر الحزب إلى أمانة سر منطقة الحكم الذاتي: «تقرير»، ١٦ أكتوبر ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٢ ـ ٣ ـ ٣ (٠٠١). طبقا لهذا التقرير، تم إبعاد ٢٣٠٠=

من صدام حسين؛ كثير من أعضاء قوى الأمن وجهاز الأمن الخاص كانوا من المخول لهم تخصيص قطع أراضي بناء على تعليمات الرئيس[١]. إضافة لذلك، كان مئات من العاملين بالقصور الرئاسية والوكالات الاستخبارية يسكنون في شقق مدعومة من الدولة في بغداد[٢]. أعضاء حزب البعث من غير العراقيين والذين استقروا في العراق، وعلى وجه التخصيص من قدموا من سوريا ومن البعث السوري خصصت لهم أيضاً شقق سكنية في بغداد؛ وكثير من أولئك السوريين تم تعيينهم في وظائف حكومية كمكافأة على أنشطتهم الحزبية خارج العراق[٣].

كانت الوظائف، والعلاوات المالية، ومنح التقاعد كلها جانب من نظام المكافآت والمنح والهبات والعطايا، وبدون ميدالية من الميداليات

=عضو من الشمال وعاشوا في بيوت مستأجرة في مختلف أرجاء العراق. وبالنسبة لتخصيص الحزب لأراضي لأعضاء الحزب انظر، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٥ ـ ٥ ـ ٧.

(١) إدارة الحرس الجمهوري: «طلبات لأسماء»، ٩ يوليو ١٩٩٣، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠١ ـ ٢ ـ ٧ (٠٢٢)؛ (٠٢٨). في عام ١٩٩٣، تلقى ١٠٩ فردا من العاملين بجهاز الأمن الخاص موافقات الحصول على قطع أراضي.

(٢) استلزم تخصيص عمارات شقق سكنية وصيانتها تخصيص مبالغ مالية كبيرة ومصدر تمويل من الدولة. انظر الأمور المتعلقة بالقيم الإيجارية للسكن لأعضاء جهاز الأمن الخاص، في القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠٣ ـ ٢ ـ ٦؛ صندوق ٠٠٣ ـ ٢ ـ ٧؛ وصندوق ٠٠٣ ـ ٢ ـ ٨.

(٣) من أمانة سر الحزب لتنظيم سوريا بالحزب: «امتلاك شقق سكنية»، ١١ فبراير ١٩٨٥، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٦ ـ ٢ ـ ٢ (٢٨٤). طبقا لتلك المذكرة، تم تخصيص ما يزيد عن مائتي شقة للسوريين أغلبها في بغداد ونينوى. انظر أيضاً تعيين عددا من السوريين في وزارتي المالية والشباب عام ١٩٨٥، القيادة القطرية لحزب البعث خخ٦ ـ ٢ ـ ٢ (٣٦٨).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أو شارة من الشارات كان من الصعب ولوج عالم التعويضات والعطايا. حتى المناصب المدنية المتساوية في درجة السلم الوظيفي لم تكن متساوية المردود لشاغليها ولا مع غيرهم من حائزي شارة الحزب؛ فكل عام كان الديوان الرئاسي يعلن «ضبط وتعديل الأجور»، والتي كانت تنفذ بعدها عن طريق وزارة المالية[١]. كانت أسماء الشهداء تقريبا هي الوحيدة التي يمكنها نيل تلك المزايا دون أن تكون حاملة ولا حائزة على شارة الحزب أو قلاداته. ومن الواضح أن عائلات الشهداء الذين وهبوا شارات الشرف من قبل استشهاد ذويهم كانوا يتلقون تعويضات أكبر[٢]. كثير من العلاوات المالية كانت توزع في مناسبات خاصة مثل المولد النبوي، وعيد الأضحى (العيد الثاني الكبير للمسلمين وهو يلي رمضان بسبعين يوما)، وبالطبع أيضاً في عيد ميلاد صدام حسين.

حتى الالتحاق بمعاهد التعليم العالي والكليات العسكرية والشرطية كان جانبا آخر من نظام المزايا والمكافآت. في كثير من الحالات، كانت التعيينات الأكاديمية تتوقف على الانتماء السياسي؛ في واحدة من المذكرات قررت أمانة سر الحزب «تعيين» خمسة أساتذة مستجدين يحملون «مؤهلات جيدة» في مناصب تعليمية في جامعة السليمانية ليحلوا محل خمسة أساتذة آخرين عرف عنهم ميولهم للشيوعية[٣]. وكما

---

(١) من الديوان الرئاسي إلى أمانة سر الحزب: «تعديل الرواتب»، ١١ نوفمبر ٢٠٠٠، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٥ ـ ٤ ـ ١ (٠٧٥ ـ ٠٧٧).

(٢) يتعلق عدد كبير من الملفات بالتعويضات وأمور المكافآت الممتدة على عدد كبير من سنوات النظام، ومختلف درجات متلقي المكافآت. انظر على سبيل المثال، القيادة القطرية لحزب البعث ٠١٨ ـ ٥ ـ ٣ (٠٩٩ ـ ١٠٠)؛ القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٥ ـ ٤ ـ ٦؛ مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٦٤، صندوق ٤٤١.

(٣) أمانة سر الحزب: «قرار»، ٩ أغسطس ١٩٧٦، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ١ ـ ١ (٠٨٠).

عرفنا، كان القبول بالكليات العسكرية والشرطية يعد أحد الحوافز لدفع الناس أن يكونوا من الموالين المخلصين للحزب، ووجد المستقلون سياسياً عن ذلك النظام أن فرصهم وتطلعاتهم تتلاشى بحدة بمرور الزمن. كان العاملون «المتميزون» الذين يعملون في الديوان الرئاسي، وجهاز الأمن الخاص، وأمانة سر الحزب، والحرس الجمهوري مؤهلين للالتحاق بالجامعات لتسجيل شهادات عليا كالماجستير والدكتوراة مع تكفل الحكومة بدفع كامل التكلفة[١]. حتى غير العراقيين بالحزب كانوا مستثنين من المرور بالإجراءات الأكاديمية المتشددة للالتحاق بالجامعات[٢].

كانت السيارات أحد الأشكال الأخرى من المنح للموالين من أعضاء الحزب. ففي عام ١٩٩٠، أمر صدام حسين بأن يكون بإمكان كبار كوادر الحزب أن يستلموا أول سيارة في حياتهم كـ «هدية من الرفيق القائد». وشمل ذلك التوجيه ضباط الجيش الذين يعملون في المكاتب العسكرية بالحزب أو العسكريين الموالين للحزب من زمن طويل[٣]. وفي كثير من الحالات، كان حائزو شارة الشجاعة مخولين أيضاً بتلقي إما مخصصات مالية لسيارة أو مبلغ نقدي لشراء سيارة[٤].

---

(١) الديوان الرئاسي: «أسماء المميزين لدراسات عليا»، ٢١ يناير ٢٠٠٣، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠١ ـ ٢ ـ ٥ (٠٠٢). بالنسبة لأنواع تخصصات المتخرجين، انظر الملف ذاته (٠١١).

(٢) مكتب الحزب: «قبول سوريون» ١١ فبراير ١٩٨٥، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٦ ـ ٢ ـ ٢ (٤٦٦).

(٣) من أمانة سر الحزب للقيادة المناطقية: «قواعد تخصيص السيارات»، ٢١ يناير ١٩٩٠، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ٣ ـ ٧ (١٥٥). مذكرة في ذات الملف مؤرخة ١٤ مارس ١٩٩٠ من الديوان الرئاسي تشير إلى أن ١٧٦٢ استلموا سيارات تويوتا كورولا كهدية من الرئيس.

(٤) من خصصت لهم مبالغ مالية بديلا عن السيارة كان عليهم الحصول على موافقة الديوان=

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كذلك أيضاً تلقى المتعاونون والمبلغون كثيراً من المكافآت مقابل تعاونهم وتبليغهم، وعلى الرغم من أنه لم تكن هناك قواعد ثابتة لقيم المكافآت لتلك المنح الخاصة. كثيرون، على أي حال، كانوا يتلقون سيارات أو مبالغ مالية «لمساهماتهم في المجهود الحربي»، وعلى وجه التخصيص من تعاونوا ضد التمرد الكردي في عقد الثمانينيات. كانت عائلات المتعاونين الذين قتلوا أثناء العمليات العسكرية يتلقون معاشات شهرية ومكافآت مالية[1]. أما بالنسبة لرجال الأعمال المحتملين، فقد كان التعويض يتم على هيئة ترخيص لبدء أنشطة تجارية جديدة أو تخويلات وتصاريح بالتصدير والاستيراد[2]. أما الأكراد الذين كانوا يدعمون النظام الحاكم ويؤيدونه وظلوا في منطقة الحكم الكردي الذاتي بعد عام ١٩٩١ فقد تلقوا إعانات مالية ودعما سكنيا كتعويض عن دمار وتلف ممتلكاتهم[3].

ولا يوجد شك في أن نظام البعث تحت حكم صدام حسين كان كريما وسخيا مع داعميه ومؤيديه. كان نظام العصا والجزرة قد تبلور بكل وضوح وكان من الجلي جداً أن أولئك الذين انحازوا للنظام

=الرئاسي، وإدارة الدفاع الوطني: «سيارات للحاصلين على نوط الشجاعة»، ٢٨ يوليو ١٩٨٩، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٠٤، صندوق ٢٥١.

(١) أمن السليمانية، ١٩ ديسمبر ١٩٨٠، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠١٢، صندوق ٥٠. فيما يخص قواعد تعويض المتعاونين الذين أصيبوا أو قتلوا أثناء أداء مهامهم للنظام، انظر مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٧٥، صندوق ٥٦٣.

(٢) محافظة السليمانية: «طلب الموافقة على افتتاح مطعم»، ٣٠ أكتوبر ١٩٨٩، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠١٢، صندوق ٥٠. انظر أيضاً طلبات أخرى.

(٣) من أمانة سر الحزب إلى الديوان الرئاسي: «مواقف الرفاق الأكراد»، ٢٨ أبريل ١٩٩٤، القيادة القطرية لحزب البعث، ١٠٠ ـ ٣ ـ ٥ (٠٦٠ ـ ٠٧٥).

الحاكم سوف يلقون رعاية وعناية الدولة. ودفعت العقوبات الدولية التي فرضت على العراق في التسعينيات والتدهور الاقتصادي الذي ترتب عليها بكل الخيوط الاقتصادية لحياة المواطنين للتجمع في يد صدام حسين، بعد أن أصبحت الجماهير أكثر اعتمادا على جزرة النظام. تحتوي ملفات الوثائق على مئات من طلبات الحصول على أراضٍ من الدولة، وتعويضات مالية، وتعديلات في معاشات التقاعد، ومقدمو التماسات يعددون فيها ما قدموه لخدمة النظام وتدخلهم الشخصي لـ «الدفاع عن مبادئ البعث». وبدا أن إحساسا من الاستحقاق والحقوق قد نما وتطور، لدرجة أن كثيرين بعد أن يتلقوا هباتهم ومنحهم، كانوا يشعرون أنهم يستحقون المزيد، وكتب كثيرون يشتكون من أن آخرين تلقوا هبات من الدولة أكثر مما نالوه هم[1] وأنهم أكثر منهم استحقاقا. كثير من الالتماسات أرسلت للحزب وللديوان الرئاسي يطلب مقدموها أماكن مرموقة في الجامعات والكليات العسكرية[2]. إضافة لذلك، كانت هناك كثير من الامتيازات امتدت إلى ما هو أبعد من المنافع الحياتية. فعلى سبيل المثال، بعد موت حامل الشارة أو القلادة أو بطاقة «أصدقاء

---

(١) انظر، على سبيل المثال، رسالة من ضابط بالحرس الجمهوري يطلب الموافقة على تخصيص قطعة أرض له إسوة بزملائه الذين حصلوا على قطع أراضي، ٧ أغسطس ١٩٩٣، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠١ ـ ٢ ـ ٧ (٠٠٩)؛ خطاب من عضو فرع الحزب ببغداد يقول فيها أنه على الرغم من تلقيه «إكرامية» فيما سبق في الأعياد الدينية، إلا أنها توقفت الآن، وهو يؤمن أنه مستحق لاستمرارها، ٧ يونيو ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠١٧ ـ ١ ـ ٧ (٠٩٤). انظر أيضاً القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٢١ ـ ١ ـ ٢ (٠٠١ ـ ٠١٠).

(٢) على سبيل المثال، انظر رسالة من أب رفض طلب قبول ابنه بكلية الشرطة يناشد الرجوع عن قرار الرفض، ١٥ توفمبر ١٩٩٤، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٢١ ـ ١ ـ ٤ (٠٨٠). حالة أخرى من ذات المواضيع نجدها من متقاعدين وأعضاء من «منظمة المناضلين» الذين يريدون مساواتهم في المزايا مع أولئك الذين مازالوا يخدمون بالجيش، ٣٠ أكتوبر ١٩٩٩، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠١٧ ـ ٢ ـ ٧ (٢٢١).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الرئيس»، استمرت الزوجات والأبناء في تلقي المخصصات المالية لخمسة أعوام إضافية بعد الوفاة[1]. واشتكى صدام حسين لمجلس قيادة الثورة من أنه يلوم ذاته لأن الناس أصبحوا معتادين جداً على تلقي الهبات وتحولوا إلى فاسدين بالفعل، وقال لمجلس قيادة الثورة أن ما يثير أعصابه أنه في كل مرة يتوقف فيها بالقرب من حراسه (الحرس الجمهوري الخاص) ليسألهم عن أحوالهم ويطمأن على راحتهم يبادرونه بطلباتهم لمكافآت ومنح ومطالب مختلفة[2].

وعن تصاعد المطالب المادية والامتيازات المتزايد، أصبح تقديم أوليات المستحقين الحقيقين أكثر تعقيدا عن ذي قبل، لأن أعداد الأماكن في الجامعات على سبيل المثال لم تكن غير محدودة. وحين استجاب نائب السكرتير العام للحزب المسؤول عن التعليم والتدريبات العسكرية لمذكرة عن المصاعب التي تواجه ترتيب الأوليات، أوصى بما يلي: «انتقوا الأفضل؛ فضلوا الأعضاء على المؤيدين [للحزب]؛ [أعطوا أولية] لأبناء الشهداء وأبناء أصدقاء السيد الرئيس؛ [إعطوا أولية] لأبناء القرى على أبناء أحياء المدن على أبناء المحافظات، وهكذا بذات الترتيب الأفضلي»[3]. أحد حلول ترتيب الأفضليات أثار جدلا كما كان

---

(١) الديوان الرئاسي: «منح للمناسبات الدينية والوطنية بعد موت المستحق»، ٣ أغسطس ١٩٩٩، القيادة القطرية لحزب البعث ٠٢٠ ـ ١ ـ ٣ (٠٤٢). كان قد أجري إصلاح قبل ذلك في عام ١٩٨٤ على القانون الذي ينص على أن زوجات وأبناء حاملي قلادة وشارة الحزب سوف يستمرون في تلقي مزايا ومكافآت تلك الشارات والقلادات. انظر «الوقائع العراقية»، رقم ٣١٢٨، ١٥ ديسمبر ١٩٨٦.

(٢) تسجيل صوتي لاجتماع مجلس قيادة الثورة، لا يوجد به تاريخ محدد ويرجح أنه في عقد التسعينيات، مركز سجلات أبحاث الصراع.

(٣) تلك التعليقات كانت بخط اليد على هامش المذكرة وكتبها مدير برامج التدريب العسكري لنائب الأمين العام للحزب، ٢ ديسمبر ١٩٩٢، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠١٧ ـ ٤ ـ ٢ (٠٠٤). ذكرت المذكرة بالتفصيل عدد المتقدمين، من قبلوا على الفور ومن رفضوا=

يحدث في بدايات عقد الثمانينيات، بمؤازرة ومناصرة وتعويض العاملين مباشرة دون ترقيتهم أو تصعيدهم في صفوف الحزب، فقد كان ذلك يثير الشهية للمطالبة بالمزيد من طلبات الامتيازات[1]. وبحلول نهاية عقد التسعينيات كان نظام تخصيص وتوزيع المكافآت قد تحول ليصبح أكثر حداثة؛ فقد تم تصميم استمارات خاصة تفصل مختلف أنواع الأنشطة والأعمال والحالة الاجتماعية، كما تحتوي الاستمارة أيضاً على جدول لتسجيل النقاط المتراكمة للمتلقي المحتمل. وأخذ النظام الجديد في اعتباره الحالة الاجتماعية والعائلية، والتعليمية، والخدمات التي أداها للحزب وللجيش، القلادات والشارات التي بحوزته، والمنح والهبات والهدايا التي تم الحصول عليها من قبل، واستمرارية الإنجازات التي تقدم للنظام، والمشاركة في الجيش الشعبي و«يوم النخوة»، ..... وهكذا دواليك[2].

وفي حين كانت المكافآت مغرية وجاذبة وأدت إلى تطويع آلاف المواطنين تحت أمرة النظام وتوافقهم مع حكمه، كان كل من يبدي معارضة للنظام يلقى عقاباً صارماً وقاسياً بقدر مواز لسخاء العطاء.

=بسبب المعلومات «غير المشجعة» عن خلفياتهم الأسرية والسياسية، وترك عدد كبير من طلبات الالتحاق دون اتخاذ قرار بشأنهم، مقارنة بالعدد المحدد المطلوب (٠٠٢).

(١) انظر من أمانة سر الحزب إلى الأمين العام فيما يختص بقرار القيادة المناطقية المتخذ في ٢٥ مارس ١٩٧٩، لترقية أعضاء بالحزب، على ضوء إنجازاتهم، القيادة القطرية لحزب البعث، الشمال، ٠٠٣ ـ ١ ـ ١.

(٢) كان للاستمارة درجات ونقاط جانبية على تسعة جوانب مختلفة، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠١٩ ـ ١ ـ ٣ (٢٧٥ ـ ٢٧٨).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

العقوبات

للمحافظة على السلطة، احتاجت قيادة حزب البعث كغيرها من قيادات الأحزاب الوحيدة الحاكمة أن تنشر في البلاد رسالة مفادها أن سلطتها دائمة ولا يمكن انتزاعها ولن يلقى أي شكل من أشكال المعارضة تساهلا ولا تسامحا[١]. كانت العقوبات توقع على كل المواطنين، سواء كانوا أعضاء بالحزب أو مواطنين غير حزبيين، لأسباب كثيرة متباينة وتطبق بلا رحمة وبكل قسوة في جميع أنحاء العراق وعلى كل طبقات المجتمع دون استثناء. في شمال العراق كانت تتخذ إجراءات صارمة قبل وبعد حصول الأكراد على الحكم الذاتي عام ١٩٩١. كان قد تم اعتقال كثير من المقاتلين المقاومين من الأكراد في عقد السبعينيات وحكم عليهم بالإعدام[٢]. كما كانت تتم «تصفيتهم» بدنيا على أيدي «المفارز الخاصة» المؤلفة من أكراد متعاونين مع السلطة وتعمل تحت رعاية المخابرات العراقية[٣]. وكانت تلك المفارز ذاتها تعاقب بشدة من النظام إن لم تنفذ الأوامر أو إذا تبين أنها «غير مفيدة» للضباط العراقيين[٤].

أحدى أقسى العقوبات التي كانت توقع على الناس في شمال العراق

---

(١) لمعرفة العقوبات والمكافآت في الاتحاد السوفييتي تحت حكم ستالين، انظر رجبي: «الستالينية ومجتمع أحادي المؤسسة»، صفحات ٧٠ ـ ٧٣.

(٢) انظر الموافقة على أعدام مدانين، ١٧ يونيو ١٩٧٩، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٠١، صندوق ٣٠٠٢.

(٣) مذكرة من الأمن في شقلاوة عن تصفية معارض، ٢٣ أكتوبر ١٩٨٧، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٠٥، صندوق ١٧.

(٤) دائرة الأمن: «قرار إداري»، ٢٣ مارس ١٩٨٩، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٣١، صندوق ١٥٢.

كانت تدمير بيوتهم، أو طرد عائلات المغضوب عليهم من منازلهم، وأحياناً الطرد من المنطقة بأجمعها. في عام ١٩٨٨، أمر علي حسن المجيد الشهير باسم علي الكيماوي بسبب دوره في حملة الـ «أنفال» ضد أكراد منطقة حلبجة، أمر ـ بتدمير بيوت أقلية الشبك الذين غيروا جنسيتهم من عربية إلى كردية وأمر بنقلهم إلى منطقة سكنية أخرى في أربيل دون دفع أي تعويضات[١]. أصبح الطرد بالقوة سلاحا يستخدمه النظام ضد كل مؤيدي وداعمي المقاومة الكردية، وذهب كثير من توسلات العائلات للسلطات بعدم هدم بيوتهم أدراج الرياح ولم يبال بها أحد[٢]. كان تعريب منطقة الشمال أحد أشكال العقوبات الأخرى التي أنزلها النظام بأكراد الشمال المؤيدين لحركة المقاومة الكردية، مما أدى إلى تهجير كثير من العائلات الكردية من الشمال إلى بغداد أو إلى محافظات الوسط والجنوب العراقي. كما منع أيضاً كثير من الأكراد من مغادرة البلاد للدراسة أو للعلاج بالخارج بحجة أنهم يشكلون خطراً أمنيا على النظام[٣]. لم يكن يمر يوم دون أن يشهد اعتقالات جماعية؛ ففي مدينة دوكان الصغيرة نسبيا الواقعة في شمال العراق، كانت تصدر مذكرات توقيف مما لا يقل عن مائة مذكرة خلال أسبوع واحد في شهر ديسمبر عام ١٩٨٠[٤]. لم يستخدم الترحيل ضد الأكراد وحدهم؛ فبعد

---

(١) من رئاسة أمن أربيل إلى كل قيادات الأمن، ٣١ أغسطس ١٩٨٨، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠١١، صندوق ٠٤٥.

(٢) انظر على سبيل المثال أوامر الإخلاء والطرد والمراسلات المذكورة في مركز وثائق الشمال، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٠٨، صندوق ٠٣٢.

(٣) من مدير الأمن في السليمانية إلى المدير العام للأمن، ١٦ يناير ١٩٧٩، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٠٧، صندوق ٠٢٤.

(٤) من ضابط أمن دوكان إلى كل المراكز الأمنية: «اعتقالات»، ٩ و١٠ و١١ ديسمبر ١٩٨٠، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٠٥ ـ ، صندوق ٠١٦.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

انتفاضة عام ١٩٩١، بدأت السلطات في ترحيل كثير من العائلات التي أيدت الانتفاضة من الجنوب الشيعي إلى مناطق معينة حول بغداد وضواحيها. وبحلول عام ١٩٩٤، تقرر طردهم جميعاً من منطقة بغداد وإجبارهم على العودة للمحافظات التي قدموا منها دون دفع أي تعويضات لهم[١].

في حقبتي لينين وستالين في الاتحاد السوفييتي، كان عقاب أفراد من أبناء العائلات الكبرى من الأعمال الروتينية المعتادة، فقد كان يخشى من «أعداء الطبقة العاملة الذين يمكن لهم أن ينقلوا عدواهم لآخرين»[٢]. وفي العراق، اعتبر حزب البعث على عكس ما سبقه من نظم حكمت العراق أن عائلات المعارضين أهداف مشروعة لمعاقبتها. في عام ١٩٧٩، وبعد أقل من شهر من تولي صدام حسين الرئاسة، فصلت وثيقة حزبية الإجراءات التي يجب اتخاذها ضد مختلف أعضاء العائلات المعارضة، بما يتوافق مع خطورة «جريمة» مقاومة النظام. حددت المذكرة مختلف العقوبات الواجب توقيعها على زوجات المعارضين وأطفالهم (ذكورا وإناثا)، وعلى أبناء أشقائهم وأخواتهم. شملت تلك العقوبات منع المعارضين من الانضمام للحزب وطرد من

---

(١) لجان خاصة مكونة من ممثلين عن الحزب، والمخابرات، والشرطة المحلية وكلفت بمهمة استئصال تلك العائلات للمرة الثانية وإعادتهم لمناطقهم التي رحلوا عنها قبل ذلك، بغض النظر عن أن بيوتهم الأصلية كانت قد دمرت أثناء انتفاضة عام ١٩٩١. انظر القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ٣ ـ ٤. انظر أيضاً: من الديوان الرئاسي إلى وزارة الداخلية: «الأكراد المبعدين»، ٥ سبتمبر ١٩٩٤، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ٣ ـ ٤. بالنسبة للجنة «ترحيل» الحزب، انظر مذكرة لأمانة سر الحزب، ٣ أغسطس ١٩٩٤، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ٣ ـ ٤ (٠٠٧ ـ ٠٠٨)، واستمارة خاصة للعائلات المرحلة (٠١٧).

(٢) جريجوري: «الرعب بالحصص»، صفحة ١٢٤.

كانوا ملتحقين به أصلا قبل إظهار معارضتهم؛ ورفض طلبات التحاقهم بالكليات العسكرية والشرطية، والحيلولة دون حصولهم على منح دراسية للدراسة بالخارج؛ والحد من حرية اختيارهم للتعليم الجامعي، وآخر تلك العقوبات، منعهم من العمل في السفارات العراقية بالخارج وفي عديد من الوظائف الحكومية[1]. إضافة لذلك، كانت العائلات تستخدم كوسيلة ضغط على المشكوك في ولائهم وعلى «المخربين» أثناء استجوابهم وبعد استجوابهم، وكان كثير منهم يبعد عن بيته كعقوبة بسبب انضمامه لأحد الأحزاب الكردية المعادية للحكومة[2]. وبينما كان «خونة الوطن الأم» في الاتحاد السوفييتي يسجنون وتصادر ممتلكاتهم، نجده لم يختلف عن ذلك في العراق، فاستنادا إلى أوامر مباشرة من صدام حسين، كان على «الإرهابيين» تطليق زوجاتهم بالأمر، وأن يحجز على ممتلكات أبوي كل من يثبت مشاركته في محاولة اغتيال عضو بحزب البعث أو أحد أفراد المؤسسات الأمنية، ويطردوا من بيوتهم[3].

من الأيام الأولى المبكرة، لم يتردد النظام الحاكم في استخدام تلك الوسائل العقابية لاستئصال شأفة أي مقاومة من مهدها. وفي شمال العراق، حين كان يعتقل «إرهابي» أو يقتل، كانت ترسم شجرة أفراد عائلته القريبة، وكان طردهم من بيوتهم وترحيلهم من مناطقهم إحدى

---

(١) من أمانة سر الحزب لكل الإدارات الحزبية: «قرار»، ١٣ أغسطس ١٩٧٩، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ١ ـ ١ (٢٩٠ ـ ٢٩٢).

(٢) انظر على سبيل المثال، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠١٣، صندوق ٥٥؛ الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٠١، صندوق٠٠١؛ الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٣٠، صندوق ١٤٧.

(٣) من أمانة سر الحزب إلى إدارة فرع الحزب بالسليمانية: «اجتماع»، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٣٥، صندوق ٢٠٠.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وسائل الانضباط التي يفرضها النظام[1]. كان اعتقال أفراد العائلة أو فصلهم من وظائفهم من الوسائل الفعالة في ممارسة الضغوط على أعداء النظام، سواء كانوا قد اعتقلوا من قبل أو لم يعتقلوا[2]. وعلى أثر مناقشة جرت في اجتماع مجلس قيادة الثورة في عام ١٩٨٣، تقرر طرد كل أقارب المدانين الذين صدر بحقهم حكما بالإعدام من الوظائف الحكومية التي يشغلونها، وبينما كان على أقارب المدانين ولم يحكم بإعدامهم أن ينقلوا من الوظائف الحكومية الحساسة في القطاع الحكومي العام إلى وظائف أخرى هامشية، أو يجبرون على التقاعد النهائي. كان كل معلمو المدارس يعدون جانبا من الخدمة المدنية[3].

ووضعت قيادة الحزب قائمة واضحة بالعقوبات الخاصة بالأنشطة المتعلقة بالحزب أو البلاد، على الرغم من ازدياد صعوبة التفرقة بين الاثنين. فعلى سبيل المثال، كان التأثير على سمعة الحزب، الذي يتسبب في خلق «المعوقات أمام تحقيق البرامج والمشاريع الثورية» أو الفشل المتعمد عن سوء نية في تنفيذ أوامر الحزب وأيديولوجيته تقابل جميعها بتوقيع عقوبات شديدة القسوة على مرتكبيها[4]. وما يمكن

---

(١) أمن شقلاوة: «تقرير»، ٢٢ أكتوبر ١٩٨٦، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٤١، صندوق ٢٥٨؛ الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٠٥، صندوق ٠١٧.

(٢) أمن السليمانية، ٣٠ يوليو ١٩٨٥، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٠٩، صندوق ٠٣٩. قائمة من إحدى وأربعين زوجة لفارين من الخدمة العسكرية وخصوم للنظام الذين يعملن كمعلمات وتم استدعائهن تمهيدا لفصلهن من وظائفهن.

(٣) من رئاسة الشؤون الإدارية إلى أمانة سر الحزب، ١٢ سبتمبر ١٩٨٣، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٢١ ـ ١ ـ ٥ (٦٨٤ ـ ٦٨٥).

(٤) من أمانة سر الحزب إلى كل القيادات الحزبية: «قرار»، ٢٣ مارس ١٩٧٨، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ١ ـ ١ (٤٢٠ ـ ٤٢٨). تحتوي المذكرة على جدول يضم مختلف العقوبات لأعضاء الحزب بسبب ارتكاب مخالفات. كان أقسى الإجراءات الإدارية الطرد من الحزب، ومن الواضح أن ذلك كان يترتب عليه تبعات قاسية للعضو وعائلته.

ملاحظته بسهولة هو غياب ذكر أي تفاصيل في تلك المذكرات، مما يفتح مجالا واسعا من التفسير لما يمكن اعتباره «معوقا» و«تعويقا» أو فشلا في تحقيق واجبات فرد ما تجاه الحزب، مما يتيح إنزال مدى واسع وقاس من العقوبات. وكما عرضنا في الفصل الثاني، كان لانضباط أعضاء الحزب أولية قصوى لحزب البعث بغض النظر عن حالة ووضع العضو الحزبية. كانت الملفات موضوع بحث هذا الكتاب تضم مئات الحالات من العقوبات الإدارية التي وقعت على أعضاء بالحزب ومختلف المسؤولين الحكوميين على أفعال وأعمال مثل عدم قياس مدى دقة صياغة الاستمارات المقدمة إلى الفروع، أو عدم المشاركة في الاجتماعات الحزبية أو الحملات التي يقوم بها الحزب، ومجموعة أخرى كبيرة من الأنشطة والأعمال والتي بدت غير مقبولة[1]. ورغم ذلك، فإن بعض ممن كانوا بالحزب الذين كانوا قد عوقبوا عمدوا بعد ذلك إلى تعويض وإصلاح مواقفهم وحققوا أنجازات حزبية وأعمالا أكثر أهمية للحزب؛ فعلى سبيل المثال، في عام ١٩٧٨ كان محمد سعيد الصحاف قد عوقب بتجميد عضويته الحزبية لمد عام، وذلك لفشله في تقوية استقبال محطة إذاعة صوت العراق حتى يمكن سماعها في جميع أرجاء بلاد العالم العربي[2]. وبعد زمن، على أي حال، اجتهد حزبيا حتى أصبح وزيرا للثقافة وأصبح صوت النظام قبل وبعد

---

(١) من بين تلك الملفات، انظر المذكرة الخاصة بتغيير المخاتير، ١٣ ديسمبر ١٩٩٤، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٥ ـ ٤ ـ ٢ (٠١١)؛ إجراءات إدارية في مركز وثائق شمال العراق، الحزب الديمقراطي الكردستاني ٠٢٠، صندوق ٢٢١٥؛ القيادة القطرية لحزب البعث صندوق ٠٠١ ـ ٣ ـ ٦ (٠٠٦). لعرض شيق عن العقوبات لرجل عسكري وطبيب، وكلاهما بعثي، انظر ستيفنسون: «وزن حبة خردل»، صفحات ٤٧ ـ ٥٧.

(٢) من أمانة سر الحزب إلى الإدارة المناطقية: «عقوبة حزبية»، ١٥ فبراير ١٩٧٩، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ١ ـ ١ (٢٧٣).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

غزو العراق في عام ٢٠٠٣. وفي الحقيقة، كان صدام حسين يستخدم تلك الاستراتيجية في معاقبة أعضاء الحزب بالاستبعاد وكذلك جنرالات الجيش وحبس المزايا والفوائد التي كانوا يتمتعون بها لفترة ثم يعيدهم لما كانوا عليه بعد انتهاء العقوبة، بل كان أحياناً يعيدهم لمراكز أعلى، كوسيلة وأداة من أدوات الهيمنة والسيطرة.

كانت سياسة العصا والجزرة التي يطبقها الحزب تتبدى في أجلى صورها في القبول أو عدم القبول في الأكاديميات العسكرية والشرطية؛ فمن جهة، كان تقديم مكان بتلك المعاهد يعد مكافأة عظيمة لأصدقاء النظام، بينما من جهة أخرى، كان رفض المتقدم يعد عقابا لخصوم النظام ومعارضيه. تلك الوسيلة من العصا والمكافأة ظلت جوهر سياسة النظام حتى آخر لحظاته. كان أيضاً السماح أو عدم السماح للطلاب أو المواطنين بالسفر للخارج من الأمثلة الأخرى للازدواجية السياسية التي يمارسها النظام تجاه الموالين والمعارضين له[١]. كما كانت الوظائف من الجوانب الأخرى للعقاب والمكافأة: فأصدقاء النظام كانوا يكافأون بأفضل الوظائف المتاحة، بينما كان أعداء النظام يرفضون ويفصلون، وبستبعدون، أو يحال دونهم ودون الترقي أو الانتقال لأماكن أفضل[٢].

كانت عقوبات أخرى قاسية جداً توقع على من يفرون ويتهربون من أداء الخدمة العسكرية، خاصة من بداية عام ١٩٨٠ وما تلاه (انظر

---

(١) لقائمة عن كبار المسؤولين الحكوميين الذين منعوا من السفر لمدة عامين، انظر: من مجلس قيادة الثورة إلى وزارة الداخلية: «منع سفر»، ١٢ يناير ١٩٨٢، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ٣ ـ ٢ (١٧٥).

(٢) انظر على سبيل المثال، تعيين المعلمين وفصلهم، في القيادة القطرية لحزب البعث وعرض بدلاء ليحلوا محل المفصولين عن الخدمة، في القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠١ ـ ٥ ـ ١.

للفصل الخامس). لم تكن سياسة العصا تطبق فقط على المتهربين من أداء الخدمة العسكرية أو أولئك الذين يكشفون عن عدائهم للنظام بجلاء؛ فقد كان كبار المسؤولين الذين لا يتعاونون بالشكل الكافي يواجهون صعوبات جمة في الحصول على ترقيات أو الانتقال لمواقع أفضل. من بين الوثائق مذكرة من إدارة الأمن عن رؤساء الأقسام في الوزارات الحكومية والهيئات الحكومية الكبرى في شمال العراق تحتوي على توصيات بغلق باب الترقية، أو استبعاد أحد ما، أو حتى الفصل فصلاً نهائياً لعدد من كبار الموظفين لرفضهم التعاون مع المؤسسات الأمنية؛ أو لوجود قريب لهم له علاقة بواحد من الحزبين الأكراد أو قريب له فر من البلاد؛ أو قريب أظهر تعاطفا مع الحركة الكردية[١].

وانتقل النظام بسرعة إلى سحب كل الشارات والمكافآت من الأفراد الذين تبين أنهم لم يظلوا على القدر الكافي من الولاء أو التوافق. فعلى سبيل المثال، صدر قانون من قبل مجلس قيادة الثورة في منتصف عقد التسعينيات يقر أن الديوان الرئاسي له الحق في سحب أي شارة بسبب أي «جريمة تتعلق بالشرف»، مثل الاغتصاب، ودون تقديم مزيد من التفصيلات[٢]. وبالمثل، كان لدى الرئيس صلاحية سحب عضوية أي فرد من الحزب، بما فيهم من تلقوا مكافآت ومزايا سابقة. وقد لا يدهشنا، أن كثير من تلك العقوبات كانت اعتباطية وعشوائية أو كان دافعها ببساطة انزعاج موظف كبير من شخص ما. فمثلا، اعتقل رجل وصودرت سيارته لمدة شهر حين كان يقودها في مدينة تكريت بناء على

---

(١) دائرة الأمن: «قائمة بأسماء رؤساء الأقسام والمعلومات الأمنية»، ١٩٩٠ (لا يوجد تاريخ محدد)، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٣٠، صندوق ١٤٩.

(٢) مجلس قيادة الثورة: «قرار»، ٢٨ فبراير ١٩٩٦، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٤ ـ ٥ ـ ٤.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أمر من الرئيس، ولم تذكر أي تفاصيل عن الجريمة التي ارتكبها[1]. ومرة أخرى، خلق افتقاد الجلاء والوضوح وازدواجية المعايير جوا من الخوف والرعب وقلق من مقاومة النظام.

المقاومة

مقاومة الطغيان تحت ظروف اي نظام مستبد عملية محفوفة بالمخاطر الحتمية. عبرت المقاومة عن نفسها بوسائل عديدة؛ وكما صاغها فاكلاف هافيل، فإن كل شيء يشعر النظام أنه «يشكل تهديدا له... يعني في الحقيقة أن كل شيء يمثل تهديدا»[2]. كثير من العراقيين لم يقبلوا بنظام حكم حزب البعث؛ والبعض منهم كانت «المقاومة تتمثل بداية وبشكل مبدئي في عدم الانصياع للأوامر والتي لا تهدف بالطبع للإطاحة بالنظام القائم»[3]. أما بالنسبة لآخرين، فكانت المقاومة أكثر إيجابية، سواء بتجنب أداء الخدمة العسكرية، وعدم الانصياع لأوامر الحزب ونواهيه، ورفض إنكار وإدانة الزملاء أو أفراد من العائلة، كما كانت المقاومة بالنسبة لبعض المسؤولين الحكوميين تتبدى برفض الانصياع للمذكرات التي يرسلها الأمن ويطلب فيها معلومات عن العاملين تحت رئاسة أولئك المسؤولين ـ وكلها أفعال ترتبت عليها تداعيات خطيرة تراوحت من السجن إلى بتر عضو من أعضاء الجسم تحت وطأة التعذيب. وتتصاعد العقوبات حتى الإعدام. وانخرطت نسبة قليلة في مقاومة أكثر تنظيما، من خلال أحزاب سياسية مثل حزب

---

(١) من السائق أ. إلى جهاز الأمن الخاص: «طلب»، ٢٩ مارس ١٩٩٤، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠١ ـ ٣ ـ ١ (٠٥١).

(٢) هافيل: «قوة من لا قوة لهم»، صفحة ٥٤.

(٣) ويدن: «غموض الهيمنة»، صفحة ٨٧.

الدعوة أو الحزب الشيوعي، وساهموا في انتفاضة عام ١٩٩١ أو التحقوا بالأحزاب السياسية الكردية[١]. وفي حالة اعتقال أي فرد من تلك المعارضة، لم يكن هناك أي قدر من الرحمة لهم ولا لعائلاتهم الممتدة؛ ويظلون هم وعائلاتهم يعانون لأزمان طويلة بعد ذلك.

وحتى لو افترضنا أن السلطة قد اعتقلت كثير من الأبرياء وأن أعدادا كبيرة من الناس كانوا يتهمون زورا بالقيام بأنشطة تخريبية، تبقى حقيقة أن عدد أولئك الذين انخرطوا في مناهضة النظام، بطريقة أو بأخرى، كان مازال عددا يعتد به. وعلى أي حال، يجب على المرء ألا يخلط بين المقاومة في العراق وكثير من حركات المقاومة المدنية التي عمت العالم أجمع بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. كانت الأحوال مختلفة جداً في العراق عن تلك الأحوال التي كانت سائدة بدول أوروبا الشرقية قبل سقوط الشيوعية، أو في الدول الأخرى التي عانت من نظم مستبدة. وعلى الرغم من أن كثير من تلك الحكومات كانت لا تقل قسوة، مثل شيلي تحت حكم بينوشيه، كانت التبعات في العراق التي تترتب على المشاركة في أي مقاومة مدنية تصل إلى أبعد مدى يمكن تخيله، كما تبين من انتفاضة ١٩٩١ في شمال العراق، حين استخدمت المدرعات والمروحيات العسكرية لسحق حركة معارضة مدنية محلية[٢]. غير أنه من المهم أن نبرز أن كل العراقيين لم يكونوا متوافقين مع حزب البعث أو كانوا مشاركون بإيجابية في أنشطته وتوجهاته، وكثير من الذين أطاعوا

---

(١) لشرح نظري وعام عن الأشكال المختلفة للمقاومة، انظر جيمس سي سكوت: «الهيمنة وفنون المقاومة: نصوص خفية»، (نيو هافن، سي تي: مطبوعات جامعة ييل، ١٩٩٠).

(٢) لعرض عام للمقاومة المدنية، انظر آدم روبرتس وتيموثي جارتون آش (محررون): المقاومة المدنية والسلطة السياسية: تجربة الفعاليات السلمية من غاندي حتى الحاضر (مطبوعات جامعة أكسفورد، ٢٠٠٩).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قوانينه المتباينة المتعسفة والمستبدة لم يكونوا يتبنون تلك القوانين في حياتهم الشخصية[1]. ومن المستحيل أن نتوصل إلى تحديد كمي على سبيل المثال لأعداد الناس الذين انضموا لحزب البعث ـ كما يصعب بالفعل تحديد أعداد حقيقية للمؤمنين بالحزب النازي في عهد هتلر بألمانيا أو بالحزب الشبوعي في عهد ستالين في الاتحاد السوفييتي ـ بسبب الخوف أو بسبب التطلعات أكثر من كونهم مؤمنون بأيديولوجية حزب البعث ذاتها[2].

تحت أي نظام ديكتاتوري، فإن أشد ألوان المعارضة فاعلية وتأثيراً هو اغتيال الديكتاتور ذاته. وكما رأينا، وقعت محاولات عديدة لاغتيال صدام حسين، بعض تلك المحاولات موثق، بينما وقعت محاولات أخرى غير موثقة، وهناك أيضاً محاولات ملفقة من قبل النظام للتخلص من معارضين معينين. ويسجل التكريتي في كتابه سبع محاولات محددة وقعت كلها قرب نهاية عقد السبعينيات[3]، كما كان هناك على الأقل ستة محاولات أخرى في عقدي الثمانينيات والتسعينيات وقعت من قبل ضباط بالجيش، ومن أعضاء بحزب الدعوة، وآخرين[4].

وباستثناء التمرد الكردي الذي امتص كل طاقة اهتمام وتركيز النظام على مدى أعوام كثيرة، كانت الجماعتان السياسيتان الأخريان اللتان انتوى حزب البعث اقتلاعهما من جذورهما هما الحزب الشيوعي

---

(١) فرّقت ودين بحق بين الانصياع والطاعة، المصدر السابق، صفحة ١٧٤ (تزييل رقم ١٧).

(٢) نقل أوفيري قصة معلم انضم للحزب النازي قائلاً أن عدم الحصول على العضوية سيكون «عرضا زائفا للبطولة، والذي لن يخرج عن كونه أحد أشكال الانتحار»، انظر أوفيري: «الديكتاتوريون»، صفحة ٣٠٤.

(٣) برزان التكريتي: «محاولة اغتيال الرئيس».

(٤) للمقارنة بين محاولات اغتيال كل من هتلر وستالين، انظر أوفيري: «الديكتاتوريون»، صفحات ٣٢٦ ـ ٣٣٠.

وحزب الدعوة. كان حزب البعث يرى أن الحزب الشيوعي يشكل أكبر تهديد له، خاصة طوال عقد السبعينيات وبدايات عقد الثمانينيات، فقد كان صدام حسين قلقا من أن حزب البعث ينقصه العمق الفكري الذي يميز الحزب الشيوعي. وعلى أغلب امتداد الفترة الزمنية التي يتناولها هذا الكتاب، تعقب النظام أعضاء الحزب الشيوعي وعائلاتهم وكان يخشى من تسرب وتغلغل الشيوعية بين ضباط الجيش[١]. التحدي الأكثر خطورة، بدأ من عقد الثمانينيات واستمر حتى سقوط النظام، وكان مصدره حزب الدعوة والجماعات الدينية الأخرى. وكلاهما لابد من رؤيته من خلال مفهوم صعود نجم آية الله خميني وحرب الأعوام الثمانية بين إيران والعراق.

وعلى الرغم من أن صدام حسين وازن تأثير الأحزاب الدينية بحملة إيمانية مضادة، إلا أن النظام ظل يرى في تلك الجماعات خطراً حقيقيا يهدد قاعدته وشعبيته الجماهيرية، وتقدم الوثائق رؤية مدهشة للمخاوف التي كانت تنتاب حزب البعث ونظام حكمه من أنشطة الجماعات الدينية، بالرغم من الحملة الإيمانية التي أطلقها النظام، وكذلك التشكك الذي كان يوليه النظام لأي شخص له معتقدات دينية قوية. وتلقت المؤسسات الأمنية تعليمات لمنع «انتشار ونشر صور أئمة الدين»، وإبلاغ أصحاب شركات الطباعة بمنع إعادة طبع تلك الصور[٢].

---

(١) الأمن: «دراسة: الحزب الشيوعي العراقي والقوات المسلحة»، ١١ نوفمبر ١٩٨٧، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠١٧، صندوق ٠٧١. بالنسبة لتحالف الحزب الشيوعي مع حزب البعث والذي تلاه انقلاب حزب البعث على الحزب الشيوعي، انظر إسماعيل: «الصعود والانهيار»، صفحات ١٦٦ ـ ٢٠٣.

(٢) من الديوان الرئاسي إلى إدارات الأمن، ٢٦ نوفمبر ١٩٨٨، وزعت المذكرة على كل المؤسسات الأمنية المحلية، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠١١، صندوق ٠٤٥.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وراقبت أقسام الأمن السياسي في أجهزة الأمن المساجد وصلوات أيام الجمع وكانت تكتب تقارير دورية عن كل من الحركات الدينية الكبرى والصغرى في العراق، وعن الحركات الدينية خارج العراق التي يمكن أن تؤثر على العراقيين[١]. كان حزب البعث قد قام فعلاً في أواخر عقد السبعينيات باعتقال كبار رجال الدين الشيعة، وتم إعدام كثير من قيادات الشيعة الدينية البارزة، وبلغت تلك الموجة من اغتيالات كبار رجال الطائفة الشيعية قمتها باغتيال آية الله محمد باقر الصدر (ابن عم والد مقتدى الصدر) وشقيقته بنت الهدى في شهر أبريل عام ١٩٨٠[٢].

كانت الاحتفالات الدينية والمراسم التي تتم في شهر محرم وهو الشهر الأول في التقويم الإسلامي الهجري خاصة في جنوب العراق ممنوعة من قبل المؤسسات الأمنية لأنها كانت تجذب حشودا كبيرة يصعب السيطرة عليها في حال تجمعها كما يصعب منع من يتسللون إلى داخلها[٣].. وفي المناسبات التي كان يعرف فيها موعد محاكمة نشطاء من الشيعة، كانت تتجمع حشود قليلة خارج مبنى المحكمة لإبداء التأييد والدعم للمتهمين، وعند دفن من يعدم منهم، وبمجرد تسليم الجثث لذويهم، كانت تقع أكبر مظاهر الفوضى الخطيرة. وباستثناء الظروف غير الاعتيادية، لم تمنع السلطة عائلات النشطاء من دفن أبنائهم المحبوبين بأنفسهم، ولكنهم كانوا يقلقون من العزاء، موقنين أن ذلك قد يتطور إلى صدامات كبرى، خاصة لو كانت الجثة قد نقلت إلى

---

(١) المصدر السابق.

(٢) لمزيد من التفاصيل، انظر دافيس: «ذكريات دولة»، صفحات ١٩٠ ـ ١٩١.

(٣) من أمانة سر الحزب إلى أمناء سر الفروع في الحزب: «ممارسات دينية»، ٢٩ مارس ١٩٩٧، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ٢ ـ ٦ (٣٥٠ ـ ٣٥١). انظر مزيد من التفاصيل في الفصل التالي.

النجف لدفنها هناك. ومرة بعد أخرى كانت السلطة تمنع إجراءات ومراسم العزاء التي نتج عنها قبل ذلك صدامات كثيرة. وبالمثل، كانت السلطة ترى أن فترة الحزن والحداد التي تلي الدفن من الممكن أن تشكل تهديدا كبيراً، حيث يأتي كثير من الناس لتعزية العائلة التي نكبت بموت أحد أبنائها على يد السلطة[1]. ولكن من الخطأ افتراض أن النظام كان يشعر بالتهديد من الشيعة فقط؛ ففي الواقع، كان النظام يشعر بالقلق من أي نشاط ديني. وفي هذا الصدد كانت هناك الحركة الوهابية، والتي كانت ترى على أنها خطر محتمل، وظل الحزب والمؤسسات الأمنية يراقبان عن كثب على الدوام مؤيدي الحركة الوهابية وقاعدتها الجماهيرية[2].

كان معارضو النظام يواجهون مضايقات وتحرشات مستمرة من السلطة، وكانت قيادة حزب البعث تطالب مراراً وتكراراً بـ «زيادة الضغوط لتعظيم المضايقات حيثما وجد معارضون»، وشملت زيادة

---

(١) الحديدي: «قبضة الهدى»، صفحات ١٣٤ ـ ١٣٥. يحتوي الكتاب على تفاصيل كثيرة عن الاعتقالات، والاستجواب، وإعدام مشاهير النشطاء الشيعة. ومن رأي الحديدي أنه كانت هناك أربعة أركان رئيسة في نضال الشيعة ضد نظام البعث: إعدام خمسة من النشطاء البارزين، ومنهم حسين جلوخان، وهو الموضوع الرئيس لكتاب الحديدي؛ وتمرد الشيعة في كربلاء والنجف عام ١٩٧٧؛ والمظاهرات الكبرى والإضرابات في عام ١٩٧٧؛ وأخيراً انتفاضة عام ١٩٩١ الكبرى. انظر صفحة ٤١. لنظرة أوسع وأشمل، انظر علي، : «سنوات الجمر» والذي يتعلق بتاريخ الحركة الإسلامية في العراق.

(٢) من أمانة سر الحزب إلى كل سكرتيري فروع الحزب: «مراقبة الوهابيون ودراسة الحركة الوهابية»، ٢٨ فبراير ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ٢ ـ ٦ (٣٥٧؛٦١٦ ـ ٦١٨). مذكرة حزبية تقول أنه يجب مقاتلة الوهابية بكل شراسة. انظر من أمانة سر الحزب إلى سكرتيري التنظيمات، ٥ سبتمبر ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ٢ ـ ٦ (٥٢٨).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الضغوط الاعتقال، ونصب الكمائن، والاغتيالات[1]. كان العنف الذي تمارسه أجهزة النظام والخوف الذي بثته في أرجاء المجتمع لا يجعل من السهل على أي جماعة معارضة أن تنمو في ارتياح. فضلاً عن ذلك، فإن أي «تنظيم سري في دولة واقعة تحت نير الديكتاتورية يظل على الدوام غارقا بحالة من النضال الأعمى واليائس ضد اختراق الأمن لصفوفه»[2]. لم تكن المقاومة السياسية نشطة بالضرورة؛ في العراق، آلاف اعتقلوا وعذبوا لمجرد إيوائهم لنشطاء أو متمردين، في كل من الجنوب والشمال. وقدمت المؤسسات الأمنية مثالا وعبرة لأي أحد يعتقل بسبب معاونته أو إيوائه لمعارض سياسي أو متهرب من الخدمة العسكرية، وتقدم الملفات أمثلة عديدة على ذلك[3].

كان التهرب من أداء الخدمة العسكرية يعد دون أي شك نوعا من المقاومة، المباشرة أو غير المباشرة. كل المتهربين كانوا يدركون التبعات الشديدة والقاسية المترتبة على تهربهم في حال اعتقالهم، كما كانوا يدركون أن عائلاتهم سوف تعاني هي الأخرى جراء تهربهم. ورغم ذلك تهرب المئات من الشباب قبل أو أثناء أدائهم للخدمة العسكرية، وعلى الرغم من أنه من المستحيل على وجه التقريب معرفة دوافعهم، تظل

---

(١) من أمانة سر الحزب للسكرتاريات الفرعية للحزب: «عمليات أمنية»، ٥ أغسطس ١٩٩٥، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٨ ـ ٤ ـ ٦ (١١٤ ـ ١١٩). انظر أيضاً قائمة مثيرة من الأنشطة الأمنية على مدى شهر واحد فقط (سبتمبر ١٩٩٧) في منطقة واحدة (محافظة ميسان وواسط)، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٨ ـ ٤ ـ ٦ (٢٨٤).

(٢) سيلون: «الخبز والخمر»، صفحة ٢٦٠.

(٣) أحد الأمثلة نجده في تفاصيل اجتماع عقد في السليمانية في ٩ يناير ١٩٨٦ لمناقشة أوامر الرئيس حول مكافحة مقاومة النظام، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٣٥، صندوق ٢٠٠.

حقيقة أنهم يرفضون طاعة أوامر النظام وخاطروا بحياتهم وبحياة عائلاتهم[1].

وبالمثل، فإن أولئك الذين امتنعوا عن المساهمة والمشاركة في أنشطة الحزب، أو الأعضاء في المؤسسات الأمنية الذين كفوا عن الذهاب لعملهم، كانوا يعرفون تبعات تصرفاتهم ورغم ذلك اختاروا الامتناع[2]. كان الفرار من البلاد هربا من الخضوع للقبضة الحديدية للنظام لا يقدم عليه جنود الجيش وحدهم؛ بل أن كثيراً من المفكرين والفنانين فروا أيضاً لتجنب تعرضهم للإجبار على المشاركة في ثقافة البعث المهيمنة والمسيطرة. وبمجرد أن يصبحوا في منفاهم الاختياري، كان أولئك المفكرون ينتجون أبدع أعمالهم عن وطنهم الذي غادروه. ومن بين أولئك الذين بقوا بالعراق، أختارت قلة منهم أن تعبر عن مقاومتها بطرق ماهرة غير مباشرة دون أن يثيروا غضب ونقمة النظام عليهم[3].

---

(١) كان المتهربين من أداء الخدمة العسكرية ينتمون لمختلف الطبقات الاجتماعية: دلت إحدى القوائم على أن عامل نظافة، ومعلم، وموظف من المستوى الأوسط هربوا من أداء الخدمة في عام ١٩٨٨، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٩١، صندوق ٧١٠.

(٢) تحتوي الملفات على أمثلة كثيرة ومتعددة عن أعضاء بالحزب طردوا من عضوية الحزب لرفضهم القيام بالتكليفات أو لكونهم «غير موالين بما يكفي للحزب والثورة»، انظر على سبيل المثال، من أمانة سر الحزب إلى تنظيم بغداد، ٢٣ سبتمبر ١٩٨٤، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٦ ـ ٢ ـ ٢ (٣٢١). وحالات أخرى عرضت في الفصل الثاني. فيما يختص بمسؤولي جهاز الأمن الخاص الذين لا يذهبون للعمل ولا يستقيلون، انظر من الشؤون الإدارية والمالية إلى مدير قسم الأمن بجهاز الأمن الخاص، ١٨ نوفمبر ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠١ ـ ٥ ـ ٦ (٠١٨ ـ ٠١٩). أمثلة أخرى عن جهاز الأمن الخاص مذكورة في الفصل الرابع.

(٣) في مناقشة مستفيضة حول كيفية استجابة المفكرين العراقيين لنظام البعث، انظر دافيس: =

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أشكال أخرى من المقاومة ظهرت من عائلات المعتقلين أو من حكم عليهم بأحكام قاسية، فقد ظلوا يكتبون خطابات الإلتماسات لإعادة محاكمة ذويهم، ومنهم أولئك الأفراد الذين خاطروا بالاحتجاج على اساءة استعمال السلطة من قبل النظام أو سلوكيات كبار المسؤولين[1]. ومن الأنشطة الهدامة الأخرى كان نشر الشائعات والنكات عن النظام الحاكم، وكان كلاهما يقابل بمنتهى القسوة من النظام[2].

غير أن مقاومة نظام حكم صدام حسين، بكل أشكالها، لم تقدر على إزاحته ولا إزاحة حزبه عن السلطة. فقد كانت وسائله في السيطرة والهيمنة أشد اقتحاماً وأكثر حنكة وشمولاً من أساليب المعارضة، بما

=«ذكريات دولة»، صفحات ٢٠٠ ـ ٢٢٦، انظر أيضاً فاطمة المحسن: «الثقافة والشمولية»، في طبعة فران هازلتون: «العراق منذ حرب الخليج: آفاق الديمقراطية» (لندن زد، ١٩٩٤)، صفحات ١٣ ـ ١٩.

(١) مرة أخرى تزودنا الملفات بعينات كثيرة من تلك الرسائل والاعتراضات. انظر أحد الأمثلة وهو رسالة كتبتها زوجة عن زوجها المعتقل لوزارة الداخلية، والأمن، وجهاز الأمن الخاص. بعد خمسة أشهر، في ١١ يوليو ١٩٩٥، أبلغت بأن تلك الجهات «ليس لديها معلومات عن هذا الأمر»، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠٢ ـ ٤ ـ ٣ (٢٣١ ـ ٢٣٣).

(٢) على الرغم من أن الملفات تضم مئات من الشائعات، إلا أن النكات لم توثق. وبمجرد أن صدر قانون معاقبة التهجم على الرئاسة في منتصف عقد الثمانينيات، دلت بعض الملفات أن بعض الناس قد اعتقلوا بموجب ذلك القانون بسبب قلة احترامهم للرئاسة من خلال النكات التي يقولونها، غير أن تفاصيل قليلة مذكورة عن ذلك. وللمقارنة بسوريا، انظر ودين: «غموض الهيمنة»، صفحات ١٢٠ ـ ١٢٩. ولأمثلة عن الشائعات، انظر من أمانة سر الحزب إلى الديوان الرئاسي، ١٨ أكتوبر ١٩٩٧، القيادة القطرية لحزب البعث، ١٦٢ ـ ٢ ـ ٢ (٠١٩؛ ١٠٤؛ ٢٧٠؛ ٤٨٨). انظر أيضاً القيادة القطرية لحزب البعث، ١٤٨ ـ ٤ ـ ٥ (١٩٨ ـ ١٩٩).

فيها أقصى قدرة توفرت لأولئك الذين شاركوا في الانتفاضة الشعبية عام ١٩٩١. وفي الواقع المعاش، وكما كان يحدث في ظل النظم المماثلة في دول أخرى، قبلت الغالبية العظمى من الجماهير الهيمنة الطاغية للنظم التي خضعوا لها. أغلب العراقيون، مثلهم مثل الروس والرومانيين «استسلموا وتخلوا عن هويتهم الإنسانية مقابل هوية النظام»[١]. نجح نظام حزب البعث إلى حد كبير في إجبار الأغلبية من أفراد الشعب على ضبط وتوفيق قيمهم من أجل البقاء. ولخص طبيب نفسي عراقي ذلك بدقة قائلاً: «يفرض عليك أن تكذب بما يخالف مبادئك. وتجبر على قول ما لا تؤمن به وما لا تعتقده. لقد كان ذلك يشكل صراعاً عقلياً. فهذا النوع من التوتر والإحباط يدمر الأنا العليا لأي فرد ـ أعني أنك تجد نفسك عاجزاً عن تقرير أي شيء؛ فأنت موجه من النظام الحاكم، في تعليمك، وفي خدمتك العسكرية، بل في عملك ووظيفتك»[٢]. وعلى مستوى عملي أكثر، كانت الأغلبية تود بالكاد أن تساير ما يحدث لتواصل حياتها. وكما قال فنان روماني عن نظام حكم رومانيا الاستبدادي، «ما يريد أغلب الناس عمله تحت حكم ديكتاتوري أن يتناسوا ديكتاتورية النظام، ويكملوا مسيرة حياتهم ويحاولوا الاستمتاع بها»[٣].

---

(١) هافيل: «سلطة من لا سلطة لهم»، صفحة ٣٦.

(٢) ستيفنسون: «وزن حبة خردل»، صفحة ٨، نقلتها المؤلفة عن دكتور حسن القاضاني الذي عمل طبيباً نفسياً تحت سلطة نظام البعث.

(٣) مذكورة في ديليتانت: «شاوشيسكو والمنظمات الأمنية»، صفحة ١٦٧.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الثامن

البيروقراطية والحياة المدنية تحت حكم البعث

لفهم العلاقة المركبة والمعقدة بين حزب البعث والشعب، يحتاج المرء لفحص طريقة إدارة الاقتصاد في العراق؛ وأنشطة الاتحادات؛ والسياسة تجاه المرأة؛ والتركيز على الشباب، والطلاب، والأطفال؛ وأخيرا؛ التحولات السياسية من دولة علمانية إلى نظام يؤكد التزامه الديني. ولكن أولاً، من المهم أن نحلل كيف تفاعل الحزب مع بيروقراطية الدولة وعملية اتخاذ القرارات من قبل النظام الحاكم.

البيروقراطية وصناعة القرار

كان حزب البعث مصمما منذ بداية نشأته على أن يخلق «سلطة مركزية وطنية قوية»، وعلى عكس كثير من بلاد العالم الثالث حيث تكون السلطة الضعيفة «مخربة بسبب الانقسامات» مما يجعلها مهتزة وغير مؤثرة ولا فعالة[1]. نجحت قيادة حزب البعث، وعلى وجه التخصيص نجح صدام حسين في خلق بيروقراطية مركزية ضخمة على قمتها رئيس الدولة. وإلى

(١) حزب البعث، ثورة ١٧ تموز، صفحة ٤٩.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

جوار دوره الرئاسي، كان صدام حسين في الوقت ذاته رئيسا لمجلس قيادة الثورة، والأمين العام لحزب البعث، ورئيس الوزراء، والقائد العام للقوات المسلحة. ومثل أجهزته الأمنية البارعة، والتي اتسمت بتداخل وتشابك وظيفي في المسؤوليات بهدف تشتيت السلطة دون تركيزها بيد جهاز واحد، كان للبيروقراطية العراقية طبقات مؤسساتية متعددة: مثل الديوان الرئاسي، ومجلس قيادة الثورة، والحزب، ومجلس الوزراء، بوزاراته الكثيرة والمؤسسات والهيئات غير الحكومية. في جوهر ذلك التركيب كانت تكمن فكرة أن إدارة البلاد لا يمكن أن يقدر أحد على الإمساك بزمامها إلا الرئيس ـ أو حتى من بقدرته ـ حتى لا يتمكن أحد غيره من حيازة السلطة وجمع خيوطها بين يديه.

حين كان مازال نائبا للرئيس، بدأ صدام حسين في إنشاء «مكاتب استشارية» في مرحلة مبكرة من عام ١٩٦٩. وعلى الرغم من أن تلك المكاتب كانت تحت أمرة مجلس قيادة الثورة، إلا أنها كانت ترفع تقاريرها إليه مباشرة. وخلال عقد السبعينيات بأجمعه كان قد أصبح من الواضح لكل المعنيين أن تلك المكاتب والتي كان يفترض أنها مكاتب استشارية، بدأت في صناعة واتخاذ القرارات المتعلقة بالإدارة المدنية في مجالات مثل الزراعة، والاقتصاد، والعدالة والقوانين، والشؤون العربية، والشؤون الشمالية. وكان جواد هاشم مشاركا في كلا الجانبين، أولا كوزير ثم من بعد ذلك من خلال مكتب الاستشارات الاقتصادية، وهو يصف سير العملية بما يلي: «لقد تحولت مكاتب مجلس قيادة الثورة إلى أدوات فعّالة في استخدام أساليب العمل السري محل أساليب الإدارة العملية، وأدت في النهاية إلى ابتلاع الدولة، وزعزعة البروتوكول الرسمي، وتهديم البنيان التحتي للتسلسل الوظيفي»[١].

---

(١) هاشم: «مذكرات وزير عراقي»، صفحة ٢٥٥. انظر أيضاً تعليقات قدوري، الذي أدار=

وبعد أن أصبح رئيساً، بدأ صدام حسين بخلق دولة ظل داخل الدولة على شكل ديوان رئاسي، وبحلول عقد التسعينيات أصبح الديوان الرئاسي قلب ومركز السلطة[١]. كان الخبراء والمديرون في مجالات كثيرة ـ مثل الصحة، والاقتصاد، والزراعة، والثقافة، والتعليم، إلى آخر المجالات ـ يتمركزون في الديوان الرئاسي مع كثير من المرؤسين والموظفين يضعون التقارير التي كانت تتعارض في أحيان كثيرة مع ما كانت تنصح وتوصي به الوزارات الرسمية المختصة ذاتها من قرارات[٢]. كانت أقسام الديوان الرئاسي الكثيرة والمتعددة تمد الرئيس بالمعلومات عن مختلف الوزارات، وتنافس خبراء الديوان الرئاسي مع خبراء ومختصي الوزارات الرسمية، وهكذا ماعت سلطة الوزارات وضعفت[٣]. وتدل الوثائق على مدى اتساع وتعقد شبكة اتصالات الديوان الرئاسي في تحديد مسار كل قرار من شؤون وجوانب أمنية حتى مجال تحسين اللغة العربية[٤].

=المكتب الاقتصادي من ١٩٧٢ حتى ١٩٧٩، في: «هكذا عرفت البكر وصدام»، صفحات ١٠٧ ـ ١٠٩.

(١) في ألمانيا، كانت دولة الظل تتخذ شكل المستشارية. انظر أوفيري: «الديكتاتوريون»، صفحات ١٦٤ ـ ١٦٥.

(٢) انظر في الفصل السادس ما يختص بإقالة الوزراء بسبب الصراع بينهم وبين نظرائهم في ذات الاختصاصات في الديوان الرئاسي.

(٣) لمعرفة الرسم التنظيمي للديوان الرئاسي، كما كان في مارس ١٩٩١، انظر جماعة المسح العراقي: «الغرض الاستراتيجي للنظام»، الجزء ١. تمويل النظام والإنجاز، شكل ١، صفحة ١٣.

(٤) انظر، على سبيل المثال، قائمة ببعض المكاتب تابعة للديوان الرئاسي في القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠٤ ـ ٤ ـ ٦ (٠٢٢). اقترح مجلس قيادة الثورة انشاء قسم جديد في الديوان الرئاسي اسمه قسم رعاية اللغة العربية، ٢٥ أكتوبر ٢٠٠٠، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠١ ـ ١ ـ ٧ (١٠١).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالقرب من نهاية عقد التسعينيات، أصبح دفق المسار البيروقراطي يصب إلى أعلى في اتجاه الديوان الرئاسي. وأصبح سكرتير صدام حسين «عبد حميد محمود الخطاب الناصري» (الذي اشتهر باسم عبد حمود)، طبقا لتلك المسارات الجديدة، ثاني أقوى الشخصيات في العراق بعد صدام حسين مباشرة. كل تقارير الاستخبارات والأمن وكل مستجدات الوزارات كانت ترسل إليه، وكان هو من يقرر ما الذي يستحق أن يوضع تحت نظر صدام، ومن يقابل، وبرنامج صدام اليومي. وأخبرني من التقيت بهم من شخصيات عراقية أنه: «كان بإمكان عبد حمود أن يرفع شخص لعنان السماء أو أن يدمره كليا وكذلك أية خطة مقدمة من وزارة لو أراد ذلك. ومن بين قائمة الشخصيات المطلوبة والمرتبة حسب خطورتها التى أعدها الأمريكان بعد الغزو على هيئة أوراق لعب، كان عبد حمود رقم أربعة من بين تلك الشخصيات (بعد صدام حسين، وقصي، وعدي). وأدرك تشارلز دوفاير حين كان يفتش العراق بحثا عن أسلحة الدمار الشامل المزعومة، أن أفضل مصدر للمعلومات بالعراق هو عبد حمود وخصص وقتا كبيراً لاستجوابه بعد اعتقاله»[1].

في ذلك النظام الذي تم تطويره على ذلك النحو، انبثقت كثير من الأوامر من تعليمات الحرفية التي يصدرها صدام حسين لمساعديه، وهي وسيلة كان صدام حسين يفضلها كثيراً لدواعي أمنية، وهي ذات الوسيلة أيضاً التي أضافت مزيدا من القوة لمركز عبد حمود، فقد كان أغلب المساعدين لصدام يرجعون لعبد حمود لمزيد من الإيضاح والتأكد من نص تعليمات صدام. وكما رأينا، كانت كثير من القواعد والنظم

(١) دولفير: «لعبة الاستخفاء»، صفحات ٣٦٣ ـ ٣٨٤. وفي دستة أوراق اللعب التي مثلت فيها الشخصيات المطلوب اعتقالها طبقا للأهمية كان عبد حمود الورقة الرابعة.

ترتكز ببساطة على أوامر رئاسية مع شح النقاش وغياب المشاورة. ومن خلال الشرائط الصوتية المسجلة يمكننا تبين كيف كان نظام الأوامر المباشرة يعمل؛ وقد وصفه طارق عزيز في اجتماع تلى فرار حسين كامل إلى الأردن موجها الحديث إلى صدام حسين قائلاً:

على مدى عشرين عاماً، جعلت الأمر واضحا لنا من أنه لو تلقينا أي أمر منك ووجدنا فيه موضعاً لاعتراض، فيمكننا مناقشته ونقدم لك آراءنا والحقائق المتعلقة بذلك الأمر. ولو اقتنعت، فهذا جيد، ولكن لو لم تقتنع، فإن الأمر يبقى نافذا..... نحن جميعاً هنا لمعاونتك.... حين تصدر أمرا لهم [لمساعديك]، فإن عليهم تنفيذه.... صحيح أنه من الصعب الاتصال مع الرئيس، خاصة في الأعوام القليلة الماضية لدواعي الأمن، ولكن بامكاننا كتابة ملاحظات لعبد [حمود] لتوصيلها للرئيس[1].

وقال صدام حسين أن النظام لا يعمل بالكفاءة المطلوبة، فقد كان الوزراء مشوشين ومرتبكين فيما يختص بتنفيذ الأوامر التي كانت تصدر دون تفاصيل. وبعد مأساة فرار كامل، وعد بأنه سوف يفرق بوضوح وجلاء بين الأوامر التي تهدف إلى «تعليم الوزراء وأعضاء مجلس قيادة الثورة»، وتلك التي «لابد من تنفيذها حرفيا»[2]. ومن المثير أن نعرف أن حسين كامل استغل ذلك النظام بمداومته على أمر كبار المسؤولين بتنفيذ أشياء تصب في مصلحته الخاصة بادعاء أن الرئيس هو من أصدر

---

(١) تسجيل صوتي مدهش بين صدام حسين وكبار قادة الحزب والوزراء بعدما فر حسين كامل إلى الأردن مما أظهر كيف أن جهاز الدولة يعمل ببضعة أوامر مكتوبة. وفي موضع ما، ادعى طارق عزيز أنه الوحيد الذي لم يول حسين كامل ثقته الكاملة، وأنه كان يلجأ على الدوام لعبد حمود لاستيضاح الأوامر، أغسطس ١٩٩٥، مركز سجلات أبحاث الصراع.

(٢) التعليم كمضاد لتنفيذ الأوامر تمت مناقشته أكثر من مرة في اجتماعات مجلس قيادة الثورة. انظر، على سبيل المثال، مركز سجلات أبحاث الصراع.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تلك الأوامر. لم يكن هناك أدنى شك أن أوامر صدام حسين لابد من تنفيذها حرفيا؛ في أحد اجتماعات القيادة بعد وقف إطلاق النار مع إيران (والذي اعتبره صدام انتصارا)، أعلن صدام حسين بابتهاج شديد أنه شيء عظيم

«أننا [أنا] امرنا شعب العراق أن يحتفل ويبتهج. يحتاج شعب العراق لمن يخبره بذلك»[١].

كان مجلس قيادة الثورة هو الجهة التي تعطي الأوامر لمجلس الوزراء ببيروقراطيته المعهودة. وبعد أن أصبح رئيسا، جعلها صدام حسين واضحة بجلاء من أن مسؤولية كل وزير هي: «تلقي التوجيهات من مجلس قيادة الثورة ومتابعة تنفيذها مع مرؤسيه من الموظفين الأدنى في وزارته حتى يتم تنفيذها في الوقت المحدد»[٢]. وأخبر الوزراء أن كتابة عبارة «للتنفيذ» على هامش أوراق أوامر مجلس قيادة الثورة ليس مقبولا وأنه سيعتبر أن كل وزير مسؤول شخصيا عن مجمل أداء وزارته[٣]. وكان ذلك بمثابة مرآة لتركيب السلطة في سوريا، حيث كانت بيروقراطية الوزارات تعد «هيئة سلطوية صغرى»[٤]. في إرشادات أخرى، أبلغ كل الوزراء أن عليهم أداء مهامهم لا في الوقت المحدد فقط بل بطريقة اقتصادية فعالة، وهو تكتيك زاد من التنافسية بين مختلف الأقسام[٥]. كان مجلس قيادة الثورة في جوهره الذراع التنفيذية

---

(١) شريط صوتي مسجل لاجتماع في أغسطس ١٩٨٨، مركز سجلات أبحاث الصراع.

(٢) صدام حسين في مناقشة مع مجلس الوزراء، ٣١ يوليو ١٩٧٩، في «المخابرات»، الجزء ٧، صفحة ٥٤.

(٣) المصدر السابق، صفحات ٥٥ ـ ٥٧.

(٤) هينبوش: «السلطة الاستبدادية وتكوين الدولة»، صفحة ١٩٠.

(٥) من الديوان الرئاسي إلى كل الوزراء: «إرشاد»، ٣ مايو ١٩٨٩، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠١٣، صندوق وثائق ٠٥٢ (٠٢٠٠٢٦).

للحكومة ولا يكتفي بتوجيه البيروقراطية فقط، بل كان يصدر القوانين أيضاً. في بداية عام ٢٠٠١، كان مجلس قيادة الثورة يتألف من عشرة أعضاء[١]، وكان بيد صدام حسين سلطة استبدالهم جميعاً بأمر أو مرسوم منه. وعلى مدى أغلب الفترة التي نخضعها للدراسة كان الرباعي (المكون من عزة ابراهيم الدوري، وطه ياسين رمضان، وطارق عزيز، وعلي حسن المجيد) جزءاً من مجلس قيادة الثورة. وكان كل الأربعة برفقة صدام حسين من بداية حياته السياسية وبقوا معه حتى النهاية المريرة. لم يمثل أي واحد منهم خطراً على صدام: فالمجيد كان قريباً له، وطارق عزيز كان مسيحيا، ورمضان كان نصف كردي، والدوري لم تكن له قاعدة سلطة يعتد بها، وفي واقع الأمر كان الأربعة يدينون بمراكزهم العليا لاستمرار حكم قائدهم. وبتكامل كبار قادة القيادة القطرية للحزب مع مجلس قيادة الثورة، كونا معا أقوى هيئة تنفيذية في البلاد.

وبعد غزو العراق في عام ٢٠٠٣، ادعى من اعتقلوا من أعضاء مجلس قيادة الثورة أن صدام حسين كان هو الذي يتخذ كل القرارات باسم مجلس قيادة الثورة بعد أن فوض له المجلس تلك السلطات في عقد الثمانينيات، وأنه كان يدعو فقط لاجتماع مجلس قيادة الثورة. فضلاً عن ذلك، بعد عام ١٩٩٥ كان صدام حسين يصدر القرارات ويدعم مكتب الشؤون القانونية في الديوان الرئاسي يصيغ التفاصيل دون أن يشير إلى مجلس قيادة الثورة ولا إلى مجلس الوزراء. وقد أكد أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة أنه حتى لو كان هناك نقاش، كان من النادر أن يعترض أي أحد على وجهات نظر وآراء صدام حسين[٢]. وبالطبع،

---

(١) للاطلاع على قائمة كاملة للأعضاء في يناير ٢٠٠١، انظر باران: «حمى الاستبداد»، صفحة ٥٤.

(٢) جماعة المسح العراقي: النوايا الاستراتيجية للنظام، الجزء ١، صفحات ١٣ ـ ١٤.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم يكن الرئيس يتخذ جميع القرارات المتعلقة بالشؤون الداخلية من فراغ؛ فالديوان، والحزب، وبيروقراطية الدولة أيضاً كانوا جميعاً جزءاً من عملية صنع القرار. على أي حال، كان صدام حسين يعامل البلاد وكأنها إقطاعية شخصية وكان يود التأكد من أنه لا يمكن اتخاذ أي قرار دون الرجوع إليه ودون مباركته الكاملة. وعند التحدث عن تعيين الوزراء، قال لزملائه:

إن إطار العمل الذي نتبعه في مجلس قيادة الثورة هو أن نقول: نحتاج لوزير معين، وهنا أسال إخوتي:

هل هناك أي اقتراحات؟.... ونتناقش. ولكن الشخص الذي لا أعرفه لا أعينه وزيرا، إلا في حالات نادرة. حتى لو كانت كل القيادة وكل مجلس قيادة الثورة متوافقين على إسم شخص.... أقول لرفاقي، أنها مسؤوليتي حرفيا. لتعيين وزير، لابد أن أكون أعرفه... وأيضاً كرئيس، لابد أن أعرف وزرائي.

والوزير المهمل والمقصر، لابد أن أعرف أنه متقاعس ولا مبال[1].

وتكشف لنا الشرائط الصوتية المسجلة لاجتماعات القيادة العليا عن رؤية واضحة لكيفية إدارة البلاد. ومن الواضح أنه أثناء تلك الاجتماعات في عقد التسعينيات كان الرئيس على كامل راحته المطلقة، وكانت كثير من تلك المناقشات مليئة بالحكايات والطرائف والحكم التي يحكيها صدام كمعلم عن كثير من المواضيع. وصبغت الحالة المزاجية لصدام حسين تلك الاجتماعات بطابعها؛ فعلى سبيل المثال، كان يبدو مكتئبا ومغموما حين يناقش موضوع خيانة زوج ابنته، ويتحول إلى حالة من المرح والابتهاج حين يعلن الانتصار على الإيرانيين عام ١٩٨٨. في

---

(١) تسجيل صوتي للقيادات العليا، لا يوجد تاريخ محدد، ولكنه مؤرخ عموما بعد فرار حسين كامل في صيف ١٩٩٥، مركز سجلات أبحاث الصراع.

حالة الاكتئاب والغم كان يبدو أكثر ميلا للإنصات والاستماع، وينتظر الآخرون حتى ينتهوا من إبداء وجهة نظرهم وآرائهم، ولكن حين يكون مبتهجا يمزح ويلقي النكات ويداعب المجتمعين[١]. وفي منتصف جلسات الاجتماعات، كان صدام حسين كثيراً ما يأمر بتوزيع السيجار وتقديم الشاي لكل المجتمعين.

اقتفى العراق أثر النمط السائد في كثير من الدول في العالم العربي وما ماثلها من بلاد، بأجهزة خدمة مدنية متضخمة والتي أمدت النظام بوسيلة لـ «توزيع رعاية الدولة وخلق وظائف ظاهرية لاستيعاب المتخرجين الجدد من التعليم»[٢]. واستمرت بيروقراطية الدولة في التمدد طوال تلك المرحلة، باستثناء فترة قصيرة تلت الحرب الإيرانية ـ العراقية، حين لجأ النظام إلى سياسة الخصخصة (ارجع إلى شرح ذلك فيما يلي من هذا الفصل)، والتي أدت إلى بذل مجهود لمعادلة البيروقراطية بتشذيبها[٣]. وعلى أية حال، هيمن جهاز الحزب على بيروقراطية الدولة التي أصبحت عرضة للتدخل الدائم والمستمر من قبل الحزب[٤].

وبعد حرب الخليج الأولى، أنشأ صدام حسين لجانا حزبية أطلق عليها اسم «لجان الرقابة الشعبية» لمراقبة أعمال الوزارات. وشرح ذلك

---

(١) فيما يختص بالشريط الصوتي المسجل للاجتماع الذي عقد بعد فرار حسين كامل، انظر مركز سجلات أبحاث الصراع، وللاجتماع الذي عقد في أغسطس ١٩٨٨، انظر أيضاً مركز سجلات أبحاث الصراع.

(٢) صحيفة الإيكونومست: «الاستيقاظ من نومها»، تقرير خاص عن العالم العربي، ٢٥ يوليو ٢٠٠٩، صفحة ٩.

(٣) كيرين عزيز شودري: «في الطريق إلى التسوق: تحرير الاقتصاد وغزو العراق للكويت»، تقرير ميدل إيست، رقم ١٧٠ (مايو ـ يونيو ١٩٩١)، صفحة ١٧.

(٤) كان هذا يشبه كثيراً الموقف في البعث السوري، انظر ريموند هنيبوش: «الثورة السورية من أعلى»، طبعة بغلاف ورقي (لندن: روتلدج، ٢٠٠٢)، صفحات ٨٤ ـ ٨٥.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لكوادر الحزب العليا قائلاً أنه لا يريد أن «يحمل الحزب أعباء تفاصيل واجبات الدولة وشؤونها، ولكن تلك اللجان أسندت إليها تلك المهام، أي مراقبة ومتابعة أداء تلك الواجبات». وأضاف قائلاً «طالما تقوم لجان الحزب بأداء واجباتها، فإنها بذلك تقدم لنا كثيراً من العون. وعلى الرغم من أنها لا تماثل رقابة الشرطة، فإن كل من يرتكب أخطاء لابد أن يعرف تبعات وعواقب ما يرتكبه من أخطاء، وهي ظاهرة صحية»[1]. وتكونت لجان الحزب في غالبها من أعضاء منظمة المناضلين ـ وهم البعثيون المتقاعدون من ذوي الخبرات في بيروقراطية الدولة ـ والذين كان دورهم مراقبة أنشطة الحزب في كل وزارة والتيقن من أن كل كبار مسؤولي الوزارة يتبعون تعاليم الحزب وتوجهاته. كانت تلك اللجان عيون وآذان الحزب داخل قطاعات بيروقراطية أجهزة الدولة، لا على مستوى الجوانب السياسية والأمنية فقط. على سبيل المثال، أبلغت لجنة الحزب في وزارة التجارة أمانة سر الحزب أن موازنة تكوين شركة عامة جديدة لتجارة الحبوب والبذور مختلفة عما تم إعلانه ونشره لعامة الشعب، وأن لجنة داخلية من الوزارة كانت تنتقي المتعاقدين بالتعاقد المباشر دون إجراء مناقصة رسمية عامة[2]. كانت تلك اللجان أيضاً شبيهة باتحاد العاملين بالوزارة، والتي كانت تتلقى شكاوى العاملين من مظالم تعرضوا لها أو معاملة سيئة أو حرمانهم من ترقيات مستحقة. كانت تلك اللجان تبحث تلك الشكاوى وتقدم توصياتها إلى أمانة سر

---

(١) حديث من صدام حسين لكوادر الحزب أثناء احتفال أداء قسم الولاء للنظام، ٢٨ يونيو ١٩٩٩، مركز سجلات أبحاث الصراع.

(٢) من أمين سر تنظيم الحزب إلى أمانة سر الحزب: «مبنى جديد»، ٥ يوليو ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٤٢ ـ ٤ ـ ٦ (٠٧٣).

الحزب، وتقوم أمانة سر الحزب بمناقشة المشكلة مباشرة مع الوزير المختص أو مع وكلائه[١].

وفق المعدل المعتاد، كانت توجد ما بين عشرين إلى أربع وعشرين وزارة في كل تشكيل وزاري حكومي، غير أن العدد الكلي للجان الحزب كان أكبر كثيراً من عدد الوزارات على أفتراض أن الوزارات كانت لها إدارات فرعية في أغلب المحافظات. فعلى سبيل المثال، في داخل وزارة التعليم، وكان لها إدارات تعليمية بكل المحافظات العراقية، كانت هناك سبع عشرة لجنة إضافة للجنة مركزية في بغداد. فضلاً عن ذلك، تكونت لجان حزبية في كل شركات المرافق العامة وفي الوكالات شبه الحكومية، مثل مؤسسات الشباب والرياضة والبنك المركزي، وأيضاً في كل البلديات والمحليات[٢]. وفي مراجعة لتلك اللجان في عام ٢٠٠٠ ارتفع التخوف من حدوث صراعات محتملة على المصالح في حال كان أعضاء اللجنة في وزارة ما من العاملين السابقين بالوزارة ذاتها، والذين عليهم أن يفحصوا مشاكل وشكاوى العاملين وكبار المسؤولين وأن ذلك من الممكن أن يؤدي إلى «عدم القدرة على التوصل للحقيقة»[٣].

ولا يوجد أي شك في أن تلك اللجان خلقت طبقة أخرى في دهاليز البيروقراطية وأضافت لطاقتها المعوقة، وانعدام روح المبادرة، ومقاومة التغيير الذي يتغلغل دائماً في البيروقراطيات الكبرى في كل النظم

---

(١) عشرات الملفات في القيادة القطرية لحزب البعث تتعلق بتلك اللجان، وتكوينها، وملفات شخصية لأعضائها. انظر، على سبيل المثال، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٤٢ ـ ٤ ـ ٦؛ ٠٣٩ ـ ٥ ـ ٣؛ ٠٦٤ ـ ٥ ـ ٧.

(٢) القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٥٣ ـ ٣ ـ ٥.

(٣) من أمانة سر الحزب إلى الديوان الرئاسي، ١٣ أغسطس ٢٠٠٠، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٥٣ ـ ٣ ـ ٥ (١٩٥).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المستبدة. ومن اللافت للنظر، أن الرئيس كان واعيا بذلك المناخ السائد في الإدارات الحكومية وأصدر توجيها قال فيه أنه قد لاحظ أن «بعض المسؤولين في الجهاز الإداري لا يعبرون عن آرائهم ولا يقدمون مقترحات ولا يقومون إلا برفع الأمور التي تحتاج حلولها إلى سلطات أعلى»[1]. وعزى التوجيه الرئاسي ذلك إما لنقص المعرفة والدراية وعدم الرغبة في دراسة الأمور التي يرفعونها للسلطات الأعلى أو إلى عدم الثقة بقدراتهم الذاتية. وقد حدثت واقعة تصور كيفية هيمنة الحزب على الإدارات الحكومية، فقد هاجم الحزب بعنف وزارة الزراعة بما يؤكد هيمنة البعث على الوزارات، وقام بنزع أهم صلاحياتها وأسندها إلى جهاز موازٍ يسمى مؤسسة الدولة لاستصلاح التربة والأراضي[2].

ويدل تفحص الوثائق على أن المذكرات المرسلة من إدارات الدولة أو من الديوان الرئاسي كانت تستنسخ أحياناً لعديد من الوكالات والهيئات الحكومية مع عديد من الإحالات حتى أن العناوين التي تحال إليها المذكرات كانت تملأ صفحتين، مما يعكس مدى تعقد متاهات البيروقراطية العراقية. على سبيل المثال، أرسل توجيه بتكوين وكالة تجارية لا إلى كل الوزارات فقط بل أرسل أيضاً لتسعة عناوين أخرى، بما فيها القصر الرئاسي، وكل المؤسسات الأمنية، وأمانة سر الحزب، وإلى نصف دستة من الوكالات شبه الحكومية[3]. وعلى وجه التقريب كان كل قرار أو اقتراح يتطلب تكوين لجنة تضم أعدادا كبيرة جداً من

---

(١) من الديوان الرئاسي إلى كل الوزراء والإدارات الحكومية: «إرشاد»، ١١ مارس ١٩٨٧، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ٣ ـ ٧ (٠٤٢ ـ ٠٤٣).

(٢) روبرت سبرنجبورج: «البعثنة في التنفيذ: الزراعة، السياسة، والثقافة السياسية في سوريا والعراق»، دراسات شرق أوسطية، الجزء ١٧، رقم ٢ (أبريل ١٩٨١)، صفحة ٢٠٣.

(٣) الديوان الرئاسي: «توجيهات بإنشاء وكالة تجارية»، ١٢ نوفمبر ١٩٩٤، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق وثائق ٠٠٣ ـ ٣ ـ ٥ (٠١٣ ـ ٠١٤).

الأعضاء للتأكد من تغطية كافة جوانب القرار أو الاقتراح، غير أن ذلك أدى بالطبع إلى انعدام الكفاءة وقلة الإنجاز، وتأخر كبير في اتخاذ وتنفيذ القرارات[١].

في جوهر الأمر، كانت كل عظائم الأمور ـ وأحياناً أصاغرها ـ لابد من أن تصعد إلى الديوان الرئاسي في نهاية المطاف قبل اتخاذ أي قرار بات، ثم إلى الرئيس ذاته لاتخاذ القرار النهائي. فعلى سبيل المثال، قرارات السماح بالسفر للخارج لأعضاء الحزب لا يمكن إقرارها إلا بموافقة من الرئيس[٢]. وفي عام ١٩٩٠، قرر صدام حسين أنه لا يمكنه أن يفحص بنفسه كل عقوبة توقع على منتم للحزب وأن حالات أصحاب عضوية الحزب الكاملة هي التي يجب أن ترفع إليه[٣]. وبدورهم، أراد كل وزير أو رئيس هيئة أن يتيقن من أن كل مراسلة تصدر من مكتبه لابد من أن تكون تحت سيطرته هو شخصيا لا من أحد غيره تمثلا بالرئاسة[٤]. وبالتماثل مع حزب بعث سوريا، كان رؤساء

---

(١) في واحدة من المناسبات حيث كان من المطلوب طباعة إعلانات وملصقات لشرح أمور خاصة بالدفاع الوطني، شارك فيها ممثلون لكل الاتحادات، ووزارة التعليم العالي، والحزب، ومؤسسات حكومية أخرى عديدة. القيادة القطرية لحزب البعث، ٠١٤ ـ ٣ ـ ٣ (٠٠٥).

(٢) في ١٩٩١، وعلى ضوء الظروف المترتبة على غزو الكويت والانتفاضة الداخلية بالشمال والجنوب، تقرر أن أحد نواب صدام حسين يمكن أن يتولى أمر الموافقات على السفر. انظر من أمانة سر الحزب إلى تنظيمات الحزب: «قواعد السفر»، ٢٧ يوليو ١٩٩١، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٩١ ـ ٣ ـ ٥ (٠١٤).

(٣) من أمانة سر الحزب إلى جميع الجهات: «أمر»، ٧ يناير ١٩٩٠، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٢١ ـ ١ ـ ٤ (٠٠١).

(٤) انظر، على سبيل المثال، مذكرة كتبها مدير جهاز الأمن الخاص ينصح فيها رؤساء أقسام جهازه بأن كل المخاطبات الموجهة للرئيس أو للديوان الرئاسي لابد أن توقع منه شخصيا قبل إرسالها، ٢٧ يوليو ٢٠٠٠، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق وثائق ٠٠١ ـ ٣ ـ ٣ (٠٠٨).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أقسام الوزارات في الغالب «قد فقدوا عمليا كل كفاءة الأداء، وأصبح بعض الوزراء لا يسمح حتى لنوابه باتخاذ القرارات الروتينية»[١].

إلا أن صدام حسين آمن بكفاءة الإدارة، وعاد وكرر ما كان يقوله على الدوام من أن «نقص وغياب التنظيم الجيد هو الذي يكمن خلف كل فشل»[٢]. وركز اهتمامه على كثير من الشكاوى المرسلة من مواطنين عاديين إلى القصر الرئاسي ضد أجهزة الدولة والمسؤولين البيروقراطيين الذين يرفضون التعامل معهم أو الذين لا يريدون أن يخصصوا وقتا ومجهودا لحل مشاكلهم. وقام صدام بعزل أولئك المسؤولين ودعا كل المسؤولين للتواضع وإبداء الرقة كسلوك ملائم تجاه المواطنين[٣]. وكما ذكرنا من قبل، كانت شكاوى المواطنين من المصادر الهامة للمعلومات، وقدمت وسيلة إضافية لمراقبة التعقيدات البيروقراطية. كانت الشكاوى في النظم الشيوعية تعد إحدى الوسائل لكسب ولاء الجموع الجماهيرية كما كانت أيضاً وسيلة من وسائل قياس اتجاهات الرأي العام[٤].

وبسبب الخوف الدائم من التخريب، كان يسيطر على كل من صدام حسين وقيادة الحزب هاجس تركيز السلطة. وفي واقع الحياة، كانت السيطرة والهيمنة أكثر أهمية لهما من كفاءة الإدارة، مما كان يخلق مناخا

---

(١) فولكر بيرثيز: «الاقتصاد السياسي في سوريا تحت حكم الأسد»، طبعة بغلاف ورقي (لندن، آي بي تاورس، ١٩٩٧)، صفحة ١٤٣.

(٢) صدام حسين: «رجال ومدينة»، صفحة ٢٥٣.

(٣) من أمانة سر الحزب إلى كل رئاسات الأقسام: «إرشاد»، ١١ مايو ٢٠٠٠، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٤ ـ ٤ ـ ٣ (١١٤).

(٤) في موضوع شيق عن خلق ولاء جماهيري عن المصداقية في العالم الشيوعي، انظر مارتن ك. ديمتروف: «بناء الولاء: الولاء الاستبدادي في أوروبا الشيوعية والصين» (مخطوطة تحت الإكمال).

لا يثق فيه كبار المسؤولين بمرؤسيهم وموظفيهم في تنفيذ سياسات القيادة. وكانت النتيجة انقسامات غير محددة المعالم وتداخلا في العمل بين الحزب والسلطات الحكومية. وعلى الرغم من أنه من المفترض أن يقتصر دور الحزب على التوجيه والإشراف على الأداء الحكومي، ولكن الأمر انتهى بتدخل أعضاء الحزب في الأعمال الإدارية الروتينية. ومما يدهش أن نعرف قدر انشغال أعضاء الحزب بتفاصيل ودقائق أمور على كل المستويات الحكومية؛ وتظهر الملفات مراسلات خاصة بالآثار، والمدارس، والتخطيط الحضري، وتعريب المصطلحات، ونقل الملكية، ورسوم المدارس المالية. في كل حالة، كانت ترسل المذكرات للحصول على موافقة ما يزيد على دستة من المسؤولين، والذين كانوا يرفعونها بدورهم إلى أعلى الهرم لسلطات أكثر علوا[1]. ومن الواضح، أن تسييس ذلك الجيش البيروقراطي الإداري وأعضاء الحزب ذاتهم قد خلق طبقة إشرافية أخرى أعاقت أكثر وأكثر عملية صنع أي قرار.

في وصف الحياة في تشيكوسلوفاكيا، كإنما كان «هافيل» يصور أيضاً الحياة في العراق أثناء حكم نظام حزب البعث:

> **الحياة في مثل تلك الدولة تتخللها شبكة كثيفة ومعقدة من النظم والقوانين، وبلاغات وبيانات، وتوجيهات، وقيم وعادات، وأوامر وأحكام وقواعد. (وهو لا يسمى نظام بيروقراطي دون أسباب وجيهة). وجانب كبير من العادات يعمل كأدوات مباشرة في التركيب المعقد للحياة والتي تعد داخلية فيما يلي النظم الشمولية. يختزل فيه الأفراد لما هو أدنى من مكونات ثانوية في أليات هائلة واعتباريتهم محدودة بوظيفتهم في تلك الآلية الهائلة[2].**

---

(١) القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق وثائق ٠٠١ ـ ١ ـ ٧.

(٢) هافيل: «سلطة من لا سلطة لهم»، صفحات ٧٢ ـ ٧٣.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وهناك بضع نقاط تستحق التركيز عليه وإبرازها. الأولى، أنه لم تكن هناك أية نية أو قصد خلال كل الفترة موضع الدراسة من أن يحل البعث محل بيروقراطية الدولة، بادراك مدى وعمق تعقد دواليب العمل الحكومي. وفي الحقيقة، فإن البيروقراطية بكوادرها المدربة الخبيرة والموهوبة، أتاحت للبلاد أن تعبر وتتجاوز الكوارث التي صادفتها. «أتاحت السلطة البيروقراطية للناس أن تستمر في المشاركة في الحكومة، سواء بالعمل بها كموظف مدني أو التعامل معها كمواطن له شؤونه الخاصة»[1]. كان الحزب يرى على الدوام كمصدر للقيادة السياسية، وترى بيروقراطية الدولة كذراع ينفذ الأوامر والتوجيهات. والثانية: تغير انغماس الحزب في إدارة البلاد يوما بعد يوم مع مرور الزمن، لأن بيروقراطيته الخاصة تمددت بسرعة خلال عقدي الثمانينيات والتسعينيات. وحيث أن أعضاء الحزب ـ الذين كانوا أيضاً عمالا وموظفين يشغلون مراكز وظيفية متوسطة ـ نموا نمواً كبيراً، وتزايد اندثار وعدم وضوح الخط الفاصل بين الحزب والحكومة. والثالثة: بحلول منتصف عقد الثمانينيات تركز صنع القرار الحقيقي في الديوان الرئاسي، وتقلص دور كل هيئات الدولة لتصبح مجرد إدارة للمعلومات والمصادر.

إدارة اقتصاد البلاد

كان الاقتصاد مهما لصدام حسين، لأنه آمن أنه على الرغم من كون النظام دمويا في تعامله مع أعدائه، إلا أن الشعب يمكنه أن يتقبل حكم حزب البعث، و«يشعر بسعادة ورضى بسبب النمو والرخاء الاقتصادي»[2]. واعتمادا على مقابلات أجريت مع مسؤولين عراقيين

(١) فيلدمان: «حكم غزة»، صفحة ١٧.

(٢) صدام حسين: «المختارات»، المجلد ٣، صفحة ٨٦. وكان ذلك جانبا من لقاء حواري مع الصحافي ناصر الدين النشاشيبي في ١٩ يناير ١٩٨١.

كبار اعتقلوا بعد سقوط بغداد، «توصلت مجموعة المسح العراقي إلى أن الأمور المالية كانت ثالث الأوليات التي يوليها صدام عنايته الشخصية بعد الأمن والإدارة السياسية. في مناقشاته المالية رأى من يتعاملون معه أنه كان مهتما جداً بالتدفقات النقدية والمصروفات، لا بسياسة الدولة المالية من دخل وإنفاق وعوائد وديون ولا بالإدارة المالية على مستوى الدولة»[١].

أدرك حزب البعث أن الاستقلال الاقتصادي يجب أن يكون الهدف المركزي والمحوري للثورة وكان هاما للحزب بقدر الاستقلال السياسي ذاته[٢]. في الأعوام المبكرة لنظام حكم حزب البعث، أراد الحزب وهو يطبق شعاره من الوحدة، والحرية، والاشتراكية أن يبني «مجتمع وحدة عربية اشتراكية وديقراطية»[٣]. رأى الحزب نفسه كـ «حزب اشتراكي ثوري يرى أن الاشتراكية ضرورة حتمية لتحرير الأمة العربية»، وسعى لإدخال خطوات عدة بقدر الإمكان تفضي بالضرورة إلى الاشتراكية[٤]. غير أنه، من الأهمية أن نبرز الفروق بين العراق والنظم الشمولية الأخرى مثل روسيا الشيوعية. ففي العراق، لم يكن يوجد اقتصاد مركزي، ولا تصنيع إجباري، كما لم يكن يوجد قدر كبير من محاولات الدولة لتحويل المزارعين بالقوة إلى عمال صناعة. وكما يشرح «أوين» ذلك، فإن النظم الاستبدادية تختلف عن النظم الشمولية في أنها «تنقصها

---

(١) جماعة المسح العراقي: «النوايا الاستراتيجية للنظام»، الجزء ١، صفحة ١٨.

(٢) حزب البعث، ثورة ١٧ تموز، صفحة ٥١.

(٣) حزب البعث، التقرير السياسي للمؤتمر القومي العاشر، صفحة ٣.

(٤) صحيفة العراق جازيت، قانون رقم ٣٥ لعام ١٩٧٧، الجزء رقم ٢٠، رقم ٣٧، ١٤ سبتمبر ١٩٧٧، تعد جريدة الجازيت الترجمة الإنجليزية لصحيفة الوقائع العراقية الرسمية المختصة بنشر القوانين.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المؤسسات القوية المطلوبة للسيطرة أو لتحويل المجتمع بوسائل بيروقراطية فقط»[١].

وحتى في البداية، كانت اشتراكية حزب البعث واهية وواهنة وغير مفروضة بقوة على فكر الحزب. وقبل أن يصبح رئيسا، تحدث صدام حسين عن رؤيته، والتي لم تكن اشتراكية كاشتراكية الدول الشيوعية ولا اقتصادية كالاقتصاد الحر كما في عالم الغرب[٢]. آمن صدام أن في هذه المرة ـ وعلى عكس المرة التي وصل فيها الحزب للسلطة عام ١٩٦٣، وفقدها قبل أن يتمكن من إجراء أية تغييرات اقتصادية جذرية ـ أنه لابد أن يقوم النظام بعمل كل شيء يفيد الشعب بسرعة. وفي مناسبة أخرى سأل صدام: «ما فائدة أن نتحدث عن الاشتراكية ويظل الناس جائعين؟»، و«ما قيمة الاشتراكية التي لا يمكنها توفير الأمن للناس؟»[٣]. وفي مجمل وصفه وشرحه لرؤيته للكيفية التي يجب أن يعمل بها اقتصاد العراق، قال لكاتب سيرته الذاتية فؤاد مطر، أنه «يؤمن بأن القطاع الخاص والقطاع الاشتراكي العام لابد أن يمضيا يدا بيد على طول المدى. وهما شركاء معا في خدمة المجتمع»[٤]. ورغم ذلك، تم تطبيق وتفعيل مزيد من المعايير الاشتراكية في عقد السبعينيات وعلى وجه التحديد بالتأميم والإصلاح الزراعي المتعلق بملكية الأرض الزراعية أكثر من أي إجراءات اشتراكية تم اتخاذها في عقد الثمانينيات. ولكن مثل الاشتراكية المصرية، كانت الاشتراكية العراقية «لا تريد أن تضحي

---

(١) روجر أوين: «الدولة والسلطة والسياسة في صنع الشرق الأوسط الحديث»، الطبعة الثالثة (لندن: روتلدج، ٢٠٠٨)، صفحة ٢٧.

(٢) خطاب صدام حسين في جامعة البكر، ٦ مارس ١٩٧٨، مركز سجلات أبحاث الصراع.

(٣) خطاب صدام حسين في المدرسة الإعدادية للحزب، ٢٦ مارس ١٩٧٦: «المختارات»، المجلد ٧، صفحة ١٨.

(٤) مطر: «صدام حسين»، صفحة ٢٥٤.

بمتطلبات الجيل الحالي من أجل جمع المال للتنمية المستقبلية»[١]. كان التحديث ومساندة حقوق الشعب في نظم الحكم الاستبدادية مثل العراق وسوريا «مهمة ولازمة للهيمنة على السلطة»، ولكن مثل سوريا ومصر، أراد النظام العراقي أن ينجز نمواً سريعاً لأنه شعر بضغط وجوب إظهار نتائج سريعة تشعر بها الجماهير[٢].

يمكننا أن نرى أن الاقتصاد العراقي ينقسم إلى ثلاث مراحل مختلفة: عقد السبعينيات وتميز بأسعار نفط مرتفعة وازدهار اقتصادي شديد؛ ثم عقد الثمانينيات والذي غلب عليه حرب الثمانية أعوام ضد إيران، وهبوط أسعار النفط، وتراكم هائل للديون؛ وأخيراً، من بداية عقد التسعينيات وحتى سقوط النظام، أدت حرب الخليج الأولى والعقوبات الدولية إلى حدوث تأثيرات مدمرة على الاقتصاد والشعب العراقي. وسوف نناقش كل مرحلة لنفهم كيف أدار النظام الاقتصاد خلال تلك المراحل.

عقد السبعينيات

في عقد السبعينيات، واتساقاً من صدام حسين مع كلمته عن أهمية الاقتصاد لنظام حكم البعث، اهتم اهتماما شديدا بنفسه بالشؤون الاقتصادية، ومن خلال المكاتب الاستشارية الاقتصادية التي كانت تقدم له تقاريرها من مجلس قيادة الثورة، كان بمقدوره أن يدير أعباء الاقتصاد. ويصف فخري قدوري، وزير الاقتصاد والذي أدار المكتب

---

(١) روجر أوين وسيفكت باموك: «تاريخ اقتصاد الشرق الأوسط في القرن العشرين» (كامبردج، ماساتشوستس: مطبوعات جامعة هارفارد، ١٩٩٩)، صفحة ١٣٢.

(٢) هينبوش: «السلطة الاستبدادية وتكوين الدولة»، صفحة ١٥. انظر أيضاً سبرنجبورج: «البعثة في التطبيق»، صفحة ١٩٥.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الاقتصادي في مجلس قيادة الثورة لمدة ستة أعوام في مذكراته كيف كان صدام حسين منشغلاً ومتدخلاً بشدة في كل المناقشات الاقتصادية وكان يتأكد من مراجعة كل الأمور مراجعة تفصيلية قبل اجتماعات لجنة التخطيط الاقتصادي. قاد أيضاً كل الدراسات والمفاوضات التي أدت في النهاية إلى عمليات تأميم شركات النفط، والتي بدأت في شهر يناير عام ١٩٧٢ واستمرت حتى تم تأميم أنصبة وحصص كل الشركات الأجنبية في نهاية عام ١٩٧٥[١]. ومع تضاعف أسعار النفط لحوالي أربعة أضعاف بعد حرب أكتوبر عام ١٩٧٣، أصبحت عوائد النفط هائلة. وسمح ذلك للنظام بزيادة إحكام سيطرته الاقتصادية من خلال نظام حماية و«خلق شبكات من الشراكات والتبعية»[٢]. وباستخدام عوائد النفط، وظفت الحكومة مبالغ طائلة في توفير الرعاية الصحية المجانية والتعليم المجاني لجميع أبناء الشعب، وتوسيع كل البنى التحتية الخدمية في البلاد، وإقامة مشاريع معمارية ضخمة، والاستثمار في الصناعة وتنمية الجيش.

ولا يوجد شك في أن العراق بنهاية عقد السبعينيات كان قد بدأ في الصعود على سلم الحداثة وتحقيق معدلات نمو عالية بين الدول النامية في مجالي التعليم والرعاية الصحية. وارتفع متوسط دخل الفرد من ٩٧ دينار عراقي في العام في سنة ١٩٦٨ إلى ٨٢٥ دينار عراقي بنهاية عقد السبعينيات، كما تضاعف الناتج القومي العام لأربعة أضعاف ما كان

---

(١) قدوري: «هكذا عرفت البكر وصدام»، صفحات ١١٣ ـ ١١٩، كان قدوري مثل غيره من تكنوقراط حزب البعث قد فقد العلاقة بالنظام، وفي عام ١٩٨٣ وجد نفسه بالمنفى في ألمانيا.

(٢) تريب: «تاريخ العراق»، صفحة ٢٠٧.

عليه عن الفترة نفسها[١]. كان ارتفاع مستوى المعيشة يرى من وجهة نظر الحزب على أنه يعبد الطريق ويمهده لمزيد من بعثنة البلاد عن طريق البرهنة على أن نظام البعث قد جلب الرخاء[٢] للشعب. وعلى الرغم من أن أيديولوجية الحزب كانت اشتراكية نظريا وكانت البلاد تمر بعقد من المركزية الشديدة، نما القطاع الخاص نمواً هائلاً في عقد السبعينيات مع تمدد وتوسع الاقتصاد بفضل الإنفاق العام الهائل، والذي حفز بدوره الاستثمارات الخاصة[٣]. وحتى في عام ١٩٨٠، منعت الحكومة موظفي الدولة من الالتحاق بالقطاع الخاص إلا إذا حصلوا على موافقة مسبقة، وحتى من انهوا تعليمهم وخصصت لهم وظائف في الجهاز الإداري للدولة كانوا يشرفون ويسعدون بعملهم الحكومي الإداري أكثر من عملهم في القطاع الخاص[٤].

عقد الثمانينيات

غلب على عقد الثمانينيات حرب الثمانية أعوام ضد إيران، كما تسبب انخفاض أسعار النفط في تباطؤ شديد في النمو الاقتصادي في جميع أرجاء المنطقة. وبدأت كثير من دول المنطقة في تبني سياسات

---

(١) فاروق ـ سلوجليت وسلوجليت: «العراق من عام ١٩٥٨»، صفحة ٢٣٢. انظر أيضاً زبيدة: «مجتمع جريح»، صفحة ٦٠٦.

(٢) انظر، على سبيل المثال/ منشور وزارة التخطيط: «التقدم في ظل التخطيط» (بغداد: الإدارة المركزية للإحصاء، ١٩٧٥)، صفحات ٤٩ ـ ٥٠.

(٣) كامل أ.مهدي: «الإصلاحات الاقتصدية العراقية على ضوء: القطاع العام، القطاع الخاص والعقوبات» ـ «الصحيفة الدولية للدراسات العراقية المعاصرة»، الجزء١، رقم ٢ (٢٠٠٧)، صفحة ٢٢٠.

(٤) مجلس قيادة الثورة، قرار رقم ٧٠٠، ١٣ مايو ١٩٨٠، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ١ ـ ١ (١٠٩).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ليبرالية جديدة بهدف تحفيز اقتصاداتها، ولم يكن العراق مستثنى من ذلك، فأدخلت سياسات تحرير الاقتصاد وسياسة الخصخصة. وكان القطاع الزراعي من الأمثلة المثيرة للانتباه في تحوله وانتقاله المفاجئ، فقد راح النظام يبيع الأراضي الزراعية إلى القطاع الخاص بعد أعوام طويلة من تطبيق نمط الإصلاح الزراعي الاشتراكي وحيازة الدولة للأراضي الزراعية اللذي بدأ في عام ١٩٥٩[١]. وعزي ذلك جزئيا إلى نقص الأيدي العاملة خلال العرب الإيرانية العراقية[٢]. وفي حقيقة الأمر، واجهت العراق مشاكل اقتصادية أشد خطورة أكبر كثيراً من مجرد نقص الأيدي العاملة الذي أمكن حله جزئيا باستجلاب أكثر من مليون عامل زراعي من مصر ومن بلاد أخرى. كانت الاحتياطات النقدية العراقية التي تراكمت في فترة طفرة أسعار النفط في السبعينيات قد بدأت في التناقص ثم التلاشي بدءاً من عام ١٩٨٣، ومع استمرار الحرب بدأت العراق في الاستدانة بشدة، وفي الأغلب من دول الخليج.

وتصور الوثائق موضع البحث كيف كان يحاول النظام يائسا أن يوفق أوضاعه خلال تلك المرحلة، وأصبح موضوع «تحريك القوى البشرية» أكثر المصطلحات المتداولة في المراسلات بين الحزب والجهاز الإداري البيروقراطي للدولة. وفرضت إجراءات قاسية ومتشددة، وأسندت لآليات الحزب مراقبة تنفيذ تلك الإجراءات. فقد أمر الديوان الرئاسي بمراقبة كل الواردات، ولم يعد بالإمكان الموافقة على أية مشروعات جديدة، كما أصبحت كل المقترحات الجديدة توجه للديوان الرئاسي لاتخاذ

---

(١) لمقارنة شيقة بالمملكة العربية السعودية ومزيد من التفاصيل عن الإصلاحات في القطاع الزراعي، انظر كيرين عزيز شودري: «تحرير الاقتصاد سياسات مقارنة»، الجزء ٢٧، رقم١ (أكتوبر ١٩٩٤)، صفحات ١ ـ ٢٥.

(٢) كامل أ. مهدي: «النظام الزراعي العراقي: أمور في السياسات والأداء»، في طبعة كامل مهدي، التنبؤ الاقتصادي (بريدنج: مطبوعات إيثاكا، ٢٠٠١)، صفحة ٣٣٦.

القرار. العمالة العربية والأجنبية في كل الوزارات تم اختزالها، وصدرت أوامر للوزارات بالسماح بتوظيف المتقاعدين العراقيين، والنساء العراقيات، والمعاقين. كما تم إيقاف كل المنح الدراسية للخارج إلا إذا كانت مدفوعة النفقات بالكامل من الحكومة الأجنبية صاحبة المنحة، كما لم يسمح بالدفع النقدي لأي مشروع إلا إذا كان له علاقة بالعمليات الحربية الجارية ضد إيران[١]. من الأولويات الحزبية الأخرى التي واجهت الحزب خلال ذلك العقد توزيع الحصص الغذائية والمواد المعيشية الرئيسة على الشعب، في الوقت الذي واصل فيه الحزب التضييق على القرى الشمالية المتحالفة مع التمرد الكردي[٢]. وبذلت مجهودات كبرى لموازنة الميزانية المتاحة وذلك بالعمل على زيادة الإنتاج وزيادة المدخرات وتقليص الاستهلاك الخاص وتقليص العمالة في الإدارات الحكومية[٣].

وخلال كل عقد الثمانينيات، سواء في القطاع الزراعي أو القطاع الصناعي، راح النظام يعمل بكل جهد على الانتقال لسياسة الخصخصة من سياسة الدولة الاشتراكية وأطلق النظام ما اعتبرته «شودري»: «أكبر وأوسع برنامج خصخصة في الدول النامية»[٤]. كان من ملامح ذلك البرنامج الرئيسة بيع المزارع والمصانع المملوكة للدولة إلى ملاك أفراد،

---

(١) من الديوان الرئاسي إلى كل الوزارات، والاتحادات، والمؤسسات الحكومية: «الموقف الاقتصادي»، ٢٠ مارس ١٩٨٦، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٩٢ ـ ٤ ـ ٤ (٢٩٨).

(٢) انظر تقارير لجنة أمن منطقة سرجوق، ٣١ مارس ١٩٨٧، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني، ٠٤١، صندوق وثائق ٢٥١.

(٣) وزارة العدل، جمهورية العراق: «اقتراحات لموازنة ميزانية الدولة لعام ١٩٩٠»، ٢٣ ديسمبر ١٩٨٩، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٤٧، صندوق وثائق ٣٠٢.

(٤) شودري: «في الطريق إلى السوق»، صفحة ١٤.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مع إبطال تطبيق قوانين العمل، مما أدى إلى إضعاف الاتحادات العمالية؛ مع إصدار قوانين لتشجيع مصنعي القطاع الخاص وأصحاب المشاريع لتوسيع أنشطتهم واستثماراتهم؛ مع تشجيع الاستثمار الخاص والتصدير بأمل أن يتعافى الاقتصاد من كبوته[١].

وفي تعطش شديد للسيولة النقدية، قررت الحكومة العراقية دعوة الشركات الأجنبية للاستثمار مجددا في قطاع النفط. وبدا واضحا من منتصف الثمانينيات أن العراق لم يعد يمضي في الطريق الاشتراكي ولا في طريق سياسة اقتصاد حرية السوق بمعناها الحقيقي الكامل. وكما قال صدام حسين في اجتماع في يونيو ١٩٨٧، «لن تعود الدولة إلى تبني سياسات غير اقتصادية، وأي نشاط من هذه اللحظة لابد له أن يحقق عائدا»، وفي الحديث ذاته قال أنه لابد من التركيز على نوعية الأداء والإنتاج، وأنه قد أمر كأحد جوانب تحرير الاقتصاد الأجهزة الأمنية ألا تسائل الناس عن مصدر الأموال التي يستوردون بها من الخارج، فقد أدت تلك السياسة فيما قبل ذلك إلى إحجام الناس عن الاستيراد خوفا من الأجهزة الأمنية[٢]. وفي الحقيقة، فإن تأنيب وتوبيخ صدام حسين لرئيس الأمن في اجتماع مجلس قيادة الثورة حول هذا الموضوع يصور تفكيره العملي: فقد تعلل بأنه من الأفضل السماح للتجار بالاستيراد بأموالهم التي هربوها للخارج لاستيراد سلع للعراق أكثر من عقابهم على

---

(١) انظر، على سبيل المثال، قرار مجلس الثورة العراقية رقم ٤٨٣ لتشجيع رجال الصناعة، صحيفة الوقائع العراقية، رقم ٣١٥٩، ٢٠ يوليو ١٩٨٧.

(٢) حديث الرئيس أثناء الاحتفال بأداء رؤساء مدن النجف وميسان وكربلاء يمين الولاء في ٧ يونيو ١٩٨٧: «المختارات»، الجزء الأول، صفحات ١٢٥ ـ ١٥٧. كان الحديث مخصصا للشؤون الاقتصادية وانتهى بالتنبؤ بأن جورباتشوف والقادة الآخرين للدول الشيوعية سوف يواجهون صعوبات بالغة، لأن اشتراكيتهم كانت «اشتراكية الجوع والتصلب».

تهريبهم لتلك الأموال أو مساءلتهم عن مصدر الأموال التي يستوردون بها، لأن تلك الواردات السلعية ستفيد كل الناس[١]. ومن ثم، كانت السلطوية في العراق مستريحة أكثر بتطبيق سياسة مختلطة، لأن «مثل ذلك الاقتصاد من الممكن أن يذيب التمايز الطبقي، وبذلك يحبط تكوين حركات سياسية قوية وأن ذلك يفيد جداً حكم السلطة المطلقة»[٢].

كانت تكلفة حرب الثمانية أعوام ضد إيران باهظة على المستوى البشري والمالي، طول أمد الحرب وقسوتها كلفت البلدين ما يزيد عن مليون فرد خسائر بشرية واستنفذت على وجه التقريب ١١٢ بالمائة من الناتج الوطني السنوي الإجمالي في الأعوام من ١٩٨٠ حتى عام ١٩٨٨[٣]. وفشلت الإصلاحات التي أجريت في عقد الثمانينيات في تحقيق الأهداف المرجوة منها. لم تصمد تلك الإجراءات طويلا ودلت على «المشكلة المزمنة والدائمة في التاريخ الاقتصادي للعراق الحديث: وهي عدم قدرة الدولة على تنظيم وإدارة اقتصاد خاص»[٤].

جانب من ذلك الفشل كان يرجع إلى مقاومة ومعارضة البيروقراطية،

---

(١) تسجيل صوتي لصدام حسين مع كبار رجال الدولة، مايو ١٩٨٧، مركز سجلات أبحاث الصراع.

(٢) روبرت سبرنجبورج: «انفتاح، التحول الزراعي، وتكاتف الصفوة في العراق المعاصرة»: ميدل إيست جورنال، الجزء ٤٠ (شتاء ١٩٨٦)، صفحة ٥٢.

(٣) كامران مفيد: التداعيات الاقتصادية لحرب الخليج (لندن: روتلدج، ١٩٩٠)، صفحة ١٣٥. قدر مفيد التكلفة بـ ٤٥٢ مليار دولار (صفحة ١٣٢)، بينما قدر النصراوي أن العراق أنفق ١٦ مليار كل عام طوال الحرب الإيرانية العراقية، غير أنه ذكر أن تلك التكلفة لم تشمل الأصول المدنية التي تم تدميرها ولا قيمة العوائد النفطية المفقودة. انظر عباس النصراوي: «التداعيات الاقتصادية للحرب الإيرانية العراقية»، نشرة العالم الثالث الربع سنوية، الجزء ٨، رقم ٣ (يوليو ١٩٨٦)، صفحات ٨٨٢ ـ ٨٨٣.

(٤) كيرين عزيز شودري: «الاهتمامات القاتلة: انهيار السوق والهيئات الاشتراكية في الدولة العراقية»، في طبعة المهدي: «العراق والمأزق الاقتصادي»، صفحة ٢٦١.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولكن في الواقع الفعلي تبنى النظام تلك الإصلاحات ببساطة لأنه كان يحاول يائسا أن يجد حلا للأزمة الاقتصادية التي وجد نفسه متورطاً فيها. أحد الأسباب المباشرة جداً للأزمة كان النقص الحاد في أرصدة العملات الأجنبية، والتي زاد من حدتها سياسة الدولة المستمرة في تخصيص نسبة مئوية كبيرة من الموازنة المالية للجيش والتصنيع العسكري[١].

بحلول العام ١٩٨٩، كان الاقتصاد العراقي قد أصبح مختلفا اختلافا جذريا عن حالة الاقتصاد العراقي عام ١٩٧٩: دمار كامل في البنية الأساسية (خاصة في الجنوب)، ديون ثقيلة بلغت ٤ مليار دولار أميركي لدول عربية وأجنبية، وعملة ضعيفة جدا، والأسوأ من كل ذلك، تدهور أسعار النفط (هبط سعر النفط الخام من معدل مرتفع وصل إلى ٣٢ دولار للبرميل في عام ١٩٨١ إلى معدل منخفض بلغ من ١٢ إلى ١٤ دولار أميركي عام ١٩٨٨). في ذات الوقت، كان على النظام أن يستمر في سياسة عسكرة الدولة وإعادة بناء البنية الأساسية التي دمرت خلال الحرب الإيرانية العراقية[٢]. ومجددا، أجبرت وطأة الأزمة الجاثمة الحكومة أن تغير سياستها الاقتصادية، وزادت من أجور الموظفين المدنيين وقدمت دعما لهم على بعض المنتجات المعيشية[٣].

---

(١) لشرح تكالف العسكرة والحرب، انظر رودى: «علاقات الدولة والمجتمع»، صفحات ٤١ ـ ٤٧.

(٢) لنظرة عامة على تلك المرحلة، انظر محمد علي زيني: «الاقتصاد العراقي في ظل نظام صدام حسين: تطور أم تقهقر»، (لندن: الرافد، ١٩٩٥)، صفحات ٢٥١ ـ ٣٣١. انظر أيضاً وحدة استخبارات الإيكونومست، رقم ٣، ٦ يوليو ١٩٨٧.

(٣) عباس النصراوي: «التداعيات الاقتصادية العراقية لحرب الخليج عام ١٩٩١ ونظرة على المستقبل»، العالم الثالث الربع سنوية، الجزء ١٣، رقم ٢ (يونيو ١٩٩٢)، صفحات ٣٣٩ ـ ٣٤٠.

من بدايات عقد التسعينيات حتى ٢٠٠٣

على ضوء التدهور المستمر لأسعار النفط، أدى رفض بعض الدول العربية للتقيد بأسعار وحصص النفط التي حددتها منظمة الدول المصدرة للنفط (أوبك)، والعبء الخانق للديون المتراكمة، إلى إيمان صدام حسين أن الحل السريع لأزمة تلك الديون لن يتأتى إلا بغزو الكويت، وهو ما قام به بالفعل في ٢ أغسطس عام ١٩٩٠[١]. وكانت تبعات ذلك الغزو قاسية على العراق وشعبه. فبعد الغزو مباشرة تم تجميد جميع الأرصدة المالية العراقية بالبنوك الخارجية، كما فرضت الأمم المتحدة حظرا على صادرات النفط العراقية، مما أدى إلى شبه توقف لإنتاج النفط العراقي، وفقد كلي للعوائد المالية النفطية. ومن وقت هجوم قوات التحالف في بدايات ١٩٩١ حتى توقيع اتفاق وقف إطلاق النار في ٢٨ فبراير ١٩٩١ بعد تحرير الكويت، عانى العراق من تدمير شديد للبنية الأساسية، حتى أن ٩٠ بالمائة من شبكة العراق الكهربائية كانت قد دمرت كليا[٢]. كما كان للانتفاضة التي وقعت عام ١٩٩١ في الشمال والجنوب تبعاتها شديدة الوطأة على النظام، أما من الناحية الاقتصادية، فقد أدت إلى مزيد من التدهور، خاصة أن مزيداً من الموارد وجهت للجيش لمواجهة التبعات والتداعيات المتزايدة التي كان من المتوقع حدوثها. كذلك أثرت العقوبات الدولية التي فرضت بصرامة على العراق بعد حرب الكويت على حياة المواطنين العراقيين وفرضت على النظام إجراء تغييرات كبيرة على سياساته لتوفيق الأوضاع طبقا لتبعات العقوبات. وأحس النظام أنه مهدد لا من الانتفاضة وحدها والتوتر الدائم

---

(١) المصدر السابق، صفحات ٣٤٠ ـ ٣٤٤.

(٢) المصدر السابق، صفحة ٣٤٧. لمزيد من التفاصيل عن الغزو والحرب، انظر تريب: «تاريخ العراق»، صفحات ٢٥٣ ـ ٢٥٩.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مع المجتمع الدولي، بل أيضاً من التدهور الاقتصادى المستمر. «لأن نظم الحكم الفردية تحافظ على ولاء مؤيديها بتقديم مكافآت مادية لهم، فهم عرضة للكوارث الاقتصادية»[١]. أثرت العقوبات الدولية التي استمرت حتى الإطاحة بالنظام في ٢٠٠٣ على البلاد في جوانب جوهرية عديدة[٢]. كانت التجربة العراقية تماثل في كثير من الأوجه التجربة الستالينية، حيث كان نقص المواد الغذائية، والطوابير الطويلة لشراء الطعام، واحتكارات السوق السوداء لسلع معينة من المشاكل «الأكثر شيوعا، والأكثر تحديا» التي كان على النظام السوفييتي مواجهتها[٣]. وركز النظام العراقي على «كيفية إيجاد ثغرة في جدار العقوبات المفروضة»[٤]. وتتعلق مئات من الوثائق بالمواضيع الملحة المؤلمة التي حدثت في عقد التسعينيات، مثل: حصص توزيع الغذاء، التهريب، انهيار سعر العملة العراقية في الأسواق العالمية، والفساد،

---

(١) باربرا جيدز: «ما الذي نعرفه عن الديمقراطية بعد عشرين عاما؟»، نشرة سنوية عن العلوم السياسية، الجزء ٢(١٩٩٩)، صفحة ١٣٤.

(٢) لتقرير مفصل جداً عن آثار العقوبات الدولية على العراق أعد بواسطة لجنة خاصة من حزب البعث في أواخر التسعينيات، انظر مركز سجلات أبحاث الصراع. تشرح الدراسة تأثيرات الحصار الاقتصادي على جوانب الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والغذائية، والصحة النفسية للمجتمع العراقي، ودور الرئيس «في احتواء ذلك الحصار».

(٣) بول هاجنلو: «شرطة ستالين: النظام العام والقمع الجماعي في الاتحاد السوفييتي، ١٩٢٦ ـ ١٩٤١» (واشنطن العاصمة: مطبوعات مركز وودرو ويلسون، ٢٠٠٩)، صفحة ٣٠٥.

(٤) من منتصف ١٩٩١ حتى ٢٠٠٣، كانت كثير من اجتماعات مجلس قيادة الثورة العراقية التي يترأسها صدام حسين مخصصة لمناقشة العقوبات والمفاوضات مع فريق الأمم المتحدة الذي يبحث عن أسلحة الدمار الشامل بالعراق. ويعد أحد التسجيلات الصوتية لاجتماع مجلس قيادة الثورة في ٢٦ نوفمبر ١٩٩٤ مصدرا جيداً لتلك المواضيع، مركز سجلات أبحاث الصراع .A000034.

وآخرها نزيف العقول. وسوف نناقش كل تلك المواضيع في هذا الفصل.

كانت ندرة الطعام من المشاكل الكبرى التي تواجه العراقيين. ونشرت مجلة الإيكونومست تقريرا عام ١٩٩٥ سجلت فيه أن المجتمع العراقي قد تهاوى وتحول إلى حالة من «الفقر المدقع ويعاني من شبه مجاعة»، ونقلت المجلة عن تقارير للأمم المتحدة أن حوالي ٣٠ بالمائة من الأطفال تحت سن خمسة أعوام يعانون من سؤ تغذية حاد وأن «النسيج الاجتماعي ينهار ويتمزق»[١]. أنفق النظام كثيراً من مصادر المال والإدارة والسياسة في تنفيذ سياسة توزيع حصص الطعام. وأصبحت بطاقات حصص الطعام نفيسة وذات قيمة، وعلى الرغم من افتراض أن كل مواطن كان يتلقى ذات الحصة من الطعام التي يتلقاها غيره، إلا أن أعضاء حزب البعث، وكبار ضباط الجيش، وكبار موظفي الدولة كانوا يتلقون مخصصات أكبر[٢]. كان أعضاء الحزب الذين يعملون في مخازن الغذاء ومطاحن الغلال مسلحين لحماية تلك المنشآت الغذائية من الحشود الجائعة التي مال أغلبها إلى سرقة المواد الغذائية أينما وكلما واتتهم الفرصة[٣]. وفوق كل ذلك، عمل نظام توزيع الحصص الغذائية بنجاح لأن النظام فهم وأدرك تبعات وجود شعب جائع، وبناء على ذلك «استجاب بطريقة فعالة لتهديد انعدام الأمن الغذائي الذي تسبب فيه «أجانب» (أي العقوبات الاقتصادية التي فرضها مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة بضغط من القوى الغربية)، وسعى النظام لتوطيد شرعيته

---

(١) الإيكونوميست: «ملك القلعة الحزينة»، ٢١ أكتوبر ١٩٩٥، صفحة ٤٥.

(٢) من أمانة سر الحزب إلى وزارة التجارة: «معلومات»، ٢٨ نوفمبر ١٩٩٢، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٥ ـ ٣ ـ ٥.

(٣) أمانة سر الحزب: «ضمان الحماية»، ٢١ مارس ١٩٩٥، القيادة القطرية لحزب البعث، ١٠٠ ـ ٣ ـ ٥ (٠٠١؛٠٠٥؛٠٠٩ ـ ٠١٠).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

السياسية في الداخل العراقي»[١]. وبالفعل، كما شرحنا في الفصل السابق، استغل صدام حسين العقوبات الدولية لزيادة دعم وتأييد الشعب لنظامه وللتأكيد على أن أتباعه المخلصين يكافأون بسخاء.

حتى المنتجات التي أصبحت شحيحة مثل الورق استدعت مناقشة خاصة في مجلس الوزراء وانتهى الاجتماع بصدور اوامر لكل المكاتب الحكومية بالاقتصاد في استخدام ورق المكاتبات واستعمال وجهي كل ورقة في الكتابة[٢]. وازدادت وطأة نقص الطعام، والسجائر، والمنتوجات الأساسية الأخري، كذلك تضاعفت عمليات التهريب التي كانت تدر هوامش ربح عالية. وبسبب ارتفاع «المخاوف لدى الجماهير» العراقية وجدت قيادة الحزب أن عليها أن تفعل شيئا[٣]. فتم تكوين لجان خاصة للتعامل مع أعمال التهريب التي كانت تنتشر في جميع أنحاء العراق، لاعتقال كل من يعمل بالتهريب. وكان المهربون الذين يعتقلون يواجهون عقوبات قاسية تتراوح بين السجن مدى الحياة والإعدام إذا كانت عمليات التهريب مرتبطة بجماعات أو دول من التي تصنف معادية للنظام. ومن المثير، أن أغلب قيم المواد المهربة التي يتم ضبطها (٨٠ بالمائة من ثمنها) كان يوزع على شكل مكافآت للمبلغين والمخبرين والوشاة والجماعات التي قامت باعتقال المهربين[٤]. وتم

---

(١) هاريس جازدار وآثار حسين: «الأزمة ورد الفعل: دراسة لآثار العقوبات الاقتصادية على العراق»، في طبعة المهدي، «أزمة العراق الاقتصادية»، صفحة ٦٣.

(٢) من أمانة سر الحزب إلى كل تنظيمات الحزب: «استخدم الورق الكتابي»، ١٠ سبتمبر ١٩٩٠، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ٣ ـ ٧ (٠٧٢).

(٣) انظر، على سبيل المثال، مراسلات الديوان الرئاسي التي بدأت تتعامل مع ذلك النقص أثناء الحرب مع إيران، مركز سجلات أبحاث الصراع.

(٤) قرار مجلس قيادة الثورة رقم ٨٠، ٣٠ أغسطس ١٩٩٥، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٢٠ ـ ١ ـ ٥ (٧٩ ـ ٠٨٠).

توسيع معنى وتعريف التهريب ليشمل حتى المشتبه في انتوائهم القيام بالتهريب أو حتى التعامل مع مهربين لو توفر الدليل أو البرهان الظرفي الدال على تلك النوايا[١].

وزاد من متاعب العراقيين انهيار قيمة العملة العراقية في سوق العملات وضاعف منه ارتفاع نسب التضخم. ففي عام ١٩٩٠، كان المعدل لدولار أميركي واحد يساوي على وجه التقريب ٤ دينار عراقي؛ وفي عام ١٩٩٤ أصبح الدولار أميركي يساوي تقريبا ٤٥٧ دينارا عراقيا؛ وبحلول عام ١٩٩٩ تدهورت قيمة العملة العراقية حتى أصبح الدولار الأميركي يساوي ١٢٠٠ دينار عراقي[٢]. وارتفع معدل سعر الاستهلاك ارتفاعاً بشكل فظيع من معدل ١٠٠ درجة في عام ١٩٩٣ حتى وصل إلى ٣٥٩٣ درجة على مقياس الاستهلاك في عام ١٩٩٩، مما استنزف مدخرات العراقيين وتسبب في إعسار أعداد كبيرة من العاملين الذين يتقاضون أجورا شهرية ثابتة مثل الموظفين المدنيين والمعلمين[٣]. وعلق صدام حسين على قيمة العملة العراقية في اجتماع مجلس الوزراء قائلاً أن انهيار قيمة العملة يعكس مشاعر الشارع، بسبب زيادة الإنفاق وتقلص عائدات الدولة من النفط. وقال لوزرائه أن «مناقشة الأمور المالية تنطوي على حساسية خاصة ولابد أن تكون ذات حساسية خاصة مماثلة لحساسية الأمور الأمنية[٤] وتؤثر عليها». وشكل الاقتران القاتل لارتفاع

---

(١) من فرع التأميم إلى أمانة سر الحزب: «اقتراح»، ١٥ أبريل ١٩٩٧، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٨ ـ ٤ ـ ٦ (٣٨٨ ـ ٣٩٤).

(٢) علي ميرزا: «إعادة بناء العراق في ظل غياب اليقين»، الصحيفة الدولية للدراسات العراقية المعاصرة، الجزء ١، رقم ٢ (٢٠٠٧)، الجدول رقم ٣، صفحة ١٩٧.

(٣) المصدر السابق.

(٤) من أمانة سر مجلس الوزراء إلى وزير الشؤون الاقتصادية: «قيمة الدينار مقابل الدولار»، ٨ مايو ١٩٩٩، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٢١ ـ ٢ ـ ٧ (٠٢٧).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نسبة التضخم ارتفاعا مهولا بتلاشي قيمة العملة دافعا قويا لكثير من العراقيين للعمل بالتهريب مما أدى إلى انتشار واتساع السوق السوداء. وأبرزت دراسة أعدها حزب البعث أن حوالي ٤٣ بالمائة من العراقيين قد لجأوا للتعامل مع سلع السوق السوداء بشكل ما، بينما تعامل ١٨ بالمائة من السكان بشكل منتظم ودائم مع السوق السوداء. وعرض التقرير أيضاً مشكلة ندرة السلع على أنها السبب الأكبر للتعامل مع السوق السوداء، ولكن الدافع لبعض المواطنين العراقيين للتعامل مع سلع السوق السوداء كان يرجع إلى طول طوابير المواطنين الذي يسعون لشراء السلع بالأسعار الحقيقية أو المدعومة من النظام مما يدفعهم للجوء للشراء من السوق السوداء[١] توفيراً للوقت والجهد والعناء.

ولا عجب أنه في تلك الظروف القاسية أن ينتشر الفساد في جميع أوجه الحياة، خاصة بعد عام ١٩٩٦، حين بدأ العراق يبيع نفطه بموجب برنامج الأمم المتحدة «النفط العراقي مقابل الغذاء». وتراوحت التقديرات للدخل السري من فروق الأسعار غير المشروعة وغير المعلنة من مبيعات النفط والرشى المرتبطة بها من ٢٧٠ مليون دولار أميركي إلى ٧ مليارات دولار[٢]. وقدر بحث مستقل حول برنامج النفط مقابل الغذاء أن فروق الأسعار غير المشروعة من بيع النفط بلغت ٢٢٩ مليون دولار، وأن العراق في تخصيصه للنفط قد وضع سياسة تفضيلية بتفضيل

---

(١) فرع الفوز العظيم: «دراسة»، ٢٣ مايو ١٩٩٨، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ٤ ـ ٤ (٢٧٠).

(٢) فيليب لو بيلون: «الفساد وإعادة الإعمار، وحكم النفط في العراق»، في سلطان بركات (محرر)، إعادة إعمار العراق في مرحلة ما بعد صدام (لندن: روتلدج، ٢٠٠٨)، صفحة ١٢٩. بين ١٩٩٦ و٢٠٠٣، سمح برنامج الطعام مقابل الغذاء للعراق ببيع ما قيمته ٦٩ مليار دولار، خصص منها ما قيمته ٣٨ مليار دولار للمشتريات الإنسانية للشعب العراقي.

شركات وأفراد في دول تعتبر «صديقة»، مثل روسيا وفرنسا[١]. ويفصل تقرير المسح العراقي كيف توصلت الحكومة العراقية إلى تقاضي مليارات الدولارات بطريقة غير مشروعة عن طريق فروق أسعار النفط السرية والتي كانت تحول إلى العراق عن طريق سفاراتها التي استخدمت كوسيلة لتحويل تلك الأموال للعراق في الحقائب الدبلوماسية، كما يصف العقود التي كوفئ بها دبلوماسيون من روسيا وفرنسا وحفنة من الوسطاء من رجال الأعمال الأجانب الذين أفادوا العراق[٢]. وعلى ضوء أهمية تلك التعاقدات والعلاقات وحيويتها التمويلية الفائقة للاقتصاد العراقي المنهار، أمر صدام حسين ألا يتم توقيع أي اتفاق يتعلق بالنفط أو التجارة مع أي جهة صديقة من قبل أي وزير عراقي إلا إذا أجازه بنفسه قبل التوقيع[٣]. غير أن الفساد لم يكن موجودا على المستوى الدولي فقط، فقد ظل جهاز الأمن الخاص يعمل بكل طاقته مقتفيا

---

(١) لجنة التحقيق المستقلة لبرنامج الأمم المتحدة للنفط مقابل الغذاء: «مناورات النظام العراقي حول برنامج النفط مقابل الغذاء»، ٢٧ أكتوبر ٢٠٠٥. رأس اللجنة بول فولكر، الرئيس السابق للاحتياطي النقدي للولايات المتحدة. انظر أيضاً فالح أ. جبار، وأحمد شيكاره، وكايكو ساكاي: «من عاصفة إلى إعصار: معركة لم تنتهي بين العراق والولايات المتحدة» (طوكيو: معهد الاقتصادات النامية، مارس ١٩٩٨).

(٢) جماعة المسح العراقي: «الأغراض الاستراتيجية للنظام، الجزء ١، مالية النظام والتدابير المالية»، صفحات ٣٩ ـ ٤٠. انظر أيضاً الشكل ٧: ملخص للعوائد المالية العراقية غير المشروعة، ١٩٩١ ـ ٢٠٠٣.

(٣) من أمانة سر مجلس الوزراء إلى المؤسسات الأمنية: «معلومات»، ٩ مايو ١٩٩٩، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٢١ ـ ٢ ـ ٧ (٠٣٢). وسبق ذلك اعتراف من طارق عزيز أنه خصص بنفسه لكثير من الشخصيات الفرنسية المتنفذة مخصصات نفطية؛ جماعة المسح العراقي: «الأغراض الاستراتيجية للنظام»، الجزء ١، صفحة ٤٠.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

خطى موظفي الحكومة وأعضاء أسر كبار المسؤولين الذين كانوا منغمسين في عمليات من الفساد[١].

ومع تردي الموقف الاقتصادي خلال عقد التسعينيات، عانى أبناء الطبقة المتوسطة وأبناء الطبقة المهنية الحرفية من تراجع شديد في مستوى المعيشة، لا من ندرة الطعام فقط، بل عانت معاناة أشد من تبعات التضخم الصاعق والمربك مع تضاؤل قيمة العملة العراقية الذي استنزف كل مدخراتهم. وتبنى العراقيون استراتيجيات الحفاظ على الحياة «للمحافظة على نمط الاستهلاك في مواجهة التضاؤل الدرامي لقيمة العملة الشرائية» مثل العمل في أكثر من وظيفة، أو الدفع بأبنائهم لبيع السلع التافهة بالشوارع، أو بمقايضة السلع، أو ببيع ممتلكاتهم وأثاث بيوتهم[٢]. ومع ازدياد التسول في شوارع المدن العراقية، أعلن صدام حسين أن «الشخصيات الضعيفة» هي التي تدفع أبناءها لذلك السلوك وأمر الشرطة أن تعتقل آباء الأطفال الذين يضبط أطفالهم وهم يتسولون بالطرقات وأن تقوم المجالس المحلية بإعلان أسمائهم وفضحهم[٣].

وكان من أخطر التبعات التي ترتبت على تلك الأزمة الخانقة، نزيف العقول العراقية الماهرة من أبناء الطبقة الوسطى المتعلمين تعليما جيدا. ففي خلال عقدي السبعينيات والثمانينيات فرت موجات من العراقيين

---

(١) انظر، على سبيل المثال، وثيقة جهاز الأمن الخاص عن مسؤولي وزارة الزراعة الذين كانوا يستغلون وظائفهم في تكوين ثروات شخصية، ١٢ نوفمبر ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق وثائق ٠٢٤ ـ ٤ ـ ٩ (٠١٨). انظر أيضاً «معلومات» عن أحد أبناء الوزراء الذي وقع عقدا مع شركة أجنبية، ١١ يونيو ١٩٩٥، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠٢ ـ ٤ ـ ٥ (٠٧٩ ـ ٠٨٠).

(٢) جازدار وحسين: «الأزمة ورد الفعل»، صفحة ٥٠.

(٣) من أمانة سر مجلس الوزراء إلى وزير العمل والشؤون الاجتماعية، ٢٤ مارس ١٩٩٩، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٢١ ـ ٢ ـ ٧ (٢٣٣ ـ ٢٣٤).

المتعلمين من العراق بحثا عن فرص حياة أفضل، ومن ضمنهم كثير من مدرسي وأساتذة كلية طب بغداد والأطباء المتخصصين. وعلى أي حال، بدأت أعداد كبيرة من العراقيين بعد أحداث ١٩٩٠ ـ ١٩٩١ تغادر العراق بعدما أيقنوا أنه بعد حربين، لابد أن تتقلص فرص عملهم المهنية بشدة. ومع بداية تفسخ النسيج الاجتماعي العراقي، تضاعفت مأساة الطبقة المتوسطة، وذهبت بعض التقديرات إلى أن عدد العراقيين الذين أصبحوا بالفعل خارج العراق عند الغزو في عام ٢٠٠٣ وصل إلى ٤ مليون مواطن عراقي[١].

وعمدت الحكومة العراقية إلى جذب العراقيين للعودة للعراق في عقدي السبعينيات والثمانينيات عن طريق إغرائهم بحوافز عديدة، وضاعفت من تلك الحوافز في التسعينيات[٢]. وأعد الحزب دراسة مفصلة أوصت باتخاذ خطوات معينة لتحجيم هجرة الأكاديميين وقدمت حوافزا جديدة لمن يرجع منهم من الخارج. وأكدت الدراسة على أهمية العلماء العراقيين للعراق:

إن القدرات مثل [الـ] أسلحة الكيماوية والصواريخ طويلة المدى والتي رفعت من قدر العراق في نظر شعوب العالم وكانت فخرا لكل العرب والمسلمين، هي التي حسمت المعركة مع العدو الفارسي، وصدمت الكيان الإسرائيلي لأول مرة في تاريخه، ولم

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن نزيف العقول العراقية قبل وبعد صدام حسين، انظر يوسف ساسون: «اللاجئون العراقيون: الأزمة الجديدة بالشرق الأوسط» (لندن أي بي تاوريس، ٢٠٠٩)، صفحات ١٤٠ ـ ١٥١. حتى قبل حرب الخليج، قدر عدد العراقيين بالمنافي بـ ٥.١ مليون عراقي.

(٢) لتفاصيل المجهودات التي بذلت في ١٩٧٠ و١٩٧٢. انظر هاشم: «مذكرات وزير عراقي»، صفحات ٣٢٧ ـ ٣٢٨.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تكن نتاج عمالة جاهلة ولكنها صنعت على أيدي مهندسين، وكيميائيين، وفيزيائيين وبيولوجيين من خريجي الجامعات العراقية[١].

وأبقى الحزب عينه مفتوحة على نقل ملكية الأراضي والعقارات، مقتنعا أن كثيراً من ملاك الأراضي والعقارات يسعون لتسييل ممتلكاتهم لتحويل أثمانها للخارج، وسجل في تقاريره أن البنك السويسري يتعاون على تسهيل التحويلات عن طريق وسطاء عراقيين يعيشون في عمان[٢]. وبحلول عام ١٩٩٤ كان النظام قد بدأ في اتخاذ سلسلة من الإجراءات لإحباط وتعويق بيع الممتلكات مثل منع العراقيين الذين أصبحوا خارج العراق لما يزيد عن عامين من بيع أو نقل ممتلكاتهم بالعراق لشخص آخر، سواء بالبيع أو بنقل الملكية المباشر[٣]. وأجرى المكتب المركزي للطلاب دراسة في عام ١٩٩٥ لبحث مسألة رحيل العراقيين المثقفين، وعلى الرغم من أن تلك الدراسة ألقت باللائمة على الجماعات المعادية للنظام خارج العراق التي لديها «خطة ممنهجة لتشجيع نزيف العقول العراقية، إلا أنها اقترحت أيضاً قائمة طويلة من الإجراءات لتشجيع العراقيين على البقاء بالعراق. كان من بين تلك الإجراءات زيادة أجور أساتذة الجامعات لتنافس الأجور التي تدفع لهم من الدول المجاورة، خاصة تلك التي بالأردن؛ والتوسع في إنشاء المعامل والمختبرات

---

(١) من فرع الرشيد إلى أمانة سر الحزب: «دراسة: موقف العراقيون الأكاديميون ونزيف العقول»، ٢٧ أكتوبر ١٩٩١، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٥ ـ ١ ـ ٢ (٦٤٦ ـ ٦٥٢).

(٢) أمانة سر الحزب: «ظاهرة اقتصادية»، ١٢ ديسمبر ١٩٩١، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٥ ـ ١ ـ ٢ (٥٤٥).

(٣) قرار مجلس قيادة الثورة رقم ١٠٠، ٣١ يوليو ١٩٩٤، القيادة القطرية لحزب البعث، ١٠٤ ـ ٣ ـ ٣ (٦٧٢ ـ ٦٨٨).

البحثية والأقسام العلمية، وإنشاء محلات تجارية خاصة تبيع للأكاديميين فقط لتزويدهم بالمواد الغذائية والمنتجات الأخرى بأسعار منافسة»[١].

كما أمر الديوان الرئاسي بتكوين لجنة من أربعة مندوبين من أمانة سر الحزب، ووزارة التعليم العالي والبحث العلمي، ووزارة الخارجية، والمخابرات للعمل على إغراء العراقيين المتواجدين بالخارج، وخاصة الطلاب، للعودة إلى العراق[٢]. وتوجت بعض تلك المجهودات بالنجاح؛ أحد التقديرات قدر أن عدد المعلمين الذين تركوا وظائفهم خلال عقد التسعينيات بلغ ٤٠,٠٠٠ معلم، كما فقدت المشافي العراقية ما يصل إلى نسبة ٧٥ بالمائة من كوادرها الطبية المدربة[٣].

وعلى الرغم من أن الجماهير العراقية في مجملها عانت معاناة شديدة من العقوبات التي فرضت على العراق، إلا أن النظام ذاته لم يتأثر بشكل يذكر. ففي جوهر الأمر، يحتمل أن العقوبات «قد وسعت من دور الدولة العراقية في التحكم بحياة المواطنين وزادت من ثبات وهيمنة النظام»[٤].

---

(١) من المكتب المركزي للطلاب والشباب إلى أمانة سر الحزب، ٢٢ مارس ١٩٩٥، القيادة القطرية لحزب البعث، ١٠٤ ـ ٣ ـ ٣ (١٧١ ـ ١٧٨). طبقا لهذه الدراسة في العراق في ذلك الوقت كان يوجد ١١٦٥٨ عضو هيئة تدريس في كل الجامعات منهم ٨٣٦٦ حاصلون على درجة الدكتوراة.

(٢) وزارة الشؤون الخارجية: «أمر رئاسي»، ٢٠ أبريل ١٩٩٥، القيادة القطرية لحزب البعث، ١٠٤ ـ ٣ ـ ٣ (١٦٣).

(٣) جوي جوردون: «الحرب الخفية: الولايات المتحدة والعقوبات على العراق» (كامبردج، ماساتشوستس: مطبوعات جامعة هارفارد، ٢٠١٠)، صفحات ١٣٨ ـ ١٣٩. ويفصل الكتاب مدى قوة العقوبات، ودور الحكومة العراقية، وسياسة الولايات المتحدة.

(٤) نعمة مظهر: «العراق والتأثيرات السياسية الداخلية للعقوبات الاقتصادية»، ميدل إيست جورنال، الجزء ٦٤، رقم ٢ (ربيع ٢٠١٠)، صفحة ٢٥٤.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ونتيجة لنجاح نظام توزيع بطاقات الغذاء، سعى حزب البعث لنيل مزيد من دعم الجماهير وتعاطف المدنيين المستقلين معه خلال الأعوام الثلاثة عشر من العقوبات الصارمة التي فرضت على العراق. وفي الحقيقة، لم تسع السلطة فقط لإعادة بناء أغلب ما تهدم من البنية الأساسية للخدمات والمرافق العامة، بل بدأ الاقتصاد في التحسن الطفيف في آخر عقد التسعينيات. فبين عامي ١٩٩٦ و٢٠٠٠، قدر أن الناتج القومي الإجمالي للعراق قد ارتفع من ١٠,٦ مليار دولار أميركي إلى ٣٣ مليار دولار[١]. واستقرت العملة العراقية، على الحد الشديد من التدني الذي وصلت إليه مقابل الدولار، وبقي التضخم كمشكلة وحيدة مستمرة. جمع النظام ذاته ثروات طائلة في الفترة من ١٩٩٠ حتى ٢٠٠٣. وطبقا لتقارير جماعة المسح العراقي وبعثة الأمم المتحدة، تقاضى النظام ١٠,٩ مليار دولار من فروق أسعار نفط غير مشروعة؛ كما تلقى نسبة استردادات بلغت ١٠ بالمائة من قيمة الواردات المصرح بها تحت إشراف الأمم المتحدة كما استفاد من الصادرات البترولية التي كان يقوم بها سرا بعيدا عن مراقبة الأمم المتحدة. وتوصلت جماعة المسح العراقي إلى أن النظام «سرب أغلب الأموال المتحصل عليها من فروق سعرية غير مشروعة عن طريق حسابات سرية في بنوك أجنبية باسم البنوك العراقية، ووزارات، أو وكالات بالمخالفة للعقوبات التي فرضتها منظمة الأمم المتحدة»[٢].

ولابد أن يرى التعافي في الاقتصاد العراقي في آخر أعوام نظام حكم

---

(١) جماعة المسح العراقي: «الغرض الاستراتيجي للنظام»، الجزء١، «مالية النظام والتدابير المالية»، صفحة ٢٣.

(٢) المصدر السابق، صفحة ٢٤.

البعث على أنه كان مختلفا عن حالة الفقر والعوز والإملاق الذي ساد منذ نهاية عقد الثمانينيات. غير أن النظام أحس بارتياح اقتصادي من نهاية عام ٢٠٠٢ دفعه لإطلاق خطة عشرية تمتد على مدى عشرة أعوام «لتحقيق رخاء اقتصادي للمواطنين العراقيين»[١]، وفي العامين السابقين على عام ٢٠٠٣، كانت الصحف العراقية مليئة بافتتاحيات تعظم من قدر إنجازات النظام الاقتصادية[٢]. وعلى الرغم من وجهة النظر الاقتصادية من أن النظام قد صمد أمام حربين مدمرتين وأمام أعوام كثيرة من العقوبات، إلا أنه مع حلول عام ٢٠٠٣ كان العراق ما زال يعاني من اقتصاد فقير، غارق في ديون ثقيلة الوطأة مع نسبة تضخم هائلة وعملة ضعيفة، كما كان قد فقد جانبا كبيراً من أبناء الطبقة المتوسطة المتعلمة.

الاتحادات والنقابات المهنية

للتنظيمات المهنية في العراق تاريخ حافل يرجع في بدايته لعام ١٩٢٤، كان أول قانون للعمال يعترف بسلطة الاتحادات العمالية قد صدر في عام ١٩٣٦. وتم إدخال إصلاحات وتعديلات على هذا القانون عام ١٩٥٤ على أثر كثير من الإضرابات الاحتجاجية خاصة في قطاع النفط، وبعد إضراب عنيف وقع في كركوك عام ١٩٤٦[٣].

واستمرت الاتحادات في كونها عنصراً هاماً بعد سقوط الملكية ووقعت تحت تأثير الحزب الشيوعي بشدة. وقدمت القوانين التي صدرت في عام ١٩٥٨ و١٩٦٤ درجة من الحماية للعمال الذين كان

---

(١) صحيفة القادسية، رقم ٧٦٤٠، ٢٣ يناير ٢٠٠٣.

(٢) الثورة، رقم ١٠٧١٤، ٤ نوفمبر ٢٠٠٢. غطت الصحف افتتاح معرض بغداد الخامس والثلاثين وأبرزت أنه على الرغم من العقوبات، اشتركت بالمعرض ٤٩ دولة عربية وأجنبية و١٢٠٠ شركة.

(٣) دافيز: «ذكريات دولة»، صفحات ١٠٦ و٣١٠ (هامش ٦٦).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أغلبهم يعمل في القطاع العام الحكومي. كانت كل الصناعات لها لجان عمالية، على الرغم من الصبغة البيروقراطية التي كانت غالبة عليها أكثر من كونها تمثل العمال تمثيلاً حقيقياً حراً وتاماً.

وبعد عام ١٩٦٨ بعدما أصبح العراق دولة بعثية، أصبحت الاتحادات العمالية ـ كما كانت في سوريا ـ تحت هيمنة حزب البعث، وأصبحت التنظيمات الشعبية والمهنية تنشأ كجزء من «الجمعيات الشعبية» التابعة للحزب ليهيمن الحزب على كل قطاعات المجتمع[١]. وتشير الوثائق بجلاء إلى التعاون بين الاتحادات، التي تحولت إلى نقابات مهنية تحت هيمنة جهاز الحزب لخدمة متطلباته وتوجهاته. ولم يكن تطهير أي اتحاد غير موالي للحزب يختلف كثيراً عن تطهير أي وزارة حكومية من المعارضين. ومما له دلالة واضحة بهذا الصدد، ما حدث عام ١٩٨٠، حين تم تعيين أمين عام جديد لاتحاد العمال.. فحين استلم منصبه، كتب لأمانة سر الحزب مقترحا أنه نظرا لـ «سيطرة الخونة على الأمانة سر العامة لاتحاد العمال والاتحاد العام للعمال العراقيين لسنوات عديدة، مما أثر على العمال بالسلب من الجوانب التعليمية، والانضباطية، والمعنوية» فإنه يجب تطهير قيادة اتحاد العمال المشكوك في ولائهم وإحلال أعضاء جدد محلهم. ولم تفسر المذكرة كما لم تدلل لماذا تعتبر القيادة السابقة لاتحاد العمال العام مجموعة من الخونة، ولكن يمكن افتراض أن بعض منهم كان مرتبطاً بـ «المتآمرين» ضد صدام حسين الذين تم الكشف عنهم في الاجتماع الحزبي الشهير سيئ السمعة في صيف عام ١٩٧٩[٢].

---

(١) هنيبوش: «سوريا»، صفحات ٨٣ ـ ٨٤.

(٢) من الأمين العام لاتحاد العمال إلى أمانة سر الحزب: «مقترح»، ٢٩ مارس ١٩٨٠، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ١ ـ ١ (١٨٣ ـ ١٨٤).

وقبل صدور قانون عمالي جديد في منتصف عام ١٩٨٧، كتب صدام حسين مقالاً طويلاً عن قراره لترقية كل العمال ليرتقوا إلى مستوى أصحاب الياقات البيضاء من الموظفين. وأشار صدام إلى «أن القوانين السابقة قد عملت على الحفاظ على التمايز الطبقي والذي أضر بشدة بإنتاجية العمال. وأكد صدام على أن الحزب لم يعمل أبداً على إذكاء حدة الصراع الطبقي كما لم يتخذ منه هدفا أيديولوجيا للحزب» وأن الاتحادات التجارية قد أنشأت في العراق لتماثل نظائرها في الدول الأخرى، ولكن تلك الاتحادات «قد حققت أهدافها... والشكر والفضل في ذلك يرجع لحزب البعث»[١]. وبعبارة أخرى، رأى صدام حسين أن الاتحادات العمالية كانت قادرة على القيام بمهامها بسبب دعم الحزب لها، وأصبح الأمر الآن بيد الحزب ليقوم بتمثيل كل فرد. لذلك قضى قانون العمال رقم ٧١ لعام ١٩٨٧ بحل اتحادات العمال، وأكد على أن العاملين بالقطاع العام سوف يصبحون أعضاء في الخدمة المدنية لا العمالية. وضمن لكل عامل أن يتكسب أجرا كافيا للوفاء باحتياجات العامل أو العاملة الأساسية ومن يعولونهم من أعضاء أسرهم كما أكد على حق العمل لساعات محددة وعلى حقوق التقاعد[٢].

من وجهة نظر «شودري»، كان ذلك القانون جانبا من تحرك سريع لقطع الطريق على المعارضة لعملية الخصخصة التي شرحناها فيما سبق، وذلك بمنع الاتحادات العمالية في مشروعات قطاع الأعمال العام

---

(١) النص الكامل لمقال الرئيس صدام حسين: «لماذا حولنا العاملين إلى موظفين مدنيين»، ٣١ مارس ١٩٨٧، وقد ظهر في كتاب صدام حسين: الاقتصاد والإدارة في المجتمع الاشتراكي، ترجمة ناجي الحديثي (بغداد: دار المأمون، ١٩٨٨)، صفحات ١٩٧ ـ ٢١٩.

(٢) قانون العمل رقم ٧١ لعام ١٩٨٧، صحيفة الوقائع العراقية، عدد ٣١٦٣، ١٨ يوليو ١٩٨٧.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التابع للدولة والتأكيد على ملكية النظام للصناعات الاستراتيجية والصناعات الثقيلة[١]. ومع الأخذ في الاعتبار سيطرة الحزب على إدارة الاقتصاد والإنتاج، لم تكن العراق بذلك تختلف عن ألمانيا الشرقية، حيث أعتبر النظام أنه «لا يوجد رسميا أسس مشروعة لاحتجاج العمال أو معارضتهم لممثلي حزبهم في المشاريع الصناعية المملوكة للشعب»[٢]. وحين حدث انخفاض حاد في أجور ومرتبات القطاع العام في النصف الأول من عقد التسعينيات وكما أظهر مهدي في مقالته أنها كانت «أشد كارثية على العمال من استغلال القطاع الخاص للعمال»، لم تكن هناك اتحادات قوية لتتبني مشكلة أجور العاملين بالحكومة والقطاع العام، وترك الأمر لفروع الحزب لتضع تقارير عن متاعب وأحزان العاملين بقطاع أعمال الدولة ثم ترفع تلك التقارير إلى سلطات حزبية أعلى[٣].

وحتى قبل صدور قانون عام ١٩٨٧ وتفعيله، كان من الصعب إيجاد فروق جوهرية بين الاتحادات العمالية والنقابات المهنية من جهة وفروع الحزب من جهة مقابلة. فعلى سبيل المثال، كان شأن تنظيم زيارات أعضاء اتحادات العمال لأسر الشهداء من شؤون الحزب لا من شؤون الاتحادات والتي كانت تتبنى تقوية العلاقات بين الاتحادات وعائلات أسرى الحرب[٤]. كان على كل اتحاد أن يقدم تقاريره عن أنشطته في

---

(١) شودري: «في الطريق إلى السوق»، صفحة ١٧.

(٢) ماري فولبروك: «دولة الشعب: مجتمع ألمانيا الشرقية من هتلر إلى هونيكر، طبعة بغلاف ورقي» (نيو هافن سي تي: مطبوعات جامعة ييل، ٢٠٠٨)، صفحة ٢٢٤.

(٣) مهدي: «الإصلاحات الاقتصادية العراقية في المدى المنظور»، صفحات ٢١٥ ـ ٢١٦.

(٤) من السكرتير العام لاتحاد العمال إلى أمانة سر الحزب، ٢ ديسمبر ١٩٨٦، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٧٩ ـ ٤ ـ ١ (٠٠٢ ـ ٠٠٩).

المجالات المختلفة من توظيف، وتثقيف، وزيارة عائلات الشهداء، وكل شاردة وواردة، بالضبط بالطريقة ذاتها التي يقوم بها أي فرع للحزب[١]. وأصدر الديوان الرئاسي تعليمات للمكتب المركزي لاتحاد الفلاحين للبدء بإقامة علاقة تعاون بين القطاع الزراعي والقطاع التجاري من أجل إقامة معارض بهدف جذب الشركات العالمية الكبرى[٢]. وفي الحقيقة، كان ديوان الرئاسة لشؤون الحزب تتلقى التقارير من كل الاتحادات والتنظيمات الرسمية، وكلما كانت هناك حاجة لـ «انتخاب» ممثل للمكتب المركزي لاتحاد العمال؛ كانت أسماء المرشحين تقدم أولا لأمانة سر الحزب للموافقة عليها[٣].

ولما تداخلت الخطوط الفاصلة بين عضوية الحزب والاتحادات المهنية، امتنع كثير من أعضاء الحزب عن الانضمام لتلك التنظيمات والاتحادات، مفضلين عضوية الحزب. وبعثت أمانة سر الحزب بمذكرات لكل الفروع معلقة بقولها أنه ارتكانا للإحصائيات والمسح الذي تجريه، فإن عددا كبيراً من البعثيين، مثل المهندسين، والأطباء، والصيادلة، لم ينضموا للاتحادات التي تمثل مهنهم، وحذرت من أن عدد الأعضاء المستقلين غير الحزبيين بتلك الاتحادات بدأت تفوق أعداد الأعضاء الحزبيين، وهي ظاهرة «من الممكن أن يكون لها تبعاتها

---

(١) انظر، على سبيل المثال، جدول تعيين أعضاء جدد في اتحاد المرأة واتحاد الشباب في تقرير فرع النصر العظيم، ١ مارس ١٩٩٨، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ٤ ـ ٤ (٤٦٣).

(٢) تفاصيل اجتماع ممثلي المكتب المركزي للفلاحين والديوان الرئاسي، ٢٧ و٣٠ أكتوبر ١٩٨٥، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٧٥ ـ ٥ ـ ٣ (٠٠٣).

(٣) من السكرتير العام لاتحاد الفلاحين إلى ديوان الرئاسة للشؤون الحزبية، ٢٤ أبريل ١٩٨٥، انظر أيضاً المذكرة التي تحمل عنوان: «العضوية في اتحاد الفلاحين»، ١٠ ديسمبر ١٩٨٤، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٧٥ ـ ٥ ـ ٣ (٠٧٧).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

على عضوية ورئاسة تلك التنظيمات والاتحادات»[1]. أراد الحزب أن يضمن أن سيطرته على كل أوجه الحياة المهنية أصبحت تامة وكلية، وقام بتحريك ونقل أعضائه في كل انتخابات للتنظيمات المهنية المحلية حتى يتيقن من عدم نجاح أعضاء «مستقلين» ويحول دون وصولهم لإدارة الاتحاد المهني[2]. ومن الملفت للنظر، في سوريا، أن التنافس في انتخابات قيادات الاتحادات المهنية كان يحتد شكليا وظاهريا على الرغم من هيمنة حزب البعث، وكان أعضاء الحزب المرشحون في تلك الانتخابات المهنية يشكلون أقلية بين أغلبية من المستقلين في النقابات المهنية مثل نقابة الأطباء ونقابة الصيادلة[3]. وحتى قبل حل الاتحادات العمالية، كان أعضاء الحزب النشطون قد تلقوا أمرا بالانتقال من فروعهم الحزبية وأن يصبحوا أعضاء نشطين في مختلف الاتحادات المهنية، لإحكام سيطرة الحزب على تلك التنظيمات[4]. في حالات معينة، حين يريد بعض الأعضاء الرجوع إلى وظائفهم وأعمالهم الأصلية، كانوا يواجهون صعوبات في رجوعهم، وكانت أمانة سر الحزب تتدخل للحد من تلك النزعات[5].

---

(١) من أمانة سر الحزب إلى كل قيادات الفروع: «الانضمام للاتحادات المهنية»، ٧ نوفمبر ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٤ ـ ٥ ـ ٦ (٢٣٣).

(٢) انظر، على سبيل المثال، ملاحظة من أمانة سر الحزب تطالب كل الأعضاء للمشاركة في انتخابات نقابة المحامين في مارس ٢٠٠٠ لمنع المرشحين المستقلين من الفوز في تلك الانتخابات، ٢٨ فبراير ٢٠٠٠، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٤ ـ ٤ ـ ٣ (٣١١).

(٣) بت دبليو مورر وباسل ف. سلوخ: «النضال تحت ظل حكم استبدادي، يالدولة والاتحادات المهنية في العالم العربي»، الصحيفة الدولية لدراسات الشرق الأوسط، الجزء ٣٩، رقم ١ (فبراير ٢٠٠٧)، صفحة ٦٦.

(٤) انظر، على سبيل المثال، نقل عضو من وزارة الخارجية إلى اتحاد العمال، ٥ أبريل ١٩٨٠، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ١ ـ ١ (١٢٤).

(٥) من الأمين العام لحزب البعث إلى أمانة سر الحزب: «استخدام حزب العمال»، ٣=

كانت كل الاتحادات والنقابات المهنية منغمسة ومشاركة بأوامر من النظام في مواجهة معركة كسر قيود العقوبات الدولية في عقد التسعينيات. ووجهت التنظيمات المهنية والتنظيمات الشعبية خطابها لنظرائها من تنظيمات في أنحاء العالم مطالبة بدعم تلك التنظيمات والاتحادات للعراق للحد من تأثير العقوبات[1]. وأبلغ حزب البعث كل الاتحادات المهنية العراقية بما يجب عليها القيام به واستثمار اتصالاتها بتنظيمات العالم العربي والتنظيمات المماثلة في دول العالم ودفعها للقيام بدور إيجابي فعال في هذا المسعى. وكان على كل اتحاد من الاتحادات العراقية الإثنى عشر والتنظيمات المهنية القائمة في ذلك الوقت أن ترفع تقاريرها عن المجهودات التي قامت بها في هذا الصدد، وقوائم بالجهات التي تم الاتصال بها في جميع أرجاء العالم، وإجراءات ووسائل متابعة تلك الاتصالات الأولية. وتم توزيع خطب صدام حسين وتقاريره عن المصاعب والمتاعب التي يعاني منها شعب العراق على عشرات من التنظيمات المهنية والاتحادات العمالية في جميع أنحاء العالم[2].

وعلى الخط ذاته، وبينما كانت طبول الحرب قد بدأت تقرع في عام

=أغسطس ١٩٨٠، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ١ ـ ١ (٢٤٤). ومن المثير أن المذكرة دلت على أن الأعضاء كانوا ينقلون قبل الانتخابات في اتحاد العمال، وبمجرد أن تنتهي الانتخابات، يرى الأمين العام أن من حقهم العودة مرة أخرى لأعمالهم الأصلية، بعد أن يكون قد أمن على النتائج المطلوبة في الاتحاد. انظر قائمة المنقولين (٢٤٦).

(١) من أمانة سر الحزب إلى الديوان الرئاسي: «انتقالات»، ٢ مايو ١٩٩٤، القيادة القطرية لحزب البعث، ١٠٠ ـ ٣ ـ ٥ (٤٨٨).

(٢) المصدر السابق، (٥٠٠ ـ ٥٠٨). يحتوي الملف على تقارير عن اتحاد المعلمين واتحاد الشباب.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٢٠٠٢، طلبت القيادة السياسية من الاتحادات إرسال رسالة للولايات المتحدة عن عزيمة الشعب العراقي والعربي. كما صدرت مذكرة عاجلة من الديوان الرئاسي إلى أمانة سر الحزب تحمل أمرا من الرئيس بإرسال رسالة «من العمال في العراق للعمال العرب تطلب منهم الامتناع عن شحن وتفريغ سفن الشحن الأمريكية بالموانئ والامتناع عن تقديم أي خدمات لها. وأن ذلك لابد أن يشمل أيضاً كل الطائرات المدنية الأمريكية التي تهبط في مطارات جميع الدول العربية»[١]. وطلب من الاتحادات العربية أن تقرر وتختار إن كان من الأسهل عليها الدعوة لتلك المقاطعة بسبب الدعم الأميركي لـ «للأنشطة الصهيونية الأمريكية» في الأراضي العربية المحتلة[٢].

وفي المجمل، سعى حزب البعث العراقي لفرض هيمنته على السياسة الاقتصادية في القطاعين، العام والخاص، وإلى نزع شوكة الاتحادات العمالية والتنظيمات المهنية وإجبارها على العمل كتنظيمات مدارة من الدولة حيث يتشارك العمال وأعضاء الحزب في تمثيل واحد وتطلعات واحدة. ولم تغير التقلبات الاقتصادية من نهاية عقد السبعينيات حتى سقوط النظام في تلك التوجهات الجوهرية للحزب.

حزب البعث والمرأة

رأى حزب البعث نفسه كحزب علماني واشتراكي يسعى لإعادة إحياء الأمة العربية، ومن ثم مالت سياسته إلى تشجيع المرأة العراقية على تحسين أوضاعها الاجتماعية باقتناع وإيمان راسخ بأن تحريرها من القيود الاقتصادية، والاجتماعية، والقانونية ضرورة لا غنى عنها لتحقيق

(١) من الديوان الرئاسي إلى أمانة سر الحزب، ٤ أبريل ٢٠٠٢، مركز سجلات أبحاث القرار.
(٢) المصدر السابق.

النمو والرخاء في المجتمع العربي[1]. وفي عام ١٩٧١، قال صدام حسين نائب رئيس الدولة في ذلك الوقت مخاطبا الاتحاد العام للمرأة العراقية:

نحن جميعاً ـ في الحزب والحكومة والمنظمات الاجتماعية ـ نتوقع تشجيع تشغيل مزيد من النساء في المدارس، وأقسام الحكومة، ومنظمات الإنتاج، والصناعة، والزراعة، والفنون، والثقافة، والإعلام وكل أنواع المؤسسات والخدمات الاجتماعية الأخرى.

نحن نطالب بالنضال بلا كلل ولا هوادة ضد العوائق المادية والنفسية التي تقف كحجر عثرة في طريقنا على هذا الدرب[2].

وبتحليل ذلك الحديث، لاحظت «ماريون فاروق ـ سلوجليت» أنه كان تصويرا جيداً «للنغمة الأبوية» من صدام حسين تجاه تحرير المرأة، وبهدف لزيادة شعبيته بين الجماهير[3]. ولكن رغم ذلك، تم تسجيل انجازات ملحوظة في قضايا المرأة، خاصة في مجالي التعليم والرعاية الصحية. وازدادت أعداد الفتيات المسجلات في المدارس الأولية والثانوية زيادة حادة وملحوظة خلال عقد السبعينيات، كما ارتفع عدد الفتيات المسجلات بالجامعات من حوالي ٩٠٠٠ في عام ١٩٧٠ إلى ما

---

(١) حزب البعث، ثورة ١٧ تموز، صفحة ١٥٣.

(٢) صدام حسين: الشؤون الاجتماعية والخارجية بالعراق، صفحة ١٥. كان عنوان الحديث «المرأة: نصف مجتمعنا»، وألقى هذا الحديث في ١٧ أبريل ١٩٧١، في المؤتمر الثالث للاتحاد العام للمرأة العراقية.

(٣) ماريون فاروق ـ سلوجليت: «تحرير أم قهر؟ القومية العربية وحركة المرأة في العراق» في طبعة ديريك هوبوود، وحبيب عشو وتوماس كوزنوفسكي «سلطة العراق والمجتمع، سانت أنطوني لدراسات الشرق الأوسط» (ريدنج: أيثاكا برس، ١٩٩٣)، صفحات ٦٨ ـ ٦٩.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يزيد عن ٢٨٠٠٠ عام ١٩٧٩[١]. وركز الحزب أيضاً على مشكلة الأمية، التي كانت منتشرة وسائدة بين النساء (٧٠ بالمائة)، وكما أشار أحد التحليلات، كانت حملة محو الأمية التي تبناها الحزب فريدة في نوعها بالطريقة التي حققت بها التوازن بين «الإجبار والتطوع» وقدرتها على «التأسيس الأيديولوجي»[٢].

ومهما كانت الدوافع الخافية وراء تلك السياسات، فإن الحقيقة التي ظلت قائمة هي أنه كان هناك تقدم هائل ملحوظ في وضع المرأة في العراق. وخلال كل عقد السبعينيات ظل صدام حسين مدافعا عن حقوق المرأة، وقال: «علينا أن نركز على المساواة في الحقوق بين الرجل والمرأة، ونركز على التوازن في تلك الحقوق، وأن نركز على رفض وجهات النظر التي تضع المرأة في مرتبة ثانوية... نرفض وجهات النظر الإقطاعية والعشائرية والفكر العشائري تجاه المرأة»[٣].

وبشهرته في تكييف وجهات نظره الأساسية لتلائم تطلعاته السياسية، غير صدام حسين رأيه مع احتدام وطيس الحرب الإيرانية العراقية، في كل ما كان له علاقة بتحولاته الجذرية الأخرى الخاصة بالعشائرية والموقف من الدين. وفي جهده الذي كان يبذله لاجتذاب الجماعات الدينية في العراق، لمواجهة جاذبية أفكار آية الله الخميني والشبح المهدد للغلبة العددية السكانية لإيران فيما يتعلق بدور المرأة، وأطلق

---

(١) أمل الشرقي: «تحرير المرأة العراقية»، في تيم نيبلوك (محرر): «العراق: الدولة المعاصرة» (نيو يورك: مطبوعات سانت مارتين، ١٩٨٢)، صفحات ٨٠ ـ ٨١.

(٢) كريستوفر جي لوكاس: «الأمية العربية وحملة التعليم الجماعي في العراق»، دراسة مقارنة ومجتمع التعليم الدولي، الجزء ٢٥، رقم ١ (فبراير ١٩٨١)، صفحات ٨٣٠٨٤.

(٣) صدام حسين، في حلقة بحثية لمناقشة زيادة الانتاجية للمرأة العاملة، ٢٧ يناير ١٩٧٧: «المختارات»، الجزء ١٠، صفحة ١٩٠.

النظام سلسلة من الإجراءات التي كان لها تأثير عميق على وضع المرأة العراقية. فبعد عام من اندلاع الحرب، قرر مجلس قيادة الثورة تشجيع الزواج المبكر؛ وتوفير قروض شخصية بدون فوائد لأي شاب تحت سن الثانية والعشرين يقدم على الزواج. ولو كانت زوجة المستقبل المتوقعة طالبة جامعية، يخصص لهما مسكن زوجية مجاني في السكن الجامعي[١]. وظل تشجيع الزواج المبكر سياسة جوهرية حتى انهيار النظام في عام ٢٠٠٣؛ وشاركت إدارات حكومية كثيرة في ترتيب إجراءات الزواج المبكر وتشجيعه (وكذلك حفلات ختان الذكور) في نطاق إداراتهم، مع وهب العروسين منحاً مالية خاصة لتكوين أسر جديدة[٢] تنجب أطفالا. أهم القوانين في هذا المجال صدر عام ١٩٨٧ وكان لتشجيع وحفز زيادة الخصوبة والنسل. فقد خصصت مكافآت مالية للأسر التي تنجب الطفل الرابع، وعند تفعيل العمل بذلك القانون، كانت الأسر التي أنجبت الطفل الرابع قبل صدوره تمنح مكافأة على ما يلي الطفل الرابع[٣]. وشارك الحزب في تفعيل ذلك القانون بتوزيع هبات ومكافآت على النساء اللاتي استجبن لنداء النظام[٤].

---

(١) قرار مجلس قيادة الثورة رقم٦٣٢، ١٣ مايو ١٩٨١، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٢١ ـ ٥ ـ ٦ ٠٣٤٧ ـ ٣٤٨).

(٢) انظر قائمة من الموالين للحزب الذين تمت الموافقة لهم على الزواج المبكر، من بينهم فتاة كانت بالكاد قد أتمت الثامنة عشر من عمرها في تنظيم بغداد: «الزواج المبكر»، ١٣ يونيو ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ٥ ـ ٣ (٠٦٦)؛ والديوان الرئاسي: «أمر»، ١٠ نوفمبر ٢٠٠٠، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق وثائق ٠٠١ ـ ١ ـ ٧ (٠٥٧ ـ ٠٥٨).

(٣) قرار مجلس قيادة الثورة رقم ٨٨١، صحيفة الوقائع العراقية، عدد رقم ٣١٧٩، ٧ ديسمبر ١٩٨٧.

(٤) فرع دهوك: «إرشاد»، ٢٦ مايو ١٩٨٨٨، مركز وثائق شمال العراق، الحزب الديمقراطي الكردستاني ٠٢٩، صندوق وثائق ٢٣٠٥.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولا حاجة بنا للقول بأن تلك الإجراءات أجبرت كثير من النساء على البقاء في البيوت لرعاية الأطفال والحمل مجددا، وبمجرد أن انتهت الحرب، تأثرت عمالة النساء أكثر وأكثر لقلة الوظائف المتاحة لهن بسبب عودة كثير من الجنود لوظائفهم التي كانوا يشغلونها، وفقدت كثير من النساء وظائفهن. ورافق ذلك زيادة ونمو روح المحافظة، مما أدى إلى ازدياد خسارة المرأة للحقوق التي اكتسبتها في عقد السبعينيات. وقام النظام بتقنين وتشريع الممارسات العشائرية بالقتل دفاعا عن شرف العشيرة عام ١٩٩٠، وكانت زوجات المعتقلين والمدانين بالقيام بأنشطة معادية للنظام يشجعن على الانفصال عن أزواجهن بالطلاق[١].

وصدر قانون بمنع البغاء وتجريمه في عام ١٩٨٨، كما أدخلت تعديلات على القوانين المنظمة للطلاق والتي اعتبرت جانبا من تلك الموجة المحافظة الجديدة[٢]. ومن المثير، وعلى الرغم من أنه لم يكن انتقادا مباشرا للنظام، أعلن الاتحاد العام للمرأة العراقية عن «غياب التزام مؤسسات الدولة بالمساواة بين الجنسين»[٣].

وأدت حرب الخليج الأولى وما ترتب عليها من فرض عقوبات على العراق إلى مزيد من تآكل كثير من الإنجازات التي تحققت في مجال حقوق المرأة. وكما رأينا، كان العبء الاقتصادي على كل ربة منزل

---

(١) انظر سها عمر: «النساء: الشرف والعار والديكتاتورية»، في طبعة هازلتون، العراق منذ حرب الخليج، صفحات ٦٣ ـ ٦٤.

(٢) القانون رقم ٨ لمكافحة الدعارة، صحيفة الوقائع العراقية عدد رقم ٣١٨٦، ٢٥ يناير ١٩٨٨، ولقانون الطلاق انظر صحيفة الوقائع العراقية، عدد رقم ٣١٩٠، ٢٢ فبراير ١٩٨٨.

(٣) روديه: «علاقة الدولة بالمجتمع»، صفحة ٨٥. وعند روديه فصل تفصيلي على سياسة النوع الجنسي عند العث العراقي، ويعتمد بدرجة كبيرة على ما أوردته الصحف العراقية.

شديد الوطأة بسبب العقوبات الاقتصادية، وعانت النساء أكثر من الجميع. وكان من المؤثرات الإضافية الأخرى «فقدان الشخصية الاجتماعية وتدجين النساء المهنيات وإعادتهن للبيوت»[١]. واستمرت عمالة النساء في التقلص، كما تقلصت قيمة أجورهن الحقيقية بسبب التضخم الاقتصادي الشديد. ولكن كما تشير نادية العلي، فإنه على الرغم من تقلص عمالة المرأة على المستوى الرسمي، إلا أنهن استمررن في كونهن «ناشطات اقتصادياً ويلعبن دوراً هاما جداً في القطاع غير الرسمي المتنامي»[٢]. وبمعرفة ذلك، ناقش صدام حسين موضوع «عمل المرأة من بيتها» بطريقة تؤدي إلى نمو وتعظيم الإنتاجية بتأسيس علاقات تجارية مع كل من قطاعي الأعمال العام والخاص. ومنميا تلك الفكرة، قال أن «العائلة العراقية لديها إرادة قوية عالية للعمل من البيت؛ فالأغلب أن معظم النساء لا يعملن خارج بيوتهن، وفي حقيقة الأمر ليس من الملائم أن تعمل كل النساء خارج بيوتهن، وهكذا نجد أن علينا توظيف تلك القوة الكامنة»[٣].

وعلى الرغم من أن العراق كان يمر باختناقات اقتصادية قاسية من نهاية عقد الثمانينيات، لم يظهر على نصيب مشاركة المرأة في مجال النشاط الاقتصادي للجماهير أي انخفاض يمكن ملاحظته إحصائيا، فقد ظلت النسبة على وجه التقريب ١١ بالمائة بين الأعوام ١٩٨٧ و١٩٩٧،

---

(١) جاكلين س. إسماعيل وشيرين ت. إسماعيل: «الحياة تحت وطأة الحرب، والعقوبات والغزو: صوت المرأة العراقية»، الصحيفة الدولية لدراسات العراق المعاصر، الجزء ٢، رقم ٣ (٢٠٠٨)، صفحة ٤١٦.

(٢) نادية صادق العلي: «المرأة العراقية: القصص التي لم ترو من عام ١٩٤٨ حتى الآن» (لندن زد، ٢٠٠٧)، صفحة ١٨٧.

(٣) حديث للرئيس موجه لمجلس الوزراء في ٧ يونيو ٢٠٠٠، نقل في مذكرة من الديوان الرئاسي إلى أمانة سر الحزب، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٩ ـ ٢ ـ ٤ ـ ٠٣٧ـ ٠٤٨).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

واستمرت نسبة الطالبات في الجامعات تشكل الثلث من مجمل الطلاب بين الأعوام ١٩٨٩ و٢٠٠٠[١].

وعلى الرغم من أن مشاركتهن في المجال السياسي ظلت محدودة خلال تلك المرحلة، ألا أنهن ظللن مشاركات بقوة في مجال التعليم وإلى مدى أقل قليلاً في مجال الأعمال والتجارة. كان تجنيد المرأة وضمها لحزب البعث يأتي تاليا لتجنيد وضم الرجال. ورغم ذلك، وصلت امرأة واحدة فقط إلى قمة سامقة حيث أصبحت عضواً في مجلس القيادة القطري لحزب البعث: وهي الدكتورة هدى صالح مهدي عماش، وكان أبوها نشطاً بحزب البعث حين وصل للحكم أول مرة عام ١٩٦٣ وعاد للسلطة للمرة الثانية في يوليو ١٩٦٨. وفي سبتمبر عام ١٩٧١، مثلما حدث لكثير من البعثيين القدماء، أبعد صالح مهدي عماش عن وظيفته الوزارية وعرض عليه منصب سفير للعراق في فنلندا. حصلت هدى عماش على درجة الدكتوراه في علم الكائنات الدقيقة (مايكرو بيولوجي) من جامعة ميسوري بالولايات المتحدة وأصبحت عضواً في القيادة القطرية لحزب البعث في عام ٢٠٠١. كان من الواضح أن صدام حسين يعترف بكفاءة تلك العالمة الموهوبة، وكان في المجمل يحترم ويجل العلماء.

وشق الفكر المحافظ الطارئ والعائد طريقه إلى التركيب البنائي لحزب البعث العلماني. فقد بدأ الحزب يدفع النساء لتكوين «شعبهن» النسائية الخاصة، وكانت تلك الشعب معزولة ومفصولة عن فروع الرجال وخلاياهم. وبحلول منتصف عام ٢٠٠٢، كان يوجد تسعة وستون فرعاً حزبياً للنساء في أنحاء المحافظات العراقية، وتحت سقف تلك الفروع النسائية كان يوجد سبعة وثمانون شعبة نسائية. وكما يشير الجدول رقم ٦، فإن العدد الكلي للإناث اللاتي انضممن للحزب كان

---

(١) روديه: «علاقة الدولة بالمجتمع»، صفحات ١٠١ ـ ١٠٢.

يقل قليلاً من مليون امرأة، مما كان يمثل حوالي ٢٥ بالمائة من أعداد المنضمين الكلية للحزب. وبينما كانت الصفوة الحزبية تمثل ما نسبته ١٤,٥ بالمائة من عدد الأعضاء الكلي، مثلت النساء من صفوة الحزب نسبة مئوية لم تتعد ٢ بالمائة من عدد النساء الكلي المنضمات للحزب.

وفي عام ٢٠٠٢، حين كانت الأسلحة من بنادق ومسدسات توزع على كل الأعضاء المنتمين للحزب، دل جدول على أن فرع سعد في بغداد كان يضم ١٠١٩ امرأة (عضو فرع واحدة، و١١ عضو شعبة، ١٢٦ عضو فرقة نسائية، و٨٨١ عضو خلايا نسائية)، لم تحمل منهن سلاحا إلا ٦ بالمائة فقط. وحذر التقرير من أن هذا النقص في توزيع السلاح على نساء الحزب كان يؤثر على عمل ومهام كثير من العضوات حتى مستوى الخلايا[١].

جدول رقم (٦): إحصائيات عضوية المرأة في حزب البعث، عام ٢٠٠٢

شعب	خلايا	إجمالي(*)	أعضاء فروع	أع. شعب	أع. فرق	أع. نشطين	منتسبين	مؤيدين	متعاطفين	إجمالي(**)
٨٧	٣٤٣٠	٣٥١٧	٣٨	٨٥٣	٥١٢٨	١٤٨٧٧	٣٥٢٦١	٢٥٢٢٦٣	٦٥٧٠٣١	٩٦٥٤٩٦

(١) من فرع سعد بن ابي وقاص (من تنظيم الرصافة ببغداد) إلى أمانة سر الحزب: «نقص البنادق والمسدسات»، ١٦ يوليو ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٦ ـ ٢ ـ ٣ (٠٣٥ ـ ٠٣٩).

(*) لا يشمل هذا الرقم الإجمالي عدد الشعب النسائية التي لم تسجل في الإحصاء.

(**) لا تشمل الإحصائية بعض البنود الموجودة بالملحق رقم ٢، مثل المرشحين والمؤيدين بحماس.

المصدر: «إحصائيات المرأة في البناء الحزبي للدولة، ٢٥ يونيو، ٢٠٠٢»، مجلس قيادة الثورة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وفصلت مذكرة كتبتها أمانة سر الحزب في عام ١٩٨٥ تخصيص المهام المسندة للرفيقات الإناث؛ وكانت أغلب فرص المشاركة المتاحة هي التطوع كمعلمات في حملات محو الأمية)؛ والعمل التطوعي في القطاع الصحي (بالعيادات الشعبية)؛ وزيارة أسر الشهداء؛ وبالنسبة للشابات الأصغر سنا، الالتحاق إما بالجيش الشعبي أو الدفاع المدني[١]. غير أن فرصهن تضاءلت مع انقسام الفروع إلى فروع ذكور وإناث.

شاركت المرأة، ولو على نطاق أضيق، كمتطوعات في الجيش الشعبي الذي بدأ في التكون عام ١٩٧٧ وبعد ذلك بفترة كمتطوعات في جيش القدس حتى غزو العراق في ٢٠٠٣. وسمح لبعض السيدات بالالتحاق بالجيش النظامي والقوات الجوية، على الرغم من أن صدام حسين عبر عن تحفظه حول ذلك الأمر لأنه كان يعتقد أن كثيراً من الدول سمحت للنساء بالتسجيل في قواتها المسلحة كنوع من التظاهر الذي لا يؤدي بالضرورة إلى المساواة بين الجنسين[٢]. كانت النساء تتقدم بانتظام بطلبات للحصول على منح دراسية من وزارة الدفاع، إما لكليات علوم مدنية تابعة للجيش (في الأغلب الطب والهندسة) أو لأكاديميات عسكرية وشرطية معينة.

وفي ١٩٩٣، على سبيل المثال، تقدمت بطلبات التحاق ست وثمانين طالبة، وأظهرت ملفات تقدمهن صورة جيدة لحالتهن الدراسية.

---

(١) من أمانة سر الحزب إلى كل تنظيمات الحزب، ٦ أكتوبر ١٩٨٥، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ٣ ـ ٢ (١٠٨ ـ ١١٠).

(٢) صدام حسين: «المختارات»، الجزء ١٠، صفحة ١٩١. وكان ذلك جانبا من حديثه عام ١٩٧٧، وفيه أخبر مستمعيه أن مشاركة «المرأة الصهيونية» في حرب ١٩٦٧ ليس له تأثير حقيقي ولم يتجاوز الاستعراض الشكلي. لمزيد من التفاصيل عن مشاركة المرأة في الجيش، انظر روديه: «علاقة الدولة بالمجتمع»، صفحات ٦٦ ـ ٨٨.

أولاً، ودون استثناء، كنَّ جميعاً قد حصلن على درجات أعلى من المتقدمين من الذكور؛ وثانياً، كان بعضهن مستقلات سياسياً وغير منتميات لأي حزب، ولكن آباءهن كانوا من حاملي بطاقة «أصدقاء الرئيس» ـ حتى أن إحداهن أرفقت خطابا شخصيا بتوصية من رئيس الاركان ـ . ومما هو جدير بالملاحظة أن وزير الدفاع قرر تخصيص ٥ بالمائة فقط من المنح الدراسية العسكرية للنساء (أي خمسة عشر ملتحقة فقط من بين ست وثمانون فتاة متقدمة)، مما حدا بكبير معلمي الأكاديميات العسكرية للكتابة إلى مدير مكتب الأمانة سر العامة للحزب طالبا المشورة حول رفض مثل تلك المتقدمات المؤهلات تأهيلا جيداً[١].

ومن الروايات والنوادر المتداولة يبدو أن قائد الحزب، صدام حسين، كانت له علاقات عديدة بسيدات عازبات أو متزوجات خلال فترة حكمه، وتدل قصص عديدة كيف أنه شرح موقفه من الارتباط بعلاقات غير شرعية بالنساء[٢].

---

(١) من مدير برنامج التدريب العسكري إلى نائب الأمين العام للحزب (المسؤول عن كل برامج التدريب العسكري)، ٢٨ سبتمبر ١٩٩٣، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠١٣ ـ ١ ـ ٦ (٠١٩). لمعرفة المزيد عن المتقدمات من النساء، انظر (٠٢١ ـ ٠٦٨). كان عليهن ملء الاستمارات الاستجوابية ذاتها مثل زملائهن الذكور. كان على كل المتقدمين أن يوقعوا إقرارا يقرون فيه بأن إخفاء أي معلومات فيما يختص بإجابة ثلاثة أسئلة محددة عقوبته الإعدام، وهي إن كان المتقدم منتميا إلى حركة سياسية غير حزب البعث؛ وإن كان للمتقدم أو المتقدمة أي علاقة بالمتآمرين الذين عارضوا ثورة الحزب في ١٧ ـ ٣٠ يوليو ١٩٦٨؛ وإن كان لهم أي أقارب أعضاء في حركة سياسية غير البعث.

(٢) انظر، على سبيل المثال، قصة نقل موظف في وزارة الخارجية إلى الخارج حتى يتمكن صدام حسين من إقامة علاقة بزوجته، في ديلفير: «لعبة الاستخفاء»، صفحات ٣٨٦ ـ ٣٨٧.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حزب البعث والدين

على الرغم من أن النظام كان علمانياً بطبيعته، إلا أنه لم يكن على الأقل معاديا للدين بوجه عام في عقد السبعينيات: «ليس لحزبنا موقف متعادل بين الكفر والإيمان. فهو يقف دائماً مع الإيمان، غير أن حزبنا لم يكن ولن يكون أبداً حزبا دينيا»[١]. كان موقف صدام حسين تجاه الدين وحضور الصلوات في المساجد واضحا جداً لرفاقه، فهو لم يكن مراوغا فيما قاله. في أحد اجتماعات الحزب الداخلية في بداية عقد الثمانينيات والذي نوقشت فيه مسألة الدين، قال أحد الأعضاء أن «الدين يزيد من حصانة الفرد» مما دفع بصدام حسين للرد الفوري عليه قائلاً «لا يحتاج البعثي للتدين لتحقيق حصانة كحصانة عمر [الخليفة الثاني للمسلمين]»[٢].

وبالمثل، حين ورد إليه في أحد التقارير أن بعض كبار المسؤولين يرتادون المساجد ويؤدون الصلاة أثناء ساعات العمل، مما يؤدي بمرؤسيهم للتمثل بهم وتقليدهم، أعلن في تجمع داخلي أن الأعضاء «غير مسموح لهم بالصلاة أو الصلاة في جماعة» حيث أن ذلك يخلق ضغطاً لا مبرر له على زملائهم (بما فيهم الزملاء غير المسلمين)[٣].

وقبل أن يغير سياسته العامة في الثمانينيات، أكد صدام أن حزب البعث يجب عليه «أن يعارض تسييس الدين من قبل الدولة أو المجتمع»[٤]. وحين طفت الطائفية على وجه الأحداث بعد انتفاضة عام ١٩٩١، قال لمجلس وزرائه المصغر، والذي يضم أعضاء مجلس قيادة

---

(١) صدام حسين: «نظرة في الدين والتراث» (بغداد: دار الحرية للنشر، ١٩٨٠)، صفحة ٧.

(٢) مقابلة مع موظف كبير سابق بوزارة الخارجية العراقية، ١٥ يونيو ٢٠١٠.

(٣) مقابلة مع وزير عراقي سابق وعضو حزبي كبير سابق بحزب البعث، ١٧ أكتوبر ٢٠١٠.

(٤) صدام حسين: «نظرة في الدين والتراث»، صفحات ١٤ ـ ١٥.

الثورة وقيادة الحزب القطرية أنه لا يفرق على الإطلاق بين سني وشيعي، وأنه واجه تلك المشكلة لأول مرة حين كان يعيش بمنفاه الاختياري بالقاهرة وسأله واحد من القاهريين إن كان سنيا أو شيعيا. ودلل على صدق قوله بحقيقة أنه لا يوجد أي فرد من تكريت (مسقط رأسه) يعرف الفرق بين سني وشيعي[1]. ومن الصعب فعلاً أن نحدد إن كان ذلك صحيحا أم لا، ولكن من المقبول بالفعل أنه حتى في بداية الستينيات كان كثير من العراقيين يجهلون وجود أي فارق. ولم يكن استبعاد كثير من الشيعة من الوظائف العليا في الحكومة والجيش «من صنع تكريتي[هكذا] حزب البعث، ولكنه كان يرجع لسياسة تاريخية تقليدية طويلة الأمد»[2]. وعلى أي حال، لا يوجد أدنى شك في أنه بعد انتفاضة عام ١٩٩١، ازداد كبح وقهر النظام للشيعة بشكل أكثر وضوحا.

لقد كتب الكثير عن التغير الذي طرأ على سياسة صدام حسين المتشددة من معاداته للعشائرية وتحوله إلى تبني العشائرية وتحوله عن تبنى مبادئ العلمانية إلى تبني التوجهات الدينية[3]، غير أن الملفات تظهر بوضوح أن النظام ظل حتى انهياره ينظر بتشكك إلى كل الأديان وكل الأنشطة والممارسات الدينية. وهكذا، كانت هناك ازدواجية سياسية تجاه التزام النظام المعلن تجاه التدين العام من جهة، ومراقبة وقمع وكبت كل الأنشطة الدينية في الواقع العملي من جهة أخرى. كان موقف صدام حسين من الإسلام يرى أن الخرافات والأساطير قد غلبت على جوهر الدين وأصبحت وسيلة وطريق للوصول إلى الدين. وأخبر كبار

---

(١) تسجيل صوتي لاجتماع صدام حسين والقيادات، منتصف التسعينيات (غير معروف التاريخ بدقة)، مركز سجلات أبحاث الصراع.

(٢) دافيز: «ذكريات دولة»، صفحة ٥٨.

(٣) في السياسة العشائرية، انظر باران: «العشائرية الجديدة بالعراق»، وبنجيو: «كلمة صدام»، الفصل ١٣، «احتكار الإسلام»، صفحات ١٧٦ ـ ١٩١.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مساعديه عام ١٩٨٠ أن «الله ليس سنيا ولا شيعيا. وهو ليس كاثوليكيا ولا بروتستانتيا»، وان أغلب الناس قد ابتعدوا عن الدين الحقيقي واتبعوا فلسفات أخرى لا صلة لها بالدين الحقيقي[١].

كان صدام حسين حذرا من أي حركات دينية. ففي أحد اجتماعات مجلس الوزراء في منتصف الثمانينيات حين كان موضوع الإخوان المسلمين مثارا، أدلى بوجهة نظره وحرص أن تكون واضحة بلا أي التباس: «إنهم [أي الإخوان المسلمون] يرتكنون وينتظرون مراحل ما قبل الانهيار [انهيار النظم].... ولذلك علينا أن نحرمهم من تلك الفرص التي ينتظرونها.... وهم لا يأبهون ولا يعترفون بنظام الدولة، ولا حتى دولتنا كدولة إسلامية»[٢]. وحذر زملاءه من أن الإخوان المسلمين لن يقبلوا أبداً رؤية راقصة على شاشة تلفاز ولا بوجود المطاعم والمشارب التي تملأ شارع أبو نواس في بغداد. وفي سياسة نمطية، أردف صدام حسين قائلاً لمجلس الوزراء أن النظام لن يتصادم مع الإخوان المسلمين ولن يعلن معاداته ومعارضته لهم. «يجب أن نبدأ حوارا معهم ونطمئنهم أننا لن نهاجمهم. ويمكننا أيضاً إخبارهم أننا إخوة ولكن حديثهم عن دولة دينية يعد عدوانا علينا»[٣]. وعند مناقشة الموقف في السودان

---

(١) تسجيل صوتي لاجتماع عقده صدام عام ١٩٨٠، مركز سجلات أبحاث الصراع. وكما كان يحدث في تلك الاجتماعات السريعة، نوقش عدد من الموضوعات لم تكن على جدول أعمال الاجتماع. ومن بين الأمور ذلك اليوم ضمت طلب سلاح، والاتحاد السوفييتي، وإسرائيل... ألخ.. غير أن الحديث تطرق إلى موضوعات كانت بذهن الرئيس وغير مدرجة على قائمة موضوعات الاجتماع.

(٢) تسجيل صوتي لاجتماع صدام حسين بأعضاء من حزب البعث في الدول العربية. السكرتير العام لحزب بعث السودان بدر الدين مدثر كان من بين حضور ذلك الاجتماع، مركز سجلات أبحاث الصراع.

(٣) المصدر السابق.

وحكم الإخوان المسلمون له، خلط بين النميري(جعفر نميري، رئيس السودان) والخميني، ولكنه تدارك ذلك على الفور مازحا وقال أن في هذه الأيام «يبدو كل شيء مماثلا للخميني»[١].

وكما بينا في الفصل السابق، كان النظام يتوجس من أية حركة دينية، سواء كانت وهابية أو شيعية، وعمل على اختراق تلك الحركات الدينية ليتأكد من إحكام سيطرته عليها. كانت الحركة الوهابية مجرمة قانونا وخارجة على القانون العام للدولة لأنها من وجهة نظر النظام تمثل «انحرافا عن الإسلام الحقيقي». وحذرت مذكرة من أن التقارب الحادث في عام ٢٠٠٠ بين إيران والمملكة العربية السعودية ربما ينبئ ببداية تآمر مشترك بين حزب الدعوة الشيعي والحركة الوهابية السنية على النظام العراقي[٢].

كانت السلطات العراقية مقتنعة بأن المملكة العربية السعودية تمول جماعات معارضة للنظام العراقي. وحتى خلال عقد التسعينيات، كان كل من يظهر ميلا للوهابية يعد عدوا للدولة العراقية[٣]. وحين وصلت تقارير للحزب بأن هناك شكوكا تحيط بخطيب عيِّن حديثا إماما لجامع بالموصل يشك أنه وهابي، انزعجت السلطات واتخذت خطوات عاجلة لإحلال خطيب آخر محله[٤]. وتصور الوثائق بوضوح تخوف النظام من

---

(١) المصدر السابق.

(٢) من تنظيم الكرخ إلى كل رؤساء فروع الحزب بالكرخ: «أنشطة الوهابيون»، ١٨ يونيو ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٤ ـ ٣ ـ ١ (٣٨٨).

(٣) انظر، على سبيل المثال، تقرير الأمن عن الأنشطة في حي من أحياء بغداد (المشتل)، وكيف كان يراقب أصحاب المحال الذين يعتقد انهم يتعاطفون مع الوهابية، ٣٠ نوفمبر ١٩٩٥، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٥ ـ ١ ـ ٢ (٠٩٧ ـ ٠٩٨).

(٤) من أمانة سر الحزب إلى وزارة الأوقاف: «معلومات»، ١ نوفمبر ١٩٩٧، القيادة القطرية لحزب البعث ١٠٣ ـ ١ ـ ٥ (٠٤١).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المتعصبين الإسلاميين القادمين من المملكة العربية السعودية، فقبل شهرين من أحداث الهجمات الإرهابية التي وقعت في الحادي عشر من سبتمبر على الولايات المتحدة، تم إرسال تقرير سري وعاجل يحمل أمرا من صدام حسين لرؤساء فروع الحزب يأمر فيه بأن على كل الأئمة في كل الجوامع والمساجد أن يعلنوا في خطبة الجمعة أن الوهابية حركة كافرة وخارجة عن صحيح الدين، وأي إمام يرفض ذلك سوف يعاقب ويفصل من عمله[١]. وفي بدايات سبتمبر ٢٠٠١، عقد وزير الأوقاف والشؤون الدينية اجتماعا حضره أكاديميون، وكبار رجال الدين، وممثلين عن مختلف المؤسسات الأمنية لمناقشة المسألة الوهابية ـ كيف يحاربونها وكيف يظهرون أن تعاليمها لا علاقة لها بصحيح الدين الإسلامي[٢].

لم يقم النظام بمراقبة صلاة الجمعة فقط ومن يواظبون على الصلاة في المساجد، ولكنه كان شريكا في كل فعاليات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية في كل المؤسسات الدينية لمراقبة الجانب الديني، كما حاول فرض إظهار الولاء للحزب في كل مكان ديني[٣]. كان كل أئمة المساجد والمساجد ذاتها تحت المراقبة الدقيقة. في حالة من الحالات تم إحلال إمام محل إمام آخر في مسجد بأربيل لأن الإمام الذي تم إحلاله يعد عنصراً «أكثر مصداقية» تجاه النظام؛ وفي حالة أخرى، اعتقل جهاز الأمن الخاص إماما وأحاله إلى مشفى للأمراض العقلية،

---

(١) من أمانة سر الحزب إلى كل الفروع: «إرشاد»، ٢٣ يوليو ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٤ ـ ٤ ـ ٦ (٢٣١ ـ ٢٣٥).

(٢) من أمانة سر الحزب إلى رؤساء التنظيمات، ٨ سبتمبر ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٤ ـ ٤ ـ ٤ (٠٧٠)، اجتماع الوزراء تم في ٢ سبتمبر ٢٠٠١.

(٣) من أمانة سر الحزب إلى نائب سكرتير الحزب، ١٠ أبريل ١٩٩٦، القيادة القطرية لحزب البعث، ١١٩ ـ ٤ ـ ٨ (٢٥٤).

كما دس جهاز تسجيل خفية في بيت إمام كان يشك أنه يكنُّ مشاعر عدائية للنظام[١]. كانت صلوات الجمعة بجامع الحسن في مدينة صدام ترصد على الدوام ويسجل ما حدث خلال الخطبة والصلاة في تقارير يتم تحليلها تحليلا دقيقا، فقد كان الحزب منزعجا من وجهة نظر خطيب ذلك الجامع عن المرأة. فأثناء واحدة من خطب الجمعة تحدث عن النساء التي تعمل في المحال العامة، وقال أن ذلك يتيح لهن فرصا للانفراد بالرجال. وفي جمعة أخرى حيا المدارس والأحياء المجاورة لمنطقته، مدعيا أن ٩٩ بالمائة من نساء تلك الأحياء يرتدين الحجاب. وتم إبراز كل ذلك في تقرير مع توصية بوجوب مراقبته، كما انتقد ذلك الخطيب أيضاً رجال العشائر، الذين افترض أنهم يتخذون قرارات مستمدة من العادات والتقاليد أكثر مما يستمدونها من مبادئ الشريعة الإسلامية[٢].

تعامل النظام بسياسة ذات حدين مع الملتزمين بالدين. فقد طالب الحزب أعضاءه «بتوثيق علاقتهم بالقادة الدينيين في الجوامع وأن يعملوا على التأثير على مواقفهم الإيجابية والسلبية ودفعهم للتعاون مع الإدارة العامة للأمن»[٣]. وبالتوافق مع ذلك، طلب من كل فرع وشعبة بعمل مسح لكل الجوامع والحسينيات (مراكز دينية شيعية) في مناطقهم، وتقييم كل من يعملون بها من الناحية الأمنية. وأن يقدم كل فرع تقريرا

---

(١) أمن أربيل، ٢ ديسمبر ١٩٨٢، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٤٦، صندوق وثائق ٠٤٦؛ من جهاز الأمن الخاص إلى الديوان الرئاسي، ٢ أبريل ١٩٩٦، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠١ ـ ٢ ـ ١ (١٨٠ ـ ١٨١).

(٢) من فرع صدام إلى أمانة سر الحزب، ٦ و١٣ نوفمبر ١٩٩٨، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٩٣ ـ ٤ ـ ٤ (٠٧٧ ـ ٠٧٩).

(٣) من أمانة سر الحزب إلى جميع سكرتاريات فروع الحزب، ٨ أكتوبر ١٩٩٨، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٩٣ ـ ٤ ـ ٤ (٠٠١).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالنتائج التي يتوصل إليها. وسجل في محافظة صلاح الدين على سبيل المثال، أنه يوجد بها ٧٦ جامعا ومسجدا، وأن ٢٤ إماما من بين ٤١ إمام ممن يعملون بها يتوافقون مع سلطة الحزب، و٤ لديهم عضوية كاملة بالحزب. منهم ١٧ مستقلا تم تقييم مواقفهم بأنها إيجابية في مجملها، بل أن التقرير أوصى بترشيح مجموعة منهم ليكونوا أعضاء بالحزب؛ واثنان فقط من بين أولئك الأئمة طلب التقرير بوضعهما على قوائم المراقبة، بسبب شائعات تذهب إلى أنهما يخالطان «عناصر وهابية مشكوك بولائها للنظام»[١]. وبنهاية عام ١٩٩٨ طبقا لما ورد بأحد التقارير المسحية، كان يوجد بمحافظته ٣٧٢ جامعا، تقام صلاة الجمعة في ٣٢٠ منها، ويعمل بتلك الجوامع ٦٨٧ فردا ما بين خطيب ومؤدي شعائر وإمام[٢].

ومن بدايات عام ١٩٩٥ شكل الحزب لجنة في كل محافظة مكونة من أمين سر الفرع، ومدير الأمن بالمحافظة، ومدير قسم الأوقاف في المنطقة لتقييم كل القيادات الدينية وإتاحة الفرصة لكل منهم «بالمشاركة في الاستمرار على طريق المسيرة المنتصرة». وتم تصميم استمارة خاصة جديدة، طلب من كل من يعمل بمنشأة دينية أن يستوفي بياناتها. من ضمن أسئلة تلك الاستمارة: ماهي الميول السياسية للعامل؟ هل له أية ميول دينية متطرفة؟ هل له أية علاقات بأية حركات معارضة؟ هل له أي قريب فر من العراق؟ وأخيراً وليس آخراً: «هل يصلي ويدعو الله

---

(١) من فرع صلاح الدين إلى أمانة سر الحزب، ١٨ نوفمبر ١٩٩٨، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٩٣ ـ ٤ ـ ٤ (٠٢٤ ـ ٠٢٦).

(٢) أمانة سر الحزب: «دراسة»، ١٩٩٨، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٩٣ ـ ٤ ـ ٤ (٠٩٣ ـ ٠٩٧). من المشكوك فيه أن ذلك المسح شمل كل العراق، حيث يظهر العدد قليل نسبيا، كما لم تشر الدراسة إن كانت تشمل كل المحافظات.

ليحفظ السيد الرئيس حفظه الله في صلواته؟. ومع تسليم الاستمارة بعد استيفائها، كان على كل فرع أن يقيم ذلك العامل مع إضافة كل المعلومات الهامة عنه ذلك الفرد»[١].

كان الحزب يهتم أيضاً بمواقف ووجهات نظر القساوسة المسيحيين، وعلقت مذكرة من المذكرات بأنه على الرغم من أن أغلبهم يعد مستقلا ولا ينتمي لأي تيار أو توجه سياسي، إلا أنهم «عناصر جيده»، وأظهروا دعمهم للحزب. ووصف بعض كبار رجال الدين المسيحي بأنهم «متعاطفون مع أيديولوجية الحزب»[٢]. وكان الحزب يراجع أيضاً بانتظام من يدعمونه من بين الجماعات الصوفية وجماعات التكيَّة[٣].

وبالإضافة لمراقبة أولئك الأفراد المنتمين لمؤسسات دينية، كانت السلطات في غاية الحذر من المناسبات الاحتفالية الدينية وأية تجمعات ذات صبغة دينية (انظر الفصل السابع). كما أرسلت مذكرة لكل فروع الحزب يطلب منها وضع سجل للزوار في المناسبات الاحتفالية الدينية، حتى يمكن مراجعة تلك الأسماء لاحقا وفحص انتماءات أصحابها. ومكنت سجلات الزوار الأمن من مراقبة من يحضرون تلك الاحتفالات الدينية وجمع معلومات وافية عنهم مثل أعدادهم، وأعمارهم، ومعدل تردُّدهم على تلك الاحتفالات الدينية. وبوجه عام، دعت المذكرة إلى عدم تشجيع إقامة تلك الاحتفالات الدينية في محافظتي كربلاء والنجف، ولكن إن حدث وأقيمت الاحتفالات الدينية بهما، فيجب

---

(١) من أمانة سر الحزب إلى كل الفروع: «تقييم»، ٢٨ ديسمبر ١٩٩٥، القيادة القطرية لحزب البعث، ١٠٣ ـ ١ ـ ٥ (١٥٤؛ ١٨٩).

(٢) من أمانة سر الحزب إلى نائب الأمين العام الحزب، ٢٣ أغسطس ١٩٩٢، القيادة القطرية لحزب البعث، ١٤١ ـ ٥ ـ ٦ (١٣١ ـ ١٣٨).

(٣) كانت التكيَّة دارا للمحتاجين والفقراء ومدعومة من التوجهات الدينية، بالنسبة لتلك المذكرة، انظر القيادة القطرية لحزب البعث، ١٤١ ـ ٥ ـ ٦ (٠٠٨).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تفتيش كل من يحضرها تفتيشاً دقيقاً ومن يعثر معه على جهاز تسجيل لتسجيل الخطب الدينية لابد من اعتقاله لأسبوعين على الأقل لإجراء تحريات دقيقة عنه[١]. وحذرت مذكرة أخرى من ظاهرة معينة من المفترض أن توضع قيد المراقبة، أو الأفضل إيقافها ومنعها، وهي: حفلات العرس التي تنظمها بعض العائلات وتلقى فيها أشعار وأناشيد وأغانٍ دينية يلقيها منشدون يرتبطون بالإمام الصدر، والتي تتحول مع الحماس الديني الزائد إلى تجمعات مضادة للنظام؛ كذلك حالات الوفاة والدفن وتجمعات العزاء التي تتحول إلى تجمعات احتشادية، مع ترديد أناشيد وقراءات من كتب دينية في الوقت الذي تصرخ فيه النساء وتولول؛ وتتحول إلى زيارات جماعية حاشدة للأماكن المقدسة في كربلاء مساء الخميس التالي للوفاة ويقضون الليل للصلاة في تجمعات كبيرة. ودعت المذكرة أجهزة الحزب إلى دعوة القادة الدينيين إلى محاربة ذلك «الانحراف عن الإسلام»[٢]. وسجل أحد فروع الحزب في تقريره أنه يبدو أن هناك كثيراً من «الرحلات الدينية المنظمة» إلى الأماكن السياحية المقدسة، وأن تلك الرحلات بحاجة لفحصها أمنيا والتوصل إلى الأسباب التي تكمن خلفها[٣].

---

(١) من أمانة سر الحزب إلى الرفاق المسؤولين عن التنظيمات: «المناسبات الدينية»، ١٢ مارس ٢٠٠٠، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٤ ـ ٤ ـ ٣ (٠٣٢ ـ ٠٣٣). كانت السلطات منزعجة من شرائط التسجيلات الصوتية للاحتفالات الدينية التي توزع خارج الجوامع.

(٢) من أمانة سر الحزب إلى الرفيق على حسن المجيد: «ظاهرة سلبية»، ٢٢ فبراير ٢٠٠٠، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٤ ـ ٤ ـ ٣ (٢٠٩ ـ ٢١٢). قبل ذلك بعام، أي في عام ١٩٩٩، كان آية الله الكبرى محمد (صادق) الصدر قد أغتيل فيما اعتبر بأنه هجوم منظم من قبل نظام البعث ضد القيادة المستقلة لطائفة الشيعة.

(٣) من فرع المأمون إلى قيادة الحزب: «رحلات دينية»، ٦ يونيو ١٩٩٨، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ٤ ـ ٤ (٢٦٠).

وأرسلت أمانة سر الحزب وثيقة مفصلة إلى كل فروع الحزب حول السيطرة على احتفالات المناسبات الدينية ومنع «الممارسات السلبية». ومن الإجراءات التي اتخذت لمواجهة تلك الممارسات السلبية صدور توجيهات بألا تجرى مراسم جنائزية بعد دفن الميت دون الحصول على موافقة رسمية؛ وبمنع توزيع الأطعمة في المناسبات الدينية، لأن ذلك يتسبب في زيادة الحشود؛ وتوجيهات أخرى تقضي بجمع المعلومات عمن يحضرون تلك المناسبات ويبيتون في فنادق ونزل فور رصدهم[١]. وكجانب من الأنشطة الثقافية في داخل الحزب وخارجه، تم التأكيد على وجوب إيجاد وسائل للتصدي «للأنشطة السلبية»، كما دعيت كل الاتحادات والنقابات المهنية لمواجهة الممارسات الدينية بأيديولوجية حزب البعث ورفع شعار: «البعثي وأسرته نموذج مثالي للإلتزام السلوكي والانضباط»[٢]. كان النظام يشعر بحساسية موقفه تجاه الجماعات الدينية. وبحلول عام ١٩٩١، ادعى صدام حسين أنه ينحدر من نسل النبي محمد وابن عمه الإمام علي كجانب داعم لعبادة شخصيته[٣]. وبسبب المخاوف من القوة الروحية للمقامات الدينية الشيعية في النجف وكربلاء، قرر مجلس قيادة الثورة أن أي أحد مهما

---

(١) من أمانة سر الحزب إلى جميع الرفاق المسؤولين عن التنظيمات، ٢٩ مارس ١٩٩٧، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ٤ ـ ٤ (٤٧٠ ـ ٤٧٢). أرسلت نسخة من تلك المذكرة إلى كل الاتحادات وإلى نائب الأمين العام للمكتب العسكري.

(٢) المصدر السابق، انظر أيضاً تقرير عن الأنشطة الثقافية والممارسات الدينية في القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ٤ ـ ١ (١٧٧ ـ ١٨٢). وطالبت المذكرة بترتيب مزيد من الماتقيات وتوزيع خطب الرئيس وكتيبات الحزب المتعلقة بالدين والإيمان.

(٣) كين رنجل: «العراق أم المجاز؛ خيال مبهرج محسوب بدقة»، واشنطن بوست، ١٣ فبراير ١٩٩١.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان موضعه ـ باستثناء صدام حسين ـ يدعي أنه ينحدر من نسل الإمام علي سوف يعرض نفسه للحكم بالسجن لسبعة أعوام[1].

وبينما كان الحزب منغمسا في مواجهة كل الأنشطة الدينية استمر النظام في إطلاق ونشر حملته الإيمانية، فهو في العلن يدعم كل الأنشطة الدينية، ويطالب بمزيد من مظاهر التحفظ والتدين في المجتمع العراقي. كانت علاقة حزب البعث بالإسلام علاقة معقدة: فمن جانب، كان الحزب علمانيا حسب أيديولجيته المعلنة وكان مؤسسه مسيحيا، ولكن من جانب آخر، نما الحزب في بيئة إسلامية وكان على وعي تام بأهمية الدين في العالم العربي. ومن ثم، فقد وجد صدام حسين أنه من الأسهل له أن يتبنى الإسلام كأحد مدخلاته السياسية، واستخدامه إلى الحد الأقصى لصالحه. فتبنى النظام بناء جوامع جديدة، وأصدر صدام حسين أمرا عاماً بترميم وإصلاح الجوامع والمساجد القائمة في مختلف المحافظات[2]. كما شرع في بناء جامع (أم المعارك) في بغداد، على أن يكون أكبر مسجد جامع في العالم، كما تمت إعادة تصميم العلم العراقي ليضاف إليه عبارة: «الله أكبر». ضيقت السلطة أيضاً الخناق على افتتاح المقاهي الجديدة والمطاعم، وعلى فتح النوادي الليلية والخمارات أثناء شهر رمضان وأمرت بإغلاق كل المطاعم وحتى الكافيتيريات في المكاتب الحكومية لتتوافق مع قواعد صيام شهر رمضان. كما أمرت الإذاعة ومحطات التلفزة بتخصيص ساعة كل يوم للبرامج الدينية، وعلى وجه الخصوص قبل الإفطار في شهر الصيام

---

(١) قرار مجلس قيادة الثورة رقم ٢٠٦، ٢٧ نوفمبر ٢٠٠٠، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق وثائق ٠٠١ ـ ١ ـ ٧ (٠١٥).

(٢) انظر، على سبيل المثال، الأمر بإصلاح الجامع الحلزوني في سامراء، ١٩ أبريل ١٩٩٩، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٢١ ـ ٢ ـ ٧ (٠٧٨).

وبعد الإفطار مباشرة[١]. كما كرس النظام كثيراً من تركيزه وانتباهه للتقويم الديني؛ فكان يحتفل بالمناسبات الدينية الهامة مثل ذكرى المولد النبوي تحت الرعاية الشخصية للرئيس، وأمر كل فروع الحزب بإقامة الاحتفالات بالمناسبات الدينية في مناطقهم[٢].

ومرة بعد أخرى كان صدام حسين يكرر في خطبه وأحاديثه وتوجيهاته حثه للعراقيين على اتباع تعاليم القرآن وشدد على أهمية بناء جيل يستمد أخلاقه وقيمه من القرآن، جيل يعتمد في نمط حياته على التمثل بقيم وأخلاق النبي محمد[٣]. وبعد ذلك في عقد التسعينيات، وعلى مدى ثلاثة أعوام، تمت كتابة نسخة كاملة من القرآن بعدد صفحات وصل إلى ٦٠٥ صفحة بدماء صدام[٤].

وفي تحرك ملتبس ومخادع كان الغرض منه سحب البساط من تحت أقدام الحركات الدينية، أمر صدام حسين في عام ١٩٩٤ بإنشاء معهد صدام حسين للدراسات القرآنية، مع التأكد من أن أعضاء تلك الكلية تتم الموافقة عليهم من قبله شخصيا قبل تعيينهم وعلى أن يكون كثير من

---

(١) من الديوان الرئاسي إلى كل الوزارات وبلديات المدن: «تعليمات»، ١٥ مارس ١٩٩٠، القيادة القطرية لحزب البعث، صندوق ٠٠٣ ـ ٤ ـ ٧ (٣٢٤ ـ ٣٢٥). لمزيد من التفاصيل عن الحملة الإيمانية والنوايا تجاه المحافظين، أمظر ردوديه: «علاقة الدولة بالمجتمع»، صفحات ١٠٩ ـ ١١٢.

(٢) من الديوان الرئاسي إلى كل الإدارات الحكومية، ٢٨ أبريل ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٩ ـ ٢ ـ ٢ (١٢٠ ـ ١٢٢).

(٣) وزارة الأوقاف والشؤون الدينية: «أمر وزاري»، ١٨ أغسطس ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٤ ـ ٣ ـ ١ (١٤٣ ـ ١٤٥).

(٤) أخبار الإذاعة البريطانية، ٢٥ سبتمبر ٢٠٠٠. بعد غزو العراق في ٢٠٠٣، حفظ هذا المصحف في قبو مسجد، انظر مارتن شولوف: «مصحف مكتوب بدم صدام حسين يتسبب في ورطة لقادة العراق،» الجارديان، ١٩ ديسمبر ٢٠١٠.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

طلابه من أعضاء حزب البعث. وبالفعل، عمل المعهد وكأنه إدارة حزبية وأصبح خاضعا لسلطة أمانة سر الحزب (انظر الملحق رقم ١). وكان من بين أهم أهداف ذلك المعهد تفسير القرآن. ولا حاجة بنا للقول، أن ذلك التفسير الذي وضعه المعهد كان متأثرا إلى درجة كبيرة بتوجهات النظام.

ومع بدايات عام ٢٠٠٠، ضم المعهد ثلاثة مراكز جديدة تابعة له ـ فرع بغداد، والبصرة، ونينوى ـ وخرج في ذلك العام ما يربو على ١٠٠٠ خريج[١]. وعلى أقل التقديرات، كان حوالي ٢٠ بالمائة من خريجي ذلك المعهد أعضاء بحزب البعث، وفي عام ٢٠٠٢ بدأ المعهد في اختيار بعض من رجال الإدارة والتعليم به وبعض طلابه لأداء فريضة الحج في مكة، على ضوء أهمية معرفة «مايفكر به الحجاج للتعامل مع الأمور التي تثار [أثناء الحج]»[٢].

وفي خطاب له وجهه لطلاب الصف السابع في المعهد، تحدث عزة ابراهيم نائب الأمين العام للحزب عن الحملة الدينية وأهميتها قائلاً: «انظروا لعراق اليوم... كيف أصبح لديه شعب عظيم تحت قيادة حزب عظيم، مماثل لأخلاق النبي وصحابته وسلوكياتهم [وحكمهم]. نحن لسنا حزبا دينيا، ولا حزب ثوري تقليدي... نحن حزب رسالة الإسلام، رسالة

---

(١) في نينوى، شارك ١٨٦ في العام الجامعي ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠١، لمعرفة أسماء الطلاب، والمقرر الدراسي، والدرجات، انظر القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٤ ـ ٢ ـ ٣ (٣٩٢ ـ ٣٩٦). من بين المقررات الدراسية مادة علوم القرآن، والسنة النبوية، والشعر والأدب، والترهيب والترغيب في الإسلام، والمادة الأخيرة استخدمها الملاحظون بعد ذلك لوصف نظام حزب البعث.

(٢) من أمانة سر الحزب إلى نائب السكرتير العام: «تحديث»، ٢ أبريل ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٤ ـ ٢ ـ ٣ (٠٨٥).

العرب»[1]. أبلغ عزة ابراهيم الطلاب الجدد أن الرئيس، مقتفيا خطى الخليفة عمر بن الخطاب، سيستمر في نشر الدراسات القرآنية وأن مزيدا من المراكز والفروع التابعة للمعهد سوف تفتتح في القريب العاجل، وقرن أيضاً المعارك التي خاضها الخليفة عمر ضد الفرس بالحرب التي خاضها العراق ضد إيران تحت قيادة صدام حسين[2].

وعلى الرغم من أن المقررات الدراسية للمعهد كانت تحتوي على مواد دراسية مثل حياة النبي محمد وتاريخه، إلا أنها ضمت أيضاً مواد دراسية أخرى كانت في مجملها سياسية بحتة. وكان من بين موجبات إعطاء تقويم تخرج بدرجة «امتياز» معرفة «أبعاد أفكار الرفيق القائد» و«مصادر الأحاديث الإيمانية للقائد»[3].

خلال الموسم الدراسي ٢٠٠١ ـ ٢٠٠٢، كان من بين خريجي المعهد ٢٤١ منتميا للحزب، كل منهم كان إما عضو فرع أو عضو شعبة (أي أنه لا يوجد من بينهم من هم من الصفوف الدنيا القاعدية للحزب). وجاءوا من نطاق وظيفي واسع الطيف ومن خلفيات اجتماعية متباينة، ومن أعمار ما بين الخمسة وخمسين عاماً إلى الستين عاماً، ومنحوا عاماً أو عامين إجازة دراسية من أعمالهم للتفرغ للدراسة بالمعهد[4].

---

(١) حديث للرفيق عزة إبراهيم، ١٦ أكتوبر ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٤ ـ ٢ ـ ٣ (٢٤٤ ـ ٢٥٦). حضر الاحتفال بالمناسبة أعضاء القيادة القطرية، ومن بينهم هدى صالح مهدي عماش.

(٢) المصدر السابق.

(٣) لمعرفة منهج ١٩٩٨، انظر القيادة القطرية لحزب البعث، ٠١٢ ـ ٣ ـ ٤ (٠٧٤)؛ وللاطلاع على قائمة بالأطروحات التي فازت في نهاية العام الأكاديمي ٢٠٠٢، انظر القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٤ ـ ٢ ـ ٣ (٠٥٦).

(٤) من عميد معهد صدام إلى الديوان الرئاسي، ١٠ يوليو ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٤ ـ ٤ ـ ٦ (١٢٣).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وبالإضافة للدراسة في ذلك المعهد، كان على أعضاء الحزب أن يلتحقوا ببرامج دراسية خاصة على شكل دورات دراسية تم إعدادها كأحد جوانب الحملة الإيمانية التي تبناها الحزب. كان على كل فرع وكل شعبة أن يرشح بعض أعضائه ليسجلوا اسماءهم لحضور تلك الدورات، وكانت كل دورة تستمر لستة أشهر، ويتلقى المتخرجون بعدها شهادة دبلوم من المعهد[١]. وداوم بعض الدارسين على حضور وظائفهم مع حضور تلك الدورات المسائية.. واحدة من المذكرات ورد بها أن أحد الأعضاء أصيب بجروح حين كان يقوم باعتقال مهربين ويحتاج لشهر حتى يشفى وسوف تفوته الدراسة بالبرنامج[٢].

كانت تلك المشاهد والعروض العامة العلنية من الإيمان والتدين جانبا من المجهودات التي يبذلها النظام والحزب لنيل الدعم في كل من العراق والعالم الإسلامي بأجمعه. وبعد حرب الخليج في عام ١٩٩١، اقترح الحزب عمل برنامج تلفزيوني تقدم فيه القيادات الدينية للمشاهدين، خاصة قادة الجنوب شرحا لـ «نوايا القوى العظمى الإمبريالية ضد العراق»، والدور الذي يجب أن يقوم به الإسلام في محاربة العناصر الأجنبية[٣]. وفي أواخر عام ٢٠٠٢، أصدرت القيادة

---

(١) انظر خطاب من المعهد ودرجات أحد الطلاب المتخرجين، ٢١ أغسطس ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠١٢ ـ ٣ ـ ٤ (٠٧٣ ـ ٠٧٤). وللاطلاع على أجازة للدراسة مدفوعة الأجر لـ ١٢٣٩ عضوا بالحزب للدراسة بالعام الدراسي ٢٠٠١ ـ ٢٠٠٢، انظر الديوان الرئاسي، ٣٠ ديسمبر ٢٠٠١، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٤ ـ ٢ ـ ٣ (١٩٥).

(٢) من عميد معهد صدام للدراسات القرآنية إلى أمانة سر الحزب، ٢٥ أبريل ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٤ ـ ٢ ـ ٣ (١٥٥).

(٣) أمانة سر الحزب: «مقترح»، ٢٦ أغسطس ١٩٩٢، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٥ ـ ١ ـ ٢ (٣٤٢).

الدينية في النجف فتوى عن «واجبات المسلم تجاه التهديد الأميركي» و«حكم الدين على كل من يتعاون مع أميركا في مخططاتها لمهاجمة العراق»[١]. كان من الأهداف الهامة الأخرى للحملة الإيمانية تركيز صدام حسين على الشباب ومعتقداته، وحتى قبل الحرب الإيرانية العراقية، كان حزب البعث يخسر الشباب الذين يميلون للتدين وكان يرى أن ذلك يشكل تهديدا خطيراً على مستقبله. وأشارت كثير من الوثائق إلى مدى خطورة ذلك الأمر والمصادر والإمكانيات التي خصصت لمواجهة تلك المشكلة[٢].

الأطفال، والشباب والطلاب تحت حكم البعث

كما شرحنا في الفصل الثاني، ركز الحزب اهتمامه الخاص على ضم الشباب والطلاب، مقتنعا بأهميتهم في استمرارية الحزب وأنهم يمثلون «أقيم ما نملكه». في واحد من أحاديثه، قال صدام حسين: «بعض الآباء ابتعد عنا لأسباب وعناصر عديدة، ولكن الصبي الغر ما زال في متناول أيدينا» وطالب بالتحول إلى التركيز على أولئك الأطفال الصغار. واقترح «التحويط» على البالغين باستخدام أبنائهم، وأصر على وجوب تعليم الأطفال ثلاثة أشياء هامة: الاعتراض، ولكن باحترام، حين يناقش آباؤهم أسرارا حزبية، وأن يعترضوا إذا أسرف آباؤهم في

---

(١) أفتى بهذه الفتوى الإمام علي حسين السيستاني من النجف وأصدرها استجابة لسؤالين وجها إليه من الحزب. للفتاوى والخطابات المرفقة، انظر رسالة من أمانة سر الحزب إلى نائب الأمين العام للحزب، ٣٠ سبتمبر ٢٠٠٢، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٩ ـ ٢ ـ ٥ (٠٠٢ ـ ٠٠٣).

(٢) انظر، على سبيل المثال، الاجتماع الخاص في مجلس قيادة الثورة من مجلس الأمن القومي لمناقشة موضوع «الدين والشباب»، ٣١ ديسمبر ١٩٧٩، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ١ ـ ١ (٤١١ ـ ٤١٢).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إتلاف ممتلكات الدولة، وأخيراً، أن يأخذوا حذرهم من الأجانب. وطبقا لذلك قال أن معلم المدرسة الابتدائية أهم كثيراً من معلم المدرسة الثانوية العليا، والذي يعد بدوره أهم كثيراً من أستاذ الجامعة، لأن أستاذ الجامعة سوف يتسلم طلابا ناضجين ليس من السهل إعادة تشكيلهم[١]. ويعد هذا نمطاً متكرراً في كل النظم التي ماثلت نظام حكم البعث، والتي كانت تبذل جهودا خطيرة وحثيثة ومطولة لـ «السيطرة على طاقات الشباب وتوجيهها»[٢]. أراد صدام حسين أن يعين كبار المسؤولين لإرشاد الشباب وتوجيههم، بافتراض أن الشباب قابل للتشكل ويميل لتقليد الكبار، وأحس أن تلك القيادات لابد أن تكون من بين أعضاء الحزب ذوي الخبرات المتميزة[٣]. وفي مناقشة خاصة حول ضرورة تغيير المناهج الوطنية، أوصى صدام بتعليم الأطفال أن حزب البعث حقيقة لا يمكن إنكارها ولا دحضها، وتعليمهم كل ما يتعلق بقادة الحزب وإنجازاتهم[٤]. حتى مناهج دور الحضانة تعرضت للتغيير لتقوية «التعليم الوطني» وذلك بتعيين مزيد من المعلمين البعثيين[٥].

---

(١) خطاب ألقاه صدام حسين في وزارة التخطيط، ١٠ يوليو ١٩٧٧: «المختارات»، الجزء ٢، صفحات ٢٥ ـ ٣٧. انظر مزيد من التفاصيل عن ذلك الخطاب في ماكيا: «جمهورية الخوف»، صفحات ٧٧ ـ ٧٨.

(٢) بالنسبة لألمانيا الشرقية تحت الحكم الشيوعي، انظر فولبروك: «دولة الشعب»، صفحة ١٢٧.

(٣) خطاب لصدام حسين لاتحاد الشباب، ١٥ فبراير ١٩٧٦: «المختارات»، الجزء ١٠، صفحات ٢٥ ـ ٢٩.

(٤) صدام حسين يناقش تقرير لجنة التعليم لإصلاح المناهج القومية، ٤ ـ ٣ يونيو ١٩٧٥: «المختارات»، الجزء ٤، صفحة ٨٨.

(٥) من فرع النصر العظيم إلى أمانة سر الحزب، ٥ يونيو ١٩٩٩، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ٤ ـ ١ (١٧١).

الشكل رقم (١١): صورة لصدام حسين تحتفي بواحدة من أقواله الفلسفية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تم تأسيس عدد من الهيئات والمؤسسات لتعليم كل من الأطفال والشباب وإعدادهم بدنيا وسياسيا. وكانت منظمة الطلائع خاصة بالأطفال من سن العاشرة إلى الخامسة عشر ثم تم استبدال الإسم بعد ذلك ليصبح أشبال صدام (أو شرطة صدام). أما أولئك الذين تتراوح أعمارهم ما بين خمسة عشر عاماً إلى عشرين عاماً فقد كان يضمهم منظمة الفتوة (تنظيم الشباب)[١]. وفي تقييم تفصيلي لتدريب الشباب اعتمادا على المعلومات والبيانات من خمسة معسكرات حضرها ١٢٢١ طالبا، تم استنتاج أنه على الرغم من أن التدريب العسكري كان جيدا، إلا أن التدريب البدني كان أقل نجاحا، وأن الأنشطة الثقافية كانت أضعف الجوانب. وقال عشرة بالمائة من الطلاب الذين أجريت لقاءات معهم أن العلاقة بينهم وبين ضباطهم الذين يدربونهم كانت عادية إن لم تكن ضعيفة، غير أن الأغلبية وصفوا علاقاتهم بالطلاب الآخرين بأنها كانت جيدة[٢]. فيما اشتكى آخرون من الحزب بأن الانضباط كان غائبا عن تلك المعسكرات ونسبة غياب مرتفعة؛ ويظهر جدول بياني أنه خلال أسبوع في أغسطس عام ١٩٨٦، لم يحضر ما بين ١٠ إلى ٣٠ بالمائة من الطلاب المسجلين للتدريب. واستنتج صدام حسين أن مصادر الإنفاق غير كافية لتعليم الطلاب سياسياً وطالب بالإسراع بتنفيذ البرامج الثقافية[٣]. ونتيجة لتلك التقارير، قرر مجلس قيادة الثورة أن الطلاب

---

(١) دافيز: «ذكريات دولة»، صفحات ٢٣٢ ـ ٢٣٣؛ ماكيا: «جمهورية الخوف»، صفحات ٧٦ ـ ٧٧.

(٢) دكتور م. (حجب الإسم)، مركز الأبحاث التعليمية والعلمية والدراسات، الاتحاد الوطني للطلاب والشباب (يحتمل أن ذلك كان في عام ١٩٨٦)، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ٢ ـ ٧ (٢٥٧ ـ ٣٠٧).

(٣) من أمانة سر الحزب إلى مكاتب التنظيمات، ٢٥ سبتمبر ١٩٨٦، القيادة القطرية لحزب=

المتغيبين لمدة تزيد عن سبعة أيام سوف يعاقبون بالرسوب في عامهم الدراسي بالجامعة حتى لو اجتازوا اختبارات نهاية العام الدراسي بنجاح. إضافة لذلك، فإن الطلاب الذين يقومون بخرق خطير لنظم وقوانين الانضباط بالمعسكرات سوف يطردون من مدارسهم، ويحرمون من كل أنشطة الحزب، ويلحقون بالجيش على الفور[1].

كان التعليم السياسي للشباب يهدف لتحقيق غرضين: فقد كان مستهدفا منه من جهة، توسيع آفاق ضم الشباب للحزب، ومن جهة أخرى، للوقاية من تعرض الشباب لأفكار سياسية مغايرة وعلى الأخص الأفكار الدينية، وهي ميول طالما خشى النظام منها، حتى من قبل الحرب ضد إيران[2]. وعلى الرغم من ذلك التخوف والقلق من الأفكار الدينية، كان الحزب قلقا في الوقت ذاته من عدم اتباع القيم والتقاليد الإسلامية. فمثلاً، أرسلت مذكرة للديوان الرئاسي تحذر من انتشار

=البعث، ٠٠٣ ـ ٢ ـ ٧ (١١٢٣ ـ ١٢٠). تلى ذلك تقرير من اللجنة الخاصة التي أمر صدام حسين بتشكيلها والمكونة من أمانة سر الحزب، وممثلين عن المؤسسات الأمنية، والديوان الرئاسي، لدراسة النتائج العاجلة لمعسكرات التدريب.

(١) قرار مجلس قيادة الثورة رقم ٧٢٠، ٨ سبتمبر ١٩٨٦، تحتوي القائمة على أسماء والانتماءات التعليمية لـ ٦٦٨ طالبا الذين غابوا عن حضور البرنامج لما يزيد عن ٧ أيام. وتظهر قائمة أخرى ٢٨ دارسا الذين ارتكبوا أخطاء كبيرة. من ضمن الجرائم الكبرى ضرب ضابط، والتعارك مع طالب آخر، والتسلل ليلا من المعسكر، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ٢ ـ ٧ (٤٢٨ ـ ٤٣٠). للاطلاع على القائمتين، انظر ٠٤٣٢ ـ ٤٧٩)، و(٤٨٠ ـ ٤٨٢).

(٢) انظر المذكرة المؤرخة ٢٩ ديسمبر ١٩٧٩ التي تحذر من انجذاب الشباب إلى «الحركات الدينية الرجعية»، وأخرى مؤرخة ٧ يونيو ٢٠٠١، لإطلاق حملة مضادة «للأفكار الدينية السامة بين الشباب»، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٣ ـ ١٤ (٤١١)؛ ٠٠٣ ـ ٢ ـ ٦ (٦٣٧).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فيديوهات العري والأفلام الجنسية التي تعرض في بعض الفنادق والحانات، والتي تجذب أعدادا كبيرة من الشباب[١].

لعب الحزب دوراً محورياً في التنظيمات الشبابية وفي مؤسسات التعليم العالي مماثل لأنشطته التي قام بها في مختلف مجالات ونواحي حياة المجتمع العراقي. وتم إنشاء مكتب خاص للتعامل مع طلاب المرحلة الثانوية في جميع مناحي الأنشطة التي يديرها الحزب في مجالات الثقافة، والرياضة، والفنون، والسياسة، يكون مسؤولا في الوقت ذاته عن مد ونشر شبكة الحزب بين الطلاب من عمر خمسة عشر حتى ثمانية عشر عاما[٢]. كانت هناك كثير من الجوانب والأمور التي وجب على ذلك المكتب مراقبتها؛ خلال العام الدراسي ١٩٨٥ ـ ١٩٨٦ كان عدد الطلاب الكلي في كل مراحل التعليم الثانوي بأنواعه يزيد عن أربعة ملايين طالب، بما يعني زيادة مقدارها ١٢ بالمائة مقارنة بالعام الدراسي ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠[٣]. كان الحزب يقظا فيما يختص بالمدرسين الذين يقاومون أن يصبحوا جزءاً من حزب البعث أو يعملوا تحت لوائه، كما كان يتابع الطلاب قبل تخرجهم ويتدخل في التحاقهم بالجامعات، مستخدما سجلاتهم الدراسية (انظر الفصل السابع) والتقارير الكثيرة التي يجمعها من المدارس وتنظيمات الشباب[٤]. ووضع ديوان الرئاسة

---

(١) من أمانة سر الحزب إلى الديوان الرئاسي، ١٩ فبراير ١٩٩٧، القيادة القطرية لحزب البعث، ١٠٤ ـ ٣ ـ ٣ (٣٠٢ ـ ٣٠٣).

(٢) انظر، على سبيل المثال، خطة العمل المفصلة التي وضعها مكتب المدارس الثانوية بالسليمانية، والذي كان تابعا للاتحاد الوطني للطلبة والشباب في العراق، ٣ يوليو ١٩٨٤، مركز وثائق شمال العراق، الاتحاد الوطني الكردستاني ٠٤٧، صندوق ٣٠٢.

(٣) من رئيس الاتحاد الوطني لطلبة العراق للمكتب المركزي للطلاب: «أنشطة الاتحاد»، ٢٦ أبريل ١٩٨٧، القيادة القطرية لحزب البعث، ١٦١ ـ ٣ ـ ٣ (١٨٥).

(٤) «دعوة»، برنامج تلفزيوني يعتمد على الوثائق التاريخية، يقدم البرنامج وثائقا من شمال العراق مؤرخة بتاريخ ١٣ مارس ١٩٨٦، و٤ مارس ١٩٨٩.

للشؤون الحزبية، بالتعاون مع أمانة سر الحزب خططاً للأنشطة أثناء الأجازات الصيفية الجامعية لشغل الطلاب بالتعليم السياسي وجذبهم للحزب. وفي خلال العام الدراسي، كانت تعقد لقاءات حزبية بالطلاب بعد انتهاء الدروس الجامعية مباشرة، حتى لا يتعلل الطلاب بأي عذر لتجنب حضور تلك اللقاءات.وحاول المخططون إيجاد حل لمشكلة طلبة العلوم، الذين عليهم أن يحضروا دروس المختبرات العملية بعد انتهاء المحاضرات النظرية والذين لا يتوفر لهم أي وقت حتى المساء مما لا يسمح لهم بحضور مثل تلك اللقاءات. أما الطالبات اللاتي يعشن في السكن الجامعي فقد كانت اللقاءات الحزبية تعقد في السكن الجامعي ليسهلوا على الطالبات حضور اللقاءات. وأخيراً، اقترحت الخطة ألا يزيد زمن أي من تلك اللقاءات الحزبية عن ساعة حتى لا يفقد شباب الطلاب تركيزهم وانتباههم[١].

ولا يوجد شك في أن الخط الفاصل بين المسؤوليات الأكاديمية والمهام الحزبية أصبح غير واضح لكثير من الأكاديميين. فمثلا، حين أتم عميد كلية العلوم بجامعة المستنصرية الفصل الدراسي، طلب أن تدفع له كل مخصصاته وحوافزه عن طريق فرع الحزب الذي ينتمي إليه، كما كان قد اعتاد على ذلك قبل أن يصبح عميدا. وفي حالات أخرى كان يظهر كثير من التماس بل والتداخل بين الأكاديميين وأهداف الحزب؛ فعلى سبيل المثال، كتب رئيس جامعة الأنبار وكان في الوقت ذاته عضوا بحزب البعث رسالة يشكو فيها مر الشكوى من تدخل عضو الفرع الحزبي والذي كانت وظيفته تنحصر فقط في مراقبة الأنشطة الجامعية. وانتقد ذلك الرفيق لأنه رغم عدم خبرته بالعمل الأكاديمي، كان يتخذ قرارات أكاديمية عن امتحانات الطلاب، ويعين مدرسين

---

(١) من أمانة سر الحزب للشؤون الحزبية إلى الديوان الرئاسي، ٢٩ نوفمبر ١٩٨٤، القيادة القطرية لحزب البعث، ١١٩ ـ ٥ ـ ٦ (٤٢٥ ـ ٤٢٧).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

جدد، ويستبعد ويقيل أخرين متجاوزا كل القوانين. وفضلا عن ذلك اتهم رئيس الجامعة رفيقا آخر بالتسبب في حالة من الفوضى لرفض دخوله مقر اجتماع مجلس الجامعة حاملا سلاحه الشخصي، على الرغم من الحقيقة الواضحة من أن «كل أعضاء مجلس الجامعة بعثيون» ولم يدخلوا بسلاحهم. واختتم رئيس الجامعة رسالته بتذكير أمانة سر الحزب بأنه «بعثي ويحمل شارة الحزب، وأنتمي لعائلة بعثية، ولولا حزب البعث ما كان لي أن أتبوأ المركز الذي أشغله»[١].

وتظهر أنشطة اتحاد الطلاب جهة أخرى تم الهيمنة عليه من قبل الحزب، كما يصور كيف كان على حزب البعث للسيطرة على الأنشطة الطلابية لا في العراق فقط، بل أيضاً على من يدرسون بالخارج. كان لاتحاد الطلاب فروع وأقام ممثلوه مجالس في كل الجامعات في أنحاء العراق. وكان لاتحاد الطلاب فروع بالخارج أيضاً وله صحيفة دورية خاصة وهو مدعوم من وزارة التعليم العالي وحزب البعث. وفي عام ١٩٩١ تم دمج الاتحاد الوطني للطلبة مع منظمة الشباب، وزاد ذلك من سلطته ومدى تأثيره ونفوذه. ومن المثير، أن تقريرا من أمانة سر الحزب دل على أن الاتحاد كان يضيف إليه أعضاء بالكم لا بالكيف، وأن كثيراً من المنضمين لم يكونوا متوافقين بما يكفي مع أيديولوجية الحزب[٢]. وعكست وثيقة من الأمن عن الوجود الحزبي في مؤسسات التعليم العالي هذا النقد للاتحاد الطلابي والحزب معا، ورصد ذلك الضعف

---

(١) لقراءة الرسالة الكاملة المؤرخة ٢٥ سبتمبر ٢٠٠٠، وملاحظات تنظيم محافظة الأنبار وديالا، والتي كانت مسؤولة عن الجامعة، والمؤرخة ٢٧ سبتمبر ٢٠٠٠، انظر، القيادة القطرية لحزب البعث ١٨٣ ـ ٤ ـ ١ (٠٨١ ـ ٠٨٥).

(٢) من تنظيم بغداد إلى أمانة سر الحزب: «دراسة عن الطلاب والشباب»، ٢٨ أكتوبر ١٩٩١. وتضم الدراسة رسم بياني لتركيب الاتحاد، القيادة القطرية لحزب البعث، ٠٠٥ ـ ١ ـ ٢ (٦٦٢ ـ ٦٩٢).

الواضح للاتحاد الوطني لطلبة وشباب العراق الذي فشل في اجتذاب الطلاب المستقلين للحزب، والأعداد المتزايدة من الطلاب الذين يتهربون من حضور الأنشطة الحزبية بالتعلل بعدم توفر الوقت لديهم أو بالحالة الاقتصادية[١].

أما بالخارج، فقد كان أحد المهام الأساسية لهذا الاتحاد مراقبة الطلاب العراقيين الآخرين. وهناك تقرير من الاتحاد الاسكتلندي للطلاب في اسكوتلاند من جامعة ستراثكليد يتهم الاتحاد الوطني لطلبة وشباب العراق بمضايقة الطلاب العراقيين المعارضين للنظام الحاكم في العراق، واللجوء للعنف البدني أحياناً لتخويفهم ومضايقتهم[٢]. وهناك تقرير آخر كتب من لندن ومرفق مع الوثائق يذكر بالتفصيل دور السفارة العراقية بلندن؛ فقد كان على كل طالب عراقي جديد في لندن أن يملأ استمارات كثيرة جدا، وكانت كل تلك المعلومات تمرر إلى الاتحاد الوطني. كان كل طالب يصنف إما مع النظام أو معادياً له[٣]. ونظمت فروع الاتحاد بالخارج احتفالات للاحتفاء بعيد ميلاد صدام حسين كما كانت توزع مواد مطبوعة عن الحزب وإنجازاته. وأخذ الاتحاد على عاتقه مسؤولية دعم الطلاب العراقيين، فحين خفضت الرواتب التي تدفع للطلاب بالخارج في عام ١٩٨٧ نتيجة لتردي الحالة الاقتصادية،

---

(١) من قيادة الأمن إلى الديوان الرئاسي: «تركيب الحزب البنائي في الجامعات والأكاديميات»، ٩ يونيو ١٩٩٤، القيادة القطرية لحزب البعث، ١٠٠ ـ ٥ ـ ٣ (٤٢١ ـ ٤٢٢).

(٢) من أمانة السر العامة لمكتب الطلاب إلى أمانة سر الحزب، ١٤ يونيو ١٩٨٧، القيادة القطرية لحزب البعث، ١٦١ ـ ٣ ـ ٣ (٠٠٣ ـ ٠٤٤).

(٣) المصدر السابق، انظر أيضاً تقرير من الاتحاد في مدريد عن الطلاب العراقيين المشكوك في معارضتهم للنظام (٣١٩).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قام الاتحاد في بلجيكا بالضغط بشدة على الحزب لأن تخفيض الرواتب يسبب كثير من المصاعب للطلاب وأسرهم[1].

وكما يوضح العرض السابق بوضوح، فرض حزب البعث هيمنته على مختلف نواحي الحياة المدنية في العراق ـ على الاقتصاد، والاتحادات، والتفرقة الجنسية، والدين، والتعليم ـ وكان تأثيره على كل الأنشطة المدنية قويا جداً وملحوظاً بوضوح. وفي مجمل جمعه لكل خيوط وعناصر السلطة في يده، عمل الحزب على نسج شبكة من السيطرة والهيمنة على كل أطياف الحياة العراقية.

(١) من الاتحاد الوطني لطلبة العراق إلى المكتب المركزي، ٩ مايو ١٩٨٧، القيادة القطرية لحزب البعث، ١٦١ ـ ٣ ـ ٣ (١٢٠).

الخلاصة

صمد نظام حزب البعث أمام تقلبات الزمن على مدى خمسة وثلاثين عاماً خاض خلالها حربين عظميين، وصراعات عسكرية متكررة مع الأكراد، وتصدى لانتفاضة كبرى في عام ١٩٩١ بعد انتهاء حرب الخليج الأولى، وقاوم ثلاثة عشر عاماً من عقوبات اقتصادية قاسية. وبفحص الأعمال الداخلية لحزب البعث، فإن السؤال الذي سعى هذا الكتاب لطرحه هو: ما هي مواصفات ذلك النظام المميزة له؟ وكيف تمكن من الاستمرار في السلطة لزمن طويل كهذا؟ وأخيراً، هل كان مقدرا له أن يستمر لو لم يحدث الغزو بقيادة الولايات المتحدة للعراق في عام ٢٠٠٣؟

هنالك طرق عديدة يمكن بها أن نفسر قدرة النظام على الاستمرار لزمن طويل. ويتعلل بعض الباحثين بأن نظام الحكم الديكتاتوري لا يمكن أن يدار من قبل ديكتاتور بمفرده، مهما كانت سلطته مطلقة. «فالإقرار بأن الديكتاتورية تنتعش بمشاركة واسعة تستمد قدرتها من دوافع كثيرة ومختلفة تتراوح من ادعاء المثالية حتى فرض الخوف، وهو ما يفسر إلى حد كبير استمراريتها لبعض الزمن»[١]. وسواء في العراق أو في أي بلد آخر غيره مسيطر عليه بـ «نظام مستبد وبوسائل من الوصاية

(١) أوفيري: «الديكتاتوريون»، صفحة ٣٤.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأبوية» فإن ذلك يعبد الطريق لاستقرار نسبي واستمرارية طويلة[1]. ويشرح «فاكلاف هافيل» المشاركة في ذلك الإثم مشيرا إلى المضامين التي تطرحها آلاف من شعارات الحزب، التي تعد معبرا يوميا لإضفاء معنى على حياة المواطنين العاديين، وخلص إلى القول أنها تعمل على:

تذكير الناس أين يعيشون وما هو المتوقع والمنتظر منهم. وهي تخبرهم بما يفعله كل واحد آخر، وتوجههم بما يجب أن يقوم به كل منهم أيضاً، إن لم يحبوا أن يستثنوا، أو يقعوا في وطأة الانعزال، وعزل أنفسهم بعيدا عن المجتمع، ويخرجوا عن قواعد اللعبة ويخاطروا بخسارتهم للسلام وراحة البال والأمن[2].

وأكد ماكس فيبر على أنه «لو كان على الدولة أن توجد، فإن الخاضعين للسلطة يجب أن يطيعوا الحكم القائم بحكم السلطة التي يحوزها ذلك الحكم». وطرح السؤال الحرج والخطير: «متى ولماذا يطيع البشر؟ وعلى أي موجب شرعي وبأي وسائل خارجية ترتكز تلك السيطرة والهيمنة؟». ويجيب بأنه في البلاد التي عانت من الديكتاتورية وسياسة عبادة شخص الحاكم، فإن الإجابة تعتمد على الظروف السائدة وعلى التاريخ:

هناك قيادة غير عادية وتتمتع بهبات شخصية وجاذبية شخصية (كاريزما)، وتكريس مطلق من شخص يتمتع بثقة شديدة لرؤية خاصة، مع بطولة، وصفات الأخرى للزعامة الفردية. تلك الصفات تفرض هيمنة كاريزماتية كتلك التي اتصف بها الأنبياء، أو كما تظهر ـ في مجال السياسة ـ من أمير حرب، أو حاكم يأتي باستفتاء

---

(١) بيرثيز: «الاقتصاد السياسي في سوريا»، صفحة ١٣٣.

(٢) هافيل: «سلطة من لا سلطة لهم»، صفحة ٣٦.

على شخصه منفردا لا بتنافس انتخابي متعدد مثلما يفعل قائد من محرضي الجماهير، أو زعيم الحزب السياسي الأوحد[١].

ورغم أن نظام حكم حزب البعث كان نظام حكم الحزب الواحد، إلا أن الفترة التي نخضعها للدراسة يمكن أيضاً لها أن تتناسب مع نمط «نظم الحكم الفردي» حيث لا يكون الجيش ولا الحزب بالقوة الكافية لمنع «القائد من فرض هيمنته الشخصية بقراراته المنفردة واختياره لشخصيات النظام بنفسه»[٢]. على أي حال كان نظام حكم حزب البعث يجمع بين صفات كل من نظام الحزب الواحد ونظام الحكم الفردي. فقد وزعت الفوائد والمنافع والمزايا على قطاع واسع من المواطنين، أوسع مما يتاح عادة في نظم الحكم الفردي وحدها، ولكن على عكس نظم حكم الحزب الواحد، كان النظام مهيمنا عليه إلى حد كبير من قبل «فرد، أو عائلة، أو عشيرة، أو عرق، أو جماعة إقليمية»[٣].

كان النظام الاستبدادي العراقي فريدا بشكل ما في نوعه، بسبب تاريخ العراق. فقد كانت بذور الاستبداد مزروعة من قبل وصول صدام حسين وحزب البعث للسلطة بزمن طويل. لقد أدت كثير من العوامل إلى ظهور حزب البعث ونموه، مثل عدم الاستقرار، وتكرار فترات فراغ السلطة، والحاجة إلى إيجاد توجه جديد، كل ذلك تضافر معا وأدى إلى صعود حزب البعث. وبمجرد أن تمكن من الإمساك بمقاليد السلطة، راح يقهر ويخضع معارضيه ويتخلص من كل أشكال المعارضة.

---

(١) ماكس فيبر: «السياسة كمهمة رسمية» من ماكس فيبر: مقالات في علم الاجتماع، ترجمت وحررت مع كتابة تقديم من ه.ه.جيرث وس. رايت ميلز، طبعة بغلاف ورقي (أكسفورد: روتلدج، ٢٠٠٧)، صفحة٧٩.

(٢) جيديس: «ماذا نعرف عن التحول الديمقراطي»، صفحة ١٣٢.

(٣) المصدر السابق، صفحة ١٣٣.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ودون تساؤل، كان النظام مستبدا، وديكتاتوريا، وقمعي من أول أيامه على وجه التقريب حتى انهياره الكارثي المفجع في عام ٢٠٠٣. ومثل روسيا الستالينية، لم يكن لدى النظام العراقي أي قدر من التسامح مع أي شكل من أشكال المعارضة، سواء كانت حقيقية أو متخيلة، عنيفة أو مسالمة. وعملت مؤسساته الأمنية بطريقة ممنهجة لقمع الجماهير وقام بعمليات مراقبة جماعية داخل الحزب وخارجه.وهنا في هذا الموضع، نجد أن هناك حاجة لتذكير أنفسنا أنه ليس غير البعثيين فقط من عانواعلى أيدي النظام؛ فقد تحمل أعضاء من الحزب وألاف من الضباط والجنود كثيراً من الصعوبات والمعاناة القاسية تراوحت بين الطرد حتى الإعدام عقابا على ما فسرته السلطة بأنها أعمال معادية للنظام، وعلى الرغم من أن بعض من تلك العقوبات كانت في بعض الأحيان بدوافع من الغيرة أو الخصومة.. وبالتماثل مع ستالين أيضاً، لم يرد صدام حسين لأي واحد، حتى أولئك الذين كانوا معه من البداية، أن ينعم براحة شديدة واسترخاء نفسي أو أن يترك له فرصة تحقيق سلطة كافية قد تتحول إلى تهديد شخصي له.

من الناحية الاقتصادية، كان العراق محظوظا بطفرة هائلة في أسعار النفط حققت له عوائد مالية هائلة في عقد السبعينيات، أدت إلى حالة من الرخاء والانتعاش قوى القواعد المؤيدة لحزب البعث. فضلاً على ذلك، أدى طول بقاء النظام في الحكم ومركزية اتخاذ القرار إلى تعاون معقول على المستوى العام. وكما اتضح من هذا الكتاب، لم تكن هناك سياسة اقتصادية ثابتة؛ فالنظام خصص الموارد ووزعها على مجموعات من أصحاب المصالح، وتم إصدار قوانين لاستيعاب أصحاب المصالح المتعاونين والموالين للنظام، مثل قانون العمل الذي صدر عام ١٩٨٧ والذي قلص من حقوق العمال.

لا يوجد شك أيضاً في أن أعدادا كبيرة من العراقيين الموهوبين

والمتعلمين لعبوا دوراً كبيراً في استمرار الدولة والنظام على الرغم من الدمار الكبير الذي حاق بالبلاد بعد حرب الخليج الأولى. فلو ضربنا مثالا واحدا، نجد أن بنهاية حرب ١٩٩١، كان ٩٠ بالمائة على وجه التقريب من شبكات الكهرباء قد دمر، غير أنه بالقرب من نهاية عقد التسعينيات، وعلى الرغم من العقوبات الدولية المتشددة والقاسية، كان العراق قد أصلح شبكات الكهرباء وأعاد بناء الاقتصاد. وتمكن وزراء مثل وزير البترول ووزير التصنيع الحربي من تكوين فرق عمل كبرى من المهندسين الموهوبين والفنيين المهرة، الذين أعادوا بناء بلدهم بعبقرية ومهارة وحذق.

وفي الواقع الحقيقي، لم تكن أيديولوجية حزب البعث مهيمنة كهيمنة الأيديولوجية الشيوعية، ولم تحقق أية مفردة من مفردات شعار الحزب المكونة من الاتحاد والحرية والاشتراكية. لقد كانت تلك الأيديولوجية مرنة أيضاً وقابلة للتعديل طبقا للظروف، وبحلول التسعينيات تحولت إلى عبادة الفرد التى أحاطت بها شخصية صدام حسين بأقل مقاومة من منظري الحزب. وفي الحقيقة، كان من النادر أن تكون المسائل الأيديولوجية سببا لأي صراع داخلي، بل أن الصراعات دارت بسبب الصدام بين الأشخاص المتطلعين لمناصب أكبر أو مزيد من التصعيد في المناصب. وبتصفح مواد الحزب الأرشيفية، يصعب على المرء أن يتقبل أو يتفهم أيديولوجية الحزب ومحتواها. والنقطة الهامة التي تستوجب إبرازها أن صدام حسين لم يكن متعمقا في النظريات السياسية والنقاشات التنظيرية العامة حولها، وكان على الدوام يطالب الحزب بالتعامل مع الجوانب العملية للحكم. وعلى ضوء ضعف أيديولوجية البعث الفكرية والتنظيرية، طوعت الأيديولوجية نفسها لتتحول إلى نظام حكم استبدادي. وفي الحقيقة، لم يكن هناك دعم ولا مؤازرة داخل الحزب (في كل من الفرعين، السوري والعراقي) لـ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«مفهوم حكومة برلمانية ذات مسؤولية»[1]. كان للنظام أوليات وسياسات محددة، ولكن في الأغلب، حتى في السياسة الخارجية، كانت تلك السياسات تتغير مع الوقت. وأصبحت الدول العربية التي كانت تساند العراق في حربه ضد إيران في الثمانينيات أعداءاً للعراق في عقد التسعينيات، وحدثت تغيرات مماثلة في علاقات العراق بالدول غير العربية. كان الثابت الوحيد الذي لم يتغير هو العداء تجاه نظم البعث الأخرى في المنطقة ـ وهو نظام بعث سوريا بالطبع. كان هذا الافتقاد الأيديولوجي هو الذي يميز بين العراق والنظم الشمولية الأخرى ولكنه لم يؤثر على استمراريته في الحكم. كانت توجهاته مركزة على الوقاية من الانقلابات العسكرية، والتأكيد على فرض الهيمنة والسيطرة بزرع الخوف، وابتداع نظم من المكافآت ضمنت ولاء عدد كبير من المواطنين. وبطريقة ما، ركزت الأيديولوجية ـ أو سياسة الأمر الواقع ـ على البقاء في السلطة، وتم تكييف السياسات المتبعة وفقا لذلك الهدف. كان حزب البعث يعمد بعد كل أزمة إلى تجديد نفسه، حتى بعد انتفاضة عام ١٩٩١ التي لم تكن متوقعة ولم يتم الإعداد لمواجهتها سلفا.

كانت سياسة ضم الأعضاء للحزب ناجحة نسبيا، إلا أنه كان يضيف داعمين للنظام لا قيمة لهم عمليا على الرغم من أن أولئك المنضمين لم يوافقوا على كل نواحي وجوانب السياسة الرسمية. وأدى هرم السلطة، والذي تطور ونما على قاعدة عريضة نسبيا من المؤيدين، لنشوء صعوبات في التواصل بين القيادة وتلك القاعدة؛ كانت كثير من الأوامر غير مضبوطة ولا دقيقة، وتصدر شفاهة ودون تفكير مسبق. وفي الغالب كانت تنفذ بطرق ملتوية وبيروقراطية، بينما لم تنفذ بعض من تلك

(١) ديلفن: «حزب البعث»، صفحة ٢١٤.

الأوامر على الإطلاق. ومن المثير، قبول كثير من المؤيدين التأكيد الدائم على وجوب الانضباط، على الرغم من أن المستوى الأدنى من كوادر الحزب لم يتم إبلاغه بعقوبات الخروج على الانضباط التي كانت تتخذ ضد كبار رجال الحزب[١]. «وبقى المجتمع محبطاً بسيل من ملايين الخيوط الدقيقة المزيفة اليومية، بين التكيف والتوافق»[٢]. وعلى قمة ذلك الهرم جلس صدام حسين، يساعده عدد ممن كونوا ما يسمى بالقيادة: رباعي من الرفاق الذين رافقوه من بداية حياته السياسية والذين لم يشكلوا أي تهديد لسلطته. ويمكننا أن نضيف إلى هذا الرباعي إبن صدام الأصغر، قصي، الذي عين في التسعينيات قائدا للحرس الجمهوري القوي وجهاز الأمن الخاص.

وهكذا، يمكن لنا أن نفسر امتداد حكم النظام واستمراريته الطويلة بتصميم القيادة على استئصال شأف أي نوع من المعارضة من مهدها، سواء كانت مدنية أو عسكرية، وإرادة النظام في استعمال العنف وفرض الخوف للسيطرة على الجماهير؛ ونظام مكافآته الشامل والعام؛ ونجاحه في توظيف وضم أعدادا كبيرة من المؤيدين على الرغم من أن كثير منهم لم يكن نشطاً حزبياً بالكامل؛ وقدرته على استغلال ملكات ومواهب وكفاءات المتعلمين من العراقيين لإعادة بناء الدولة واستمرارية نظمها البيروقراطية، وأخيراً، حدة ذكاء وبصيرة صدام حسين وقدرته على إزاحة معارضيه ومنافسيه والإبقاء عليهم في حالة من السيولة والميوعة حتى النهاية. لم يسمح أبداً لأي أحد ولا حتى لولديه، عدي وقصي،

---

(١) وجد موقف مماثل في الاتحاد السوفييتي، انظر ميريدال: «سياسات موسكو وصعود ستالين»، صفحات ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٢) تيموثي جارتن آش: «الحقائق عن الديكتاتورية»، نيو يورك ريفيو للكتب، الجزء ٤٥، رقم ٣، ١٩ فبراير ١٩٩٨.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أن يحوز ما يكفي من قوة لتحدي رئاسته. وفي الحقيقة، وأثناء استجوابه بعد اعتقاله، قال صدام حسين بوضوح تام أنه لم يعط لهذا الأمر أي قدر من الاهتمام أوالتفكير، على ضوء سنه الصغير نسبيا وصحته الجيدة. وفي منتصف التسعينيات، بعد فرار زوج ابنته حسين كامل إلى عمان بالأردن، قال لمجلس قيادة الثورة أن مشكلة حسين كامل أنه كان شديد الطموح، وأراد أن يكون نائبا له ثم خليفته بعد ذلك في حكم العراق. وأكد على أي حال أن نظام الحكم بالعراق ليس ملكيا وإنما جمهوري، وأن مجرد أن يكون حسين كامل فردا من عائلة صدام بزواجه من ابنته، لا يبيح له أن يتبوأ أي منصب عال رفيع[1].

كان دور صدام حسين في تشكيل تاريخ العراق على مدى ثلاثة عقود ونصف من الزمن حدثا مشهودا. ويصف الفصل السادس كيف نمت عبادة شخصيته وأسلوبه في العمل، إلا أن ذلك يستحق تسجيله هنا. كان صدام رجلا شديد التعقيد، وأية محاولة لتصوير شخصيته في جملة واحدة لابد أن تبوء بالفشل. وعلى الرغم من أنه كان قاسياً وذا تصميم على استئصال شأفة أية معارضة، قال كثيرون ممن عملوا بالقرب منه أنه كان مراعيا ومجاملا وكيِّسا. وتمدنا الأشرطة الصوتية المسجلة لاجتماعات مجلس قيادة الثورة واجتماعات قيادة الجيش وقيادات الحزب برؤية فريدة لما كان يحدث عن قرب، ؛ كان صدام يهيمن هيمنة كاملة على كل الاجتماعات دون استثناء، وكل حضور تلك الاجتماعات كانوا يحترمونه ويخشونه، ورغم ذلك كان مهذبا ونادرا ما قاطع متحدثا، وإن حدث، كان يعتذر على الفور. عند بداية أي اجتماع كان يمكن إدراك حالته المزاجية التي هو عليها على الفور، ولم يجرؤ

---

(١) شريط صوتي مسجل للقيادات العليا، دون تاريخ محدد، ولكن من الواضح أنه كان بعد فرار حسين كامل للأردن في صيف عام ١٩٩٥، مركز سجلات أبحاث الصراع.

أي أحد على مناقضة أو اعتراض ما يقول مما يمكن أن يثير حفيظته وغضبه لو كان في حالة مزاجية سيئة. ومن جهة أخرى، كان في الأغلب الأعم يبدو مرحا وودودا، ويأمر بتوزيع السيجار الفاخر على كل الحضور، ويميل إلى أن يحكى الحكايات والنوادر والفكاهات، ويشجع الآخرين على أن يحذوا حذوه. في بعض الأحيان كان يركز على شأن ما بالتفصيل لوقت طويل ثم يظهر عليه فجأة الضجر والملل، وفي الحال يتم تغيير الموضوع أو تجاهله.

ودون أي شك كان صدام حسين لا يرى في نفسه أنه قائدا فقط، بل أيضاً أبا للأمة العراقية وأبا لعائلة البعث. كان على اقتناع تام أن لا أحد غيره يمكنه أن يفهم الشعب العراقي أو يدرك تطلعاته العميقة. وعلى الرغم من أن ذلك كان صحيحا إلى حد ما، وعلى ضوء تمكنه وبراعته في فن الهيمنة على الجماعات المختلفة وإدارته للعراق كما لو كانت إقطاعية شخصية رهن يمينه، إلا أن غريزته وبصيرته كانتا تخونانه أحيانا، كما تشهد بذلك الانتفاضة التي شبت بعد حرب الخليج الأولى عام ١٩٩١.

وتصدى صدام حسين لنضالاته وهزائمه بثبات كامل وهيمنة قوية، ويرجع ذلك في جانب منه إلى قوة شخصيته من ناحية كما يرجع في بعض منه إلى أوهامه الفكرية التي كانت تسيطر عليه. وأقنع نفسه (وشعبه) أنه انتصر في حربه ضد إيران على الرغم من الخسائر الهائلة في الأرواح والعتاد والأموال. وعند نهاية حرب الخليج الأولى واجه ما كان يبدو وكأنه نهاية نظام حكمه، ولكن الحظ وقف إلى جانبه، وتركه الأميركيون في الحكم. وعلى الفور حول الموقف لصالحه بأن ادعى لرفاقه أنه لا يوجد بلد آخر في العالم باستثناء العراق يمكنه أن يواجه ثلاثاً وثلاثين دولة أخرى دون أن يتعرض لدمار كلي. وعلق في أحد اجتماعات مجلس قيادة الثورة بأن مصر، أكبر دولة عربية، لم تكن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لتتحمل مثل تلك الهجمة التي واجهها العراق لأكثر من أسبوعين فقط، بينما لم يتمكن العراق فقط من الصمود، بل راح أيضاً «يقطع رؤوس الخونة بعد انتهاء الحرب»[١].

وجرح صدام جرحاً نفسياً عميقاً حين فر حسين كامل للأردن عام ١٩٩٥، ولاحظ كثيرون ممن يعرفونه أو يعملون معه تغيرا جوهريا في شخصيته بعد تلك الحادثة: فقد أصبح أكثر إحساسا بجنون الاضطهاد وأقل ثقة في أي شخص كان، يميل أكثر للعزلة وأقل اهتماما بالتفاصيل. وبعد حادثة الفرار، راح يعتذر لكل من يحدثهم عن سلوك حسين كامل كوزير في حكومته أوعضو من أعضاء أسرته. ولكن مرة أخرى نجده يستفيد من الموقف الجديد، قائلاً لمستمعيه أنه يعرف ويدرك جيداً أنهم كانوا يولون حسين كامل احتراما لأن: «لديكم كثير من الحب والاحترام لي [لصدام حسين]، وأنكم اعتقدتم أنكم تقومون بالتصرف الصحيح»[٢].

كانت علاقته بحزب البعث متعددة الأبعاد؛ فقد رأى في نفسه ـ كما كان يردد كثيراً ـ «إبنا للحزب» ويدعى أنه لم يتوقف أبداً ولا للحظة واحدة عن الإيمان بالبعثنة. ومن جهة أخرى، كان قائدا للحزب من عام ١٩٧٩ واحتاج الحزب لدعم وتقوية مكانته الشخصية ومنصبه لتكريس عبادة شخصية القائد الزعيم. وفي الواقع المعاش، لم يكن هناك أبداً أي تنافس أو صراع بين الحزب وصدام حسين، وأدى التعايش إلى فائدة متبادلة للطرفين.

---

(١) شريط صوتي مسجل لاجتماع للقيادات العليا يتحدثون إلى صدام حسين، التاريخ غير محدد، ولكن من المحتمل أنه كان بعام ١٩٩٢، مركز سجلات أبحاث الصراع.

(٢) شريط صوتي مسجل لاجتماع بين صدام حسين وكبار العاملين في وزارة التصنيع الحربي، والذي رأسه حسين كامل قبل فراره، والتاريخ غير محدد، ولكن يحتمل أنه كان في آخر صيف ١٩٩٥، مركز سجلات أبحاث الصراع.

أما التساؤل حول ما إذا كان من الممكن أن ينهار نظامه دون حدوث غزو ٢٠٠٣، فمن الواضح أنه ليس إلا تساؤلا افتراضيا بحتا ولكنه هام في سياق فهمنا لتركيبة النظام البنائية وقدرته التي أظهرها على الاستمرار في الحكم لزمن طويل. وعلى الرغم من أنه من الممكن ألا نعرف إجابة للتساؤل على وجه اليقين، إلا أنه من المشكوك فيه أن الحزب كان سيتحلل ويتفكك وينهار من تلقاء ذاته. داخليا، كان صدام حسين ناجحا في السيطرة على عناصر السلطة الكبرى. ففي داخل الحزب والدائرة الداخلية من المسؤولين المحيطين به مباشرة لم يكن يوجد متنافسون يعتد بهم لينازعوه السلطة، وكان من الواضح أن أي أحد لم يحز قدرا كافيا من السلطة ليتحداه. وأخيراً، من المهم أن نتذكر أن الاقتصاد العراقي مع حلول عام ٢٠٠٠ كان قد بدأ في التعافي، كما كانت بنية البلاد الأساسية قد اقتربت على نحو ما من استعادة الحالة التي كانت عليها قبل حرب الخليج الأولى.

ومن النواحي الهامة في العراق، كما في كل النظم الاستبدادية المماثلة، أن حياة الغالبية العظمى من العراقيين الذين لم يكونوا ضحايا مباشرين لاستبداد النظام، كانت أكثر طبيعية من نوع الحياة المتوقعه تحت وطأة نظم مستبدة مماثلة[1]. وعلى عكس النظم الشيوعية التي كانت سائدة في أوروبا الشرقية، لم يتقلص القمع مع وصول النظام لمرحلة النضج والتمكن والسيطرة، وتميز بممارسة العنف ضد أي معارضة حتى آخر لحظاته. وربما يعود ذلك جزئيا للأحداث والأحوال المتقلبة التي سادت العراق. وعلى وجه التخصيص في عقدي الثمانينيات والتسعينيات، والتي كانت تختلف كليا عن الاستقرار الذي ساد في

(١) انظر النتيجة ذاتها التي توصل إليها أوفيري عن الشعب الذي عاش تحت حكم ديكتاتورية هتلر وستالين. أوفيري: «الديكتاتوريون»، صفحة ٢٠٩.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شرق أوروبا في ذات العقدين.. ومن ثم، لم تكن هناك أسباب قهرية تدفع الدائرة المحيطة للإطاحة بنظامه. في ذات الوقت، كانت كل جماعات المعارضة العراقية التي تعمل من الخارج قد أضعفت أو تم اختراقها، مما قلص من احتمالات الإطاحة بالنظام. لو كان من الممكن اغتيال صدام حسين، فإن ذلك لم يكن ليتأتى لذلك أن يحدث إلا على يد شخص لصيق به، وكان ذلك بالضرورة مستحيلا بسبب إحكام التأمين من حوله وتشدد الإجراءات الأمنية. كما لم تخدش أبداً هالة الهيبة القوية التي أحاطت بشخصه، ومع الاستماع للتسجيلات الصوتية لاجتماعات مجلس قيادة الثورة يبرز بوضوح شديد الانطباع بأنه كان مسيطرا ومهيمنا كليا على عملية صناعة واتخاذ القرارات الخاصة بالبلاد والعباد.

أما فيما يختص بالانهيار السريع للنظام مع بداية الغزو، فلابد أن نتذكر أن النظم الاستبدادية مثل نظام البعث العراقي كان يفرض هيمنته بالتسيد والقوة، وأن الضعف الكامن في مثل تلك النظم لا يتضح إلا بعد انهيارها. كما لم يتضح غياب التماسك في الاتحاد السوفييتي ودول أوروبا الشرقية الشيوعية إلا بعد سقوط سور برلين في عام ١٩٨٩، وتوقع بعض المحللين بأن تلك النظم ستنهار بعد سقوط سور برلين. كان التيقن من أن قاعدة الصناعة العراقية قد أصيبت بأضرار بالغة وأن القوة العسكرية النظامية والميليشيات العسكرية الشعبية ليس لها قوة فعلية تهديدية كما كانت تبدو قبل عام ٢٠٠٣ قد جاء متأخرا ولم ينقذ العراق من دمار الغزو والكوارث التي ترتبت عليه.

خلال سنين حكم حزب البعث، أضاع العراق فرصة تاريخية ليصبح دولة ناهضة متطورة يحصد مواطنوها عوائد وثمار ثرواتها الطبيعية وعلى رأسها النفط. وبدلا من ذلك، شهدت البلاد تحت قيادة صدام حسين أقصى آيات العنف، ودمرت بنية البلاد الأساسية بسبب حروبه غير

المبررة والصراعات التي خلقها في المنطقة. لم أجد أية إحصائيات عن الأعداد الكلية للعراقيين الذين قتلوا والذين أصيبوا في خدمة بلدهم، أو حصر بأولئك الذين قتلوا بسبب استبداد النظام خلال الأعوام الخمسة وثلاثين التي قضاها النظام في الحكم. ورغم ذلك، سيبدو من غير الواقعي افتراض أن البندين السابقين قد قتل فيهما مئات الآلاف، في بلد يبلغ عدد سكانه حوالي ١٥ مليون نسمه فقط خلال تلك المرحلة من مراحل تاريخه[١].

اقتصاديا، انزلقت البلاد للخلف، وباستثناء عقد السبعينيات، أصبحت حياة الناس بالعراق أشد بؤسا مما كانت عليه قبل حكم حزب البعث. وتحت إغواء ثروات العوائد النفطية، توسع النظام في عسكرة الدولة واستنفذ تلك الثروات ومواهب شعبه في حربين عظميين. كان يدعم وهم النمو الاقتصادي تدفق مستمر لعوائد النفط، بطريقة لا تختلف عن كثير من الدول النفطية الثرية. وبحلول عام ٢٠٠٣ كان قد حل بالعراق كثير من الوهن والضعف، وحين فرض الأمريكان تغييرا في نظام الحكم، ضاعف من انهيار وتفكك مؤسسات الدولة عملية التنصل الواسعة والسريعة من الانتماء لحزب البعث إضافة للقرار الأميركي السيئ بحل الجيش[٢] العراقي.

تغيرت سياسة عراق صدام حسين بالولايات المتحدة تغيرا جوهريا على مدى الزمن. وكما شرحنا في المقدمة، لم يكن صدام حسين يرى

---

(١) كان عدد سكان العراق حوالي ١٠ مليون نسمة في عام ١٩٧٠ وحوالي ٢٥ مليون نسمة في عام ٢٠٠٠، انظر البنك الدولي، المؤشرات الاقتصادية (١٥ نوفمبر ٢٠١٠).

(٢) لمناقشة انهيار المؤسسات من وجهة نظر اجتماعية، انظر مارك جارسيلون: «تراجيديات انهيار المؤسسات في روسيا السوفييتية والعراق المعاصر»، «النظرية الاجتماعية، المجلد ٢٤، رقم ٣ (سبتمبر ٢٠٠٦)»، صفحات ٢٥٥ ـ ٢٨٣.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في الولايات المتحدة خصماً مناوئاً على الدوام. وفي الحقيقة، تمتعت الدولتان بعلاقة من التعاون القوي نسبيا في عقد الثمانينيات، حين باعد صدام حسين بين العراق والاتحاد السوفييتي ودول شيوعية أخرى مثل ألمانيا الشرقية. بل أن بعض المراقبين يزعم أنه هرب من العراق بعد محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم الفاشلة بمساعدة من المخابرات المركزية الأمريكية والمخابرات المصرية[1]. ولا يوجد، على أي حال ما يؤكد ذلك من مصادر عراقية ولا من مصادر أمريكية. وأصبحت العلاقة، بالطبع، شديدة العداء بعد هزيمة العراق في حرب الخليج في عام ١٩٩١ وتكرار قصف المنشآت العراقية في عقد التسعينيات بغارات جوية أمريكية وبريطانية.

وظهر رد فعل العراق على الهجمات الإرهابية التي وقعت على الولايات المتحدة في الحادي عشر من سبتمبر بشكلين مختلفين: ففي البداية ظهر ابتهاج فوري ومشاعر من الشماته بأن أميركا قد نالت ما تستحقه، ثم ظهر بعد ذلك رد فعل أكثر عقلانية متوقعا أن تغير الولايات المتحدة من سياستها تجاه بغداد وأن تتيقن من أن العراق، النظام العلماني الذي قاطع واشنطن، يمكن أن يكون حليفا وموضع ثقة الولايات المتحدة في محاربة التطرف الإسلامي. وذلك يعد مثالا كلاسيكيا على إساءة صدام حسين قراءة الإشارات، فقد قلل كثيراً في تقديره لردود الفعل النفسية لحوادث ١١ سبتمبر على الأميركيين، وبدلا من إرسال إشارات حميمة صادقة يعبر فيها عن إرادته ورغبته في التعاون، ظل يتعامل باستعلاء وصلف في عدائه لأميركا وشنه لحروب بلاغية ضدها.

---

(١) إيفيجيني بريماكوف: روسيا والعرب: ما خلف المشاهد في الشرق الأوسط من الحرب الباردة حت الآن (نيويورك: أساسيات، ٢٠٠٩)، صفحة ٦٩.

أما في مسألة الطائفية والعقيدة الدينية، فلا تكشف أنماط الاستمارات العديدة المختلفة الموجودة بالأرشيف عن وجود أي فقرة تستقصي عن عقيدة مقدم الطلب أو من هم موضع اشتباه إن كان سنيا أو شيعيا، حتى بعد انتفاضة عام ١٩٩١. أول انطباع لي حول تلك المسألة أن سلطة عليا قد أمرت بإقصاء مثل تلك الأسئلة، وأن أغلب أنواع الاستمارات كان يطلب من مقدمها ذكر اسمه الكامل، ومحل ميلاده، وعنوان سكنه وهو ما يمكن أن يشير إلى طائفته. ورغم أن ذلك قد يكون صحيحا إلى حد ما، إلا أن أسماء كثيرة لم تكن ذات دلالة محددة على انتماء طائفي بعينة فقد كانت كثير من الأسماء مشتركة بين كل الطوائف، كذلك كانت الأسماء المختلطة والعائلات المختلطة موجودة بكثرة وعلى الأخص في المدن الكبرى مثل بغداد. وحتى مع وجود أمر كهذا، لا أستطيع أن أفهم لماذا لم يكن يشار إلى الطائفة في الشرائط الصوتية المسجلة للاجتماعات الخاصة للقيادة العراقية حين وقعت الانتفاضة الشيعية ـ أو كما أطلقوا عليها، «زمن الخيانة» ـ ولم تناقش الانتفاضة أبداً على أنها طائفية. ويذهب أحد التفسيرات إلى أن من بين صفوف القيادات العليا للحزب، والجيش، والمؤسسات الأمنية، كان يوجد بعض الشيعة الذين ظلوا يخدمون النظام حتى عام ٢٠٠٣، وكما رأينا مما سبق، كان صدام حسين يعلى من قيمة الولاء للنظام أكثر من قيمة الولاء الديني. وعلى أي حال، هناك وثائق عرضت في الفصل الثاني يثبت منها أن أصل العضو، أو مقدم الطلب، أو المشتبه بولائهم يشار إليهم بانتمائهم مثلاً إلى «تبعية إيرانية».

وبالفعل، كان اضطهاد صدام حسين وقمعه للشيعة ينبع من اعتقاد خاطئ بأن كثير من الشيعة العراقيين قد يقعون تحت تأثير عقيدة عدوه اللدود آية الله الخميني، ومن ثم فهم يشكلون تهديدا محتملا لنظامه. وتعمقت مخاوف صدام حسين من إيران ومن الخمينية حتى أصبحت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أشد وطأة عليه من عدائه لأميركا أو حتى لإسرائيل وظلت ملازمة له حتى وقت الإطاحة بحكمه. ويعتقد كثير من العليمين ببواطن الأمور والمحللين أن أحد أسباب عدم وجود مقاومة قوية وحقيقية للغزو أن صدام حسين كان قلقا جداً من نشوب انتفاضة أخرى في الجنوب تدعمها إيران، أو من وقوع تمرد عام أكثر من خشيته من قوى الغزو ولذلك لم يركز في الدفاع عن المواقع الاستراتيجية العراقية. ونما ذلك على هيئة جنون الاضطهاد البعثي خوفا من الإطاحة بالحزب من السلطة للمرة الثانية، لذلك ظل الحزب يضع خططاً من عقد السبعينيات لكيفية استعادة السلطة إن حدث ذلك.

كان من أبرز أسباب الانقسام والشقاق في عراق ما بعد حزب البعث يدور حول كيفية التعامل مع أعضاء حزب البعث السابقين في عهد صدام، وكذلك المبلغين المعروفين والوشاة ومخبري الحزب. وأصبح مصطلح «بعثي» مصطلحاً «مطاطاً وحارقاً لإسم وسمعة من ينسب إليه، وأصبحت حالة عدم اليقين والارتباك المترتبة على اتهام شخصية عراقية مرموقة بانتمائها في السابق لحزب البعث سمة بارزة في النزاعات والمشاحنات حول مدى مصداقية الانتخابات البرلمانية العراقية التي أجريت في مارس ٢٠١٠»[١]. كانت عضوية حزب البعث قد قسمت العراق من عام ٢٠٠٣، فقد كان هناك افتراض بأن كل من كان عضوا بالحزب شارك بالضرورة في جرائمه خلال فترة حكمه الطويلة. وكما أظهرت كثير من الأبحاث، فبحلول نهاية العام ٢٠٠٢، كان للحزب ٤ ملايين عضو، غير أن الأغلبية العظمى منهم لم تكن نشطة حزبيا ولم تكن قد حازت على بطاقة الحزب، ومن المحتمل أن من كانوا يقومون

(١) أنتوني شديد: «مصطلح بعثي الملتهب، مرشحو السجون في العراق»، نيويورك تايمز، ٢٠ يناير ٢٠١٠.

بتنفيذ سياسة الحزب لا يزيدون عن ٣ إلى ٤ بالمائة. إضافة لذلك، حتى بين تلك النسبة المنخفضة، لا يوجد دليل من أي نوع أنهم جميعاً أو حتى بعض منهم كان مشاركا في ممارسة العنف ضد الشعب. وقد أثبت تاريخ ما بعد الشيوعية أن المعاقبة الجماعية لكل أعضاء الحزب الشيوعي السابقين لا مسوغ له وغير عادل.

هذا الكتاب أظهر أن غاية وهدف غالبية المواطنين العراقيين كان ينحصر في المضي قدما في حياتهم والتكيف مع الأوضاع السائدة، وأنه انصياعا للضرورة كان عليهم أن يكيفوا أوضاعهم مع سياسة الثواب والعقاب التي فرضت عليهم بغض النظر عن العمر والحالة الاجتماعية/ الاقتصادية. من غير المعقول أن نحكم على الشعب العراقي بقسوة، بسبب استحالة تفهم ظروف الإكراه والإجبار والقمع التي عاشوا في ظلها، أو تأثير اضطرابات ثلاثة عقود تحملوها وعايشوها. واستنادا إلى أرشيف النظام ذاته، فنحن نعرف الآن أن النظام الشمولي من الاستبداد والقمع والمراقبة كان سائدا بالفعل، وأن آلافا كثيرة من العراقيين دفعوا الثمن باهظا برفضهم الانصياع والانحناء أمام إرادة حزب البعث. لقد عانى الشعب العراقي أشد المعاناة خلال حكم صدام، ولأن العنف لا ينجب لسوء الحظ إلا عنفا، فقد استمر الظلم والمعاناة بذات القوة والزخم من عام ٢٠٠٣ حتى الآن.

أملي أن المنظور التاريخي الذي تقدمه تلك الوثائق النفيسة لابد أن يعرفه كثير من العراقيين لتعلم دروس غالية وقيمة عن الاستبداد ومدى الحاجة إلى تجنب مزيد من السعي للانتقام. فمن المهم جداً الآن التطلع إلى المستقبل حين نتعامل مع ميراث صدام حسين، أو كما عبر عن ذلك ببلاغة أحد كبار المسؤولين العراقيين الذي تم تعيينه بعد الغزو قائلاً:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لقد كان [صدام حسين] هناك، وحكم، وأثر [هكذا] على العالم. ولكنه كان جزءاً من تاريخنا. كان جانبا سيئاً من تاريخنا، ولكنه صنع فارقاً هائلاً، سواء أحببنا ذلك أم لم نحببه. لسنا بحاجة لدفن ميراث تلك الفترة. نحن بحاجة فقط إلى تذكرها، كل ما هو سيئ وكل ما هو جيد فيها ونتعلم منه الدروس والعبر. وأهم تلك الدروس على الإطلاق، أن الديكتاتورية يجب ألا تعود أبداً للعراق[1].

(١) موفق الربيعي، مستشار أمني وطني من ٢٠٠٤ إلى ٢٠٠٩، نقل عنه في شولوف «قرآن مكتوب بدم صدام حسين».

الملحق الأول:

البنية التنظيمية للأمانة العامة لحزب البعث (أمانة سرّ القطر)

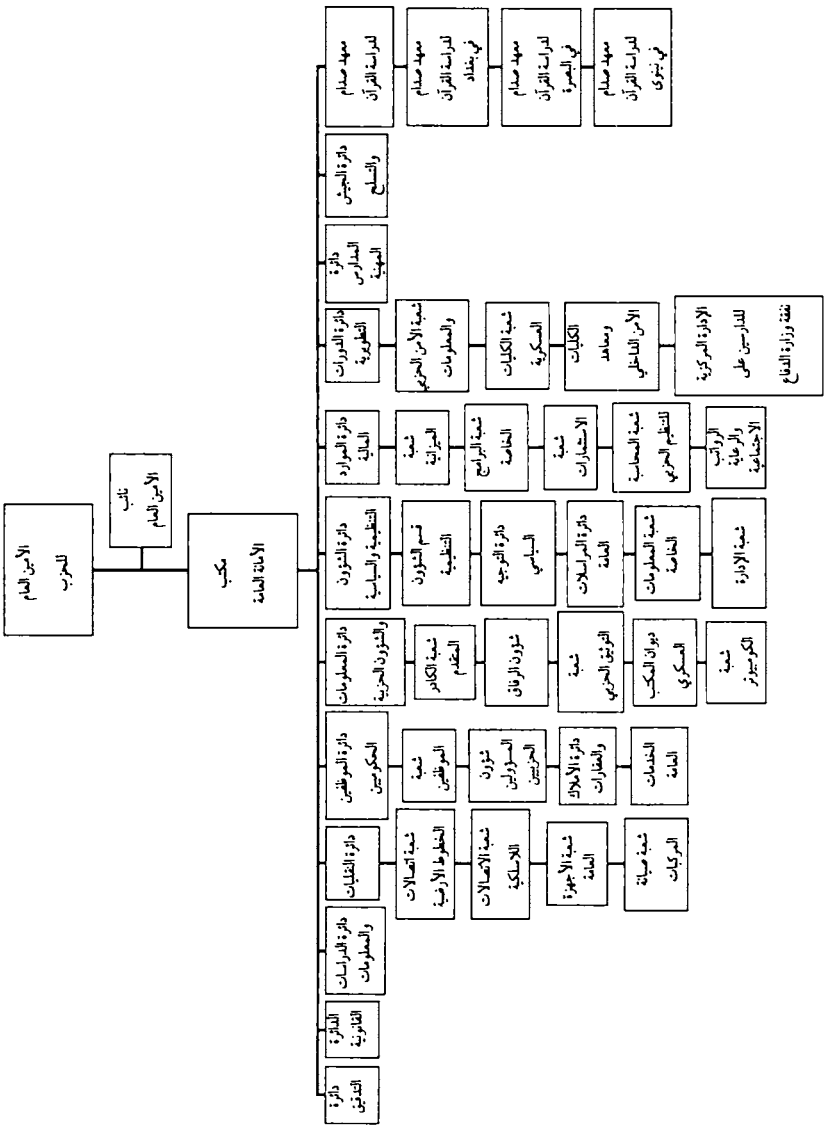

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الملحق الثاني:

إحصائيات حزب البعث اعتباراً من سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٢

اسم التنظيم	فرع	شعبة	فرقة	منظمة/ خلية	أمين سر	عضو فرع	عضو شعبة	عضو فرقة	أعضاء عاملون	أعضاء متدربون	المرشحون	الأنصار	المؤيدون	المجموع الكلي
بغداد/ الكرخ	٩	٥٧	٣٣١	٢٧٦٠	٨	١٠١	٥٦٤	٤١٩٨	٢٣٥١٧	١٨٣٦٣	٣٠٧٤	٧٣١٣٩	٢٠٨٥٤٧	٣٣١٥١١
بغداد / الرصافة	٧	٦٧	٣٨٦	٣١٨٧	٦	٨٤	٦٠٠	٤٦٠٦	١٩٦٨٦	١٧٧٣٣	٢٧٦٠	١١٩٣٦٥	٣٣٢٤١٤	٤٩٧٢٥٤
نينوى	٥	٥٠	٢٩٠	٢٥٣٩	٤	٧١	٥٠١	٣٨١٣	١٧٧٩٨	١٦٦٩٠	١٠٥١	٧١٠١٤	١٢٥١١٣	٢٣٦٢٥٤
صلاح الدين	٦	٥٧	٣٩١	٣١٨٨	٦	٨٢	٦٢٦	٤٥١٦	١٩٠٩٠	٢٣٣٨٣	٣٥٣٤	٥٠٤٣٦	٧٣٦١٧	١٧٥٢٩٠
التأميم (كركوك)	٥	٣١	١٩٦	١٥٦٨	٥	٥٢	٣١٥	٢٢٤٤	٩٥٨١	٩٠٦٨	٧٩٩	٤٤٦٦٧	١٢٦٣٥٦	١٩٣٠٨٧
ديالى	٦	٣٤	٢٠٠	١٤٥٣	٥	٥٥	٣٤٠	٢٣٠٢	٨٧٢١	١٧٠٠	٨٦٦	٥٧٣٥٢	١٤٤٠٣٥	٢٣١٢٧٦
الأنبار	٢	٢٨	١٨٤	١٥٠٢	٢	٤٠	٢٩٤	٢٣٣٠	١٤٤٧٤	٨٣١٥	١٢٣٥	٤٥٨٧٢	٨٠٠٩٦	١٥٢٦٥٨
واسط	٤	٣١	١٦٥	١٣٢٦	٤	٤٧	٢٨٢	١٩٤٣	٩٩٥٧	٦٤٦٢	١٣٥١	٤٨٨٩٥	١١٣٦٢٤	١٨٢٥٦٥
ميسان	٣	٢٠	٩٣	٤٧٠	٣	٣٣	١٧٥	٨٢١	٣٧٨١	٣٦٣٠	٠	٢٣٠٦٧	٦٤٨٠٩	٩٦٣١٩
ذي قار	٤	٣٥	٢٠٣	١٤١٧	٤	٣٥	٣٤٩	٢١٦٢	١٤٠٩٨	١١٠٧٢	١٦٢٠	١٣٦٠٧٧	١٦٦٢٥٨	٣٣١٦٩٣
المثنى	٢	١٣	٨٧	٤٦٨	٢	٢٢	١٣٩	٧٣٧	٣٣٥١	٤٣٧٠	١٧٩٧	٣٠٩٦٤	١١٧٢٥٨	١٥٨٦٤٠
بصرة	٥	٤٤	٢٣٧	١٧٩٩	٥	٦٦	٤١٤	٢٧٤٣	١٢٠١٦	١٢٤٦٣	١١٦١	١٩٦١١٧	٢٩٠٩٠٤	٥١٥٣٩٤
النجف والقادسية (الديوانية)	٤	٢٧	١٧٠	١٤٤١	٤	٤٥	٢٨٠	١٧٣٩	٧٠٧٣	١٢٥٤٣	٢٦٤	٥٦٧٢٣	١١٦٩٣٨	١٩٥٦٠٩
كربلاء	٢	١٧	٩٢	٥٦٨	٢	٢٦	١٥٩	١٠٥٤	٣٢٣٨	٤٨٠٦	٣٣٦	٢٢٩١٥	٦٠٣٩٢	٩٢٩٢٨
أربيل	٤	٢٦	١٧٠	١٣٨٨	٤	٤٥	٢٧٤	١٩٢٠	٦٤٩٨	١٦١٦٣	١٣٢٨	٣٦٥٧٨	١١١٩٩٣	١٧٤٨٠٣
النقابات المهنية والآخرون	١	٣	١٨	١١٥	١	١١٣	٣٤	١٩٤	١٠٢٢	٧٨	٢٠	٤٧٩	٢٣٨	٢١٧٩
المكتب العسكري	لا يوجد	٨٢	٥٧٤	٧٨٧٣	١١	٩٢	٧٨٢	٨٢١٥	٤٩٦٧١	٧١٣٤٢	٦٠٤٦	٩٩٥٥١	١٩٥٩٨٣	٤٣١٧٨٣
المجموع الكلي	٦٩	٦١٢	٣٧٨٧	٣٢٨٥٢	٧٦	١٠٢٧	٦١٢٨	٤٥٥٣٧	٢٢٣٦٦٢	٢٥٤٠٨١	٢٧٢٤٢	١١١٣٢١١	٢٣٢٨٠٨٠	٣٩٩٩٠٤٤

التأميم، تشمل إحصاءات (منطقة الحكم الذاتي) في الشمال.

المصدر: ملفات القيادة القطرية للحزب.

الفهرس

اعتراف بالفضل ٧

مقدمة ١١

الفصل الأول: صعود حزب البعث ٣٧

الفصل الثاني: بنية الحزب وتنظيمه ٦٧

بنية الحزب ٦٧

وظائف الحزب ٧٤

الانضباط في الحزب ٨١

العضوية وتجنيد الأعضاء ٨٦

العمر والنوع في حزب البعث ٩٧

حياة عضو في الحزب ١٠٣

التوجيه السياسي في الحزب ١٠٨

الفصل الثالث: فروع حزب البعث ١٢٥

مهام الفروع ١٢٦

https://telegram.me/maktabatbaghdad

١ ـ الأنشطة التنظيمية ١٢٦
٢ ـ الأنشطة الثقافية ١٣٣
٣ ـ العلاقة مع الجماهير ١٣٦
٤ ـ الأنشطة السياسية والأمنية ١٤٣
٥ ـ تمويل الفروع ١٥٠
التنافس بين الفروع ١٥٢
حياة وحدة حزبية ١٥٨
الفصل الرابع: التنظيمات الأمنية في عهد البعث ١٦٧
جهاز الأمن الخاص ١٧٣
جمع المعلومات ١٩٥
المبلِّغُون والوشاة ٢١٢
الفصل الخامس: حزب البعث والجيش ٢٢٥
المكاتب العسكرية ٢٢٧
الكليات العسكرية وبعثتها ٢٣٣
صدام حسين قائداً عسكرياً ٢٣٨
الثواب والعقاب ٢٤٢
المراقبة والتتبع ٢٤٩
الجيوش الخاصة ٢٥٣
الجيش الشعبي ٢٥٤
جيش القدس ٢٥٦

فدائيو صدام ٢٦٠
الحرس الجمهوري الخاص ٢٦٢
الفارون من الجيش، وأسرى الحرب، والشهداء ٢٦٤
الفارون من الجيش ٢٦٤
أسرى الحرب ٢٧٠
الشهداء ٢٧٢
الغزو في ٢٠٠٣ ..... ٢٧٦
الفصل السادس: عبادة شخصية صدام حسين ٢٨١
صدام حسين: الرجل والقائد ٢٨٢
بناء عبادة الشخصية ٣٠٣
دور الحزب ٣٢١
الفصل السابع: السيطرة والمقاومة ٣٣٣
الخوف والعنف ٣٣٣
الهيمنة ٣٤٧
الأوسمة والمكافآت ٣٥٧
العقوبات ٣٧٤
المقاومة ٣٨٢
الفصل الثامن: البيروقراطية والحياة المدنية تحت حكم البعث .. ٣٩٣
البيروقراطية وصناعة القرار ٣٩٣
إدارة اقتصاد البلاد ٤٠٨

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عقد السبعينيات ٤١١
عقد الثمانينيات ٤١٣
من بدايات عقد التسعينيات حتى ٢٠٠٣ ..... ٤١٩
الاتحادات والنقابات المهنية ٤٣١
حزب البعث والمرأة ٤٣٨
حزب البعث والدين ٤٤٨
الأطفال، والشباب والطلاب تحت حكم البعث ٤٦٣
الخلاصة ٤٧٣
الملحق الأول:
البنية التنظيمية للأمانة العامة لحزب البعث (أمانة سرّ القطر) .. ٤٩١
الملحق الثاني:
إحصائيات حزب البعث اعتباراً من سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٢ ... ٤٩٢

هذا الكتاب

هذا الكتاب يعد محاولة لفهم كيفية العمل الداخلي لدولة عربية معاصرة من خلال السجلات المفصلة أكثر من كونه مستمدا من مقالات الجرائد والمصادر الثانوية الأخرى. لأول مرة نجد أن بإمكاننا أن ننقب وندلف إلى قلب وأحشاء حزب أوحد حاكم لدولة عربية وقعت في قبضة أيديولوجية سلطوية. ولا يعد هذا الكتاب تاريخا لحزب البعث ولا للعراق أيضاً، ولكنه دراسة لأنشطة الحزب وحالة إدارته المزاجية حين حكم البلاد في الفترة الممتدة ما بين ١٩٦٨ حتى ٢٠٠٣.

مكتبة بغداد

ISBN 978-9933351144

https://telegram.me/maktabatbaghdad